

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الثاني

البقرة من الآية ٢٠٤ إلى نهاية آل عمران


بسم الله الرحمن الرحيم

أَصْنَافُ النَّاسِ أَرْبَعَةٌ

٢٠٤- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ[1] أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾

في هذه الآية والآيتين بعدها بالإضافة إلى الآيات الثلاث السابقة في ربع الحزب السابق أربعة أصناف من الناس؛ صنفان سبق ذكرهما في الآيات الثلاث قبل نهاية الحزب السابق، وصنفان في هذه الآيات:

الصنف الأول: من يسعى للدنيا وحدها

وذلك أنَّ مِن الناس صنف يسعى في طلب شهوات الدنيا وملذاتها، دون النظر إلى ما في الآخرة من جزاء وثواب، فهو إن درس يدرس للشهادة، لا لطلب العلم، وإن توظف يتوظف للحصول على المال، لا للقيام بواجب المسؤولية والأمانة، تجاه نفسه وتجاه إخوانه المسلمين وغيرهم، وهو يسعى في تحصيل شهواته وكرسيه ومتاع الحياة الدنيا، ثم هو لا يعتد بشيء مما أعده الله تعالى له في الآخرة.

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه في الآيات السابقة: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ وطلب الدنيا مِن حِلِّها غير مذموم في حد ذاته، ولكنَّه مذموم إذا انفصل عن الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود ١٥، ١٦]

الصنف الثاني: من يسعى للدارين

وصنف آخر من الناس يسعى للدنيا ويسعى للآخرة، يسعى لطلب العلم، ويسعى للوظيفة، يسعى للحصول على الزوجة، وعلى تربية الأولاد، وعلى المتاع والمال من طريقه المشروع، وهذا من حسنة الدنيا، أما حسنة الآخرة فهي الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم ورضوان الله تعالى، ولذلك فإن هذا العبد يقوم بما افترضه الله تعالى عليه، ويُكثر من النوافل، والأعمال

(١) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وخلف، وضمها الباقون.

الصالحة، ويُحل ما أحل الله، ويُحرم ما حرم الله، يطلب الدنيا، ويطلب ثواب الله في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي إذا فرغت من أعمال الدنيا فابذل أقصى جهدك لعمل الآخرة وتحصيل ما عند الله من عظيم الجزاء.
قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ وهذا من أفضل الأدعية، ومن جوامع الكلم، كقوله ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتُّقىٰ والعفاف والغنى) ولوجود هذه الآية في ثنايا الحديث عن مناسك الحج والعمرة، فإنه يشرع الدعاء بها بين الركنين: اليماني والأسود.

وهذا الصنف من الناس يُثاب على سعيه للدارين خير الجزاء ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

والنبي ﷺ بيّن عاقبة هذين الصنفين من الناس في حديث شريف جاء عن أنس ﷺ حيث يقول ﷺ: **«من كانت الآخرة همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»**(١)

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء]

الصنف الثالث: منافقون: وقد وصف الله هذا النوع من الناس بخمسة أوصاف:

الوصف الأول: أنه **حُلو اللسان، معسول الكلام**، إذا قابلك يبتسم لك ابتسامة عريضة، ويأخذك في أحضانه؛ ابتغاءَ حظوظ الدنيا، لا سِيَّمَا إن كنتَ مسؤولًا أو صاحبَ جاه، أو كان له عندك مصلحة، أو فائدة يرجوها فإنه يهشُّ ويبشُّ لك، ويثني عليك ويمدحك، ثم إذا انصرف عنك أو تحولْت إلى المعاش، أو قُضيتْ مصلحته، تراه بوجه آخر، فهو شخص ينافق، ذو وجهين، صاحب حلاوة في اللسان.

ذلكم هو المنافق الذي يُظهر ما لا يُبطن، فيكون كريمًا وصديقًا حميمًا عند الحاجة،

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٠٥). وانظر تخريجه في سورة هود الآية ١٥.

وينعكس حاله عند عدم الحاجة، وأمثاله كثير إلى يوم القيامة ممن لهم ظاهر وباطن، يخدعون الناس وينافقونهم ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

الوصف الثاني: **أنه يؤكد كذبه بالأيمان المغلظة**، كما قال تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ يقول لك: يَشْهد الله ويَعلم، أني أحبك، فهو يُشهد الله أنه صادق، وهو كاذب في دعواه، ويؤكد كلامه بالحلف الموثّق؛ لأنه يعرف مِن داخله أنه ينافق، وأن الناس تتشكّك في قوله.

فهو يخبر أن الله تعالى يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك ولو كان صادقًا لتوافق القول والفعل.

الوصف الثالث: **أنه فاجر في خصامه**، وهذا ما قاله الله سبحانه عن المنافق مبينًا حقيقته وفاضحًا أمره ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ فاجر مخاصم لدود.

وفي الحديث عن عائشة ﵂: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[(١)]

منافق شديد العداوة للمسلمين، كاذب في قوله وفعله.

وفي الأخنس نزل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة] وفي الوليد، نزل قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ إلى ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

وقد بيّن النبي ﷺ أن المناق (إذا خاصم فجر) فهو يسيء ولا تلين له قناة، ولا يقبل التنازل أو الرجوع إلى الحق بل تجده صعْبًا، لا ينقاد للحق، بل يكابر ويجادل بالباطل ويعاند، وقد يعلم في قرارة نفسه أنه كاذب ولكنه لا يريد أن يعترف.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾

دخل الأخنس (المنافق) على النبي ﷺ وأشهد الله على محبته، ولما تولّى، أي خرج

(١) البخاري برقم (٢٤٥٧، ٤٥٣٣، ٧١٨٨) عن عائشة، و«تفسير عبد الرزاق» (٤٧/١) و«المسند» (٣٤٢٧٧) ومسلم (٢٦٦٨) والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٣٥).

من عنده، مرّ بزرع قوم ومواشيهم فأحرق الزرع وأهلك المواشي، وفيه نزلت الآية.

أي: أن المنافق إذا تولى وخرج من عندك أفسد في الأرض وأتى على الأخضر واليابس، وأعرض عنك بعد أن انتهت مصلحته ومهمته، أو تخلى عنك منصبك فإنه يقابلك بوجه آخر، معرضًا عنك، مفسدًا للأمور، يُوقع الضرر بك وبالآخرين ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، بالمعاصي ومضار العباد.

وقيل في معنى الآية: وإذا كان واليًا أو حاكمًا أو مسؤولًا وتولى أمرًا من أمور المسلمين فإنه يسعى في الأرض بالفساد ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ وهو الزرع والثمر والنبات ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ وهو الإنسان والحيوان ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب المعاصي ولا يحب قطع الطريق ولا إخافة المارة، وهكذا شأن الحاكم المستبد الذي يملأ الأرض فسادًا وجورًا وظلمًا.

والله سبحانه يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البُغض، وإن قال بلسانه قولًا حسنًا.

وقد وصف النبي ﷺ المنافق بأربع صفات كما في حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«أربع مَن كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**[(١)] وفي الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلًا على صدق ولا كذب، ولا على بر ولا فجور، حتى يوجد العمل الذي يصدقها.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ عَدَمُ قَبُولِ النَّصِيحَةِ

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

أي: أن المنافق إذا نُصح وَوُجه فإنه يأنف ويتكبر، ولا يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾. فهو يجمع بين المعاصي، وبين الكبر على الناصحين، وعدم قبوله للحق والعمل به.

(١) البخاري (٣١٧٨، ٢٤٥٩، ٣٤) ومسلم (٥٨) وأبو داود (٤٦٨٨) والترمذي (٢٦٣٢) والنسائي (٥٠٣٥).

قال ابن مسعود ﷺ: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول عليك بنفسك(١)

وقال رجل لمالك بن مغول: اتق الله، فسقط، فوضع خده على الأرض، تواضعًا لله ﷻ(٢)

قال ابن عباس ﷺ: أرى مَن إذا أُمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى مَن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل أخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي! فقاتلَه، فاقتتل الرجلان، قال عمر: لله بلادك (أي: لله درك) يابن عباس. يثني عليه في تأويل معنى الآيتين، وأنهما فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بشكل عام، واختاره ابن جرير في تفسير الآية(٣)

قال سبحانه في بيان سوء مصير مثل هؤلاء: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

أي: أن الفراش والمسكن والمستقر من النار، يكون فوقهم وتحتهم، كما قال تعالى:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ [الأعراف: ٤١]

وقال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]

وقال سبحانه ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾ [الزمر: ١٦]

فهم في عذاب دائم، ويأسٍ مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب.

ومما ورد في أسباب النزول

١- أنها نزلت في الأخنس بن شُرَيْق الثقفي، وكان حليفًا لبني زُهرة.

وسُمِّي الأخنس؛ لأنه خنس (أي: رجع) يوم بدر بثلاث مئة رجل من بني زُهرة، عن القتال مع النبي ﷺ.

كان حُلو اللسان، طيب الكلام، فصيحًا، حُلو المظهر، وكان يجالس النبي ﷺ

(١) الطبراني (٨٥٨٧) والبيهقي في «الشعب» (٨٢٤٦) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧١).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٢٤٧) عن سفيان.

(٣) الطبري (٣/ ٥٨٨).

ويقترب منه، ويُظهر له الإسلام نفاقًا.

دخل الأخنس على الرسول ﷺ يومًا يثني عليه، ويمدحه، ويُظهر له المحبة، ويحلف بالله على محبته، وأن قلبه يوافق لسانه، وأنه جاء يريد الإسلام، ويُشهد الله على صدق قوله، وهذا في غاية الجرأة على الله سبحانه.

فلما خرج هذا الرجل من عند النبي ﷺ مَرَّ ليلًا بزرع لبني ثقيف وحمُرُ لهم، وكان بينهم وبينه خصومة، فأحرق زرعهم، وأهلك مواشيهم، فأنزل الله سبحانه الآية فيه[(١)]

٢- وقال ابن زيد: كان رجل يأتي إلى النبي ﷺ فيقول: أيْ رسول الله، أشهد أنك جئتَ بالحق والصدق من عند الله، قال: يُعجِبُ الرسول بقوله، ثم يقول: أما والله، يا رسول الله، إن الله ليعلم ما في قلبي مثل ما نطق به لساني، فذلك قوله: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ قال: هؤلاء المنافقون، وقرأ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] بما يشهدون أنك رسول الله[(٢)]

٣- وروى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق في السَّرية التي أُصِيبتْ لرسول الله ﷺ بالرجيع، بين مكة والمدينة، وكان فيها عاصم ومَرْثَد، فقال هؤلاء المنافقون: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هَلَكُوا هكذا، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله يذم المنافقين، ويمدح أولئك النفر لِمَا أصابهم من الخير والشهادة[(٣)]، والآية عامة في هؤلاء وغيرهم.

٤- ومما يدل على عموم الآية في جميع المنافقين ما رواه الطبري وغيره عن محمد بن كعب القرظي عن نوف -وكان يقرأ الكتب- قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل، قوم يشترون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، يلبسون للناس لباس مُسوك (أي جلد) الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، فعليَّ

---

(١) يُنْظَرُ الأثر رقم (٣٩٦٢) من «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (١٩١٣، ١٩١٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير برقم (٣٩٧٠).

(٣) وقد أخرج ذلك ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٧٤) والطبري (٣/ ٥٧٣) وابن أبي حاتم (١٩١٠، ١٩٤١) عن ابن عباس.

يجترئون! وبي يغترون! حلفتُ بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيران.

قال القرظي: تدَّبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون، فوجدتها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] وقال: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد[١]

الصِّنْفُ الرَّابِعُ مِنْ النَّاسِ: الأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ

٢٠٧-﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ[٢] بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

هؤلاء هم الأخيار الموفَّقون الصالحون من عباد الله، نوعٌ يبيع نفسه طلبًا لمرضاة الله سبحانه ورجاء ثوابه، مؤمنًا به ﷻ، مجاهدًا في سبيله، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا يُثنيه عن ذلك أيُّ عرض من أعراض الدنيا، فهو يبيع نفسه لله تعالى، ويشتريها منه ربُّه بجنة عرضها السموات والأرض، وهو سبحانه خالقها ومالكها، ومحييها ومميتها، وهذا فضل منه سبحانه ورحمة وإحسان، فالمسلم يبيع نفسه في الدنيا بثواب الله في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . . . ﴾ [التوبة: ١١١]

أسباب النزول

١- قيل: إن هذه الآية نزلت في صهيب الرومي، فإنه حينما خرج مهاجرًا ليلحق برسول الله ﷺ في المدينة، اعترض المشركون طريقه، وقالوا له: لقد أتيتنا صعلوكًا حقيرًا لا تملك مالًا، ولا شيئًا، وها أنت ذا تريد أن تخرج من مكة، وتأخذَ هذه الأموال معك، والله لن ندعك تهاجر بمالك هذا، فمنعوه من الهجرة، وقتلوا نفرًا ممن كان معه، فقال لهم: أرأيتم إن خلَّيتُ لكم مالي ودللتكم عليه، أتتركوني؟ قالوا: نعم، ففعل ودلَّهم على ماله، فتركوه، ولحق بالنبي ﷺ، فلما رآه الرسول ﷺ حين وصل إلى المدينة قال ﷺ:

(١) الطبري برقم (٣٩٦٥) ويُنْظَر ما قبله، وهو في «تفسير سعيد بن منصور» (٣٦١) والبيهقي في «الشعب» (٦٩٥٦).

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (والله رءوف) بحذف الواو المدية التي بعد الهمز، وقرأ الباقون بإثباتها ممدودة.

«ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب» وفي رواية: **«ربح البيع أبا يحيى»**، وكانت كنيته أبا يحيى، وأنزل الله تعالى هذه الآية[١]

وقد لُقب صهيب بالرومي؛ لأن الروم أسروه في جهة الموصل، واشتراه بنو كلب، فكان مولاهم، وكان من المسلمين الأولين، وصار من أهل الثراء قبل الإسلام.

٢- وقال عكرمة: نزلت في صهيب بن سنان، وأبي ذر بن جندب بن السكن، أخذ أهلُ أبي ذر أبا ذر، فانفلت منهم، فقدِم النبيَّ ﷺ فلما خرج مهاجرًا، عرضوا له، وكان بمرِّ الظهران، فانفلت أيضًا حتى قدم على النبي ﷺ.

وأما صهيب بين سنان فأخذه أهله، فافتدى منهم بماله، ثم خرج مهاجرًا، فأدركه قنفذ بن عمير بن جدعان، فخرج له مما بقي من ماله وخلى سبيله[٢]

والآية تشمل كل مَن اشترى نفسه في طاعة الله، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٣- أخرج الطبري بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: بعث عمر جيشًا فحاصروا أهل حصن، وتقدم رجل من بَجيلَة، فقاتل فقتل، فأكثر الناس فيه يقولون: ألقى بيده إلى التهلكة! قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فقال: كذبوا، أليس الله ﷻ يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾[٣]

٤- وقيل: إنها نزلت في خبيب، وزيد بن الدّثِنَّة.

٥- أو نزلت في الزبير والمقداد وقيل غير ذلك، وعلى كل فالآية عامة تشملهم وتشمل غيرهم.

---

(١) يُنْظَرُ: ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٢٧) وما بعدها، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥١) وابن أبي حاتم (١٩٣٩) وابن عساكر (٢٤/ ٢٢٨) وفي رواية للطبري أن القائل: (ربح البيع) هو عمر ﷺ وقد نزلت هذه الآية فيه وفي أترابه إلى يوم القيامة.

(٢) «تفسير الطبري» برقم (٤٠٠١) والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٤٠) وابن هشام في «السيرة» (١/ ٢٩٥) والطبراني (٧٢٩٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلًا ورجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٠٥).

(٣) برقم (٤٠٠٤) من «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (١٩٤٠).

الْمُسْلِمُ يَأْخُذُ الإِسْلَامَ كُلَّهُ وَيُسَالِمُ عِبَادَ اللهِ

٢٠٨-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ(١) كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ(٢) ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾

وبعد تقسيم الناس تجاه مراتب الدين، وبيان أن أدناهم من يعجبك قوله وهو كاذب، وأعلاهم من يبيع نفسه لله ، دعا بعد ذلك جميع فئات المؤمنين أن يدخلوا تحت راية المسالمة والمصالحة ولا يكن بعضهم حربًا على بعض كما في الحديث: «**فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٣).

والدخول في السلم الذي هو شعار الإسلام، يقتضي الالتزام بتعاليم الإسلام، وتنفيذ جميع أحكامه وآدابه، ويعملوا بكل أوامره ونواهيه، ولا يكونوا ممن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

ومطلوب من المسلم أن يأخذ الإسلام كله،و يؤمن به جملة واحدة، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ولا يقيم الصلاة والصيام، ويترك الزكاة، ولا يصلي ويفتح أبواب الحانات و الخمارات وبيوت الرِّبا ،ولا يحج وهو لا يقيم الصلاة ولا يؤدي الزكاة، وإن كان هذاالإنسان مسؤولا عن مجتمعه فيجب عليه أن يكون الإعلام في بلاده متفق مع هَدْي الرسول و مناهج التعليم ، تشتمل على ما يُعلم من الدين بالضرورة، واقتصادُها لا يقوم على الرِّبا ،والمرأة لا تكون مع الرجل في كل مكان ، وتقام حدود الله في الزنى والسرقة والخمر ونحو ذلك ، من كل ما شَرَع الإسلام له عقوبة، حدًّا أو قِصاصًا أو تعزيرًا .

والمسلم مطالب بأن يتحرى الأكمل و الأفضل ، وألا يقول : أكتفي بالمهمات ، أكتفي بالخطوط العريضة، بالصلاة والزكاة والصيام، فإذا دُعي إلى ا لأخذ با لأفضل مما فيه جدل فقهي مثل: تقصير الثوب، وإعفاء اللحية، وترك الغناء، وغطاء الوجه للمرأة ونحو ذلك،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير والكسائي وأبو جعفر (في السَّلْم) بفتح السين بمعنى الصلح والمسالمة، وقرأ الباقون بكسر السين من الصلح والسلام، أو بمعنى الإسلام كله.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر والبزي بخلف عنه (خطْوات) بسكون الطاء، وهي لغة تميم وأسد، وقرأ الباقون بضم الطاء وهو الوجه الثاني للبزي، وهي لغة الحجازيين.

(٣) من حديث أبي بكرة في البخاري (٧١٤١) ومسلم (٦٦).

تهاون وتساهل في هذه الأمور، وقال: إنه يكفيه من الإسلام أن يحل الحلال، ويحرم الحرام، في المعاصي الكبرى، ويرى أن هذه ليست من المعاصي.

أو أنها معاصي خفيفة يمكن التساهل فيها و التغاضى عنها، وكأنه لا يعلم أن الإصرار على الصغيرة يُعدُّ كبيرة، و أن الناس قد تهاونوا في أشياء كانت تُعدَّ على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، وأن المتهاون يرى الذنب كأنه ذبابة وقت على أنفه، فأشار إليها بيده فذهبت، وأن الملتزم يرى ذنبه كأنه جبل وقع فوقه فأتى عليه.

والله سبحانه ينادي المؤمنين إلى يوم القيامة أن يأخذوا الإسلام كله ولا يتركوا منه شيئًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ربًا، وبمحمد نبيًا، وبالإسلام دينًا ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام، واعملوا بجميع أحكامه، ولا تتركوا منه شيئًا.

والسِّلم بكسر السين يُراد به الصلح والسلام، ويُراد به أيضًا الإسلام؛ بمعنى إسلام الوجه لله، وطاعة الله ﷻ، والخطاب في الآية حينئذ يكون موجهًا لطوائف المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام، ومُوجَّهًا لكل مَن يعمل ببعض شرائع الإسلام دون بعض.

ومَن يأخذ الإسلام كله، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فإنه يكون مسلمًا حقًّا ومسالمًا للإنسانية كلها ، عاملًا بطاعة الله، آخذًا بأحكام الإسلام كله.

وفي الآية أمر للمؤمنين أن يدخلوا في جميع شرائع الإسلام ولا يتركوا منها شيئًا.

أما قراءة نصب السين، فتكون الآية موجهة إلى المؤمنين من أهل الكتاب.

قرأ ابن عباس (ادخلوا في السَّلْم) بنصب السين، ثم قال: يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة، والشرائع التي أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد، ولا تدَعوا منها شيئًا، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها[١]

و بهذا المعنى يكون الدخول في الصلح والمسالمة، وترك الحرب مع بعضكم.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يُتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، فقد نهانا

---

(١) ابن أبي حاتم (١٩٤٤، ١٩٤٥).

سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان، فالإنسان إما أن يكون على هُدَى وإما أن يكون على ضلال، إما أن يتبع الإسلام، وإما أن يتبع الشيطان، إما إسلام وإما جاهلية، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فيما زين لكم من المعاصي والآثام ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّن العداوة، فادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه جميعًا.

قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد خاب مَن لا سهم له.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في ثعلبة، وعبد الله بن سلام، وابن يامين، وأسد وأسيد ابني كعب، وسعيد بن عمرو، وقيس بن زيد، كلهم من يهود، قالوا: يا رسول الله، يوم السبت يوم كنا نُعظمه، فدعنا فلْنسْبُت فيه، وإن التوراة كتاب الله، فدعنا فلْنُقم بها الليل، فنزلت الآية[1]

ولما دخل عبد الله بن سلام في الإسلام طلب من النبي ﷺ أن يبقى على احترامه وتعظيمه ليوم السبت كما يصنع اليهود، وطلب كذلك أن يقرأ من التوراة في صلاته، وكره لحوم الإبل وألبانها؛ لأن تركها واجب في اليهودية، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: خذوا شرائع الإسلام جميعها، ولا تأخذوا شيئًا وتتركوا شيئًا، ولا تتمسكوا بالتوراة فإنها منسوخة، ولا تتبعوا الرخص فتأخذوها وتتركوا عزائم الأمور.

ورد أن عمر ﷺ قال: إنا نسمع أحاديث من يهود وتُعْجبنا فنرى أن نكتب بعضها، فقال ﷺ: **«لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»**[2]

والآية عامةٌ في كل مَن يأخذ بعض أحكام الإسلام ويترك بعضًا.

---

(١) الأثر في الطبري برقم (٤٠١٦) و«الدر المنثور» (١/ ٢٤١).

(٢) من حديث طويل عن جابر في «المسند» (١٥١٥٦)، وإسناده ضعيف، لضعف مجالد، أحد رُواته، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥٠) والبزار (١٢٤) في كشف الأستار والبيهقي في الشعب (١٧٧) والبغوي في شرح السنة (١٢٦)

وَعِيدُ مَنْ جَانَبَ طَرِيقَ الصَّوَابِ

٢٠٩- ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

ولما كان العبد لابد أن يقع منه خلل وزلل، نهانا سبحانه عن ذلك، وتوعّد من يقع منه هذا الزلل بالجزاء الذي يستحقه يوم لقاء الله.

قال ابن عباس: السلم الإسلام، والزلل ترك الإسلام(١)

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾أي: فإن اتبعتم خطوات الشيطان، وخالفتم طريق الحق، وخرجتم عن الصواب بعد أن اهتديتم، وانحرفتم وضللتم وخالفتم الإسلام وشرائعه وأعرضتم عن طريق الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الواضحة في القرآن والسنة بعد ما ثبت لديكم صِدْق رسالة محمد ﷺ بالمعجزات الخارقة، وصِدْق أوصافه في الكتب المنزلة على أهل الكتاب، إن انحرفتم عن طريق الهدى مع وضوح الأدلة على وجوب اتباعه ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يفوته شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه، يضع كل شيء في موضعه المناسب، وسوف يعاقبكم على ما قدمت أيديكم.

والزالُّون عن صراط الله تعالى صنفان:

(أ) صنف اعتقد الباطل حقًا؛ فلم يعرفوا حقيقة التوحيد ولا غيره من أصول الإيمان.

(ب) وصنف اتبعوا الظن، وهاموا في أودية الوهم، فلم يكونوا على بينة من دينهم.

فإذا كان يوم القيامة زالت الحجب، وزال جهل الجاهلين، وانكشف ظن الظانين، وبَطَلَ وهم الواهمين، وعرف الجميع رب العالمين.

ورد أن قارئًا قرأ في نهاية هذه الآية: (غفور رحيم) بدلًا من ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فسمعه أعرابي لا يقرأ القرآن، فأنكره عليه وقال: ليس هذا من كلام الله؛ إذ الحكيم لا يَذكر الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

وعن الأصمعي قال: كنت أقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا

---

(١) ابن أبي حاتم (١٩٤٦، ١٩٥٠).

نَكَلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ (والله غفور رحيم) وبجنْبي أعرابي، فقال: كلام مَنْ هذا؟ قلت: كلام الله، قال: ليس هذا كلام الله، فانتبهتُ، فقرأت: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبتَ، هذا كلام الله، فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: مِن أين علمت؟ قال: يا هذا، عز فحَكَم فقطَعَ، ولو غفَر ورحم لَمَا قطع[1]

مَاذَا يَنْتَظِرُ الْعُصَاةُ؟

٢١٠-﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[2] وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ[3] ٱلْأُمُورُ﴾

ثم إن الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا، ينتظرون يوم الجزاء، وهُمْ شاكُّون في وقوعه، والذين باعوا أنفسهم لله ابتغاء مرضاته ينتظرون يوم الجزاء رجاءً للنعيم والثواب.

وفي هذه الآيات نهي عن الزلل، ووعيد لمن امتنع من الأخذ بشرائع الإسلام كلها، أو امتنع من المسالمة والمصالحة لإخوانه، أو اتبع خطوات الشيطان فانحرف عن الصواب، وكأن الله تعالى يقول: ولماذا تتلكئون، وماذا تنتظرون؟

أيها التاركون للدخول في السلم بعد قيام الأدلة الواضحة، أيها الساعون بالفساد في الأرض، أيها المتبعون لخطوات الشيطان، أيها العصاة الآثمون، ماذا تنتظرون؟

هل تنتظرون قيام الساعة، حين يأتي الله تعالى في ظلل من الغمام، حين تُطوي السموات والأرض، وتُنْثَرُ الكواكب، وتكوّر الشمس، وتأتي الملائكة صفوفًا، فتحيط بالخلائق وتأتي الملائكة الموكلون بعذاب أهل النار، يومئذ يأتي رب العالمين للفصل بين الخلائق بالقضاء العادل بين الأولين منهم والآخرين حين توضع الموازين، وتُنشر الدواوين، وتبيض وجوه وتسود وجوه، ويتميّز أهل الخير من أهل الشر، وحينئذ يقضي

(١) من «تفسير القرطبي» للآية.

(٢) قرأ أبو جعفر (والملائكة) بالخفض عطفًا على (ظلل) أو (الغمام)، وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على لفظ الجلالة.

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (تَرجِع الأمور) على البناء للفاعل، و(الأمور) فاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمجهول (تُرجَع) و(الأمور) نائب فاعل.

الله فيهم قضاءه، وإليه وحده ترجع أمور الخلائق جميعها، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال أيضًا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وصفة مجيء الله سبحانه لا يعلمها إلا هو، فليس كمثله شيء سبحانه، ومرجع الخلق إليه يوم القيامة فيقضي بينهم ويقتص من الظالم للمظلوم، ويجازي أهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإساءة بإساءتهم.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قيامًا أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء»**، قال: **«وينزل الله ﷻ في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي»**(١)

هذا: ومجيء الله تبارك وتعالى من الصفات التي أخبر الله بها عن نفسه، كالاستواء والنزول، وهي صفات ثابتة لله تعالى على وجه يليق بجلاله وعظمته، نؤمن بها كما جاءت، من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل.

أَسْبَابُ كُفْرِ الْيَهُودِ بِخَاتَمِ النَّبِيِّنَ

٢١١-﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

فيا أمة محمد، عليكم بالدخول في الإسلام كله، ولا تتفرقوا وتكونوا شيعًا كحال بني إسرائيل، فإن حالهم لا يخفى عليكم، فاسألوهم واقرؤوا آثار تاريخهم، ولا تتشبهوا بهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم، فهم من الأمم التي ضربها القرآن الكريم مثلًا في الإعراض عن آيات الله سبحانه، وقد كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، فهم

(١) بطوله في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (٩٧٦٣) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٤٣) رجال الطبراني من طرق، أحدهما رجال الصحيح غير أبي خالد اللاني وهو ثقة، وصححه الدارقطني وأخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» و«تفسير ابن كثير» قال الذهبي: إسناده حسن.

أعرف الناس به.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الحاضرون اليوم من اليهود ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ كم أنزل الله عليهم من آية دالة على صدق محمد ﷺ في التوراة، كما أنزل عليهم آيات دالة على صدق موسى عليه السلام، كالعصا واليد، وكم أنعم الله عليهم بنعم لا تعد ولا تُحصى، وآخر نعمة هي نعمة الإسلام، فلم يقوموا بشكر هذه النعم؛ بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفرا، فصار الكفر بدل النعمة، والجحود بدل الشكر، فعاقبهم الله وحرمهم ثوابه. وقد أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يدخلوا في دين الإسلام، ومع ذلك فقد كفروا به، وحرفوا ما أنزل الله على موسى.

والخطاب للنبي ﷺ، ولمن يقوم بالدعوة إلى الله بعده، فقد أمره ربه أن يسأل يهود المدينة ومن بعدهم تقريعًا وتوبيخًا لهم على كفرهم بخاتم الرُّسُل، أو تقريرًا وتذكيرًا لهم بنعم الله عليهم التي جاءتهم على أيدي أنبيائهم، ولكنهم لم يدخلوا في الإسلام، بل كفروا وكذبوا وغيروا وبدلوا ولم يؤمنوا، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ أي: يستبدل بالإيمان الكفر، فيبدل بنعمة الله التي هي الإسلام الكفر، مِن بعد ما جاءته الأدلة من عند الله فتيقنها وعرفها، وقامت الحجة عليه بها، ومن يفعل ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فلا تبدلوا عهدي إليكم -أيها المخاطبون- بالإيمان بخاتم الرُّسُل وكتابه، فإن مَن يفعل ذلك عقابه أليم.

مَتَاعُ الْكَافِرِ مِنْ أَسْبَابِ شَقَائِهِ

٢١٢- ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

وبعد أن ذكر القرآن حالَ مَن يبدل نعمة الله كفرا أتبعه بذكر الأسباب التي حملت هؤلاء الأشقياء على البقاء في كفرهم وجحودهم ، لقد حسنت الدنيا في أعين الكفار ، وزينها الشيطان لهم، وأخذوا يتمتعون بكل ما فيها، ويسخرون من المؤمنين الفقراء، ويسخرون من أهل التقوى والإيمان، وهذا هو شأن المترفين الجاحدين في كل زمان و مكان.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وحدانية الله وجحدوها، زين لهم نعيم ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأحبوها من قلوبهم وتهافتوا عليها وعلى ما فيها من الملذات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]. رضوا بالدنيا واطمأنوا إليها، وصارت أهواءهم تبعًا لها، فأقبلوا عليها وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، واحتقروا المؤمنين، فاستهزؤوا بهم، وقالوا: هؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ويستهزئون بفقرائهم، وهذا من ضعف عقولهم، فإن الدنيا دار ابتلاء، فالمؤمن وإن أصابه مكروه في الدنيا فصبر واحتسب، فإن مصيره إلى النعيم المقيم في جنة الخلود.

وقد نزلت هذه الآية في مشركي العرب كانوا يتمتعون بنعيم الدنيا ويكذبون بالمعاد، ومثلهم المنافقون ورؤساء اليهود، وكل مَن كان على شاكلتهم.

وقد رُكب في طباع البشر الميل إلى الملذات وحب الشهوات، والدنيا دار ابتلاء وامتحان، والشيطان يزين الدنيا ويحسنها في أعين أهلها فيزهدون في الآخرة.

والمؤمنون المتقون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ درجة ومنزلة، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء]

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود]

في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن حارثة بن وهب أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ جعظى مستكبر**»[1] والجعظي: الفظ الغليظ.

(١) «المسند» (١٨٧٢٨، ١٨٧٣٠، ١٨٧٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٤٩١٨، ٦٠٧١، ٦٦٥٧) ومسلم (٢٨٥٣) والترمذي (٢٦٠٥) والنسائي في «الكبرى» (١١٦١٥) وابن ماجه (٤١١٦) والطيالسي (١٣٣٤).

والأرزاق في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بتقدير الله ومشيئته.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ فهو سبحانه يتفضل على عباده بالرزق في الدنيا، فلا ينبغي للثريّ أن يحتقر الفقير، ولا للقوي أن يحتقر الضعيف، والثواب للمؤمن في الآخرة يكون بغير حساب، فخزائنُه لا تنفُد، ومُلكُه لا ينقُص بالعطاء.

ولا بد للأفراد والأمم من الكد والسعي والعمل الدؤوب مع التقوى والخوف من لقاء الله تعالى حتى يرزقها الله الثروة والعزة والقوة والكرامة، وكم من أمم عاشت فقيرة لأنها لم تأخذ بالأسباب، ولم تنقب في الأرض عن مصادر الرزق، فكانت من دول العالم الثالث؛ لبعدها عن منهج الله وعدم الأخذ بالأسباب.

حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى التَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ ضَرُورَةٌ مُلِحَّةٌ

٢١٣- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ(١) بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾

ثم إن حب الدنيا لدرجة تؤدي إلى الكفر ليس خاصًا بزمن معين؛ بل هو حب قديم، كان سببًا في تفرق الناس بعد اتفاقهم، فقد بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخلاف، فاخلتفوا في الكتاب الذي أنزله الله على رسله، وفيه من الآيات البينات والدلائل القاطعة على وحدانية الله تعالى، فكان منهم من وحّد الله تعالى، ومنهم أشرك معه غيره، فضلوا بذلك ضلالًا بعيدا، ومن ذلك بَغْي أهل الكتاب على أهل الإسلام حسدًا منهم لصاحب الرسالة ﷺ أن انتقلت إليه من بني إسرائيل، فقد كان الناس من لدن آدم إلى نوح مدة عشرة قرون على التوحيد الخالص، ليس هناك اختلاف في العقيدة، وليس هناك شرك، ولا عبادة غير الله ﷻ، فلما اختلف الناس بعد عهد نوح حين عبدوا الأصنام (ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا) بعد ألف عام من وقت آدم عليه السلام؛ أرسل الله الأنبياء بالكتب لهداية البشر.

---

(١) قرأ أبو جعفر (ليُحكَم) بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون (ليَحكُم) بالبناء للفاعل.

أخرج الطبري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وكذلك هي قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)(١) وهي قراءة غير متواترة ومخالفة لرسم المصحف، وهو ركن من أركان صحة التلاوة، فلا تسمى قرآنًا، ولكن المعنى صحيح يفسره آيات القرآن الأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقد بعث الله الرُّسُل وأنزل الكتب بسبب الاختلاف في وحدانية الله تعالى، فبغى بعض الناس على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض، فهدى الله أمة محمد ﷺ للقيام على عبادة وحده، واعتزلوا هذا الاختلاف؛ فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة أن رسلهم الله قد بلغتْهم، وأنهم كذبوا رسلهم(٢)

قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحًا، وكان أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وبُعث عند الاختلاف من الناس وترك الحق، فبعث الله رسله، وأنزل كتبه يحتج به على خلقه(٣)

وقد توعد الله البشر على الاختلاف لا على الاجتماع، ولو شاء الله سبحانه لجعل الناس جميعًا على دين واحد موحدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] ولكنَّه سبحانه ميَّز الإنسان عن الملائكة فجعل له حرية الاختيار، وخلق النار لمن يختار الكفر، والجنة لمن يختار الإيمان ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

---

(١) البزار (٢١٩٠) «كشف الأستار» وابن أبي حاتم (١٩٨٣) والحاكم (٢/ ٥٤٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٨) : وفيه عبد الصمد بن النعمان، وثقه ابن معين، وقال غيره: ليس بالقوي، وقراءة ابن مسعود شاذة مخالفة لرسم المصحف.

(٢) انظر في هذا المعنى «تفسير الطبري» (٣/ ٦٢٤) وابن أبي حاتم (١٩٨٤، ١٩٩٣).

(٣) ابن أبي حاتم (١٩٨٩) وأخرجه أيضًا عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٢/ ٤٩٨).

والذين استثناهم الله في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ هم الأئمة والدعاة إلى التوحيد في كل أمة، فهم مَنْ رَحِمَ الله سبحانه.

ولما اختلف الناس في دينهم، وأصبح منهم مؤمن وكافر، ومشرك وموحد؛ أرسل الله سبحانه النبيين دعاة إلى الله، مبشرين الموحدين المطيعين بدخول الجنة، ومنذرين من أشرك وكفر وعصى بالنار، وأولهم نوح ﷺ؛ لأن الشرك ظهر في عهده، وأنزل معهم الكتب السماوية بالحق الذي اشتملت عليه؛ ليحكموا بما فيها بين الناس فيما اختلفوا فيه من الشرك والكفر.

والمراد بالنبيين: الرُّسُل، بدليل ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وعدد الرُّسُل ثلاث مئة وثلاثة عشر.

وصح في الحديث أن نوحًا هو أول رسول أُرسل إلى أهل الأرض، والناس قبله كانوا على دين واحد هو التوحيد الذي أُخِذَ على بني آدم، وهم في عالم الذر، فاختلفوا فيه وعبدوا الأوثان ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ﴾ مَن وحد الله بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مَن أشرك معه غيره بالنار ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم جنس للكتب المنزلة من عند الله، أنزلها سبحانه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأخبار الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما فيها حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، فمردّ الاختلاف عند التنازع إلى الله ورسوله، وقد أيَّد الله هؤلاء الرُّسُل بالكتب الداعية إلى التوحيد من عند الله.

والكتاب يُطلق على جميع الكتب السماوية التي نزلت على رُسل الله صلى الله عليهم أجمعين، والكتب المنزلة من السماء مئة وأربعة، أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى شيث ثلاثين، وعلى إدريس خمسين، وصحف إبراهيم، وأنزل على موسى عشر صحائف، وأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد.

وهذا الكتاب المنزل على كل رسول، أنزله الله ليزيل الخلاف القائم بين البشر فيما اختلفوا فيه من الشرك والتوحيد، ومهمة هذه الكتب هي بيانُ الحق من الباطل، والتوحيد من الكفر ﴿لِيَحْكُمَ﴾ هؤلاء الرُّسُل بين الناس فيما اختلفوا فيه من الشرك والتوحيد بمقتضى ما جاء فيها.

أي: وما اختلف في الحق الذي تضمنه هذا الكتاب إلاالذين نزل عليهم الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وكان هذا الاختلاف بعد ما تبين لهم

فيها أوصاف النبي ﷺ، فلما تأكد لهم مطابقتها للنبي الخاتم حسدوه عليها؛ لأن الرسالة كانت فيهم مدة طويلة قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: أوتوا التوراة والإنجيل والعلم بهما، وهم اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن محمد ﷺ من باب البغي والحسد والظلم والعدوان.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهي العلامات الدالة على صدقه ﷺ في التوراة والإنجيل، فكفروا به ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ظلمًا وحسدًا له لانتقال الرسالة منهم إلى العرب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب وأخطؤوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة.

ومما اختلفوا فيه:

(أ) شأن عيسى ﷺ؛ فقد كفر اليهود بعيسى، وقالوا: إنه ابن زنى، ولم يؤمنوا به ولا بدعوته، واتهموا أمه بالزنى.

والنصارى جعلوا عيسى إلهًا أو ابنًا للإله، وكلاهما (إفراط وتفريط).

فهدى الله تعالى الأمة الإسلامية إلى الحق والصواب في ذلك، وأن عيسى هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

(ب) واختلفوا في شأن إبراهيم؛ قال اليهود: إنه يهودي، وقال النصارى: إنه نصراني.

وقد هدى الله الأمة الإسلامية إلى الصواب في ذلك ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

(ج) واختلفوا في شأن القِبلة في الصلاة؛ فاتجه اليهود صوب بيت المقدس، واتجه النصارى صوب المشرق، فهدى الله الأمة المحمدية إلى الكعبة قبلة الأنبياء جميعًا، يستقبلونها في صلاتهم لله ﷻ. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤]

(د) واختلفوا في يوم الجمعة؛ فاختار اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم الأحد،

فهدى الله الأمة الإسلامية إلى يوم الجمعة بعد أن ضلت عنه اليهود والنصارى.

كما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولًا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي هدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، غدًا لليهود، وبعد غد للنصارى**»[1] والمراد: لمتأخرون زمانًا، المتقدمون منزلة وكرامة يوم القيامة.

(هـ) واختلفوا في الصيام؛ فمنهم مَن يصوم بعض يوم أو أيامًا، ومنهم مَن يصوم عن بعض أنواع الطعام، فهدى الله الأمة الإسلامية إلى صيام شهر رمضان.

(و) وآخر ما اختلفوا فيه هو الإيمان بمحمد ﷺ؛ فكفر به اليهود والنصارى ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ أي: أن أمة محمد ﷺ أقاموا على ما جاءت به الرُّسُل، من التوحيد والصلاة والزكاة، فكانوا شهداء على قوم نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى، أن رسلهم قد بلّغوهم، وأنهم كذّبوا رسل الله، وآمنوا برسل الله جميعًا، وبكُتُبِ الله كلِّها حين كفر بعضهم بكتاب بعض، وكلها من عند الله، وحرفوا وغيروا وبدلوا، فهدى الله أمة الإسلام للإيمان بمحمد ﷺ ولم يحرفوا ولم يبدلوا، وثبتوا على الحق.

٢- ويصح أن يكون المعنى: أنه لما كان الناس أمة واحدة في خُلُوِّهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، كان لا بد لهم من تشريع وأحكام تضبطهم وتنظم علاقاتهم مع أنفسهم ومع ربهم ومع مجتمعهم، فأرسل الله الرُّسُل، وأنزل عليهم الكتب؛ ليحكم الرُّسُل بين الناس بما في هذه الكتب فيما اختلفوا فيه، حتى يسود العدل؛ لأن عقولهم ليست كافية في الهداية وإقامة الحق، فهي متفاوتة ومختلفة.

وبعد إنزال الكتب اختلف فيها أهل الأهواء والشهوات والشبهات، بعد ما جاءتهم الأدلة القاطعة على عصمة الرُّسُل والكتب من إثارة الخلاف، فكانت الفِرَق والمذاهب والطوائف في

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٧٤٩٥) وصحيح مسلم (٨٥٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٦٦٦) وابن حبان (٢٧٨٤) و«تفسير الطبري» (٤٠٦٠) ورواه أحمد في «المسند» بنحوه برقم (٧٣١٠، ٧٦٩٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

جميع الشرائع السماوية، ووفق الله أمة محمد إلى الإيمان الصحيح والنور الساطع.

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل المسلمين واليهود والنصارى: كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملًا يومًا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطتَ لنا، وما عملْنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم الذي شرطتُ لكم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان إلى حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملْنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم، فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبَوْا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلُهم ومثَلُ ما قبلوا من هذا النور.**

فقالت اليهود والنصارى: ما لَنا أكثرُ عملًا وأقل عطاء؟! قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(١)

فاليهود والنصارى عملوا إلى العصر، وأبوا أن يعملوا بقية النهار؛ أي: آمن كل منهم برسوله، وأبى الإيمانَ بمحمد ﷺ، والمسلمون هم الذين عملوا بقية النهار، وأخذوا أجر الفريقين؛ لأنهم آمنوا بالرُّسُل جميعًا، ومن لم يُدرك رسالة محمد ﷺ من اليهود والنصارى استوفى أجره على الإيمان برسوله في وقته، ومَن أدرك رسالة محمد ﷺ وكَفَرَ بها فهو كافر، حُرِمَ الأجر كله.

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**(٢)

وفي الدعاء المأثور: **«اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه»**.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من جميع

---

(١) البخاري (٥٥٨، ٢٢٦٨، ٢٢٧١، ٣٤٥٩، ٥٠٢١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠) وأبي داود برقم (٧٦٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (١٣٨).

الخلائق من يشاء هدايته وإعانته إلى طريق الحق والنور، عدلًا منه سبحانه وفضلًا، وإقامة للحجة على الخلق أجمعين، لئلا يقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ﴾ [المائدة: ١٩].

تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى تَحَمُّلِ الْأَذَى

٢١٤- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ[1] يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

وبعد أن بينت السورة أقسام الناس في هذه الحياة، ودعتْهم إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وأن يَزهدوا في هذه الدنيا التي شغلتْ غيرهم عن تعاليم السماء، وأن يشكروا الله تعالى على أن هداهم للحق الذي ضل عنه غيرهم.

بعد ذلك حثتهم على أن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام؛ حتى يحقق الله لهم الآمال، وألا يُزهيهم ثناء الله عليهم، فيظنوا أنهم قاموا بواجب شكر النعمة عليهم، فلا يصبروا على ما يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء.

ذهب بعض الصحابة إلى النبي ﷺ وهو متوسِّد بردة له في ظل الكعبة، وكان المسلمون قد أُوذوا وعُذبوا ووَجدُوا صنوفًا من البلاء والمحن في غزوة أحد، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا في غزوة الأحزاب؛ حيث زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، واضطُهد المستضعفون في مكة، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشتكون ما هم فيه من ضيم وضيق.

روى البخاري وغيره عن خباب بن الأرت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالْمِنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه**»، ثم قال: «**والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على**

(١) قرأ نافع (حتى يقولُ) بالرفع، على أن (يقولُ) فعل ماضٍ بالنسبة إلى زمن الإخبار، أو على سبيل الحكاية للحال الماضية، فلم تعمل فيه (حتى) وقرأ الباقون بالنصب، على تقدير: أن يقول الرسول، فهو غاية، والفعل مستقبل، حكيت به حالهم.

غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون»[(١)]

فأنزل الله سبحانه جوابًا لهم وبيانًا لسنة الله في خلقه؛ أن النصر والتمكين في الأرض يكون بعد الابتلاء والتمحيص والثبات على الحق: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]

أتظنون أن تدخلوا الجنة ولم يصبكم ما أصاب مَنْ قبلكم من أتباع الرُّسُل من الشدائد والمحن والفقر والأمراض والخوف والرعب؟ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ من الأمم الماضية التي ثبتت عند البلاء والاختبار، وفي هذا إخبار من الله تعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمحن كما فعل بمن قبلهم، فإن سنة الله في خلقه تقضي بأن من قام بدين الله وشرعه لا بد أن يُبتلى، فإن صبر فهو صادق في إيمانه، وإن صدّته المكارة والشدائد فهو كاذب في دعوى الإيمان وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أمراض البدن ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بأنواع الرعب والمخاوف والتهديد والقتل ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: بَلَغَ الأمر بهم من الأذى والشدائد أن يستبطئوا النصر،و يقول الرسول من الرُّسُل السابقين إلى أمته ومَن آمن معه على سبيل الاستعجال للنصر: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟ قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

فالفرج يكون عند الشدة، واتساع الأمر يكون بعد ضيقه.

وقد حُجبت الجنة بالمكاره، وحُجبت النار بالشهوات؛ فلا بدَّ من جهاد النفس والهوى والشيطان، ولا بد من الصبر والمثابرة والتغلب على الصعاب.

قيل: إن الآية نزلت تطييبًا لقلوب المسلمين بعدما أصابهم الضُّر والشدة في غزوتي أحد والأحزاب.

وقيل: نزلت لما اشتد الأمر على المسلمين بترك أموالهم وديارهم في مكة بأيدي المشركين في أول الهجرة، وأظهرت اليهود لهم العداوة.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٤٣) و«المسند» (٢١٠٥٧) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٥٣٣٥).

أَفْضَلُ مَصَارِفِ النَّفَقَةِ

٢١٥-﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

هذه الآية نزلت في نفقة الرجل على أهله وأرحامه، وهو سؤال عن المنفَق والمنفَق عليه، ونزلت في الصدقة يتصدق بها على المحتاجين.

ثم إن عمرو بن الجموح كان رجلًا كبيرًا كثيرَ المال، فسأل النبي ﷺ بماذا نتصدق؟ وعلى مَن ننفق؟ وقد تكرر هذا السؤال من قِبَلِ بعض الصحابة، فأنزل الله سبحانه مبينًا الأوْلى بالنفقة فالأوْلى، وأن النفقة تكون بما يتيسر لهم من الخير من أصناف المال الحلال الطيب.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ يسألك أصحابك - يا محمد- أي شيء ينفقون من أصناف أموالهم تقربًا إلى الله تعالى، وعلى مَن ينفقون؟ فأجاب الله تعالى: ابدأ بنفسك، ثم بِمَن تَعُول، بأهلك (زوجتك، وأصولك، وفروعك) ثم الأقرب فالأقرب، ﴿قُلْ﴾ لهم: أنفقوا أيَّ خير يتيسر لكم من أصناف المال الحلال الطيب، قليله أو كثيره، واجعلوا نفقتكم للوالدين والأقربين من أهلكم وذوي الأرحام ... إلخ و﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهي نفقة واجبة مفروضة للوالدين والأبناء، ثم ذوي الأرحام والأقربين، ثم مَن تجمعك بهم رابطة الأخوة، ثم من تعطف عليهم وترحمهم من اليتامى والمساكين وابن السبيل؛ وهو المحتاج البعيد عن أهله وماله، فأولى الناس بالنفقة، وأحقهم في التقديم، أعظمهم حقا عليك ، الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما ، ومِنْ بعدهما ، الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، وبعد هذا التخصيص، جاء التعميم في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ والنفقة في الأصل تشمل الزكاة المفروضة وصدقة التطوع والنفقة الواجبة على مَن يَعُول.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**تصدقوا**» فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «**أنفقْه على نفسك**» قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقْه على زوجتك**» قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقْه على ولدك**» قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقه**

على خادمِك» قال: إن عندي آخر، قال: **«أنت أبصر به»**[١]

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: **«خيرُ الصدقة ما كان عن ظهر غِنَى، وابدأ بمن تَعول»**[٢] زاد في رواية: **«واليد العليا خير من اليد السفلى»**[٣]

وجاء رجل إلى النبي ﷺ ومعه مقدار بيضة من ذهب يريد أن يتصدق بها، جاء بها مِن أمامه فأعرض عنه، ثم جاءه مِن يمينه ومِن خلفه ومِن يساره، والرسول ﷺ يُعرض عنه في كل حال، ثم قال له: **«يأتي أحدكم بكل ما عنده يتصدق به، ثم يتكفف الناس؟ أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»**[٤] أي: أنه يجب عليه أن يُنفق على نفسه، وولده، وعياله، وأهله، وكل مَن يجب عليه نفقتهم أولًا، وبعد ذلك يتصدق صدقة التطوع، ومن هنا قال ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ﷺ: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»**[٥]

قال ابن عباس: ما رأيت قومًا كانوا خيرًا مِن أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض، كلهن في القرآن، منهن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقر: ٢١٥] ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم[٦]

والله تعالى يعلم صدقاتكم، ويعلم إخلاصكم ونيّاتكم، فيجازيكم عليها أضعافًا مضاعفة.

---

(١) «المسند» (٢/ ٤٧١) برقم (٧٤١٩) بإسناد قوي، وأبو داود (٢/ ٣٢٠) برقم (١٦٩١) والنسائي (٢/ ٦٢) برقم (٢٣٢٧، ٩١٣٧) في «الكبرى» وابن حبان برقم (٤٢٣٣، ٤٢٣٥، ٧٣٣٧) وفي «موارد الظمآن» (٧٢٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي «المستدرك» (١/ ٤١٥) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٢٦، ٥٣٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٣٣٦).

(٣) «سنن النسائي الكبرى» (٢٣٢٥، ٢٣٢٦) و«المسند» (٧١٥٥، ٩٢٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود والحاكم عن جابر، كما في زيادة الجامع الصغير (٤٢٥٦).

(٥) «صحيح مسلم» (٩٩٥) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٥١) و«المسند» (١٠١٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٣٩) واللفظ لمسلم.

(٦) أخرجه الدارمي (١/ ٥٠) والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨٨) قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٩).

الْحُكْمُ التَّشرِيعي الْحَادِي عَشَر فِي السُّورَة:
حُكْمُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ

٢١٦-﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

فرض الله القتال على المسلمين بهذه الآية بعد الهجرة إلى المدينة، بعد أن قوِي المسلمون واشتدعُودهم، وأخبر سبحانه أن القتال مكروه للنفوس لما فيه من المخاوف، ولكنه في الواقع خير محض، لما فيه من عظيم الثواب والنصر على الأعداء، وهكذا جميع أفعال الخير التي تنكرها النفوس، فهي خير بلاشك، كما أن أفعال الشر التي تحبها النفوس شر بلاشك.

في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: **«لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا»**(١)

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«من مات لم يغزُ ولم يُحدِّثْ نفسه بغزِو مات على شُعبة من نفاق»**(٢)

وعن سهل بن سعد الساعدي مرفوعًا: **«لغدوة أو رَوحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»**(٣)

فالجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة، وإذا احتل العدو جزءًا من أرض المسلمين، كان القتال فرضَ عينٍ على أهل هذه البلاد، ثم مَن جاورها، ثم مَن جاورها، وإذا لم يتم النصر إلا بالمسلمين كافة، تعين عليهم جميعًا، ويكون الجهاد بالنفس والمال واللسان، رجالًا ونساء، شبابًا وشيوخًا، كما هو الحال اليوم في فلسطين المحتلة، فالعالم الإسلامي كله آثم حتى تتحرر القدس وفلسطين من الصهاينة المحتلين، والجهاد فرض

---

(١) البخاري برقم (١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس، وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧٧٤٤) عن صفوان بن أمية وعبد الرزاق (١٨٩٣٩).

(٢) مسلم (١٩١٠) وأبو داود (٢٥٠٢) و«المسند» (٨٨٦٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٢٩٠).

(٣) في «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩٤، ٤٨٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٨١) ومن حديث أنس في البخاري برقم (٢٧٩٢، ٦٥٦٨) ومسلم برقم (١٨٨٠) بنحوه و«صحيح سنن الترمذي» (١٣٤٥) وابن ماجه (٢٧٥٧).

كفاية في الأوقات العادية؛ لنشر الدَّعْوَة والذَّوْد عن حِمَى الإسلام.

ولما كره المسلمون الشهادة في سبيل الله، وأحبوا الدنيا وأخلدوا إليها؛ فأنفقوا أموالهم على شهواتهم، وبنوْا البيوت ولم يبنوا الجيوش، واسْتَوْرَدُوا الإبرة والطائرة، ولم يُسلِّحوا أنفسهم؛ ابتلاهم الله سبحانه بالذل، ومكّن منهم عدوَّهم.

وقد بين الله في هذه الآية أن قتال العدو المحارب في الدين فرض على المسلمين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرِض عليكم أيها المؤمنون قتال الكفار، والقتال غير محبب لكم ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ فالنفس تكره القتال؛ لمشقته، ولأن فيه الموت، وفيه ترك لمتاع الدنيا ولذاتها وشهواتها، وهو في الحقيقة خيرٌ لهم، لِمَا فيه من الشهادة والجنة، أو النصر والعزة، فإنْ تركَتْه الأمة ذَلت وهَانت كما بين النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها**» قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن**» قالوا: وما الوَهَن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[(١)]

فحب الدنيا وشهواتها سبب لإلقاء الوهن في القلوب، وهو مِن عوامل الضعف والهزيمة، وحب الدنيا سبب لنزع المهابة من صدور الأعداء، وليس كل ما يكرهه الإنسان فيه شر له ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن القتال عاقبته النصر والظفر والسيادة والتمكين في الأرض، وليس كل ما يحبه الإنسان فيه خير له، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة، ومنه ترك القتال والجهاد في سبيل الله، فهو ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ لأن فيه الاستيلاء على أرض الإسلام، وفيه الذل والاستعباد، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا للجهاد في سبيل الله، وتمشَّوْا مع أقدار الله، سواء أسرتكم أم أساءتكم.

وكما كُتب القتال على المسلمين كُتب على مَنْ قبلهم، فقد كُلِّف بنو إسرائيل بقتال

---

(١) من حديث ثوبان في «المسند» (٢٢٣٩٧) بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني في«الكبير» (١٤٥٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢) وأبو داود (٤٢٩٧) والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٥٣٤) وفي الشعب (١٠٣٧٢) والبغوي (٤٢٢٤) والطيالسي (٩٩٢) وابن أبي شيبة (١٥/ ٥٣).

الكنعانيين مع موسى ﷺ، وكُلفوا بالقتال مع طالوت، وكُلف ذو القرنين بتعذيب الظالمين في جهة المغرب.

وكان الجهاد في بدء الإسلام غير مأذون فيه مدة ثلاثة عشر عامًا، ثم أُذن فيه دفاعًا عن النفس بآية سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ [الحج: ٣٩]

ثم أُمر المسلمون بقتال من بدؤوهم بالقتال في آية سورة البقرة: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقد نزلت هذه الآية في سرية عبد الله بن جحش في الشهر السابع عشر من الهجرة، وهي الآية الموجبة للقتال، المؤكدة له.

والآية تقرر أن الله تعالى يُشرِّع لخلقه ما فيه صلاحهم وخيرهم.

قال سعيد بن جبير في الآية: إن الله أمر النبي والمؤمنين بمكة بالتوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يكفوا أيديهم عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، وأذن لهم في القتال، فنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ يعني: فُرض عليكم، وأذن لهم بعدما كان نهاهم عنه[(١)]

وقال ابن شهاب في الآية: الجهاد مكتوب على كل أحد؛ غزا أو قعَد، فالقاعد عدة، إن استُعين به أعان، وإن استُغيث به أغاث، وإن استُنفر نفر، وإن استُغنيَ عنه قعد[(٢)]

ومما جاء في فضل الجهاد:

١- ما صح عن أبي ذر رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيل الله**» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**أنفَسُها**» قال: أفرأيت إن لم أجد؟ قال: «**فَتُعين الصانع، وتصنع لأخرق**» قال: أفرأيت إن لم أستطع؟ قال: «**تدَعُ الناس من شرك، فإنها صدقة تتصدق بها على نفسك**»[(٣)]

---

(١) ابن أبي حاتم (٢٠١٢، ٢٠١٦، ٢٠٢٠).

(٢) ابن أبي حاتم (٢٠١٥).

(٣) «المسند» (٢١٣٣١) والبخاري (٢٥١٨) وفي «الأدب المفرد» (٢٢٠، ٣٠٥) ومسلم (٨٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٣٣٧) وابن ماجه (٢٥٢٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٠٨، ٤٣٤٣).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَثَل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُجاهد في سبيله- كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد، وتكفل الله للمجاهد في سبيله أن يتوفاه الله فيدخله الجنة، أو يرجعَه سالمًا بما نال من أجر أو غنيمة»**(١)

٣- وعن أبي هريرة أيضًا قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: علمني عملًا يعدل الجهاد، قال: **«لا أجده»** قال: **«هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدًا فتقوم ولا تفتُر، وتصوم ولا تفطر»** قال: لا أستطيع ذلك(٢)

٤- وصح عن أبي هريرة أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ مَر بشِعْبٍ فيه عُيَيْنَةٌ ماء عذب، فأعجبه طِيبُه، فقال: لو أقمتُ في هذا الشِّعب واعتزلتُ الناس؟ ولن أفعل حتى أستأمِرَ رَسول الله ﷺ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«لا تفعل، فإن مُقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في أهله ستين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله، مَن قاتل في سبيل الله فُواق ناقة (أي: بمقدار ما يعود اللبن إلى الضرع) وجبت له الجنة»**(٣)

٥- وعن أبي عبس عبد الرحمن بن جبر أن رسول الله ﷺ قال: **«من اغبَرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمهما الله على النار»**(٤)

٦- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعِينة (وهي نوع من الرِّبا) وأخذتم أذناب البقر (أي: السياط لجلد الناس) ورضِيم بالزرع (أي: فضلتم الدنيا على الآخرة وأخلدتم إليها) وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذُلًا (أي: سلط عليكم أعداءكم) لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»**(٥)

---

(١) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥٣٠) ومالك (٢/٤٤٣) والبخاري (٢٧٨٧) ومسلم (١٨٧٨) والنسائي (٣١١٤، ٣١٢٧) والبيهقي (٤٢١٥).

(٢) البخاري (٢٧٨٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٢١٦).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٣٤٨) والبزار (١٦٥٢) كشف والحاكم (٢/٦٨) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٣٠) وإسناده حسن.

(٤) «المسند» (١٥٩٣٥) والبخاري (٩٠٧، ٢٨١١) والترمذي (٦٣٢) والنسائي (٣١١٦).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٥٦)، وهو في السنن برقم (٣٤٦٢) وفي السلسلة الصحيحة برقم (١١).

الْحُكْمُ التَشْرِيعِيُّ الثَّانِي عَشَرَ
الْقِتَالُ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ لإِزَالَةِ الْعَوَائِقِ مِنْ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

لما كان الأمر بالقتال في الآية السابقة شاملًا للأشهر الحرم، استثنى الله تعالى في هذه الآية، القتال في الأشهر الحرم فقال:

٢١٧-﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

حرم الإسلام ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأجاز فيها الدفاع عن النفس والدين والعرض، كما أجازه في البلد الحرام:

جاء عن جندب بن عبد الله وعن ابن عباس والسدي ما معناه: أن سرية مكونة من اثني عشر رجلًا من المهاجرين، أرسلها النبي ﷺ قبل غزوة بدر بشهرين، أَمَّر عليها عبد الله بن جحش ابن عمته؛ لتعترض عيرًا لقريش في بطن نخلة بين مكة والطائف، وكان ذلك في اليوم الأخير من شهر جُمادى الآخرة، وكتب النبي له كتابًا، قال فيه: «**لا تنظُر فيه إلا بعد يومين من مسيرك، فإذا نزلْتَ فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك، ثم امضِ لِمَا أمرتُك، ولا تستكْرِهَنَّ أحدًا منهم على السير معك**».

فسار عبد الله ونزل بعد يومين مِن مَسيره، وفتح الكتاب، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فسِرْ على بركة الله بِمَن معك؛ حتى تنزل مكان نخلة فارصُد بها عيرًا لقريش، لعلك تأتينا منها بخير**» فقال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: مَن كان يريد الشهادة فلْينطلق، ومَن كان يكرهُها فلْيرجع، ثم مضى ومعه أصحابه، فاعترضوا هذه العير، وقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا اثنين هما: (الحكم بن كيْسان، وعثمان بن عبد الله)، ولم يَدْرُوا ذلك اليوم، أَمِنْ رجب هو أم من جُمَادى الآخرة؟ فأخذ المشركون ينالون من الإسلام، ويقولون: إن محمدًا يقاتل في الأشهر الحُرُم[1] وَيسْلُب ويأْسر فيهاإلخ

(١) تنظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٠٥) و«تفسير الطبري» (٣/ ٦٥٤) وفي تاريخه (٢/ ٣١٤) وابن أبي حاتم (٢٠٢٢، ٢٠٤٠) والطبراني (١٦٧٠) والبيهقي في «السنن» (٩/ ١١) قال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٨)، وانظر: «الدر المنثور» (٢/ ٥٣٤-٥٤٤).

يقصدون بذلك: شهر رجب، والقتال محرَّم فيه.

وكان المسلمون قد قاتلوا على أنه اليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة، والقوم يعتقدون أنه اليوم الأول من شهر رجب، فأخذ المسلمون يتساءلون: هل أصبنا رجب أم نحن في جمادى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ووجَّه الله المسلمين في الرد عليهم.

ولما نزلت الآية أرسل عبد الله بن جحش إلى مؤمني مكة يقول لهم: إن عيَّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام، فعيِّروهم بالكفر، وبإخراج رسول الله من بلده، ومنْعهم إياه من دخول البيت الحرام.

فرد المسلمون على القائلين لهم: استحللتم الشهر الحرام؛ بأن القتال في الشهر الحرام ذنب كبير، ولكنكم فعلتم ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، وهو صدكم الناس عن سبيل الله، وكُفْركُم بالله ورسوله، وإخراج أهل مكة منها، وفتنتم الناس في دين ربها، وفتنة الناس عن دينها أكبر وأعظم من القتال في الشهر الحرام.

وهذا الرد مكوَّن من ست **جرائم** كل جريمة منها أشد من القتال في الشهر الحرام:

الأولى: أن استحلال القتال وسفك الدماء في الشهر الحرام ذنب عظيم عند الله تعالى ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وقتال المسلمين في الشهر الحرام حال حدوثه يكون لنصرة الإسلام وإذلال الكفر.

الثانية: أن مَنْعَ الناس من الدخول في الإسلام بالتخويف والتعذيب أعظمُ ذنبًا من القتال في الأشهر الحرم ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أي: صد المشركين لمن يريد الإيمان بالله ورسوله ذنب عظيم.

الثالثة: أن الكفر بالله ورسوله بجحود وحدانية الله تعالى، وإنكار الرسالة الخاتمة- أعظمُ جرمًا من القتال في الشهر الحرام، ومن مَنْع الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، شر في حد ذاته.

الرابعة: أن منع المسلمين من دخول المسجد الحرام في الحج والعمرة ذنب عظيم، قال تعالى عطفًا على الصد عن سبيل الله: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وصد الناس عن

المسجد الحرام، ذنب عظيم في حد ذاته، وليس المراد: وكفر بالمسجد الحرام؛ لأن أهل مكة كانوا يعظمونه، فالعطف على ما قبله الذي هو ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الخامسة: أن إخراج النبي ﷺ والمهاجرين من الحرم، وهم أهله وأولياؤه أعظم ذنبا وأكبر جُرمًا من القتال في الشهر الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عُمّاره على الحقيقة، مع أن هذا البيت يستوى فيه العاكف والباد.

السادسة: أن فتنة الناس عن دينهم؛ بتعذيبهم وقتلهم وتخويفهم وإلقاء الشبهات عليهم لحملهم على ترك عقيدتهم - أكبر وأشد من القتل في الشهر الحرام، فالمراد بالقتل في الآية: هو القتل الذي حدث لرجل منهم هو عمرو بن الحضرمي ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾أي فتنة الناس عن دينهم ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾.

وفي هذا رد على مَن عاب على المسلمين القتال في الشهر الحرام، وبيان أن فتنة الناس في دينها أعظم من ذلك.

والأشهر الحرم هي: رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرَّم، وحرمة القتال فيها كان مقررًا لدى العرب قبل الإسلام، ولم يبطلْه الإسلام؛ لأنه مِن المصالح، ففيه تأمينُ سبيل الحج والعمرة ذهابًا وإيابًا، وهذا يستغرق الأشهر الثلاثة المتوالية، أما شهر رجب فقد كان من عادة أهل الجاهلية الإكثار من العمرة فيه.

والإسلام يحرم القتال ظلمًا وعدوانًا في كل وقت، أما القتال لرد العدوان، أو لإزالة العوائق أمام نشر الدَّعْوَة فهو عبادة، ولذلك فقد نسخ الإسلام حرمة القتال في الأشهر الحرم، وبقيت حرمة الشهر قائمة بالنسبة لسائر الجرائم والذنوب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: بالمعاصي والذنوب؛ ولذلك فإن النبي ﷺ غزا هوازن وثقيفًا، وأرسل بعض أصحابه إلى حنين، بدءا من شهر شوال، واستمر حتى شهر ذي القعدة و هو من الأشهر الحرم.

فتنة الناس في الأشهر الحرم:

عن يحيى بن أبي زائدة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش ومعه نفر من المهاجرين؛ فقُتل عبد الله بن الحضرمي في آخر يوم من

جمادى، وأسروا رجلين، واستاقوا العير، فوقف على ذلك النبي ﷺ وقال: **«لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام»** فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام؛ فنزلت الآية إلى ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وكان المشركون يَفْتِنون المؤمنين عن دينهم؛ بإيذائهم، وتعذيبهم، وإلقاء الشبهات عليهم، كما فعلوا بعمار بن ياسر وعشيرته، وبلال، وصهيب، وخباب بن الأرت، وغيرهم.

١- فكان عمَّارُ يُكْوَى بالنار؛ ليرجع عن دينه، وكان يُلبس درعًا من حديد يُعذب به في شدة الحر، وكان النبي ﷺ يَمُر به ويرى آثار النار به كالبرص، ويقول: **«صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»**[1]، وقد مات ياسر بالعذاب.

٢- وأُعطيتْ سمية - أم عمار - لأبي جهل، فعذَّبها عذابًا شديدًا؛ لترجع عن الإسلام، فلم تُجبه، وكانت كبيرة عجوزة، فطعنها أبو جهل بحربة في فرجها فماتت. رضي الله عنها

٣- وكان أُمية بن خلف يعذب بلالًا؛ ليفتنه عن دينه، فكان يجوِّعه ويعطِّشه يومًا وليلة، ثم يطرحه على ظهره في الرَّمْضَاءِ، ويضع على ظهره صخرة عظيمة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أوْ تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وكانوا يعطونه للصبية فيربطونه بحبل ويطوفون به شِعاب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

٤- ويقول خباب: لقد رأيتُني يومًا، وقد أُوقدتْ نار و ضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودَك (دهن) ظهري.

هذه أمثلة من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين في دينهم، وما امتنع منهم إلا مَن له عصبة من قومه، فمنعوه حَمية لقرابته.

ولم يسْلَم مِن أذاهم أحد حتى رسول الله ﷺ، فقد وضعوا على ظهره كرش بعير مملوء بالفرث وهو يصلي، وخاف أصحابه أن يُنحوُّه عنه، حتى نَحتْه فاطمة. رضي الله عنها

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة تعقبوهم بالقتال في مهجرهم؛ ليفتنوهم عن دينهم أيضًا.

لذا: كان القتال في الأشهر الحرم أهون من الفتنة عن اعتناق الإسلام، وكان القتال في

---

(١) ينظر: كنزل العمال، المجلد الثالث عشر، باب فضلائل الصحابة، والبغوي والجامع الصغير (٣٧٣٦٧).

الشهر الحرام لصالح الدَّعْوَة، ردًّا للعدوان، وإزالة للعقبات المانعة من وصولها إلى الناس، من أسباب القتال فيه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله سبحانه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ [التوبة: ٣٦]

يعني: في الأشهر الحرم وغيرها، وقاتلوهم جميعًا إذا قاتلوكم جميعًا.

وكان في هذه السرية أول قتيل من المشركين، وأول أسيرين منهم، وكان فيها أول غنيمة في الإسلام، وأول خُمْسٍ من الغنائم قُسم في الإسلام، وقد أسلم الحكَم بن كيْسان، ومات شهيدًا في بئر معونة، ومات عثمان بن عبد الله كافرًا في مكة.

ثم قرر ﷻ حقيقة أمر الكفار إلى يوم القيامة في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: إنهم لن يرتدعوا عن جرائمهم، بل هم مستمرون عليها ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾، وهذه هي غايتهم وهدفهم من قتال المسلمين في كل عصر ومصر، فلا تغفلوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩] وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ طاعة لهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ وهذا مرتب على أمرين هما: الردة، والموت على الكفر.

بخلاف مَن عمل في الجاهلية عملا صالحا؛ فيبقى له صالح عمله بعد إسلامه، كما قال ﷺ لحكيم بن حزام: «**أسلمت على ما أسلفت عليه من الخير**».(١)

والمرتد يُستتاب ثلاثة أيام ويسجن، فإن تاب وإلا قُتل كفرًا، أما مَن لم يدخل في الإسلام أصلًا فإنه لا يعاقب و حسابه عند ربه.

و من كانت له أعمال صالحة قبل إسلامه فإنه لا يحرم الأجر بعده كما سبق.

---

(١) ينظر: مسند الإمام أحمد برقم (٥٣١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه مسلم (١٢٣، ١٩٤) والطبراني في الكبير (٣٠٨٧) وأبو عرانه (١/ ٧٢) وانظر الجامع الصغير (١٠٢٩).

والمعنى: ومَن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر حتى يموت عليه؛ فهذا هو المرتد الذي بَطَلَتْ أعماله في الدارين وبطَل ثوابه، وكأنه لم يعمل صالحًا قطُّ، فهو لا ينتفع بأعمال الإسلام في دنياه، ولا في أخراه؛ لأن الرجوع عن الدين رجوع عن **أصوله الأساسية** وهي:

١- الإيمان بالله وحده. ٢- والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عالم الغيب.

٣- والعمل الصالح الذي ينتفع به صاحبه، وينفع الناس.

فهذه الأصول الثلاثة جاء بها كل نبي مرسل، لا يتركها إنسان بعد معرفتها والأخذ بها، إلا إذا كان منكوسًا عن دينه لا حظ له فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. فقد ترتب على الكفر أمران: بُطلان فضل الأعمال الصالحة، والعقوبة بالخلود في النار.

مَدَارُ الْعِبَادَةِ وَعُنْوَانُ السَّعَادَةِ:

٢١٨-﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ[1] ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾

هذه ثلاثة أعمال هي عنوان السعادة، وعليها مدار العبادة، وبها يُعرف الربح والخسران، وهي : الإيمان والهجرة والجهاد:

١- أما الإيمان فهو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وأهل الجنة وأهل النار، وإذا وُجد الإيمان قُبلت جميع أعمال الخير، وإذا عُدم لم يُقبل من العبد صَرْف ولا عَدْل ولا فرض ولا نفْل.

٢- أما الهجرة، فهي مفارقة الأهل والمال والوطن، تقرُّبًا إلى الله تعالى، ونُصرة لدينه، وكذا هجرة المعاصي والذنوب طلبا لمرضاة الله تعالى.

٣- أما الجهاد، فهو جهاد النفس والهوى والشيطان، وجهاد العدو ودفع الصائل، وهو ذروة سنام الإسلام، وجزاؤه أفضل الجزاء.

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (رحمت) بالهاء، وهي لغة فصحى، ووقف الباقون بالتاء موافقة لرسم المصحف.

فمن حقق هذه الثلاث، فقد أتى بالأسباب الموجبة لرحمة الله تعالى، ومغفرة الذنوب وستر العيوب، وإذا حصلت المغفرة اندفعت عقوبات الدنيا والآخرة، وإذا حصلت الرحمة تحقق كل خير في الدارين.

قال قتادة: أثنى الله على أصحاب رسول الله ﷺ (أهل هذه السرية) أحسن الثناء، فبين أنهم يرجون رحمة الله بإيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وهؤلاء هم خيار الأمة، ثم جعلهم أهل رجاء في رحمة ربهم وعظيم أجره.

وعن جندب بن عبد الله: أنه لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان؛ قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزرًا فليس لهم أجر.

وقيل: إن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله، هل نؤجر على هذا، ونطمع أن يكون لنا أجر غزوة؟ فأنزل الله الآية، وهي تفيد أن عبد الله بن جحش لا عتاب عليه فيما فعل، وأنه كان مؤمنًا ومهاجرًا، وبسبب هذه السرية كان مقاتلًا مجاهدًا، فبين سبحانه أن هؤلاء الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، وتركوا ديارهم، وجاهدوا في سبيله، وهم يطمعون في رحمة الله وثوابه، فالله تعالى غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم رحمة واسعة.

الْحُكْمُ الثَّالِثَ عَشَرَ: التَّدَرُّجُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ

٢١٩- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ[(١)] إِثْمٌ كَبِيرٌ[(٢)] وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ[(٣)] قُلِ ٱلْعَفْوَ[(٤)] كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ

---

(١) ضم الهاء من (فيهما) يعقوب، وكسرها الباقون.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (إثم كثير) بالثاء المثلثة، والكثرة باعتبار الآثمين من الشاربين والمقامرين، وقرأ الباقون (إثم كبير) بالباء الموحّدة؛ أي: إثم عظيم، وضم الهاء من (فيهما إثم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٣) عدا لفظ (ينفقون)آية، المصحف المكي والمدني الأول، وتركها من العدد بقية المصاحف: المدني الأخير والشامي والبصري والكوفي.

(٤) قرأ أبو عمرو (قل العفوُ) بالرفع، على أن (ما) استفهامية، و(ذا) اسم موصول، فوقع جوابها مرفوعًا، وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الذي ينفقونه العفوُ، وقرأ الباقون بالنصب، على أنه مفعول مقدم؛ أي: أنفقوا العفوَ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ⁽¹⁾ ﴿٢١٩﴾﴾

في النصف الأول من ربع ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أربعةُ أسئلة وُجهت إلى النبي ﷺ، فسورة البقرة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وقد كان الصحابة يتحرَّوْن ويتأكدون قبل أن يفعلوا شيئًا حتى يسألوا رسول الله ﷺ عن حكم هذا الشيء؛ مخافةَ أن يكون من عمل الجاهلية، كسؤالهم عن حكم القمار، وهو أخذ المال أو إعطاؤه بالمقامرة؛ أي: المغالبة عن طريق الميسر الذي فيه عوض من الطرفين.

ومن بين هذه الأسئلة سؤالهم النبي ﷺ عن الخمر شربًا وبيعًا وشراء وتعاطيًا.

والخمر: كل ما خَامر العقل فستره أو غطّاه، مأكولًا أو مشروبًا، يسألونك عن حكم الخمر شربًا وبيعًا وشراءً، قال سبحانه: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: أضرار ومفاسد كثيرة في الدين والدنيا، وفي العقول والأموال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء، وهذا أكبر من كسب المال المحرم عن طريق الخمر والقمار وفي هذا زجر للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويتجنب ما ترجحت مضرنه، وهذه الآية مقدمة للتحريم النهائي.

وبينت آية سورة المائدة أن هذا الإثم الكبير هو إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وفي قراءة (إثم كثير) بالثاء المثلثة؛ أي: للشاربين الآثمين من تعاطيها وبالتخاصم والتشاتم وقول الفحش والزور والجناية على العقل، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة وكسب المال بلا تعب ولا مشقة، وكانوا يتاجرون بها في رحلتي الشتاء والصيف، ويبيعونها بثمن أكبر في الحجاز واليمن والشام.

فالمنافع هي أثمان الخمر قبل تحريمها، أما بعد تحريمها فكل ما حَرُم أكله أو شربه حَرُم ثمنه، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لأنهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويُتْلِفان المال والعقل، وكان هذا تمهيدًا لتحريمهما حرمة قطعية.

---

(١) عدّ كلمة (تتفكرون) آية، المصحف الشامي والمدني الأخير والكوفي، وليست بآية في بقية المصاحف.

وهذه الآية هي الثانية من الآيات الأربع التي نزلت في تحريم الخمر على سبيل التدرج، ذلكم أن الإسلام كان إذا حرَّم أمرًا اعتقاديًا كالشرك بالله مثلًا فإنه يُحرمه دَفْعَةً واحدة، ولا يتدرج فيه، فإذا حرم أمرًا عمليًا ألِفَه الناس واعتادوه، وظلوا عليه وقتًا طويلًا، فإنه يتدرج معهم في تحريمه، ومن ذلك الرِّبا والخمر، وقد نزل في تحريم الخمر أربع آيات في **مراحل أربع**:

الآية الأولى: نزلت في مكة من سورة النحل، مع أن الحلال والحرام نزل تشريعُه بعد الهجرة في المدينة، فمن فَجْرِ الدَّعْوَة حرم الإسلام الخمر بطريقة غير مباشرة، فيها إشارة إلى ذمها، وأن الإسلام يبغضها، قال سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ما يُسكِر وهو الخمر ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

فالله سبحانه وصف الرزق بأنه حسن؛ فأثنى عليه، وسكت عن الخمر، وفي هذا تعريض بالذم غير مباشر.

وقد بين عمر ﷺ وهو على منبر رسول الله ﷺ أن الخمر تؤخذ من خمس: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، وكل ما خامر العقل فهو حرام[١].

وفي الآية ذكر للتمر والعنب، وكان الخمر يُتخذ منهما غالبًا، وهذا أولى مِن أن يكون المراد بلفظ (سكر) الشيء الحلو، وهذه هي المرحلة الأولى في تحريم الخمر، وكانت الخمر عادة لسائر الناس، شائعة منتشرة كشرب الماء.

والآية الثانية: هي هذه الآية من سورة البقرة، وقد سأل جمْع من الصحابة فيهم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين، سألوا رسول الله ﷺ عن حُكم الخمر، قالوا: يا رسول الله، إنها مُذْهِبةٌ للعقل، مُسْلِبة للمال[٢].

أي: أن فيها ذهاب للعقل، وضياع المال، وهلاك للبدن والدين.

وسألوه أيضًا عن الميسر؛ وهو القمار، وسمي كذلك؛ لأنه كسب للمال بيسر وسهولة،

---

(١) يُنْظَر الحديث في «سنن أبي داود» (٣٦٦٩)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٣١١٦) وصحيح سنن الترمذي (١٩٥٢).

(٢) يُنْظَر الحديث عند ابن أبي شيبة (٧/ ١١٢)، وعند أحمد في المسند.

بلا كَد ولا تعب، حيث يكون الكسب فيه عن طريق القرعة، ولعب الورق والنرد والشطرنج، وفيه ضياع للمال، وضياع للوقت، وترك للواجبات والمستحبات، وإيغار للصدور، وإيقاظ للفتن، وفيه أكل للمال بالباطل.

ويشمل الميسر: كل ما فيه مغالبة بين طرفين على عوض، سوى مسابقات الخيل والإبل والسهام فقد أباحها الشرع لأنها تعين على الجهاد.

ولما سأل الصحابة عن تعاطي الخمر والميسر أمر الله رسوله بالجواب ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وذنب عظيم، وفيهما منافع دنيوية بالتجارة، ولكنَّه كسب حرام غير مشروع، وكل ما حرمه الإسلام حَرَّم بيعه وشراءه والتعامل فيه، وحَرم أن يُتخذ حرفة ومهنة.

وفي الخمر نشوة الشرب ولذته وذهاب العقل والمال والفرح والطرب، وكل ذلك حرمه الإسلام، وأيُّ مال يأتي عن طريق حرام يحرم الانتفاع به، فكل جسم نبت من سُحت فالنار أولى به.

والنبي ﷺ قال في شأن التي تزني وتتصدق بما تجمعُه من الزنى فتطعم الأيتام من كد فرجها: «**ليتها لم تزنِ ولم تتصدق**».

والمال الذي يأتي من هذا الطريق لا يفيد الأمة في شيء، بل يفسدها، ويكون وبالًا ودمارًا عليها، وعاقبته وخيمة؛ لأنها تستحل ما حرم الله، فاستخدامه في التسليح ضد العدو من شأنه أن يجلب الهزيمة، واستخدامه في مصالح الأمة من شأنه أن يضرها ويفسد أجيالها، واقتصاد البلاد التي يدخلها الرِّبا والخمر والميسر والملاهي ونحو ذلك، فهو اقتصاد مدمر للعباد، يحمل في طياته فساد الشباب وهزائم البلاد، وليس في الخمر منافع بدنية، فالخمر ضارة ومهلِكة للعقل والبدن، ولم يجعل الله شفاء الأمة فيما حَرَّم عليها، وما سميت خمرًا إلا لأنها تخمر العقل؛ أي: تغطيه وتهلكه وتفسده، وتجعل الإنسان مساويًا للحيوان؛ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: منافع دنيوية؛ بالتجارة قال تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

قال علي ﷺ: لو وقعتْ قطرة في بئر فبُنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في

بحر ثم جفَّ ونبت فيه الكلأ لم أرْعَه.

الآية الثالثة: قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] لما نزلت هذه الآية كانوا لا يشربونها عند الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها، فما يأتي الظهر حتى يذهب عنهم السكر، ثم إن ناسًا شربوها فقاتل بعضهم بعضًا، وتكلموا بما لا يُرضي الله من القول؛ فأنزل الله آية المائدة.

وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ قد دعا جماعة فأطعمهم وسقاهم، فشربوا وسكروا، فأَمَّ بعضُهم في صلاة المغرب، وقرأ في صلاته: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾ (أعبد ما تعبدون)، بحذف ﴿لَآ﴾ فأنزل الله سبحانه هذه الآية يمنع المسلم أن يقرب الخمر في أوقات الصلوات الخمس، والصلاة تتخلل الليل والنهار، فكان منادي النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا قامت الصلاة ينادي: لا يقربَنَّ الصلاة سُكارى؛ فكانوا بعد نزول هذه الآية يشربون الخمر بعد العِشاء وبعد الصبح.

الآية الرابعة: دعا عثمان بن مالك جماعة، فيهم سعد بن أبي وقاص، وشوى لهم رأس بعير، فأكلوا وشربوا الخمر، فلما سكروا، تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر ﷺ: اللهم أنزل علينا في الخمر بيانًا شافيًا؛ فأنزل الله سبحانه الآية الأخيرة في تحريم الخمر من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فلما نزلت هذه الآية قال أصحاب النبي ﷺ وفيهم عمر: انتهينا ربنا انتهينا[١]

وكان ذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، وتركوا الخمر من فورهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: ٥١].

وشارب الخمر يُقام عليه الحد في الدنيا، ثمانون جلدة، ويكون فاسقًا إن اعْتَقَد حرمتها

---

(١) يُنْظَر: أبو داود برقم (٣٦٧٣) وفي صحيح سنن أبي داود (٣١٢٠) والترمذي برقم (٣٠٤٩) و«سنن النسائي» (٨/٢٨٦) و«المستدرك» (٢/٢٧٨) وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٣٧٨) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

وشَرِبَها، فإن استحلها كَفَر، ومَن مات ولم يتب منها؛ فإنه يُحْرَم من شُربها يوم القيامة، بل يَشرب من طينة الخبال،وهي عُصارة أهل النار وصديدهم، ولا تُقبل صلاته أربعين يومًا وكل مسكِر خمر، وكل خمر حرام.

والخمر والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن في وقت واحد، وما أسكر كثيره فقليله حرامَ.

وفي وقت تحريم الخمر لم تكن هناك إذاعات ولا صُحف ولا وسائل إعلام؛ لتبليغ الناس، إنما كانت الدَّعْوَة شخصية مباشرة، فلما نزلت آية تحريم الخمر خرج بعض الصحابة ينادون في شوارع المدينة: ألا إن الخمر قد حُرِّمت، ألا إن الخمر قد حرمت، وكانت الخمر تُصنع في البيوت، ويألفُونها بشدة وغزارة، وكانت تدار كُؤوسها في جميع المجالس وقت نزول الآية، فلما سمعوا داعي الله: ألا إن الخمر قد حُرمت، قاموا من فورهم وسكبوا كُؤوسها في الشوارع، حتى سالت شوارع المدينة من الخمر، وأُريقت فيها، ولم يَتكلف الإسلام والمسلمون في تحريم الخمر أكثر من هذا النداء بالصوت المجرد، فسُكِبتْ في أزقّة المدينة.

في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أنس ﷺ قال: ما كان لنا خمر غير فضيخكم، وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأبا أيوب وفلانًا وفلانًا، إذ جاء رجل فقال: حُرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألوا عنها، وما راجعوها بعد خبر هذا الرجل[(١)].

(والفضيخ: شراب يتخذ من بُسر مطبوخ).

فلم يقولوا عند تركهم للخمر: نعقد مؤتمرًا، ونأخذ الأصوات، هل نمنعها أم لا؟ فالخمر محرمة في اليهودية، وفي النصرانية، وفي جميع الشرائع الإلهية، وما حرمه الله لا يُؤخذ فيه رأيُ أحدٍ من البشر، فهذا جهل فاضح، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] حينما يطرحُون قضية الخمر وأمثالها على الأمة، أو على ممثليها؛ ليقولوا رأيهم فيما حرم الله ورسوله؛ إذ ليس لأحد في هذا رأي، فلا اجتهادَ مع النص، ولا رأيَ لأحد فيما قَطَعَ فيه الشرع بحكم، فلا شورى ولا ديمقراطية فيما نص عليه الشرع، كيف هذا وقد حرمه رب العالمين؟! فليس للناس رأي فيه، وإن قالوا: إنه يُؤَثّر على اقتصاد البلاد، وإنه مورد من

(١) البخاري برقم (٢٤٦٤، ٤٦١٧) ومسلم (١٩٨٠).

موارد الأموال، ولوازم السياحة أو غير ذلك، فبئست الموارد المحرمة المفسدة للأمة ولشبابها، وإن كان الناس في أمس الحاجة إليها.

وقد لعن الإسلام في الخمر عشرة: **«عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها»**[١].

وكل ما يتعلق بالخمر حَرَّمه رب العالمين بقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ وهو أبلغ من (اتركوه) أو (هي حرام)؛ لأن (اجتنبوه) معناها: كونوا في جانب وهي في جانب آخر، فالذي يجانب الصواب يخالفه، والشخص الأجنبي عن المرأة هو الذي لا يحل له الخلوة بها وهكذا.

ولما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال الصحابة من فورهم: انتهينا يا رب.

وجاء في مراحل تحريم الخمر أن عمر ﷺ قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فإنها تَذْهبُ بالمال والعقل، فنزلت: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أنْ لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فقُرئت عليه؛ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا؛ فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا، انتهينا[٢].

وعن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومَن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يُدْمِنُها ولم يتب، لم يشربْها في الآخرة»**[٣]

وسئل النبي ﷺ عن الْبِتْعِ، وهو شراب العسل فقال: **«كل شراب أسكر فهو حرام»**[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس برقم (١٠٠٤١) في «صحيح سنن الترمذي» و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨١) وغيرهما.

(٢) «المسند» (٣٧٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات عن عمر رضي الله عنه وأبو داود (٣٦٧٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٣١١٧) والترمذي (٣٠٤٩) والنسائي (٥٥٥٥) والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٥٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١١٢) والحاكم (٢/ ٢٧٨). والبزار (٣٣٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٣) و«صحيح البخاري» (٥٥٧٥) وابن ماجه (٣٣٨٧) والترمذي (١٨٦٤) و«المسند» (٤٦٤٤) وابن حبان (٥٣٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٠٧٢) وما بعده.

(٤) البخاري (٥٥٨٥) ومسلم (٢٠٠١) وأبو داود (٣٦٨٢) والترمذي (١٨٦٣) وابن ماجه (٣٣٨٦) و«المسند» (٢٤٠٨٢) وابن حبان (٥٣٤٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٠٨١-٥٠٨٤).

ونهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومُفَتِّرٍ[١]

وفي حديث عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرْقُ فمِلْءُ الكف منه حرام**»[٢]

قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر.

وفي سفر اللاويين من التوراة (وكلم الله هارون قائلًا: خمرًا ومسكرًا لا تشرب).

السؤال الثاني في هذا الربع: سؤال عن نفقة التطوع

وقبل فرْض الزكاة وبيان أنصبتها كان النبي ﷺ يحث على الصدقة والإنفاق في سبيل الله بوجه عام، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن القدْر الذي ينفقونه من أموالهم تبرعًا وصدقة؛ فكان الجواب من الله ميسرًا، قل لهم يا محمد: أنفقوا القدْر الذي يزيد عن حاجتكم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾ يعني: أنفقوا اليسير الذي يَفْضُل عن نفقتكم، ونفقة أهليكم، ومَن تعولون، وأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وللقريب الذي يُبْغِضَك.

وكان التصدق بما زاد عن حاجة المسلم اليومية فرْضًا في أول الإسلام، فكان الرجل يأخذ قوته اليومي فحسب، ويتصدق بما زاد عن ذلك، ثم نُسخ هذا بفريضة الزكاة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة وحكيم بن حزام رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»[٣]

---

(١) أبو داود برقم (٣٦٨٦) عن أم سلمة ﷺ والمسند (٢٦٦٣٤) قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره دون قوله (ومفتر) وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير الفُقَيمِيّ فمن رجال البخاري، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٠٣) والطبراني في الكبير ٢٣ (٧٨١) والبيهقي في السنن (٨/ ٢٩٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٦٨٧) وهو في صحيح سنن أبي داود (٣١٣٤) وصحيح سنن الترمذي (١٩٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٢٦، ١٤٢٨، ٥٣٥٥، ٥٣٥٦) وعن حكيم بن حزام (١٤٢٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣٤) وأبو داود (١٦٧٦) والنسائي (٢٥٤٣).

٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: أعتق رجل من بني عُذْرَة عبدًا له عن دُبُر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألك مال غيره؟**» قال: لا، فقال ﷺ: «**مَن يشتريه مني؟**» فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمئة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا**» يقول: «**فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك**»(١).

فالمراد بالعفو: ما يفضُل عن حاجة الإنسان وحاجة أهله وعياله.

٣- كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كفى بالمرء إثما أن يضيع مَن يعول**»(٢).

٤- وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**»(٣).

٥- وفي صحيح مسلم، عن خيثمة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كفى بالمرء إثْمًا أن يحبس عمَّن يملك قوتَه**»(٤)

وهكذا أمر الله رسوله أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم.

وهذه الآية تنتهي بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي معدودة آية في ثلاثة مصاحف؛ هي: المدني الأخير والشامي والكوفي، والمصحف الذي بين أيدينا بالرسم الكوفي؛ لأن حفصًا قرأ على شيخه عاصم، وهو أحد أئمة القراءة الثلاثة الذين كانوا بالكوفة وهم: عاصم وحمزة والكسائي، وهي غير معدودة آية في المصحف المدني الأول، والمصحف المكي والشامي، وهي آية شديدة التعلق بما بعدها، والبدء بها في

---

(١) يُنْظَر: «صحيح مسلم» برقم (٩٩٧).

(٢) يُنْظَر: «صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٤) بإسناد حسن، وهو في سنن أبي داود (١٦٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٧٦، ٩١٧٧) والحاكم (٤/ ٥٠٠).

(٣) «المسند» (٢٢٢٦٥) ومسلم (١٠٣٦) والترمذي (٢٣٤٣).

(٤) مسلم (٩٩٦).

التلاوة لا يؤدي معنى صحيحًا، فالأَوْلَى وَصْلَها بما قبلها؛ ليتم المعنى، لا سِيَّمَا وأنه مختلَف في كونها آية من عدمه، والسبب في عدها آية وعدم عدها أن النبي ﷺ وقف عليها مرة وتركها مرة.

الْحُكْمُ الرَّابِعَ عَشَرَ: إِصْلَاحُ مَالِ الْيَتِيمِ

٢٢٠-﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ[1] إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

أي: ومثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم الآيات وأحكام الشريعة؛ لكي تتفكروا فيما بيَّنه الله لكم في الدنيا والآخرة، فتدركوا أن الدنيا فانية فلا تركنوا إليها، وأن الآخرة باقية وأنها دار جزاء فتعملوا لها.

هذا: ولما نزل قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] لما نزلت هاتان الآيتان تحرَّج المسلمون من أموال اليتامى تحرجًا شديدًا حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم وأكْل فضول طعامهم، واشتد ذلك عليهم.

وكان عند بعض الصحابة أموال لليتامى بحكم الوصاية والولاية والقرابة، فلما نزلت الآيتان تحرَّجوا، وذهب كل منهم إلى بيته يَعزِل مال اليتيم عن ماله، ويعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه حتى لا يقربه، فسألوا النبي ﷺ عما هو أصلح لشأن اليتيم، وورد أن السائل: عبد الله بن رواحة؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: كيف يتصرفون في معاشهم وأموالهم؟ فأمرهم الله تعالى أن يفعلوا الخير لهم دائمًا ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، فإذا كان في خلْط أموالهم بأموالكم خير لهم فافعلوا، وإن كان في عزل أموالهم عن أموالكم خير لهم فافعلوا، افعلوا ما فيه خير لهم من غير أخذ عوض ولا أجر، والمقصود بإصلاح أموال اليتامى: حفظها وصيانتها واستثمارها وتنميتها بالطرق المشروعة.

---

(١) قرأ البزي بتسهيل همزة (لأعنتكم) بخلف عنه وصلًا ووقفًا، وحققها الباقون ومعهم البزي في وجهه الثاني.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ في سائر شؤون المعاش من طعام ونحوه على وجه لا يضر بهم ولا يجور عليهم فهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين، والأخ يصلح شأن أخيه.

قال ابن عباس ﷺ: المخالطة أن تشرب من لبنه، ويشرب من لبنك، وتأكل من قصعته، ويأكل من قصعتك، ويأكل من ثمرك وتأكل من ثمره[1].

والله سبحانه يعلم حقيقة الأمر، ويطلع على السرائر والنوايا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها، وفي هذا وعيد لمن يفسد أموالهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ فضيق عليكم بتحريم المخالطة، وفي هذا تكليف بما يشق عليكم ولكنه سبحانه وسع عليكم، فرخص في ذلك رحمة بكم وتيسيرا عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه، قادر على أن يشق على عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعه وتدبير شؤون خلقه، فلا يكلف عباده إلا ما تتسع له طاقتهم، وعزته لا تنافي حكمته، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسَ عَشَرَ: زَوَاجُ الْوَثَنِيَّاتِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ

٢٢١- ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾

ثم تحدثت السورة في اثنتين وعشرين آية، بدءًا من هذه الآية إلى الآية الثانية والأربعين بعد المئتيْن عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والعِدة والنفقة والرضاعة والخِطبة والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بأحكام الأسرة، وبدأت الحديث عن ذلك بالحديث عن الزواج؛ لأنه اللَّبِنة الأولى في تكوين الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأساس في بناء المجتمع.

وكان المسلمون أيام نزول هذه السورة مختلطين مع المشركين الوثنيين بالمدينة، وما هم ببعيد عن أقربائهم في مكة، فربما رَغِب بعض المسلمين في الزواج من المشركات، أو رغب

(١) ابن أبي حاتم (٢٠٨٢).

بعض المشركين في الزواج مِن بعض المسلمات؛ فبين الله تعالى الحكم في هذه الأحوال التي قد تتطلع النفوس إليها، وهو كالحكم السابق في إصلاح المجتمع أفرادًا وجماعات.

وفي **أسباب النزول**: عن مقاتل بن حيان، أنّ رجلًا يقال له: مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوي، كان بينه وبين امرأة في مكة تسمى (عناق) علاقة سيئة، وهي امرأة بغي، مشركة، فأسلم مَرْثَد، ولَحِقَ برسول الله ﷺ مهاجرًا، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرسلُه في مهمة حمْل الأسرى من مكة إلى المدينة، وبينما هو ذات ليلة في مكة إذْ سَمِعتْ بِمَقْدِمه هذه المرأة، فذهبت إليه وطَلَبتْهُ كما كان يحدث بينهما في الجاهلية، فقال لها: إن الإسلام قد فرق بيني وبينك، إن الإسلام قد حرَّم الزنى، وحرم الخلوة بيننا، فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ قال: حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فلما أبى أن يتزوجها استعْدَتْ عليه القوم، فضربوه ضربًا شديدًا ثم خَلَّوْا سبيله، فلما رجع إلى المدينة قال: يا رسول الله، أيحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ كما أنزل الله تعالى في الموضوع نفسه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [سورة النور: ٣].

والنكاح في الأصل هو الوطء، ثم غَلَب على عقد النكاح؛ أي: أنه لا ينبغي ولا يليق بالزاني أن يتزوج إلا بمثله، فالطيور على أشكالها تقع ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

ومن هذا الختام للآية استنبط بعض العلماء تحريم الزواج بالزانية، وفَهِم البعض الآخر: أن الذي حرمه الله تعالى هو الزنى وليس الزواج، ولكن العفيف المحصن تعاف نفسه الأبية إلا أن يتزوج من عفيفة محصنة حيث لا يليق به إلا ذلك، قلت: ولعله الأصوب.

وهذه الآية من سورة البقرة تُحَرِّم الزواج من الوثنية على كل مسلم؛ حتى يؤمنَّ بالله ورسوله ويلتزمْنَ بأحكام الإسلام، والمشركة في الآية هي الوثنية كالبوذية والهندوكية والسيخية وعابدة البقر، وهي التي لا تَدين باليهودية أو النصرانية ولا بغيرهما من الرسالات الإلهية، فهي كافرة وثنية لا تعرف ربًّا ولا إلهًا، ولا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وحشر ونشر وجزاء وجنة ونار.

وفَرْقٌ بين الوثنية وأهل الكتاب؛ فأهل الكتاب يقال لهم أيضًا: مشركون كافرون؛ إذ ليس هناك شرك أعظم من قول اليهود: عزير ابن الله، ولا أعظم من قول النصارى:

المسيح ابن الله، فهذا شرك صريح، وهم أيضًا كفار؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، وكل مَن لم يؤمن برسالته ﷺ فهو كافر.

فالشرك والكفر يندرج تحته اليهود والنصارى بنص الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

وقال أيضا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسُ محمد بيده لا يَسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**(١)

وفي الآية حُكم عام مخصوص بآية المائدة التي تجيز الزواج من الكتابية الحرة العفيفة، فالكتابية ليست داخلة في هذا التحريم؛ لأن الإسلام ينظر إلى أصل الديانة، وأصل الديانة اليهودية والنصرانية هو التوحيد، والشرك طارئ عليهما؛ بسبب التحريف والتغيير، والأصل أيضًا هو الإيمان برسول الله محمد ﷺ خاتمًا للنبيين والمرسَلين لكل مَن وُجد مِن الثقلين بعد البعثة النبوية.

والأصل هو الإيمان برسل الله السابقين، كل منهم في زمانه، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

فالمسلم لا يتزوج المشركة، التي لا تؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، كالوثنية والشيوعية والمجوسية والملحدة والعلمانية وعابدات الوثن؛ حتى يدخلْن في الإسلام، فلا توالوهم ولا تصاهروهم.

واعلموا أن أَمَةً رقيقة ضعيفة مسكينة مؤمنة بالله واليوم الآخر خيرٌ وأنفعُ وأفضلُ وأصلحُ

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (١٥٣) وهذا لفظه وهو في «المسند» (١٩٥٣٦) و«زوائد البزار» (١٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٧٧) ثلاثتهم عن أبي موسى.

من حُرَّةٍ مشركة صاحبة مال وحسب ونسب، ولو أعجبكم جمالها.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ نزلت في أَمَة اسمها (خنساء)، كانت لحذيفة بن اليمان، فقال: يا خنساء، قد ذُكرتِ في الملأ الأعلى على سوادك ودَمامتك، فأعتقَها وتزوجها.

وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة ﷺ كانت عنده أمة سوداء فغضب عليها يومًا ولطمها، ثم فزع؛ فأتى النبي ﷺ فأخبره، قال: وما هي يا عبد الله؟ فأخبره بإسلامها وحُسْن إيمانها، فقال ﷺ: «**هذه أمة مؤمنة**» فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها وأتزوجها، ففعل، فقال أناس: أتتزوج أمة؟ وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله الآية[1] لأن المؤمنة مهما بلغت من الدمامة فهي خير من المشركة مهما بلغت من الحسن.

ويحرم على المسلمة أن تتزوج المشرك، ويحرم على المسلم أن يتزوج مشركة ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أي: ولا تُزوِّجوا نساءكم المؤمنات إماءً أو حرائر إلى المشركين من الوثنين ولو أعجبكم حُسْنهم وأموالهم ومناصبهم حتى يؤمنوا بالله ورسوله.

ويجوز للمسلم أن يتزوج اليهودية أو النصرانية أخذًا من قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥] أي: أحل الله لكم التزوج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، من اليهود والنصارى إذا آتيتموهن أجورهن؛ أي: إذا دفعتم المهر لهن، وأنتم أهل عفة وطهارة غير متخذين منهن خليلات ولا عشيقات.

فأباح القرآن الكريم أن يتزوج المسلم باليهودية أو النصرانية باعتبار أن أصل الديانة هو التوحيد، وأن الإسلام يطمع في إسلامها؛ لأنها آمنت بعيسى أو بموسى عليهما السلام، وهذا يجعلها تؤمن بالوحي الذي نزل على محمد ﷺ، وهي تأمن على دينها عند المسلم؛ لأن المسلم يعترف بالرسالات السابقة، وأنها رسالات صحيحة سَبقت الإسلام ومَهَّدَتْ له، وقد نسخها الإسلام، ويطمع في أنَّ أولادها يَخْرُجُون مسلمين لأبيهم.

---

(١) يُنْظَر الأثر (٤٢٢٥) عن السدي في «تفسير الطبري» و«أسباب النزول» للواحدي ص٥٠ وابن عساكر (٢٨، ٩٠).

أما أن يتزوج الكتابي من المسلمة، فإن الأمر يختلف؛ لأنه لا يعترف بالإسلام، ولا يقرُّ به، بخلاف المسلم، فهو يعترف بالكتابية ويقرُّ بها، فهي تأمن على دينها معه، والرجل هو القوام على المرأة؛ ولذلك فإنه لا يجوز أن نزوج بناتِنا لغير المسلمين، والنكاح باطل إن حدث هذا.

عن زيد بن وهب قال: قال عمر: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة(١).

وعن شقيق بن سلمة الأسدي قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خل سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟! فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكن أخاف أن تَعَاطُوا المومسات منهن(٢).

وقد كره عمر الزواج من الكتابيات مخافةَ أن يزهد الناس في المسلمات، وليس في وُسْع عمر أن يحرم ما أحله الله، ولكن نظرته هذه تشبه ما يتخذه بعض الحكام من قرارات تمنع رعايا بلدانهم أن يتزوجوا مسلمات من بلد آخر؛ خوفًا من العنوسة التي قد تحدث في بلاده.

ومما عمّت به البلوى في هذا الوقت- نتيجة ما يسمى بالتطبيع مع العدو الإسرائيلي- كثرة زواج العرب المسلمين من بنات اليهود، فهل أَمِنُوا فقه عمر ﷺ؟! والمرأة عند اليهود سلعة، لا تَردُّ يَدَ لامس، وهل أَمِنُوا الجاسوسية والمكر اليهودي بالتغلغل في ديار المسلمين وبين صفوف الجيش ومعرفة خباياهم؟!

أحاديث في الزواج:

١- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»**(٣).

---

(١) إسناده صحيح متصل عن عمر كما في الطبراني برقم (٤٢٢٢).

(٢) رواه الطبري بإسناد صحيح (٤٢٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٩٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٦) وأبو داود (٢٠٤٧) والنسائي (٣٢٣٠) وابن ماجه (١٨٥٨) والبيهقي (٧/ ٧٩).

٢- وعن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا نكاح إلا بولي وشاهديْ عدل»**(١).

٣- وعن عائشة ﷺ أيضًا: **«والسلطان ولي من لا ولي له»**(٢).

٤- وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**(٣).

٥- وعن سهل بن سعد ﷺ قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: **«ما تقولون في هذا؟»** قالوا: حَرِي إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُسْمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: **«ما تقولون في هذا؟»** قالوا: حَرِي إن خطب ألا يُنكَح، وإن شفَع ألا يشفع، وإن قال ألا يُسْمع، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خيرٌ من مِلْءِ الأرض مثل هذا»**(٤).

٦- وعن هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا خطب إليكم مَنْ تَرْضوْن دينه وخلُقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»**(٥).

٧- وعن مُعاذ الجُهني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أَعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه**»(٦).

فهل المرأة اليهودية أو النصرانية من ذوات الدين اللاتي حث الرسول ﷺ على الزواج منها ؟ وهل هي امرأة صالحة تُعد خيرَ متاع الدنيا؟

---

(١) أخرجه البيهقي (٧/ ١٢٥) وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٢٥٨) ومثله عن عمران بن حصين وابن عباس، وفي المسند (١٩٥١٨) عن أبي موسى «لا نكاح إلا بولي» حديث صحيح، وعن عائشة (٢٦٢٣٥) بزيادة «والسلطان ولي من لا وليّ له» حديث صحيح، أفاده محققوه.

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٢٥) والبيهقي (٧/ ١٠٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٤٥٧).

(٤) البخاري (٥٠١٩) وابن ماجه (٤١٢٠).

(٥) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٨٦٥) (٨٦٦) وفي الإرواء (١٦٦٨) والسلسلة الصحيحة (١٠٢٢) وابن ماجه (١٩٦٧) والحاكم (٢/ ١٦٤) وعن أبي حاتم المزَني في البيهقي (٧/ ٨٢).

(٦) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٦) وهو في السنن (٢٦٥٥) وفي السلسلة الصحيحة (١/ ١١٣) و«المسند» (١٥٦١٧) صحيح لغيره، وبإسناد حسن (١٥٦٣٨) (محققوه) والحاكم (٢/ ١٦٤). والطبراني في الكبير ٢٠ (٤١٢).

قال سبحانه مبينًا العلة والسبب في عدم جواز الزواج من المشرك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ فلا تُزوجوا - أيها المسلمون - المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، واعلموا أن عبدًا مؤمنًا مع فقره خير من مشرك، وإن أعجبكم المشرك، وكذلك الأمة المؤمنة؛ لأن المتصفين بالشرك من الرجال والنساء يدعون كلَّ مَن يعاشرهم إلى النار.

والله سبحانه يدعو عباده إلى دين الحق المؤدي بهم إلى الجنة ومغفرة الذنوب، ويبين لكم آياته وأحكامه لكي تعتبروا وتتعظوا، قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: المشركين والمشركات ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فلا توالوهم ولا تصاهروهم، أما أولياء الله، وهم المؤمنون، فإنهم يدعون إلى الجنة، وما يوصل إلى المغفرة بإذنه تعالى، فيجب موالاتهم ومحبتهم ومصاهرتهم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسَ عَشَرَ: تَجَنُّبُ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ

٢٢٢- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ[١] فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾

كانت اليهود إذا حاضت المرأة فيهم يعزلونها في مكان وحدها، ويعتبرونها نجسة، تُنَجِّسُ أيَّ شيء لمسته، ولا يخالطونها في عِشْرة، فلا يأكلون معها، ولا يشربون حتى ينقطع الدم.

وكانت النصارى لا يفرِّقون بين المرأة وهي حائض أو غير حائض، فيفعلون معها كل شيء حتى الجماع، فسأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ عن حُكم الشرع في ذلك، ماذا يحل وماذا يحرم تجاه المرأة الحائض؟ فأنزل الله ﷻ يبين أنه لا يحرم على الحائض إلا الجماع[٢].

وكان المسلمون قد امتزجوا باليهود في المدينة، واستنُّوا بسنَّتهم في كثير من الأشياء، وقد جاء الإسلام بالوسطية والاعتدال في كل شيء، فللزوج أن يصنع معها كل شيء إلا

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (حتى يطَّهَّرن) بتشديد الطاء والهاء مضارع تطهّر، وقرأ الباقون (يطْهُرن) بسكون الطاء وضم الهاء مضارع طهُر.

(٢) يُنْظَر: «المسند» (٣/ ١٣٢) عن أنس و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٢)، وليس فيهما ذكر النصارى.

الجماع، وأنه يحل مخالطة المرأة وهي حائض، والأكل والشرب معها، ولا ينبغي عزلها وإخراجها من البيت بسبب الحيض الذي هو جبلة، وسنة الله في نساء بني آدم، وأنه يحل للرجل أن يتمتع بجميع جسمها وهي حائض، ما عدا الجماع في موضع الفَرْجِ.

كما حرَّم الإسلام إتيان المرأة في دبرها، وفي الفرج وقت الحيض، والنفاس، وإتيان النساء في أدبارهن لا يحرم شيئًا من المرأة على زوجها، كما يزعم بعض العامة.

قال سبحانه في شأن الحيض: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ والمحيض: هو الدم السائل من رَحِم المرأة في أوقات خاصة.

عن أنس ﷺ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ فقال ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل إلا أن يخالفنا في كل شيء، فراجعه أُسيْد بن حُضَير وعباد بنُ بشر فيما قالت اليهود فتغير وجهه ﷺ[1]؛ أي: غضبًا من قولهم، وإنكارًا عليهم؛ وذلك لأن اختلاط المني بالدم فيه أذى وضررٌ كبير يلحق بالرجل، ويلحق بالمرأة، ويلحق بالجنين، لو قُدِّر أن يكون بينهما ولد، وورد أن السائل هو أبو الدحداح الأنصاري.

وكان من قبائل العرب مَن يبغض الحائض؛ فيخرجونها من بيتها، ومنهم قوم من نصارى قضاعة بني سليح.

وكان نساء الأنصار لا يتركن أزواجهن يأتوهن من أدبارهن، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن إتيان الرجل امرأته وهي حائض.

وقد حرَّم الإسلام إتيان المرأة وهي حائض؛ لِمَا يترتب على ذلك من الأضرار المعروفة طبيًّا، والتي أشار إليها رب العالمين في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى

---

(١) يُنْظَر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٣٠٢) وفي «المسند» (٣/ ١٣٢) برقم (١٢٣٥٤، ١٣٥٧٦) وأبو داود (٢٥٨) والترمذي (٢٩٧٧) والنسائي (٢٨٧) وابن ماجه (٦٤٤) وأبو يعلى (٣٥٣٣) وابن حبان (١٣٦٢).

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾ يعني: اجتنبوا جماعهن في الفرج وقت الحيض؛ لأنه أَمْرٌ مُسْتَقْذَرٌ يضر مَن يقربه، فاجتنبوا جماع النساء مدة الحيض حتى ينقطع الدم ويغتسلْنَ، (حتى يطهرن) والقراءة الأخرى (حتى يطَّهَّرن) أي: يغتسلن من الحيض، وهي مفسرة للقراءة الأولى.

وأجمع أهل العلم على أنه يَحْرُم على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تغتسل، ولا ينبغي لكم أن تعتزلوهن في الأكل والشرب وغير ذلك، إنما اعتزلوهن في الجماع، واعتزلوهن في المحيض، ولا تقربوهن بالوطء والمجامعة حتى يطهرن، فإذا انتهى الحيض واغتسلَتْ المرأة حَلَّ إتيانها.

فلا يجوز إتيان المرأة وهي في الحيض، ولا يجوز إتيانها بعد انتهاء الحيض وقبل الاغتسال، فإذا برئت من الحيض فإنه يجب عليها أن تغتسل، وبعد الاغتسال يكون الجماع، وتكون الصلاة؛ لقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن بالماء ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ جامعوهن ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في الموضع الذي أحله الله لكم؛ وهو القبل لا الدبر، فانقطاع الدم شرط، يؤخذ من قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي يزول المانع والاغتسال شرط آخر، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي اغتسلن، فاغتسال الحائض واجب، وانقطاع الدم شرط لصحته، وإتيان المرأة يكون في موضع الحرث والنسل والولد أي: في المكان الذي أعدَّه الله تعالى لذلك.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[1].

وفي حديث أنس ﷺ «**اصْنَعُوا كل شيء إلا النكاح**»[2].

وفي حديث ابن عباس ﷺ «**أَقْبِل وأَدْبِر واتّق الدبر والحيضة**»[3]

كما يَحْرُم جماعُ المرأة وهي صائمة أو معتكفة أو مُحْرِمة بحج أو عمرة.

(١) «المسند» (٩٢٩٠، ١٠١٦٧) حديث محتمل للتحسين وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٢) والترمذي (١٣٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٠١٦، ٩٠١٧) والبيهقي (٧/ ١٩٨) وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢) ومسلم (٣٠٢).

(٣) المسند بإسناد حسن (٢٧٠٣) وأخرجه الترمذي (٢٩٨٠) والنسائي في الكبرى (٨٩٧٧) وأبو يعلى (٢٧٣٦) وابن حبان (٤٢٠٢).

فإن وقع العبد في المخالفة نتيجة ضعف، أو غفلة، أو نسيان، أو غلبة شهوة، أو جهل؛ بأن أتى المرأة في الحيض الذي هو موضوع الآية، فعليه أن يتوب إلى الله سبحانه، وأن يَندم على ما قصّر في حق الله جَلَّ شَأْنُهُ، وعلى مخالفته الشرعية التي وقع فيها، وعليه أن يَعْقِد العزم على أن لا يعود لمثل هذا أبدًا، وقد قال بعض أهل العلم فضلًا عن التوبة: يجب عليه أن يتصدق بدينار ونحوه(١).

ومن أدلة ذلك ما صح عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض قال: **«يتصدق بدينار أو بنصف دينار»**(٢).

وقال ابن عباس: إذا أصابها في الدم فدينار، وإذا أصابها في انقطاع الدم فنصف دينار(٣).

وقال ابن عباس كذلك أيضا: إن كان دمًا أحمر فدينار، وإن كان دمًا أصفر فنصف دينار(٤).

وقد أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض، وعلى أنه يجوز الاستمتاع بكل شئ دون الفرج.

سأل عبد الله بن سعد الأنصاري رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ فقال: **«لك ما فوق الإزار»**(٥).

ورَكِب مسروق إلى عائشة ﷺ فقال: السلام على النبي وعلى أهل بيته، فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحبًا! فأذنُوا له؛ فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي، فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني! فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت له:

---

(١) تنظر الأحاديث الواردة في ذلك في: «المسند» (١/ ٢٣٠) برقم (٢٢٠١) و(٢٧٨٨) و(٢٤٥٨) وهو صحيح موقوف، أفاده محققوه، وأبو داود (٢٦٦) والترمذي (١٣٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٨٤) عن ابن عباس مرفوعًا وموقوفا.

(٢) «المسند» (٢٠٣٢) وأبو داود (٢٦٤) والترمذي (١٣٦) والنسائي (٢٨٨) وابن ماجه (٦٤٠) والحاكم (١/ ١٧١) والبيهقي (١/ ٣١٤) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥٢٣).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٨) والحاكم (١/ ١٧٢) وهو موقوف على ابن عباس.

(٤) صحيح موقوف على ابن عباس كما في «صحيح سنن الترمذي» (١١٨).

(٥) «صحيح سنن الترمذي» (١٩٧) وابن ماجه (٦٥١) وأبو داود (٢١٢) وهذا لفظه.

كل شيء إلا فرجها[١].

وعنها ﵂ قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضًا فأراد النبي أن يباشرها، أمرها أن تَتَّزِر من فوْر حيضتها ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إرْبه كما كان رسول الله ﷺ يملك إرْبه[٢].

والمباشرة تعني: ملامسة الجلد للجلد، وهي جائزة فوق السرة ودون الركبة.

وقد قال النبي ﷺ لعائشة حين حاضت: «**إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم**»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ يدل على أنه ينبغي ترك المباشرة للمرأة فيما دون الفرج، وأن مباشرة الحائض وملامستها في غير الفرج وما يقرب منه جائز، وكان النبي ﷺ يأمر امرأته وهي حائض أن تأتزر ثم يباشرها كما سبق بيانه.

ويحرم على الحائض والجنب والنفساء: الصلاة والصوم ودخول المسجد ومس المصحف وحمله والطواف بالبيت، وتفعل المرأة كل ذلك بعد الغسل من الحيض أو النفاس أو الجنابة، والصلاة لا تُقْضَى تخفيفًا ورحمةً من الله تعالى، أما الصوم فإنه يُقْضَى؛ لأنه يأتي في العام مرة.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي كثيري التوبة والندم والاستغفار؛ بسبب ما وقع منهم من مخالفات شرعية، ومن ذلك أنهم خالفوا ووقعوا في هذا الأمر، والله سبحانه يحثهم على التوبة والرجوع إليه وعلى عدم العودة لمثل ذلك في قوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ الذين يبتعدون عن الفواحش والأقذار، والتائب مِن الذنب كمَن لا ذنب له، والله أفرح بتوبة أحدكم من فرح أحدكم بضالته إذا وجدها.

وفي حديث ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من**

---

(١) رواه الطبري برقم (٤٢٤٥) وإسناده صحيح.

(٢) الحديث في البخاري (١/ ٦٣) برقم (٣٠٢) ومسلم (١/ ٩٥) برقم (٢٩٣) وأبي داود (١١٢) برقم (٢٦٨، ٢٧٣) وابن ماجه (٦٣٥) والنسائي (١/ ٥٤) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٤).

(٣) البخاري (٢٩٤) ومسلم (١٢١١).

التوابين، واجعلني من المتطهرين، فُتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء»[١].

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعَ عَشَرَ: مَوْضِعُ الْحَرْثِ

٢٢٣-﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ[٢] وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

في الصحيح عن جابر ﷺ قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل أهله من ورائها (في قُبلها) جاء الولد أحول فنزلت الآية[٣].

فكان اليهود يعتقدون أن الرجل إذا أتى امرأته في قُبلها من ناحية دبرها فإن الولد يخرج أحولًا، فأنزل الله ﷻ يُكَذب هذا القول، وبين أنه يحل للرجل أن يأتي امرأته في قُبلها في موضع الحرث والولد والزرع من أيِّ جهة، وعلى أي فعلة أراد ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ في صمام واحد هو موضع النسل، فنساؤكم موضع زرعكم، تضعون النطفة في أرحامهن؛ فيخرج منها الولد بمشيئة الله تعالى، فجامعوهن على أيِّ هيئة، ومن أيِّ جهة ما دام الجماع في القُبُل، ولا يصح ما يدعيه اليهود من أن الولد يخرج أحولًا إذا أتى امرأته في قبلها من ناحية دبرها.

ومن أتى المرأة في قبلها من جهة دبرها، أي مقبلة أو مدبرة ما دام ذلك في صمام واحد هو الفرج، فلا مانع منه، **وهذه جملة من الأحاديث والآثار في ذلك:**

١- وعن ابن عباس ﷺ أن عمرَ ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: هلكتُ يا رسول الله، قال: وما أهلكك؟ قال: حولتُ رَحْلي الليلة، قال: فلم يردّ عليه شيئًا، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ بهذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[٤] أيْ: أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة.

---

(١) «صحيح دون قوله (**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**) سنن الترمذي» (٤٨)، وهو في السنن(٥٥).

(٢) قرأ الأصبهاني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء من (شئتم) وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٥٢٨) و«صحيح مسلم» (١٤٣٥) وأبو داود (٢١٦٣) والترمذي (٢٩٧٨). وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٧٠٣) وقال الهيثمي في«المجمع» (٦/٣١٩): رجاله ثقات

(٤) قال الترمذي: حسن غريب، «السنن» برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (١/٢٩٧) برقم (٢٧٠٣) بإسناد حسن والنسائي في«الكبرى» (٨٩٧٧، ١١٠٤٠) وأبو يعلى (٢٧٣٦) وابن حبان (٤٢٠٢) والطبراني (١٢٣١٧) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٨١).

٢- وعن عبد الرحمن بن سابط قال: سألت حفصة بنت عبد الرحمن، فقلت لها: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي أن أسألكِ عنه، قالت: سل يا أخي عما بدا لك، قال: أسألُكِ عن إتيان النساء في أدبارهن، فقالت: حدَّثَتْني أم سلمة قالت: كانت الأنصار لا تُجبي (أي: لا تُكَبُّ المرأة على وجهها كهيئة السجود)، وكانت المهاجرين تُجبي، وكانت اليهود تقول: إنه مَن جَبى امرأته كان الولد أحول.

فلما قدِم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فأبت امرأة أن تطيع زوجها، وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فأتت أم سلمة فذكرتْ لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحْيَت الأنصارية أن تسأله فخرجتْ، فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ فقال: **«ادعوها لي»** فدُعيت، فتلا عليها هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ صِمَامًا واحدًا، قال: والصِّمَام: السبيل الواحد[١]؛ أي: مسلكًا واحدًا هو الفرج.

٣- وعن عكرمة أن رجلًا جاء إلى ابن عباس ﷺ فقال: كنت آتي أهلي في دبرها، وسمعت قول الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فظننت أن ذلك لي حلال، فقال: يا لُكع، إنما قوله ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قائمة، وقاعدة، ومقبلة، ومدبرة، في أقبالهن، لا تعْدُ ذلك إلى غيره[٢].

٥- وعن بهْز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا نبي الله، نساؤنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: **«حَرْثُك، ائت حرثَك أنى شئت، غير ألا تضربَ الوجه ولا تُقَبح، ولا تَهْجُرَ إلا في البيت، وأطعم إذا طَعِمْت، واكْسُ إذا اكتسيْت، كيف وقد أفضى بعضكُم إلى بعض، إلا بما حل عليها»**[٣].

(١) «المسند» (٢٦٦٠١، ٢٦٦٤٣، ٢٦٦٩٨، ٢٦٧٠٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٣٠) والترمذي (٢٩٧٩) وهو حديث صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٨) وأخرجه الدارمي (١١١٩) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦١٢٩) والطبري في تفسير الآية، وقال محققو «المسند»: إسناده حسن من أجل عبد الله بن عثمان بن خُثيم، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٢/ ٥٩٧).

(٣) حديث حسن صحيح، «صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٦، ١٨٧٧) و«المسند» (٢٠٠٣٠، ٢٠٠٤٥) والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٠).

فأتوهن في محل الحرث؛ يعني: بذر الولد بالنطفة في قُبُل المرأة؛ لأن الدبر ليس محلًّا لبذر الأولاد كما قال تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي: باشروهن في محل ابتغاء الولد، وهو القُبل من أيِّ اتجاه كان دون الدُّبُر.

وتحويل الرحْل الذي جاء في السؤال الذي في الحديث الأول، معناه: الإتيان في المحل المعتاد للمرأة من جِهة ظهرها، وهو ما يتفق مع سياق الآية.

٥- وعند أبي داود من حديث ابن عباس ﷺ أن أهل الكتاب كانوا لا يأتون النساء إلا على حَرْف (أي: على جنب) فقلَّدهم حي من الأنصار، فلما قدم المهاجرون تزوج رجل منهم بامرأة من الأنصار، فأخذ يتلذذ بها مقبلة ومدبرة ومستلقية كما كانت قريش تفعل في مكة، فقالت له: إنا كنا نُؤتَى على حَرْف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية يبيح الوطء في موضع الولد مقبلة أو مضطجعة أو مدبرة أو مستلقية في مكان الحرث، لا مكان الفرث[١]

٦- ومثل ذلك: كان أهل حيٍّ من قريش يَشْرَحُونَ النساء شَرْحًا (أي: يطؤوهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات)، فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرتْ عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فبلغ أمرهما النبي ﷺ فأنزل الله الآية[٢].

وإتيان المرأة على حرف هو أستر شيء بالنسبة لها.

٧- وعن زيد بن أسلم عن ابن عمر ﷺ أن رجلًا أتى امرأته في دبرها (أي: في قُبلها من جهة دبرها) فوجد في نفسه من ذلك وجْدًا شديدًا؛ فأنزل الله الآية[٣].

٨- وسئل نافع مولى ابن عمر ﷺ عن هذه الآية، فقال: كنا معشر قريش نُجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتَيْن على جنوبهن؛

(١) يُنْظَر: «سنن أبي داود» برقم (٢١٦٤) بإسناد حسن و«المعجم الكبير» (١١/ ٧٧).
(٢) جاء هذا في حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٦) وهذا من الحديث السابق.
(٣) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٩٨١) والطبري (٣/ ٧٥٣).

فأنزل الله الآية[١].

٩- وسألت امرأة حفصة ﵂ فقالت: إن امرأة أتتْها فقالت: إن زوجي يأتيني مُجَبِّيَةً ومستقبلة، فكرهتْه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«لابأس إذا كانت في صِمَام واحد»**[٢].

تنظيم النسل:

قيل: بجواز العزل أخذًا من الآية كما قال ابن عباس ﵁: حرثُك إن شئت فعطِّش، وإن شئت فارْوِ[٣].

١- عن جابر ﵁ قال: كنا نعزل والقرآن ينزل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا عنه[٤].

٢- وعن أبي سعيد ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزل؟ فقال: **«مِنْ كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلْق شيء لم يمنعْه شيء»**[٥].

٣- وعن جابر ﵁ أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية، وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تَحمل، فقال: اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قُدِّر لها، فذهب الرجل، فلم يلبثْ إلا يسيرًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، إن الجارية قد حملَتْ فقال: **«قد أخبرتُك أنه سيأتيها ما قُدِّر لها»**[٦].

٤- وعن جابر أيضًا قال: قلنا: يا رسول، إنا كنا نعزل، فزعمت اليهود أنها الموؤودة الصغرى؛ فقال: **«كذبت اليهود، إن الله إذا أراد أن يخلقه لم يمنعه»**[٧].

---

(١) «سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٩٧٨) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وأخرجه ابن مردويه والطبراني عن أبي النضر كما في «الدر المنثور» (٢/ ٦٠٦).

(٢) «مسند أبي حنيفة» برقم (١٠٢) ص١٣٧ .

(٣) عبد الرزاق (١٢٥٢٢) والبيهقي (٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنْظَر: «صحيح مسلم» (١٤٤٠) و«صحيح البخاري» (٥٢٠٩) وعبد الرزاق (١٢٥٦٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٩) والترمذي (١١٣٧) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٩٣) وابن ماجه (١٩٢٧).

(٥) مسلم (١٤٣٨) والبيهقي (٧/ ٢٢٩).

(٦) مسلم (١٤٣٩) وأبو داود (٢١٧٣) والبيهقي (٧/ ٢٢٩) وعبد الرزاق (١٢٥٥١) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٠).

(٧) حديث صحيح كما في «صحيح سنن الترمذي» (٩٠٨) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٧٨) وعبد الرزاق (١٢٥٥٠).

إتيان المرأة في دبرها:

وقد حرم الإسلام إتيان النساء في أدبارهن تحريمًا مأخوذًا من الآية الكريمة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في المكان الذي أعدَّه الله لذلك.

وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن.

وصَحَّتِ الأحاديث عن رسول الله ﷺ بتحريم ما يشبه اللواط؛ وهو فعل اللواط بالمرأة، بإتيانها من دبرها، صح ذلك في عدة أحاديث.

١- فعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ملعون من أتى امرأة من دبرها»**[(١)].

٢- وأنه يكفر بما أُنزل على محمد ﷺ كما في حديث أبي هريرة كذلك: **«مَن أتى امرأته وهي حائض، أو أتاها في دبرها؛ فقد كفر بما أنزل على محمد»**[(٢)].

٣- وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه يوم القيامة»**[(٣)].

٤- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه أن النبي ﷺ قال: **«تلك اللُّوطية الصغرى»**[(٤)].

وهو من أحاديث الوعيد والترهيب؛ وذلك لأنه تَرَك موضع الحرث والنسل، وأتى موضع الغائط.

---

(١) حديث حسن كما في «المسند» (٩٧٣٣، ١٠٢٠٦) وأبي داود (٢١٦٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٠١٥) و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٤).

(٢) «المسند» (٢/٤٠٨) برقم (٩٢٩٠، ٩٥٦١) حديث محتمل للتحسين و«صحيح سنن أبي داود» (٣٣٠٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٦٣٩) وأبي داود برقم (٣٩٠٤) والترمذي برقم (١٣٥).

(٣) «المسند» (٧٦٨٤) حديث حسن، رجاله ثقات وابن أبي شيبة (٤/٢٥٣) وأبو داود (٢١٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٩٠١١، ٩٠١٤) وهو حديث صحيح كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٦٠)، بلفظ (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد كما في «المسند» (٦٩٦٨) و(٦٧٠٦) والبيهقي (٥٣٨٣) قال محققو «المسند»: إسناده حسن، وقد اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أصح، وأخرجه النسائي في الكبرى (٨٩٩٧) والطيالسي (٢٢٦٦) والبزار (١٤٥٥).

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا لطلب الولد، وعند الجماع؛ بذكر اسم الله سبحانه، وقدِّموا لأنفسكم أعمالًا صالحة.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله فقال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدر بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبدًا**»(١)، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته، فيجامعها على وجه القربة والاحتساب، وتحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي كونوا ملازمين لتقوى الله تعالى مستعينين به في كل أموركم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ احذروا أن تأتوا شيئًا نهاكم الله عنه، وخافوا عقابه يوم لقائه في يوم الحساب، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرٌ من الله تعالى لرسوله أن يبشر المؤمنين بما يَسُرُّهُمْ من حسن الجزاء في الآخرة، بعد أن أمرهم بتقواه سبحانه.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيّ الثَّامِنَ عَشَرَ: أَحْكَامُ الْأَيْمَانِ

٢٢٤- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

القسَم يعني تعظيم المقسم به، وتأكيد المقسم عليه، وقد أمر الله في هذه الآية بحفظ الأيمان وعدم بذلها، فنهى سبحانه عباده أن يجعلوه عرضة لأيمانهم المباحة، بابتذال الحلف في كل صغيرة وكبيرة، ولا تحلفوا على الامتناع من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فلا تجعلوا اسم الله حاجزا ومانعا من فعل الخير، ولا تكثروا من الحلف ولا تسرعوا بها ولا تعرضوا الحلف للحنث فيها واستثنى من ذلك البر باليمين، فمن حلف على ترك واجب، وجب عليه أن يحنث فيه، ومن حلف على ترك مستحب، استحب له الحنث فيه، ومن حلف على فعل محرم وجب عليه الحنث فيه، ومن حلف على فعل مكروه استحب له الحنث فيه.

وهكذا تحدثت الآيات عن الحلِف بالله ﷻ، فتنهى هذه الآية كلَّ مَن يجعل يمين الله تعالى حائلًا بينه وبين فعل الخير ألا يفعل ذلك.

وكذا مَن يجعل يمين الله تعالى عُرْضةً له في كل حال؛ فيحلف على الصغيرة والكبيرة،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١، ٣٢٧١، ٧٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٩٣) وعبد الرزاق في المصنف (١٠٤٦٥، ١٠٤٦٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٣١١) و«المسند» (١٨٦٧، ١٩٠٨، ٢٥٩٧) ومسلم (١٤٣٤) وأبو داود (٢١٦١) والترمذي (١٠٩٢) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٠٣٠) وابن ماجه (١٩١٩).

بسبب وبدون سبب، **فالآية تحتمل معنيين**:

المعنى الأول: هو تفسير ابن عباس ﵄ لها؛ بأنه: لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سببًا مانعًا لكم من فعل الخير والبر، وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس، كأن يحلف الإنسان أنه لا يتصدق على فلان، أو لا يصل قريبه أو رحمه، أو لا يُحَدِّث زيدًا من الناس، أو يمنع فضله وخيره أو إحسانه وبره عن فلان، ونحو ذلك، فإذا دُعي إلى فعل شيء مما ذُكر احتج بأنه أقسم عليه، فيكون اليمين حجةً مانعةً له من فعل الخير.

قال ابن عباس ﵄ يقول الله تعالى: لا تجعلني عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كَفِّرْ عن يمينك واصنع الخير(١).

وعلى الحالف في مثل هذه الأحوال أن يَحْنَثَ في يمينه ويُكفِّر عنه، ويفعل أعمال البر، فالله سميع لأقوالكم، عليم بجميع أحوالكم، فلا تجعلوا يمين الله تعالى سببًا مانعًا من فعل الخير، ولا سببًا لارتكاب الإثم والمعصية.

نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة ﵁، حلف ألا يكلم زوج أخته النعمان بن بشير، ولا يُصلح بينه وبين زوجه.

وفي أبي بكر الصديق رضوان الله عليه حين حلف أن يقطع نفقته عن قريبه مسطح بن ثابت، بعد أن خاض في حادثة الإفك مع مَن خاض؛ فأنزل سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ والمقصود أبي بكر رضوان الله عليه، وكل مَن تنطبق عليه الآية ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ﴾ [سورة النور: ٢٢] دعوة لهم إلى العفو والصَّفح عمن أساء، لا سِيَّمَا لو كان رحمك أو قريبك أو جارك، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾.

قال أبو بكر لما نزلت هذه الآية من سورة النور: بلى، أُحب أن يغفر الله لي، وواصل أبو بكر صلته وبره ونفقته على قريبه (مسطح)؛ استجابةً لأمر الله سبحانه.

فإذا حَلَفَ الإنسان على أن يمتنع من فعل خير، أو أن يرتكب إثمًا، فالمطلوب منه أن

(١) الطبري (٤/ ٨) وابن أبي حاتم (٢١٤٥) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٣٣).

يحنث في يمينه، بأن يأتي الذى هو خير ويُكفِّر عنه.

كما في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير**»(١).

قال أبو داود: والأحاديث عن النبي ﷺ كلها: «**فليكفر عن يمينه**»(٢).

مِن ذلك ما جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيتُ الذي خير وتحللْتُها**»(٣).

وعن مالك الجُشَمي قال: قلت: يا رسول الله، يأتيني ابن عمي، فأحلف ألا أعْطيه، ولا أَصِلَه؟ قال: «**كَفِّر عن يمينك**»(٤).

فَبِرُّ اليمين أدبٌ مع الله تعالى، والأعمال الصالحة مرضاةٌ لله تعالى، وقد أمر الله تعالى بتقديم مرضاته على الأدب مع اسمه.

المعنى الثاني للآية: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أنه لا يصح للمسلم أن يُكْثِر الحلف بالله، وأن يُعرض يمين الله ﷻ إلى كل صغيرة وكبيرة، سواء أُطْلب منه الحلف أو لا.

وقد ذم الله سبحانه كثير الحلف بالله، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] ووصفه الله تعالى في الآية بالمهانة والذلة والحقارة.

فالشخص الذي يتبادر على لسانه دائمًا الحلف بالله شخصٌ في غالب الحال غير صادق في كلامه، وكأنه يستشعر الكذب بين جَنبيْه، وهو في الوقت ذاته مستخفٌ بِجَناب الله سبحانه، فهو يؤكد كلامه بالحلف؛ لأنه غالبًا ما يكون كذبًا، وفي كلامه ريبةٌ، وهو يعتقد

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٦٥٠) ومالك (٢/٤٧٨) والترمذي (١٥٣٠) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٢) وعن عدي بن حاتم في مسلم (١٦٥١) وابن ماجه (٢١٠٨) والنسائي (٣٧٩٤).

(٢) أبو داود برقم (٣٢٧٤).

(٣) البخاري (٣١٣٣، ٧٥٥٥) ومسلم (١٦٤٩) وأبو داود (٣٢٧٦) والنسائي (٣٧٨٩) وابن ماجه (٢١٠٧).

(٤) حديث صحيح كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٧١٥) والنسائي (٣٧٩٧). وانظر حديث أبي الأحوصي عن أبيه في المسند (١٧٢٢٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والبخاري في خلق أفعال العباد ص٥٩.

أن الطرف المقابل لن يصدق قوله، فيقَوِّي كلامه بالحلف، فإذا كان كاذبًا يكون قد أتى أمرين من الإثم والفجور؛ الكذب: وهو في حد ذاته كبيرة من الكبائر، ثم تعضيده لهذا الكذب بالحلف بالله سبحانه.

فلا ينبغي أن يُكثر المسلم من الحلف بالله تعالى، ولا يمنع نفسه من أعمال البر والتقوى والإصلاح بين الناس بالحلف بالله، ولا يحلف على ارتكاب إثم، أو ترك طاعة، وإنما يكون الحلف في مقام الشهادة أمام القاضي ونحوه عندما يُطلب منه ذلك فيجوز الحلف، أو لشخص يُنكر كلامك ويريد منك اليمين، أما في غير ذلك فلا ينبغي أن يتبرع المرء بالحلف بالله تعالى في كل شيء، ويتعجل في الإتيان به، ويجعلَه على لسانه دائمًا.

لَغْوُ الْيَمِينِ لَهُ مَعْنَيَانِ

٢٢٥-﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ[١] ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم[١] بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المعنى الأول: ما يَجري على اللسان غالبًا بدون عزم على الحلف وبدون قصد له، بل يَسبق اللسان إليه على عجلة وسرعة، من غير قصد ولا عزم على اليمين، ومن غير أن يترتب على اليمين إحقاقُ باطلٍ أو إبطالُ حقٍّ.

فالله تعالى لا يعاتبكم بسبب أيمانكم التي تحلفونها بدون قصد، كأن يحلف الإنسان على استضافة شخص مثلًا، أو يكون على الطعام فيحلف على الضيف أن يزداد منه، أو يقترب ليأكل، فيقول: لا والله، وبلى والله، تأكل هذه، أو تنزل عندنا، ونحو ذلك، من أيمان الكرم ونحوها، وإنما المؤاخذة على ماقصده القلب.

أخرج مالك بسنده عن عائشة ﵂ أنها قالت: لغو اليمين قول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلا والله[٢].

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (لا يؤاخذكم) و (ولكن يؤاخذكم) واوًا خالصة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم.

(٢) «الموطأ» (٢/٤٧٧) وأبو داود برقم (٣٢٥٤) وصححه الألباني برقم (٢٧٨٩) في «صحيح سنن أبي داود» وابن حبان (٤٣٣٣) ومن طرق أخرى عن عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٩٥١) والبخاري (٦٦٦٣) والشافعي في «شفاء العيّ» (٢٤٥) وغيرهم.

ومِن أيمان اللغو: ما يكون في شدة الغضب؛ لقوله ﷺ: «**لا يمين في غضب**»(١).

ومنها: الحلف على فعلِ المعصية أو تركِ طاعة، وقد ورد في ذلك آثار كثيرة، منها ما صح عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن نَذَرَ فيما لا يملك فلا نَذْرَ له، ومَن حَلَفَ على معصية الله فلا يمين له، ومَن حلف على قطيعة رحم فلا يمين له**»(٢).

وكل يمين وصل المرء به كلامه من غير قصد أوجبه على نفسه، ولا تعمد له فهو لغو، ومن ذلك ما كان في الهزل والمراء والخصومة، أو كان عن نسيان.

والمعنى الثاني: أن يحلِف المرء على شيء مضى يرى أنه صادق فيه، ثم يتبين خلافه، هذا لون من اللغو، الذي لا يؤاخذ الله عليه، وليس فيه كفارة.

ومثال يمين اللغو: كمن يحلف أن في جيبه عشرة قروش مثلًا، وهو يعتقد صحة ما قال، ثم تبين أنها تسعة أو أحد عشر، فهذا هو يمين اللغو.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن مجاهد في اليمين اللغو: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كذلك.

اليمين المنعقدة:

وهي ما فيه كفارة: فهو ما كان عن قَصد، كأن يَحلف على أن يفعلَ أو لا يفعل شيئًا مباحًا، ثم يخالف ما حلف عليه.

فإن حلف على شيء في المستقبل، ثم فعل ماهو خلافه، فهذا اليمين قد اكتسبه الإنسان

---

(١) إسناده صحيح عن ابن عباس، «تفسير الطبري» رقم (٤٤٣٥) قال الشيخ أحمد شاكر: لم أجده في مكان آخر.

(٢) حديث رقم (٤٤٥٢) في «تفسير الطبري»، رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٠) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن»، ومعنى الحديث ثابت مجموعًا ومفرقًا من أوجه كثيرة.

وحنث فيه، وهو يُوجب الكفارة، وهي إطعام عشرة مساكين، كما جاء في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ [المائدة: ٨٩]، فمن عَجَزَ عن هذه الثلاث فلْيصمْ ثلاثة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾.

وفي سورة المائدة قال سبحانه: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡۚ﴾ لا تستعملوا اسم الله كثيرًا في الحلف، بداعٍ وبغير داعٍ وقد ختم الله الآية التي معنا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿حَلِيمٞ﴾ بمن عصاه حيث لم يعاجلْه بالعقوبة.

واليمينُ لا تنعقد إلا بالله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، والحلف بغير الله تعالى لا تنعقد يمينًا، ولا كفارةَ لها، ولكنها تُوقع في الشرك بالله تعالى، وهذا أعظم من الحنث في اليمين.

اليمين الغموس: أما إذا حلف الإنسان على شيء مضى وهو يعلم أنه كاذب، أو حلف يمينًا زورًا؛ ليقتطع به حق امرئٍ مسلم، أو يأخذ ما لا يحل له، فهذه هى اليمين الغموس، وهى من أكبر الكبائر، و سميت كذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، وعند الشافعي فيها كفارة يمين، ولا كفارة فيه عند غيره إلا بالتوبة النصوح.

فالأيمان إذًا ثلاثة:

١- **يمين لغو**: وهو ما لم يُقصد به الكذب مع اعتقاد الصدق فيه، وهو يقابل ما كسبتْه القلوب، وَقد أُلْغيت المؤاخذة عن اللغو، وثبتت فيما كسبته القلوب.

٢- **ويمين منعقدة**: وهي الحلف على شيء في المستقبل، وفيها الكفارة حال وقوع خلاف ما حلف عليه.

٣- **ويمين غموس**: وهو تعمد الكذب على شيء مضى أو يقتطع بها حق امرئٍ مسلم.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِي التَّاسِعَ عَشَرَ: الْإِيلَاءُ

٢٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

ومن أشهر الأيمان التي تَحول بين البر والتقوى والإصلاح، أيمانُ الرجال على مهاجرة نسائهم، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا طلب شيئًا من امرأته فلم تفعله يحلف أنه لا يقربها (أي: لا يجامعها بالسَّنة أوالسَّنتين أو أكثر من ذلك أو أقل)، ويسمى هذا الفعل بالإيلاء، وقد آلى النبي ﷺ من نسائه شهرًا.

وهذه الآية تتعلق بيمين يخص الزوجة في حالة خاصة، وهو ترك الوطء لها مطلقا أو مقيدا بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن حلف ألا يطأ زوجته أقل من أربعة أشهر، فإن حنث فيه كفّر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وإن حلف ألا يطأها أبدًا أو مدة تزيد على أربعة أشهر، فلزوجته الحق في أنه لا زيادة على أربعة أشهر، فإما أن يعاشرها معاشرة الأزواج عند تمام الأشهر الأربعة، وعليه كفارة يمين، وإن امتنع أُجبر على الطلاق.

والإيلاء: هو الحلف على ترك وطء الزوجة، أو ترك كلامها ومعاشرتها معاشرة الأزواج؛ فيتركها معلقة لا هي متزوجة ولا هي مطلقة، سواء أكان ذلك بسبب غضب وسوء عشرة ومضارة، أو كان عن رضى وقد خصه بعضهم بحالة الغضب و الإضرار، قال ابن عباس: الإيلاء أن يحلف بالله ألا يجامعها أبدًا[(١)]

والصحيح أن كل يمين منعت الجماع أكثر من أربعة أشهر فهي إيلاء، وهذه الأشهر الأربعة هي التي يمكن للمرأة أن تصبر على فراق الرجل فيها، فإن مضت الأشهر الأربعة؛ فعلى الرجل أحد **أمرين**: إما أن يعود إلى زوجته ويعاشرها بالمعروف معاشرة الأزواج، وإما أن يطلقها بالمعروف.

وفي هذا يبين سبحانه للذين يحلفون على نسائهم ألا يقربوهن مدة أربعة أشهر، ولو حلف أن لا يقربها مطلقًا، أو العمر كله، أو سنوات معينة، فإنها لا تزيد عن أربعة أشهر؛ لأن في هذا مضارة للمرأة وتعريضًا لها بالفاحشة.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: إن رجع الرجل إلى زوجته وعاشرها معاشرة الأزواج قبل فوات الأشهر الأربعة، فراجعها بالجماع أو اللسان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا وقع منهم من الحلف؛

---

(١) الشافعي في «شفاء العيّ» (١٣٨) وعبد الرزاق (١١٦٠٨) والبيهقي (٧/ ٣٨٠).

بسبب رجوعهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم؛ حيث لم يؤاخذهم على سوء فعلهم.

قال الحسن: إذا آلى الرجل من امرأته، ثم وقع عليها قبل الأربعة الأشهر؛ فليس عليه كفارة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١] أي: لتلك اليمين.

وتحديد مدة الإيلاء بأربعة أشهر؛ لِمَا أخرجه مالك عن عبد الله أو عمرو بن دينار أن عمر ﷺ خرج ليلة يطوف بالمدينة يتعرف على أحوال الناس، فمر بدارفسمعامرأة بها تنشد:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ وأرَّقَنِي أَلَّا خَلِيلَ أُلَاعِبُهُ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِّي أُراقِبُه لَحُرِّكَ مِنَ هَذَا السَّرِيرِ جَوانِبُهُ

فاستدعاها عمر، من الغد، فأخبرتْه أن زوجها قد أُرسل إلى العراق، فاستدعى عمر نساءه فسألهن عن المدة التي تستطيع المرأة أن تصبر على فراق زوجها، فقُلْن: شهران، ويقل صبرها ثلاثة أشهر، وينفذُ في أربعة، وقيل: إنه سأل ابنته حفصة، فأمر الفاروق قُواد الأجناد ألا يُمسكوا الرجل في الغزْو أكثر من أربعة أشهر، فإذا مضت، استرد الغازين، ووجه قومًا آخرين[٢].

قال الفخر الرازي: كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها، لا أيمًا، ولا ذات بعْل، والغرض مضارة المرأة، ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك؛ فأنزل الله تعالى يُمهل الزوج أربعة أشهر حتى يَتَروَّى ويتأمل، إن رأى المصلحة في المفارقة أو المراجعة.

وهذه المدة هي مهلة أيضًا؛ لتأديب المرأة بالهجر؛ لإصلاح ما عسى أن يكون نقصًا من جانبها.

وعند الأحناف أن الطلاق يقع بمجرد انتهاء المدة، وعند الجمهور أنه يرجع للقاضي؛ ليخيره ويمهله، أو يطلقها، ولا يقع الطلاق بانتهاء المدة.

١- روى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته،

---

(١) عبد الرزاق (١١٧٠٨) والطبري (٤/ ٦١).

(٢) ذكرها أبو الوليد الباجي في «شرح المنتقى على الموطأ» وقد أخرجه البيهقي في «السنن» من طريق مالك (٩/ ٢٩) وذكره ابن كثير في تفسيره للآية وابن أبي الدنيا في كتاب «الأشراف» (٢٢٩).

لم يقع عليه طلاق، وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق، وإما أن يفيء[١].

ومعنى يوقف: أي أنه عند انقضاء الأشهر الأربعة فللزوجة مطالبته، إما بالجماع، وإما الطلاق، ويجبره القاضي على ذلك لئلا يضار بها.

٢- وعن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ﷺ قالوا: الإيلاء تطليقة بائنة، إذا مرت أربعة أشهر قبل أن يفيء فهي أملك بنفسها[٢].

٣- وقال ابن مسعود ﷺ: إذا آلى الرجل من امرأته، فمضت أربعة أشهر، فهي تطليقة بائنة، وتعتد بعد ذلك ثلاثة قروء، ويخطبها زوجها في عدتها، ولا يخطبها غيره، فإذا انقضت عدتها خَطبها زوجها وغيره[٣]. قال تعالى:

٢٢٧- ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾

وإذا حلف الرجل ألا يطأ زوجته أبدًا، أو أكثر مِن أربعة أشهر، فإن القاضي يأمره بالفيء؛ أي: الرجوع إليها أو الطلاق عند انقضاء أربعة أشهر فقط، فإن لم يستجب طلق عنه القاضي طلقة واحدة، ولو حلف ألا يطأها مدة هي أقل من أربعة أشهر فوطئها قبل ذلك لزمه كفارة، وليس هذا من الإيلاء؛ لأنه أقل من مدة الإيلاء، وإن كانت المدة المحلوف عليها أربعة أشهر ثم وطئها فعليه كفارة يمين عند أكثر أهل العلم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ وإن عقدوا عزمهم على الطلاق بالاستمرار في اليمين، وامتنعوا من الرجوع لعدم رغبتهم مع ترك الجماع وهذه هي الطلقة الثانية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهم وسيجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يقصد بذلك المضارة.

ويؤخذ من الآية أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله تعالى (من نسائهم) ويؤخذ منها أيضًا وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، وبعدها إما أن يجبر على الطلاق أو على المعاشرة الزوجية.

---

(١) «الموطأ» (٢/ ٥٥٦) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٩١) والبيهقي (٧/ ٣٧٧) والطبري (٤/ ٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٦٣٨، ١١٦٤٥، ١١٦٥٠) والطبري (٤/ ٦٥) وابن أبي حاتم (٢١٧٢) والبيهقي (٧/ ٣٧٨).

(٣) عبد الرزاق (١١٦٦٧، ١١٦٦٨) والبيهقي (٧/ ٣٧٩).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمَرْأَةِ وَحُقُوقُهَا وَوَاجِبَاتُهَا

٢٢٨- ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ[١] بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾

في هذه الآية خمسة أحكام:

الحكم الأول: عدة ذوات الحيض من النساء.

الحكم الثاني: يَحرم على المرأة أن تكتم حملها، أو تزيد أو تنقص في عدتها.

الحكم الثالث: الزوج أحق بامرأته من غيره في الطلاق الرجعي مع وجود الرغبة بينهما.

الحكم الرابع: للمرأة من الحقوق والواجبات مثل ما عليها.

الحكم الخامس: للرجل حق زائد على المرأة.

أولا: عدة المرأة: فإذا طُلقت المرأة فما هي العدة التي تعتدها قبل أن تتزوج بآخر؟ هذه العدة شرَعها الإسلام؛ لبراءة الرحم؛ ولعدم خلط الأنساب؛ ولتتأكد المرأة من نَقاء رحمها قبل أن ترتبط بشخص آخر؛ ولذلك فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾ أي: أن على المرأة ألا تُخفي أو تكتم الحقيقة التي خلقها الله فيها من عدد مرات الطهر أو الحيض، ولا تكتم الحمل الذي في بطنها، وألا تكذب في ذلك؛ بُغْيَة الزواج بآخر، أو لكي تنجو من زوجها، لأن الكتمان يؤدي إلى مفاسد كثيرة، منها: أن الحمل قد يلحق بغير أبيه، فيترتب عليه إرث، وزواج من المحارم، وقطع للأرحام... الخ.

والمرأة المطلقة إن كانت تحيض تعتد بثلاثة أطهار، أو تحيض ثلاث حيضات، تنتظرها وجوبًا بعد الطلاق؛ لتتأكد من فراغ الرحم من الحمل، ولا يجوز لها أن تتزوج بآخر حتى تنتهي العدة، ولا يحل لها أن تُخفي شيئًا من الحمل أو مدة الحيض إن كانت مؤمنة حقًّا

---

(١) ضم يعقوب الهاء من (عليهن)، وكسرها الباقون.

بالله واليوم الآخر.

عن فاطمة بنت قيس ﵂ أنها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه الدم، فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك عِرْق، فانظري إذا أتاك قُرْؤك فلا تصلي، فإذا مَرَّ قُرْؤُكِ فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء**» قال النسائي: هذا الدليل على أن الإقراء حيض[(١)].

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: لا يَحل للمطلقة أن تقول: إني حائض، وليست بحائض، ولا تقول: إني حُبلى، وليست بحبلى، ولا تقول: لست بحبلى، وهي حبلى.

وقال قتادة: كان عادة نساء الجاهلية أن يكتمن الحمل؛ ليلحق الولد بالزوج الجديد.

وعن أسماء بنت يزيد السكن قالت: طُلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة؛ فأنزل الله عدة الطلاق ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ فكنت أول مَن أنزلت فيها العدة للطلاق[(٢)].

والقرء: هو الحيض أو الطهر، فإذا تكرر القُرء ثلاث مرات، عُلم أنه ليس في رحمها حَمْل.

قالت عائشة: هل تدرون ما الأقراء؟ الأقراء الأطهار، قال ابن شهاب: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركتُ أحدًا من فقهائنا إلا وهو يقول هذا، يريد الذي قالت عائشة[(٣)].

وعن علي بن أبي طالب قال: يَحل لزوجها الرجعة عليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة وتحل للأزواج[(٤)].

وعدة النساء خمسة أنواع:

(أ) فعدة التي تحيض ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات، ويرجح أن القرء هو الطهر الذي يكون في نهاية الحيض قبل أن يَمسها الرجل، فيطلقها وهي طاهرة مستقبلة العدة، كما

---

(١) عن عائشة في البخاري (٢٢٨) ومسلم (٣٣٣) و «صحيح سنن النسائي» برقم (٢٠٥) وهو في «الموطأ» (٢/ ٥٧٦) و«المسند» (٦/ ٤٢٠) برقم (٢٧٣٦٠) وأبو داود برقم (٢٨٠) وابن ماجه (٦٢٠) وأبي داود (٢٧٩) وابن ماجه (٦٢١) والترمذي (١٢٥) و«المسند» (٢٤١٤٥) وابن حبان (١٣٥٠).

(٢) أبو داود (٢٢٨١) من طريق يحيى بن صالح عن إسماعيل بن عباس، وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن أبي داود» (١٩٩٦) وأخرجه ابن أبي حاتم (٢١٨٦) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٤١٤).

(٣) مالك (٢/ ٥٧٦) والشافعي في «شفاء العيّ» (١٩٧) والبيهقي (٧/ ٤١٥).

(٤) عبد الرزاق (١٠٩٨٣) والبيهقي (٧/ ٤١٧) والشافعي في «شفاء العيّ» (١٨٤).

قال تعالى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وفي حديث ابن عمر: فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، وهذا في بداية العدة.

(ب) فإن كانت حاملًا سواء تُوفي عنها زوجها أو طلقها؛ فعدتها بوضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

(ج) فإن كانت صغيرة لم تبلغ سن الحيض، أو كبيرة يائسة انقطع عنها الحيض، فعدتها ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] أي: أن الصغيرة والكبيرة تشتركان في عِدة واحدة مدتها ثلاثة أشهر.

(د) والْمُتَوَفَّى عنها زوجها، سواء أدخل بها أم لم يدخل، صغيرة أو آيسة، عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

(هـ) وإذا طُلقت الأنثى قبل الدخول بها، وبعد العقد عليها، وكانت من ذوات الحيض؛ فليس عليها عدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

إلا إذا تُوفي هذا الشخص الذي عَقَد عليها، فعليها أن تعتد عدة المتوفَّى عنها زوجها؛ كرامة ووفاء لهذا العقد، وليس لبراءة الرحم، أخذًا من عموم آية عدة المتوفَّى عنها زوجها.

فهذه خمس حالات للمعتدة، ومجملها:

١- **ذات الحيض**: بثلاث حيضات أو أطهار.

٢- **الصغيرة والكبيرة**: ثلاثة أشهر.

٣- **الحامل**: بوضع الحمل.

٤- **المتوفَّى عنها زوجها**: أربعة أشهر وعشرًا.

٥- **المطلقة قبل الدخول بها**: لا عدة عليها.

ثانيا: ألا تكتم المرأة حملها أو حيضها:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحمل أو الحيض أو النفاس أو ما عدا ذلك ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ والزوج: هو البعل.

قال قتادة: كانت المرأة تكتم حملها حتى تجعلَه لرجل آخر؛ فنهاهن الله عن ذلك(١).

فلا يحل للمرأة إن كانت حاملًا أن تكتم حملها، ولا يحل لها إن كانت حائضًا أن تكتم حيضها، ولا يحل لها أن تقول: إني حُبلى، وليست بحبلى.

ثالثا: حق الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾

أي: أن أزواجهن أحق بالرجعة أثناء العدة، ما لم تكن بائنًا بينونة كبرى فلا رجعة له عليها ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ وخيرًا ببقاء الحياة الزوجية دون قصد الإضرار بها بتطويل مدة العدة أو لِتُخالعَه أو تَفدي نفسها منه، فالرجعة بقصد الإضرار حرام، يدل عليه مفهوم الشرط.

قال ابن عباس ﷺ: إذا طلَّق الرجل امرأته تطليقة أو تطليقتين وهي حامل؛ فهو أحق برجعتها، ما لم تضع حَملها، ولا يحل لها أن تكتم حملها(٢).

رابعا: حقوق المرأة وواجباتها: ثم قرر القرآن ما للمرأة من حقوق وواجبات،وما عليها من حقوق وواجبات، فبيَّن سبحانه أن للنساء على الرجال مثل الذي عليهن للرجال على الوجه المعروف، ومن حق المرأة ما قاله ابن عباس ﷺ في معنى الآية: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين المرأة لي(٣).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: **«اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم (أي: يدخل بيوتكم) أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير**

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٩٢) وفي مصنفه (١٠٦٠) والطبري (٤/ ١١١).

(٢) الطبري (٤/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢١٩٥) والبيهقي (٧/ ٣٦٧).

(٣) الطبري (٤/ ١٢٠) وابن أبي حاتم (٢١٩٦).

مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١).

ومن حق المرأة ما جاء في حديث معاوية بن حَيْدَةَ القُشيْري أنه سأل النبي ﷺ عن حق المرأة على الزوج؟ قال: **«أن تُطْعِمَها إذا طَعِمْتَ، وأن تكسوَها إذا اكتسيتَ، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»**(٢).

وقد كان أهل مكة أشد من أهل المدينة على النساء، روى البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصخبتُ على امرأتي، فراجعتْني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالتْ: ولِمَ تُنكرُ عليَّ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليُراجعْنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فراعني ذلك، وقلت: قد خابت مَن فعلتْ ذلك منهن، ثم جمعْتُ عليَّ ثيابي، فنزلتُ، فدخلْتُ على حفصة، فقلتُ لها: أيْ حفصة، أتُغاضب إحداكن النبي اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلتُ: قد خبتِ وخسرْتِ(٣).

وعن ابن عباس ﷺ قال: كنا في الجاهلية لا نعدُّ النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام وذكرهُن الله، رأينا لهن بذلك علينا حقًّا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا.

وهذه الآية هي أول آية في **إعلان العدل** بين الزوجين في الحقوق والواجبات، فقد كان الناس في الجاهلية إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها إذا حلت له، وإن شاؤوا زوجوها بِمَن شاؤوا، وإن شاؤوا لم يزوجوها؛ فتبقى بينهم فهم أحق بها؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] فأصبح للمرأة كيان، لها حقوق وواجبات بعد ما كانت متاعًا يُورث، ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو العادة الجارية بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨) وانظر حديث عمرو بن الأحوص في الترمذي (١١٦٣) والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٠٠).

(٢) أبو داود برقم (٢١٤٢). قال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٧٥): حسن صحيح.

(٣) البخاري (٢٤٦٨، ٥١٩١) ومسلم (١٤٧٩).

خامسا: للرجال حق زائد على النساء: وللرجال على النساء درجة في الجهاد، والميراث، وحق التعدد، والطلاق، والرجعة، وزيادة القوة البدنية، وحق التأديب، ومنصب النبوة والحكم والإمامة والقضاء، وسائر الولايات، مختص بالرجال، وإن نازع بعضهم فيما عدا النبوة، ومنزلة زائدة من حُسن العشرة، والصحبة بالمعروف، ولهم عليهن درجة بالقوامة على البيت، وحق الطاعة بالمعروف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فالذكورة شَرف وكمال، والأنوثة نقص خلقي طبيعي؛ **ولذا:** فإنها تتجمل بأنواع الزينة والحلي لجبر نقصها كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨] وكمال جمال الرجل في ذكورته، وهذا أمر من عند الله لا اعتراض عليه من أحد.

ويصح أن يكون المعنى: أن الله تعالى ندب الرجال إلى فضيلة من فضائل الرجولة[١]؛ وهي أن يتغاضى الرجل عن بعض حقوقه لامرأته؛ ليكونَ صاحب فضل عليها، فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ونبل العزم والتسامي، فيكون الرجل أسمى رتبة ومنزلة في الخُلق، وأعلى درجة على امرأته، وهذا من باب العفو عن الحقوق الواجبة لمن وضعها الله تعالى في يده، وملَّكه طلاق المرأة وفراقها، وأمره بترك ضرارها، وجعل الإسلام لها حقوقًا تعادل حقوق الرجل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يضعُ كل شيء في موضعه المناسب، وقد كان الطلاق بيد الرجل؛ لأنه هو الذي يَزرع الحقل؛ أي: يضع النطفة في رحم المرأة.

فإذا وَجد أن حقله لا يناسب الزرع فلا يرغم عليه، والمرأة مزروع فيها، وليست زارعة، ولو أُكره الرجل على البقاء معها ما أمكنه أن يزرع؛ وبالتالي لا يأتي النسل، وهو الغرض الأعظم من النكاح، فكيف يُكره على الإبقاء مع مَن لا حاجة له فيها، وكيف تطلقه وهي المنكوحة موضع الحرث؟! وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أيها الرجال.

(١) أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبري وعلَّق عليه بإعجاب العلامة محمود محمد شاكر (٤/ ٥٣٧): وأن الرجال ليسوا حرثًا للنساء.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعي الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الرَّجْعِيُّ

٢٢٩-﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾

تتضمن الآيات الأربع التالية هذه الأحكام الأربعة:

الآية الأولى: حكم الطلاق الرجعي والخلع.

وفي الآية الثانية: حكم المطلقة ثلاثًا.

وفي الآية الثالثة: نهي الأزواج من الإضرار بالمرأة في حالة الطلاق أو الإمساك.

وفي الآية الرابعة: منع لأولياء الأمور أن يمنعن بناتهن من الزواج؛ لأي سبب كان عرقي أو مادي، حيث تقوم الحياة الزوجية على السكن والمودة والرحمة، قال سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم: ٢١].

وقد سَمَّى الله ﷻ العقْد الذي يكون بين الزوجين ميثاقًا غليظًا؛ بيانًا لحرمته وقداسته، قال سبحانه: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١].

وأخرج أبو داود وغيره بإسناد ضعيف عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١)

وبين صلوات الله وسلامه عليه أن الإسلام يتبرأ مِن كل مَن يتسبب في فساد المرأة على زوجها، فقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**من خبَّب عبدًا على أهله فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس منا**»(٢)

وإذا تمردت المرأة على زوجها، وطلبت منه الطلاق من غير سبب شرعي؛ فإنها لا

---

(١) حديث ضعيف أخرجه أبو داود (٢١٧٨) والحاكم (١/ ١٩٦) والبيهقي (٧/ ٣٢٢) و«ضعيف سنن ابن ماجه» (٤٤١).

(٢) من حديث أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (٩١٧٠) وأبو داود (٢١٧٥، ٥١٧٠) و«المسند» (٩١٥٧) وابن حبان (٥٥٦٠، ٥٦٨) ومعنى خبب: أفسد وخدع، قال محققوا المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح.

تشم رائحة الجنة.

أخرج أبو داود وغيره عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»**(١)

وكثيرًا ما تستفز المرأة الرجل، وتحمله على الطلاق.

وإذا كان للزوج أكثر من زوجة، فإن الإسلام قد نَهَى إحدى الزوجتين أو الزوجات أن تستأثر بالزوج دون الزوجات الأخريات، أو تعمل على طلاق الزوجة الثانية أو غيرها منه.

ونظرًا لأهمية الطلاق، ومراعاة لحرمة البيوت، وحُسْن العشرة بين الزوجين، فإن الرجل يؤاخذ على الطلاق، حتى ولو كان هازلًا كأن يقول: إنه كان لا ينوي، أو إنه غير قاصد، فحتى لو كان هازلًا أو غير جاد فإن الإسلام يؤاخذه في هذه الحالة أيضًا.

أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ثلاث جدهن جد، وهزلُهن جد، النكاح والطلاق والرجعة»**(٢) أي: أن يزوج الإنسان ابنته أو أخته ثم يقول: إنه كان هازلا، وإذا خَرجت الكلمة فلا رجعة فيها.

ومثل الطلاق، الرجعة، بإعادة المرأة إلى عصمة الرجل، ليس في ذلك تلاعب، وكذلك إذا أعتق الإنسان عبدًا أو أمة؛ فليس له في ذلك رجعة، ولو كان هازلًا.

طلاق الغضبان:

ولو أن طلاق الغضبان لا يقع على إطلاقه؛ ما وقع طلاق أحد، فما مِن إنسان يطلق إلا ويكون في حالة غضب غالبًا، والغضب له حدود شرعية، فإذا كان الإنسان لا يُفرق أثناء غضبه بين التمرة والجمرة، كأن كان يهذي ولا يدري ما يقول، بالخروج مِن عَقْله

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٢٢٢٦) و«المسند» (٥/ ٢٣٨) برقم (٢٢٣٧٩، ٢٢٤٤٠) وابن ماجه برقم (٢٠٥٥) والترمذي برقم (١١٨٧) والحاكم (٢/ ٢٠٠) والطبري (٤/ ٥٦٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٧٢)، قال محققوا المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) قال الترمذي: حسن غريب، «السنن» (١١٨٤) وأبو داود (٢١٩٤) وابن ماجه (٢٠٣٩) والحاكم (٢/ ١٩٧) والبيهقي (٧/ ٣٤٠) وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٩٤٤)، وحسنه في صحيح سنن أبي داود (١٩٢٠) وفي صحيح سنن ابن ماجة (١٦٥٨) وفي الإرواء (١٨٢٦).

وشعوره، فإنه حينئذ يكون في حالة من الغضب يعتد بها، ولا يقع معها الطلاق، كما جاء في الأثر عن عائشة ﵂: **«لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»**[(١)]

وللغضب درجات متفاوتة، ولا يقع الطلاق إلا في حالة إغلاق العقل؛ **ولذا**: فالإسلام يأمر المرء إذا كان في حالة غضب أن يُغير وضْعه الذي هو عليه، فيخرج من البيت مثلًا، أو يدخل الحمام، أو يغتسل، أو يتوضأ ويصلي، فإنه يذهب ما به من أثر الشيطان.

وبعض الناس يُقْسِم أنه لن يأكل الشيء الفلاني، أو لن يشرب الشيء الفلاني، أو لا يكلم فلانًا، أو لا تدخل زوجته بيت فلان، أو نحو ذلك من الأشياء التي فيها فِعْل شيء أو ترك شيء، ولا دوْر للمرأة فيها، وهو في كل هذا يحلف بالطلاق على زوجته، والأولى في هذه الحالة أن يحلف بالله ﷻ؛ لأن هذا لا دخل للمرأة فيه، فإن سأَلْتَه بعد الحلف بالطلاق، قال: إنه يحب امرأته، ولا يريد فراقها، إذًا لماذا تحلف بالطلاق؟!

وفي أذهان بعض الناس أنه إذا حلف بالله سبحانه فإن هذا يكون أهون أو أقل في نظر المحلوف له مما لو حَلَفَ بالطلاق، وهو في هذه الحالة يكون قد وقع في الشرك من حيث لا يدري؛ لأنه اعتبر أن الطلاق أعظم من الحلف بالله تعالى، وأن الشخص الذي يُحْلَف له سوف يهتم أكثر إذا هو حلف له بالطلاق؛ فيكون قد أثم وعصى الله سبحانه؛ لأنه اعتبر أن الحلف بالله أهون من الطلاق، وهذا يدخل في دائرة الشرك.

والفتوى الشائعة في هذه الحالة أن هذا يعتبر من باب اليمين بالله، ويكفَّر عنه كفارة يمين، وهذه الفتوى ليست على إطلاقها كما يفهم ذلك العامة؛ فيتجوَّزُون في الحلف بالطلاق ويتعمدونه قصدًا، ولعل الأرجح أن هذا اليمين طلاق كناية، يرجع الحكم فيه إلى نية الحالف، إن كان قصده الطلاق وقع، وإلا فلا، وكذا الشأن في الطلاق المعلق على حصول شيء أو تركه في المستقبل دون إرادة الطلاق، وإنما أراد المنع من الخروج إلى السوق مثلًا، ويسمى هذا بالتعليق القسمي، أو يكون القصد وقوع الطلاق عند حصول الشرط، ويسمى هذا بالتعليق الشرطي.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٢) وعبد الرزاق (١١٣٣٦) وأبو داود (٢١٩٩) والنسائي (٣٤٠٦) والحاكم (٢/ ١٩٦) والبيهقي (٧/ ٣٣٦).

وهذا التعليق بنوعيه يقع طلاقًا عند جمهور العلماء، وأخذ قانون الأحوال الشخصية في أكثر بلاد المسلمين برأي ابن حزم وغيره بعدم الوقوع، وبهذا جَرَى العمل في لجان الفتوى؛ تخفيفًا على الناس، وجمعًا بين أفراد الأسرة.

والمسلم الذي يَحتاط لدينه لا يلجأ إلى الطلاق مطلقًا، إلا في حالة استحالة العِشْرة بين الزوجين، حيث شرع الطلاقُ لذلك، وإذا أراد الإنسان أن يحلف على فِعل شيء أو ترْك شيء، فعليه أن يحلف بالله تعالى، ولا يلجأ إلى لفظ الطلاق حتى لا يقع في محظور، فإذا كان الحالف لا يريد الطلاق فلماذا لا يحلف بالله سبحانه؟! فإن وقع اليمين كفر عنه؛ بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام بدلًا من الحلف بالطلاق أو ما فيه مظنة الطلاق على الأقل.

ألفاظ الطلاق:

وعند الفقهاء: أن الطلاق له ألفاظ صريحة، وألفاظ كناية، والألفاظ الصريحة منها لفظ الطلاق، ولا تأويل فيه، وهو اللفظ الصريح الوحيد عند أبي حنيفة، فلا يعتبر يمينًا عنده؛ لأن اليمين يكون بالله وحده، ولا يكون بالطلاق، ومن ألفاظ الطلاق الصريحة أيضًا: الفراق والسراح، هذه الألفاظ الثلاثة: كأن يقول طلقتك، أو فارقتك، أو سرحتك، ألفاظ صريحة في الطلاق لا تؤول تأويلًا آخر.

ورصيد الإنسان في حياته الزوجية طلقتان اثنتان، مرة بعد مرة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ والمراد: أن الطلاق الرجعي يكون مرتين، يطلقها مرة، ويراجعها، ويطلقها مرة أخرى، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ في وقت آخر ويراجعها، والطلاق الذي تحصل به الرجعة مرتان، واحدة بعد الأخرى، وعليهما بعد كل طلقة: حسن العِشرة، والإمساك بالمعروف بعد مراجعتها، وأداء حقوقها مع حسن المعاملة، وعدم ذكرها بسوء، ومن التسريح بإحسان ألا يأخذ على فراقها شيئا من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال دون مقابل.

وهذا الرصيد لحياته الزوجية كلِّها، فلو قُدر أنه سيعيش مع امرأته عشرين عامًا، فرصيده في كل عشرة أعوام طلاق واحد، ولو قدر أنه سيعيش معها أربعين عامًا، فرصيده طلاق واحد كل عشرين عامًا.

الطلاق بالثلاث:

الذي يحلف طلاقًا بالثلاثة دفعة واحدة، أو في ألفاظ متوالية في مجلس واحد، أو بعد أسبوع ونحو ذلك، هذا شخص سفيه قد أتَى على رصيده كله، وتجاوزَه، وفعل فعلًا محرمًا مبتدعًا في الإسلام، فقد اتفق العلماء على أنه يَحْرُم على الزوج أن يطلق امرأته ثلاثًا بلفظ واحد، أو بألفاظ متتابعة في طُهر واحد، وهو طلاق بِدعي مخالف للسنة، وقد جرى قانون الأحوال الشخصية في أكثر البلاد الإسلامية على أن الطلاق المقترن بعدد يقع طلقة واحدة، والفتوى المعمول بها على أن الطلاق الثلاث في لفظ واحد يقع طلقة واحدة.

فإن قال: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، وأراد تأكيد الثانية للأولى، والثالثة للثانية، فهو طلاق واحد، فإن أراد أن ينشئ طلاقًا جديدًا في كل مرة، فهي طلقات ثلاث؛ لأنه مستأنف.

صح عن ابن عباس ﷺ أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاثة واحدة، فقال عمر بنُ الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم[(١)]

فالأصل في طلاق الثلاث بلفظ واحد أنه طلقة واحدة، وهو ما عليه الفتوى، ويدل على ذلك أن رُكانة طلق امرأته ثلاثًا في مجلس واحد؛ فحزن عليها حُزْنًا شديدًا، فسأله رسول الله ﷺ: **«كيف طلقتَها؟»** قال: طلقتُها ثلاثًا، فقال: **«في مجلس واحد؟»** قال: نعم، قال: **«فإنما تلك واحدة فارجعْها إن شئت»** فراجَعَها[(٢)]

---

(١) أخرجه البيهقي (٧/ ٣٢٩)، وفي المسند (٢٣٨٧) عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، قال البيهقي: وهذا إسناد لا تقوم به الحجة، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٠٠) وعبدالرزاق (١١٣٣٤) وأبوداود (٢١٩٦) قال الخطاب في معالم السنن (/ ٣/ ٢٣٦) في إسناد هذا الحديث مقال.

(٢) «المسند» (٢٦٣٦٠) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٦١) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٩) والدارقطني في «السنن» (٤/ ٣٦) والحاكم (٢/ ١٨٩) وأبو يعلَى (٤٤٤) قال محققو المسند: إسناده ضعيف؛ لضعف محمد بن عبيد بن أبي صالح المكي، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، فقد استشهد به البخاري، ورَوَى له مسلمٌ متابعة، وهو حسن الحديث إذا صرح بالتحديث.

والطلقة الثالثة هي التي سُئِل عنها النبي ﷺ لَمَّا نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ فقيل: أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾(١)، وهذه هي البينونة الكبرى التي لا رجعة لها.

وفي الطلقة الرجعية الأولى أو الثانية ليس للمرأة أن تَخرج من بيت الزوجية، فهي امرأته، وله حق الرجعة، فهو أولى بها، ومطلوبٌ أن تَبقى أمام عينيه، ومطلوب أن تتجمل له، وأن تتودد إليه، وتُحسن مِن نفسها، ولا تخرج من البيت، فهي لا زالت زوجته ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١] أي: أمرًا يدعوه إلى مراجعة نفسه ويدعوها إلى مراجعة نفسها، فيعيدها إلى عصمته ما دامت في العدة.

يراجعها بالقول فيقول: راجعتُك، أو يراجعها بالفعل؛ كالتقبيل والضم والوطء، كما يفعل الرجل بأهله، فكل ذلك مراجعة عند جمهور أهل العلم.

ويرى الشافعي أن المراجعة لا تكون إلا بالقول الصريح بمحض اختياره؛ لأن الطلاق يزيل النكاح.

فإن انتهت العدة ولم يراجعْها، وكانت في طلاق رجعي، فله أن يراجعها بعقد ومهر جديديْن بإذنها وإذن وليها، فإن كان الطلاق بائنًا فليس لها أن تعود إليه إلا إذا تزوجت زواجًا شرعيًّا غير مشروط بمدة،فلو قُدر أنها طُلِّقت من زوجها الثاني لسبب مَّا، حل لزوجها الأول أن يتزوجها بعد العدة.

الإضرار بالمرأة:

وقد كان الرجل في الجاهلية يُطلق امرأته مرات عديدة، فإذا قاربت العدة على الانتهاء راجعها، ثم يطلقها، فإذا أوشكت العدة أن تنتهي راجعها، ثم يطلقها، وهكذا مئة مرة، أو أكثر من ذلك أو أقل، وجاء الإسلام فحدد من عدد الطلقات وجعله اثنتين.

---

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (٤/٤٠٣) عن أنس، والطبري في «التفسير» (٤/٥٤٥) عن سفيان الثوري عن أبي رزين الأسَدِيِّ، وكذا عبد الرزاق في «التفسير» (١/٩٣) وفي «المصنف» (١١٠٩١) وسعيد بن منصور (١٤٥٧) وابن أبي حاتم (٢٢١٠) والبيهقي (٧/٣٤٠).

وكان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة، كلما شارفت على انقضاء عدتها راجعها، ثم قال: والله لا آويكِ إلي ولا تَحلِّين أبدًا.

كما جاء عن عائشة ﵂ قالت: كان الرجل يُطلق امرأته ما شاء له أن يطلقها، ثم يراجعها في العدة، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبدًا، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أُطلقكِ، وكلما همَّت عدتك أن تنقضي راجعْتُكِ، فذهبت المرأة إلى عائشة ﵂ فأخبرتْها فسكتتْ، حتى جاءت النبي ﷺ فأخبرتْه فسكت، حتى نزلت الآية ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾[1]

وقيل: إن امرأة من الأنصار قالت: إن زوجي قال: لا أزال أُطلِّقُكِ ثم أُراجِعْكِ، هكذا، لا يُمْسِكُها ولا يُسَرِّحُها، فأنزل الله سبحانه ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾.

أي: أن الله تعالى حدد هذه الفوضى التي لا نهاية لها في الطلاق قبل الإسلام، بأن جعل الطلاق الرجعي مرتين، ولا رجعة بعد الثالثة.

فالإسلام يعطيه مرة للمراجعة، ربما تكون ثورة غضب، أو سببًا آخر، يراجع نفسه فيها، ثم إذا أراد أن يطلق بعد ذلك فليطلقها مرة ثانية.

قال ابن مسعود في طلاق السنة: يطلقها بعد ما تطهر في غير جماع، فإذا حاضت وطهرت طلقها أخرى، ثم يدعُها حتى تطهر مرة أخرى، ثم يطلقها إن شاء[2]

الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة:

والإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة أمر به الله تعالى في قوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وهو حدّ من حدود الله، وحكم من أحكامه التشريعية، ومخالفة ذلك

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (١١٩٢) و«تفسير الطبري» (٢/ ٢٧٦) و«الموطأ» (٢/ ٥٨٨) عن هشام بن عروة عن أبيه والحاكم (٢/ ٢٧٩) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٣٣٣) وضَعَّفَ إسنادَه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٢٠٨).

(٢) النسائي (٣٣٩٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» مختصرًا (١٦٤٠) وصححه الألباني أيضًا في الإرواء وهو في سنن ابن ماجه (٢٠٢٠). والدارقطني (٤/ ٥) والبيهقي (٧/ ٣٣٢).

تَعَدَّ على حدود الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾.

الطلاق السني والبدعي: وليس للرجل أن يطلق امرأته طلاقًا بدعيًا، كأن يطلقها وهي حائض، أو في الطهر الذي جامعها فيه بعد الحيض، ولا يلفظ الثلاث.

فالطلاق المسنون: أن يطلقها في طُهر لم يَمَسَّها فيه؛ أي: بعد أن ينتهي الحيض، وقبل أن يُجامعها، حتى لا تطول بها العدة، وحتى لا تكون حاملًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي: وهن مستقبلات العدة في طُهر يَعْقُب الحيض ولم يجامعها فيه، هذا هو الطلاق المسنون، فإذا طلقها في حيض، أو طلقها ثلاثًا، أو طلقها في طهر جامعها فيه، فإن الطلاق يقع مع الإثم؛ لأنه قد ارتكب أمرًا محرمًا.

الطلاق بغير سبب بغي وعدوان:

وإذا كانت المرأة مطيعةً لربها، مؤديةً لحقوق زوجها، فإن طلاقها في هذه الحالة يكون بغيًا وعدوانًا عليها، يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤] أي لا تبغوا عليهن بسوء العشرة، ولا تعتدوا عليهن بالطلاق.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعي الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: حُكْمُ الْخُلْعِ وَأَدِلَّتُهُ

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ(١) أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا(٢) فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

ولا ينبغي للرجل أن يضار المرأة ويضايقها؛ لكي يلجئها إلى طلب الطلاق، أو لكي تفتدي نفسها منه برد المهر، أو شيء من المال؛ طلبًا للطلاق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ من المهر ونحوه، إلا أن يخاف الزوجان ألا

---

(١) قرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب بضم ياء (يخافا) على البناء للمفعول، وضمير الزوجين نائب الفاعل و(ألا يقيما) بدل اشتمال، والتقدير: إلا أن يخافا عدم إقامتهما حدود الله، وقرأ الباقون بفتح الياء على البناء للفاعل، وإسناد الفعل إلى ضمير الزوجين المفهوم من السياق، و(ألا يقيما) مفعول به.

(٢) ضم الهاء من (عليهما) يعقوب، وكسرها غيره.

يقوما بالحقوق الزوجية؛ بسوء العشرة، وسوء العَلاقة والمضارة، والنشاز بين الزوجين، وحينئذ فإن الأمر يُعرَض على الأولياء للقيام بالصلح بينهما ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

فإن خاف الأولياء عدم الوفاق بينهما وفْقَ حدود الله تعالى فلا حرج أن تفتديَ المرأةُ نفسها بما تدفعه، أو تتنازل عنه مقابل طلاقها، هذه حدود الله الفاصلة بين الحلال والحرام فلا تتجاوزوها؛ لأن في ذلك تعريضًا لعذاب الله بكم، وهذه هي المخالعة بالعرف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلْقه أو خلُقه أو نقص دينه، وخافت ألا تطيع الله فيه فعليها أن تردّ عليه صداقه وتخلع نفسها منه.

ولا يمكن للرجل أن يجد امرأةً توافقه مئة في المئة كما لا يمكن للمرأة أن تجد رجلًا يوافقها مئة في المئة، والنبي ﷺ قد بين في حديث أبي هريرة: **«لا يفْرَكُ مؤمن مؤمنة إن كره في زوجته خُلقًا رضي منها خلقًا آخر»**(١)

فلْينظر الإنسان إلى الجانب الحسَن والإيجابي في الطرف الآخر، ولْيعاملها على أنها مخلوقة من ضلع أعوج، والاعوجاج في طبيعتها، وعدم الاستقامة في جبِلّتها؛ لأن الضلع الأعوج إذا أنت قومته كسرته، وإذا تركته لم يزل أعوجًا، فاستوصوا بالنساء، والنبي ﷺ بيَّن أنه ينبغي على الرجل أن يتمتع بالمرأة على ما فيها من عوج؛ لأن الاعوجاج في طبيعتها، فاستمتعوا بهن على عوج.

فإذا كان هناك نشوز من المرأة؛ أي: أنها تبغض زوجها ولا تريده وهو يحبها، فقد شرع الإسلام في هذه الحالة الخلع.

والخلع: أن تخلع المرأة نفسها بأن ترفع أمرها إلى القاضي، إن لم يقبل الزوج صُلحًا، وتذكر حالتها بأنها تَبْغَضُه، وأنها لا تطيق العِشرة معه، أو لأسباب أخرى شرعية؛ كعدم القيام بالنفقة الواجبة، أو بالحقوق الزوجية، أو إن كان لا يصلي، أو كان شاربًا للخمر، ونحو ذلك، والإسلام في هذه الحالة يَطلب منها أن تَرُدَّ لَه مهره الذي دفعه إليها، أو تَفْدي نفسها منه على شيء من المال:

---

(١) «المسند» (٨٣٦٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ومسلم (١٤٦٩)، و أبو يعلى (٦٤١٨) والبيهقي (٧/ ٢٩٥).

١- فقد سئل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إنّ أوَّل خلع في الإسلام كان في أخت عبد الله بن عبد الله بن أُبي، فقد أتت النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدًا، وذلك أنها نظرتْ من طرف الخيمة إلى مجموعة من الرجال فيهم زوجها، فوجدتْه أقصرهم قامة، وأسودُهم وجهًا، وأقبحهم منظرًا، فذهبتْ إلى النبي ﷺ تطلب الطلاق، وتقول: إنها تكره الكفر في الإسلام؛ أي: تكره كفر النعمة وكفر العشير، وأنها لا تَعيبُ عليه في خلُقه ولا في دينه، ولكنها تَبغضُه، ولا يَجْمع رأسها ورأسه وسادة أبدًا، ولكن الرجل كان يحبها ويريدها أن تبقى معه، قال يا رسول الله، لقد أمهرتُها حديقة، مليئة بالنخل، فقال عليه الصلاة والسلام: **«أَتَرُدِّين عليه حديقته؟»** قالت: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: **«خذ الحديقة وطلقها»**(١) وهو أول خلع في الإسلام.

١- وهذه المرأة هي جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ بن سلول، أخت عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ من أبويه، وهي امرأة ثابت بن قيس بن شماس، تزوجها بعد موت زوجها الأول (حنظلة بن عامر الراهب) الذي قتل يوم أُحد.

٢- وقد ذكر أن حبيبة بنت سهل الأنصارية، ضربها زوجها فكسر بعضها، وأنها ذهبت إلى أبيها ثلاث مرات تشتكي أن زوجها يسبها ويضربها، فَيُلزمها العودة إلى زوجها، فذهبت إلى النبي ﷺ وأرتْه آثار الضرب، فأرسل النبي إلى ثابت بن قيس، وقال له: خذ بعض مالها وفارقْها، قال: فإني أصْدَقْتُها حديقتيْن ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما على وجه الأرض أحب إليَّ منها غيرك، فقال لها: **«ما تقولين؟»** قالت: صدق يا رسول الله، ... ولكني أبغضه، فلا أنا ولا هو، فقال النبي ﷺ: **«خذهما وفارقها»**، ففعل(٢)

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس ﷺ: أنها قالت: والله ما أعتبُ عليه في خلُق ولا

---

(١) البخاري (٥٢٧٣- ٥٢٧٧) وابن ماجه (٢٠٥٦) وسنن النسائي الكبرى (٥٦٢٨) وفي «السنن» (٣٤٦٣) والبيهقي (٧/ ٣١٣).

(٢) يُنْظَر نحوه في: «صحيح سنن أبي داود» (١٩٤٩) وانظر سنن أبي داود (٢٢٢٨) وعبد الرزاق (١١٧٦٢) والبيهقي (٧/ ٣١٥).

مال، ولكني أكره الكفر في الإسلام[١] يعني: أنها تبغضه.

٢- وقد ذُكر أن حبيبة بنت سهل الأنصارية كانت تحت ثابت بن قيس، وأنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه في الغَلَس، فقال: «**من هذه؟**» قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: «**ما شأنك؟**» قالت: لا أنا ولا ثابت، فلما جاء ثابت، قال له رسول الله ﷺ: «**هذه حبيبة بنت سهل، قد ذكرتْ ما شاء الله أن تذكر**» فقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ: «**خذ منها**» فأخذ منها، وجلست في أهلها.[٢]

هذا: وقد تزوج ثابت بن قيس جميلة بنت سلول، كما تزوج حبيبة بنت سهل.

قال ابن حجر: وما ذكره أبو عمر (ابن عبد البر) من تعدد المختلعات من ثابت ليس ببعيد.

وقال أيضًا: وجائز أن تكون حبيبة وجميلة اختلعتا من ثابت جميعا[٣].

٣- وعن كُثَيِّر، مولى سَمُرة، أن امرأة نشزتْ من زوجها في إمارة عمر، فأمر بها إلى بيت كُثيِّر الزبل، فمكثت ثلاثة أيام، ثم أخرجها، فقال: كيف رأيت؟ قالت: ما وجدتُ الراحة إلا في هذه الأيام، فقال عمر: اخْلَعْها ولو من قُرْطها[٤].

٤- وعن الربيع بنت مُعَوذ بنِ عفراء قالت: كان لي زوج يُقِلّ عليَّ الخيْر إذا حضرني، ويَحرِمُني إذا غاب عني، فكانت مني زلة يومًا، فقلت له: أختلع منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، ففعلتُ، فخاصم عمي مُعاذ بنُ عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه[٥].

هذا ما يشير إليه قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾

---

(١) يُنْظَر في «تفسير الطبري» الأثر (٤٨٠٧) وما بعده إلى (٤٨١١) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٧٣) و«الموطأ» (٢/ ٥٦٤) و«المسند» (٦/ ٤٣٣) والنسائي (٦/ ١٦٩) وأبو داود برقم (٢٢٢٧) بألفاظ متقاربة.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٩٤٨) و«المسند» (٢٧٤٤٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والنسائي (٣٤٦٢) و«الموطأ» (٢/ ٥٦٤) والبيهقي (٧/ ٣١٢).

(٣) ينظر: الإصابة (١٣/ ٢٤٩) و (٢٧٥) وما بعدها، ومسند الدارمي (٢٣١٧) والطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٤٦) والاستيعاب (٤/ ١٨٠٩).

(٤) عبد الرزاق (١١٨٥١) والطبري (٤/ ١٥٧) والبيهقي (٧/ ٣١٥).

(٥) عبد الرزاق (١١٨٥٠) والبيهقي (٧/ ٣١٥).

من المهر ونحوه ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا أن يخاف الزوجان ألا يقوما بالحقوق الزوجية بحيث تسيء المرأة العشرة للرجل وتكون ناشزًا.

قال ابن عباس ﷺ: إلا أن يكون النشوز وسوء الخلُق مِن قبلها فتدعوك إلى أن تفتدي منك فلا جناح عليك فيما افتدت به[1].

فإن خاف الأولياء ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لا إثم ولا حرج على المرأة، فيما دفعته من مالها أو المهر الذي ترده إلى الرجل مقابل طلاقها.

قال قتادة: إذا كان النشوز والظلم مِن قِبَل المرأة فقد أحل الله له منها الفدية، ولا يجوز الخلع إلا عند سلطان[2]

وقد نهى الله تعالى الرجل أن يأخذ شيئًا مما أعطاه للمرأة إلا أن يكون النشوز مِن قبلها؛ فرفضت الطاعة والنوم في فراشه.

الخلع طلاق بائن:

والخلع عند الجمهور يعد طلاقًا بائنًا، تعتد منه المرأة كعدة المطلقة؛ لأن العوض الذي دفعتْه المرأة مبذول للطلاق الذي هو حق الزوج، فهو في مقابلة العوض.

وعند الحنفية أن الخلع يرجع إلى نية المخالع إن نوى طلقة أو اثنتين أو ثلاثًا، وهو قول مرجوح؛ لأن المخلوعة بانت بمجرد الخلع، وللمختلع أن يتزوجها في العدة برضاها؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلته من مال.

سئل ابن عباس ﷺ عن امرأة طلقها زوجها تطليقتين، ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال ابن عباس: نعم، ذَكَرَ اللهُ الطلاق في أول الآية، وآخرها، والخلع بين ذلك، فليس الخلع بطلاق[3]

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الفاصلة بين الحلال والحرام، ويُسمِّي الإسلام الخلع، أو الطلاق أو الرجعة حدود الله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها

(١) الطبري (٤/ ١٤٠) وابن أبي حاتم (٢٢١٧).
(٢) ابن أبي حاتم (٢/ ٤٢١).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٧٧١) والبيهقي (٧/ ٣١٦).

لعذاب الله، والظلم ثلاثة أنواع:

١- ظلم بين العبد وربه فيما دون الشرك بالله، وهو راجع إلى مشيئة الله إن شاء عفا وإن شاء عذب.

٢- والظلم الأكبر هو الشرك بالله، وصاحبه مخلد في النار إن مات عليه، أما إن تاب منه قبل الغرغرة فإن الله يتوب عليه.

٣- وظلم متعلق بحقوق العباد لا يترك الله منه شيئا.

وفي هذه الآية بيان لأحكام الطلاق الرجعي والخلع، وفي الآية التالية حكم الطلاق البائن.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: الطَّلَاقُ الْبَائِنُ بَيْنُونَةً كُبْرَى

٢٣٠- ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

وإذا طُلقت المرأة الطلقة الثالثة فقد بانت من زوجها بينونة كبرى، ولا يحل لها أن تَرجع إليه إلا إذا انتهت عدتها، وتزوجت شخصًا آخر زواجًا صحيحًا شرعيًا يطؤها فيه، برغبة من الطرفين غير مشروط بمدة، ولا بشرط يُفسد العقد، وبغير نية التحليل للزوج الأول، وتقيم مع هذا الزوج الثاني معاشرة الأزواج، تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها، فإن ساءت العشرة بينهما لسبب من الأسباب، ففارقها وانقضت عدتها، ففي هذه الحالة يمكنها أن تعود إلى الزوج الأول.

عن محمد بن الحنفية قال: قال علي: أشكلَ عليَّ أمران قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فدرستُ القرآن فعلمتُ أنه يعني: إذا طلقها زوجها الآخر رجعت إلى زوجها الأول المطلِّقُ ثلاثًا، وكنتُ رجلًا مَذَّاءً فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ من أجل أن ابنته تحتي، فأمرت المقداد بن الأسود؛ فسأل النبي ﷺ فقال: «**فيه الوضوء**»[١]

وقد رتَّب الله سبحانه على الطلْقة الثالثة حُكمين؛ وهما: سلْب الزوج حق الرجعة، وسلْب المرأة الرضى بالرجوع إلا بعد زواج، وهو عقاب للأزواج المستخِفِّين بحدود الله تعالى، بتكرر وقوع الطلاق منهم.

---

(١) ابن أبي حاتم (٢٢٣٤).

المحلل:

١- عن عائشة ﵂ أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى النبي ﷺ فقالت:إني كنت عند رفاعة فطلقني، فأبت طلَاقي (بانت منه) فتزوجتُ عبد الرحمن بن الزبير، وإن ما معه مثل هُدْبةِ الثوب (كناية عن استرخاء الذكر) فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته**» (كنايةُ عن الجماع) قيل: إنها لبثتْ ما شاء الله، ثم رجعتْ إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني، فقال لها النبي ﷺ: «**كذبْتِ بقولك الأول، فلن أصدقك في الآخر**»، فلبثتْ حتى قُبض رسول الله ﷺ فأتت أبا بكر فقالت: يا خليفة رسول الله، أرْجع إلى زوجي الأول، فإن زوجي الآخر قد مسني وطلقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيْتِهِ وقال ما قال، فلا ترجعي إليه، وهكذا فعلتْ مع عمر ﵁ بعد موت أبي بكر ﵁ فقال لها: لئن رجعتِ له لأرجمنك[١]

وقد أجمع أهل العلم، وثبت بالأدلة المتواترة أن المطلقة ثلاثًا لا تحل لزوجها الأول، ويجب أن يكون الزوج الثاني راغبًا فيها قاصدًا دوام العشرة.

٢- وعن عائشة ﵂ أن رجلًا طلق امرأته ثلاثًا؛ فتزوجت زوجًا، وطلقها قبل أن يمسها، فسئل النبي ﷺ: أتحل للأول؟ قال: «**لا، حتى يذوق الآخر من عُسيلتها كما ذاق الأول**»[٢]

٣- وقال ابن عمر ﵄: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثًا، فيتزوجها آخر، فتُغلِق الباب، ويُرْخَى الستْر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، فهل تحل للأول؟ قال «**لا، حتى تذوق العُسيْلة**»، وفي لفظ: «**حتى يجامعها الآخر**»[٣]

٤- قال نافع: أتى رجل إلى ابن عمر ﵄، فقال: إن رجلًا طلق امرأته ثلاثًا، فانطلق

---

(١) تنظر الأحاديث من (٤٨٨٨ - ٤٨٩٧) في «تفسير الطبري» عشرة أسانيد لحديث عائشة و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٣٨، ٥٣١٧) ومسلم (١٤٣٣) و«المسند» (٦/ ٣٤) برقم (٢٤٠٥٨، ٢٤١٤٩) والترمذي (١١١٨) والنسائي (٣٢٨٣) وابن ماجه (١٩٣٢).

(٢) البخاري (٥٢٦١) ومسلم (١٤٣٣) والنسائي (٣٤٠٧) وغيرهم.

(٣) عبد الرزاق (١١١٣٥) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٤) و«المسند» (٥٥٧١) صحيح لغيره والنسائي (٣٤١٥) وابن ماجه (١٩٣٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٦٩)، وسنن ابن ماجه (١٩٣٣).

أخٌ له من غير مؤامرة فتزوجها؛ ليُحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ(١)

٥- عن جابر بن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لُعن المحلل والمحلل له»**(٢) وسماه: التيس المستعار.

٦- وعن ابن مسعود وعقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم بالتيس المستعار؟»** قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: **«هو المحلِل، لعن الله المحلل والمحلل له»**(٣)

٧- وعن ابن عباس ﷺ قال: سئل رسول الله عن المحلل، فقال: **«لا، إلا نكاح رغبة، لا نكاح دِلْسَة، ولا استهزاء بكتاب الله ﷻ حتى تذوق العُسَيْلة»**(٤)

وقال ابن عمر لرجل طلق امرأته ثلاثًا ورغب أن يتزوجها رجل ليحلها له، فقال: **«كلاهما زان، وإن مكثا عشرين سنة أو نحوها إذا كان يعلم أنه يريد أن يحلها»**(٥)

فإذا قُدر لهذين الزوجين أنهما لم يتفقا، أو أن الزوج قد مات، فلا يجوز أن ترجع لزوجها الأول إلا بشروط ثلاثة:

١- أن تعتد منه. ٢- أن تتزوج بآخر. ٣- أن يطأها ثم يطلقها اختيارًا ثم تعتد منه.

والمعنى: إن طلقها الزوج الثاني أو مات فلا حرج على زوجها الأول أن يتزوجها بعقد

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٩٩) والبيهقي (٧/ ٢٠٨).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٨٩٣) وعن عليٍّ برقم (٨٩٤) وفي «المسند» (٤٣٠٨) صحيح لغيره، والنسائي (٣٤١٦) وعن ابن عباس في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٧٠) وعن أبي هريرة في «المسند» (٨٢٨٧) بإسناد حسن، وأخرجه أبو يعلى (٥٠٥٤) والبغوي في شرح السنة (٢٢٩٣).

(٣) «سنن ابن ماجه» برقم (١٩٣٦) وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ١٠٢): هذا إسناد مختلَف فيه؛ من أجل أبي مصعب، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٧٢) والحاكم (٢/ ١٩٨) والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، وقد حسنه الألباني في الإرواء (٦/ ٣٠٩).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٢٦) وفي إسناده ضَعْفٌ يقويه غيره، وقواه ابن كثير بمرسل عمرو بن دينار، وقد أخرجه أبو إسحاق الجوزْجاني.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٢٦) وفي إسناده ضعف يقويه غيره.

ومهر جديدين، إن غلب على ظنهما استقامة الحياة الزوجية في حدود ما شرع الله من أحكام وحقوق وواجبات فهم المنتفعون بها.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعي الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الزَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ

٢٣١-﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ(١) وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

في الآيتين الباقيتين من هذا الربع بيانٌ من الله تعالى موجَّه للأزواج والأولياء:

أما الحكم الأول الخاص بالزوج:

فإنه لا يجوز له أن يضار المرأة؛ فلا يُسرَّحها ولا يمسكها، ولا يحسن معاملتها، ولا ينفق عليها حتى يلجئها لطلب الطلاق، أو لدفع شيء من مالها؛ لتفدي نفسها به، فإذا طلقتم النساء - أيها الأزواج - طلاقًا رجعيًّا، فقارَبْن انتهاء العدة، فإما أن تراجعوهن مع القيام بحقوقهن والإحسان إليهن، وإما أن تتركوهن بلا رجعة ولا ضرر ولا تعدّ عليهن:

١- نزلت هذه الآية في ثابت بن يسار -رجل من الأنصار- طلق امرأته حتى إذا اقترب انقضاء عدتها راجعها، ثم طلَّقها يَقصد بذلك مضارتها؛ فنهى سبحانه عن ذلك، وبَيَّن أنه إذا طلق الرجال النساء فقاربْنَ انتهاء العدة، فراجِعُوهن بنية القيام بحقوقهن شرعًا وعرفًا، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، واحذروا أن تراجعوهن بنية الإضرار بهن، أو عدم القيام بحقوقهن، ولا تهزؤوا بآيات الله وأحكامه.

فالضرر الذي يكون من الأزواج معناه: أن يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها في آخر يوم يبقى من العدة؛ ليضطرها إلى التنازل عن حقوقها مقابل الطلاق.

٢- أخرج الطبري وغيره عن أنس بن مالك عن ثور بن زيد الديلي، أن رجلًا كان يطلق امرأته ثم يراجعها، ولا حاجة له بها، ولا يريد إمساكها، كيما يطول عليها بذلك العدة؛ ليضارها فأنزل الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾(٢)

(١) قرأ حفص (هُزُوًا) وقرأ خلف (هُزْءًا) ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون (هُزُؤًا).

(٢) «موطأ مالك» (٥٨٨) وهو في «تفسير الطبري» برقم (٤٩١٧).

والطلاق من آيات الله وأحكامه، وقد نهانا سبحانه أن نتلاعب بالطلاق أو الرجعة على وجه غير صحيح.

٣- فعن سليمان بن الأرقم، أن الحسن، حدثهم: أن الناس كانوا على عهد رسول الله ﷺ يطلق الرجل أو يعتق، فيقال: ما صنعت؟ فيقول: إنما كنت لاعبًا.

٤- وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**من طلق لاعبًا أو أعتق لاعبًا فقد جاز عليه**» قال الحسن: وفيه نزلت: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾(١)

٥- وجاء في الموطأ أن رجلًا قال لابن عباس: إني طلقتُ امرأتي مئة طلقة، فقال له ابن عباس: طُلقِّت منك لثلاث، وسبع وتسعون اتخذتَ بها آيات الله هزوًا.

وقد جعل الله الطلاق حَلًّا لحياة تستحيل فيها العِشرة بين زوجين، وهذا من نعمة الله على عباده، خَصَّ بها هذه الأمة دون غيرها، أنزلها في كتابه، وبينتْها سنة نبينا ﷺ، فاذكروا نعم الله عليكم، وهديه لكم بالكتاب والسنة؛ لتحقيق مصلحتكم، وخافوا عقابه فهو عليم بسرائركم.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ يا معشر الرجال﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي طلاقًا رجعيًّا بواحدة أو اثنيْن ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربْن نهاية العدة ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ راجعوهن من غير ضرار ولا أذى ﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ لا تراجعوهن بقصد الإضرار بهن ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ فيكرهُهن على التنازل عن حقوقهن ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ وعرضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ لا تتلاعبوا بأحكام الله، وتتهاونوا في أوامره ونواهيه، وتخالفوا ما شرعه لكم ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أن هداكم للإسلام، وفصَّل لكم أحكام شرعه، في كتابه وسنة رسوله، فَاثْنُوا على الله واحمدوه بألسنتكم، وأقروا واعترفوا بنعمه عليكم بقلوبكم، واعبدوا الله، ولا تصرفوا شيئًا من العبادة لغيرالله تعالى﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾يرشدكمويذكركم بما فيه صلاح شأنكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة.

(١) الحديث رقم (٤٩٢٣) في «تفسير الطبري»، وهو حديث مرسل، وفيه سليمان بن الأرقم، وقد أخرجه ابن مردويه موقوفًا على أبي الدرداء، وأخرجه ابن أبي عمر في مسنده، كما في «المطالب العالية» (٣٨٩٦).

ويراد بالحكمة أسرار الشريعة، وحكمته تعالى في أوامره ونواهيه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فخافوا الله وراقبوه، واعلموا أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، ومن عظيم حكمة الله تعالى أن يختم آيات الأحكام بالمواعظ المرققة للقلوب ليربطها بالله تعالى ويُقَوِّي صِلَتها به، فيكون هذا عونًا على تنفيذ ما أمر الله به أو نهى عنه.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: عَضْلُ الْأَوْلِياءِ لِلْمَرْأَةِ

٢٣٢-﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

يخاطب الله سبحانه أولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا انتهت عدتها، وأرادت العودة إلى زوجها، فلا يجوز لولي أمرها أن يمنعها من الرجوع إليه، لسبب في نفسه، وهذا المعنى هو المراد الأساس في الآية، لأن الله تعالى يقول فيها ﴿ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي يُرِدْن الرجعة إلى من طُلقتْ منه طلاقًا رجعيًا.

ويمكن أن توجه هذه الآية أيضًا لأولياء الأمور - الآباء والإخوة وغيرهم من أولياء أمور النساء - ألَّا يمنعوا بناتهن أو أخواتهن من الزواج ممن يرغبن الزواج به، إذا كان المتقدِّم للزواج منهن ذا خُلُق ودين؛ ولا يمنعهن من الزواج لسبب مادي أو عرقي؛ بسبب القبلية والعصبية، أو خوفًا على مالها أو لطلب التغالي في المهر، أو لطلب الأثاث المعين، أو السكن المعين تقليدًا للمجتمع والآخرين، ونحو ذلك من الأمور التي ليس لها أساس شرعي.

والسعادة الزوجية في الرضى والقناعة والتوافق بين الزوجين، وليست في الأثاث الكامل أو الفاخر، أو تأمين مستقبل الزوجة لدى الزوج.

والقصد من الآية هو نهْي أولياء الأمور عن منع المرأة من الزواج ابتداءً، أو منع العودة لزوجها الأول مع رغبتها في ذلك، فلا يمنعوها من التزوج بشخص ذي خلق ودين، ولا يمنعوها من الرجوع لزوجها الأول إذا رضيت بذلك:

وقد نزلت هذه الآية في معقل بن يسار حين منع أخته أن ترجع إلى زوجها وهي راغبة فيه.

وفي البخاري وغيره أن مَعْقِلًا كان له أخت، زَوَّجَهَا ابنَ عمه، وظلت معه حتى طلقها

طلاقًا رجعيًّا، فلما أراد أن يُراجعها قال أخوها: والله لا أُنكحها لك أبدًا، وكانت تحبه، فنزلت فيه الآية[١].

قال مَعْقِل: كانت لي أختٌ، فأتاني ابنُ عم لي، فأنكحتُها إيَّاه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فَهَوِيَها وَهَوَتْه، ثم خطبها مع الْخُطَّابِ، فقلت له: أكرمتُك بها وزوجتكها، فطلقْتَها، ثم جئتَ تخطبها، والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان الرجل لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجع إليه، فعَلِمَ الله حاجته إليها وحاجتها إليه، فأنزل هذه الآية، قال معقل: ففيَّ نزلتْ، فكفَّرتُ عن يميني وأنكحتُها إياه.

والمعنى: لا تمنعوهن من العودة لأزواجهن بعد انقضاء عدتهن إذا رغبْن في ذلك، وكان الطلاق رجعيًّا.

وقيل: إن جابر بن عبد الله منع ابنة عمه من العودة إلى زوجها بعد انقضاء عدتها، وكانت ترغب في العودة إليه[٢].

ومما ورد في أسباب النزول: أنها نزلت في أخ منع أخته أن ترجع إلى زوجها الأول، وقد كانت منه في طلاق رجعيٍّ، فلما نزلت الآية قال: سمعنا وأطعنا.

والْخِطَابُ في الآية عامٌّ، مُوَجَّهٌ لأولياء الأمور جميعًا ألا يمنعوا بناتهن وأخواتهن ومَن لهم ولاية عليهن من الزواج ممن يرغبْن فيه، أو من العودة إلى الزوج الأول إذا أرادت الرجعة، وهذا هو العَضْل؛ أي: المنع من الرجعة أو التزوج.

والعَضْل: هو الحبس والتضييق والمنع، يقال: داءٌ عُضال، وأعضل الأمر؛ أي: اشتد، وعضلت الناقة؛ أي: نشب ولدها ولم يسهل خروجه، فإذا طلق الرجال النساء، دون الثلاث طلقات، وانتهت عدتهن مِن غير مراجعة لهن، فلا تضيقوا -أيها الأولياء- على المطلقات بمنعهن من العودة إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: شرعًا وعرفًا.

أخرج الطبري بسنده عن عليِّ بن أبي طَلْحَةَ عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى:

---

(١) يُرَاجَع: البخاري مع الفتح (٩/ ١٦٠) و (٨/ ١٤٣) وحديث رقم (٤٥٢٩، ٥٣٣١) وفي «تفسير الطبري» برقم (٤٩٣١) وأبو دواد (٢٠٨٧) والترمذي (٢٩٨١).

(٢) الأثر عن السدي في «تفسير الطبري» برقم (٤٩٣٩).

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ فهذا في الرجل يُطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فتنقضي عدتُها، ثم يبدو له أن يراجعها، وتريد المرأة، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله سبحانه أن يمنعوها.

وفي الحديث عن ابن عباس وعائشة ﵄ أن النبي ﷺ قال: «**لَا نِكَاحَ إِلَا بِوَلِيٍّ، وَالسُّلْطَانُ وليُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ**»(١)

فاعملوا بهذه الموعظة أيها الأولياء، إن كنتم صادقي الإيمان ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ لأن ترك العضل فيه طهارةٌ لأعراضكم، ومنفعةٌ لكم، وثوابٌ عند الله ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه مصلحتكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد يكون بينهما عَلاقة حُب لا يؤمَن معها أن يتجاوزا ما أحل الله إلى ما حرمه الله، فالله يَعلم ما في قلب المخطوبيْن أو الزوجين من الهوَى والمحبة، ويعلم أن الوفاق بينهما أطهر وأزكى لقلوبكم وقلوبهن.

وفي الآية دليل على اشتراط الولي في عقد النكاح، لأن القرآن نهاه عن العضل، والنهي لا يكون إلا لصاحب المسؤولية.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: الرَّضَاعَةُ وَالْحَضَانَةُ

٢٣٣- ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ(٢) وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٣١٧) برقم (١٨٨٠) والإرواء (٦/ ٢٣٨) (٦/ ٢٤٧) برقم (١٨٣٩) و«المسند» (٦/ ٢٦٠) برقم (٢٦٢٣٥) حديث صحيح، والطبراني في «الأوسط» برقم (٥٢٥) قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٨٦): رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٣٠) و«مشكاة المصابيح» (١٣٣٠) وأبو يعلى (٤٩٠٦) و«التمهيد» لابن عبد البر (١٩/ ٨٧) وطُرُقُهُ متعددة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (لا تضارُّ) برفع الراء المشددة، وقرأ أبو جعفر بخلف عنه (لا تضارْ) إجراء للوصل مجرى الوقف في الجزم بسكون الراء المخففة، وقرأ الباقون (لا تضارَّ) بفتح الراء المشددة، وهو الوجه الثاني لأبي جعفر، على أن (لا) ناهية والفعل مجزوم بها، وتحركت الراء الأخيرة على غير قياس؛ للتخلص من التقاء الساكنين، أما قراءة الرفع فعلى أن (لا) نافية ومعناها: النهي للمشاكلة وما بعدها مجرد من الناصب والجازم.

وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم[1] بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

١- مقدمة: تعرضت سورة البقرة لتحديد العَلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها من أمم الكفر والشرك، ممن يَفْتِنُونَ المسلمين في دينهم، ويصدونَهم عن سبيل الله، ويَحُولُونَ دون نشر الدَّعْوَة الإسلامية، فقال سبحانه في بيان واجب الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ثم عَالَجَتْ سورةُ البقرةِ بعضَ الأمراض الاجتماعية التي تَضُرُّ بالمجتمع الإسلامي؛ فحرمت الخمر والميسر، وإتيان النساء في المحيض.

ثم تَحدثتْ عن إصلاح الأسرة المسلمة؛ لأن الأسرة إذا صَلَحَتْ صلح المجتمعُ كلُّه، وبدأت ذلك باختيار الزوجة ذات الدِّين، وترك المشركة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، وذكرتْ ما يتعلق بالحياة الزوجية من الإيلاء، والطلاق، والخلع، والرجعة، والعضل.

ثم تحدثتْ في الآية التي معنا عن أحكام الرضاعة، والحضانة بالنسبة للمطلقات اللائي لهن أولادٌ في سِن الرضاعة، ونَشَبَ الْخِلاف بينهن وبين مَن طلقوهنَّ بشأن المولود بعد أن حدث الفراق بينهما، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾.

وهذا الربع من السورة فيه **عَشْرُ آياتٍ**:

الأولى: عن حكم الرضاعة والحضانة.

والثانية: عن عِدَّةِ المتوفَّى عنها زوجُها.

والثالثة: عن حكم التعرض بالْخِطبة لمن تُوفِّيَ عنها زوجها ولا تزال في عدتها.

والرابعة: عن متعة المطلقة قبل تسمية المهر، وقبل الدخول بها وَفْق مستوى حالة الزوج.

والخامسة: عن حق المطلقة قبل الدخول بها في نصف المهر.

والسادسة والسابعة: عن ربط أحكام الأسرة بالاتصال بالله تعالى عن طريق الطاعة، وخاصة المحافظة على أداء الصلوات.

(١) قرأ ابن كثير (أتيتم) بقصر الهمزة، بمعنى: جئتم وفعلتم، وقرأ الباقون بمد الهمزة، بمعنى: أَعْطَيْتُم.

والثامنة: عن حق المرأة المتوفى عنها زوجها مدة المتعة.

والتاسعة: عن حق المتعة للمطلقة.

والعاشرة: التذكير بآيات الله تعالى وتقواه؛ لإقامة حدود الله وأحكامه، لكل مَن يَعْقِل عن الله أمرَه ونهيَه.

ونعود إلى الحديث عن الرضاعة والحضانة على ضوء الآية التي نحن بصددها:

٢- حكم الرضاعة: تَعْرِضُ هذه الآية لحالة خاصة؛ وهي حالةُ المرأة المطلقة وعندها رضيعٌ، ويتعذر عليها الزواج وهي مرضعة، ويقلل هذا الرضاع مِن رغبة الناس فيها، ويَلْحَق بالرضيع ضررٌ من جَرَّاءِ ذلك؛ فالمراد خصوص الوالدات المطلقات.

والرضاعة التي يترتب عليها حكمٌ شرعيٌّ هي التي تكون في سن الحولين، السنة الأولى والثانية من عمر الطفل، ولا عِبْرَةَ برضَاع الكبير الذي فوق هذه السن، والله يقـول ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ لقمان ١٤.

أ- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ: ليس يحرم من الرضاع بعد التمام، إنما يحرم ما أنبت اللحم وأنشأ العظم[١] فالرضاع بعد الحولين لا يحرم شيئًا.

ب- وعن أم سلمة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُحَرمُ من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»**[٢]

ومعنى **«إلا ما فتق الأمعاء في الثدي»** أي: ما كان قبل انتهاء الحولين، وهو وقت الرضاعة ومحلها.

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم[٣]

جـ- وفي حديث ابن مسعود ﷺ: «لا يُحرَّم من الرضاع إلا ما أَنْبت اللحم وأنشز العظم»[٤]

---

(١) الأثر (٤٩٦٢) في «تفسير الطبري».

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٩٢١)، وفي السنن (١١٥٢) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذي (١١٥٢) وهو حديث حسن صحيح، ورجاله على شرط الشيخين، كما قال ابن كثير.

(٤) المسند (٤١١٤) حديث صحيح بشواهده وأخرجه أبو داود (٢٠٦٠) والدار قطني في السنن (٤/ ١٧٢) والبيهقي في السنن (٧/ ٤٦٢).

د- وعن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها رجلٌ؛ فتغير وجهُهُ، كأنه كره ذلك، فقالت: إنه أخي، فقال: «**انظرن ما إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة**»(١).

أي: في مدة الحولين.

هـ - وما كان بعد الحولين الكاملين لا يحرِم شيئًا، كما في حديث ابن عباس: «**لا يُحَرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين**»(٢)

وَيُسْتَثْنَى من ذلك حالةٌ خاصةٌ رَخَّصَ فيها النبي ﷺ لامرأة أبي حذيفة أن تُرضِعَ سالمًا مولى أبي حذيفة، وكان كبيرًا، وكان يَدخل ويَخرج عليهم بصفة دائمة، فهو عبدٌ وخادمٌ في البيت، فكان يدخل عليها بهذه الرضاعة، وهذا حكم خاص بسالم، فلا يُتخذ دليلًا لاستحلال ما حرم الله، ولا يقاس عليه غيره.

وقد حدد الإسلام أطول مدةٍ في الرضاع بحولين كاملين، فقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ أي: أنّ الأمهات المتزوجات والمطلقات الواجب عليهن أنْ ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أي: سنتين كاملتين لمن أراد إتمامَ الرضاعة، وليس هذا تحديد إيجاب؛ لأن الله تعالى علَّقه بإرادة التمام، وفيه قَطْعُ النِّزاع بين الزوجين بمقدار نهاية زمن الرضاع، فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك كسائر الأغذية، ولذا كان الرضاع بعد الحولين غير محرَم.

٣- أقل مدة الحمل: وفي آية سورة الأحقاف قوله سبحانه عن الطفل: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وفصاله يعني: فطامه من الرضاع مع مدة الحمل ثلاثون شهرًا.

وقد استنبط العلماء من الآيتين في (البقرة والأحقاف) أن أقل مدة للحمل ستةُ أشهر، فلو أن الرجل وَضَعَتْ له امرأتُه طفلًا حَملَتْ به لمدة ستة أشهر فقط، فهو ولدُه، وليس له إنكاره أو اتهامها فيه؛ لأن حملَه وفصالَه ثلاثون شهرًا.

فما بقي بعد السنتين من الثلاثين شهرًا فهو ستةُ أشهر، هي أقل مدة الحمل، فإن حَمَلَتِ الأمُ تسعة أشهر أو أقل

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥١٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٥٥).

(٢) صحَّح البيهقي وَقْفَه على ابن عباس (٧/ ٤٦٢) والدارقطني (٤/ ١٧٤).

من ذلك، فإن هذه المدة تُخصم من مدة الرضاعة، فما نقص عن تسعة أشهر من مدة الحمل فهو زيادة في مدة الرضاع، وما زاد في مدة الحمل عن ستة أشهر فهو نقص عن مدة الرضاع.

قال ابن عباس في التي تضع لستة أشهر: إنها تُرضع حولين كاملين، وإذا وَضَعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرًا، لتمام ثلاثين شهرًا، وإذا وضعتْ لتسعة أشهر أرضعت أحدًا وعشرين شهرًا، ثم تلا: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾(١) [الأحقاف: ١٥].

٤- **تنظيم النسل**: ويؤخذ من كون مدة الرضاعة حولين كاملين، أنه يجوز للمرأة أن تستريح من الحمل والولادة حولين هي مدة الرضاعة، ثم تستأنف الحمل بعد ذلك إن كانت تحمل، وهي تُرضع؛ أي: بعد وقت قصير من الوضع، وكانت تُرهَق بدنيًّا ويُؤَثِّرُ عليها كثرةُ الحمل، وينفر منها زوجها، فإن لها أن تستريحَ مدة الرضاعة الشرعية حولين كاملين بطريقة من الطرق.

٥- **حق الحضانة للمطلقة**: وبعد هذه المقدمة عن زمن الرضاعة بشكل عام، تتناول الآية حكم المرأة المطلقة، ولها طفلٌ رضيعٌ يَتَعَذَّرُ عليها الزواج بسببه، ويعزف عنها الْخُطَّابُ، وهي غير ملزَمة برضاعه، وعلى والد الطفل إن كانت الأم المرضِعة مطلقةً، أن يقوم بواجب نفقة الحضانة لهذه الأم، فيتكلف أعباءَ السكن والنفقة والكسوة وغير ذلك لها ولرضيعها.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ الذي طُلقتْ أمه، وقام الخلاف بينهما بسبب رضاعه، والمولود له هو الأب، وقوله: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ أي: يجب على الآباء أن يتكفَّلوا بسكنى وطعام وكسوة الأبناء الرضعاء، والمرضعات المطلقات، على الوجه المستحسَن شرعًا وعرفًا؛ أي: في حدود طاقة الوالد من غِنًى أو فقر؛ لأن الله تعالى لا يُكلف نفسًا إلا قدر طاقتها ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ فلا يكلَّف الفقير أن ينفق نفقة الثريّ، ولا يكلَّف من لا يجد النفقة، حتى يجدها وكما قال سبحانه في سورة الطلاق ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧] وجاء في أول هذه الآية: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ فالغني يعطي مِن غِناه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ وليس لأحد أن يكلف أحدًا إلا بما يستطيعه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

(١) الطبري (٤/ ٤٠١) والحاكم (٢/ ٢٨٠) والبيهقي (٧/ ٤٤٢).

٦- لا ضررَ ولا ضِرارَ: ولا ينبغي أن يَختلف في أمور الطلاق كلٌّ من الزوج والزوجة، ويترتب على ذلك أذًى أو ضررٌ لأحدهما أو للمولود.

فلا يَحل للوالدين أن يجعلوا المولود وسيلةً للمضارة بينهما، فلا يُنْزَعُ الولد من أمه، ولا تُجبر الأم على الرضاع إذا قبل المولود الرضاع من غيرها، ولا يُرهق الأب بالنفقة الزائدة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾، أي لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، فلا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو الأجرة، ولا تُمنع من إرضاعه.

وفي هذه المضارة احتمالات ثلاثة:

أولًا: لا تُؤذَى الوالدة المطلَّقة، فلا يُنتزع منها الطفل، إن كانت ترغب في بقائه معها، والقيام على حضانته، ورعايته، ولا يُمنع عنها النفقة، والكسوة، وحقوق الحضانة الخاصة بها.

أما الزوجة التي في عصمة الرجل فكسوتها ونفقتها من أجل العصمة، وليس لأجل الرضاعة.

ثانيًا: ولا يُؤذَى والدٌ بأن يُفرض عليه من النفقة فوق طاقته، أو يُعنَّفُ، أو يُطْلب منه ما ليس بعدل، أو يُشغل قلبه بالتفريط في تربية ولده، فيؤذَى الوالد بسبب ولده ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾، ولا تمتنع الأم من إرضاعه على وجه المضارة له، أو لأبيه، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر.

ثالثًا: ولا يُؤذَى الطفل بين الأب والأم؛ فيساء غذاؤه وتربيته بسبب اختلافهما.

أخرج البخاري وغيره بسنده عن أم سلمة ﵂ قالت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بَني أبي سلمة أن أُنفق عليهم، ولستُ بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بَنِي؟ قال: **«نعم، لكِ أجرُ ما أنفقتِ عليهم»**[(١)]

٧- انتقال النفقة إلى وارث الطفل لو مات الأب:

ويجب على وارث المولود؛ إذا عُدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، يجب عليه مثل ما يجب على الوالد قبل موته من النفقة والكسوة والسكنى والتعليم والرعاية الصحية إن كان أبو الطفل قد مات، فورثهُ مِن جهة العصبة جدُّه أو أخوه أو عمه، أو من غير العصبة

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٦٧، ٥٣٦٩) ومسلم (١٠٠١).

عند فقدهم، فيؤخذ من مال الطفل، إن كان له مال يكفي لنفقته ورضاعه، وإن لم يكن له تَركه، فعلى مَن تلزمه نفقته القيام بذلك، ذلكم قول الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، والمراد: وارث الأب الذي مات.

٨- **تحديد مدة الرضاع:** ويجوز للأب والأم بعد التشاور وتبادل الرأي بينهما، أن تكون مدة الرضاع أقل من سنتين أو أكثر، إن اقتضت مصلحة الطفل ذلك، فإن أراد الوالدان فِطام المولود قبل انتهاء السنتين؛ فلا حرج عليهما بعد التراضي والتشاور والتوصل لمصلحة المولود، وليس لها أن تفطمه إلا عن تراضٍ من الطرفين ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ الفصال: هو الفطام، إن أرادا أن يفطماه قبل الحولين، فلا مانع منه إن اتفقا على ذلك، وهذا معنى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم ولا حرج، ويفهم من ذلك أنه لا يجوز فطامه إن رضى أحدهما دون الآخر.

٩- **وجوب الرضاع على الأم:**

ثم هل هذا الرضاع واجب على الأم أم غير واجب؟

يكون الرضاع واجبًا على الأم في **أربع حالات:**

الأولى: إن كان أبوه قد مات، وليس له غير أمه.

الثانية: إن كان الطفل لا يقبل ثديًا آخر غير ثدْى أمه.

الثالثة: إن كان الزوج عاجزًا لا يستطيع أن يؤجِّر امرأة أخرى كي ترضعه.

الرابعة: إن كانت المرأة لم تزل في عصمة الرجل، أو كانت في أثناء العدة.

فإن الرضاع واجب على الأم في هذه الحالات الأربع.

١٠- **المطلقة لا يجب عليها الرضاع:** وفي غير هذه الحالات الأربع، فالرضاع مندوب في شأن الأم المطلَّقة أو الأرملة، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة.

فإن طُلقت الأم، فإن الرضاعة غير واجبة عليها، وعلى الأب في هذه الحالة، أن يستأجر مرضعة أخرى تقوم بإرضاعه، وقد يتم الاستغناء عن ذلك بالإرضاع الصناعي، مع أنه ليس أصلح للصبي من لبن أمه، بل أصبح مِن الأمهات مَن تستغني به عن الإرضاع الطبيعي، ذلكم قول الله

تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ من امرأة أجنبية غير أمه على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للمرضعات، أي: إن أبت الأم أن ترضعه فلا حرج على الأب أن يستأجر له مرضعة أخرى، إذا أعطيتم لها الأجرة المتفَق عليها، وسلَّم كل منكما ما يجب عليه أن يعطيَه للآخر بالمعروف كما في سورة الطلاق ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: المرأة الأجنبية أو الزوجة المطلقة ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [سورة الطلاق: ٦] أي: في الاتفاق على أجرة الرضاع بالمثل كما يكون بين الناس.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل يطلق امرأته وله منها ولد، فهي أحق بولدها من غيرها[(١)]

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ هذا الكلام بالنسبة للزوجة المطلقة؛ لأن الخلاف على الرضاع؛ أي: وإن اختلفتم وتعاسرتم ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾ امرأة ﴿أُخْرَىٰ﴾.

وقد كان من المعروف قبل الإسلام أن المرضعات يأتين من البوادي، ويأخذن أبناء أهلِ الْحَضَر، ويقمْن بإرضاع الطفل، فينشأ في البادية في هواء نقي، وفي فطرة صحيحة سليمة، وبَدَنٍ قوي، فكان الناس يدفعون بأطفالهم وهم صغار إلى المرضعات؛ لينشأ الطفل بعيدًا عن أبيه وأمه، ثم يأتي إلى والديه بعد تمام الرضاعة، والنبي ﷺ قد استرضع في بني سُعد، أرضعته حليمة السعدْية ﵂ .

ويشترط في هذه الحالة أن يكون الأب قادرًا على استئجار المرضعة، وأن يجد مَن ترضعه، وأن يقبل الولد لبنها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وخافوا الله في جميع أحوالكم، واعلموا أنه سبحانه مُطَّلِعٌ عليكم، وسيجازيكم عليها.

الْحُكْمُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَحِدَادُهَا

٢٣٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

ثم تحدثت الآيات عن عدة المتوفَّى عنها زوجها، فحدَّدتْها بأربعة أشهر وعشرة أيام، إلا أن تكون حاملًا فعدتها بوضع الحمل؛ لأن وضع الحمل أدلُّ شيء على براءة الرحم، فكان مغنيًا عن غيره.

---

(١) ابن أبي حاتم (٢٢٦٢، ٢٣١٢).

والْحِكْمَةُ في تحديد هذه المدة، أن الجنين يَتحرك في بطن أمه بعد نصف مدة الحمل، ويُنفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر؛ أي: في الأيام العشر الزائدة على الأشهر الأربعة.

عن ابن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملَك فيكتب إليه رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح»**(١)

قال ابن عباس ﷺ: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته، يُنفَق عليها من ماله، ثم أنزل الله هذه الآية، فكانت عدة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام، إلا أن تكون حاملًا فعدتها أن تضع ما في بطنها(٢)، وهذه العِدَّةُ تشمل كل مَن تُوفي عنها زوجها؛ سواء أكانت صغيرة لا تَحيض، أم كبيرة انقطع عنها الحيض، أو كان قد دخل بها أو لم يدخل بها؛ لأنها سترثه؛ ولأن الأصل في هذه العدة أنها للحداد على الزوج المتوفى، وبراءة الرحم تبعًا لذلك، وهذا الحِداد على المتوفى حدده الإسلام بالنسبة للزوجة أربعة أشهر وعشرة أيام، والحامل لا تدخل في هذا الشمول لأن عدتها بوضع الحمل.

وكما في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما أن سبيعة الأسلمية كانت زوجة لسعد بن خولة، ولما تُوفي عنها زوجها في حجة الوداع كانت حاملًا، فوضعت حملها بعد موته بنصف شهر كما في الموطأ، أو أربعين يومًا؛ - أي: قبل تمام مدة العِدة للمتوفَّى عنها زوجها، فلما انقضى نفاسها تجملت للخُطَّاب، فقال لها أبو السنابل: والله ما أنت بمتزوجة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرًا، فجمعت عليها ثيابها وأتت رسول الله ﷺ تسأله، فقال لها النبي ﷺ: **«لقد حللتِ حين وضعت حملَكِ وأَمرها بالتزوج إن شاءت»**(٣)

فدل هذا على أن هذه الآية عامةٌ مخصَّصَةٌ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]

وقال عليٌّ وابن مسعود: عدة الحامل المتوفَّى عنها زوجها أبعدُ الأجلين؛ أي: أطول مُدَّتَي الحمل، أو عدة الوفاة، والجمهور على خلافه.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣).

(٢) الطبري (٤/٢٤٨) وابن أبي حاتم (٢٣١٥، ٢٣٩١) والنحاس ص٢٤٠ والبيهقي (٧/٤٢٧).

(٣) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٥٣١٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٨٤).

أما الحزن على المتوفَّى بالنسبة لغير الزوج، من أب أو أخ أو قريب أو رحم أو أم، فقد حدد الإسلام ذلك بثلاثة أيام، كما جاء في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أم المؤمنين أم حبيبة وزينب بنت جحش ﵄ أن النبي ﷺ قال: **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»**[١].

واتفق المسلمون على أن المتوفَّى عنها زوجها لا تتزوج في أثناء العِدة، ويَلزمها الإحداد وملازمة البيت إلا لضرورة.

وفي الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أم عطية ﵁ قالت: ولا نَكتحلْ ولا نتطيبْ ولا نلبس ثوبًا مصبوغًا[٢] وبنحوه نصح النبيُّ ﷺ أم سلمة حين مات زوجُها[٣]

والْحِدَادُ يعني: أن المرأة لا تتزين، ولا تتجمل في هذه المدة، ولا ترتدي الملابس التي تُلفتُ الأنظار، ولا تتطيب، ولا تضع الحناء، ولا الكحل، ولا تلبس الحرير والْحُلي، ولا ما يجلو الوجه، أو يُلمع الشعر، أو يُلون الأظافر، وهذا الحداد من المرأة خاصٌّ بزوجها، وليس لها أن تحتد على أحد غيره أكثر من ثلاثة أيام.

وهذه الأحكام التي جاءت بها الأحاديث، هي التي لا تحل للمعتدة على وفاة زوجها، ولاعِبْرة بما يتوارثه العامة مِن عادات تحرِّمُ على المرأة المتوفى عنها زوجها ألا تكلم أحدًا، ولا تبارح مكانها، ولا تَرى القمر، ونحو ذلك مما لا أساس له في الإسلام.

عن حفصة أم المؤمنين ﵂ عن النبي ﷺ قال: **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحِدَ فوق ثلاث، إلا على زوج، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرًا»**[٤]

قال يحيى بن سعيد عن نافع: والإحداد عندنا: ألا تَطيَّب، ولا تلبس ثوبًا مصبوغًا

---

(١) البخاري برقم (٥٣٣٤، ٥٣٣٧) ومسلم برقم (١٤٨٦) و«الموطأ» (٢/ ٥٩٨) وعبد الرزاق (١٢١٣٠) وأبو داود (٢٢٩٩) والترمذي (١١٩٥) والنسائي (٣٥٣٣)، ومثله عن أُمَّي المؤمنين عائشة وحفصة في مسلم (١٤٩٠) و«الموطأ» (٢/ ٥٩٨).

(٢) الحديث في البخاري (٥٣٤٢) ومسلم (٩٣٨) وأبو داود (٢٣٠٢) والنسائي (٣٥٣٦) وابن ماجه (٢٠٨٧).

(٣) كما في «صحيح سنن أبي داود» (٢٠٢٠) وهو في سنن أبي داود (٢٣٠٤) والنسائي (٣٥٣٧).

(٤) مسلم (١٤٩٠) وابن ماجه (٢٠٨٦) و«المسند» (٢٥٥١٣) حديث صحيح على وهْم في إسناده ومتنه (محققوه) وابن حبان (٤٣٠٢) و«سنن النسائي» (٥٦٦٦)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨١).

بورس، ولا زعفران، ولا تكتحل، ولا تزين.

والورس: نبات أصفر يُصبغ به الثياب، ومنه ما يكون للزينة كالزعفران.

ومعنى ذلك: ألا تتجمل المرأة في نفسها بكحل أو طيب أو أدوات تجميل، ولا تتجمل بثياب مُلْفِتٍ للنظر في لونه، ولا محدد لمقاطعِ الجسم واصفًا له، ولا مظهِر ما تحته من ملابس، وألا تخضع بالقول، وتتبذل بين الناس.

ولما اشتكت امرأة معتدة من عينها، وتريد أن تكتحل، فسألت النبي ﷺ كما جاء عن أم سلمة وأم حبيبة قالتا: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إن ابنتي تُوفي عنها زوجها، وإني أخاف على عينها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد كانت إحداكن تجلس حولًا، وإنما هي أربعة أشهر وعشرًا، فإذا كان الحول خرجت ورمت وراءها ببعرة**»(١)

ومعنى الرمي بالبعرة بعد الحول: انتهاء عدتها بعد سنة، وهو المعبر عنه برمي بعرة وراءها، ثم صارت أربعة أشهر وعشرًا؛ أي: أن النبي ﷺ لم يُرخص لها أن تكتحل وهي معتدة، ولا تخرج من البيت إلا لحاجة، كأن تُعالَج إن كانت مريضة، أو تخرج للعمل إن كانت تعمل، وهي مضطرة إلى العمل، ولم تتمكن من الحصول على إجازة منه، فالمعتدة لوفاة زوجها يلزمها ملازمة بيت الزوجيّة أخذا من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

فإن النسخ الوارد فيها -على القول به- واردٌ على مدة العدة، وهي الحول، أما بقية الحكم المتعلّق بحفظ المعتدة ببقائها في بيت الزوجية فهو باقٍ، وقد ثَبَتَ وجوبُ ملازمة البيت للمعتدة بالسُّنة؛ فقد صح أن النبي ﷺ قال للفُرَيْعة بنة مالك بن سنان الخُدْرِي - أخت أبي سعيد الخُدْرِي- لما تُوفي عنها زوجها: «**امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله**» وقضى به عثمان بن عفان، وكان زوجها قد خرج يطلب أعْبُدًا له، فقُتل، ولم يكن

---

(١) رواه مسلم (١/ ٤٣٥) برقم (٤٨٨) والبخاري (٥٣٣٦، ٥٧٠٦) وأبو داود (٢٢٩٩) والترمذي (١١٩٧) وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٨٦) برقم (٢٦٥٠١) وانظر: تخريج الشيخ أحمد شاكر له في «تفسير الطبري» برقم (٥٠٧٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٦٦٥) وهذا لفظه.

زوجها يملك بيتًا ولا نَفقة عليها[١].

وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يَرُدُّ المتوفَّى عنها زوجُها من البيداء، يمنعهن الحج، واتفق الجميع على أن المعتدة تخرج للضرورة نهارًا؛ لقضاء حوائجها، ولا تبيت إلا في المنزل.

ومعنى الآية: والذين يَمُوتون منكم ويتركون زوجاتِهم مِن بعدهم، يجب عليهن ألا يخرجْن من المنزل إلا لحاجة، ولا يتزينَّ ولا يتزوجْنَّ، فإذا انتهت العِدةُ فلا إثم عليكم -يا أولياء النساء- فيما تفعل المرأةُ من الخروج، والتزين المشروع، والزواج بعد العدة على الوجه المقرر شرعًا، والله خبير بأعمالكم ظاهرِها وباطنِها، وسيجازيكم عليها، وإذا انتهت المرأة من عدتها فلها أن تتطيب داخلَ بيتها، وتتكحل، وتتزين، وتتعرض للخُطَّابِ بعد مُضِيِّ أربعة أشهر وعشرًا.

واحْتَجَّ الحنفية بهذه الآية على جواز النكاح بغير ولي، وقد أخذ به قانون الأحوال الشخصية في بعض بلاد المسلمين، وأخذ جمهور أهل العلم بضرورة الولي في الزواج؛ أخذًا من الأحاديث الواردة في ذلك، والقاضي ولي مَن لا ولي لها.

الْحُكْمُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: التَّعَرُّضُ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا بِالْخِطْبَةِ

٢٣٥-﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ[٢] أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ[٣] وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

---

(١) يُنْظَر الحديث في «الموطأ» (٢/ ٥٩١) وأبي داود برقم (٢٣٠٠) والترمذي برقم (١٢٠٤) و«المسند» (٦/ ٤٢٠) برقم (٢٧٠٨٧) وإسناده حسن، والنسائي (٣٥٢٨) وابن ماجه برقم (٢٠٣١) وعبد الرزاق (١٢٠٧٥) و«المستدرك» (٢/ ٢٠٨) وصححه الألباني برقم (٢٠١٦) في صحيح سنن أبي داود.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (النساء أو) ياء خالصة، والباقون بتحقيقها.

(٣) عدّ لفظ (معروفًا) آية، المصحف البصري فقط، وتركها غيره من العدد.

تتحدث هذه الآية عن خِطبة المرأة المتوفَّى عنها زوجُها، والمطلقة طلاقًا بائنًا بينونة كبرى، أثناء العدة، **فتبيح شيئين، وتَنهى عن شيئين**:

أ- تبيح التلميحَ بالْخِطبة للمرأة المعتدة أثناء العدة دون تصريح.

ب- وتبيح إخفاء هذه الرغبة في النفس.

وتنهى عن: ١- وعدها بالزواج سرًّا أثناء العدة. ٢- وعن العَزْم على عقد النكاح قبل انقضاء العدة.

وقد أجمع العلماء على تَحريم العقد على المرأة أثناء عدتها، أو الدخول بها، فإن حدث فُرِّقَ بينهما وفُسخ العقد.

هذا: والمرأة المطلقة طلاقًا رجعيًا لا يجوز مُطْلَقًا أن يتعرض لها أحد بالخِطبة، لا تلميحًا، ولا تعريضًا، ولا تصريحًا؛ لأنها ما زالت في ذِمة زوجها.

والمرأةُ المتوفَّى عنها زوجُها، لا يجوز أن يَتقدم لها أحدٌ بالخِطبة، ما دامت في العِدة، ولا يُصَرِّح لها بذلك، وإن أراد أحدٌ أن يتزوج مِن هذه المرأة، فلْيكن هذا داخلَ نفسه، طالما هي في العِدة، ويمكن أن يُلَمح لها أو يُعَرض لها بكلام عام ولا يصرح، كأن يقول: إنه يبحث له عن زوجة مِن شأنها كذا وكذا، أو يريد امرأة صالحة يَسكن إليها، وتسكن إليه، أو إني أحب مشاورتك بعد انقضاء العدة، ونحو ذلك.

وفي الآية دليلٌ على جواز التعريض بالْخِطبة أثناءَ العدة، وأن يُضمر الإنسانُ ذلك في نفسه، ولا يَجوز أن تواعدوهن سرًا على الزواج، وهي في عدة الوفاة؛ لأن ذلك مظنةٌ للفتنة والريبة، ولا يجوز أن يتقدم لها عن طريق وليها إلا إذا انتهت العدة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أي: فلا إثم عليكم - أيها الرجال- فيما تُلَمحُون به من رغبة الزواج بالمرأة في أثناء العدة، ولا ذنبَ عليكم فيما تُضْمِرونه في أنفسكم من نية الزواج بها، ويكون هذا مِن جانب واحد.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ في أنفسكم، فأباح لكم التلميح بما تضمرونه، واحذروا أن تواعدوهن بالزواج سرًّا أثناء العدة، كأن يَطلب منها أن تُعاهده على التزوج به، إلا أن

تقولوا قولًا يفهم منه أن مثلها يرغب فيها الأزواج ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًاۚ﴾ والتعريض ضد التصريح ومعناه: أن يُضَمِّنَ كلامه ما يَصْلُح للدَّلالة على مقصوده، ويصلح للدلالة على غير المقصود:

١- وقد عرَّض رسول الله ﷺ برغبته في الزواج من أم سلمة ﵂ بذكر منزلته عند الله، وهي في العدة.

٢- وعرَّض أبو جعفر محمد بن علي الباقر، برغبته في (سكينة بنت حنظلة) بقرابته من رسول الله ﷺ، ومن جَده علي ﵁، فلما أنكرت ذلك عليه قال: إنني أخبرتُك بقرابتي من رسول الله ﷺ[١]

٣- وقال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها -أبو عمرو بن حفص- آخر ثلاث تطليقات: «**فإذا حلَلْتِ فآذنيني**»، وأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، فلما انتهت عدتها خطبها لأسامة بن زيد فزوجها إياه[٢]

أما المطلقة طلاقًا رجعيًّا فلا خلاف في أنه لا يجوز لأحد التعرض لها بخطبة ، كما أنه لا يصح العقد أثناءَ العدة، والقول المعروف في الآية هو التقدم لولي أمرها بعد الانتهاء من العدة بخطبتها ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: لاينبغي أن يَتَقَدَّم للمعتدة أحدٌ، ولا يُتفق على الزواج منها، ولا يُعقد عليها إلا إذا انتهت العدة، وهذا معنى ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ وسُمِّيَتِ العدةُ كتابًا؛ لأنها فُرِضت بالكتاب، والمراد بأجل المكتوب؛ أي: انتهاء العدة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ احذروا عقابَه عند مخالفة أمره ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ تاب من ذنبه ﴿حَلِيمٞ﴾ على عباده لا يعاجلهم بالعقوبة.

(١) يُنْظَر فيهما الأثر (٥١٢٣) من «تفسير الطبري».

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٨٠).

الْحُكْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ: مُتْعَةُ الْمُطَلَّقَةِ قَبْلَ تَسْمِيَةِ الْمَهْرِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا:

٢٣٦-﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ[(١)] أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ[(٢)] وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

ذكرتْ هذه الآية حُكمَ متعةالمطلقة قبل الدخول بها،وقبل إعطائها المهرفقد عقدعليها، ولم يدخل بها في خلوة شرعية صحيحة، ولم يُسَمِّ لها المهر؛ أي: عقد عليهادون تسمية المهر.

قيل: نزلتْ هذه الآية في رجلٍ من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يُسمِّ لها صداقَها، ثم طلقها قبل أن يَمسها، فقال له النبي ﷺ: **«مَتِّعْهَا ولو بقلنسوتك»**.

قال ابن عباس في الآية: هذا الرجل يتزوج المرأة، ولم يسمِّ لها صداقًا، ثم يطلقها من قبل أن ينكحها، فأمره الله تعالى أن يمتعَها على قدر عُسره ويُسره، ونَفْيُ الحرج الذي في الآية يتعلق بطلاقها في أيِّ وقت، حائضًا أو طاهرًا؛ لأنه قبل الْمَسَاس وقبل الدخول بها.

ولكن هذا الطلاق قد يُحرجها، أو يسيء إلى سمعتها، ويتحدث الناس عنها: لماذا تركها؟ لا بد أن فيها عيبًا في خِلْقتها، أو في خُلُقها، أو سلوكها، فيأمره الإسلام في هذه الحالة أن يُمتعَها؛ أي: يعطيها شيئًا من النفقة أو الهدايا؛ جبرًا لخاطرها، وتطييبًا لها، وحفظًا لكرامتها، وصيانةً لعِرضها؛ لكي تُذكر بالكلام الحسن بين الناس.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: لا إثم عليكم - أيها الأزواج- إن طلقتم النساء بعد العَقْد عليهن، قبل تحديد المهر وقبل الجماع والخلوة الشرعية بها، ولها حق المتعة في هذه

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ما لم تُماسُّوهُنَّ) بضم التاء مع المد ست حركات، من الْمُفَاعَلَة، وقرأ الباقون (تَمسُّوهن) من غير مد، على أن الفعل للرجال، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت بخلف عنه والمراد بالمس: الجماع على القراءتين.

(٢) قرأ ابن ذكوان وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بفتح الدال من لفظ (قدَره)، في الموضعين وقرأ الباقون بسكونها، وهما لغتان بمعنى واحد؛ هو الطاقة والقدرة.

الحالة، تطييبًا لها، وتعويضًا عمّا يلحقها من أذى في سمعتها، فمتعوهن بشيء على قدر طاقتكم، يجبر خاطرهن، ويدفع وحشة الطلاق، وإزالة الْحِقْد من نفوسهن.

وهذه المتعة حقٌّ ثابتٌ على الذين يُحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله تعالى، وقد سَمَّاهم الله محسنين؛ لأن هذه المتعة من باب التَّفَضُّل والإحسان، وذلك ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تمسوهن بالجماع ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ والفريضة هي فرض الصَّدَاق وتحديد المهر، فليس هناك مانع من طلاق المرأة قبل الخلوة بها، وقبل فرض المهر وتسميته لها.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ ادفعوا لهن شيئًا متعةً لها؛ أي: نفقة وهدية على قَدْرِ عُسر الخاطب ويُسره ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ الغني من غِناه، والفقير من فَقْره ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يرجع إلى العرف واختلاف أحوال الناس ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ قال بوجوب هذه المتعة الشافعي وأبو حنيفة وأحمد، وقال مالك: المتعة مُسْتَحْسَنَةٌ.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾ [الأحزاب: ٤٩] وقد تزوج النبي ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما دخلت عليه بَسَطَ إليها يدَه، فكأنها كرهت ذلك فأمر بتجهيزها ومتعتها(١)

قال الربيع بن أنس في الآية: هو الرجل يتزوج المرأة، ولا يُسمِي لها صداقًا، ثم يطلقها قبل أن يَدْخُلَ بها، فلها متاعٌ بالمعروف، ولا صداقَ لها(٢)

فإذا طلَّق الرجل المرأة قبل أن يُسمي لها مهرًا، وكان قد عَقَدَ عليها، ولكنَّه لم يدخل بها؛ فعليه متاعٌ بالمعروف، ولا عدةَ عليها، وهذا مَنْطُوقُ هذه الآيةِ.

ثانيًا: أما إن طلقها بعد العَقْد عليها، وبعد تسمية المهر، وقبل أن يدخل بها؛ فلها نصف المهر، ولا عدةَ عليها أيضًا، وهذا منطوقُ الآيةِ التاليةِ.

ويرى الإمام الطبري أن قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ يعود على

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٥٥، ٥٢٥٦، ٥٢٥٧).
(٢) الأثر (٥٢٠١) من «تفسير الطبري».

الحالتين معًا، وأن كلَّ مطلقة لها متعةٌ، سواء سُمِّيَ لها المهر أم لا.

ويرى أيضًا أنه لا فرق بين قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن كل محسِنٍ تقيٌّ، وكل تقيٍّ محسنٌ، والتفرقة بينها غباء، ولعل القول الأول أَوْلَى، فالإحسان يعني التفضل وعدم الوجوب، والتقوى تعني الوجوب واللزوم، وأنَّ ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعود على ما لم يُسَمِّ لها المهر فحسب.

ثالثًا: أما المطلقة بعد الدخول بها فيأتي حكمُها في قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ فهذه أحوال ثلاثة.

الْحُكْمُ التَشْرِيعِي الثَّلَاثُونَ:
الْمُطَلَّقَةُ بَعْدَ تَحْدِيدِ الْمَهْرِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ وَلَا مُتْعَةَ لَهَا

٢٣٧- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ[(١)] عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ حُكم التي سَمَّى الزوج لها مهرًا، وعقد عليها، ولم يجامعها، وأراد طلاقَها، فقال سبحانه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: إذا طلَّق الرجل امرأته قبل المسيس والدخول بها، وبعد تَحديد المهر لها، وهذا معنى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: حَدَّدَ الزوج لها مهرًا، وألزم نفسَه به، ولكنَّه لم يجامعها ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فيجب إعطاؤها نصف المهر المستحَق لها.

قال ابن عباس في الآية: هذا في الرجل يَتزوج المرأة، وقد سَمَّى لها صداقًا، ثم يطلقها قبل أن يَمَسَّها؛ فلها نصف صداقها، ليس لها أكثر من ذلك[(٢)].

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: إلا أن تعفوَ الزوجة؛ فتترك نصف المهر الذي لها، ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ أو يعفو الزوج وهو المطلِّق الذي بيده عقدة النكاح، ويترك لها المهر

---

(١) قرأ رويس بقصر الهاء من (بيده) أي: باختلاس حركتها، والباقون بالإشباع؛ أي: المد الطبيعي.

(٢) الشافعي في «الأم» (٥/ ٢١٥) و«تفسير سعيد بن منصور» (٧٧٢) والبيهقي (٧/ ٢٥٤).

كلِّه، والذي بيده عقدة النكاح بالنسبة للمرأة هو أبوها أو أخوها أوْ مَن لا تُنكَح إلا بإذنه، ولا يعفو عما وجب للمرأة، إلا أن يكون وكيلًا عنها، والآية تشمل العفوَ من كِلَا الجانبين ثم رغّب سبحانه في العفو فقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وأن يعفوا بعضكم لبعض عما وَجَبَ له بعد الفِراق بينكما أقرب إلى تقوى الله تعالى، لكونه إحسانًا تنشرح له الصدور، ويترك أثرًا حسنًا في النفوس.

١- ورد أن جبيْر بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، وأولى بالفضل(١)

٢- وقال نافع: المرأة التي يُطلِّقها زوجُها قبل أن يدخلَ بها، فإما أن تعفوَ عن النصف لزوجها، وإما أن يعفوَ الزوج فيكمل لها صداقها(٢)

٣- وقال عليٌّ بن أبي طالب في المتوفَّى عنها زوجها ولم يُفرض لها صداقًا: لها الميراث، وعليها العدة، ولا صداق لها(٣)

وتَسَامحكم -أيها الأزواج- أقربُ إلى خشية الله وطاعته ﴿وَلَا تَنسَوُا۟﴾ أي: لا تغفلوا -أيها الرجال والنساء- الأخذ بـ ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ والإحسان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وهو إعطاء ما ليس بواجب عليكم، والتسامح في الحقوق، وأن يَتَفَضَّلَ كلٌّ منكما بالعفو عن الآخر، فمعاملة الناس إما أن تكون من باب العدل والإنصاف، أو من باب الفضل والإحسان.

والعدل: أخذ الواجب وإعطاء الواجب، والفضل: إعطاء ما ليس بواجب وتسامح في الحقوق، وتغاضي عمّا في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن يترك هذه الدرجة لا سيما لمن كان بينهما عشرة وتعامل.

جاء في الأثر: سيأتي على الناس زمان عضوض، يَعض الموسِر على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(٤)

---

(١) الأثر (٥٣٢١) في «تفسير الطبري» وهو عند الشافعي في «الأم» (٥/ ٧٤) والبيهقي (٧/ ٢٥١).

(٢) الأثر (٥٣٥٢) في «تفسير الطبري».

(٣) سعيد منصور (١/ ٢٦٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٢) والبيهقي (٧/ ٢٤٧).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١١٦) وأبو داود في «السنن» برقم (٣٣٨٢) عن علي بن أبي طالب موقوفًا عليه أو مرفوعًا، واللفظ لأبي داود.

جاء قومٌ إلى ابنِ مسعود يسألونه عن رجل مات بعد أن تزوج امرأةً لم يدخل بها، ولم يحدد لها مهرًا، فقال: اسألوا غيري فما سُئلت عن شيء أشد من هذه منذ فارقْت رسول الله ﷺ، فغابوا عنه شهرًا، ثم رجعوا عليه بالسؤال فقال: سأجتهد رأيي، فإن كان صوابًا فمن الله وحده، وإن كان خطأ فمني، أرَى أن أجعل لها صداقًا كصداق نسائها لا وكْس ولا شطط، ولها الميراث، فقام ناسٌ من أشجع، منهم معقِل بن يسار فقالوا: نشهد أنك قضيتَ بمثل الذي قَضَى به رسول الله ﷺ في امرأةٍ منا يقال لها: بَرْوَع بنتُ واشق، فما رُؤيَ ابنُ مسعود فَرِحَ بشيء ما فرح يومئذ بموافقة قوله قضاء رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إن كان صوابًا فمنك وحدك لا شريك لك[1]

عَرَضَ سعد بن أبي وقاص، بنتًا له على جبير بن مطعم؛ فتزوجها، ثم ردها وطلقها قبل أن يَدْخُلَ بها، وبعث لها المهر كاملًا، فقال له: لِمَ تزوجتَها؟ فقال: عرضَها عليَّ، فكرهتُ ردَّهَا، فقيل له: فلِمَ بعثتَ بالصداق كاملًا؟ قال: فأين الفضل؟!

وتزوج أحد الصحابة امرأةً، ثم طلقها قبل الدخول بها، وأعطاها الصداق كاملًا، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أحق بالعفو منها[2]

وفي تفسير العفو: أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هي المرأة الثيب أو البكر يُزَوجها غير أبيها، فجعل الله العفو إليهن، إن شئن عفوْن فَتَرَكْن، وإن شئْن أَخَذْن نصفَ الصداق.

والله تعالى بصيرٌ بكم، وهو سبحانه يرغبكم في المعروف، ويحثكم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

رَبْطُ أُمُورِ الْحَيَاةِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ

٢٣٨-﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

---

(١) «المسند» (١٥٩٤٣) مختصرًا وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٨٩٨) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٠) وأبو داود (٢١١٥) والترمذي (١١٤٥) والنسائي (٣٣٥٥) والحاكم (٢/ ١٩٦).

(٢) «تفسير الكشاف» (١/ ٢٨٦) بتصرف.

في هذه الآية ثلاثة أوامر هي:

١- وجوب المحافظة على الصلاة بشكل عام في قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾.

٢- وجوب المحافظة على صلاة العصر بوجه خاص في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٣- وجوب الخشوع في الصلاة، وهو معنى ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

أما الأمر الأول وهو وجوب المحافظة على الصلاة:

فقد وَرَدَ فيه كثيرٌ من الآيات، و الأحاديث، أن الله تعالى وصف المؤمنين الذين فازوا بالفلاح بأنهم الذين يحافظون على صلاتهم، ووصفهم بعدم الهَلْعَ وهو منع الخير، والجزع من الشر.

وفي حديث عُبادة بن الصامت ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهن الله تبارك وتعالى على العباد، فمَن جاء بهن، ولم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له على الله تعالى عَهْدٌ أن يَغْفِرَ له، ومَن لم يفعل فليس له على الله عهدٌ، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**»(١)

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**»(٢)

وقال أبوهريرة: كان أصحاب محمد ﷺ لا يروْن شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة(٣)

هذا: وفي أثناء الحديث عن الطلاق وأمور الحياة الزوجية، يوجِّهُ الله ﷻ أنظارَنا ويلفتها إلى أن الإنسان إذا وقع في غم وكرب في مثل هذه الحالات التي تُضايق الإنسان وتُحرجه؛ فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى بالصلاة، فإن الصلاة فيها تفريجٌ للهموم والغموم والكروب،

---

(١) أخرجه مالك (١/ ١٢٣) وأحمد (٢٢٦٩٣) وهو حديث صحيح ورجال ثقات، وأبو داود (١٤٢٠) والنسائي (٤٦٠) وابن ماجه (١٤٠١) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٨) وغيرهم.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧) وهذا لفظه والنسائي (٤٦٤) وابن ماجه (١٤٢٥) والحاكم (١/ ٢٦٢).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢١١٤) والحاكم (١/ ٧).

فقد كان أنبياء الله تعالى إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة[١] فإن فيها تفريجًا للهم والغم، وكان ﷺ إذا اشتد عليه أمر يقول: **«يا بلالُ، أرحنا بالصلاة»**[٢]

ولذلك فإن الأمر بالمحافظة على الصلاة جاء في أثناء الكلام على الطلاق والعِدة والمشكلات الزوجية ﴿حَٰفِظُواْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الخمس المفروضة بالمداومة على أدائها في أوقاتها بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها:

جملة من الأحاديث في الصلاة

١- عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، أو يُميتون الصلاة عن وقتها؟»** قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: **«صلِّ الصلاة لوقتها، فإن أدركتَها معهم فصلِّ، فإنها لك نافلة»**[٣]

ومما ورد في وجوب المحافظة على الصلوات بشكل عام:

٢- ما رواه جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»**[٤]

٣- وعن بُرَيْدَةَ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»**[٥]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: **«مَن حافظ على الصلاة كانت له نورًا وبرهانًا**

---

(١) يُنْظَر حديث صهيب بسند صحيح على شرط مسلم في «المسند» برقم (١٨٩٣٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣١٩) والبزار في مسنده، والنسائي في الكبرى (١٠٤٥).

(٢) عن رجل من أسلم، ورجاله ثقات كما قال محققو المسند (٢٣٠٨٨) وانظر (٢٣١٥٤) وأخرجه أبو داود (٤٩٨٥) والطبراني في «الكبير» (٦٢١٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٦٤٨).

(٤) مسلم (٨٢) و«المسند» (١٤٩٧٩، ١٥١٨٣) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٨) والنسائي (٤٦٣) وابن ماجه (١٠٧٨).

(٥) «المسند» (٢٢٩٣٧) بإسناد قوي، و«صحيح سنن الترمذي» (٢١١٣) والنسائي (٤٦٢) وابن ماجه (١٠٧٩) وابن حبان (١٤٥٤) والحاكم (١/ ٦) وابن أبي شيبة (١١/ ٣٤).

ونجاةً يومَ القيامة، ومَن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاةً، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف»(١)

فمَن شغلتْه أموالُه عن الصلاة حُشِرَ مع قارون، ومَن شغله ملكُه ورئاستُه عن الصلاة حُشر مع فرعون، ومَن شغلتْه وزارتُه وإدارتُه حُشر مع هامان، ومَن شغلتْه تجارتُه حُشر مع أُبي بن خلف.

٥- وسأل عبد الله بن مسعود ﷺ رسولَ الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة لوقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني(٢)

والأمر الثاني: هو وجوب المحافظة على الصلاة الوسطى، ويُرَجَّحُ أنها صلاة العصر ﴿وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ﴾ أي: وحافظوا على صلاة العصر خاصة؛ لأنها وقت الراحة من تعب العمل، وكونوا خاشعين في صلاتكم ذليلين خاضعين؛ وهو معنى القنوت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

١- في الحديث عن عليٍّ ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورَهم وبيوتَهم نارًا**»(٣)

٢- وعن سالم بن عبد الله عن عبد الله -أي ابن مسعود - ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن فاتتْه صلاةُ العصر فكأنما وتر أهله وماله**»(٤)

٣- وفي حديث بريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَن ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»(٥)

---

(١) سنن الدارمي (٢/ ٣٠١) و«المسند» (٢/ ١٦٩) برقم (٦٥٧٦) والطبراني (١٦٣) وفي «الأوسط» (١٧٦٧) وابن حبان (١٤٦٧) قال محقق الإحسان: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٩٢): رجال أحمد ثقات وحسَّن إسناده محققو المسند.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

(٣) من حديث عليٍّ ﷺ في يوم الأحزاب، رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١/ ١٨١) (٢١٩٢) وهو في الطبري برقم (٥٤٢٣) ويُنْظَر: «صحيح مسلم» (٦٢٧) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٠٤٥) و«المسند» (٩٩٤، ١٢٢١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٢٩٨٤) وابن ماجه (٦٨٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٦٢٦) والبخاري (٥٥٢) ومالك (١/ ١١) وابن أبي شيبة (١/ ٣٤٢) وأبو داود (٤١٤) والترمذي (١٧٥) وابن ماجه (٦٨٥) وابن خزيمة (٣٣٥)، والمسند (٤٥٤٥).

(٥) البخاري (٥٥٣) والنسائي (٤٧٣) وفي «الكبرى» (٣٦٤) وابن ماجه (٦٩٤) وابن أبي شيبة (١/ ٣٤٢).

٤- وعن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن صلَّى الْبَرْدَيْنِ دخل الجنة**»[١] فكان ابن عمر يرى لصلاة العصر فضيلةً لقول رسول الله ﷺ فيها: «**إنها الصلاة الوسطى**».

٥- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[٢] وقيل في الصلاة الوسطى غير ذلك، والأول أرجح[٣].

والأمر الثالث: هو وجوب الخشوع في الصلاة.

وكان الناس قبل نزول هذه الآية يتكلمون وهم في الصلاة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ اخشعوا ولا تتكلموا في الصلاة، وكونوا مطيعين لله ﷻ بألا تشتغلوا في الصلاة بغير ذكر الله تعالى.

١- في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كنا نتكلم في الصلاة، يُكَلِّم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ فأُمرنا بالسكوت، ونُهينا عن الكلام[٤]، فالقنوت في الآية يراد به: السكوت في الصلاة.

قال مجاهد: كانوا يتكلمون في الصلاة، وكان الرجل يأمر أخاه بالحاجة فأنزل الله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[٥]

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن النبي ﷺ كان عَوَّدَنِي أن يرد عليَّ السلامَ في الصلاة، فأتيتُه ذات يوم فسلمتُ، فلم يردَّ عليَّ، وقال: «**إن الله يُحْدِثُ في أمره ما يشاء؛ لأنه**

---

(١) البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥) والبيهقي (١/ ٤٦٦).

(٢) الحديث رقم (٥٣٨٩) في «تفسير الطبري»، قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح جدًّا، ورواه الترمذي (١٨١) وابن حبان (١٧٤٦) وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٤) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٢)، ومشكاة المصابيح (٦٣٤) وعن سُمرة بن جندب في الترمذي (١٨٢) وصحيح سنن الترمذي (١٥٣).

(٣) الآثار من (٥٣٧٨ - ٥٤٤٥) من «تفسير الطبري» أنها صلاة العصر، وفي أواخرها دعاء على مَن يشغل الناس عنها، ومن (٥٤٥٨ - ٥٤٧٠) آثار عن حفصة $خ أنها صلاة العصر.

(٤) البخاري (١٢٠٠، ٤٥٣٤) ومسلم (٥٣٩) و«المسند» (١٩٢٧٨) وأبو داود (٩٤٩) والترمذي (٤٠٥) وغيرهم.

(٥) عبد الرزاق في «المصنف» (٣٥٧٤) والطبري (٤/ ٣٨٣).

قد أحدث لكم في الصلاة ألَّا يتكلم أحدٌ إلا بذكر الله، وما ينبغي من تسبيح وتمجيد»(١)

٣- وعن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثكل أماه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»**(٢)

٤- قال ابن مسعود ﷺ: كنا نسلم على رسول الله ﷺ، وهو في الصلاة فيردُّ علينا، فلما رجعْنا من عند النجاشي سلَّمْنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلِّم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال ﷺ: **«إن في الصلاة شغلًا»**(٣)

وقيل: **القنوت**: هو طولُ القيام في الصلاة، وَيَدُلُّ عليه ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصلاة طول القنوت»**(٤)

ومن القنوت: طولُ الركوع والسجود، وغضُّ البصر، وخفضُ الجناح، وأهم ما في القنوت: الخشوع في الصلاة، وعدم اللهو فيها، وليس المراد بالقنوت في الآية دعاء القنوت الذي يكون في الصلاة.

لَا تَسْقُطُ الصَّلَاةُ إِلَّا عَنْ فَاقِدِ الْوَعْيِ

٢٣٩-﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾

الخوف في هذه الآية، خوف مطلق، يشمل الخوف من العدو، والخوف من قاطعي الطريق، ومن السباع، والهوام، ومن الكافر والظالم، وكل معتد صائل.

---

(١) وهو في البخاري (١١٩٩، ٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨) الحديث رقم (٥٥٢٦) في «تفسير الطبري» بإسناد صحيح، وهو في النسائي (١/ ١٨١) و«المسند» برقم (٣٥٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٧) و«المسند» (٢٣٧٦٢) وأبو داود (٩٣٠) والنسائي (١٢١٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢).

(٣) البخاري (١١٩٩، ٣٨٧٥) ومسلم (٥٣٨) وأبو داود (٩٢٣) والنسائي (١٢٢٠) وابن ماجه (١٠١٩).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٥٦).

وقد شدَّد الإسلامُ على أداء الصلاة؛ فأوجبها في حال الصحة، والمرض، قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، وفي الحضَر والسفر، والسِّلم والحرب، والأمن والخوف، رجالًا أو ركبانًا، مستقبِلِي القِبلة وغير مستقبليها، مع الوضوء أو التيمم أومع فَقْدِ الطهورين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: كنتم في حالة خوفٍ من العدو أو غيره، فالصلاة لا تَسْقُطُ، فإن لم يمكنْكم أن تُصلوا قانتين مطمئنين خاشعين موفين أركانَ الصلاة، وشروطها، وسننها؛ بسبب شدة الخوف؛ فصلوا على أيّة حالة كنتم، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، حيث يسقط مع صلاة الخوف؛ التزام شروط الصلاة وأركانها.

وقد شرع الإسلام صلاة الخوف على قسمين:

أحدهما: في حالة الخوف من لقاء العدو عند تَرَقُّب الهجوم، وهذا مذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] وأحوالها في كتب السُّنَّة والفقه.

ومِن ذلك ما رواه نافع عن ابن عمر ﷺ في صلاة الخوف قال: يصلي (أي: الإمام) بطائفة من القوم ركعة، وطائفة تحرُس، ثم ينطلق هؤلاء الذين صلَّى بهم ركعة حتى يقوموا مقامَ أصحابهم، ثم يجيء أولئك فيصلِّي بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم كلُّ طائفةٍ فتصلِّي ركعة، قال: فإن كان خوفٌ أشد من ذلك ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ[1]

قال ابن عمر ﷺ: فإن كان خوف أكثر من ذلك فصلِّ راكبًا أو قائمًا تومئ إيماءً»[2]

وثانيهما: في حالة التحام الصفوف في القتال مع العدو، ولعله المراد في هذه الآية، فتؤدي الصلاة على أي حال مشاة أو ركبانًا.

وعند أبي حنيفة أن الماشي لا يصلِّي، وإنما يَقْضِي الصلاة.

كما شُغِلَ النبي ﷺ عن الصلاة يوم الخندق؛ فصلَّى الظهر والعصر والمغرب بعدما

---

(١) الخبر رقم (٥٥٦٨) في «تفسير الطبري» موقوف على ابن عمر صريحًا، وأصله في البخاري برقم (٩٤٢، ٤٥٣٥) ومسلم (٨٣٩) و«الموطأ» (١/ ١٨٤) وعبد الرزاق (٤٢٥٧، ٤٢٥٨) والبيهقي (٣/ ٢٥٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٣٩) والبخاري (٩٤٣، ٤٥٣٥) والنسائي (١٥٤١) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٦٤).

غربت الشمس.

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق، فشُغلنا عن صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كُفينا ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فأمر رسول الله ﷺ بلالًا فأقام لكل صلاة إقامة، وذلك قبل أن ينزل عليه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾(١)

وقال الشافعي: هذا كان قبل نزول حُكم صلاة الخوف، فلما نزلت لم يُؤَخر النبي ﷺ بعدها صلاة في الحرب.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ﷺ: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضَر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة(٢)

والمراد: ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفردًا، كما هو معروف في بعض صفة صلاة الخوف؛ أي: صلوا على أيِّ حالةٍ كنتم، على أرجلكم مشاةً أو ركبانًا، على السيارات، في الطائرات، على الخيل ، على المدفع، على الدبابة، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، يُومِئُون بالركوع والسجود، ويكون السجودُ أخفضَ من الركوع، ونحو ذلك.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من العدو ونحوه، وزال الخوف، وكنتم في حالة أمن وأمان ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الصلاة وخارجها، بجميع أنواع الذكر، وأدوا الصلاة بشروطها، وأركانها، واشكروا الله على ما علمكم من أمور العبادات والأحكام ما لم تكونوا على علم به ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

اذكروا الله ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا التخفيف نعمة عظيمة تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر.

---

(١) «المسند» (١١١٩٨، ١١٦٤٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود الطيالسي (٢٣٤٥) وعبد الرزاق (٤٢٣٣) والنسائي (٦٦٠) وأبو يعلى (١٢٩٦) وابن أبي شيبة (٢/ ٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٦٨٧) وأبو داود (١٢٤٧) والنسائي (١/ ٣٢٦) ((٣/ ١١٨) وابن ماجه (١٠٦٨) والطبري (٥/ ٢٤٧).

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ: مُتْعَةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا

٢٤٠- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً[1] لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وبعد هذا الربط الإيماني بين العبد وربه، أثناءَ الحديث عن أحكام الزوجية؛ لتغليب جانب التقوى، والخوف من الله تعالى، تحدثت هذه الآيةُ عن الأزواج الذين يَموتون ويَتركون بعدهم زوجاتٍ، أن عليهم قبل الوفاة وصيةً لهن، يُنَفِّذها ورثةُ الزوج بعده؛ وهي: أن تُمَتَّعَ الزوجة بالسكنى والطعام والكسوة في منزل الزوج المتوفَّى، مدة سنة كاملة من تاريخ الوفاة؛ جبرًا لخاطرها، وبرًّا بالمتوفَّى، وهذه المدة يدخل فيها عِدة المتوفَّى عنها زوجها المذكورة في الآية السابقة؛ وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، ولا تُجبر على الخروج من البيت أثناءَ الْحَوْلِ، فإن خرجت الزوجة باختيارها قبل انقضاء السنة؛ فلا إثمَ على الورثة، ولا حرجَ على الزوجة فيما فعلت بنفسها من الأمور المباحة بعد انقضاء عِدتها؛ كالزواج والتزين والخروج، والله عزيزٌ في ملكه، حكيمٌ في أمره ونهيه.

وكان من عادة العرب أن المرأة إذا تُوفي عنها زوجها لبستْ شرَّ ثيابٍ، ومكثتْ في شرِّ بيتٍ مدة عام، فأبطل الإسلام هذه الحالة السيئة من الغلو، وشَرَعَ عِدَّةَ الوفاة والإحداد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ وفي هذا تصريحٌ بحق الْمُتْعَةِ مدة عام، وليس فيه ذكرٌ للعدة، وبينهما فَرْقٌ، وصرَّحتِ الآية بعدم إرغامها على الخروج من بيت الزوجية هذه المدة، إلا إذا خرجتْ من نفسها.

قال ابن الزبير: قلتُ لعثمانَ بنِ عفان: هذه الآية قد نسختْها الآيةُ الأخرى، فلِمَ تكتبُها، أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أُغير شيئًا منه من مكانه[2]

وقد نزلتْ هذه الآيةُ في رجلٍ من أهلِ الطائفِ يُقَالُ له: حكيم بن الحارث، هاجر إلى

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وشعبة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر برفع تنوين (وصيةٌ) خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أمرهم وصية، وقرأ الباقون (وصيةً) بنصب التنوين، مفعول مطلق؛ أي: يوصون وصية.
(٢) البخاري (٤٥٣٠، ٤٥٣٦) والبيهقي (٧/ ٤٢٧).

المدينة، ومعه أبواه وامرأته وأولاده رجالًا ونساءً، فمات، فَرُفِعَ ذلك إلى النبي ﷺ؛ فأنزل الله هذه الآية؛ فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده ميراثه، ولم يعطِ امرأتَه شيئًا، وأمرهم أن يُنْفِقُوا عليها من تَرِكة زوجها مدة سنة، وليس لها من الميراث شيءٌ[١].

ولها الخيار في البقاء أو الخروج، ويجب على الزوج أن يُوصِي بذلك قبل موته، فإن لم يوصِ بذلك، أو لم تَقْبَل الزوجة فليس لها السكنى، ولها حقُّ الخروج.

وقد دلت هذه الآية على أمرين:

أحدهما: أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة كاملة.

والثاني: أن لها متعة سنة لا تُلزم بالخروج من البيت أثناءها.

وأكثر المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بآية عدة المتوفى عنها زوجها السابقة.

ونُسِخَ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر، ورُفع الحرج عن الورثة في خروجها من البيت بعد أربعة أشهر وعشر، تتعرض بعدها للزواج؛ لعدم وجوب ذلكن وقيل بعدم النسخ.

قلت: وإعمال الآية أَوْلَى من إهمالها وهي متلُوَّةٌ، ولا تَعَارُضَ بينها وبين الآية السابقة في عِدة المتوفَّى عنها زوجها؛ لأن هذه الآية تتحدث عن حقِّ التمتع في بيت الزوجية مدةَ عام، وعدم إجبارها على الخروج منه أثناء هذه المدة؛ احترامًا لحق الزوجية، وأن هذا البقاء يكون باختيارها، وما يوافق حالها، فإن خرجتْ مِن تلقاء نفسها فلا بأس.

أما الآية السابقة فهي عن مدة العدة، والعِدة غير المتعة، فلا حاجةَ للقول بالنسخ ما دام الْجَمْعُ ممكنًا، وهو قولُ بعض أهل العلم كأبي مسلم الأصفهاني.

وقد يجمع بين الآيتين، بأن الآية الأولى دلّت على أن المدة الواجبة لعدة المتوفى عنها زوجها، هي أربعة أشهر وعشرا، ودلّت الآية الثانية على أن مازاد عن هذه المدة إلى تمام السنة، يكون مستحبًا، ينبغي فعله تكميلًا لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على هذا الاستحباب، نفى الحرج والجناح عن الأولياء إذا خرجت المرأة قبل تمام الحول، فلو كان لزوم المسكن واجبًا، لم ينف الحرج عنهم.

قلت: وهذا كلام جميل في الجمع بين الآيتين، وهو لا يمنع أن يكون عدة المتوفى عنها زوجها كان عامًا كاملًا على وجه الوجوب، ثم نسخ هذا الوجوب إلى أربعة أشهر وعشرا،

(١) زاد المسير (١/ ٢٥٨) أخرجه ابن راهويه في تفسيره عن مقاتل بن حيان كما في «الدر المنثور» (٣/ ١١٢).

وظلت باقي المدة على وجه الاستحباب.

ويشهد لهذا المعنى حديث أم سلمة وأم حبيبة بشأن المرأة المعتدة التي اشتكت مِنْ عَيْنِها وأرادت أن تكتحل وهي في العدة، فقال النبي ﷺ «كانت إحداكن تجلس حولًا وإنما هي أربعة أشهر وعشرا، فإذا كان الحول خرجت ورمت وراءها ببعرة»[١].

ففي هذا بيان أن العدة كانت حولا ثم خففت إلى أربعة أشهر وعشرا.

وقيل إن هذه الآية نُسخت بآية الميراث؛ فصار لها الرُّبع إن لم يكن هناك ولد، أو الثمن مع وجود الولد، وذلك عوضًا عن النفقة.

أما وجوبُ الميراث للزوجة، وتحديد نصابها، فقد تحدَّد كبقية الورثة في آيات المواريث التي نزلتْ بعد ذلك، ولم يكن لها شيء قبل ذلك، فالنسخُ بالنسبة للميراث أمرٌ عامٌ، كنسخ آيات المواريث للتوارث بين المهاجرين والأنصار بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ: مُتْعَةُ الْمُطَلَّقَةِ الْمَدْخُولِ بِهَا

٢٤١، ٢٤٢- ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

وَلَمَّا سبق ذِكْرُ حُكم المتعة لغير الممسوسة، بيَّن سبحانه حكم المتعة بالنسبة لجميع المطلقات، وأن لهن نفقةَ العِدة حقٌّ واجبٌ على الأزواج، وليس فيه عطفٌ وإحسانٌ كما في آية مَن طُلقتْ قبل تحديد المهر، فتُدفع لها النفقةُ وجوبًا، كلٌّ على قدْر مستواه الاجتماعي ودخْله الاقتصادي.

عن جابر بن زيد قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ قال رجل: إن أحسنت فعلتُ، وإن لم أُردْ ذلك لم أفعل، فنزلت هذه الآية مبيِّنة للآية السابقة من أن لكل مطلقة متعة استحبابًا، كما في الآية السابقة، بالنسبة لغير المدخول بها أو وجوبًا كما في هذه الآية، بالنسبة للمدخول بها.

---

(١) ينظر الحديث وقد سبق ذكره في تفسير آية العدة السابقة، وهو مخرج في الصحيحين.

وهذه المتعة غير مؤخر صداقها الذي يكون في بعض بلاد المسلمين، فهي تستحق المهر كاملًا عاجلَه وآجلَه؛ لأنها مدخولٌ بها.

قال ابن عمر ﷺ: لكل مطلقة متعةٌ، إلا التي فُرض لها المهر، ولم يُدخل بها فحسبها نصف المهر[١]

١- ولعموم الآية: كان الحسن بن علي رضوان الله عليه وعلى أبيه وأمه، متزوجًا من امرأة، فلما قُتل أبوه علي ﷺ، وبُويع الحسنُ بالخلافة قالت له زوجته: لتهنأْ بالخلافة يا أمير المؤمنين، فشق ذلك على نفسه، فقال: أيُقتل عليّ وتُظهرين لي شماتة، اذهبي فأنت طالق، ثم متَّعها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاعٌ قليلٌ مِن حبيبٍ مفارقٍ، فلما بلغه ذلك قال: لولا أني طلقتها ثلاثة، لا رجعة فيها، لراجعتها.

٢- قال جابر بن عبد الله ﷺ: لما طلق حفص بنُ المغيرة امرأته فاطمة؛ أتت النبي ﷺ فقال لزوجها: «**متعْها**» قال: لا أجدُ ما أمتعُها، قال: «**فإنه لا بد من المتاع، متعها ولو نصف صاع من تمر**»[٢]

٣- وعن قتادة أن رجلًا طلّق امرأته عند شريح فقال شريح: متعْها، فقالت المرأة: إنه ليست لي عليه متعة، إنما قال الله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وليس من أولئك[٣].

وقد خُتِمَتْ هذه الآية بأن هذه المتعة حقٌّ على المتقين المؤمنين الذين يخافون الله، وخُتمت الآية السابقة بأن المتعة حقٌّ على المحسنين، فكأن الأُولى ندب، والثانية واجب؛ لأن الإحسان يعني التبرع بما ليس واجبًا، والحق قد يكون واجبًا؛ ولهذا قال بعض الأئمة بالوجوب، وقد يكون مندوبًا، والله أعلم.

وكما بيَّن الله الأحكام التي تتعلق بأولادكم وأزواجكم بيَّن لكم آياتِه وأحكامَه فيما يُنزل على محمد ﷺ لكل ما فيه صلاحُ دينكم ودنياكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله أمرَه ونهيَه، وتعملوا بموجبهما.

---

(١) «تفسير الطبري» الأثر (٥٢١٥) وأخرجه مالك (٢/ ٥٧٣) وعبد الرزاق (١٢٢٢٤، ١٢٢٢٥) والشافعي (٧/ ٣١) والنحاس في ناسخه ص٢٥٤ والبيهقي (٧/ ٢٥٧).

(٢) ،(٣) البيهقي (٧/ ٢٥٧).

الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ

٢٤٣-﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾

للمفسرين في الذين خرجوا من ديارهم -على كثرتهم واتفاق مقاصدهم- خوفًا من الموت **معنيان**:

المعنى الأول: أنهم فروا من مرض الطاعون؛ فأذاقهم الله الموت ثم أحياهم.

والمعنى الثاني: أنهم فروا من قتال عدوهم؛ فمكن الله منهم عدوَّهم وأذلهم.

والأَوْلَى حملُ الموت في الآية على الموت الحقيقي، وأنه ليس موتًا معنويًا كما قال بعضهم.

هذا: والجهاد ضرورةٌ إسلاميةٌ في كل زمان ومكان؛ لصد العدوان، وتحرير المقدسات، ونشر الدَّعْوَة، وإقامة منهج الله في أرضه، ولا عِزةَ ولا حُريةَ ولا كرامةَ للأمة بدون الجهاد، وما ترك قوم الجهاد إلا هانوا وذلوا، وتحكَّم فيهم عدوهم، ولو ضعُفت الأمة وخارت قواها في فترة مِن حياتها، فلا بُدَّ لها من رفع راية الجهاد، وغَرْسِه في نفوس صبيانها وشبابها؛ لإنقاذها مما هي فيه.

فإذا طُويتْ صفحةُ الجهاد من حياة الأمة؛ تمكَّن منها عدوُّها، وأَذَلَّ أهلَها وقهرَهم؛ لأنهم تخاذلوا، وتركوا الجهاد في سبيل الله الذي به تحيا الأمم، وبه تكون العزة للأمة الإسلامية.

وإذا ركنتِ الأمة إلى الشهوة، وإلى الترف، وإلى متاع الدنيا، ولم تبذل النفس والنفِيس، ولم تُسَخِّرِ الطاقاتِ التي مَنَّ الله بها عليها؛ لإعداد العُدَّةِ المناسبة لحرب عدوها، وإذا لم تصنع أسلحتها بنفسها، وفي مقدمة ذلك الطائرة الحربية، والدبابة، والصاروخ، والقنابل النووية، وكل جديد في مَيْدَان التسلح لإرهاب العدو، فإنهُ يُكْتَبُ لها الموت في الحياة ، ولا ذِكْرَ لها بين الناس، ولا قيمةَ لها في الحياة، وتَعِيش عِيشةَ الذل والهوان، وهي في الآخرة من الظالمين لأنفسهم الذين قبلوا الضَّيْمَ والذل والمسكنة؛ فكان مأواهم جهنم، وساءت مصيرًا.

والله سبحانه ضرب لنا في هذه الآية مثلًا لنعتبر بما حدث لِفِرْقَة مِن بني إسرائيل،

تَخَاذلتْ عنِ الجهاد في حِقبة من أحقاب الزمان، وكـانـوا آلافـًا ، قيل: إنهم أربعة آلاف، وقيل: سبعون ألفًا من بني إسرائيل، وقيل: أقل من ذلك، وقد ذكر الله تعالى أنهم ألوف، أراد عدوُّهم أن يحاربَهم؛ فدعاهم نبيُّهم إلى الجهاد؛ فكان منهم أن جَبُنُوا وفروا؛ خوفًا من ملاقاة العدو؛ فكانت النتيجة أن أماتهم الله سبحانه موتًا حقيقيًّا، قيل: أماتهم ثمانية أيام؛ بسبب جُبنهم وضَعفهم وخوفهم، ثم أحياهم الله بدعوة نبيهم، أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفًا وحلمًا.

وكانت هذه القصة معلومةً عند اليهود في أَسْفَارِهِم وتوارِيخِهم، فنزل القرآن يُشير إليها تنبيهًا لهذه الأمة على أن الجهاد والاستشهاد يُحيي الأمم، وأن الْحَذَر والجبن يُميتها، بدليل ذكر آيات القتال بعدها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ثم قال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خرجوا فرارًا من عدوِّهم؛ حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه، ثم أحياهم الله، وأمرهم أن يقاتلوا في سبيل الله[١]

ألم تعلم - أيها الرسول - قصةَ الذين فرُّوا من أرضهم ومنازلهم، وهم ألوفٌ كثيرةٌ؛ خشية الموت من قتال العدو، أو من مرض الطاعون.

قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس فيها موتٌ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال لهم الله: ﴿مُوتُوا۟﴾ فمرَّ عليهم نبيٌّ مِنَ الأنبياء فدعا ربَّه أن يحييهم؛ فأحياهم، فتلا هذه الآية[٢]

ولما خرجوا من ديارهم فارِّين من المرض الْمُعْدِي، أو فارين من قتال عدوهم؛ أماتهم الله دَفْعَةً واحدة عقوبةً لهم، ثم أحياهم بعد مدة لِيستوفوا آجالَهم، ولِيتعظوا ويتوبوا ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: أن الله تعالى أماتَهم فعلًا؛ لِتعتبر الأمم، ويتعظوا هم وغيرهم، وليعْلَمُوا أن الفرار لا يَمْنَعُ مِن الموت كما قال تعالى:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]

---

(١) الأثر رقم (٥٦١٦) من «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (٢٤١٧).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الذهبي: (ميسرة) أحد رواته: لم يرويا له، وروى له البخاري في «الأدب المفرد» وأخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٠٩، ٢٤١٣، ٢٤١٦).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

وقال جل شأنه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الحديث عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ -عندما وقع الطاعون بالشام- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سَمِعْتُمْ به بأرض فلا تُقْدِموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا فرارًا منه**»(١)

وفي الحديث عن أسامة بن زيد ﷺ: «**إن هذا الوجع السُّقم عُذِّب به بعض الأمم قبلكم، ثم بقي بعدُ في الأرض، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا فرارًا منه**»(٢)

قصة موتهم وإحيائهم:

وقد أماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بسبب دعاء نبيِّهم حزقيل ثالث خلفاء بنى إسرائيل.

وفي قصة موتهم وإحيائهم ما ذكره السُّدِّي عن أبي مالك، أن هؤلاء القوم كانوا في قرية قريبة من واسط بالعراق، أو من دِرْعَا، وهي مدينةٌ تقع على بُعد ١١٠ كيلو جنوب دمشق، وكانت تُسَمَّى أذرعات، وقع فيهم مرضٌ مُعْدٍ؛ فهربت طائفةٌ وبقيت طائفة؛ فوقع فيهم الموت، ثم أصابهم الطاعون مرة أخرى؛ فخرج جميعُ مَنْ في القرية، وكانوا بضعة وثلاثين ألفًا، ونزلوا واديًا فسيحًا بين جبلين، فبعث الله إليهم ملَكًا بأعلى الوادي وملَكًا بأسفله، وناداهم أن موتوا؛ فماتوا، ومكثوا ما شاء الله، ثم مرَّ بهم نبيُّ الله حزقيل، فرأى تلك العظام، فوقف متعجبًا، فأوحى الله إليه أنْ نادي: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تجتمعي؛ فاجتمع عظمُ كلِّ جَسَدٍ على حدة، ثم أوحى الله إليه أنْ نادِ: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي لحمًا، ثم أوحى الله إليه أنْ نادِ: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تقومي، فبُعثوا أحياءً، ثم عاشوا حتى أتتْ عليهم آجالُهم بعد ذلك(٣).

---

(١) البخاري برقم (٥٧٣٠) و (٥٧٢٩) عن ابن عباس، ومسلم برقم (٢٢١٩) من حديث أسامة بن زيد و«المسند» (١/ ١٩٤١) برقم (١٥٣٦) وبنحوه، (١٦٦٦) وأبو داود (٣١٠٣) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٤٨٠)، وابن حبان (٢٩٥٣، ٢٩١٢)، والبزار (٩٩٠) والطبراني (٢٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٢١٨) بنحوه.

(٣) يُنْظَر: «تاريخ الطبري» (١/ ٤٥٨) وابن أبي حاتم (٢٤٢٠، ٢٤٢١).

وعن أشعث بن أسلم البصري، أن عمر بن الخطاب ﷺ قال ليهوديَّيْنِ: ما نجد في كتاب الله حزقيل ،ولا أَحْيَى الموتى بإذن الله إلا عيسى؟ فقالا: أما تجد في كتاب الله ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] فقال عمر: بلى، قالا: وأما إحياء الموتى، فإن بني إسرائيل وقع عليهم الوباءُ فأماتهم الله، فبنَوْا عليهم حائطًا حتى إذا بليت عظامُهم بَعَثَ الله حزْقيل، فقال: ما شاء الله، فبعثهم الله له فأنزل الله الآية(١)

وهذا هو الدليل العملي الثالث في سورة البقرة على إمكانية البعث، بعد بعث عبدة العجل، وقتيل قصة البقرة.

وقيل: إن هذا الموت كان موتًا معنويًّا؛ أي: أنهم أصبحوا لا وزنَ لهم ولا قيمةَ لهم بين الأمم في دنيا الناس، حيث مَكَّنَ الله منهم عدوَّهم وأذلَّهم، فكأنهم مَوْتى ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي: بعثهم من موتهم على القول الأول.

وعلى القول الثاني: أنه لما انبعث في نفوسهم داعي الجهاد أحياهم الله حياةً معنويةً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بنعمه الكثيرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَ الله عليهم، فقليل من الناس تزيده النعمة شكرا، وربما استعان بعض الناس بنعم الله على معاصيه، والواجب صرفها في طاعة المنعم سبحانه.

عِزَّةُ الأُمَّةِ فِي تَسْخِيرِ طَاقَاتِهَا لِجِهَادِ الْعَدُوِّ

٢٤٤- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

ثم ذَكَرَ الله سبحانه آيتين فيهما **سببان** في عزة الأمة وحياتها، أو ذُلها وموتِها:

السبب الأول: الجهاد بالنفس لدفع العدو وتأمين طُرق الدعوة، وقد جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالجهادُ ماضٍ إلى قيام الساعة، ولا بُدَّ منه؛ لإعلاء كلمة الله، ودفع الصائل، وإلغاء الجهاد في حياة الأمم هو الموت الحقيقي، ورفعُ راية الجهاد في كل زمان ومكان فريضةٌ من فرائض الإسلام، ولا بُدَّ مِن تَعَلُّمِ فنونِه لصبياننا

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٤١٥) وتاريخ الطبري (١/ ٤٥٩).

وأبنائنا في مناهج التعليم، وغَرْسِه في نفوسهم منذ نعومة أظافرهم، وتطبيقِه عملًا في مرحلة الخدمة العسكرية.

وفي الآية تحريض على الجهاد، بعد الإعلام بأنه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَرٍ، وأن المراد من قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، هو الترغيب في الجهاد، ففيه العزةُ والكرامةُ، وتأمين نشر الدَّعْوَة الإسلامية، والأجيال تتعاقب، والْهِمَمُ تتفاوت، والدوائر تختلف، والأيام دُوَلٌ، وأحوال الأمم وحكامها وإمكانياتها تتبدل وتتغير، فالضعفُ والاستسلامُ والجبنُ هو سبب الموت الحقيقي.

ومعنى الآية: قاتلوا -أيها المسلمون- أعداءكم الكفار؛ لنصرة دين الله، ونشر دعوته، وحماية أرضكم من العُدوان، والدفاع عن مقدساتكم، واقصدوا بذلك وجه الله، وكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، فأتاهم الموت من حيث لم يحتسبوا، فكذلك الأمر بالنسبة لكم، فإن التخاذل وترك الجهاد لن يحول بينكم وبين الموت، واعلموا أن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنياتكم وأعمالكم.

السَّبَبُ الثَّانِي فِي عِزَّةِ الأُمَّةِ: الْجِهَادُ بِالْمَالِ

٢٤٥-﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ[(١)] لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ[(٢)] وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[(٣)] ﴿٢٤٥﴾﴾

هو تسخير الطاقات المادية لا لحظوظ النفس، ولا للشهوات والتمتع، وإنما لنشر الدَّعْوَة، وإعداد العُدة لحرب العدو، سواء أكان ذلك بأموال الدولة أم بأموال الأفراد.

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فيضاعفُه) بالرفع وإثبات ألف بعد الضاء على الاستئناف؛ أي: فهو يضاعفه، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر (فيضعّفُهُ) بالرفع وتشديد العين، على الاستئناف أيضًا، وقرأ ابن عامر ويعقوب (فيضعّفَه) بالنصب والتشديد، وقرأ عاصم (فيضاعفَه) بالنصب وإثبات الألف، والنصب على إضمار (أن) بعد الفاء؛ لوقوعها بعد الاستفهام، والتشديد والتخفيف لغتان، فهذه أربع قراءات فيها.

(٢) قرأ دوري أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة ورويس وخلف العاشر بالسين في (ويبسط) على الأصل، وقرأ نافع والبزي وشعبة والكسائي وأبو جعفر وروح بالصاد (ويبصط) وهي لغة قريش، وقرأ الباقون وهم قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد بالسين والصاد جمعًا بين اللغتين.

(٣) قرأ يعقوب (وإليه ترجعون) بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول.

وقد جاء ذكر هذا السبب في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: يدفع بطيب نفس ما تيسر له من المال الطيب للجهاد في سبيل الله ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة بحسب حال المتصدق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها.

وهذا يعني تسخير الطاقات المادية كالنفط والمعادن والأموال وسائر الثروات للجهاد في سبيل الله، حيث جاء ذكر هذا القرض بين آية القتال وآيات قصة طالوت وجالوت، وفيها نصرُ الفئة المؤمنة قليلة العدد، على الفئة الكثيرة الكافرة قوية العتاد، ويمكن الاكتفاء بالمال العام للدولة إن كان كافيًا، وإلا فإن الجهاد بالمال بالنسبة للأفراد مُقَدَّمٌ على الجهاد بالنفس في كثير من الآيات.

والآية تحض على الإنفاق؛ لجهاد العدو، واحتساب الأجر عند الله تعالى، حيث يضاعفه لكم -أيها المنفقون- أضعافًا كثيرة، لا تُحصى ولا تعد، والقرض من الإحسان الذي أمر الله به، كما في الحديث أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: **«يابن آدم، استطعمتُك فلم تطعمْني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما عَلِمْتَ أن عبدي فلانًا استطعمك فلم تطعمه، أما علمتَ أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي»**[1].

وحقيقة القرض: أن يُعطِي المرءُ مالًا لِيُرَدَّ لَهُ مِثْلُهُ.

والقرض: هو ما سلف من صالح عمل المرء أو سيئه.

والقرض الحسن: أن يُعطِي المرء مالًا أو متاعًا لوجه الله تعالى يبتغى به ما عند الله.

أما الأضعاف المضاعفة فيفسرها قوله تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الأنعام: ١٦٠] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]

ويفسرها ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإنْ هَمَّ بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٧٣).

حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة[١] وغير ذلك من الأحاديث.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقبض العطايا والصدقات، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، ويبسط الجزاء والثواب، كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن مَلَكًا بباب السماء ينادي: «**اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا**»[٢].

وهو سبحانه يوسع الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء، وهو سبحانه أعلم بما يصلح شؤون خلقه ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ﴾ [الشورى: ٢٧] ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦].

وفي الآية دليلٌ على أن الحاكم يترك الناسَ يُرْزَقُ بعضهم من بعض، فلا يتدخل في أسعار السلع، ولا العَلاقة بين المالك والمستأجر، ولا يفرض الجمارك، ولا ما يثقل كاهلَهم بالضرائب ونحوها.

عن أنس ﷺ قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال: فقالوا: يا رسول الله، غلا السعر فسعِّر لنا، فقال رسول الله: «**إن الله هو الخالق الباسط القابض الرازق المسعِّر، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطلبني بمظلمة في نفس ومال**»[٣]

فأنفقوا ولا تبالوا،فإن الله هو الرزاق يضيق الرزق ويوسعه، وهو يجازيكم على أعمالكم بعد الموت ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

١- ولما نزلت هذه الآية كان أصحاب النبي ﷺ يَلتفُّون حوله، ومنهم رجل من الأنصار يُكْنَى أبا الدحداح، كان له حائط (بستان فيه ست مئة نخلة) يَسكن فيه هو وأبناؤه وأهله، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، الله تعالى يريد منا القرض؟ قال: «**نعم**»، قال: امدد يدك يا رسول الله، فإني قد أقرضتُ ربي حائطي هذا -البستان الذي فيه ست مئة نخلة-

---

(١) صحيح مسلم (١٢٨) وصحيح البخاري (٦٤٩١).

(٢) أبو الشيخ في «العظمة» (٥١٩) والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٠).

(٣) صحيح الإسناد، رواه أحمد في «المسند» برقم (١٢٥٩١ و ١٤٠٥٧) بنحوه ورجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) ورواه أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣١٤) وابن ماجه (٢٢٠٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٩٤٥) عن أنس، وأخرجه البيهقي (٦/ ٢٩).

ثم ذهب أبو الدحداح إلى امرأته، وقال لها: يا أمَّ الدحداح، أُخرجي أنت والعيال، فقد أَقرضتُ ربي حائطي[(١)].

لم تعترض المرأة ولم تقل له: ضيّعت مستقبل الأولاد، ولم تولول وتصيح أو تذهب إلى أهلها، لأن الإيمان متساوٍ عندهما، واعتقاد أن ما عند الله خير وأبقى، وأن مستقبل الآخرة مقدم على مستقبل الدنيا، لا يَقِلّ هذا الاعتقاد عند المرأة عما هو عند الرجل، والرواية السابقة جاءت عن عبد الله بن مسعود.

٢- وفي رواية زيد بن أسلم، أن أبا الدحداح قال للنبي ﷺ: إن لي حديقتين، إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، وقد جعلتُهما قرضًا لله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: **«اجعل إحداهما قرضًا، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك»** قال: فاشهدْ يارسول الله، أني قد جعلتُ خيرهما لله، وهو حائط فيه ست مئة نخلة، قال: **«إذًا يَجْزِيَكَ الله به الجنة»** ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته، وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأخبرها بما فعل، فأقبلتْ على صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتُنفِّضُ ما في أكمامهم حتى أفضتْ إلى الحائط الآخر[(٢)].

فكيف يوزن هذا بما قاله اليهود: إن الله فقير، يريد منا القرض ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ آل عمران: ١٨١]

٣- وقد جاءت هذه القصة من طرق متعددة في أكثر من واقعة؛ من ذلك ما جاء عن أنسٍ ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فأْمُرْهُ أن يعطيني نخلته حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: **«أعطها إياه بنخلة في الجنة»** فأبى، فأتاه أبو الدحداح، فقال: بِعْني نخلتك بحائطي! ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعتُ النخلة بحائطي، فقال رسول الله ﷺ: **«كم من عذق ردَاح لأبي**

(١) من حديث عبد الله بن مسعود، يُنْظَرُ: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٠) بنحوه وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، و(٩/ ٣٢٤) عن أبي يَعْلَى والطبراني، قال الهيثمي: ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وهو في «تفسير سعيد بن منصور» (٤١٧) والبزار (٢٠٣٣) والطبري (٤/ ٤٣٠) وابن أبي حاتم (٢٤٣٠) والطبراني (٧٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٣٤٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٢٣٧).

الدحداح في الجنة» قالها مرارًا، قال: فأتى امرأته، فقال: يا أمَّ الدحداح، اخرجي من الحائط، فإني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: ربح البيع، أو كلمة تُشبهها[١].

والعذق الردَاح، هو: الْقِنْوُ المملُوء بالبلَح، فهو ثقيل لكثر ما فيه من الشماريخ والثمر.

٤- عن جابر بن سمرة قال: صَلَّى النبي ﷺ على ابن الدحداح ثم أُتِيَ بفَرَسٍ عُرْيٍ، فعقَلهُ رجل، فركبه، فجعل يَتوقّصُ به، ونحن نتَّبعُه نسعى خلْفه، قال: فجاء رجل من القوم فقال: إن النبي ﷺ قال: **«كم من عِذقٍ معلق (أو مَدلى) في الجنة لابن الدحداح»**[٢]

هؤلاء القوم كانت نفوسهم كبارًا، وهِمَمُهم عالية، كتب الله لهم النصر على أعدائهم، ولم يخافوا بأس أمة أقوى أو مماثِلة، ولم يخافوا من اليهود، ولا من النصارى؛ لكثرة السلاح، أو الرجال، إنما شدة الاتصال بالله، وقوة الإيمان به، هي التي صنعتْ هؤلاء الرجال، وهي التي كانت سببًا في نصرِهم على عدوِّهم على مدى الأزمنة والأمكنة، وإرهاب عدوهم منهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فهَزَمُوا الفرس والروم أكبر قوى العالم، وقتذاك.

تَخَاذُلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعَدُوِّ

٢٤٦-﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ[٣] إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٤٦) برقم (١٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وهو في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٣) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح، وقال ابن حجر في الإصابة (١٢/ ٢٠٥) روى أحمد والبغوي والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، وذكره.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٦٥) وأبو داود (٣١٧٨) وجاء في في صحيح مسلم أيضًا وفي الترمذي (١٠١٣) بلفظ (أبي الدحداح) وفي رواية مسلم في موضعين بلفظ (ابن الدحداح) قال ابن حجر في الإصابة (١٢/ ٢٠٧) وقد تقدم في ترجمة ثابت بن الدحداح (٢/ ٤٠) أنه يكنى أبا لدحداح وأنه مات في حياة النبي ﷺ فبنى أبو عمر (ابن عبدالبر)، في الاستيعاب (٤/ ١٦٤٥) على أنه هذا، والحق أنه غيره.

(٣) قرأ نافع (هل عسِيتم) بكسر السين، وقرأ الباقون بفتح السين وسكون الياء، وهما لغتان.

أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ[١] ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

في هذه الآيات قصة الأشراف والرؤساء من بني إسرائيل حين أتوْا نبيهم وطلبوا منه أن يجعل لهم مَلِكًا يقاوموا به أعداءهم، فذكر لهم أنهم قد لا يقاتلون إذا كُتب عليهم القتال، فقالوا: وأي شيء يمنعنا من القتال وقد أُلْجِئنا إليه، فلما كُتب عليهم القتال، ضَعُف أكثرهم وتخاذلوا وجَبُنُوا، وثبت قليل منهم ووطّنوا أنفسهم على مقارعة العدو، فعيَّن لهم نبيهم: طالوت، مَلِكًا عليهم، فاعترضوا عليه، فأقنعهم بكفاءته، وتجهزوا لقتال العدو، فامتحنهم طالوت بأمر الله، ليتبين من يصلح للقتال من غيره، وكان الماء قد قلّ عليهم، فشرب من النهر أكثرهم بعد أن نُهوا عن ذلك، ونكصوا عن قتال عدوهم، وجاوز طالوت النهر ومعه قلة ثبتت وصبرت، فانبرى داود على صغر سنه إلى جالوت وجنوده فهزموهم بإذن الله، وأتى الله داود الملك والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، ونصر الله القلة المؤمنة.

قال الربيع بن أنس في الآية: ذُكِر لنا -والله أعلم- أن موسى لما حضرتْه الوفاة استخلَف فتاهُ يوشع بن نون على بني إسرائيل، ثم إن يوشع بن نون تُوُفي، واستَخلف عليهم خمسة بعده، ثم أتوْا نبيًّا من أنبيائهم حين أوذوا في أنفسهم وأموالهم، فقالوا له: سل ربك أن يكتب علينا القتال، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ - أي لعلكم إذا كتب عليكم القتال ألا تقوموا به - فبعث الله طالوت ملكًا، وكان في بني إسرائيل سِبطان، سبط نبوة، وسبط مملكة، ولم يكن طالوت من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة، فلما بُعث لهم مَلِكًا أنكروا ذلك، وقالوا: أَنَّى يكون له الملْك علينا؟ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[٢]

قال أهل السير والأخبار: إن الله تعالى أنزل على آدم ﷺ تابوتًا (صندوقًا) فيه صور الأنبياء ﷺ، توارثه الأخيار من ذرية آدم، حتى وصل إلى إبراهيم ﷺ، ثم صار إلى يعقوب

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الهاء والميم من (عليهم القتال) وصلًا، وقرأ أبو عمرو بكسرهما وصلًا، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا، والجميع سكّن الميم وقفًا. ووقف حمزة ويعقوب على (عليهم) بضم الهاء، وكسرها الباقون.

(٢) الطبري (٤/ ٤٤٠، ٤٥٢).

حفيدِه، فكان في بني إسرائيل، إلى أن جاء موسى ﷺ، فكان يضع فيه التوراة وبعض متاعه، وورث بنو إسرائيل هذا التابوت، وكان فيه آثار، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

قيل: إن هذه الآثار هي: عصا موسى وهارون، وثياب موسى وهارون، وعِمامة هارون، وبعض الألواح التي كُتِبَ فيها التوراة، وبعضٌ مِن الْمَنِّ الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل(١)

وكان بنو إسرائيل يحملون هذا التابوت المحتوِي على هذه الآثار، إذا قاتلوا عدوَّهم، ويتبركون به، ويتقدمون به الصفوف؛ فيكون ذلك سببًا لنزول السكينة، والطمأنينة عليهم، وسببًا في نصرهم على عدوهم، وإلقاء الرعب في قلب العدو على حدِّ مُعتقدهم.

وحَدَثَ في بني إسرائيل بعد موت موسى ﷺ سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد أن يوشع بن نون كان نبيًّا فيهم، ثم إنهم حرَّفُوا وغيَّروا كتاب الله (التوراة)، واستحلوا الرِّبا والنساء، وتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقتلوا أنبياءهم، فسلَّط الله تعالى عليهم ضِمْنَ ما سلط، أهل فلسطين، فقاتلوهم وشرَّدُوهم، شرَّدَ الفلسطينيون اليهود، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، واستولوا على هذا التابوت وسلبوهم إياه، وظلوا وقتًا من الزمن حتى أرسل الله فيهم نبيًّا لهم يقال له: (صموئيل)، فذهب نفرٌ منهم إلى نبيِّهم، وطلبوا منه أن يُعيِّن لهم قائدًا أو مَلِكًا يقودهم في محاربة عدوِّهم.

وكان ذلك في القرن الحادي عَشَرَ قبل الميلاد، ذلكم قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألم تعلم -أيها الرسول- خبر الأشراف والوُجهاء من بني إسرائيل بعد موت موسى، حين طلبوا من نبيهم شمويل -وهو اسمه بالعبرية- أن يُوَلِّيَ عليهم مِلِكًا يقودهم إلى قتال عدوهم، فقال لهم: إني أخشى وأتوقع إن فُرِضَ عليكم القتال أن تَجْبُنُوا وتفرُّوا، قالوا مستنكرين على نبيهم: ما يمنعنا من قتال العدو، وقد أخرجنا العدو من أرضنا، وقتل أولادنا وأسرهم؟!

وكان أهل فلسطين قد انتصروا عليهم، وأخذوا بعض قراهم، وسقط التابوت في أيديهم،

(١) يُنْظَر: «تفسير سعيد بن منصور» (٤٢٢) وابن أبي حاتم (٢٤٨٥، ٢٤٨٦).

فلما رأت بنو إسرائيل ما حلَّ بهم من الهزيمة طلبوا من نبيهم أن يقيم لهم ملِكًا يقاتل بهم في سبيل الله، فلما فُرض عليهم القتال كان ما توقعه نبيُّهم؛ لأنه قد عرفهم، وعرف جُبنهم وعزيمتَهم ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ أن تتخلفوا وتَجْبُنُوا عن القتال، إن فَرَضَ الله عليكم الجهاد، ولا تخرجوا لقتال العدو.

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ وذلك أن قوم جالوت كانوا يَسكنون بين مصر وفلسطين، فأَسَرُوا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين، وما دام الأمر كذلك فلا بدَّ من قتالهم، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: لما أُجيبوا إلى مطلبهم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ تَخاذَلُوا وضعفوا وهربوا وفرُّوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: كانوا بعدد أهل بدر، ثلاثمائة وثلاثة عشر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال لهم نبيهم شمويل أو صموئيل استجابة لطلبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ إجابةً لطلبكم، يقودُكم لقتال عدوِّكم، وكانت النبوة في بني إسرائيل في سبط لاوَى بن يعقوب، وكان الْمُلْك في سبط يهوذا، وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن رجلًا معروفًا، ولا ذائعَ الصيت، ولا يعرفه أحدٌ من الناس، ولكنَّه كان رجلًا فقيرًا مزارعًا يُفلح الأرض، ويَرْعَى غَنَمَ أبيه، وبعده على الترتيب: كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم إيلاء ... إلخ.

قِصَّةُ طَالُوتَ وَجَالُوتَ

٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ(١) إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بعدما حذَّرهم عاقبةَ حُكم الملوك، وحذَّرهم من ترك القتال في سبيل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ولكن مَن طالوت؟ وفي أيِّ مكان هو؟ قال لهم نبيهم: مِن أين لي بطالوت هذا؟ كيف أَتَعَرَّفُ عليه؟ فكان الجواب من الله تعالى: سنرسله إليك، وسوف تَعْرفُه وتقابله عن قرب، وأوحَى الله إليه بأوصافه، وأنه أطولُ القوم، وقد صُبَّ على رأسه زيتًا، وعَيَّنَهُ لهم ملِكًا، وذلك سنة ١٠٩٥ قبل الميلاد،

(١) قرأ نافع (نبينهم) مدًّا متصلًا، والباقون (نبيّهم) بياء مشددة، وكذا كل مشتقات هذا اللفظ في القرآن.

وشمويل: هو صمويل أو صموئيل، **وطالوت**: هو شاول بن قيس.

ذكر ابنُ جرير عن وهب بن منبه وغيره، أنه كان لشمويل (قرن فيه دهن)، وأن الله تعالى قال له: إذا سمعتَ صوتًا من هذا القرن، فإن الرجل الذي يَدْخُلُ عليك هو طالوت، ملِك بني إسرائيل، فادهِنْ رأسه من الدهن الذي في القرن، ومَلِّكْهُ عليهم، وكان طالوت قد خرج يطلب دابةً فُقدت منه، ومعه غلامٌ له، فمرا ببيت نبي بني إسرائيل فسألاه عن الدابة، وبينما هما عنده إذ سمع صوت الدهن الذي في القرن، فقام إليه النبي فأخذه وقال لطالوت: قرِّب رأسك فقربه، فدهن منه، ثم قال له: أنت ملِك بني إسرائيل الذي أمرني الله أملكك عليهم[1] وأن تكون ملِكًا وقائدًا لبني إسرائيل، تقودُهم لحرب عدوِّهم، قال كبار بني إسرائيل -وقد تعجبوا-: كيف يكون طالوت ملكًا علينا؟ وهو لا يستحق الملك؛ لأنه ليس من سبط الملوك، ولا من بيت النبوة، فهو من سبط بنيامين، ونحن أحق بالملك منه؛ لأننا من سبط يهوذا، وهو غير معروف بين الناس، ولم يُعطَ كثرةً من المال، يستعينُ به في ملكه.

﴿قَالَ﴾ إن الله سبحانه اختاره لكم، وهو سبحانه أعلمُ بأمور عباده، وقد زوَّده الله **بأمرين**: **بسطة** في العلم والمعرفة والحكمة، **وبسطة** في الجسم وقوة البدن والبنْية؛ ليقاتل العدوَّ ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل والعطاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بحقائق الأمور، لا يَخْفَى عليه شيءٌ.

ولما استبعدوا مُلْكَه لِفَقْرِه وسقوط نَسَبِه؛ ردَّ الله عليهم **بأربعة أجوبة**:

أولًا: العُمدة في ذلك أن الله اختاره لكم، وهو أعلم بالمصالح منكم.

ثانيًا: أن فيه وفرةَ المعرفة والعلمَ بأمور السياسة وغيرها، وفيه جسامةُ البدن؛ ليكون أعظمَ خطرًا في القلوب، وأقوى على محاربة العدو وكيده.

ثالثًا: أن الله تعالى مالِك الْمُلك، وله أن يؤتِيَه من يشاء، وينزعَه ممن يشاء.

رابعًا: أن الله تعالى يُوسع على الفقير فيغنيه، وهو أعلم بما يليق بالْمُلْك ويلائمه.

قيل: إنه كان أعلمَ بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وكان أطولَ الناس، وأقواهم جسدًا.

---

(١) معنى الأثر (٥٦٣٦) عن محمد بن إسحاق في «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (٢٤٤٣) مختصرًا.

تَابُوتُ الْعَهْدِ

٢٤٨-﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

قال بنو إسرائيل لنبيهم: نريدُ علامةً فيها دليلٌ ماديٌّ على أن الله تعالى اختار لنا هذا الرجل؛ ليكون قائدًا يقودنا إلى حرب عدوِّنا، وهذا إخبارٌ من الله تعالى أنهم لم يُقِرُّوا بِبَعْثَة طالوت مَلِكًا لهم حين أخبرهم نبيُّهم بهذا؛ حيث طلبوا منه ما يَدُلُّ على صِدق قولِه، قال لهم نبيهم: إن العلامة الدالة على أن الله قد جعله لكم ملِكًا وقائدًا عليكم، أن يأتيَكم بالتابوت، وهو الصندوق المفقود أو المسلوب منكم، وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم، وكان تابوت العهد قد بَقِيَ في أيدي الفلسطينيين سبعة أشهر موضوعًا في بيت صنم لهم، فأصابتهم بعض النكبات والأمراض، فاستشاروا الكهنة، فأشاروا عليهم بإرجاع التابوت مصحوبًا بهدية؛ ففعلوا، وكان التابوت يُحمل على عربة لها عجلات تَجُرُّها بقرتان، فحملوه عليها إلى مَحِلة بني إسرائيل.

والتابوت: صندوقٌ مستطيلٌ، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وله حِلَقٌ من ذهبٍ، يقوم على قوائم أربع، وكان موسى قد أَمَر بصناعته من نَفَائِسِ المعادن؛ ليضعَ فيه الألواح.

وهذا التابوت فيه طمأنينةٌ وسكينةٌ من ربكم؛ لتثبيت قلوب المخلصين لِمَا له من شأن ديني في نفوسهم، وفيه بقيةٌ من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون كعصا موسى، ورضاض الألواح، وثياب موسى ونعليه، وعمامة هارون، وشيء من التوراة، وكان موسى إذا قاتَل، قَدَّمَهُ أمامهم؛ فتسكُن نفوسُ بني إسرائيل ولا يفرُّون، ولما رجع التابوت لبني إسرائيل حملته الملائكة؛ أي: سَيَّرته ورحَّلتْه، وهو يسير إليهم بإذن الله.

قال ابن عباس: فخرجوا في صحراء واسعة قريبة من القرية، ورأوا الملائكة تَحمل التابوت بين السماء والأرض، وتضعه بين يدي طالوت[١] فآمنوا بنُبُوَّةِ نبيهم، وآمنوا بِمُلْك

(١) قصة التابوت في أول الفصل الخامس والعشرين والسابع والعشرين من سِفْرِ الخروج.

طالوت، وأطاعوه واعترفوا به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في الإتيان بالتابوت المفقود، لَأَعظمُ برهان لكم على اختيار طالوت ملِكًا عليكم بأمر الله، إن كنتم مصدِّقين بالله ورسله.

وفي هذه الآية تأديبٌ لليهود الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ، كما كذَّب مَن سَبَقهم نبيَّ الله شمويل، وامتنعوا عن الجهاد مع طالوت.

وفيها تحذيرٌ لأمة محمد ﷺ ألا يتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله، ومناهضة أهل الكفر، وفي مقدمتهم اليهودُ، وألا يؤثروا حياة الدَّعَة، والخمول، والترف على الجهاد في سبيل الله.

ومما يتعلق بهذه الآية أن كُتَّابَ المصاحف لم يختلفوا إلا في لفظ (التابوت) هل يكتبوه بالتاء المفتوحة، أو بهاء التأنيث المربوطة، فرفعوا اختلافَهم إلى عثمان بن عفان ﷺ، فقال: اكتبوه (التابوت) بلغة قريش؛ فإن القرآن نزل بلسانهم[١]

لَا يَخْرُجُ لِلْجِهَادِ إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ صَبْرٌ وَجَلَدٌ وَطَاعَةٌ

٢٤٩- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي[٢] إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً[٣] بِيَدِهِ[٤] فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ[٥] قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

وَأَعَدَّ طالوتُ العُدَّةَ لحرب اليهود، وقال لهم: لا يصحبني مَن كان مشغولًا بأمر من

(١) انظر هذا المعنى في البخاري (٤٩٨٧) والترمذي (٣١٠٤) والنسائي في «الكبرى» (٧٩٨٨) وابن أبي داود ص١٩ وابن حبان (٤٥٠٦) والبيهقي (٢/ ٤١) و«تفسير سعيد بن منصور» (٤١٨).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (مني إلا) والباقون بسكونها سكونًا مدِّيًا.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بضم الغين من لفظ (غُرفة) على أنها اسم للماء المغترف، وقرأ الباقون بالفتح على أنها مصدر، اسم للمرة.

(٤) قرأ رويس باختلاس حركة الهاء من (بيده) ومدَّها الآخرون مدًّا طبيعيًا.

(٥) قرأ أبو جعفر بالياء في (فئة) بدلًا من الهمزة، وأثبتها الآخرون.

أمور الدنيا، كل مَن يصرفه عن الجهاد صارفٌ لا يصحبني في القتال، فالذي عقد على امرأة أو خطبها وقلبُه معلَّق بها لا يلحقني في القتال، ومَن كان قلبه معلقًا بأهل بيته لا يتبعني، ومَن يخاف على مال أو عمل أو ذرية لا يلحقني، والذي شَرَع في بناء بيت، ولم يكمل هذا البناء لا يصحبني، والمشغول بتجارة وبكسادها وربحها لا يصحبني وهكذا...

وأخذ جنودَه الذين تجرَّدُوا للجهاد في سبيل الله لا غير، وكانوا ثمانين ألفًا، ولما خرجوا من بيت المقدس أراد أن يختبرَ عزم قومه، وصبْرَهم، وجلَدَهم، وطاعتَهم؛ ليتميزَ المؤمنُ من المنافق، والمخلِص من المخادع، وكانوا قد أصابهم حرٌّ وعطَشٌ شديدٌ، فقال لهم: إن الله مبتليكم بنهر، وهم عطْشَى في شدةٍ وظمأٍ وحرٍّ، وأمامهم نهرٌ ماؤه عذب، يسمى (نهر الشريعة) الذي يقع بين الأردن وفلسطين، قال لهم: مَن شرب مِن هذا النهر وارْتَوَى وملأ بطنه فلا يصحبني؛ لأنه لا يصلح للقتال، ومن لم يَذق الماء، أو اكتفى بأن أخذ غرفة بيده يبل بها ريقَه فإنه مِني، ولا لَوْمَ عليه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فلما وصلوا إلى النهر، وهو نهر الأردن؛ انكبوا على الماء، وأفرطوا في الشرب، واسودت شفاهُم، علامةً من عند الله مميِّزَةً لهم على المخالفة، قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين صبروا على العطش والحر، أو اكتفوا بغرفة اليد، قيل: إنها تكفي الرجل لشربه، وقيل: كانوا ثمانين ألفًا، فشرب منهم ستة وسبعون ألفًا، وبقي أربعة آلاف.

وقيل: إن مَن بقي بدون شرب كانوا بعدد أهل بدر، وهو الأصح، يدلُّ عليه ما أخرجه البخاري وغيرُه عن الْبَرَاء بن عازب ﷺ قال: كنا نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر معه، ولم يجاوز معه إلا مؤمن: ثلاث مئة وبضعة عشر رجلًا[1].

وحدَّث ابنُ جرير عن السُّدي قال: لما أصبح التابوت وما فيه في دار طالوت؛ آمنوا بنبوة شمعون، وسلَّموا بِمُلْك طالوت، فخرجوا معه وهم ثمانون ألفًا، وكان جالوت من أعظم

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٩٥٨، ٣٩٥٩) وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٩٠) والطبري بستة أسانيد (٤/ ٤٩٠) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٨٣) وابن أبي حاتم (٢٥١٣) والبيهقي (٣/ ٣٦).

الناس وأشدِّهم بأسًا، فخرج يسير بين يدي الجند، ولا يجتمع إليه أصحابه حتى يَهزم مَن لَقِي معه، فلما خرجوا قال لهم طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ فشربوا منه هيبةً من جالوت، فَعَبَرَ منهم معه أربعةُ آلاف، ورجع ستةٌ وسبعون ألفًا، فمَن شرب منه عَطِشَ، ومَن لم يشرب منه إلا غرفة رُوِيَ[1].

ولما جاوزوا النهر ورأوا جالوت وجندَه صرحوا بأنهم لا قدرةَ لهم على مقاومتهم، وكان جالوت مسلحًا مدرعًا يفوقهم في الطول، ولا يستطيع أحدٌ من بني إسرائيل مبارزتَه، واسمه في كتب اليهود (جُلْيات).

ولما تَخَاذَل هذا الفريق عن لقاء العدو، قال الفريق الآخر ممن يطلبون الشهادة، ويحبون الآخرة عن الدنيا تثبيتًا لأنفسهم وللفريق الآخر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه، فليس النصرُ بكثرة العدد؛ وإنما النصر من عند الله مع الأخذ في أسبابه ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بحفظه ورعايته وتأييده.

وقد ذكر الله سبحانه عواملَ النصر في كتابه بعد أمره بإعداد العُدة، وبيَّن أن هذه العوامل تتمثل في:

١- الثبات أمام العدو وعدم الفرار.

٢- الإكثار من ذكر الله تعالى، فهو طاقة وشحنة تقوِّي العزائم وتشحذ الهمم.

٣- طاعة الله والرسول.

٤- وَحْدَةُ الكلمة، وعدم الشقاق والتنازع.

٥- الصبر والمصابرة في ساحة القتال عند لقاء العدو.

فردَّ طالوت الذين شربوا، ومَضَى في ثلاث مئة وثلاثة عشر، بعدد أصحاب بدر، وهم الذين لم يشربوا، فلما عَبَرَ طالوت وجنودُه النهر؛ لملاقاة العدو، ونظروا إلى جالوت وكثرة جندِه، وهم مُدَجَّجُونَ بالسلاح والْعَتَادِ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قالتْ هذه الكثرةُ التي شَرِبتْ من النهر: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ الأشداء الأقوياء، وكان عددُ جيوش طالوت ثلاثة آلاف رجل، فلما اجتاز الجيش نهر الأردن لم يجد معه إلا نحو ست مئة

---

(١) الأثر (٥٧٢٠) في «تفسير الطبري»، وفي تاريخه (١/ ٢٤٢) وعند ابن أبي حاتم (٢٤٩٥، ٢٥٠٢، ٢٥٠٤).

رجل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أي: قالت القلة المؤمنة الصابرة المحتسِبة الموقنة بلقاء الله، وهم الذين وطَّنوا أنفسهم على الموت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بتوفيقه ونصره وحسن مثوبته، وكان طالوت قد أمر مناديًا ينادي: مَن قتل جالوت زَوَّجْتُه ابنتي،وله نصف مَالي ومُلْكِي[1]

التَّوَجُّهُ إلَى اللهِ بِالدُّعَاءِ مِنْ عَوَامِلِ النَّصْرِ

٢٥٠-﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

وبَرَزَ طالوت لجالوت، ونظر القومُ فإذا بجالوتَ يَصْرَع ويَقْتُل كلَّ مَن خرج لِمُبَارَزَتِه، وهو يتحدَّى ويصول ويَجول؛ ففزعوا إلى الله بالدعاء والضراعة يسألونه ثلاثة أشياء هي: الصبر والثبات والنصر، قائلين: ربنا أنزل على قلوبنا صبرًا وثبت أقدامنا، واجعلها راسخةً في قتال العدوِّ، ولا تَجعل للفرار سبيلًا إلى قلوبنا، وانصرنا بعونك على القوم الكافرين، وهم جالوتُ وجنودُه الذين كفروا بك، وكذبوا بك، وكذبوا رسلك، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن جالوت وقومه كانوا كفارًا.

دَاوُدُ- الصَّبِيُّ الصَّغِيرُ- يَقْتُلُ جَالُوتَ قَائِدَ الْجَبَابِرَةِ

٢٥١-﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ[2] ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

وكان من جنود طالوت فتى يافع هو (داود) وله قصة:

ذلكم أن رجلًا مِن بيت لَحْم كان له سبعةٌ من الغِلمان، أرسل منهم الثلاثة الكبار

(١) ذكر ذلك ابن عساكر (٢٤/ ٤٤٢) عن الضحاك عن ابن عباس من طريق إسحاق بن بشر.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (ولولا دِفَاعُ الله) مصدر (دافع)، وقرأ الباقون (دَفْعُ) مصدر (دفَعَ).

للمشاركة في حرب طالوتَ، وله ولدٌ هو أصغرُهم، يبلغ الثالثة عشرة من عمره، هذا الفتى اسْمُه داود، قال له أبوه: لا تدخلْ معركةَ القتال، فلسْتَ مِن أهلها؛ لصغر وحداثة سنِّه، ولكن أَوْصِل الطعام إلى إخوانِك، وكن رسولًا بيني وبينهم.

ونظر داود فوجد جالوتَ يَصُولُ ويَجُولُ، ويقتل في بني إسرائيل فشقَّ عليه ذلك، وعزَّ على نفسه الصغيرة، فتقدم لطالوتَ يستأذنه في مبارزة جالوت، قال له طالوت: وماذا عساك أن تفعل وأنت فتىً صغيرٌ حديثُ السن، قال له: لا يغرنَّك صِغَر سني، ولا ضآلة حَجْمي، فإني قد قتلْتُ أسدًا عدا عَلَى أغنام أبي، وقتلْتُ جنديًّا تَعرض لي، وإن حرارةَ الإيمان تَجِيش في صدري، فاتْركني لمحاربته، فأراد طالوتُ أن يُسلِّحَه كما يُسلَّح الرجال في الحروب، ولكن داود جِسْمُه صغيرٌ، لا يَطيق ولا يقْوى أن يرْتديَ لباسَ الحرب وخوْذته ونحو ذلك، قال داود لطالوت: اتركْني وشأْني.

وأخذَ داودُ عصًا ومقلاعًا، وكان بارعًا في رمي القلاع، وأخذ معه حِجارة ملساء، كما يفعل أطفال الحجارة باليهود اليوم، ونظر إليه جالوت، فوجد عُدته: عصًا ومقلاعًا، قال له مستهزئًا ساخرًا: أجئتَ تُطارد كلبًا؟ أم جئت تناهز غلامًا مثلَك؟ إن شئت جعلتُك لحمًا طريًّا يُقدَّمُ للوحوش، قال له: ولكني مُقاتِلُك بسم الله، وأَخْرَج داودُ حجرًا أملس، ووضعه في مِقْلَاعِه، وصوَّبَهُ تجاهَ رأس جالوت، فأرْداهُ مُثْخنًا بدمائه، وأَتْبعه بحجَرٍ تِلْو حَجَر، ثم علاه بالسيف، وقطع رأسه، فأرداه قتيلًا صريعًا، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ الفتى الصغير، قَتَلَ القائد الكبير ﴿جَالُوتَ﴾ قائدَ الجبابرة.

وكان طالوتُ قد رَصَدَ جائزةً لِمَن يقتل جالوت، وهي أن يُزوجه ابنتَه، وأن يُشاطِرَه مُلْكَه، ففعل ذلك، ووفَّى بما قال، وزَوج جالوتُ ابنتَه، داودَ، وشاطره مُلْكَه، وأعطى الله داودَ بعد ذلك الْمُلْكَ والنُّبوة في بني إسرائيل ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية.. ولم تجتمع بنو إسرائيل على مَلِكٍ قبله، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ وهم أهل الطاعة والإيمان ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بغلبة الكفر وأهله، وتخريب البلاد وتعذيب العباد، وقتْل الأخيار، وتمكن الطغيان، وكثر الطغاة:

١- عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا تزال طائفةٌ**

من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَن خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[١].

٢- وفي حديث عمران بن حصين ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوأهم حتى يقاتِل آخرُهم المسيحَ الدجال»**[٢].

٣- وفي حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجددُ لها دينها»**[٣].

٤- وعن المغيرة بن شعبة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال قومٌ مِن أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيَهم أمرُ الله، وهم ظاهرون»**[٤].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المخلوقِين جميعًا.

٢٥٢-﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

تلك حُجَجُ الله وبراهينُه نتلوها عليك أيها الرسول، فمَن الذي أعْلَمَك بما قَصَصْناه عليك يا محمدُ، من الأمور العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل وغيرهم، إن هذا دليلُ صدقِ نبوتك، وفي هذا إنكارٌ على مَن جحد رسالةَ محمد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الصادقين، ختم الله بك النُّبوة والرسالة.

فَضَائِلُ الرُّسُلِ وَسَبَبُ اخْتِلَافِ الْأُمَمِ

٢٥٣-﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا

---

(١) البخاري (٧١ و٧٤٦٠) بنحوه، وابن ماجه (٩)، و(١٠) وفي السلسلة الصحيحة (١٩٥٧) وانظر (١١٩٥، ١٩٥٨، ١٩٧١) وهو في المسند (١٦٨٨١)

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢١٧٠) والحاكم (٤/ ٤٥٠)، والمسند (١٩٨٥١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم (٢/ ٧١) والبزار في مسنده (٣٥٢٤).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٠٦) والحاكم (٤/ ٥٢٢)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥٩٩) وصحيح الجامع الصغير (٨٧٤) وفي سنن أبي داود (٤٢٩١).

(٤) البخاري (٤٦٤٠، ٧٤٥٩) ومسلم (١٩٢١).

عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ[١] وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

ولما صدَّق الله رسالةَ محمد ﷺ، وأكَّدَها في قوله جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أشار سبحانه في أول هذا الجزء إلى الرُّسُل الذين سَبَقَ ذكرُهم في السورة مِن آدم إلى داودَ عليهم جميعًا أفضلُ الصلاة وأتم التسليم بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: الذين ذكرَهم الله في هذه السورة وهم: موسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وصمويل، وداود، وسائر مَن ذَكَر اللهُ نبأهم في هذه السورة، فضل الله بعضهم على بعض بما أودع فيهم، من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة.

أفضل الرسل

واللهُ ﷻ قد فَضَّل بعضَ الأنبياء والمرسلين على بعض، كما قال تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وأفضلُ رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو خاتَمُهُم محمدٌ ﷺ؛ ذلكم لأن كلَّ رسولٍ كان يُرْسَلُ إلى قومه خاصَّة، ومحمدٌ ﷺ أُرسل إلى الناس كافةً، بل أُرسل إلى الثَّقَلَيْنِ: الإنسِ والجنِ، وإلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها، ومعجزتُه باقيةٌ إلى قيامِ الساعة.

ومِن معجزاتِه الكونيةِ: انشقاق القمر، وحنين الْجِذْع، وتسليم الشجر والْحَجَر عليه، وكلام البهائم له، وتكثير الطعام بين يديه، ونَبْع الماء مِن بين أصابعه ﷺ وغير ذلك.

أما المعجزة الدائمة إلى قيام الساعة فهي القرآن؛ في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما مِن نبيٍّ من الأنبياء إلا قد أُعْطِيَ مِن الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يومَ القيامة»**[٢]

والمعنى: أن كلَّ نبي أُعطي آية أو أكثر، مِن شأن مَن يشاهدها من البشر أن يؤمن بالنبي ﷺ لأجلها، وكانت آيةُ محمدٍ ﷺ هذا القرآن، فهو معجزةٌ قائمةٌ إلى قيام الساعة.

---

(١) قرأ ابن كثير (القدْس) بسكون الدال؛ للتخفيف، وهو لغة تميم، وقرأ الباقون بضم الدال، وهو لغة أهل الحجاز.

(٢) البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢، ٢٣٩) و«المسند» (٨٤٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٩٢٣).

وقد فضَّل الله سيِّدَ الْخَلْقِ محمدًا ﷺ على جميع خَلْقِه، وأَبْهم الله ذلك في الآية؛ لأن العلم به لا يَشْتَبِهُ على أحدٍ ولا يلتبس، وهو مفهومٌ من هاء الضمير في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

ودليلُ ذلك: أن محمدًا ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس كافَّة، فلم يُبْعَثْ لزمنٍ دون زمن، ولا لمكانٍ دون مكانٍ، وأُعطيَ الشفاعةَ العظمَى، وخصَّه الله بخصائصَ ليست لغيره، قال ﷺ: «**أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعطهن أحدٌ قبلي: بُعثتُ إلى الأحمر والأسود، ونُصرتُ بالرعب، فإن العدوَّ لَيرْعب مني مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحلتْ لي الغنائم، ولم تَحل لأحدٍ كان قبلي، وقيل لي: سَلْ تُعْطَه، فاختبأتُها شفاعة لأمتي، فهي نائلة منكم إن شاء الله مَن لا يشرك بالله شيئًا**»(١) .

وفي الصَّحِيحَيْنِ أيضًا عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيتُ خمسًا لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**»(٢) .

وهل يستوي مَن أُرسل إلى مئة ألف أو يزيدون، بِمَن أُرسل إلى البشر كافَّة؟ بل وإلى الجن وغيرهم من العوالِم، وحتى يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

لا يستوي مَن كانت مدةُ رسالته ثلاث سنوات بِمَن تبقَى رسالتُه ما دامت الأرض باقية.

ومحمدٌ ﷺ هو خاتمُ الرُّسُل والأنبياء، وأفضلُهم، وهو سيِّدُ الأولين والآخرين، ولا أدل على ذلك مِن أن الله تعالى قد أَخَذَ العهد والميثاق على جميع الرُّسُل والأنبياء أن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ عند مجيئه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] .

---

(١) هذا حديث صحيح، ورد بألفاظ مختلفة، وهو في «المسند» من حديث ابن عباس برقم (٢٧٤٢) (٥/ ١٤٥) و«المستدرك» (٢/ ٤٢٤) والبخاري في الفتح (١/ ٣٦٩) ورقمه في البخاري (٤٣٨) بنحوه ومسلم بلفظ آخر (٥/ ٣)، برقم (٥٢١).

(٢) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨) ومسلم (٥٢١).

وأمَّتُه أفضلُ الأمم وآخرها، وكتابُه خاتَم الكتب المهيمن عليها.

ثلاثة أسباب لهذه الأفضلية:

وقد فضَّل سبحانه بعضَ الرُّسل على بعض بحسب ما مَنَّ الله به عليهم؛ ففضَّل محمدًا ﷺ بعموم الرِّسالة، وفضَّل كتابَه بأن جعلَه مهيمنًا على سائر الكتب، وفضَّل أمَّتَه بأن جعلَها خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

١- وهذا تفضيلٌ يَتعلق بالنبي ﷺ، ومع هذا فقد نَهَى ﷺ تفضيله على غيره من الأنبياء، من باب التواضع وهضم النفس، لا سِيَّما إن كان هذا التفاضل في مَقَامِ المناظرة ذات التشاجر أو العصبية، فقال ﷺ: «**لا تفضلوني على الأنبياء**»[1].

٢- وهناك تفضيلٌ ثانٍ يتعلق بالقرآن الكريم توضحه هذه الآيات:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٣- أما التفضيل الثالث: فهو لهذه الأمة التي أجابت رسول الله ﷺ، واتبعتْه حقَّ الاتباع، فقد مدح الله هذه الأمة بمثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه درجاتٌ وخصوصياتٌ ثلاث؛ منها ما هو خاصٌ برسول الله ﷺ، ومنها ما هو

---

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٣).

خاصٌ بالكتاب الذي نَزَل عليه، ومنها ما هو خاصٌ بأُمَّتِه.

فضل موسى عليه السلام:

ثم ذَكرت الآية خصائص تفضيل بعض الرُّسُل على بعض؛ فقال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فقد فضل الله سبحانه موسى ﷺ بأن كان كليمًا لله ﷻ، كلَّمه كفاحًا بلا واسطة ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] وفي هذا إثباتُ صفةِ الكلام لله سبحانه على الوجه اللائق بِجَلَالِه، فهو سبحانه يَتكلم بكيفية لا نعلمها، وليس كمثله شيء، ونحن نؤمن بوحيه تعالى، وكلامه، مع تنزيهه في ذاته وصفاته عن مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

والكلام صفةٌ أزليةٌ قديمةٌ من صفات الله تعالى، قائمة بذاته سبحانه، يُعلم به مَن يشاء مِن عباده، بما شاء من عِلْمِه، متى شاء سبحانه.

ولهذا الكلام أنواعٌ ثلاثةٌ جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] وكلها تسمى وحيًا وكلامًا.

والظاهر أن كلام موسى ﷺ كان من النوع الثاني في الآية، وحَدَثَ مثله لرسول الله ﷺ ليلةَ العروج.

ثم أشار سبحانه إلى أن هؤلاء الرُّسُل قد ميَّز الله بعضَهم عن بعض فقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ في المكانة والمنزلة والخصائص، فمنهم أولو العزم الذين صبروا وكابدوا أقوامهم، ومنهم صاحب الرسالة العامة إلى الثقلين . . . وهكذا.

فضل عيسى عليه السلام:

ثم ثَنَّى سبحانه بعد موسى ﷺ بعبده ورسوله عيسى ﷺ فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ **والبينات**: هي المعجزات.

وفَضَّل عيسى ﷺ بأن أيَّده بروح القدس.

وروح القدس: جبريل عليه السلام، وجبريل هو أمين الوحي إلى جميع الرُّسُل، وقد اقترن عيسى بروح القدس؛ لأنه وُلِدَ بدون أب، فكان معه منذُ أن نَفخ في جيب درع أمه مريم، وحتى رفعه الله تعالى إليه بواسطته أيضًا، فهو الذي أيَّده الله، وقوَّاه على وجه الخصوص بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام.

كما أيَّد الله نبيه محمدًا ﷺ بروح القدس أيضًا فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها**»[1].

كما أيَّد الله عيسى بالإنجيل، وأيَّده بالمعجزات الدالة على صِدْق رسالته وبالآيات البيِّنات، فهو ﷺ يَخْلق من الطِّينِ كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئ قومه بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم.

وعيسى عبدٌ من عباد الله، خَلَقَه الله بدون أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وكما خلق حوَّاء من غير أم، وخلق بقية الخلق من أب وأم؛ لتكتمل القسمة.

وقد خُصَّ موسى وعيسى بالتفضيل بعد محمد؛ لأن التكليم آيةٌ عظيمةٌ، والتأييدُ بروح القدس آيةٌ عظيمةٌ.

فضل داود وسليمان عليهما السلام:

وفضَّل الله تعالى داود عليه السلام بأن أنزل عليه الزَّبور، وجعل الطير والجبال تُرَجِّعُ؛ أي: تسبح الله معه، وأعطاه الله الْمُلك والكتاب والْحُكم والنُّبُوَّة، وجعله يصنع الدروع التي تَقِي من الحرب والبأس.

وفضَّل الله سليمان بأن سَخَّر له الإنس والجنَّ والطير، وسخَّر له الشياطين تعمل بين يديه بإذن ربه، وقد رفع الله إدريس مكانًا عاليًا في المكان والمنزلة.

هذه بعضُ فضائلِ الرُّسُل التي تشير إليها الآية، ثم إن الله ﷻ لم يجعل الإنسان

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٦٠)، وانظر تخريجه في آخر سورة الشورى.

مثلًا مكررًا من الملائكة، لا يتقاتلون ولا يختلفون و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وإنما خلق الله الناس خلقًا مميَّزًا عن الملائكة، وعن الحيوانات، فجعل لهم عقولًا، وجعل فيهم شهوةً، وجعل لهم حريةً وإرادةً واختيارًا، وهم بهذا الاختيار، وبهذا العقل، وبهذه الحرية يتميزون عن غيرهم، والله سبحانه قد أَرْسَلَ لهم الرُّسُل، وأنزل فيهم الكتب، وهو مُحَاسِبُهم على ما قدَّمتْ أيديهم.

ولو شاء الله ما حدث خلاف ولا فرقة ولا تفرق ولا تقاتل بين أمم هؤلاء الرسل بعد ما جاءتهم الدلائل والبراهين الموجبة للاجتماع على الإيمان، على أيدي رسلهم، من الآيات البينات والمعجزات الواضحات، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا، لأن الأسباب تنفع مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وُجدت المشيئة زال كل موجب واضمحل كل سبب، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يقع الخلاف والقتال بينهم ليتميز أولياؤه من أعدائه، ويقوم سوق الجهاد واتخاذ الشهداء، ويظهر أهل الجنة وأهل النار.

الاختلاف بعد الرسل:

ومِن شأن الناس أن يختلفوا، ومن شأنهم ألا يتفقوا؛ ولذلك فإن منهم مَن آمن وثَبَتَ على إيمانه، ومنهم مَن كفر وأصرَّ على كفره، ولو شاء الله ألا يقتتلَ الذين جاؤوا مِن بعد هؤلاء الرُّسُل، من بعد ما جاءتهم البينات لَفَعَلَ سبحانه، فهو الفَعَّال لما يُريد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكن الاختلاف قد وقع بينهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرُّسُل ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات الدالة على صِدْق دعواهم والموجبة للإيمان بهم وبدعوتهم.

ولكنَّه سبحانه لم يشأ؛ لأن قتالَهم بسبب سوء اختيارهم، وفساد فطرتهم، وذلك مثل: اقتتال اليهود والنصارى في قصة أصحاب الأخدود، وقتال الروم والفرس، وقتال الأوس والخزرج، وقتال اليهود لأهل فلسطين القائم حتى يُنطقَ الله الْحَجَر فيقول: يا مسلم هذا يهوديٌّ ورائي فتعالَ فاقتلْه، ومثل قتال الحبشة لمشركي العرب، ومثل قتال مَن يَزعمون أنهم على مِلَّة إبراهيمَ مِن اليهود والنصارى للمسلمين بعدما جاءتهم دلائلُ صِدْقِ محمدٍ ﷺ، كما أن أمةَ كلِّ رسولٍ من الرُّسُل اختلفوا واقتتلوا فيما بينهم، وكَفَّر بعضُهم بعضًا، والمقصود بهذا هو تحذيرُ المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع به أولئك، كما قال ﷺ من حديث عبد

الله بن عمر ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يَضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ**»(١).

وفي الحديث عن أبي بَكْرَةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتِل والمقتول في النار**»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتِل، فما بال المقتول؟ قال: «**أما إنه كان حريصًا على قتل أخيه**»(٢).

وقال ﷺ فيما يرويه ابن عمر ﷺ: «**من قال لأخيه يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعتْ عليه**»(٣).

واللهُ يوفِّق مَن يشاء لطاعته والإيمان به، ويخذل مَن يشاء بكفره وعصيانه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ مِن بعد ما جاءتهم البينات؛ بوحدانية الله وصدق الرُّسُل ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فأجْرَى سنته في خَلْقِه على هذا، وكان اقتتالُهم بعد عِلْمِهم، وقيام الْحُجَّةِ عليهم تعمدًا منهم للكفر بالله وآياته، ولم يجتمع لرسول من الرُّسُل طاعة جميع الأمة له في حياته، ولا بعد مماته، بل اختلفوا، فكان منهم المؤمن ومنهم الكافر وَفْقًا لإرادة الله تعالى ومشيئته، ولو أراد الله حجزهم عن الاختلاف لَفَعَلَ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دينٍ واحدٍ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

سَأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن القَدَر، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر، قال: طريقٌ مظلمٌ لا تَسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحرٌ عميقٌ فلا تَلِجه، فأعاد السؤال، فقال: سرُّ الله قد خَفِيَ عليك فلا تُفشه.

وقد تجسَّد اختلافُ أهل الشرائع بأن منهم مَن آمن إيمانًا صحيحًا، فأخذ الدِّين على وجهه وفَهِمَه فهمًا سليمًا، وعَمِل بمقتضاه، ومنهم مَن تأثر بالهوى والشبهات والشهوات؛ فحَادَ عن الصواب، وضَلَّ الطريقَ.

---

(١) البخاري (١٧٤٢، ٤٤٠٣، ٧٠٧٧) ومسلم (٦٦، ١١٩) وأبو داود (٤٦٨٦) وابن ماجه (٣٩٤٣) و«المسند» (٥٥٧٨) وابن حبان (١٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٣٥٧٧، ٣٥٧٩).

(٢) البخاري (٣١، ٧٠٨٣، ٧٨٧٥) ومسلم (١٤، ١٥، ٢٨٨٨) وأبو داود (٤٢٦٨) و«المسند» (٢٠٤٣٩) وابن حبان (٥٩٤٥، ٥٩٨١) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٥٧٢، ٣٥٧٦).

(٣) «المسند» (٥٩١٤) بنحوه وهو حديث صحيح، والحديث في البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠).

وكان من نتيجة ذلك أن اختلف اليهود في ديانتهم وعِرْقِيَّتِهِمْ فاقتتلوا، أما النصارى فلم تختلف أمةٌ مثل اختلافهم، ولم يقتتل أهل المذاهب في دين من الأديان اقتتالهم، بل إن المذهب الواحد صار شيعًا يقاتِل بعضُه بعضًا، وكان على المسلمين أن يتعظوا منهم، ويحذروا الاختلاف والتفرق، ولكنهم تفرقوا بين سُنَّةٍ وشِيعَةٍ وإباضية ومعتزلة وجبرية ومرجئة وغير ذلك، مع أن الإسلام نهاهم عن الاختلاف والتنازع والفرقة.

فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]

وغير ذلك من النصوص الصريحة التي تنهَى عن التفرق في دين الله، وهذا الاختلاف لا يشمل الفروع فقط التي فيها سَعَةٌ ورحمة، كما هو الشأن بين المذاهب الفقهية؛ مِن اجتهاد الفقهاء في فَهْم النصوص الشرعية، وإنما شمل الاختلاف في الأصول، وما يتعلق بالعقيدة والوحي.

الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢٥٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ(١) وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

هذه الآية الكريمة تتحدث عن الدَّعْوَة إلى الإنفاق في سبيل الله بشكل عام، والدَّعْوَة إلى إخراج الزكاة، والدَّعْوَة إلى النفقة المستحبة، والآية في هذا المقام تَحُضُّ المسلم على

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بنصب هذه الكلمات من غير تنوين، وهي (لا بيعَ فيه ولا خلةَ ولا شفاعةَ) على أن لا نافية للجنس، وقرأ الباقون بالتنوين والرفع على أن لا نافية للوحدة.

الإنفاق في سبيل الله في وقت الشِّدة، وفي وقت الرخاء، ومن قبل أن يأتيَ وقت لا يستطيع فيه العبد أن ينفق شيئًا، ويتمنَى أن يعود إلى الدنيا ولو للحظة، دون جَدْوَى، فلا عودةَ إليها، ويتمنَى أن يأتيَه وقتٌ يَمُدُّ يدَه بالسخاء لغيره فلا يجد إلى ذلك سبيلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ فيا مَن آمنتم بالله، وصدقتم رسولَه، وعَمِلْتُم بهديه، بادروا بالإنفاق مما تناله أيديكم في وقت المهلة، أخرجوا الزكاة المفروضة، وتصدقوا مما أعطاكم الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ولو افتدى نفسه بملىء الأرض ذهبًا ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي ولا صداقة ولا وجاهة ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ وهو يومُ الجزاء، حيث لا تجدون ما تتقربون به إلى الله، وأنفقوا قبل مجيء يوم القيامة، حيث لا يمكن للإنسان أن يفديَ نفسه ويشتريَها من عذاب الله، ولو كان يَمْلِكُ في الدنيا ملءَ الأرض ذهبًا.

وليس هناك صديقٌ يُنقذ صديقَه من عذاب الله، فلا خلة غنيٍّ تنفع، ولا خلة فقيرٍ تنفع، ولا شفاعة شافعٍ يملك تخفيف العذاب عنكم، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله سبحانه، لِمَن يَرْضَى الله تعالى عنه.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتجاوزون لحدود الله؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم ما ينفعهم في آخرتهم، والشرك أعظم الظلم، فادخروا لأنفسكم عند الله مِن أموالكم، وأنتم في دنياكم، بالنَّفقة في سبيل الله، والصدقة على المساكين والمحتاجين، وإيتاء ما فَرَضَ الله عليكم، وقَدِّمُوا ذلك قبل مجيء يوم الجزاء بالثواب والعقاب، حيث يَذهب وقتُ العمل، واكتساب الحسنات والسيئات، فهو يومٌ لا يَنفع فيه خليلٌ خليلَه، ولا يَنْصُرُ فيه أحدٌ أحدًا ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

ولا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يشفعَ لأحد، كما قال تعالى عن أهل النار:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء]

فلا شفاعةَ لِمَن مات على الكفر؛ لأنه هو الذي ظَلَمَ نفسَه بِجُحُودِه للحقِّ.

آيَةُ الْكُرْسِيِّ

٢٥٥- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ(١) لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ(٢) ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

هذه الآية أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها لما اشتملت عليه من صفات الله الكريمة، فهي تبيِّنُ أنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا الله، الحي حياةً دائمةً كاملةً تليقُ بِجَلاله، القائم على كل نفس بما كسبت، المدبِّر لشؤون خَلْقِه، الذي لا يَنام لحظةً، ولا يغفل بُرْهَةً، وكل ما في الكون مِلْكٌ له سبحانه، ولا يَجْسُرُ أحدٌ على الشفاعة عندَه إلا بإذنه، وعلمه محيطٌ بجميع الكائنات في الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يطلع أحدٌ على شيء من عِلمه إلا بما شاء سبحانه، وسع كرسيُّه السموات والأرض.

والكرسي: موضعُ قدمي الرب سبحانه، ولا يَعْلَمُ صفتَه إلا الله، ولا يُتعبه سبحانه حفظ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لصفات العظمة والكبرياء جميعها.

وفي هذه الآية عَشْرُ جمل مستقلة فيها من المعاني والفوائد ما يلي:

أولًا: نفيُ الألوهية عن كلِّ ما سواه سبحانه، وإثبات الألوهية له وحدَه، فهو سبحانه المعبود بحقٍّ، وهو صاحبُ السلطان المطلق على خَلْقِه أجمعين ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، إليه وحده تصرف جميع الطاعات والعبادات.

ثانيًا: هو وحده الحيُّ الباقي الدائم الذي لا يَفْنَى، ولا يزول، ولا يموت أبدًا فـ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] وهذا معنى: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ أي مَن له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر

(١) عدا لفظ (القيوم) آية، المكي والبصري والمدني الأخير، وأسقطها من العدد غيرهم، وهم: المدني الأول والكوفي والشامي.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهْو) وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

والقدرة ونحو ذلك.

وهو سبحانه (القيوم) أي القائم على كل نفس بما كسبت، يَحْفَظُهَا ويدبر شؤونها، ويحاسبها، ويجازيها ويثيبها ويعاقبها ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يكلؤها بعنايته ورعايته ويُقَدِّر أجلَها وعملَها ورزقَها، فهو جَلَّ شَأْنُهُ ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، الذي قام بنفسه وقام بغيره، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويقوم على سائر أنواع التدبير، ويستوى وينزل ويتكلم، فكل هذا ونحوه من قيومية الخالق سبحانه.

ثالثًا: لا يَعْتَرِيهِ سبحانه نومٌ ثقيلٌ يستغرق فيه، ولا نوم خفيف يراود الأجفان، وهذا تَرَقٍّ من الأضعف إلى الأقوى، ولله المثل الأعلى، فالغفلة من صفات الخلق، وهي مُحَالَةٌ على الله سبحانه، ولو كان سبحانه متصفًا بالغفلة لاستحال أن يكون قائمًا على شؤون الخلق، ولاستحال أن يكون حيًّا دائمًا، لا يموت ولا يَفْنَى؛ لأنه سبحانه شهيدٌ على كل شيء لا يغيب عنه أمرٌ، ولا يَخْفَى عليه خافيةٌ، فالله تعالى لا ينام:
كما في حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار»[1] ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

رابعًا: وهو سبحانه مالكٌ لهذا الكون بعالميْه العلوي والسفلي، بلا شريك ولا منازع، والكل خلقُه وعبيدُه، وهم في مُلْكِه تحت قهره وتصرفه ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهو سبحانه ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
فهو المالك وماسواه مملوك، وهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرزاق وماسواه مرزوق، وهكذا.

خامسًا: وإذا أراد الله أن يرحم من يشاء من عباده، أَذِن لمن أراد من عباده أن يشفع فيه، ولا يَشْفَعُ أحدٌ عند الله إلا بإذنه تعالى للشافِع في الشفاعة، وبمقتضَى رضاه ﷻ عن المشفوع له قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

---

(١) من حديث أبي موسى في «صحيح مسلم» برقم (١٧٩).

وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

ومن ذلك: الشفاعة العُظْمى لمحمدٍ ﷺ يومَ القيامة حين يقال له: **«ارفعْ رأسك، وسَلْ تُعطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ»**(١)

سادسًا: علمُه سبحانه محيطٌ بجميع أحوال خلقه، يعلم ما مَضَى، وما هو آتٍ، ويعلم ما هم فيه في كل وقت، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ من شؤون خلقه في الأرض ولا في السماء ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ في المستقبل من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي: ويعلم ما مضى من جميع أمورهم، ما غاب منها وما شوهد، وما ظهر وما بطن.

سابعًا: لا يوجد أحدٌ يحيط بمعلومات الله تعالى، ولا يعلم شيئًا مما غاب عن العباد إلا هو سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] إلا مَن أطلعه الله تعالى من أنبيائه ورسله على شيء من عِلْمِه أو غيبه؛ ليكون دليلًا على نبوته ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [الجن]

وهو وحده المحيط بما كان وما يكون في هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ فالعباد ليس لهم من العلم إلا ما علّمهم الله إياه.

ثامنًا: وإذا كان الكرسيُّ يعني موضع القدم، وهو من سَعَتِه وعظمته يمكنه القيام بالسموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فيطبقهما ويحتملهما، فإن العرش أكبر منه وأعظم، ولا يعرف حقيقته إلا رب العالمين.

أخرج الحاكم في المستدرك على شرط الشيخين موقوفًا على ابن عباس ﭬ، قال: **«الكرسيُّ موضع القدمين، والعرش لا يُقَدِّر أحدٌ قدْرَه»**(٢).

---

(١) حديث الشفاعة العظمى في الصحيحين من حديث أنس في البخاري (٧٥١٠) وفي مسلم (١٩٢) وعن أبي هريرة في البخاري (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٢) الطبراني (١٢/ ٣٩) و«المستدرك» (٢/ ٢٨٢) وابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٦١).

ولم يُذْكَر الكرسي في القرآن إلا في هذه الآية، وذُكِرَ العرش عدة مرات.

وفي الأثر: إن الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فَضْلَ العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة(١).

وهذا على أساس أن الكرسي غير العرش، وقال الحسن: الكرسي هو العرش(٢).

ويبدو -والله أعلم- أن الكرسي غير العرش؛ لِمَا ورد فيهما من آثار مرجحة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فهو يسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والعرش أكبر منه.

تاسعًا: أن العالَم العلوي بما فيه من العرش والكرسي والسموات والأفلاك والملائكة، والعالَم الأرضي بما فيه من الإنس والجن والجبال والشجر والنبات والدواب والطيور، وسائر ما في العالَمِيْنِ وما فيهما وما بينهما، أمرٌ هيِّنٌ على رب العالمين، حيث لا يعجزه شيء، ولا يَنُوء سبحانه بحفظ هذا الكون ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي لا يثقله ﴿حِفْظُهُمَاۚ﴾.

عاشرًا: وهو سبحانه صاحب الكبرياء والعظمة، لا ينازعه منازعٌ، ولا يدانيه كائنًا مَن كان في عليائه وقهره لعباده ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته وهو ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته الجبابرة، وتصغُر إلى جانب جلاله أنوف الملوك والأكاسرة، فسبحان من له العظمة والكبرياء رب الأرض والسموات.

سيدة آي القرآن

وقد أخبر النبي ﷺ عن آية الكرسي أنها سيدة آي القرآن الكريم؛ لِمَا ورد عن أبي هريرة ﵁: **«سورة البقرة فيها آية هي سيدة آي القرآن، لا تُقرأ في بيت فيه شيطانٌ إلا خرج منه؛ آية الكرسي»**(٣).

---

(١) موقوفًا على أبي ذر، «تفسير الطبري» (٥/ ٣٩٩) ورفعه ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨) بنحوه من طريق آخر، وهو في البداية والنهاية (١/ ١٣) وفي رفعه ضعف في السند؛ لأن فيه محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعفه أبو حاتم، ووثقه ابن معين، وقال ابن عدي: كثير الغلط.

(٢) تفسير الخازن (١/ ١٨٥).

(٣) قال الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٩): صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: وفي بعض طرقه ضعف.

وذلك لِمَا اشتملت عليه من توحيد الله سبحانه، ومن أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

ففيها ثمانيةَ عَشَرَ اسمًا - ما بين اسم ظاهر ومضمر - من أسماء الله الحسنى.

واشتملت - على الصحيح - على اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وقد بيَّن ﷺ فيما جاء عن أبي أمامة ﷺ أن: (ثلاث آيات في القرآن الكريم اشتملت على اسم الله الأعظم:

أولها: آية الكرسي في قول الله سبحانه: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وثانيها: هي الآية الأولى بعد الحروف الهجائية من سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وثالثها: من سورة طه قوله سبحانه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[1] [طه: ١١١]

وهذا الحديث ورد بأكثر من رواية، وهو يشير إلى أن «﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هو اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أَعْطَى»[2].

فآيةُ الكرسيِّ سيدةُ آي القرآن الكريم؛ لأنها تشتمل على اسم الله الأعظم، وعلى غيره من أسماء الله تعالى وصفاته، وعلى إفراد الله تعالى وتوحيده.

أعظم آية في القرآن

١- ثم إن آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم، كما جاء في سؤال النبي ﷺ لأُبَي بن كعب عن أعظم آية في كتاب الله ﷻ، قال: الله ورسوله أعلم، فردد ذلك مرارًا، فقال أُبي: آية الكرسي، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لِيَهْنِك العلم أبا المنذر**»، ثم قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، إن لها لسانًا وشفتين تُقدس بهما الْمَلِك عند ساق العرش**»[3] أي: أن آية الكرسي تُسبح بحمد الله، وتقدسه بلسانٍ وشفتين.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٨٢) والطحاوي في «مشكل الآثار» برقم (١٧٦) من طريق هشام بن عمار.

(٢) كحديث أسماء بنت يزيد بن السكن في «المسند» (٦/ ٤٦١) وليس فيه آية سورة طه.

(٣) الحديث في «مسند أحمد» (٥/ ١٤١) برقم (٢١٢٧٨) ورجاله رجال الصحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم عن أبي بن كعب ﷺ برقم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) والحاكم (٣/ ٣٠٤)، ومصنف عبدالرزاق (٦٠٠١) والطيالسي (٥٥٠) وعبد بن حميد (١٧٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧١).

٢- وجاء من طريق عثمان بن غياث قال: سمعتُ أبا السليل قال: كان رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ يُحدث الناس حتى يكثُروا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدِّث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّ آية في القرآن أعظم؟**» فقال رجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال: فوضع يده بين كَتِفَيَّ، فوجدتُ برْدها بين ثَدْيَيَّ، أو قال: فوضع يده بين ثَدْيَيَّ فوجدتُ برْدها بين كَتِفَيَّ، وقال: « **ليهنك العلم، يا أبا المنذر**»(١).

٣- وروى ابن مسعود ﷺ: آية الكرسي أعظم آية في القرآن.

أما أعدل آية في القرآن فهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأخوف آية في القرآن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة]

وَأَرْجَى آية في القرآن ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾(٢) [الزمر: ٥٣].

قال العلماء: إنما تميَّزتْ آيةُ الكرسيِّ بكونها أعظم آية في كتاب الله لِمَا جمعتْ من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقيومية والْمُلْك والقدرة والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات، والله تعالى أعظم مذكورٍ، وذكره أعظم الأذكار.

وفي الحديث حُجَّةٌ على جواز تفضيل بعض القرآن على بعض؛ بمعنى: عِظَمُ أجر القارئ وجزيلُ ثوابه.

وآية الكرسيِّ تَعْدِلُ ربع القرآن الكريم(٣)؛ أي: أنه إذا كان المسلم يَحفظ آية الكرسي فإنه يَحفظ ما يعادل ربع القرآن، باعتبار ما يشتمل عليه القرآن من عقائدَ وعباداتٍ ومعاملاتٍ وقَصَصٍ وأخبارٍ، فقد احتوتْ آيةُ الكرسيِّ على الربع الأول مما حواه القرآن؛

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٨٥) برقم (٢٠٥٨٨)، وهو حديث صحيح، وهذا إسناد فيه انقطاع، لأن أبا السَّليل، لم يدرك أبيّ بن كعب، والواسطة بينهما عبد الله بن رباح الأنصاري (محققو المسند)

(٢) ابن مردويه وأبو عبيد ص١٤٨، ١٤٩ .

(٣) يُنْظَر: «المسند» (٣/ ٢٢١) عن أنس بن مالك برقم (١٣٣٠٩) بإسناد فيه ضعف، لضعف سلمة بن وَرْدان وفيه من سور: الإخلاص والكافرون والزلزلة والنصر، يعدل كل منها أيضًا ربع القرآن، وأخرجه الترمذي (٢٨٩٥) والبيهقي في الشعب (٢٥١٥).

وهو التوحيد.

فضل آية الكرسي

١- وآيةُ الكرسيِّ لِمَن يداومُ على قراءتها عَقِبَ كل صلاة مفروضة تكون سببًا لدخوله الجنة، جاء عن رسول الله ﷺ من حديث أبي أمامة أن: **«مَن قرأ آية الكرسي في دُبُر كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا أن يَموت»**(١).

أي: أن الموت فقط هو الذي يَحول بينه وبين دخول الجنة، مع أن البرزخ أو القبر يكونان إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

ومَن يقرأ آية الكرسيِّ عقب كل صلاة مفروضة مع الإيمان والعمل فهو من أهل الجنة، وقبره يكون عليه روضة من رياض الجنة؛ لأنه يُوَاظِبُ على الصلوات الخمس؛ ولأنه -إن شاء الله- ينتهي عن الفحشاء والمنكر، وهذا مِن ثَمَرَاتِ الصلاة.

وقد بيَّن النبي ﷺ أن مَن قرأ آيَةَ الكرسيِّ في صَبَاحِه فهو في حِفْظِ الله وَكَنَفِه ورعايتِه حتى يُمسي، ومَن قرأها في مَسَائِه فهو في حفظ الله وكنفه ورعايته حتى يُصبح، فقراءتُها في الصباح والمساء على وجه الخصوص تَجعل والمسلمَ في ذِمّة الله تبارك وتعالى وفي حِفظه، وتكون سببًا لعصمة العبد، وحفظه من الشياطين، ومن الهوام والوساوس والحسد والسحر وغير ذلك، وتُقر آية الكرسي على الطعام، وتقرأ في السيارة وهنا وهناك، في أيِّ شيء، وعلى أيِّ شيء، فإنها تُباركُه وتحفظُه، وتمنعُه من الشياطين -بإذن الله تعالى-.

٢- وعن ابن أبيّ بن كعب، أن أباه أخبره: أنه كان لهم جَرِينٌ فيه تمر، وكان مما يتعاهده فيجده ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم: قال: فسلّم فردّ عليه السلام، فقلت: ما أنت، جن أم إنس؟ قال: جن، فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب وشعر

---

(١) من حديث أبي أمامة في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٩٨٤٨، ٩٩٢٨) والتحفة (٤٩٢٧) والطبراني في «الكبير» (٧٥٣٢) وفي «الأوسط» (٨٠٦٨) قال ابن كثير: وزعم ابن الجوزي أنه موضوع وذكره في الموضوعات (١/ ٢٤٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٠٢): رواه الطبراني في «الكبير» وفي «الأوسط» بأسانيد، وأحدها جيد، وقال محقق الدعاء (٦٧٥): إسناده حسن، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه على شرط البخاري، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي (٢٣٨٥) وعلى كل ففي إسناده مقال.

كلب، فقلت: هذا خلْق الجن؟ فقال: لقد علمتِ الجن أن ما فيهم من هو أشد مني، قلت: ما يحملك على ما صنعت؟ فقال: بلغني أنك تحب الصدقة، فأحببت أن أصيب من طعامك، فقلت: ما الذي يحرزنا منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسي، قال: فتركتُه، وغدا أُبيّ إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «صدق الخبيث»[1]

٣- في صحيح البخاري وغيره أن أبا هريرة ﷺ كان حارسًا على أموال الزكاة، فأتاه آتٍ ذات ليلة في صورة رجلٍ، وأخذ يحثُو من الطعام، ويأخذ منه، فأمسك به أبو هريرة وقال: لأرفعنَّك لرسول الله ﷺ، فشكا له أنه صاحبُ حاجة، فقيرٌ وذو عِيالٍ؛ فتركه أبو هريرة، وخلَّى سبيله بعد أن تعهد له أنه لن يعود.

فلما أصبح قال النبي ﷺ: **«يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُكَ البارحة؟»** أي: الذي أمسكتَ به، قال أبو هريرة: خَلَّيتُه، شكا لي حاجةً عنده، فخليتُ سبيله يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: **«لقد كذبك وسيعود»**؛ فعلم أبو هريرة أنه سيعود؛ لأن النبي ﷺ أخبره بذلك.

فلما كانت الليلة الثانية والثالثة، جاء يأخذ من الطعام، فأمسك به أبو هريرة وقال له: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ فقال له: دعْني وأُعلمك كلماتٍ يَحفظك الله بها، قال: وما هي؟ قال: إذا أويْتَ إلى فِراشك فاقرأْ آيَةَ الكرسي، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربُك شيطان حتى تصبح.

فلما أصبح خلَّى سبيله، وسأله النبي ﷺ: **«ماذا فعل أسيرك البارحة يا أبا هريرة؟»**، قال يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، وهي أني إذا قرأتُ آية الكرسي لا أزال في كنف الله وحفظه، ولا يقربني شيطان حتى أُصبح، قال عليه الصلاة والسلام: **«لقد صدقك وهو كذوب»**، صدقك في أنَّ آية الكرسي تَحفظ من الشياطين، حيث يكون قارئها في حفظ الله، وتحت كَنَفِهِ، ورعايته، ومِن شأنه أنه كذوب، فقال ﷺ: **«أتعلم يا أبا هريرة، مَن تُخاطِبُ هذه الليالي الثلاث؟»**، قال: لا يا رسول الله، قال: **«ذاك شيطان»**[2].

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٠) رواه ابن حبان في صحيحه وغيره.

(٢) يُنْظَر الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٧٩٥) وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس وأبو نعيم (٢٦٧).

٤- وروى عبدُ الله بن مسعود ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج يومًا فلقيه جنيٌّ، فقال الجني لعمر: هل لك أن تصارعني؟ فإن صرعْتني علمتُك آيةً إذا قرأتَها حين تدخل بيتك لم يدخلْه شيطانٌ، فصارَعَه، فصرعَه عمر، ثم قال له: إني أراك ضئيلًا ضحلًا كأن ذراعيك ذراعا كلبٍ، أفهكذا كلكم أيها الجن؟ أم أنت مِن بينهم؟ قال: إني منهم لضليع، فعاوَدَه، فصَرَعَه عمرُ مرةً ثانيةً، فقال له الجني: تقرأ آيةَ الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله صوت كصوت حمار[1].

وهكذا اشتملت آية الكرسي على توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه تعالى، وإحاطة علمه، وسعة سلطانه، وعظمته وكبريائه، وعلُوّه على جميع مخلوقاته، وهي بمفردها متضمنه لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ: حُكْمُ الْمُرْتَدّ

٢٥٦- ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

ولَمَّا كانتْ آيةُ الكرسيِّ مشتملةً على وحدانية الله تعالى، وعظمة الخالق، وتنزيهه من شوائب ما كَفَرَتْ به الأممُ، فإن هذا من شأنه أن يقودَ العبادَ إلى قَبُول هذا الدين الحنيف باختيارهم دون جَبْرٍ ولا إكراه؛ لأن التدين إيمانٌ بالقلب، واتجاهٌ بالنفس والجوارح إلى العمل بحرية واختيار، وإذا أُكره الإنسان على شيء فإنه لا يزداد إلا بُعْدًا ونفورًا، فالتدين والإكراه نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يأتي التدين نتيجة الإكراه، ولماذا يكون الإكراه على الدخول في الإسلام؟! وقد ظهر الصبح لذي العينين، وانكشف الحق من الباطل، والْهُدَى من الضلال، وقامتِ الأدلةُ القاطعة على أن دين الإسلام هو الدينُ الحقُّ الذي ختم الله به الرسالات، وأن ما عداه ضلالٌ

---

(١) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» للآية، (١/ ٦٧٥) عن عبد الله بن مسعود في كتاب (الغريب) لأبي عبيد، قال: حدثنا أبو معاوية، عن أبي عاصم الثقفي، عن الشعبي، عن ابن مسعود وليس فيه عمر بن الخطاب وإنما قال (خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن..) وحدَّدَت بعض التفاسير اسم هذا الرجل، بأنه عمر ﷺ.

وكفران، فمن خلع كل ديانة غير دين الإسلام سواء أكانت سماوية أم أرْضية فقد ثبت أمرُه، واستقام على الطريقة الْمُثْلَى التي ارتضاها الله لعباده إلى يوم الدين.

وقد نزلت هذه الآيةُ بعد فتح مكة، وانتهاء الشرك في بلاد العرب، كما قال ﷺ في خُطبة حَجَّة الوداع من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطانَ قد يَئِس أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(١).

وكان النبي ﷺ في صدْرِ الإسلام مأمورًا أن يقاتل مشركي العرب حتى يدخلوا في الإسلام، كما في الحديث: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس**» وهم المشركون خاصة «**حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**»(٢).

ثم خَلُصت بلاد العرب من الشرك، ودخل الناس في دين الله أفواجًا؛ ولذلك فقد قال قتادة والشَّعبي والحسن والضحاك: إن هذه الآية خاصة بأهل الكتاب، فإنهم لا يُكرَهُون على الدخول في الإسلام إذا أدَّوْا الْجِزية، وإنما يُجبر على الإسلام أهل الأوثان، وإلى هذا مَالَ الشافعي فقال: إن الْجِزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب والمجوس.

ولذا: فإن الآيات التي أَمَرَتْ بقتال الوثنيين مطلقةٌ وغير مقيَّدة بغاية، أما الآيات التي أَمرت بقتال أهل الكتاب فقد كانت غايتها ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأسباب النزول توضِّح هذا المعنى، فمعنى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام قسرًا، ونفْي الإكراه خبرٌ بمعنى النهي، والمراد نَفْيُ أسبابِ الإكراه.

والآيةُ تتحدث عن حريَّةِ العقيدة في الإسلام قبل الدخول فيها؛ ولأن هذا الدين كاملٌ وواضحٌ، وأدلته النقلية والعقلية تبيِّن الحقَّ من الباطل، والْهُدَى من الضلال؛ فإنه لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفيٍّ غامض، أو أنه في غاية الكراهية للناس، أما الإسلام فهو دين

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٣/ ٢٧) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٢).

(٢) الحديث في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة وجابر وابن عمر بأرقام: (٢٠، ٢١، ٢٢) وفي البخاري (٢٥، ١٣٩٩، ٢٩٤٦، ٧٢٨٤) و«المسند» (١٣٢٠٩) عن جابر، وفي الترمذي (٣٣٤١) والنسائي في «الكبرى» (١١٦٧٠).

واضح، يفرق بين الرشد والغي، يخاطب العقل والقلب والضمير والوجدان.

فالموفق يختاره طريقًا ومنهجًا له بمجرد النظر في آثاره، وسيء القصد خبيث النفس، يرى الحق باطلًا والحسن قبيحًا، فيميل إليه.

وهذا الصنف من الناس لا فائدة فيه، فالإسلام لا يحتاج إلى إكراه أحد للدخول فيه

فمَن يكفر بكل ما عُبد من دون الله، ويُؤمن بالله وحده، فقد ثَبَتَ واستقام على الطريقة المثلَى، واستمسك بأقوى سبب لا ينقطع، والله سميعٌ لأقوال العباد، عليمٌ بأفعالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك.

أسباب النزول

(أ) ومما يُذكر في أسباب النزول أن رجلًا من الأنصار يقال له: (أبو حصين) كان له وَلَدان قد تنصرَا، فأراد أن يُرغمَهما على الدخول في الإسلام، فاختصما إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيدخل، بعضي في النار وأنا أنظر؟ فنزلتِ الآية، فخلَّى سبيلَهما[1].

(ب) وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أن امرأةً من الأنصار كان لا يعيش لها وَلَد، فنذرتْ إن عاش لها ولد، أن تُهوِّدَه، فلما جاء الإسلام، وأُجْليت بنو النضير، وكان فيهم عددٌ من الأنصار، أرادوا استرداد أبنائهم، فأجلُوهم معهم[2].

وفي رواية أنها قالت: يا رسول الله، أَلَا نُكْرِه أولادنا الذين هم في يهود على الإسلام؛ فأنزل الله الآية[3].

(ج) وقيل: إنها نزلت فيمَن دفع الْجِزْيَة من أهل الكتاب، لا يُكره على الإسلام[4].

وقد أراد بعض الصحابة إجبار أولادهم الذين دخلوا اليهودية بعد غزوة بني النضير على

(١) يُنْظَر الأثر (٥٨١٩) في «تفسير الطبري» و«الدر المنثور» (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (٥/ ٤٠٧) وسنن أبي داود برقم (٢٦٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٩٨٢، ١١٠٤٨) عن ابن عباس و«صحيح سنن أبي داود» (٢٣٣٣) وابن حبان (١٤٠) وغيرهم.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩/ ١٨٦) و«الدر المنثور» (٣٩١١).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٨٢٣).

الإسلام، وعدم إجلائهم معهم[١] فنزلت الآية.

(هـ) وفي المسند وغيره عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال عن رجلٍ أسلم قال: إني أجدني كارهًا، قال: «**وإن كنت كارهًا**»[٢].

ومعناه: أن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام وأن الله سيرزقه حبَّه إيَّاه، ويرزقه حُسن النية والإخلاص.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**عَجِب ربُّك من قوم يُقادون إلى الجنة في السلاسل**»[٣].

وقد بَقِي رسول الله ﷺ في مكة عَشْرَ سنوات، فلم يُكْرِه أحدًا على الدُّخول في الإسلام.

والآيةُ عامةٌ تشمل ما جاء في أسباب النزول وغيرها.

والله ﷻ قد أنزل الكتُبَ، وأرسل الرُّسُلَ، وبيَّن الهدى من الضلال، والخيرَ من الشر ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ولكن مَن دخل في الإسلام ثم خرج منه يعتبر مرتدًّا؛ لأنه يمثِّل فتنةً كُبرى لغيره من الناس، فيقال: لماذا دخل في الإسلام ثم خرج منه؟ فيستتاب هذا المرتدُّ، وإلا قُتل حدًّا.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ بالنسبة للدخول فيه مبدئيًّا، من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية، أو البوذية أو الهندوكية، أو غير ذلك، بعد تبيُّن وتَعقل ونظَر واستدلال، حيث ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾.

ومَن دخل في الإسلام عن بَصيرة يكون خروجه منه فتنةً لغيره، إذ كيف عَدَلَ عن الرُّشد والصواب إلى الغيِّ والضلال.

وحُكم الكافر الأصيل يَختلف عن حُكم من دخل في الإسلام ثم خرج منه، فإنه يكون

---

(١) يُنْظَر الأثر (٥٨٢٨) وما بعده في الطبري.

(٢) «المسند» (٣/ ١٨١) قال ابن كثير: فإنه ثلاثي صحيح، ورقمه في «المسند» (١٢٨٦٨) و(١٢٠٦١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه الضياء في المختارة (١٩٩١) وأبو يعلى (٣٧٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٠، ٤٥٥٧) من حديث أبي هريرة.

سببًا لخروج الناس من الإسلام، وهذه هي الرِّدة التي يأمر الإسلام بقتل فاعلها؛ لأنه صدَّ الناس عن دين الله بعد أن دخل فيه، ووَضَع الإسلام مَوْضِعَ التُّهمة والرِّيبَةِ وسوء الظن، وهذا هو الذي قال الله عنه: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ والطاغوت: كلُّ ما عُبِدَ مِن دون الله،ورَضِيَ بالعبادة، وكل ما يُطْغِي الإنسان فهو طاغوت، كالشيطان، والساحر، والكاهن،والمال، والجاه، فمَن يَكفر بكل هذا ونحوه ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ وكأنه عَقَدَ لنفسه مع الدين عَقْدًا مُحْكَمًا لا شبهةَ فيه، فهو متمسكٌ بشيءٍ وثيقٍ لا يُقطع حتى يُدْخِلَه الجنة ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وصحَّ عن النبي ﷺ تفسيرُ العروة الوثقَى بالإسلام والتوحيد، كما في رُؤيا عبد الله بن سلام أنه استمسك بالعروة في منامه، واستيقظ وهي في يده، فقال له النبي ﷺ: **«أنت على الإسلام حتى تموت»**[(١)].

الْمُؤْمِنُ وَلِيُّهُ اللهُ وَالْكَافِرُ وَلِيُّهُ الشَّيْطَانُ

٢٥٧- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ[(٢)] وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

ثم إنَّ الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله، قد تولّاهم الله لِصِدْق إيمانهم، فزاد اهتداءهم هُدى، ويسَّر لهم طريقَ الحقِّ؛ لأنهم حين اختاروا الإيمان طريقًا لهم، فقد خرجوا بدخولهم في الإيمان من ظلمات الكفر والضلال، ومن الشُّبَهِ التي تَعْرِضُ لهم في طريق الإيمان إلى نور الإيمان والهدى.

والسبب في ذلك: أن الله تعالى يتولى بعنايته ونصره وتأييده عبادَه المؤمنين، فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، فهو سبحانه وليُّ المؤمنين، ومبصِّرهم حقيقةَ الإيمان وشرائعه، وهادِيهم لأدلته المزيلة للشكوك، فمن يخرج من سائر

---

(١) من حديث قيس بن عبادة في «المسند» (٥/ ٤٥٢، ٤٥٣) برقم (٢٣٧٨٧) والبخاري (٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤) ومسلم (٤٢٨٤).

(٢) عدّ قوله تعالى (إلى النور) آية، المدني الأول وحده، وأسقطها غيره من العدد.

ملل الكفر، ويدخل في دين الإسلام؛ فقد خرج من الظلمات إلى النور.

ومَن خرج مِن دين موسى وعيسى وآمن بمحمد؛ فقد خرج من الظلمات إلى النور، ومَن يرتدّ عن الإسلام إلى غيره -والعياذ بالله- فقد خرج من النور إلى الظلمات، وأما أهل الضلال؛ وهم الكفار، فأولياؤهم وأنصارهم شياطين الإنس والجن من الأنداد والشركاء الذين يعبدونهم من دون الله.

ومعنى يخرجونهم: يصدونهم عن نور الإيمان الفطري الذي خلق الله عليه الناس كافَّة، وهم في أَصْلَابِ آبائهم فيخرجونهم منه، كما يخرجونهم من نور الأدلة والْحُجَجِ الواضحة التي تحمل كلَّ عاقلٍ على اعتناق الإسلام دينًا إلى ظلمات الكفر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون بقاءً أبديًّا لا يَخْرُجون منها أبدًا.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتولاهم بلطفه ومنه وإحسانه، لأنهم قد تولّوْا ربهم، فلا يبغون عنه بدلا، ولا يشركون به أحدا، وقد والَوْا أولياءه وعادوْا أعداءه، واتخذوه حبيبًا ووليًّا.

وولايةُ الله للمؤمنين تجعلهم يستخدمون عقولَهم وحواسَّهم في مرضاةِ الله، وكلما عرضتْ لهم شُبهةٌ أو شائبةٌ كالبدع والأهواء لَاحَ سلطانُ الولاية الإلهية على قلوبهم شُعاعًا من نورٍ، فيطْرُد هذه الظلمة ويخرجها بسهولة كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وقال سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود: ١١٣]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]

وغير ذلك من الآيات التي تُثْبِتُ ولايةَ الله تعالى لعباده المؤمنين، وتنفي ما عداه.

وكلٌّ من المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١] وكلٌّ من الكافرين والكافرات بعضهم أولياء بعض.

وهذه الولاية معناها: التعاون والتناصر في الأمور المشتركة فيما بينهم.

أما ولاية الشيطان للكفار؛ فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ [النساء: ٧٦].

وهذا هو عينُ ولايةِ الشَّيطان أو الطاغوت للكفار، ثم يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، أما ولايةُ الله للمؤمنين فهي إلهامُ الله، وتوفيقه للعبد، وإمداده له بالعون والهداية، والله تعالى يخرج أولياءه من ظلمات الكفر والمعاصي، والجهل، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، والشيطان يخرج أولياءه من نور العلم والإيمان والطاعة إلى ظلمات الكفر والجهل والمعاصي ويوم لقاء الله يْسلَم أولياءه من ظلمات القبر والحشر وسوء الحساب، إلى النعيم المقيم والسعادة الأبدية، أما أولياء الشيطان فهم في دار الحسرة والندامة والخلود الدائم في العذاب الأليم.

قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَلِكِ الطَّاغِيَةِ

٢٥٨-﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ[1] فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ[2] ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠[3] أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨)﴾

في هذه الآية والآيتين التاليتين بعدها، **ثلاثة أمثلة** مِن ولاية الله للمؤمنين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهي شواهدُ على ضلال الكافر وهداية المؤمن:

أولها: ولاية الله لإبراهيم في محاجته للنمروذ، والتعرف على وجود الله سبحانه ووحدانيته.

وثانيها: ولاية الله للذي مَرَّ على قرية؛ فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وأخرجه من ظلمة الشبهة، إلى نور الإيمان.

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام)، وقرأ الباقون ومعهم ابن ذكوان في وجهه الآخر (إبراهيم).

(٢) سكن الياء من (ربي الذي) حمزة وفتحها غيره.

(٣) أثبت نافع وأبو جعفر الألف من (أنا) وصلًا، فتكون من قَبيل المدِّ المنفصل، وكل منهما على مذهبه فيه، وحذفها الباقون وصلًا، وأثبتوها وقفًا مع المدِّ الطبيعي.

وثالثها: ولايةُ الله لإبراهيمَ في تجليةِ آية البعث له كي يطمئن قلبُه.

أما المثال الأول: فإن بابلَ من أرض العراق، مدينةٌ ذات حضارة عريقة، مُوغلة في القِدم، كانت تُسمَّى قديمًا: مملكة بابل، تَوَالَى عليها عددٌ كبيرٌ من الملوك، منهم مَن حَكَم العالَم شرقًا وغربًا.

قال مُجاهد: ومَلَكَ الدنيا مشارقَها ومغاربَها أربعة: مؤمنان وكافران؛ أما المؤمنان: فهما سليمان بن داود ﷺ، وذو القرنين، وأما الكافران: فهما النمروذ بن كنعان البابلي، وبختنصر الذي حكم بابل(١).

وقد كان أهل بابل يعبدون الأصنام، بل يصنعونها ويُصدِّرونها لغيرهم، فهم كانوا يَنْحِتون التماثيل، ويصنعون الأصنام، وأول ملِك من ملوك بابل هو: النمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وهو أولُ من طَغَى وتجبَّر وادَّعى الربوبية، وأول مَن لَبِس التاج على رأسه، وهو الذي بَنَى مدينةَ بابل، فأتى الله بُنيانه من القواعد، وأول ملِك في الأرض.

أدرك النمروذ زمانَ إبراهيمَ خليلِ الرحمن، فقد وُلد إبراهيم ﷺ قُرب أرض بابل، ورأى قومَه يعبدون الأصنام من دون الله، فدعا إلى توحيد الله ﷻ، وكان النمروذ قد ادَّعَى الربوبية والألوهية في قومٍ وَجَدَهُم لا عقولَ لهم، ولا تَمَيُّزَ فيهم، فهم يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تُبصر، ولا تَملك من الأمر شيئًا، فلماذا لا يَدَّعِي الربوبية؟ وله عقلٌ يُدرك به ويفكر، ويسمع ويبصر، وهو أفضلُ مِن هذه الأصنام، فدعا إلى عبادة نفسه.

ولما أخذ إبراهيمُ ﷺ يدعو إلى توحيد الله، وقام بتكسير الأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى، أمر به النمروذ بعد أن حاجَّه في الله، ثم سجنه، فأُوقدت له النيران، وأُلْقِي فيها، وكانت عليه بردًا وسلامًا، وقيل: إن الْمُحَاجَّةَ كانت بعد إلقائه في النار.

فقد شَاعَ أمرُ إبراهيمَ ﷺ في الناس وذاع صِيتُه، فأرسل إليه الملِكُ الطاغيةُ يدعُوه ويحاورُه ويجادلُه في أمر الله ﷻ، قال النمروذ لإبراهيم بعد أن أَوْقَفَهُ بين يديه: ما هذه الفتنة التي أيقظْتَها؟! وما هذه النار التي أشعلْتَها؟! أتعرف لك ربًّا غيري؟ وطلب من

(١) ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٠٩) والطبري (٤/ ٥٧١).

إبراهيم دليلًا على وجود الربِّ الذي يدعو إليه.

وهكذا: أخذ النمروذ يجادل إبراهيم في أمور لا تقبل الشك، وما حمله على ذلك إلا (أن آتاه الله الملك) فطغى وبغى وتجبر، وحاج إبراهيم في ربوبية الله، وزعم أنه يفعل كما يفعل الله؛ فكان هذا الحوار:

قال إبراهيم عليه السلام في ثَباتٍ ويقينٍ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أتى إبراهيم عليه السلام في ردِّه على النمروذ بصفة من صفاتِ الله ﷻ ليست في مقدور البشر مطلقًا وتحدَّاه بها، لأنهما أعظم التدابير، والإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ الدار الآخرة، فالله وَحْدَهُ هو الذي يَمنح الحياة وينشئُها من العدم، وهو الذي يَسلُب الحياة من ذوات الأرواح ويُميتهم، ثم كيف توجد الرُّوح في الإنسان وغيره، وكيف تُسلَبُ منه؟ والروح من أمر الله سبحانه، ولم يَصِل الطبُّ الحديثُ إلى إدراك حقيقة الروح بعدُ، ونَفْخُ الروح في الأحياء صفةٌ لا يُشْرَكُ فيها مع الله تعالى غَيْرُه، ولا يُمكن أن يدَّعِيها أحدٌ من الخليقة، كما أنه لم يَدَّعِ أحدٌ على وجهِ الحقيقة أنه خلق شيئًا أو أمات شيئًا، فقول إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ جوابٌ للسؤال محذوفٌ من السياق.

قال النمروذ في مُغالطةٍ مكشوفة، ودَعْوَى مَفْضُوحَةٍ مدّعيا أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه: أنا أُحيي وأميت، قال إبراهيم: كيف؟! فدعا النمروذ رجلين مِن قومه، وأصْدر أمرًا بإعدام أحدهما، وأمرًا بالعفو عن الآخر، وقال: هأنذا أُحيي وأميت.

وقيل: إنه اسْتَدْعَى أربعةً من الناس؛ فحبس اثنين ومنع عنهما الطعام والشراب حتى ماتا، وأَبْقَى اثنين يأكلان ويشربان، وقال: هأنذا أحي وأميت[1].

ومعلومٌ أن هذه ليست هي الإماتةُ ولا الإحياء الذي يُعرف عند الناس، ولا في قوانين الطب، ولا التي يَعنيها إبراهيم، فاللهُ سبحانه هو الذي يُوجِدُ الحياةَ ابتداءً، وهو الذي ينشئُها من العدم، وهو سبحانه الذي يَسْلُبُها مِمَّن يريدُ.

انتقل إبراهيم عليه السلام بعد أن سَمِع هذه المغالطة الكاذبة إلى طلبِ دليلٍ آخر حسيٍّ ماديٍّ، ليس بإمكان النمروذ أن يغالطَ فيه، كان باستطاعةِ إبراهيم أن يقول له: ليس هذا إحياء ولا

(١) يُنْظَر: الطبري (٤/ ٥٧٥) وابن أبي حاتم (٢٦٣٦).

إماتة، ولكنه ترك باب الجدل والحوار؛ لعدم جدواه، وانتقل إلى حُجَّةٍ أخرى.

قال له: إن هذا الكون يسير وَفْقَ نظام معيَّنٍ دقيقٍ، وقد خلق الله ﷻ هذه الشمس، وسخَّرَها وجعلها تُشرق كلَّ يوم من المشرق، فإن كُنت إلَهًا كما تَدَّعِي فأْتِ بها من المغرب؟

وقد صرف الله النمروذ عن هذه المعارضة؛ معجزةً لإبراهيم، وإظهارًا للحُجة عليه، فدُهش النمروذ وبُهت وتَحيَّرَ، فانقطعت حجته وسقطت شبهته.

ومعنى الآية: هل علمت -أيها الرسول- أعجب من حال الذي جادل إبراهيمَ عليه السلام في توحيد الله وربوبيته؛ لأن الله أعطاه الْمُلك، فطَغَى وتَجبَّر، وسأل إبراهيم: مَن ربك؟ فقال: ربي المتفرد بالإحياء والإماتة، يَمنح الحياة مَن يشاء، ويَسلُبها مِمَّن يشاء، قال: فإني أفعل ذلك، فأقتل مَن أردتُّ، وأستبقي مَن أردتُّ، قال إبراهيم: الله الذي أعبده يأتي بالشمس من المشرق، فهل تستطيع تغيير هذه السُّنَّةِ، فتأتي بها من المغرب؟ فتحيَّر الكافرُ، وانقطعت حُجته، شأنه شأن الجاحدين، لا يهديهم الله للحقِّ والصَّواب.

وقيل: إن الله تعالى عاقب النمروذ؛ فبعث عليه بعوضةً دَخلت في مَنْخِرِهِ، فمكثتْ في رأسه مدة تساوي المدة التي كان فيها ملِكًا، وهي أربع مئة عام، تُضْرَب رأسُه فيها بالمطارق حتى أماته الله[1].

والله لا يهدي القوم الظالمين، بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، ومنهم نمروذ؛ لأنه غيرُ مستعدٍّ لقَبُول الْهِدَاية والحقِّ والصَّواب، وهو الذي اختار طريق الضلال والغواية، وفي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم منه أن ينفرد سبحانه بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال.

قِصَّةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ[2] عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ

(١) يُنْظَر الأثر (٥٨٧٥) في «تفسير الطبري»، وانظر في القصة عبد الرزاق (١/ ١٠٥) وابن أبي حاتم (٢٦٣٨).
(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (مائة) ياء خالصة وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون بالهمز.

عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[١] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ[٢] وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[٣] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ[٤] أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

هذا المثل يتضمن الردَّ على مُنكري البعث، وعلى انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، والبعث هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وذلك بعد تقرير أصل الإسلام في المثل السابق؛ وهو توحيد الله تعالى، فقد سَاقَ سبحانه دليلًا ماديًّا حسيًّا لمنكري البعث على قدرة الله تعالى على إحياء الْخَلْق بعد موتهم، فالله ﷻ خَلَقَ الْخَلْقَ من العدم، وهو جَلَّ شَأْنُهُ قادرٌ على إعادة الحياة إليهم مرةً ثانية بالبعث والحساب والجزاء، وفي هذه الآية والتي بعدها يَضرب الله تعالى لنا مِثالين من الواقع على قدرته سبحانه على البعث بعد الموت، وهما عطفٌ على معنى الإحياء والإماتة في مُحَاجَّةِ إبراهيم للنمروذ.

والآية تشير إلى أن شخصًا مًّا قد مرّ على قرية خربة، فاستبعد أو استعظم إحياءها بعد تدميرها، فأماته الله مئة عام، ثم أحياه وسأله عن مدة موته، فقال: يومًا أو بعض يوم، فلفَتَ الله نظره إلى حماره كيف تمزق لحمه وانتثرت عظامه، وإلى طعامه لم يتغير طعمه، ليستدل بذلك على قدرة الله تعالى وبعثه للأموات من قبورهم، وليكون هذا دليلًا حسيًّا ملموسًا لمن أنكر البعث والنشور:

١- قال وهب في الذي مرَّ على قرية: هو الخضر.

٢- وفي أشهر أقوال المفسرين أنه (عُزَيْرٌ) نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل، آتاه الله العمل بالتوراة.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بحذف هاء (يتسنه) وصلًا، على أنها للسكت، وأثبتوها وقفًا وهاء السكت من خواص الوقف، وقرأ الباقون بإثباتها في الحالين، ومعهم حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وقفًا.

(٢) أما ألف (حمارك) أبو عمرو وابن ذكوان بخلْفه، والدوري عن الكسائي، وقلّلها الأزرق.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (كيف ننشرها) بالراء من نشر الموتى، وقرأ غيرهم بالزاي من النشز؛ وهو الارتفاع.

(٤) قرأ حمزة والكسائي (اعْلَمْ) فعل أمر مجزوم، وقرأ الباقون (أعلمُ) فعل مضارع مرفوع.

عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: خرج عُزَيْرٌ نبي الله من مدينته وهو شاب، فمر على قرية خَرِبة، وهي خاويةٌ على عُروشها، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟! ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ فأول ما خُلق منه عيناه، فجَعل ينظر إلى عِظامه يَنضمُّ بعضُها إلى بعض، ثم كُسيَتْ لحمًا، ثم نُفخ فيه الروح، فقيل له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ قال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فأتى مدينته، وقد ترك جارًا له إسكافًا شابًّا، فجاء وهو شيخ كبير[(١)].

وقال السُّدي: مَرَّ عُزَيْرٌ في قُدومه من الشام على حِمار، له معه وعصير وعِنَبٌ وتين، ولما مرَّ بالقرية فرآها، وقف عليها وقلَّب يده وقال: كيف يُحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله وأمات حِماره فهلكا، ومرَّ عليهما مئة سنة، ثم إن الله أحىٰ عزيرًا، فقال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾! قيل له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ من التين والعنب ﴿وَشَرَابِكَ﴾ من العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[(٢)] لم يتغير.

٣- وقال وهب بن منبه: إن إرميا لمَّا خُرِّب بيت المقدس، وحُرِّقت الكتب، وقف في ناحية مِن الجبل فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟! فأماته الله مئة عام ثم بَعثه، وقد عَمُرَتْ على حالها الأول، فجعل يَنظر إلى العظام كيف يَلْتَئِمُ بعضُها إلى بعض، ثم نظر إلى العظام كيف تُكْسَى عصبًا ولَحْمًا، فلما تبيَّن له ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٣)].

والقرية: هي بيت المقدس على الأرجح، وقيل: هي قريةُ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذرَ الموت، والأول أصح، وكان بختنصر قد دخل بيتَ المقدس، وسلَّطَه الله على اليهود؛ بسبب معاصِيهم، فخرج إليهم في ست مئة ألف، ونزل بهم، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرَّب بيت المقدس؛ فأصبحت لا إنسَ فيها، ولا حيوان، ولا شجر، ولا نبات، ولا ماء، خاوية على عروشها، ولا يوجد فيها حياة.

وكان عُزَيْرٌ، من سَبَايا بني إسرائيل، فلمَّا نجَا منَ قتْل النمروذ؛ ارتحل على حِمار له، ومرَّ بالقرية فنظر إليها مستعظِمًا قدرةَ الله سبحانه ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟!

---

(١) ابن أبي حاتم (٢٦٥٨) والحاكم (٢/ ٢٨٢).

(٢) يُنْظَر الأثر (٥٩١٣) في «تفسير الطبري».

(٣) عبد الرزاق (١/ ٩٩) والطبري (٤/ ٥٨٠) وابن أبي حاتم (٢٦٥٣، ٢٦٦١) وأبو الشيخ في العظمة (٢٤٢).

والمراد من إحيائها: عمارتُها بعد خَرَابها؛ أي: كيف يحيي الله موتَى هذه القرية؟

ولما قال ذلك جعله الله مثلًا ودليلًا ماديًّا محسوسًا للبشر إلى يوم القيامة على إمكانية البعث بعد الموت ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ ومعه حِمارُه، وطعامه وشرابه، قيل: إنه كان عصيرًا وعِنبًا وتِينًا، كما سبق، ومن شأن هذه الفاكهة أن تَفْسُدَ سريعًا في وقتٍ سريعٍ، ومن شأن الحمار أن يعيش مدة أطول.

أَمات الله عُزَيْرًا ثم بعثه بعد مئة عام، وكان الله قد أعاد عِمارة بيتِ المقدس خلال سبعين عامًا بعد موت عزيرٍ، ودبَّتِ الحياة فيها في ثلاثين عامًا، كما أن الله تعالى قد أهلك بختنصر خلال هذه المدة، وردَّ بني إسرائيل إلى بيت المقدس، ثم أَيْقَظَ الله سبحانه عزيرًا وسأله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في نومتك هذه؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثم نظر إلى الشمس، وكان الله سبحانه قد أَماته في أول النهار وقتَ الضُّحَى، وأحياه في آخر النهار قبل أن تغرب الشمس، فنظر إلى الشمس فوجدها لم تغرب بعدُ، قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1].

وهكذا الناس يوم القيامة حين يحييهم الله سبحانه، ويبعثهم من القبور ينظرون إلى الدنيا وراءهم كأنَّها ساعةٌ من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

وهكذا يظن الناس حين يَخرجون مِن قُبورهم أنهم ما مكثوا فيها أو في الدنيا كلِّها إلا يومًا أو بعض يوم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ثم بيَّنَ سبحانه مدةَ موتِ عُزَيْرٍ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ وهذا هو الدليل ماثِلٌ بين يديك ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: انظر إلى طعامك الذي كان معك من الفاكهة والعصير والعنب والتين، فهو طَازَجٌ على حالته لم يتغير، ومن شأنه أن يَفْسُدَ خلال وقتٍ وجيزٍ، ولكن الله سبحانه أبقاه هذه المدة على هيئته وطعمه وشكله مئة عام لم يتغير، وكأن العصيرَ قد عُصِر من فَوره، وكأن العنب والتين قد قُطِفَا من فورهما.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ الذي كنتَ تركَبُه، ومن شأنه أن يَبْقَى مدةً أطول من بقاء الطعام، أخذ عزيرٌ يَنْظر إلى الحمار، وقد تقطعت أوصالُه، وتفرقت عظامُه، وأَرسل الله سبحانه ريحًا أمرها أن تَجْمَعَ عِظام هذا الْحِمار، وأن ينضم بعضُها لبعض، وأن تدُبَّ فيه العروق

(١) يُنْظَر: «تفسير سعيد بن منصور» (٤٣٤).

والأعصاب، وقال له: انظر إلى عظام الحمار، كيف يُكْسَى العظم باللحم والجلد، وعزير يتأمل قدرةَ الله سبحانه في إعادة الحياة إلى الحمار.

قال سبحانه له: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: آية دالة على البعث، وعلى أن القادر على ذلك قادرٌ على إحياء الناس بعد مماتهم ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

قيل: إن الله تعالى أوَّل ما أحيا منه عَيْنَيْهِ، فجعل ينظر إلى جسده الميت، والحياة تدبُّ فيه عضوًا تلو الآخر.

وقيل: إن عزيرًا كان قد ترك أمَّه، وهي بنت عشرين سنة، فلمَّا أحياه الله بعد مئة عام، وجَدَها عجوزًا عمياءَ، بلغت مئة وعشرين عامًا، قالوا: وكان عزيرٌ مجابَ الدَّعْوَة، فدعا ربَّه ومسح على عينيها فأبصرتْ، وانطلقت إلى بني إسرائيل فأخبرتْهم بقصته، فقال ابن عزير: كان لأبي، شامةٌ سوداءُ مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفه فرآها، وعرف أنه أبوه.

قال المفسرون: إنه كان عند موتِه شابًّا، وكان له أولاد قد شابوا وهَرِمُوا، فعرفوه وعَرَفَهُم.

وكان بختنصر قد أحرق التوراة؛ فبكى عزيرٌ، فعلَّمه الله إيَّاها، وبعثه إلى بني إسرائيل مجدِّدًا دعوةَ موسى، فقال اليهود: إنه ابن الله؛ لأنه جعل التوراة في صَدْرِه بعدما ذهبتْ، كما حكى الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

قال عزيرٌ بعد أن رأى بأمِّ رأسه بعْث الله له: الآن أعلم علمَ اليقين أن الله سبحانه قادرٌ على كل شيء ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي الآية أمرٌ من الله سبحانه بوجوب عِلْمِه بالبعث بعد الموت، بعد أن ثبت ذلك عنده وشاهده بعينه.

والقول بأن صاحب القصة عزيرٌ هو الأرجح والأشهر، وقال مُجاهد: إنه رجلٌ كافرٌ شكَّ في البعث، وهو قول ضعيف، وقيل: هو حزقيل بن بورا، وقال وهب بن منبه: هو الخضر، أو إرميا.

وفي الآية دليلٌ على نُبوَّةِ محمدٍ ﷺ؛ لأنه أخبر اليهود بما في كتبهم، وهو أمي.

وَمُجْمَلُ معنى الآية: هل علمتَ - أيها الرسول - خبرَ الذي مرَّ على قرية قد تَهدَّمت، وخَوَتْ على عروشها، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام ثم ردَّ عليه روحَه، وبَعَثَ إليه مَن يسألُه: كم بقيتَ ميتًا؟ قال: يومًا أو أقل، فأخبره بأنه بَقِيَ ميتًا مئة عام، وأمره أن ينظر كيف حفظ الله طعامه وشرابه من التغيُّر هذه المدة الطويلة، وينظر إلى حِماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظامًا متفرقة، فَعَلْنَا ذلك لنجعلك آيةً دالةً على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن يَنظر إلى العظام كيف يجمعُها ربُّ العالمين ويصل بعضها ببعض، ثم يكسُوها لحمًا بعد أن تلتئم، ثم يُعيد فيها الحياة، فلمَّا اتَّضح له ذلك، وأنه صار آيةً للناس قال: إن الله على كل شيء قدير.

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: مُشَاهَدَةُ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي[1] كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[2] إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا[3] ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

هذا هو الدليل الآخَر الماديُّ على البعث؛ وذلك أنه لما قال إبراهيم للنمروذ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ قال النمروذ لإبراهيم: هل عاينتَ ذلك؟ هل شاهدتَ ذلك؟ عندئذٍ طلب إبراهيم من ربِّه أن يُرِيَهُ إحياءَ الموتى رأيَ العين؛ ليستدل بذلك على كَيفية البعث؛ فيقيم الْحُجة على قومه، ويزداد يقينه.

سأل إبراهيم ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى ببصره، بعد أن أخبره سبحانه

---

(١) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بسكون الراء من (أرْني)، والوجه الثاني هو اختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقون بالكسر الخالص.

(٢) قرأ حمزة وأبو جعفر ورويس وخلف العاشر (فصِرهن) بكسر الصاد، وضَمَّها الباقون، وهما بمعنى القطع والميلن وقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٣) قرأ شعبة (جُزُءًا) بضم الزاي، وهو لغة الحجازيين، وقرأ أبو جعفر (جُزًّا) بتنوين الزاي وتشديدها، وقرأ الباقون (جُزْءًا) بسكون الزاي، وهو لغة تميم وأسد، وقرأ بالسكت على الهمز بخلْف عنهم: ابن ذكوان وحفص وإدريس وحمزة، ووقف حمزة بنقل حركة الزاي إلى ما قبلها مع حذف الهمزة وإبدال التنوين ألفًا.

بذلك، ليزداد يقينه بالمشاهدة فأمره الله ان يأخذ أربعة من الطير، يذبحها ويقطعها ويخلطها، ويضع على كل جبل من الجبال المحيطة به جزءًا منها، ثم يدعوها، فستقبل عليه في سرعة الطيران، وينضم أجزاؤها وتحيا بعد تمزيقها وتقطيعها، وقد حصل لإبراهيم ما أراد.

جاء عن ابن عباس ﷺ أن إبراهيم عليه السلام مرَّ برجلٍ ميِّتٍ على ساحل البحر الميت، زعموا أنه حبشي، فرأى دوابَّ البحر وسِبَاعَ الأرض والطير، تأكلُ منه، فقال: يا رب، تموت هذه الدواب والسباع والطيور فتَبلى ثم تحييها، فأرني كيف تحيي الموتى؟ فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير هي: وَزَّة، وفَرْخُ نَعامٍ، وديك، وطاوس، فقطَّعها وجزَّأها ووضعها على أربعة جبال، ووضع رؤوسهم تحت قدميه، فدعا باسم الله الأعظم فأقبل كلُّ جزءٍ، وكل ريش إلى طائره، وعادتْ كما كانت[(١)].

وإبراهيمُ خليلُ الرحمن نَبِيٌّ مرسَلٌ أبو الأنبياء، يُؤمِنُ بهذا تَمام الإيمان، فهو يَعلم ذلك علمَ اليقين، ولكنَّه يريد التَّرقي من علم اليقين إلى عين اليقين؛ لأن محاورات الْمَلِك الطاغية جعلتْهُ يَطلب المزيدَ من اليقين؛ ليذكُر له ما رآه بعينه، ولِيُطْلِعَ الْخَلْق على كيفية إحياء الله سبحانه للموتَى.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾»[(٢)].

ففي الحديث نفيُ الشك عن إبراهيمَ، **ومعناه كما قال الخطابي**: إذا لم أكن أشك في قدرة الله على إحياء الموتى، فإبراهيم أَوْلَى بألا يَشك، قال ذلك على سبيل التواضع وهضمِ النفس، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: «**لو لبثتُ في السجن ما لبث**

(١) جاء هذا المعنى عند ابن أبي حاتم (٢٦٨٧، ٢٧٢٢).

(٢) البخاري (٤٥٣٧) و(٣٣٧٢) ومسلم (١٥١) وابن ماجه (٤٠٢٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٧١) وفي المسند (٨٣٢٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وابن ماجه (٤٠٢٦) وابن حبان (٦٢٠٨) وغيرهم.

يوسف لأجبتُ الدَّاعي»[١].

فالشك هو التردد بين أمرين، من غير مَزِيَّة لأحدهما على الآخر، وهذا الشك منفيٌّ عن خليل الرحمن إبراهيم، على وجه القطع، وكأن النبي ﷺ يقول في الحديث: لو كان الشك يتطرق إلى الأنبياء لكنتُ أنا أحقَّ به منه، ومن المعلوم أن المشاهدة والعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقد قدَّم النبي ﷺ إبراهيم على نفسه من باب التواضع.

وحين طلب إبراهيم من ربِّه أن يُرِيَهُ كيفية البعث قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ﴾ أي: قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلَىٰ﴾ نعم أُومن، ولكني أريد أن أزدادَ يَقينًا على يقينٍ، ولأرى ذلك بعينَيْ رأسي.

وقيل: إن إبراهيم قال ذلك لَمَّا رأى جِيفة حمار قد أكلها دوابُّ البر والبحر، فتعجب كيف يجمعها الله من بطون السباع بعد تفرقها، فأمره الله سبحانه أن يأخذ أربعة من الطيور، هذه الطيور الأربعة قيل إنها: الطاوس والحمامة والديك والغراب، أمره الله سبحانه أن يأخذَها ويذْبحها ويقطعها قطعًا، وأن ينثر رِيشَها، ويخلط اللحم باللحم، والعظم بالعظم، والدمَّ بالدمِّ، والريش بالريش، ثم يجعل على كل جبل من الجبال المحيطة به -قيل: إنها أربعة جبال، وقيل: سبعة- جزءًا من هذا اللحم الذي خلطه، بعد أن ذبحه ومزَّقه، ويمسك بيده رؤوس هذه الطيور، ثم يدعوها إليه وهي ممزَّقة لا رُوح فيها، يدعوها دعاءَ تكوينٍ لا دعاء عبادةٍ، كما قال تعالى للذين مسخهم الله قردة: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: خذ أربعة من الطير فاجمعْهُن إليك، واذبحهن، وقَطِّعهن، ثم اجعل على كلِّ جبلٍ من هذه الجبال جزءًا بعد ذبحهن، وتقطيعهن، ونثر ريشهن، ثم نادِهُنَّ يأتينك -بإذن الله تعالى- سعيًا، فناداها إبراهيم، فإذا كل جزءٍ يعود إلى موضعه، وإذا بها تأتي مُسرعةً

(١) «المسند» (٨٣٢٩، ٨٣٩٢)، حديث صحيح وإسناد حسن كما قال محققوه، وأخرجه ابن حبان (٦٢٠٧) والطبري في تفسيره (١٢/٨٧) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٠) وقد جمعت هذه الأحاديث بين قصة لوط ويوسف عليهما السلام وانفرد بعضها بذكر ما يتعلق بيوسف عليه السلام.

على أرجلها، وأخذ إبراهيم يَنظر إلى العظم وإلى اللحم يتطاير بعضه إلى بعض، لحم الطاوس إلى رأس الطاوس، ولحم الغراب إلى رأس الغراب، ولحم الديك إلى رأسه، ولحم الحمامة إلى رأسها، والريش إلى الريش، وقطرات الدمِّ إلى قطرات الدمِّ، تنضم بعضُها إلى بعض، فجَعَل الله كلَّ طائرٍ ينضم إلى رأسه التي في يدِ إبراهيمَ، فإذا قَدِمَ إلى غير رأسه يأباه(١).

والحِكْمَةُ في سَعْيِ الطيور إليه دون الطيران، أنه أبعد للشبهة ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدَره وأقواله وأفعاله، وكما بعث الله هذه الطيور يَبعث الناس يوم القيامة من مختلَف نواحي الأرض(٢).

الْحُكْمُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: مَعَالِمُ الاقْتِصَادِ الإِسْلَامِيّ

أولًا: مُضَاعَفَةُ أَجْرِ المُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢٦١- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ(٣) لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

في أواخر سورة البقرة اثنتان وعشرون آية استغرقت أكثر من نصف حزب قبل الآيات الثلاث الأخيرة من السورة، هذه الآيات أرست مَعَالِم الاقتصاد الإسلامي وقواعده، والتكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة الإسلامية، وبيْن الأمم والشعوب، وبيَّنتْ هذه الآيات أن هذا الاقتصاد يقوم على الصدقة و الزكاة، و المعاملات المباحة من بيع و إجارة ونحوها ولا يقوم على الرِّبا الذي يسود العالم.

ولذلك فإن السورة تحدثت في أربعة عشر آية منها عن آداب الإنفاق في سبيل الله ومبطلاته، وهذا يشمل الزكاة المفروضة وصدقة التطوع.

---

(١) جاء هذا المعنى عن الحسن، وأخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٥) وانظر ابن أبي حاتم (٢٧١٦، ٢٧٢٠) والطبري (٤/ ٦٤١).

(٢) يُنْظَر الآثار الواردة في ذلك، ومنها «تفسير الطبري» (٦٠١٣، ٦٠٢٧).

(٣) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (والله يُضَعِّفُ) مضارع ضعَّف، وقرأ الباقون (يضاعِف) مضارع ضاعف.

ويشمل الإنفاقَ من الأفراد والأمم والجماعات في سبيل إعداد العدة؛ لملاقاة العدو، وفي سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

ويشمل أيضًا النفقة على الأهل والآباء والأبناء والأسرة، فهي أفضل نفقة واجبة، كما بيَّن ذلك النبي ﷺ.

وقد جاء ذلك في خمس آيات تحدثت عن النفقة قبل هذه الآيات التي نحن بصددها.

وفي ست آيات بعدها لعن الله الرِّبا ومقَته، وأعلْن حربًا من الله ورسوله على آكليه إن لم يتوبوا، وبيَّن أن الربا هو الوجه المقابل للصدقة والزكاة والتكافل بين المسلمين.

وضِمْنَ هذه الآيات آخر آية نزلت من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وفيها ربط التقوى بيوم الحساب والثواب والعقاب.

ومن بين آيات الاقتصاد الإسلامي: أحكام الدَّيْن، والإشهاد عليه، وكتابته، وأحكام التجارة الحاضرة، وقد تكفَّلتْ (آية المداينة) على طولها ببيان هذه الأحكام، ثم ذكرت الآية الأخيرة: حكم الرهن، وكتمان الشهادة.

يأتي بعد ذلك ثلاث آيات هي آخر السورة نزلت من كَنْز تحت العرش.

أمَّا آياتَ النفقةِ الأربع عشرة في سورة البقرة:

فأولها: بيان أن ترك النفقة في سبيل الله لجهاد العدو، وإزالة العقبات أمام نشر الدعوة؛ يؤدي إلى التهلكة ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فالدولة التي لا تبذل أموالها في التصنيع الحربي بأحدث وسائله، لدفع الصائل ومقاومة المحتل، تُلقي بنفسها إلى التهلكة.

وثانيها: سؤال عن أفضل مصارف النفقة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ فجاء الجواب: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وثالثها: سؤال عن مقدار النفقة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ فكان الجواب: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: اليسير من المال، وما زاد عن الحاجة، لك ولمن تعول، فأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

ورابعها: بيان أن النفقة بمنزلة القرض، فهي تجارة رابحة مع الله عز وجل، والمقترض هو الغني الذي منحك هذا المال، والله تعالى يضاعف أجرها إلى ما لا نهاية، بمقدار الإخلاص وصدق النية مع الله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وخامسها: الحث على النفقة في وجوه الخير والبر، قبل أن يأتي يوم لا ينفع الإنسان فيه شيء إلا ما قَدَّمت يداه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

حيث ينظر الإنسان عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن خلفه، فلا يرى إلا ما قدم لنفسه «**فاتقو النار ولو بشق تمرة**»

وسادسها: ضرب المثل بالسنبلة ذات الحب الكثير لمضاعفة أجر المنفق في سبيل الله ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأدنى مراتب هذه المضاعفة الحسنة، بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى ما لا نهاية.

وسابعها: بيان ثواب المنفق في سبيل الله في الدار الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة]، وهذه الطمأنينة بعدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على ما فات، مشروط بعدم إتباع النفقة بالمن والأذى.

وثامنها: تشبيه المنان في نفقته بالمرائي ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وتشبيه المُخلِص في نفقته بجنة في أرض مرتفعة آتت أكلها ضعفين، والرياء يحبط العمل ويبطله، كالمطر ينزل على حجر أملس فوقه تراب فيغسله.

وتاسعها: الحث على أن تكون النفقة من الكسب الحلال الطيب، ومن أجود المال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وعاشرها: النفقة تَزيد المالَ وتُنمِّيه ولا تمحقه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان هو الذي يخوف أولياءه من الفقر ومن عدم تأمين المستقبل - كما يقولون - ومن نقص المال بالإنفاق منه في وجوه الخير.

وحادي عشر: عِلْمُ الله تعالى بصدق الإخلاص في النفقة للإثابة عليها ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وثاني عشر: الإسرار بالصدقة أفضل من الإعلان ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وثالث عشر: عدم التحرج من الصدقة على غير المسلم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ورابع عشر: الثواب على نفقة السر والعلانية ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

سَبَبُ النزول

١- ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ والآية التي بعدها، نزلتا في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، لَما حثَّ النبي ﷺ الناس على الصدقة لتجهيز جيش العُسْرة؛ فجاء عبد الرحمن، بأربعة آلاف درهم، قال: يا رسول الله، كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأقرضتُ ربي أربعة آلاف، قال ﷺ: **«بارك الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيتَ»**(١).

٢- وأمَّا عثمانُ فجهَّز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وتصدق ببئر رَوْمة، وقال: عَلَيَّ جهازُ من لا جهاز له في غزوة تبوك، وجاء بألف دينار فصبَّها في حِجْر النبي ﷺ، قال راوي الحديث عبد الرحمن بن سمُرة: فرأيتُ النبي ﷺ يُدخِلُ يده فيها ويُقلِّبها ويقول: **«ما ضَرَّ ابن عفان، ما عَمِل بعد اليوم، اللَّهمَّ لا تَنْسَ هذا اليوم لعثمان»**(٢).

وقال أبو سعيد الخدري: رأيت النبي ﷺ رافعًا يديه يدعو لعثمان ويقول: **«يا ربِّ، إن عثمان بن عفان، رضيت عنه، فارض عنه»**. فما زال رافعًا يده حتى طلع الفجر؛ فأنزل

---

(١) ابن أبي عاصم في السنة، وكنزل العمال، المجلد الثالث عشر تتمة حصر وقتل عثمان ﷺ، والجامع الصغير (٣٦٣٣٥) مسند عثمان.

(٢) «المسند» (٢٠٦٣٠)، بإسناد حسن، وأخرجه الترمذي (٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (١٢٧٩) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢١٥)

الله الآية التالية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١].

٣- أما أبو بكر ﷺ فقد جاء بكل ما عنده ولم يُبقِ شيئًا، فسأله النبي ﷺ: **«ماذا أبقَيْتَ لأولادك؟»** قال: أبقيت لهم الله ورسوله، ولي عند الله مزيد.

٤- أما عمر فجاء بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: **«ماذا أبقيتَ لأولادك؟»** قال: أبقيت لهم نصف مالي، ولله عندي مزيد[٢].

ولا عجب أن تكون هاتين الآيتين نزلتا فيما ذكر، مع أن غزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة لأن سورة البقرة ابتدأ نزولها في أول الهجرة، وظلَّتْ مفتوحة مدة عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن، ولا يمنع أن تكون هذه المواقف من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم تدخل ضمن معاني هذه الآيات، فهي تشملهم وتشمل أمثالهم إلى قيام الساعة.

بدأ الله ﷻ الحديث عن النفقة في هذه الآيات الأربع عشرة المتوالية، ببيان مضاعفة أجر الذي ينفق ماله في سبيل الله، سواء أنفقه على عياله وأهله، أو أنفقه في الجهاد في سبيل الله، فردًا أو جماعات أو أممًا، أو أنفقه على الفقراء والمحتاجين على وجه الوجوب في الزكاة المفروضة، أو على وجه التطوع في وجوه الخير وأعمال البر والإحسان.

والإسلام لا يقيم حياة أبنائه على سؤال الناس والتكفف، وإنما يوجب عليهم العمل والكد والسعي على المعاش، ويَعُدُّ ذلك ضربًا من الجهاد في سبيل الله، فقد جاء السعي على طلب الرزق في آية [سورة المزمل: ٢٠] إلى جوار المجاهدين في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

وعلى المسلم أن يأخذ بالأسباب ويطرقها في سبيل العمل وتحصيل العيش.

في صحيح البخاري عن الزبير ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لأن يأخذَ أحدكُم حبلَه، ثم يأتي الجبل، فيأتني بحزمةٍ من الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكفُّ الله بها وجهه، خيرٌ له من**

---

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (٣/٣٠٦) و«أسباب النزول» للواحدي ص٧٣ وغيرهما.

(٢) من كتاب «الصدق» لأبي سعيد الخراز، وانظر تخريجه في الآية (٢٧١).

أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه»(١).

وهناك استثناءات لقوم لا يستطيعون الضرب في الأرض سعيًا على المعاش مثل: المريض والعاجز والكبير والمعاق، هؤلاء ماذا يفعلون؟ هل يتداينون؟ أو يأكلون بالربا الفاحش؟ كلَّا، لقد فتح الإسلام لهم أبواب الزكاة والصدقة، وضاعف الأجر للمنفقين في سبيل الله، فجعل أجر الدرهم الواحد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ أي: أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها، ويتضاعف ذلك إلى مئة حسنة، وإلى سبع مئة، وإلى ما هو فوق ذلك أضعافًا مضاعفة، حسب حال المتصدِّق والمتصدَّق عليه، فَمَثَلُ المؤمن الذي ينفق ماله في سبيل الله كمثل حَبَّةٍ زُرعت في أرض طيبة، فأخرجتْ ساقًا لها سبع شعب، في كل شُعْبة سنبلة، وفي كل سنبلة مئة حبة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ وهذه المضاعفة بحسب درجة الإخلاص، وفضل الله واسع، وهو سبحانه مطلع على النِّيات.

فليس مَن يتصدق أو يُخْرِجُ زكاته كُرْهًا ورِياء، كمن يُخرجها طواعية عن طيب خاطر.

وليس مَن يخرجها ضنًّا بالمال وحرصًا وخوفًا عليه، كمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى، ولا يستوي من يُخرج صدقته أو زكاته في حال صحته، بمن يخرجها في حال مرضه، ودُنُو أجله.

ولا يستوي من يخرجها وهو يحتاج إليها بمن هو في غنًى عنها.

ولا يستوي من يخرجها بإخلاص يبتغي بها وجه الله سبحانه، بمن يخرجها خجلًا أو حياءً من الناس.

فالأحوال تختلف، وتختلف تبعًا لها مضاعفة أجر الصدقة أو الزكاة، باختلاف درجة الإخلاص، ونية المتصدِّق، وحال المتصدَّق عليه، ولنضرب على ذلك مثلًا: شخص يتصدق بعشرة قروش، وآخر يتصدق بمثلها، وثالث يتصدق بمثلها، فَيُعْطِي الله الأول عَشْرَ حسنات، والثاني مئة حسنة، والثالث سبع مئة حسنة، لماذا؟ وما هو الفارق؟ لقد علم الله سبحانه قَدْرَ الإخلاص في كل منهم، وعدم الرياء في إخراجه النفقة، ومرتبة ابتغائه وجه الله سبحانه إيمانًا واحتسابًا لوجهه الكريم؛ فأعطى كلًّا منهم ما يستحق، وإذا

---

(١) البخاري برقم (١٤٧١، ٢٠٧٥) وعن أبي هريرة برقم (١٤٧٠، ١٤٨٠) ومسلم (١٠٤٢).

علم طالب الربح أن بَذْرة واحدة تُخْرِج له سبع مئة، فمن الحماقة ترك ذلك، وهكذا طالب الأجر الأخروي من باب أوْلَى.

أحاديث في النفقة

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»**(١).

٢- وعن خُرَيْم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أنفق نفقة في سبيل الله؛ كُتب له سبع مئة ضعف»**(٢).

٣- وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أظل رأس غازٍ، أظله الله يوم القيامة، ومن جهَّز غازيًا في سبيل الله، فله مثل أجره، ومن بنى مسجدًا لله يُذكر فيه اسم الله؛ بنى له بيتًا في الجنة»**(٣).

٤- وعن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ قال النبي ﷺ: **«ربِّ زِدْ أمتي»** فأنزل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: **«ربِّ زِدْ أمتي»** قال: فأنزل الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤) [الزمر: ١٠].

وهكذا: فإن الذي ينفق بعض ماله في طاعة الله ومرضاته، لا سيما الجهاد في سبيل الله، كمثل حبة واحدة أُلقيت في الأرض فأخرجت سبع مئة حبة، وأكثر من ذلك، فهذا مثل مضاعفة الأجر، كأنه مشاهد بالبصر، فيقْوي الإيمان وتزداد الرغبة، وتنقاد النفس إلى

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٩٩٥).

(٢) «المسند» (١٩٠٣٦) بإسناد حسن، وأخرجه الحاكم (٢/ ٨٧) والبيهقي في الشعب (٤٢٦٨) والترمذي (١٦٢٥) والنسائي (٣١٨٦) وابن حبان (٤٦٤٧) و«صحيح سنن الترمذي» (١٣٢٦).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٤٦٢٨) قال محققه: رجاله ثقات، رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٢/ ٨٩) والبيهقي (١٠/ ٣٢٠)وهو في المسند (١٢٦، ٣٧٦)، حديث صحيح، وأخرجه ابن ماجه (٧٣٥) والبزار (٣٠٤) وأبو يعلى (٢٥٣) وابن حبان (٤٦٢٨).

(٤) من «تفسير ابن كثير» للآية.

النفقة، مؤملة في هذا الأجر، وبمقدار حال المنفِق وإخلاصه، وحاجة المنفَق عليه، وحال النفقة من الحلال الطيب، ووقوعها في موقعها بحسب هذه الأحوال، يضاعف الله الأجر والمثوبة إلى ما لا نهاية، والله واسع الفضل والعطاء، عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها. قال تعالى:

٢٦٢-﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ[١] عَلَيْهِمْ[٢] وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

ثم بيَّن الله عزَّ و جلَّ أن هذا الأجر مُضاعَف على وجه الخصوص لمن أنفق ماله في سبيل الله، وضرب النبي ﷺ مثلًا محسوسًا لذلك.

١- كما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ أن رجلًا جاء بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «**لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة كلها مخطومة**»[٣] وهذه الناقة قدمها الرجل للجهاد في سبيل الله.

٢- وفي صحيح مسلم والمسند وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله**»[٤].

٣- وفي حديث أبي مسعود البدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها؛ كانت له صدقة**»[٥].

٤- وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنك لن تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أُجرتَ عليها حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**»[٦].

---

(١) قرأ يعقوب (ولا خوفَ) بفتح الفاء من غير تنوين، وقرأ الباقون بالرفع مع التنوين.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء وصلًا ووقفًا من (عليهم) وقرأ الباقون بكسرها في الحالين، ووَصَلَ ميم الجمع بواو ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه، وسكنها الباقون ومعهم قالون في وجهه الآخر.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٩٢) و«سنن النسائي» (٦/ ٤٩) برقم (٣١٨٧) و«المسند» (١٧٠٩٤) والحاكم (٢/ ٩٠) والبيهقي (٩/ ١٧٢).

(٤) البخاري برقم (٧٤٩٢، ٧٥٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥١) و«المسند» (٤/ ٣٢٥) برقم (٩٧١٤، ١٠١٧٥).

(٥) البخاري (٥٣٥١) ومسلم (١٠٠٢) والترمذي (١٩٦٥) والنسائي (٢٥٤٤) وابن أبي شيبة (٩/ ١٠٧).

(٦) البخاري (٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨).

٥- وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«من عال جاريتين حتى تَبْلُغَا؛ دخلْتُ أنا وهو الجنة كهاتين»**[١].

٦- وعن عائشة ﷺ قالت: دخلتْ عليَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتُها إياها، فقسمتْها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت وخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرتُه، فقال: **«من ابتُلِيَ من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن؛ كُنَّ له سترًا من النار»**[٢].

٧- وفي حديث جابر وأبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ بإسناد حسن أن: **«من كان له ثلاث بنات أو اثنتين أو واحدة فأحسن إليهن وأدبهن وجبت له الجنة وكنَّ له حجابًا من النار»**[٣] وكان مسلمًا عاملًا بشرائع الإسلام.

وهكذا بيَّن النبي ﷺ أن للمتصدق أجره المضاعف بمقدار ما علم الله منه صدْقه وإخلاصه وطيب نفسه بالصدقة، وحاجة المسكين إليها.

٨- ولما جهز عثمان جيش العُسْرَةِ بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وجاء بألف دينار صبَّها في حِجر النبي ﷺ فأخذ يقلِّبها ويقول: **«ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»**.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: الذين يجاهدون العدو بأموالهم، ولا يتبعون هذه النفقة بقول فيه مَنٌّ، ولا فِعْلٍ فيه أذى، لهم من الله أجر مضاعَف ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من المستقبل يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا.

وهكذا فإن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، ولا يتبعونها بما يفسدها أو يُنقص

---

(١) مسلم (٢٦٣١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٩٤) والترمذي (١٩١٤) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٦٤).

(٢) البخاري (٥٩٩٥) ومسلم (٢٦٢٩) والترمذي (١٩١٥).

(٣) يُنظَر: «المسند» (١٤٢٤٧) بنحوه، دون (وكن له حجابا من النار)، وهو حديث صحيح وكذا «صحيح الأدب المفرد» (٥٦، ٥٨) والبيهقي في «الشعب» (٨٦٧٨) والبزار في «الكشف» (١٩٠٨)، والطبراني في الأوسط (٤٧٥٧) وابن أبي شيبة (٨/ ٥٥٠) وأبو يعلى (٢٢١٠).

أجرها،كالمنِّ على المنفَق عليه بالقلب أو اللسان، أو إيذائه بقول أو فعل، فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم مضاعفًا، وقد حصل لهم الخير واندفع عنهم الشر، فهم لا يحزنون على ماض، ولا يخافون من مستقبل.

ثانيًا: مُبْطِلَاتُ الصَّدَقَةِ: المَنُّ وَالأَذَى وَالرِّيَاءُ

٢٦٣-﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

وإذا شَحَّ الإنسان وضنَّ بإعطاء السائل، فلا ينهره، ولا يقول له كلامًا سيئًا، ولا يقابله بوجه عبوس، وإنما ينبغي عليه أن يرده ردًّا جميلًا، وأن يحسن له القول، ويدعو له دعاء صالحًا بأن يُوسِّع الله عليه، ويفك كربته، ويغيث لهفته، ويدعو له بأن يرزقه الله من غيره و نحو ذلك؛ فالكلمة الطيبة صدقة، جاء في الأثر: (ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف)(١).

ومَن لا يملك النفقة في المصلحة العامة، فلا أقل من أن يحمل غيره على الإنفاق بالحثِّ عليها، والترغيب فيها بالكلمة الطيبة، فالحض على النفقة كالنفقة، والدالُّ على الخير كفاعله، وأعمال الخير لا يغني بعضها عن بعض، فالمسلم يفعل ويأمر غيره بالمعروف.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام حسن طيب، وردٌّ جميل، ودعاء صالح ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من الله، وعفو عن إلحاح السائل، وتجاوز عن الإساءة ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ﴾ من المتصدِّق إساءة ﴿أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقات العباد ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجلهم بالعقوبة، وقد خُتِمت الآية بصفتي الغنى والحلم بما يناسب المقام.

ويصح أن يكون المعنى: ومغفرة لمن أساء إليك بالعفو عنه وعدم مؤاخذته بما قد يصدر منه من إساءة، خيرٌ من الصدقة التي يلحقها المن والأذى.

ويفهم من الآية أن الصدقة التي لا يتبعُها منّ ولا أذى أفضل من القول المعروف.

---

(١) ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار يرفعه وهو برقم (٢٧٣٤).

مَثَلُ الْمُرَائي في صَدَقَتِهِ

٢٦٤-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ[1] ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أن المن والأذى يبطلان أجر الصدقة ويمحوان أجرها ويضيعانه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ﴾ ولا تحبطوا أجور ﴿صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ فلا يكون المن أو الأذى سببًا في إحباط العمل وبطلان الأجر والثواب، فالأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، قال تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات] وكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فإن السيئات تبطل الحسنات، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] وهكذا فإن المن والأذى يبطل أجر الصدقة، والرياء يمحُوه.

كما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر**: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: **«المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**[2].

وعن عبد الله بن عمر عن أبيه ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»**[3].

(١) قرأ أبو جعفر (رياء) بالياء والباقون بالهمز

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠٦) (٢/٨٠٧) وهذا لفظه وأخرجه أبو داود (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذي (١٢١١) وابن ماجه (٢٢٠٨) و«المسند» (٢١٣١٨) وابن حبان (٤٩٠٧) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٥٥، ١٠٩٤٦).

(٣) «المستدرك» (٤/١٤٦) و«سنن النسائي» (٥/ ٦٠) والبزار (١٨٧٥، ١٨٧٦) وابن خزيمة في «التوحيد» ص٣٦٣ وأبو يعلى (٥٥٥٦) والطبراني في «الكبير»، ١٣١٨٠، ١٣٤٤٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٨٠٣، ٧٨٧٧) و«المسند» برقم (٦١٨٠) وهذا لفظه، وهو حديث صحيح بإسناد حسن ورجال ثقات رجال الشيخين غير عبدالله بن يسار، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وصحح له حديثه هذا، وانظر (٥٣٧٢، ٦١١٣) وهو عند ابن حبان (٧٣٤٠) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٢٣٥٤).

زادت رواية أحمد وابن ماجة «**ولا مكذب بقدر**»[١] فعدم المن والأذى شرطان لقبول الصدقة.

ثلاثة شروط لقبول الصدقة: وقد اشترط الله سبحانه لهذا الأجر المضاعَف ثلاثة شروط:

١- أن تخلو الصدقة من المنِّ. ٢- ومن الأذى. ٣- ومن الرياء.

هذه شروط ثلاثة:

أولها: المنُّ: كأن يعطي الإنسان الصدقة أو يقدم الخير، ثم يقول: أنا أعطيتك كذا، وأعطيتك كذا، ويُذكِّره بين الحين والآخر، ويمتن عليه بما أعطاه ويترفَّع ويتعالَى عليه، ويَخْدُش كرامته ويحط من شأنه.

وثانيها: الأذى: كأن يُعيِّره بهذه الصدقة أو بهذه الزكاة، فيؤذيه بقوله أو فعله ويُظهر له أنه صاحب فضل عليه، فيهينُه ويسيء إليه، أو يسْخَر منه بقولٍ أو فعلٍ، أو يُسَخِّره في عمل خاص به فيستغله، أو ينقُص من أجره؛ لأن عينه مكسورة بسبب ما أعطاه من زكاة ماله أو ما تصدَّق عليه به.

والإسلام قد عالج هذه النقطة في نفوس أبنائه، فبيَّن لهم أن المال مال الله، وأن العبد مستخلَف فيه، وأمين عليه، ومبتلًى به، وأن الخلق عيال الله، والرزق رزق الله سبحانه، والله سبحانه هو المعطي المانع، وأنك حينما تُعطي أخاك الزكاة أو الصدقة إنما أنت مجرد سبب وواسطة في الخير الذي أجراه الله تعالى على يديك؛ لأن المال مال الله وضعه في يديك، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]

لقد استخلفكم الله على هذه الأموال فلا تَمُنُّوا ولا تُؤذوا مَن تصدقتم عليه.

والشرط الثالث لقبول الصدقة هو: الإخلاص وعدم الرياء:

حيث شبَّه الله تعالى صاحب المن والأذى بالمرائي مُحْبَطِ العمل في صلاته وصدقته وجهاده وتلاوته للقرآن وغير ذلك، فضرب الله ﷻ المثل للمنفق المرائي -الذي تصدق ليقال: إنه محسن، وإنه متصدق- بالحَجَر الأملس الذي نزل عليه الماء، فأزال ما فوقه من غبار، والرياء هو الشرك الأصغر.

وفي الحديث عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك**

---

(١) «المسند» (٦/ ٤٤١) وابن ماجه (٣٣٧٦) بإسناد حسن كما قال البوصيري في «الزوائد»: (٣/ ١٠٣).

الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر، قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(١).

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: **«مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**(٢).

وصحَّ في الحديث عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«أول من تُسَعَّرُ النار عليهم يوم القيامة ثلاثة: المتصدق رياء، وقارئ القرآن رياء، والذي يقاتل الكفار رياء»**(٣). ولا يبتغي كل منهم بعمله وجه الله تعالى.

وهذا المثل هو الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كما أبطل كفر المرائي بصدقته أجره فالذي ينفق ماله رياء، وهو غير مؤمن، ويريد أن يَحْمدَه الناس، ولا يطلب الثواب من الله؛ لأنه لا يصدِّق بوحدانية الله تعالى، ولا بالبعث والحساب والجزاء بعد الموت، عمله غير مقبول.

ومثله المسلم المرائي بصدقته، عمله غير مقبول؛ لأنه لا يطلب الأجر الأخروي.

ثم ضرب القرآن للمرائي مثلًا حيًا ظاهرًا؛ ليتضح له أن تركَ المنِّ والأذى شرط لحصول الأجر على النفقة، فمثله كمثل حجر أملس (ناعم)، هذا الحجر فوقه شيء من التراب، ثم نزل عليه مطر غزير فذهبت الأمطار بهذا الغبار أو التراب الذي فوق الحجر، فأصبح صلْدًا خاليًا ليس فوقه شيء.

وكما يَذْهبُ التراب من فوق الحجَر، بالمطر النازل عليه، فإن الرياء يَنْزِل على أجر

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤١٣٥) عن محمود بن أبي لبيد وأخرجه البيهقي برقم (٦٨٣١) وأحمد في «المسند» (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١) قال محققوه: حديث حسن، ورجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع، لأن ابن أبي عمرو مولى المطلب لم يسمع من محمود بن أبي لبيد، وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٧) وابن شيبة (٢/ ٤٨١) والطبراني في الكبير (٤٣٠١).

(٢) مسلم (٢٩٨٥) و«المسند» (٧٩٩٩، ٨٠٠٠)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٩٣٨) وابن حبان (٣٩٥) والطيالسي (٢٥٥٩).

(٣) يُنظَر الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٠٥) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٤٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٠٥).

الصدقة فيمحوها، كما غسل الماء التراب من فوق الحجر، وهكذا فإن الرياء يحبط أجر المتصدِّق، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: مثل الذي ينفق ماله رياء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ أي: حجر أملس شديد ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ ناعمًا ليس فوقه شيء.

وهكذا قلب المرائي قاس غليظ، بمنزلة الصفوان، وصدقته كالتراب الذي فوقه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: أن هذا النوع من الناس لا يجدون ثواب أعمالهم يوم القيامة، كما ترك المطر الحجر خاليًا ليس عليه شيء، كأنهم وضعوها في غير موضعها حين رَاءَوُا الناس بأعمالهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

والمعنى: فيا مَنْ آمنتم بالله واليوم الآخر، لا تُذهبوا ثواب ما تتصدقون به بالمن والأذى؛ لأنه يشبه المرائي غير المؤمن، فرغم ثناء الناس عليه، فإنه لا يجد ثوابًا لنفقته، فالكافر لا يوفق لعمل صالح كما علم الله منه ذلك في الأزل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُرِبتْ مثلًا لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله(١).

فالآية مَثَلٌ لمن أساء في عمله بعد إحسان، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من عمل صالح، ولمَّا احتاج إلى شيء منه لم يجد شيئًا، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللَّهمَّ اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كبر سني، وانقضاء عمري**»(٢).

وهكذا حذَّر الله من المنِّ والأذى والرياء في ثلاث آيات متواليات؛ لكثرته وتفشيه بين الناس، ولأن الفقير يزداد انكسار قلبه بالمن والإساءة إليه، والمنُّ يُبعد أهل الحاجات عن قبول الصدقة مع حاجتهم إليها، وقد ذم الإسلام المن؛ لأن المعطي في الحقيقة هو الله، وقد أجرى الله العطية على يد فلان، فهو السبب الموصل إليها، أما الرياء فإنه يحبط الأجر ويزيله.

---

(١) «صحيح البخاري» كما في فتح الباري (٨/ ٤٩) وهو برقم (٤٥٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٢) وفي سنده (عيسى بن ميمون) قال الذهبي: متهم.

مَثَلُ الْمُخْلِصِ فِي صَدَقَتِهِ

٢٦٥-﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ[1] أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا[2] ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل للمرائين بصدقاتهم وأعمالهم، ضرب مثلًا آخر للمخلِصين في صدقاتهم وأعمالهم، وهم المؤمنون الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وتثبيتًا لإيمانهم، واعتقادًا راسخًا منهم بصدق وَعْدِ الله لهم، ومن بذل ماله لوجه الله، فقد ثبَّت بعض نفسه، أي: حقق مراد الله منه دون تردد حين أنفق ماله في سبيل الله، ومن بذل نفسه وماله فقد ثبت نفسه كلها، فإن مثلهم كمثل بستان في أرض خصبة بمكان مرتفع نزل عليها المطر الغزير، فآتت ثمارها أضعافًا، وفي أقل الأحوال إن لم ينزل عليها مطر غزير، بل أصابها مطر قليل، فستؤتي ثمارها بدرجة أقل؛ بمعنى أنه إن لم يأخذ المتصدِّق سبعمائة حسنة فإنه يأخذ مائة حسنة، أو عشر حسنات في أدنى حالاته.

وهكذا تتفاوت أجور المخلصين فتُقبل وتُضاعف عند الله قلت أو كثرت، والله مطلع على السرائر، بصير بالظواهر والبواطن، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: إيمانًا راسخًا منهم بأن ثواب الله عظيم، على قَدْر إخلاصهم في الرغبة فيما عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: نزل عليها مطر شديد ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ﴾ أي: إن لم ينزل عليها مطر غزير نزل عليها مطر قليل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

مُقَابَلَةٌ بَيْنَ الْمَثَلِ الْمَذْمُومِ وَالْمَثَلِ الْمَحْمُودِ

٢٦٦- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

(١) قرأ ابن عامر وعاصم (بِرَبْوَةٍ) بفتح الراء وهو أحد لغاتها، وقرأ الباقون (بِرُبْوَةٍ) بضم الراء وهو لغة قريش.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (أُكْلَهَا) بسكون الكاف وهو لغة تميم وأسد، وقرأ الباقون (أُكُلَها) بضم الكاف وهو لغة الحجازيين.

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل لمن ينفق ماله في سبيل الله بحبة أنبتت سبع سنابل، ثم بجَنة في أرض مرتفعة تؤتي أكلها ضعفين، والمثلان لمن لا يُتْبع نفقته بالمن والأذى، ولا يتصدق رياء.

بعد ذلك وضَّح سبحانه حال المرائين المنَّانين؛ لتحصُل المقابلة بين المثَل المحمود والمثَل المذموم، فيتجلى الفرق بين تمام الرجاء فيما عند الله من عظيم الأجر، وبين اليأس وخيبة الأمل، وهذا الوصف المضروب فيه عظة وعبرة لمن يُحبط ثواب عمله بالرياء، وهو وصف لا يوَدُّ عاقل أن يضع نفسه فيه، وهو يشبه رجلًا له حديقة، وقد وصف الله هذه الحديقة **بثلاثة أوصاف** هي:

١- أن فيها الثمار والنخيل والأعناب.

٢- وفيها قصور تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة.

٣- أنها جنة جمعت بين حُسن المنظر، وكثرة النفع، فهي زاخرة بأنواع الثمار التي تنفع صاحبها وتغنيه عن الحاجة.

أما صاحب الجنة فقد وصفه الله **بوصفين**:

١- أنه قد تقدمت به السن؛ فأصابه الكبَر، وأصبح عاجزًا عن الغرس والكسب.

٢- أن عنده ذرية ضعفاء، وأولادًا صغارًا.

أما حال الحديقة فقد جاءها إعصار، أي: نار من السماء، فأحرقت هذه الثمار وأتت عليها، أيرغب أحدكم في نحو هذا، ويكون ممن يُبطل ثواب عمله بالرياء؟! وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم، يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم، وبمثل هذا البيان يبيِّن الله لكم ما ينفعكم؛ كي تُخْلِصُوا في نفقاتكم وسائر أعمالكم.

عن عطاء قال: سأل عمر الناس عن هذه الآية، فما وجد أحدًا يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إني أجد في نفسي منها شيئًا، قال: فتلفَّتَ إليه فقال: تحوَّل ها هنا، لِمَ تَحقر نفسك؟

قال ابن عباس ﷺ: هذا مثل ضربه الله ﷻ، فقال: أيود أحدكم أن يَعمل عُمُره بعمل أهل

الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير، حين فَنِيَ عُمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل مِنْ عَملِ أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه وهو أحوج ما كان إليه[(١)].

وعن ابن مليكة أن عمر ﷺ تلا هذه الآية ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ قال: هذا مَثَلٌ ضُرب للإنسان يعمل عملًا صالحًا، حتى إذا كان عنده آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عَمِلَ السوء[(٢)].

وقال ابن جريج: سمعت ابن أبي مليكة وابن عباس ﷺ قالا جميعًا:

إن عمر بن الخطاب سأل أصحاب رسول الله، فذكر نحوه، إلا أنه قال: للرجل يعمل بالحسنات ثم يبعث له الشيطان فيعمل بالمعاصي[(٣)].

والمعنى: أن العبد المرائي يبدأ حياته فيعمل الأعمال الصالحة فيكون مثلًا لأهل الجنة، ثم يعمل الأعمال السيئة ويستمر عليها حتى يموت؛ فتسوء خاتمتُه، فحاله يشبه حال صاحب بستان فيه كل الثمرات والمياه الجارية، وهو فرح ومسرور ببستانه، ثم أصابه الكبر، فضعُف عن العمل، وزاد حرصه، وكان له ذرية صغارًا ضعفاء، نفقته ونفقتهم من ذلك البستان، فبينما هو كذلك إذ أصاب البستان ريح قوية تستدير وترتفع في الجو، وهي تحمل نارا، وقد نزلت هذه النار على البستان فأحرقته.

وهكذا يكون المرائي بعمله الذي مات عليه، كالإعصار الذي أحرق البستان، ولم يستطع لكبر سنه وصغر أولاده، أن يدفعوا هذه النار عن حديقتهم حتى احترقت، كما احترق عمل المرائي ولم يعُد له أثر، فلقي ربه وهو أفقر ما يكون إلى عمل صالح، لكنه لم يجد عنده شيئًا ينتفع به، ولم يستطع أن يدفع العذاب عن نفسه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فهل يحب أحدنا أن يضيع منه عمله يوم القيامة، وهو أحوج ما يكون إليه، كهذا الرجل الذي كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر عياله، واحترقت جنته، ولم يجد سبيلًا للانتفاع بها؟

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٥١) والطبري (٦٠٩٤) وانظر هذا في: «صحيح البخاري» (٤٥٣٨) وابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٨).

(٢) «تفسير الطبري» الأثر: (٦٠٩٥) وفتح الباري (٨/ ١٥١).

(٣) الحاكم «المستدرك» (٢/ ٢٨٣) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

فهل يعيش الإنسان في الضلالة والمعاصي حتى يأتيه الموت، أم يتدارك نفسه ويستيقظ من غفلته حتى تحسن خاتمتُه؟

وُجُوبُ النَّفَقَةِ مِنَ الحَلَالِ الطَّيِّبِ

٢٦٧-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ[1] ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

ثم أمضت الآيات إلى المقصود، وهو أن نخرج الزكاة والصدقة من مالنا الطيب الحلال ومما خرج من الأرض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ لا تخرج زكاتك أو صدقتك من مال فيه حرام أو شبهة، بل أخرجها من أطيب الكسب وحلاله الخالص، وأنفقوا من الزروع والثمار والمعادن والبترول، وكلّ ما أخرجه الله من الأرض، فكما منَّ عليكم بتحصيله، فانفقوا منه شكرا لله، وأداء لبعض حقوق الفقراء، وتطهيرا لأموالكم.

وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض.

وخصصها جمهور الفقهاء بما يُقْتاتُ ويُدَّخَر، خلافًا للأحناف فأخذوا بالعموم وأوجبوا الزكاة في الفواكه والثمار والخضراوات وغيرها.

ويجب إخراج العُشر فيما سُقِيَ بماء المطر في الصحاري والبراري من غير جَهْدٍ ولا تعب.

ونصف العُشر فيما سُقي بالنضْح والآلة وجُهْد الإنسان.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الوَرِق صدقة، وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ من الإبل صدقة»**

وفي لفظ مسلم: **«ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق»**[2].

---

(١) قرأ البزيُّ (ولا تيمموا) بتشديد التاء مع المد ست حركات، للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ الباقون بالقصر وعدم التشديد، وأصلها: تتيمموا، فحذفت إحدى التاءين في قراءة التخفيف، وأدغمت التاء في التاء في قراءة التشديد.

(٢) يُنظَر: البخاري (١٤٠٥، ١٤٨٤) ومسلم (٩٧٩) ومالك (١/ ٢٤٤) وأبو داود (١٥٥٨) والترمذي (٦٦٦) والنسائي (٢٤٤٤) وابن ماجه (١٧٩٣) والدارقطني (٢/ ٩٢).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**فيما سقت السماء والعيون العشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العُشْر**»(١).

والوَسْق: ستون صاعًا، والصاع: خمسة أرطال وثُلث.

وعن معاذ ﷺ أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخَضْراوات؛ وهي البقول، فقال: «**ليس فيها شيء**»(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي: لا تخرجوا النوع الرديء من الطعام، أو الحبوب، أو الثمار ونحوه، فتعْمدُوا إليه في إعطاء الفقراء، وأنتم لا تأخذونه إلا على وجه الإغماض، كما فعل بعض الناس في عهد رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله سبحانه هذه الآية، بيَّن فيها أن النوع الرديء من عُروض التجارة، أو الزروع، أو الثمار، أو بهيمة الأنعام، لا يجوز إخراجه في أنواع الزكاة، أو الصدقة، أو النفقة.

وكل ما لا يأخذه الإنسان على سبيل الأجر، لا يجوز إعطاؤه للفقير أو قضاء الدَّيْن به، إلا إذا أغمض الإنسان عينيه وأخذه على مضض، فكيف ترضون له ما لا ترضونه لأنفسكم ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تقصدوه في العطاء ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ ولو كان لرجل على رجل دين فأعطاه هذا المال الرديء، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، فأغمض عينه عن هذا النقص، وأخذه وهو كارهٌ، على استحياء ممن أعطاه.

ومن هنا وجب على المسلم أن يخرج زكاته المفروضة، وصدقته التي يتطوع بها من أجود ماله وأطيبه؛ لأن الله تعالى أحق من يُتقرب إليه بأطيب الأموال وأكرمها، والصدقة قربان المؤمن إلى ربه، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

---

(١) الترمذي (٦٣٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٧٠)، وبنحوه في المسند (١٤٦٦٦) عن جابر وهو حديث صحيح وأخرجه عبدالرزاق (٧٢٣١) وابن أبي شيبة (٣/ ١٤٦).

(٢) الدارقطني (٢/ ٩٥) و«صحيح سنن الترمذي» (٥١٩).

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المقام:

١- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[١].

٢- وفي حديث ابن مسعود ﷺ: «**ولا يكتسب عبد مالًا من حرام فينفق منه فيُبارَك له فيه، ولا يتصدق فيُقبَل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث**»[٢].

٣- وفي حديث عائشة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[٣].

٤- ورد أن رجلًا من الأنصار، علَّق قِنْوًا من حشَف، في الموضع الذي كان المسلمون يعلِّقون فيه صدقة ثمارهم، فقال ﷺ: «**ما يضر صاحبه لو تصدَّق بأطيب من هذه، إن صاحب هذه ليأكل الحشف يوم القيامة**»[٤].

٥- وقال البراء بن عازب ﷺ: كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أفناء البسر -أي: قِنْوَ الرطب- فعلَّقوه على حبل بين عمودين في مسجد رسول الله ﷺ؛ ليأكل فقراء المهاجرين منه، وكان أهل الصُّفَّة إذا جاع أحدهم يضرب القنو بعصاه، فيسقط منه البُسْر والتمر فيأكل، فكان الرجل منهم يعمد إلى الحشف فَيَدْخِلُه مع الرطب، يظن أن ذلك جائز؛ فأنزل الله الآية[٥].

---

(١) مسلم (١٠١٥) والترمذي (٢٩٨٩) و«المسند» (٨٣٤٨).

(٢) «المسند» (١/ ٣٨٧) برقم (٣٦٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) وفي إسناده ضعف، لضعف ابن أبي حازم البجلي، وأخرجه البزار في الزوائد (٣٥٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبغوي (٢٠٣٠) وغيرهم.

(٣) «المسند» (٢٤٠٣٢) حديث حسن لغيره والنسائي (٤٤٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٥٤).

(٤) من حديث عوف بن مالك في «سنن أبي داود» (١٦٠٨) والنسائي (٢٤٩٢) وابن ماجه (١٨٢١) وابن خزيمة (٢٤٦٧) وابن حبان (٦٧٧٤) والحاكم (٢/ ٢٨٥) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٧٤).

(٥) «تفسير ابن جرير» (٥/ ٥٥٩) الأثر (٦١٣٩) وهو عند الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٥).

ويؤخذ منها: الحث على النفقة، ووجوب الزكاة في الذهب والفضة وسائر الأموال وعروض التجارة، وفي الحبوب والثمار والمعادن، ولا تجب في المتاع المعد للاقتناء من العقارات ووسائل النقل والأواني، ولا تجب في الديون التي على غير مليء، ونحو ذلك.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي رزقكم ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم، مستحق للثناء عليه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في كل حال.

سَبَبُ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا

٢٦٨-﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم[١] بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

ثم لماذا يضن الإنسان بالزكاة، أو الصدقة؟ ولماذا يحرص على المال، ويتكالب عليه؟ ولماذا يبخل ويُخرج الرديء في صدقته؟ ولماذا يخاف من الفقر ومن المستقبل ويقول: إنه يؤمِّن مستقبله ومستقبل أولاده؟ لماذا يمنع زواج ابنته حتى تحصُل على الشهادة؛ تأمينًا لمستقبلها وسلاحًا في يدها؟ ما السبب؟ وما الدوافع وراء هذا كله؟

يقول سبحانه مبينًا السبب: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ الشيطان هو السبب، هو الذي يخوفكم من الفقر ومن المستقبل، والمستقبل بيد الله سبحانه، وما علينا إلا أن نبذُل الأسباب، ولا يمكن لإنسان أن يؤمِّن حياته، ولا حياة غيره، ولا يمكن له أن يعْلَم ما في الغيب، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.

والمال قد يُصلح الأبناء وقد يفسدهم، والإنسان مُطالَب بحسن تربيتهم وتعليمهم وعَلاقتهم بربهم.

وليس بالضرورة أن يترك لهم ثروة أو خلافه، فقد يبدِّدونها في لحظات، وهو لا يعلم الخير في الغنى أو الفقر، وفي الأثر: (إن الشيطان يَعِدُ بالشر ويُكَذب بالحق)[٢].

ومن تخويفه لكم شدة الحرص على جمع المال، وتأمين المسكن والوظيفة والشهادة، ولا بأس بهذا وغيره إذا أتى من حله من غير شَرَهٍ أو تَشَوُّفٍ.

ومن آثار هذا الخوف شدة البخل والشح والخوف من الفقر ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ غفرانًا

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس ضمتها من (ويأمركم)، والباقون بالضمة الخالصة، ومعهم دوري أبي عمرو في وجه آخر له.

(٢) انظر النص في الترمذي والنسائي عن ابن مسعود.

للذنوب ورزقًا واسعًا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات.

وجاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ «**إن للشيطان لَمةً بابن آدم، وللملَك لمةً، فأما لَمةُ الشيطان فإيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، وأما لَمةُ الملَك، فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ** ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾»[1].

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ

٢٦٩-﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ[2] ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

والحرص على الدنيا ليس من الحكمة في شيء، بل إن الحكمة في الاعتماد على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب، وعلى المسلم أن يُعتقد أن ما وعد الله به عباده من الفضل والمغفرة كله من عطاء الله، وحكمته في خلقه، وهو ﷻ يؤتي الإصابة في القول والفعل ويعطي السداد والحكمة عن فَهْم ومعرفة ويعطي العلم النافع، والعمل الصالح، وحسن التصرف في تدبير الأمور لمن يشاء ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ وهي إصابة الحق، ووضع الأمور في نصابها، وهي العلم النافع الذي يأخذ بيد صاحبه إلى الاستقامة وعمل الخير والمنع من الشر ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ فأنعم الله عليه بها، ووُفِّق للصواب في الأمور ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما، وفيه التخصيص بهذا الفضل، وكونه من ورثة الأنبياء، فيكون العبد مصيبًا في قوله وعمله، واضعًا للأمور في نصابها، والناس في هذا على قسمين، منهم من أجابوا دعوة ربهم ونبيهم، ففعلوا ما ينفعهم،

---

(١) الحديث رواه الترمذي (٤/ ٧٧) برقم (٢٩٨٨) وقال: حديث صحيح غريب، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٠٦) وابن أبي حاتم (٨١٠) ورُوي موقوفًا على ابن مسعود، ورُوي مرفوعًا بإسناد صحيح في الحديث رقم (٦١٧٤) من «تفسير الطبري» وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٠٥١) وابن حبان في «الموارد» برقم (٤٠) وابن حبان (٩٩٧) وقد ضعَّف إسناده الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٥٧٢).

(٢) قرأ يعقوب (ومن يؤتِ) بكسر التاء مبنيًّا للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، و (من) مفعول مقدم، و (الحكمة) مفعول ثانٍ، ووقف يعقوب على (يؤتي) بإثبات الياء، وقرأ الباقون (ومن يؤتَ) بفتح التاء، ووقفوا عليها بسكون التاء.

وتركوا ما يضرهم، ومنهم من لم يستحب للدعوة، فترك طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أهل الحكمة، ولا من أولي الألباب، لذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لا ينتفع إلا أصحاب العقول النيرة.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- روى أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**(١).

وأهم ما في الحكمة معرفة الله تعالى، وعلم الأخلاق والاجتماع، وأحكام الإمامة والخلافة وسياسة العباد والبلاد، وفي مقدمة ذلك حفظ شيء من كتاب الله تعالى.

٢- عن أبي أمامة ﷺ أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اشتريت مِقْسَم - أي: نصيب بني فلان- فربحت عليه كذا وكذا، فقال ﷺ: **«ألا أنبئك بما هو أكثر ربحًا؟»** قال الرجل: وهل يوجد؟ قال ﷺ: **«رجل تعلم عشر آيات»**، فذهب الرجل وتعلم عشر آيات وأتى النبي ﷺ فأخبره(٢).

٣- وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يُقرِئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عَشْرَ آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل(٣).

٤- وفي حديث معاوية أن النبي ﷺ قال: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**(٤).

---

(١) «المسند» (١/ ٤٣٢) برقم (٣٦٥١، ٤١٠٩) وعن ابن عمر (٤٥٥٠، ٦٤٠٣) وعن أبي هريرة (١٠٢١٤، ١٢٠١٥) والبخاري عن ابن مسعود برقم (٧٣) ومسلم برقم (٨١٦) والنسائي في «الكبرى» برقم (٥٨٤٠) وابن ماجه برقم (٤٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٠١٢) والبيهقي (١٩٤٤) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٥).

(٣) «المسند» (٢٣٤٨٢) بإسناد حسن بنحو هذا وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٤٥١) والحاكم (١/ ٥٥٧) والدار قطني في العلل (٣/ ٦٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٠) والطبري (١/ ٧٤).

(٤) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) وابن ماجه (٢٢١).

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ: النَّذْرُ

٢٧٠- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

والنفقة التي ينفقها الإنسان إما أن تكون نفقة واجبة، أو نفقة تطوع، أوالنذر الذي ينذره الإنسان طاعة وقربى لله تعالى، وما أعطيتم من مال أو غيره، قليل أو كثير؛ ابتغاء مرضاة الله، أو أوجبتم على أنفسكم شيئًا من ذلك، فإن الله تعالى هو المطلع والمثيب عليه.

ومن منَع حق الله فهو ظالم، والظالم لا يمنعه من عذاب الله مانع.

والنذر على ضربين: **نذر مفسر**، وهو أن يقول: لله عليَّ صدقةٌ، أو صومٌ، أو حجٌّ، أو عتقٌ.

ونذر غير مُفسَّر، وهو أن يقول: نذرت لله لا أفعل كذا ثم يفعله، وكُلٌّ منهما يكون في طاعة.

ونذر الطاعة المفسَّر يجب الوفاء به كما نذر، وألزم نفسه.

ونذر الطاعة غير المفسَّر لا يلزم الوفاء به، وفيه كفارة يمين.

وأما نذر المعصية فلا يلزم الوفاء به، سواء أكان مفسَّرًا، أم لا.

وهذه جملة من الأحاديث في النذر:

١- في البخاري عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: **«مَن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**[١].

٢- ومن حديث عمران بن حصين ﵁ أن النبي ﷺ قال: **«لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم»**[٢].

٣- وفي الصحيحين عن عمر وابنه ﵄ أن النبي ﷺ نهى عن النذر، وقال: **«إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرَج به من البخيل»**[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) وأبو داود (٣٢٨٩) والترمذي (١٥٢٦) وابن ماجه (٢١٢٦) والمسند (٢٤٠٧٥) وابن حبان (٤٣٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٩، ٤٧٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٦٤١) وأبو داود (٣٣١٦) والترمذي (١٥٦٨) وابن ماجه (٢١٢٤) و«المسند» (١٩٨٨٨) وابن حبان (٤٣٩١) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٣٥، ٥٨٥٣٨).

(٣) البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩) وأبو داود (٣٢٨٧) والنسائي (٣٨١٠) وابن ماجه (٢٢٢١).

٤- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن النذر لا يُقرب من ابن آدم شيئًا لم يكن الله قدَّره له، ولكن النذر يوافق القدَر، فَيُخْرَج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يُخْرِج»**(١).

وسبب النهي أن العبادة يجب أن تكون ممحضة لله تعالى، ونظرًا لما يظنه الجهلة من أن النذر يردّ القَدر أو يأتي بالخير.

وسُمي الناذر بخيلًا؛ لأنه لم يتطوع في عمله ابتداءً، وإنما أتى بالطاعة مقابل منفعة، ومعنى النذر: التزام قُرْبة أو صدقة بصيغة الإيجاب على النفس.

والنذر كان معروفًا في الجاهلية، فقد نذر عبد المطلب إن رزقه الله عشرة أولاد لَيذْبحنَّ عاشرهم قربانًا للكعبة، وكان ابنه العاشر (عبد الله) والد النبيِّ ﷺ هو ثاني الذبيحين، ونذرت نُتيْلة، زوج عبد المطلب لما افتقدت ابنها العباس -وهو صغير- إن وجدتْه لَتكْسُوَنَّ الكعبة بالديباج ففعلتْ، وهي أول من كسا الكعبة بالديباج.

٥- وفي حديث البخاري وغيره أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال ﷺ: **«أوفِ بنذرك»**(٢).

٦- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ أدرك شيخًا يمشي بين ابنيه يتوكأ عليهما، فقال: **«ما شأن هذا؟»** قال ابناه: يا رسول الله، كان عليه نذر، فقال النبي ﷺ: **«اركب أيها الشيخ، فإن الله غني عنك وعن نذرك»**(٣).

٧- وعن ابن عباس ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه، فقالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم؛ فقال النبي ﷺ: **«مروه فلْيتكلم، ولْيستظل، ولْيقعُد، ولْيُتم صومه»**(٤).

وكان النذر معروفًا في الأمم السابقة، فقد قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾

---

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣٩) و«صحيح البخاري» (٦٦٠٩، ٦٦٩٤).

(٢) البخاري (٢٠٣٢، ٢٠٤٣، ٦٦٩٧) ومسلم (١٦٥٦).

(٣) مسلم (١٦٤٣) وابن ماجه (٢١٣٥).

(٤) البخاري (٦٧٠٤) وأبو داود (٣٣٠٠) وابن ماجه (٢١٣٦).

[مريم: ٢٦] وقالت أمها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

ثم ختم الله الآية ببيان أن الظالمين ليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير، وكأن تجاوز الحد في النفقة أو النذر يدخل في دائرة الظلم.

أحاديث في الظلم:

١- في حديث ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١).

٢- وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(٢).

٣- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة**»(٣).

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه**»(٤).

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب**»(٥).

هذا: والله تعالى يجازي على جميع النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، ولا يخفي عليه شيء منها، ويعلم صدق نية المتصدق، وحال المتصدق عليه، فإن صدرت النفقة أو النذر عن إخلاص وطلب لمرضاة الله تعالى، كان الجزاء حسنًا والثواب عظِمًا، وإن لم ينفق العبد، أو لم يوف بنذره، أو قَصَد رضى الناس، فهو ظالم لنفسه وَضَعَ الشيء في غير موضعه، واستحق عليه العقوبة البالغة.

---

(١) البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩) والترمذي (٢٠٣٠).

(٢) البخاري (٤٨٣) ومسلم (٢٥٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٣٢).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٢٩) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(٤) «المسند»(١٧٩٥) وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٣٦٠) ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٩٩).

(٥) «المسند» (١٢٥٤٩) بإسناد ضعيف لجهالة أبي عبدالله الأسدي، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٦٧).

صَدَقَةُ السِّرِّ وَالعَلَنِ

٢٧١-﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا(١) هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ(٢) عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

سبب النزول

١- أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عامر الشعبي قال: أُنزلت في أبي بكر وعمر ﷺ، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: **«ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟»** قال: خلَّفْتُ لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله، يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **«ما خلفْت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟»** فقال: عِدَة الله، وعِدَة رسوله، فبكى عمر ﷺ، وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما اسْتبقْنا إلى باب خير قط إلا سبقتنا إليه(٣).

٢- وعن عمر ﷺ قال: أمرَنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقْتُه يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»** قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا(٤).

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فنَعِمّا) بفتح النون وكسر العين على الأصل، وقرأ ورش وابن كثير وحفص ويعقوب بكسر النون، إتباعًا لكسرة العين، وهي لغة هذيل، وقرأ أبو جعفر بكسر النون وسكون العين، واختلف عن قالون وأبي عمرو وشعبة، فروى عنهم وجهين: الأول: كسر النون واختلاس كسرة العين؛ فرارًا من الجمع بين الساكنين والثاني: كسر النون وإسكان العين كقراءة أبي جعفر، وتشديد الميم متفق عليه.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر (وَنُكَفِّره) بنون العظمة والجزم، على أنه بدل من موضع (فهو خير لكم) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة ويعقوب (ونُكَفِّرُ) بالنون والرفع، على الاستئناف، والواو لعطف جملة على جملة، وقرأ ابن عامر وحفص (ويُكَفِّرُ) بالياء والرفع.

(٣) رواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (١٦٤٣) من طريق محمد بن الصباح بن موسى بن عيسى عن الشعبي وهو عند ابن أبي حاتم (٢٨٤٨) وابن عساكر (٣٠/ ٦٤) وابن مردويه كما في «أسد الغابة» (٣/ ٣٢٦).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (١٤٧٢) والترمذي (٣٦٧٥) والحاكم (١/ ٤١٤).

ثم إن العبد إذا أسر بالصدقة، أو أعلنها؛ فإن الله تعالى يعلم حقيقة أمره إن كان مرائيًا أو مخلصًا، والأفضل في الزكاة المفروضة أن يخرجها العبد علنًا؛ لأن في هذا إحياء وإظهارًا لركن من أركان الإسلام، وحتى لا يُتهم المسلم بعدم إخراجها.

أما صدقة التطوع فالأفضل أن يخرجها الإنسان سرًّا:

١- كما قال ﷺ في حديث أنس ﷺ: «**صدقة السر تطفئ غضب الرب**»(١).

٢- وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تَزيد في العمر**»(٢).

٣- وعن كعب بن عجرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا كعبَ بنَ عجرة، إنه لا يدخلُ الجنة لحم ودم نبتا على سُحت، النار أولى به، يا كعب بنَ عجرة، الناس غاديان، فغادٍ في فكاك نفسه فمعتقها، وغادٍ موبقها، يا كعبَ بنَ عجرة، الصلاة قربان، والصدقة برهان، والصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يَذهبُ الجليد على الصفا**»(٣).

٤- وعن عدي بن حاتم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه تُرجمان، فينظر أيْمَن منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**»(٤).

٥- وهكذا بيَّن ﷺ أن من يخفي صدقته يكون ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٥).

وصدقة السر في التطوع أجرها مضاعف عن الصدقة المعلنة إلا لمصلحة راجحة، مع نقاء السريرة.

---

(١) الترمذي عن أنس برقم (٢٣٨٦) ورواه جَمْعٌ من الصحابة.

(٢) أخرجه الطبراني (٤/ ٨٠) وهو حديث حسن كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٠).

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٥٦٧) وقال محققه: حديث صحيح، ونحوه في المسند (١٥٢٨٤) عن جابر بإسناد قوي على شرط مسلم، ورجال ثقات غير ابن خيثم فصدوق لا بأس به، كما قال محققوه.

(٤) البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦) وابن أبي شيبة (٣/ ١١٠).

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) والنسائي (٥٣٩٥).

وزكاة الفريضة المعلنة أفضل من الإسرار بها، وكذا جميع الفرائض.

٦- وفي الحديث عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله**»[1].

أي: إن تظهروا الصدقات فنِعْم ما تتصدقون به، لحصول المقصود بها، وإن تُسروها فهو أفضل لكم؛ لأنه أبعد عن الرياء، أما إذا أعطيت الصدقات لغير الفقراء، فإن الأمر يرجع إلى المصلحة، فإن كان فيها إظهار لشعائر الإسلام وحصول الاقتداء ونحو ذلك فالعلانية أفضل من السر في مثل هذه الحالات، وفي ذلك محو لذنوبكم، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وسوف يجازي كُلًّا بعمله.

٧- وفي الحديث عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة**»[2].

فصدقة السر أفضل، إلا إذا ترتب على إظهارها مصلحة راجحة.

٨- وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل امرئ في ظل صدقته حتى يُفْصل أو يُحْكم بين الناس**»[3].

٩- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة**»[4].

---

(١) من حديث طويل عن أبي هريرة في «المسند» برقم (٩٦٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأوله «سبعة يظلهم الله في ظله» وأخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) والترمذي (٢٣٩١) وابن خزيمة (٣٥٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١) برقم (١٧٣٦٨، ١٧٤٤٤) بإسناد صحيح، والبخاري في خلق أفعال العباد (٥٦٧) وأبو يعلى (١٧٣٧) و ابن حبان (٧٣٤) وأبو داود في «السنن» (٢/ ٣) برقم (١٣٣٣) والترمذي برقم (٢٩١٩) عن عقبة بن عامر.

(٣) «المسند» (٤/ ١٤٧) برقم (١٧٣٣٣) وقال محققوه: إسناده صحيح، و«صحيح الجامع الصغير» (٤/ ١٧٠) وابن خزيمة (٢٤٣١) وابن حبان في «الإحسان» (٣٣٩٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٤١٦) ورواه الطبراني وأبو يعلى «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٠).

(٤) «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٤٢٦٥) وقال محققوه: صحيح لغيره، وانظر (٣٦٧٩)، و«صحيح الجامع» (٥/ ٨٣).

١٠- وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**تصدَّقوا، فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئتَ بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها**»[١].

١١- و أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: فجعل الله صدقة السر في التطوع تَفْضُلُ علانيتها بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة، علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل[٢].

جَوَازُ الصَّدَقَةِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ

٢٧٢- ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

والزكاة لا تُعطى إلا لمسلم؛ لقوله ﷺ لمعاذ: «**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم**»[٣].

وأما صدقة التطوع فيجوز إخراجها لغير المسلم، ولما امتنع بعض المسلمين عن إخراج الصدقة لغير المسلمين؛ أنزل الله سبحانه يؤدبهم بأدب الإسلام فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: لا تمنعوا عن غير المسلمين المحتاجين صدقاتكم؛ بسبب عدم إسلامهم؛ فإن الهدى من الله؛ والتوفيق بيد الله.

قيل في سبب النزول: إن ناسًا من المسلمين كانت لهم قرابات وأصهار من اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم حتى يسلموا[٤].

وقيل: نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين؛ كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام، فلما نزلت هذه الآية قال: «**أعطوهم وتصدقوا عليهم**»[٥].

---

(١) البخاري (١٤١١، ٧١٢٠) ومسلم (١٠١١) والمسند (١٨٧٢٦) والنسائي (٢٥٥٤) وابن أبي شيبة (٣/ ١١١).

(٢) الطبري (٥/ ١٥) وابن أبي حاتم (٢٨٤٧).

(٣) البخاري (١٣٩٥، ٧٣٧١) ومسلم (١٩).

(٤) الطبري (٥/ ٢٠).

(٥) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٢٨٥٣) والضياء في «المختارة» (١٠/ ١١٣، ١١٤، ١١٥) وابن المنذر.

وكان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين، قال لهم النبي ﷺ: «**لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم**»[(١)]؛ فنزلت الآية مبيحة للصدقة عليهم.

فيكون المعنى: ما دمتم تقصدون وجه الله وصلة الرحم، فتصدقوا عليهم.

وقال العلماء: لو أنفقتَ على شر خلق الله؛ لكان لك ثواب نفقتك، والمراد: صدقة التطوع.

فالهُدَى في الآية بمعنى: خَلْق الإيمان في قلب العبد، وهذا من الله سبحانه فلست أيها الرسول مسؤولًا عن هداية الكافرين، ولكن الله يُوفِّق للهداية مَن عَلِمَ منه قبولها والاستعداد لها.

وأما الهداية بمعنى الدلالة والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي وظيفة الأنبياء والرسل، والدعاة والمخلصين ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وما تبذلوا من مال يعود نفعُه عليكم، والمؤمن يبتغي مرضاة ربه بالنفقة، وهو سبحانه يثيب عليها ولا ينقصكم شيئًا جزاء أعمالكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وقد ورد الحض على بذل المال بلفظ الإنفاق في الآية ثلاث مرات؛ لمزيد من الاهتمام به، وقد أثبتت الآية صفة الوجه لله تعالى بما يليق بجلاله.

والحاصل: أن المتصدِّق إذا تصدق ابتغاء وجه الله تعالى؛ فأجره على الله، ولا عليه إن وقعت في يد بَرٍّ أو فاجر.

في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: «**أن رجلًا تصدق بصدقة فوقعت في يد زانية، ثم تصدق بصدقة ثانية فوقعت في يد سارق، ثم تصدق بالثالثة فوقعت في يد غَني، فتعجب من ذلك والناس يتحدثون، فأوحى الله تعالى إليه: أما صدقتك فقد قُبلت، فلعل الزانية تستعف، ولعل السارق يستعف، ولعل الغني يعتبر**»[(٢)]

ومما يذكر في مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله تعالى ذكر أصناف الناس في الصدقة؛ فذكر أن:

١- منهم المراؤون غير المؤمنين.

---

(١) ابن أبي شيبة (٣/ ١٧٧) عن سعيد بن جبير.

(٢) يُنظَر: مسلم برقم (١٠٢٢) والبخاري برقم (١٤٢١).

٢- ومنهم مَن يُبطل صدقته بالمن والأذى.

٣- ومنهم مَن يتصدق بالرديء.

٤- ومنهم من يخوفه الشيطان من الفقر، ويأمره بالبخل.

ووجود هذه الأصناف في الأمة يشق على النبي ﷺ، فعقَّب الله على ذلك بما يُسكِّن نفسه ويهون الأمر عليه، بأن خَلْق الهُدَى في قلوب الناس يأتي من الله وحده، ولكن عليك البلاغ والنصح والإرشاد.

وفي هذا دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على غيره ولو لم يهتد، ونفع الصدقة يعود على المتصدق في كل حال، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ ويوم القيامة تستوفون أجوركم ولا تنقصون شيئا من أعمالكم، كما لا يزاد في سيئاتكم ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره كاملًا غير منقوص ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ولا مثقال ذرة.

سِتَّةُ أَوْصَافٍ لِلْفُقَرَاءِ المُتَعَفِّفِينَ

٢٧٣- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ[1] ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

وتكون الصدقة سرًّا لمن لم يسأل الناس، ولمن يتظاهر بالغنى، وهو ليس من أهل الغنى، ممن وصفهم الله في كتابه بستة أوصاف، وصف الله بها أهل الصُّفَّة، وقد نزلت هذه الآية فيهم، وكان النبي ﷺ يبعث بالصدقات إليهم، وهم فقراء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة، وحصروا أنفسهم على الطاعة وقصروها عليها، وعلى الغزو في سبيل الله، فلا يستطيعون تجارة ولا عملًا.

وصُفَّةُ المسجد النبوي مكان معروف بُنِيَ لضعفاء المسلمين، وهو مميز بارتفاع قليل خلف قبر المصطفى ﷺ كانوا يجلسون فيه:

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح سين (يحسبهم) على الأصل، وهي لغة تميم، وقرأ الباقون بالكسر، وهي لغة أهل الحجاز.

١- في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«الْحَقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي قال: وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتتْهُ هدية أرسل إليهم وأصاب منها»**(١).

٢- وعن فَضالَة بنِ عُبيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس خَرَّ رجال من قامتهم في صلاتهم، لما بهم من الخَصَاصة، وهم أصحاب الصُّفَّة حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين(٢).

وقد وصف الله تعالى **أهل الصُّفَّة** وأمثالهم إلى قيام الساعة **بستة أوصاف** وهي:

أولًا: أنهم فقراء يحتاجون إلى العون والمساعدة في ضرورات الحياة، فالصدقات إنما هي ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾.

ثانيًا: وأهل الصُّفَّة كانوا قد حصروا أنفسهم على الطاعة والجهاد في سبيل الله، فهم ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، مستعدون للجهاد، محبوسون له.

ثالثًا: أنهم لا يستطيعون السعي في الأرض للتكسب، والتجارة، أو الزراعة، أو الصناعة لأسباب خارجة عن إرادتهم، فهم عاجزون عن الأسفار لطلب الرزق ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والضرب هو السعي، أي أنهم لا يستطيعون السعي على المعاش؛ لما بهم من مرض، أو شيخوخة، أو عدو يحاصرهم، أو عدم وجود وسيلة للعمل، ونحو ذلك.

رابعًا: أن نفوسهم عالية، فهم مع حاجتهم متعففون عن السؤال لا يمدون أيديهم لأحد، ومن لا يعرف حالهم يظنهم أغنياء، لحسن مظهرهم، وعدم تبذلهم، وتعرضهم للسؤال ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، فهم صابرون متعففون.

خامسًا: أن آثار الفقر، وشدة الحاجة، وقلة اليد، وأثر الجهد، مع التخشع والخضوع تبْدُو في وجوههم، يعرفها من يتفرس حالهم ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، بالعلامة التي ذكرها

---

(١) البخاري (٦٤٥٢) ويُنظَر: تحفة الأشراف (١٤٣٤٤)، من حديث طويل.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٩) (٢/ ١٧) والحديث عند أحمد (٢٣٩٣٨) بإسناد صحيح، والبزار في مسنده (٣٧٥٠) وابن حبان (٧٢٤) والبيهقي في الشعب (١٠٣١٦، ١٠٤٤١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٠).

الله في وصفهم.

سادسًا: أنهم لا يسألون الناس شيئًا مع عوَزهم وشدة حالتهم، فهم لا يسألون مطلقًا فضلًا عن الإلحاح في المسألة، ولو كانوا يسألون لَظَنَّ من يجهل حالهم أنهم أغنياء، فهم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾ أي: إلحاحًا، والمراد أنهم لا يسألون أصلًا، والسؤال يجوز عند الضرورة، ولا يصح لمن عنده ما يُغذِّيه ويُعشيه أن يسأل الناس شيئًا للحديث عن سهل بن الحنظلية أن رسول الله ﷺ قال: «**من سأل شيئًا وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم**» قالوا: يا رسول الله وما يغنيه، قال: «**ما يُغدِّيه أويعشيه**»[1].

والإلحاف: هو الإلحاح، والمعنى لا يسألون الناس إلحافا ولا غير إلحاف لا ملحين في السؤال و لا غير ملحِّين.

وسئل رسول الله ﷺ عن المسكين فقال: «**الذي لا يجد غنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدَق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا**»[2].

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة فقال: «**ألا تبايعون رسول الله**»، فقلنا: علام نبايعك؟ قال: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا، ولا تسألوا الناس**»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه[3].

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وهم أهل الصُّفَّة وكانوا نحو أربع مئة رجل، ليس لهم سكن ولا زوجات، وهم من المهاجرين الذين أُخرجوا من مكة، وتركوا أموالهم وأولادهم، وأقاموا في صُفَّة المسجد، يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار، وحبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وجلسوا تحت سقف المسجد النبوي، ومنعوا أنفسهم من العمل وأوقفوها على طاعة الله والجهاد في سبيله، وليس في إمكانهم السعْي في طلب العيش، والسبب في ذلك هو الانقطاع للجهاد والغزو مع رسول الله ﷺ، وكانت الأرض كلها كفرًا وحربًا عليهم، لا يستطيع أحدهم أن يبحث عن رزقه فكان لا يتوجه جهة إلا والعدو في مواجهته، فحصرهم المشركون في المدينة، وحبسوا أنفسهم على الجهاد مع

(١) «المسند» (١٧٦٢٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأبو داود (١٦٢٩) وابن خزيمة (٢٣٩١) وابن حبان (٥٤٥، ٣٣٩٤) و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٥٣٩).

(٣) مسلم (١٠٤٣) والنسائي (٤٥٩) والترمذي.

رسول الله وإذا نظرتَ إليهم تظنهم أثرياء لتعففهم وعدم تبذلهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ والقناعة، وهم لا يسألون الناس أصلًا من كان عنده منهم الغداء، فلا يسأل العشاء.

فاجعلوا صدقاتكم لمثل هؤلاء من المجاهدين في سبيل الله، المرابطين على ثغور الإسلام؛ فإنَّ شُغْلَهم بالجهاد يمنعهم من السفر وطلب الرزق، وآثار الحاجة واضحة على وجوههم، وهم أهل نفس أبية وهمة عالية لا يسألون إلا عند الضرورة، وإذا سألوا لم يُلِحُّوا، والله تعالى لا تخفى عليه النفقة التي تبذلونها لهم وسيجازيكم عليها أوفى الجزاء ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

وأمثال هؤلاء هم أولى الناس بالصدقة، أما النفقة من حيث هي، فتكون على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر.

وهذه جملة من الأحاديث في ذم السؤال:

١- والنبي ﷺ قال فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وما في وجهه مزعة لحم**»[١] أي: ليس في وجهه لحم قط.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليس الغنى عن كثرة العرَض إنما الغنى غنى النفس**»[٢].

٣- وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليس المسكين بالطَّواف، الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان... ولكن المسكين الذي لا يجد غنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا**»[٣].

٤- وفي الحديث عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أُوقية، فقد ألحف»، فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أُوقية، فرجعت ولم أسأله**[١].

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أعوزنا مرة، فقيل لي: لو أتيتَ رسول الله ﷺ فسألته، فانطلقتُ إليه معْنقًا، فكان أول ما واجهني به: **«من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن سألنا لم ندخر عنه شيئًا نجده»** قال: فرجعت إلى نفسي فقلت: ألا أستعف فيعفني الله! فرجعت، فما سألت رسول الله ﷺ شيئًا بعد ذلك من أمر حاجة، حتى مالتْ علينا الدنيا فغرقتْنا إلا من عصم الله[٢].

٦- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل الناس تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا فلْيستقل أو ليستكثر»**[٣].

والله تعالى يكره لنا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

٧- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا -أو كدوحًا- في وجهه»**[٤].

٨- وعن خالد بن عَدِي الجهني ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من بلغه عن أخيه معروف من غير مسألة ولا إشراف نفس فلْيقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»**[٥].

---

(١) «المسند» (٣/ ٩)، (٤/ ١٣٨) برقم (١١٠٦٠) بإسناد قوي، وابن حبان (٣٣٩٠) وأبو داود (١٦٢٨) والنسائي (٢/ ٩٨) برقم (٢٥٧٠) وفي «الكبرى» (٢٣٦٤) وابن أبي حاتم (٢٨٧٦).

(٢) رواه أحمد في «المسند» برقم (١٠٩٨٩، ١١٤٠٠) مختصرا، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه الطيالسي (٢١٦١) وابن حبان (٣٣٩٨) بإسناد حسن، والطبري (٦٢٢٨).

(٣) مسلم (١٠٤١) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٨) وابن ماجه (١٨٣٨).

(٤) رواه الترمذي برقم (٦٥٠) والنسائي (٥/ ٩٧) وفي الكبرى (٢٣٨٤) وابن ماجه برقم (١٨٤٠) وهو في «المسند» (١/ ٣٨٨) برقم (٣٦٧٥) بنحوه، وإسناده حسن، وأبو داود (١٦٢٦).

(٥) «المسند» (١٧٩٣٦) وأبو يعلى (٩٢٥) وابن حبان (٥١٠٨، ٣٤٠٤) والطبراني في «الكبير» (٤١٢٤) والحاكم (٢/ ٦٢) قال محققو المسند: إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابية لم يُرْوَ عنها في الكتب الستة.

٩- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من أتاه الله شيئًا من هذا المال من غير أن يسأله، فليقبله، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»**[(١)].

وقد حرَّم الإسلام السؤال لغير ضرورة، وحث على العمل وطلب الرزق.

١٠- في حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع»**[(٢)].

والفقر المدقع: هو الفقر الشديد، وصاحب الغرم هو: الذي تحمَّل مالًا بسبب الإصلاح بين الناس، أو لحفظ مصلحة عامة، أو دفع مظلمة.

وصاحب الدم: هو الذي طُلبتْ منه دية المقتول، عنه أو عن قريب له.

١١- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سوي»**[(٣)] وهو القوي القادر على العمل.

١٢- وجاء رجلان إلى النبي ﷺ يسألانه الصدقة فقلَّب فيهما البصر، ورآهما جلْدين، فقال: **«إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»**[(٤)].

١٣- وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به الناس خير له من أن يسأل رجلًا أعطاه أو منعه»**[(٥)].

---

(١) «المسند» (٧٩٢١، ٩٢٩٤) قال محققوه: صحيح لغيره، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالملك.

(٢) من حديث طويل عن أنس بن مالك في «سنن أبي داود» برقم (١٦٤١) وأخرجه الترمذي والنسائي كما في «جامع الأصول» (٧٦٤١) وأخرجه أيضًا أحمد برقم (١٢١٣٤، ١٢٢٧٨) حسن لغيره والطيالسي (٢١٤٥). وابن ماجه وهو في «الترغيب والترهيب» (١١٩٩) وأخرجه الضياء في المختارة (٢٢٦١).

(٣) ابن ماجه (١٨٣٩) و«المسند» (٨٩٠٨) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه ابن ماجه (١٥٣٩) وأبو يعلى (٦٤٠١) وابن خزيمة (٢٣٨٧) وابن حبان (٣٢٩٠) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٨٩).

(٤) من حديث عبيد بن عديّ بن الخيار، في «سنن أبي داود» (١٦٣٣) و«المسند» (١٧٩٧٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٥٩٨) وعبدالرزاق (٧١٥٤) والطبراني في الأوسط (٢٧٤٣).

(٥) البخاري (١٤٧٠، ١٤٨٠، ٢٣٧٤) ومسلم (١٠٦، ١٠٤٢) و«المسند» (٩٨٦٨) وابن حبان (٣٣٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٢٣٧٦، ٢٣٨١).

أَجْرُ المُتَصَدِّقِ فِي السِّرِّ والعَلَنِ

٢٧٤-﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

ذكرت هذه الآية أن المنْفقين أموالهم في جميع الأحوال، طاعة لله وطلبًا لمرضاته، لا في المحرمات ولا في المكروهات أو الشهوات، هؤلاء أعدّ الله لهم أجرا عظيما يوم لقاء الله، فهم لا يخافون إذا خاف المقصِّرُون، ولا يحزنون إذا حزن المفرطون، ففازوا بالثواب الجزيل ونجوا من العقاب الوخيم.

أسباب النزول

١- روى ابن عباس رضي الله عنهما أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلًا، وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًّا، وبدرهم علانية فأنزل الله الآية[1].

٢- وفي رواية عنه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصُّفَّة، وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر، فأنزل الله الآية.

ويعني بنفقة الليل: نفقة (عليّ). ويعني بنفقة النهار: نفقة (عبد الرحمن بن عوف).

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية؛ لأنه سبحانه قدَّم نفقة الليل على نفقة النهار، وقدم نفقة السر على نفقة العلانية.

والآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات، ويعممون بها أصحاب الحاجات والفاقات.

٣- وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حين عاده مريضًا: «**إنك لن تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها رفعة حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك**»[2] أي: حتى ما أطعمت به امرأتك ووضعْته في فمها.

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٧/ ٨٨).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٥٣) وهو في البخاري برقم (٦٧٣٣) ومسلم (١/ ١٢١٩) برقم (١٦٢٨).

٤- وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة**»[(١)]

ومن أعظم النفقات أجرًا النفقة على من في البيت، لتربية الأولاد، وسد حاجة الزوجة، والأبوين وسائر الأرحام.

وفي الآية ثناء ومدح لمن ينفقون أموالهم بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى في جميع أحوالهم، في حالة العُسر واليُسر، والمنشط والمكره، وفي السر والعلن، والليل والنهار؛ فإن لهم جزاء أعمالهم يوم لقاء رب العالمين، ولا يخافون من مستقبلهم بعد فُراق الدنيا، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظها، هذا هو منهج الإسلام في سد حاجة الفقراء في عزة وكرامة، وتحقيق التكافل والتعاون بين المجتمع، وحل لمشكلة الفقر بين أبنائه، وتطهير مال الأغنياء، دون قهر ولا إكراه.

ومن شأن ذلك تحقيق المحبة بين الأغنياء والفقراء، وعلاج الحقد والحسد من الفقير على الغني.

وهذا من مقومات الاقتصاد الإسلامي، ومن شأنه القضاء على الرِّبا، وعلاج أسبابه بسد حاجة المعوزين، وغناء لهم عن ذل السؤال وتكفف الناس.

هذه تمام الأربع عشرة آية المتتابعة التي تتحدث عن النفقة، من قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى هنا.

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ: تَحْرِيمُ الرِّبَا

٢٧٥- ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

---

(١) أحمد (٣٦/١) برقم (١٧٠٨٢) ورواه البخاري برقم (٥٣٥١، ٤٠٠٦، ٥٥) و«الأدب المفرد» (٧٤٩) ومسلم برقم (١٠٠٢) وابن ماجه برقم (٢٢٧٦) والترمذي (١٩٦٥) وابن حبان (٤٢٣٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٣٣٧، ٩١٦١).

جاء الإسلام فوجد الرِّبا متفشيًا بين الناس في الجاهلية، ووجده منتشرًا بين القبائل العربية، بسبب المجاورة لليهود؛ لأن اليهود يتعاملون بالربا، ويأخذون الفوائد الباهظة على الأموال وعلى السلاح الذي كانوا يعطونه للمتقاتلين من الفرقاء العرب.

تدَّرج الإسلام في تحريم الرِّبا، كما تدرج في تحريم الخمر، والقرآن الذي نزل في مكة ليس فيه تشريع غالبًا، ولا حلال ولا حرام، وإنما فيه إشارات لبعض الأحكام تمهيدًا للتحريم القاطع، بشأن الرِّبا والخمر وغيرهما، والتحليل والتحريم نزل في المدينة على رسول الله ﷺ، **وقد مرَّ تحريم الرِّبا بثلاث مراحل:**

المرحلة الأولى: أول آية تشير إلى تحريم الرِّبا، وتبيِّن أن الله ﷻ يذُمُّه، ويبغضه، ويمحقه، ولا يباركه، نزلت في مكة، مع المقابلة بالصدقة، وأن الله تعالى يربي الصدقات ويزيدها ويُنمِّيها لعباده في الدنيا والآخرة، وهي قوله سبحانه في [سورة الروم: ٣٩] وهي سورة مكية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

فهذه الآية، فيها إشارة إلى أن الله سبحانه يبغض الرِّبا، وأنه لا ينمو ولا يبارك فيه، ولا يزداد في الحقيقة، بل هو وبال على آكله وموكله.

ويمدح الله ﷻ البديل عن الرِّبا، أو الوجه الصالح للأموال، وذلك بإنفاقه في سبيل الله؛ في الصدقة، والزكاة، وأنواع البرِّ.

ومن القرآن المدني الذي يمثل المرحلة الأولى في تحريم الرِّبا قول الله سبحانه في شأن اليهود: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

ففي هذه الآية إشارة أو بيان إلى أن الله ﷻ قد حرَّم الرِّبا على اليهود.

والرِّبا محرم في اليهودية، والنصرانية، والإسلام، وسائر الشرائع الإلهية.

والآية تشير إلى أن الرِّبا كما هو محرم عند اليهود، محرم عند المسلمين، وفيها إشارة تلميحية، وليست تصريحية إلى تحريم الرِّبا عند المسلمين؛ لأنها تذم الرِّبا عند اليهود،

الذين كانوا يأكلونه ويتعاملون به ولا يزالون.

المرحلة الثانية في تحريم الرِّبا: جاءت في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].
حيث حرَّم الله سبحانه نوعًا معينًا من الرِّبا تحريمًا جُزئيًا، هو أكل الرِّبا أضعافًا مضاعفة، أي: الرِّبا الفاحش الذي يبلغ قيمة رأس المال أضعافًا، ويزداد كلما حلَّ الأجل ازدادت القيمة، فيتضاعف رأس المال أضعافًا مضاعفة.

وهذا تحريمٌ للربا الفاحش، وهو تحريم جُزْئي مرْحَلِيٌّ، وليس تحريمًا كليًّا شاملًا.

كما أن الله سبحانه حرم شرب الخمر على المسلم إذا أراد الصلاة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]. فهذا تحريم جزئي ممهد للتحريم الشامل.

المرحلة الثالثة من تحريم الرِّبا: أما المرحلة الأخيرة التي حرم الله ﷻ فيها الرِّبا تحريمًا كاملًا قطعيًّا، فقد جاء في الآيات التي نحن بصددها، وهي آخر آيات نزلت في أحكام الرِّبا، وقد خُتمت بآخر آيات القرآن نزولًا فيما يتعلق بالربا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

وقد جاء الإسلام فوجد الرِّبا المتفشي المنتشر في الجاهلية على **نوعين**:

النوع الأول: ربا النسيئة: **وهو بيع الشيء بمثله مؤجّلاً.**

والنسيئة تعني: التأخير والتأجيل، وذلكم: أن الرجل يكون له على الآخر ديْن، بسبب بيع أو شراء، أو بسبب قرض اقترضه إلى أجل مسمى، بثمن أو بفائدة مشترطة ومعلومة مسبقًا، قدرها كذا، هذا هو ربا النسيئة، أي: التأخير في سداد الدَّيْن.

وكان الرجل إذا حَلَّ الأجل، أي: وقت دفع الدَّيْن، وليس عنده ما يدفعه، فإنه يطلب من الدائن أن يُنظِره إلى أو الأجل القادم ويزيده في الفائدة، فزيادة المدة مقابل الزيادة في المال.

وقد يَعْرِضُ الدائن على المدين زيادة المال مقابل زيادة المدة، وكل رِبًا في العصر الحاضر يدخل تحت هذا المعنى، فهو من ربا النسيئة الجاهلية، فلو أن المصارف أَعْطتِ

الشركات، أو المؤسسات، أو الأشخاص، أو أخذت منهم قدْرًا من المال إلى أجل مسمى نظير فائدة معينة، قدرها كذا في المئة معلومة ومشترطة مسبقًا، فإن هذا يدخل في ربا النسيئة الذي حرمه الكتاب والسُّنَّة.

والمصارف الإسلامية لوجود ما فيها من شبهة اختلاط الأموال، واتحاد مقدار الربح أو العائد غالبًا مع البنوك الأخرى، مع فارق يسير هو مجال التنافس بين البنوك، فإنها كلها تدور في فلك واحد متقارب جدًّا وفق الإطار العالمي وتعليمات البنك المركزي.

ومع ذلك فإن المصارف الإسلامية هي أفضل الموجود، وينبغي أن تُشجَّع حتى تستقل اقتصاديًا.

والبديل عن نظام الاقتصاد الغربي الذي نطبقه هو التعامل الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير المباني، ولا إلى تغيير المكاتب، ولا إلى تغيير الأشخاص، ولا إلى تغيير آلية العمل، إنما يكون بتغيير النية، فبدلًا من أن يعطي البنك فائدة معينة، فإنه يدخل مُضاربًا مع الشخص أو الشركة، أو المؤسسة، مضاربة شرعية إسلامية، يدفع أحدهما المال وعلى الطرف الآخر الخبرة والعمل، وله نظير ذلك قدر من الربح مشروط معين.

هذه المضاربة الشرعية ومثلها المرابحة والمشاركة، تكون بين المصارف والمؤسسات المالية، وبين الشركات والأشخاص، والربح فيها لا يخضع لنسبة معلومة؛ حتى لا يدخل في الرِّبا، وإنما يخضع للنتائج الحقيقية العملية في آخر المدة المتفَق عليها، حيث تكون الحسابات للربح أو الخسارة، قل أو كثُر.

وقد وَجدت بعض المصارف أن إضفاء كلمة الإسلام عليها، يجلب لها الثقة وكثرة المتعاملين فتوسعت في إيجادها حتى في بريطانيا وأمريكا وكندا وغيرها فضلًا عن بلاد الإسلام.

إن اليهود في القديم كانوا يتعاملون بالربا أفرادًا، وهم الآن يتعاملون به عالميًّا، في مصارف وبنوك العالم، حتى تؤول الأموال إليهم في النهاية، ثم تعود إلينا لتقصم ظهورنا وتسفك دماءنا، وتفرِّق بيننا، وتحتل أرضنا، وتفسد أخلاقنا، وتبدد طاقاتنا، وتقتل شبابنا بطرق خفية، وطرق مكشوفة، في صورة أسلحة، ومراقص، وملاهٍ، وملاعب، وأفلام، وصحف، ومخدِّرات، ومسكرات، ومواد غذائية ورياضية، وترفيهية، وغير ذلك من وسائل التدمير، والخراب، والفساد الذي يفعله بنا اليهود.

ولذلك فإن الفتوى لمن اضطر إلى وضع ماله لدى المصرف وليس عنده بديل، إلا أنْ يترك الفائدة للبنك فالأولى أن يأخذها ويتصرف فيها أويتخلص منها بوضعها في منفعة عامة للناس، ولا تعتبر من باب الصدقة ولا من باب الزكاة؛ لأن الله ﷻ طيب لا يقبل إلا طيبًا، وهذا ما عليه المجامع الفقهية، وديار الفتوى في العالم الإسلامي في الوقت المعاصر.

ولبعض أهل العلم اجتهادات مخالفة، ترى أن تَعَامُلَ البنوك ليس من الرِّبا وإن حُددت الفائدة.

النوع الثاني: هو ربا الفضل: وهو زيادة أحد العوضين في البيع مع المماثلة بينهما.

والفضل هو: الزيادة؛ وذلك كأن يبيع الإنسان نقدًا بنقد، ذهبًا بذهب، أو فضة بفضة، أو غير ذلك كالتمر بالتمر، أو البرِّ بالبُرِّ، ونحو ذلك مما هو متحد في النوعية والجنس مع شرط التماثل، والمساواة، والتقابض في المجلس.

ولا عِبرة باختلاف الجودة والرداءة، بأن يكون أحدهما أجود من الآخر، أو أقدم أوأحدث.

فيبيع الصنف بنظيره مع زيادة في أحد النظيرين بزيادة بعض الجرامات في الذهب، أو بعض النقود بالنقود، أو زيادة الكيل في أرز، أو بُرٍّ، أو شعير، أو نحو ذلك.

وقد بيَّن النبي ﷺ حكم ذلك، فذكر ستة أنواع في الحديث الصحيح المعروف: «**لا تبيعوا الذهب بالذهب، والفضة بالفضة**»(١)، وهذه إشارة إلى الأثمان التي تُقوَّم بها السلع، وهي الأموال، والأموال ليست سلعة للتجارة يباع فيها النقد بالنقد؛ لأن المال تُشْتَرى به السلع، ولا يباع بعضه ببعض، هذا هو الأصل في استعمال المال، فإذا ذهبتَ إلى الصائغ تستبدل منه حُليًا قديمًا بحليٍّ جديد، فعليك أن تبيع الحلي القديمة بيعًا مستقلًا، ثم تشتري غيره شراء مستقلًا، تقبض هذا وتدفع هذا، أو تعطي هذا وتأخذ هذا، أما أن يعطي القديم ويبادله بالجديد، ويأخذ الفرق، فهذا هو المنهي عنه في: «**لا تبيعوا الذهب بالذهب، والفضة بالفضة إلا مثلًا بمثل سواء بسواء**» ثم أشار النبي ﷺ في بقية الحديث إلى عناصر الأغذية الرئيسية من المأكولات: «**البُرّ بالبُرِّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والزبيب بالزبيب**» فالمأكولات تدخل تحت هذه الأنواع الأربعة.

---

(١) يُنظَر: حديث عبادة بن الصامت في «صحيح مسلم» (١٥٨٧) وأبي داود (٣٣٤٩) وابن ماجه (٢٢٥٤) والترمذي (١٢٤٠) و«المسند» (٢٢٦٨٣) وابن حبان (٥٠١٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٦١١١، ٦١١٢).

وقد وضع النبي ﷺ شرطين لبيع هذه الأشياء الستة وما عداها يأخذ حكمها:

الشرط الأول: أن يكون البيع ناجزًا، أي: في الحال، سلِّم واستلم، يدًا بيد.

والشرط الثاني: المماثلة في الكيل أو الوزن أو العدد، سواء بسواء، قال ﷺ: «**فإن اختلفت الأجناس**» يعني: ذهب بفضة، أو بر بشعير، أو تمر بزبيب، أو نحو ذلك: «**فبيعوا كيف شئتم يدًا بيد**»؛ إذ لا بأس من التفاضل مع اختلاف النوعية والجنس، هذا هو ربا الفضل، الذي حرَّمه الإسلام.

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ «**الذهب بالذهب وزنًا بوزن، مِثْلًا بمثل، والفضة بالفضة وزنًا بوزن، مِثْلًا بِمثْل، فمن زاد أو استزاد فقد أربى**»[(١)].

وفي لفظ آخر للحديث الذي سبق شرحه في صحيح مسلم من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُرُّ بالبُرِّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلًا بمثل، سواءً بسواء، يدًا بيد، فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**»[(٢)].

فنص النبي ﷺ على هذه الأصناف الستة، وهي: النقدان، وأربعة من المطعومات هي: البر والشعير والتمر والملح، وذهب عامة أهل العلم إلى أن الرِّبا يتعدى هذه الأصناف إلى غيرها مما هو في حكمها، واشترطوا لجواز البيع: التماثل والمساواة والتقابض في مجلس العقد، فقوله ﷺ: «**إلا يدًا بيد**» يحرم بيع النسيئة، وقوله: «**مثلًا بمثل**» يحرم بيع التفاضل عند اتفاق الجنس، ومما جاء في **أسباب تحريم الرِّبا**:

١- أنه يقتضي أخذ مال الآخرين بغير عوض.

٢- أنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة ونحوها.

٣- أنه يسبب انقطاع المعروف بين الناس كالقرض الحسن والصدقة والتكافل والبر.

---

(١) مسلم (١٥٨٨، ٨٤) وابن ماجه (٢٢٥٥) و«المسند» (٧٥٥٨) و«سنن النسائي الكبرى» (٦١١٧).

(٢) البخاري (٢١٧٧، ٢١٧٦) ومسلم (١٥٨٤، ٧٥- ٧٧) والترمذي (٢٤١) والمسند (١١٠٠٦) وابن حبان (٥٠١٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٦١١٢) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٦١٠١، ٦١٠٧) ومثله عن أبي سعيد الخدري.

٤- أن تحريم الرِّبا ثبت بالنص القاطع وإن خفي علينا وجه الحكمة.

والآية التي نحن بصددها، تصور حال المرابي في صورة بشعة قبيحة، هي: أنه عندما يقوم يوم القيامة يكون مُثقلًا مما أكله من الرِّبا، فيقوم فاقد الحس، كالذي يتخبطه الشيطان من مسه له، وهو تشبيه على الحقيقة، يكون علامة له في الموقف يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف]

أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال في معنى الآية: تلك علامة أهل الرِّبا يوم القيامة، بُعثوا وبهم خَبَلٌ من الشيطان.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يتعاملون به ويمتصون دماء الناس، وهذا إخبار عن سوء مآلهم،وأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: من قبورهم يوم القيامة حين البعث والنشور ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ المصروع من جنونه مخبولًا متخبطًا، وهو ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يتعثر ويقع في حيرة وسكر واضطراب، ولا يكاد يمشي سويًّا، وهذه علامة يعرفون بها في الموقف هتكًا لهم وفضيحة.

ويمكن أن يكون المعنى: إن عقولهم قد خَفَّتْ وآراءهم قد ضعُفت، وصاروا في هيئتهم وحركتهم كالمجانين.

والسبب في ذلك أنهم ساووا بين الرِّبا والبيع والشراء فاستحلوه ﴿ذَٰلِكَ﴾ التخبط والتعثر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فاعترضوا على تشريع الله سبحانه واستحلوا ما حرم الله، ولا يقول ذلك إلا جاهل أو متجاهل معاند.

قال جل شأنه في الرد عليهم: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ لما فيه من المنافع وشدة الحاجة ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لما فيه من أضرار وظلم وسوء عاقبة، فليس الأمر كما زعموا، بل الرِّبا حرام والبيع حلال ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وعظ وتذكير وترهيب وترغيب أي: فمن بلغَهُ نَهْيُ الله تعالى عن الرِّبا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن فعله وانزجر ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي له ما تقدم من معاملات ربوية سابقة، يغفرها الله له، إن امتثل أمر الله تعالى بعد ما علم الحلال من الحرام، فلا حرج عليه فيما فعله قبل ذلك، ويتوب الله عليه ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

في مجازاته على ما سبق وفيما هو آت ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى التعامل بالربا، والتعدي على حدود الله ولم تنفعه الموعظة ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والخلود في النار يكون للكفار، والإيمان يَعْصِمُ صاحبه من الخلود في النار؛ والمراد أن من يستحل الرِّبا فإنه يستحل محرمًا مجمعًا على تحريمه، يخلد صاحبه في النار إجماعًا؛ لأنه كُفْر بالإجماع، بخلاف من يقع في الحرام مع اعتقاده أنه محرم، فإنه يكون عاصيًا مرتكبًا لكبيرة من الكبائر، فإن مات على ذلك فهو إلى مشيئة الله يدخل في قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] واستحلال المحرم يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [النساء: ١٤] وكذلك من يقتل مؤمنًا متعمدًا يستحل قتله، فإنه ذنب كبير، ولكنه باستحلاله للقتل يدخل في دائرة الكفر، ولذلك استحق الخلود في نار جهنم، وهذا غير الذي يرتكب الذنب خطأ، أو يفعله ثم يتوب.

ومما ورد في تحريم الرِّبا من الأحاديث ما جاء:

١- في المسند وغيره عن كعب الأحبار أنه قال: لأن أزني ثلاثة وثلاثين زَنية أحبَّ إليَّ من أن آكل درهم ربا، يعلم الله أني أكلته ربًا[(١)].

٢- وأخرج النسائي عن أبي البُسر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من التردي والغرق والهدْم والحريق، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت عن سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديغًا**»[(٢)].

٣- في البخاري وغيره من حديث سمرة بن جندب ﷺ، في حديث المنام الطويل يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «**فأتينا على نهر**»، حسبتُ أنه كان يقول: «**أحمر مثل الدم، وإذا في**

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٩٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٥٣٤٨) والبيهقي (١١٦١) قال محققو المسند: إسناده صحيح، إلى كعب الأحبار، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٤٨) وقال الدار قطني (٣/ ١٦) هذا أصح من المرفوع.

(٢) «الانتصاف على الكشاف» لابن المغير (١/ ٣٢٠)، وأخرجه أحمد في المسند (١٥٥٢٣) بإسناد ضعيف لاضطرابه، فقد اختلف فيه علي عبد الله بن سعيد بن أبي هند، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (١٥٥٢) والطبراني في الكبير (٣٨١) والحاكم (١/ ٥٣١).

النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر، رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإن ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي بعد ذلك، الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه، فيلقمه حجرًا» ثم بيَّن في آخر الحديث أن هذا مثل آكل الرِّبا(١).

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الرِّبا»**، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: **«من لم يأكله منهم ناله غباره»**(٢).

وفي الحديث عن علي وابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ **«لعن الله آكل الرِّبا وموكله وشاهديه وكاتبه»**(٣).

٥- وفي خطبة حجة الوداع قال ﷺ: **«ألا وإن كل ربا موضوع، وأول ربا أضعه، ربا عمي العباس بن عبد المطلب»**(٤).

٦- وفي حديث عائشة ﷺ أن امرأة سألتْها: أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بِعْتُه عبدًا إلى العطاء بثمان مئة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريتُه قبل محل الأجل بست مئة، فقالت: بئسما شريت! وبئسما اشتريت! أبلغي زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب، قالت: فقلت: أرأيت إن تركت المئتين وأخذت الست مئة؟ قالت: نعم ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾(٥) وهذا دليل لمن حرم بيع العينة.

٧ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الرِّبا سبعون بابًا، أدناها مثلُ ما**

---

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ٧٠٩) و«صحيح البخاري» برقم (٧٠٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٤) برقم (١٠٤١٠) وإسناده ضعيف، لضعف عباد بن راشد لكنه متابع، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (٣/ ٦٢٦) برقم (١٣٣١) والنسائي (٧/ ٢٣٤) وابن ماجه (٢/ ٧٦٥) برقم (٢٢٧٨)، وأبو يعلى (٦٢٣٣) و«سنن البيهقي» (٥/ ٢٧٥).

(٣) مسلم (٣/ ١٢١٩) برقم (٢٥٦٤) من حديث علي وابن مسعود ﷺ.

(٤) من حديث طويل أخرجه أبو داود برقم (٣٣٣٤) والترمذي (٣٠٨٧) من رواية عمرو بن الأحوص، وفي المسند (٢٠٦٩٥) صحيح لغيره عن عم أبي حرّة، وابن ماجه (١٨٥١) والنسائي في الكبرى (٩١٦٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم عن العالية بنت أيفع، والمرأة السائلة تلقب: أم محبة، أو أم محنة، وهي مولاة زيد بن أرقم وقد ذكره ابن كثير في تفسير الآية عن عبد الله مسعود كما في «السنن» برقم (٢٢٧٥) وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٩٨) هذا بإسناد صحيح.

يقع الرجل على أمه، وأربى الرِّبا استطالة المرء في عِرْضِ أخيه»[١].

٨- والربا من السبع الموبقات التي جاء ذكرها في الصحيحين وغيرهما.

٩- ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

١٠- والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطَّلع عليه الناس.

١١- والمسلم يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

ولا ينبغي تهوين أمر الرِّبا على الناس، وقد عظَّمه وقبَّحه رب العالمين، وأعلَمَ مَنْ تعاطاه بحرب من الله ورسوله في الدنيا والآخرة.

ومعنى الآية: إن الذين يتعاملون بالربا -وهو المأكول بالمال؛ لأن المال لا يؤكل- لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع، وهو الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة، لأن الرِّبا قد أثقل بطنه، والسبب في ذلك أنه استحل ما حرَّمه الله، وقاس الرِّبا على البيع والشراء، فمن بلغه نهي الله ولم ينته فقد قامت عليه الحجة، واستحق العقوبة، وإن تاب ورجع إلى الله تعالى قبل التحريم فلا إثم عليه، وإن استمر على التوبة قَبِل الله توبته. قال تعالى:

٢٧٦-﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي يُزيله ويُذهبه، ولا يُبارك فيه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فيكون سببًا لوقوع الآفات ونزع البركة، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه، بل يكون زادًا له إلى النار ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ ينميها ويبارك في المال الذي خرجت منه، وينمي أجر فاعلها، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فالمرابى ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق، فجوزى بذهاب ماله ومحق بركته، أما المحسن المتصدق، فقد أحسن الله إليه مقابل إحسانه للناس؛ والله تعالى لا يحب من لا يسْلَم الناس من شره، ولا يؤدي حق الله عليه، لأنه قد فعلَ ما هو سبب لإثمه وعقوبته:

---

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٤٤) والتعليق الرغيب (٣/ ٥٠) وهو في سنن ابن ماجه (٢٢٧٤). والبيهقي (٥٥٢٠، ٥٥٢٢).

١- عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الرِّبا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى أقل**»[١]

فالربا يقلّ وإن كثر في الظاهر، والصدقة تزيد المال ولا تنقصه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] وقوله: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]

وعاقبة مال المرابي إلى زوال، وتسقط عدالته وأمانته، والفقراء يبغضونه ويلعنونه، وأطماع الناس تتوجه إليه بسبب غناه وشهرته، وكل ظالم يبلى بأظلم، وهو في الآخرة غير مقبول، وبعكس هذا المتصدِّق بماله.

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من تصدَّق بعدْلِ تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله يقبلها ويربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل**»[٢].

٣- وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عزَّ و جلَّ يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد**»[٣].

٤- وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة أيضًا: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»[٤].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ كفور القلب، أثيم في قوله وفعله.

---

(١) الطبري (٦/ ١٥) وهو حديث مرفوع في «المسند» (١/ ٣٩٥) برقم (٣٧٥٤، ٤٠٢٦) وابن ماجه (٢٢٧٩) والحاكم (٢/ ٣٧) والبيهقي في «الشعب» (٥٥١١) قال محققو المسند: حديث صحيح.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠) و«المسند» (٧٦٣٤، ٨٣٨١) وابن حبان (٢٧٠، ٣٣١٩) ومسلم (١٠١٤) والترمذي(٦٦١، ٦٦٢) والنسائي في «الكبرى» (٢٣١٦، ٧٦٨٧).

(٣) الحديث رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٧١) برقم (٨٣٨١، ٩٤٢٣) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (٣/ ١١١) وابن خزيمة (٢٤٢٧) والشافعي في «شفاء العي» (٦٠٦) وقال الترمذي في سننه برقم (٦٦٢): حديث حسن صحيح.

(٤) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٨٩) وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٩٩): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات و«المسند» (٩٠٠٨)، حديث صحيح وإسناد حسن كما قال محققوه.

الصَّدَقَةُ هِيَ الوَجْهُ المُقَابِلُ للرِّبَا

٢٧٧-﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ(١) عَلَيْهِمْ(٢) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه: الوجه المقابل للربا وهو عدم كفر النعمة، ومقتضاه الإيمان بالله واليوم الآخر، وأداء الصلاة، وإخراج الزكاة، فإن المتصفين بهذه الصفات الأربع لهم ثواب عظيم، ورزق واسع، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس.

التَّحْرِيمُ القَطْعِيُّ للرِّبَا؛ والوَعِيدُ عَلَيْهِ

٢٧٨-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

ثم يأتي النهي القاطع عن التعامل بالربا، ويقدم لذلك بالأمر بتقوى الله عزوجل، بامتثال أمره واجتناب نهيه، فيامن آمنتم بالله والرسول اتركوا التعامل بالربا إن كنتم مؤمنين ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: اتركوا الرِّبا كله، قليله وكثيره، الفاحش منه وغير الفاحش، وخافوا عقاب الله إن كنتم ممتثلين لأوامره ونواهيه وتشريعاته.

قيل: إن هذه الآية نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة، كانا شريكين في الجاهلية، أسلفا في الرِّبا إلى أناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال كثيرة من الرِّبا فأنزل الله الآية. وكانت ثقيف قد صالحت النبي ﷺ على ترك ما لهم وما عليهم من الرِّبا حين دخلوا في الإسلام.

وفي حَجة الوداع كان من خطبة النبي ﷺ: **«ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب»**(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الرِّبا وموكله

---

(١) فتح الفاء من (ولا خوف) يعقوب وضمها منونة الباقون.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٣) قال الترمذي في سننه برقم (٣٠٨٧): حديث حسن صحيح، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٣٣٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢٨٥٢) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٤١٠٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٨٥٢).

وشاهديْه وكاتبه[١].

وعن أبي المنهال قال: سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف فقال: **«ما كان منه يدًا بيدٍ فلا بأس، وما كان منه نسيئة فلا»**[٢]. قال تعالى:

٢٧٩- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ[٣] بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

هذا تهديد ووعيد شديد لا يوجد مثله في القرآن الكريم ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه حرب يَشُنُّها الله عزَّ و جلَّ على الفرد والمجتمع الذي يُصِرُّ على التعامل بالربا ولم يتب إلى الله ﷻ منه، ولم ينزجر بموعظة الله، ولم يقبل نصيحته، لأنه في هذه الحالة محارب لله ورسوله، مضاد له في أحكامه، فاستحق إعلان الحرب عليه.

وهذه الحرب لها صور متعددة: جوع وقلق وخوف، وهزائم وتسلط الأعداء، وانهيار الاقتصاد، والذل والمهانة، وحرمان السعادة وعدم الطمأنينة، والجدب والقحط، والمقت وغضب الله تعالى، وغير ذلك من أنواع الحروب التي نلمسها في وقتنا المعاصر.

ولما نزلت هذه الآية كان هناك نوع من الرِّبا بين بني ثقيف وبني المغيرة، تنازعوا في أموالهم وأخذوا يتنازلون عن فوائدهم التي يتعاطوْنها واكتفوا برؤوس الأموال فحسب، وقالوا: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله، من الذي في استطاعته أن يحارب الله ورسوله؟!

إن القوم بمجرد نزول هذه الآية تابوا ورجعوا إلى الله ﷻ وأنابوا إليه، وتركوا لغيرهم ما يزيد على رؤوس أموالهم من غير ظلم لأنفسهم ولا لغيرهم، فيا من آمنتم بالله واتبعتم رسوله خافوا الله، ولا تطلبوا ما زاد على رؤوس أموالكم التي كانت قبل الرِّبا، إن كنتم مؤمنين حقًّا بالله ورسوله قولًا وعملًا.

---

(١) مسلم (١٥٩٧) وأبو داود (٣٣٣٣) والترمذي (١٢٠٦) والنسائي (٥١١٧) وابن حبان (٥٠٢٥) والبيهقي (٥/ ٢٧٥).

(٢) البخاري (٢٠٦٠، ٢٠٦١) ومسلم (١٥٨٩) والنسائي (٤٥٨٩، ٤٥٩٠) والبيهقي (٥/ ٢٨٠).

(٣) قرأ شعبة وحمزة (فَآذِنوا) بهمزة ممدودة من آذنه بكذا، أي: أعلمه به وقرأ الباقون (فأْذَنُوا) بسكون الهمزة فعل أمر من أذن بالشيء إذا أعلم به.

إِنْظَارُ المُعْسِرِ

٢٨٠- ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ[١] فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ[٢] وَأَن تَصَدَّقُوا[٣] خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه حكم المعسر الذي لا يجد ما يدفع به ديْنه، فيطلب جل شأنه من الدائن أحد أمرين: إما أن ينتظر المدين حتى ييسر الله عليه، وإما أن يضع عنه دينه، صدقة لا زكاة؛ لأن الزكاة لا تكون إبراء للذمة، إنما هي إعطاء وتملك للفقير، فإما أن يتصدق عليه بترك الديْن كله أو بعضه، وإما أن يمهله حتى يُيسر الله عليه.

جاء في أسباب النزول: أن بني عمرو بن عُمير قالوا لبني المغيرة: هاتوا رؤوس أموالنا، ولكم الرِّبا ندعه لكم، فقالت بنو المغيرة: نحن اليوم أهل عسرة، فأخِّرونا إلى أن تُدرك الثمرة، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله الآية[٤].

إنظار الموسر: والإسلام لا يكتفي بإنظار المعسر، بل إن من أنظر موسرًا، أو تجاوز عنه له أجر عظيم عند الله تعالى، ومن ذلك:

ما أخرجه البخاري بسنده عن حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**تلقت الملائكةُ روحَ رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنظِروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر، قال: فتجاوزوا عنه**»[٥].

فكان السبب في استقبال الملائكة بالبشرى والطمأنينة أنه كان يُنظِر الموسر.

---

(١) قرأ أبو جعفر (عُسُرَةٍ) بضم السين وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (عُسْرَةٍ) بسكون السين وهي لغة باقي العرب.

(٢) قرأ نافع (مَيْسُرَةٍ) بضم السين وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (مَيْسَرَةٍ) بفتح السين وهي لغة باقي العرب.

(٣) قرأ عاصم (وأن تَصَدَّقُوا) بتخفيف الصاد على حذف إحدى التائين وقرأ الباقون (وأن تَصَّدَّقُوا) بالتشديد على الإدغام.

(٤) أسباب النزول للنيسابوري ص.٧٨

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٧).

ومما جاء في عِظَمِ أجر إنظار المُعْسِر:

١- عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أنظر معسرًا فله بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظَرهُ بعد ذلك فله بكل يوم مثلَه صدقة»**(١).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن رجلًا لم يعمل خيرًا قَطُّ، وكان يداين الناس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيتَ مُعْسِرًا فتجاوز عنه، لعلَّ الله يتجاوز عنَّا، فلقي الله فتجاوز عنه»**(٢).

٣- وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«حُوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، وكان يأمر غِلْمَانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»**(٣).

٤- وفي الحديث عن أبي اليَسَر أن رسول الله ﷺ قال: **«من أنظر معسرًا، أو وَضَعَ عنه أظله الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله»**(٤).

٥- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي قتادة **«من سَرَّه أن ينجِّيه الله من كُرَبِ يوم القيامة، فليُنَفِّس عن مُعْسِرٍ أو يضع عنه»**(٥).

٦- وفي الحديث عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من نَفَّس عن**

---

(١) «السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٨٦) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٨٥٣٩) و«المسند» (٥/ ٣٦٠) برقم (٢٢٩٧) وابن ماجه (٢٤١٨) و«المستدرك» (٢/ ٩٢) و«مجمع الزوائد» (٤/ ١٣٥) وقد صححه عن رجال أحمد، وهو في البيهقي (١١٢٦١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٦٢).

(٢) البخاري (٢٠٧٨، ٣٤٨٠) ومسلم (١٥٦٢) والنسائي (٤٧٠٨، ٤٧٠٩).

(٣) مسلم (١٥٦١) والترمذي (١٣٠٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٧) من حديث أبي البسر برقم (١٥٥٢٠، ١٥٥٢١) ومسلم (٣٠٠٦) وابن ماجه (٢٤١٩).

(٥) مسلم (٤/ ٢٧٠٤) برقم (١٥٦٣) واللفظ له وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٥٩٢) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٤/ ١٣٤).

غريمه، أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة»[١].

٧- وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ: **«من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»**[٢].

وعن ابن سيرين أن رجلًا خاصم رجلًا عند شريح، فقضى عليه وأمر بحبسه، فقال رجل: إنه معسر، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾. فقال شريح: إنما ذلك في الرِّبا، وإن الله قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا الإنظار أو التصدق يختص بالربا ونحوه كالديْن، أما الأمانات ونحوها، فإن الله تعالى يأمر بردها، ووجوب القيام بالوكالة، وليس فيها إمهال ولا تصدّق ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

ومعسر الرِّبا يدخل في الآية دخولًا أوليًا؛ لأن الآية جاءت في سياق الحديث عنه.

والحكم عام يتناول كل معسر عليه حق في دَيْن حلال أو غيره.

قال الضحاك: وكذلك كل دَيْن على مسلم، فلا يحل لمسلم له دَيْن على أخيه يعلم منه عسرة أن يسجنه، ولا يطلبه حتى ييسر الله عليه[٣].

آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ الأَمْرُ بِالتَّقْوَى

٢٨١- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ[٤] فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

ثم ختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خافوا يومًا تقفون فيه

(١) أخرجه أحمد عن أبي قتادة (٥/٣٠٨) برقم (٢٢٥٥٩، ٢٢٦٢٣) وأخرجه الدارمي (٢/٢٦١) برقم (٢٥٨٩) والبغوي في شرح السنة (٢١٤٣) وابن أبي شيبة (٧/١٢) وأخرجه مسلم (١٥٦٣) بمعناه، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٥٩) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٢٣٨٧).

(٣) ابن جرير رقم (٦٢٩٥).

(٤) قرأ أبو عمرو ويعقوب (تَرجعون) بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ غيرهما بضم التاء وفتح الجيم.

بين يدي الله سبحانه، واحذروا يومًا تحاسبون فيه على النقير والقطمير، حيث تُعرَضون على رب العالمين، وتُجازَوْن فيه على الخير والشر، فاجتنبوا ما حرَّم الله من المكاسب كالربا، وأتِّموا أساسيات الإسلام من صلاة وزكاة قبل أن تُحاسَبوا على ما قدمت أيديكم.

وفي الآية وعد بالخير، ووعيد على فعل الشر، وكل من عَلِم أنه راجع إلى الله عز وجل، ومحاسب على جميع ماقدمت يداه، لابدّ له أن يستعدّ لهذا اليوم، ويتزوّد بصالح العمل.

قال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية ،فقال جبريل للنبي ﷺ: ضعها على رأس ثمانين ومائتين - أي: بعد ٢٨٠ آية- من سورة البقرة.

وفي الرواية الأخرى لابن عباس عن عكرمة قال: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(١).

وعن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وعاش النبي بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول(٢).

فاحذروا - أيها المسلمون - أن تلْقَوا ربكم بسيئات تهلككم، أو موبقات لا قِبَلِ لكم بها، أو بأعمال وأقوال تخزيكم وتفضحكم، فهو يوم العدل الذي يُكْرِمُ فيه المحسن، ويهان فيه المسيء، وقد أعذر من أنذر، ووعظ فأبلغ.

ولم ينزل بعدَ هذه الآية قرآن، وإنما مرض النبي ﷺ، وبقي تسع ليالٍ، ثم مات بعدها، وقيل: عاش سبعًا.

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ: أَحْكَامُ الدَّيْنِ

كِتَابَةُ الدَّيْنِ

٢٨٢-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ

(١) إسناده صحيح، «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٤) و«الدر المنثور» (١/ ٣٦٩) والطبري (٦٣١٢) وما بعده وأبو عبيد ص٢٢٤ والنسائي في «الكبرى» (١١٠٥٧) وابن المنذر (٦٤) والطبراني (١٢٠٤٠، ١٢٣٥٧) والبيهقي (٧/ ١٣٧) وأورد ابن كثير ستة آثار أخرى في هذه الآية عن آخر ما نزل من القرآن.

(٢) ابن أبي حاتم (٢٩٤٥، ٢٩٤٦).

كَاتِبٌۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ(١) إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ(٢) إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ(٣) تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ(٤) كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

من نحو ثلاثة قرون تقريبًا وضع علماء الاقتصاد والتجارة، مبادئ التشريع المدني والتجاري بما يكفل الحقوق والمعاملات التجارية، وقد سبق الإسلام إلى هذا التشريع قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، فوضع هذا التشريع المدني التجاري، وبيَّن أحكام الدَّيْن، والقرض الحسن، وأحكام التجارة، وأسس الاقتصاد، وكتابة الحقوق وتوثيقها والإشهاد عليها، وجاء هذا في أطول آية في كتاب الله عزَّ و جلَّ، تسمى آية المداينة من سورة البقرة، استغرقت صفحة كاملة من كتاب الله عزَّ و جلَّ في بعض طبعات المصحف، وجاءت هذه الآية في إطار وضع النظام الاقتصادي للمجتمع المسلم؛ حيث بدأت السورة فذكرت إحدى وعشرين آية، قبيل هذه الآية، تُبيِّن فيها التعاون والتكافل بين المسلمين،

---

(١) قرأ حمزة (إنْ تَضِلَّ) بكسر همزة إن، وقرأ الباقون (أنْ تَضلِ) بفتح الهمزة.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (فَتُذْكِرَ) بسكون الذال وتخفيف الكاف ونصب الراء، عطفًا على (تضل) وقرأ حمزة (فَتُذَكِّرُ)، بفتح الذال وتشديد الكاف ورفع الراء، فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب ولا جازم، وقرأ الباقون (فَتُذَكِّرَ) بفتح الذال وتشديد الكاف، ونصب الراء، عطفًا على (تضل).

(٣) قرأ عاصم (إلا أن تكون تجارةً حاضرةً) بالنصب في (تجارةً حاضرةً) على أن تجارةً خبر تكون وحاضرة صفة، واسم تكون مضمر، أي: إلا أن تكون المعاملةُ تجارةً حاضرةً، وقرأ الباقون (تجارةٌ حَاضِرَةٌ) بالرفع فيهما على أن تكون كان تامةً وتجارةٌ فاعل، وحاضرةٌ صفة لها.

(٤) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بسكون الراء مخففة من (ولايضارْ) على أن (لا) ناهية والفعل مجزوم بها؛ وسكنت الراء إجراء للوصل مجرى الوقف، وقرأ الباقون بفتح الراء وتشديدها، وهو الوجه الثاني لأبي جعفر، وقد تحركت الراء الثانية للتخلص من التقاء الساكنين.

كتابة الدين مهما كان قليلًا:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾

أي: ولا ينبغي للناس أن يمَلُّوا أو يتضجَّرُوا من كتابة هذا الحق أو الدَّيْن، مهما قلَّت قيمته أو كثُرت من الدَّيْن، أو المعاملات التجارية، صغيرها أو كبيرها، إلى أجل محدود، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا فوثقُوه بالكتابة والإشهاد.

توثيق العقود فيه ثلاث فوائد:

١- عدالة الحكم عند الله ٢- وهو أثبت للشهادة. ٣- وأنفى للشك والريبة.
يقول سبحانه في شأن الشاهد والكاتب والمملي: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أن الشهادة مع الكتابة تكون أثبت من الشهادة بالذاكرة، وأثبت من الشهادة الشفهية، فهذا توثيق وأنفى للريبة ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾؛ حتى لا يدعي الدائن أو المدين بزيادة أو نقص، أو يشك أحدهما في الآخر، وهذا محمول على الندب والإرشاد لا على الوجوب.

ودليل الإشهاد من السُّنَّة: قصة الأعرابي الذي باع فرسًا للنبي ﷺ ثم أنكر الأعرابي أنه باعها، لَمَّا ساومه الناس بأكثر مما اشترى به النبي ﷺ وطلب شاهدًا على البيع، فشهد خزيمة بن ثابت الأنصاري على البيع، ولما سأله النبي ﷺ: «**بم تشهد؟**» قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين[(١)].

قال قتادة: عَلِمَ الله سبحانه أنه ستكون حقوق، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة، فخذوا بثقة الله؛ فإنه أطوع لربكم، وأدرك لأموالكم، ولعمري لئن كان تقيًّا لا يزيده الكتاب إلا خيرًا وإن كان فاجرًا فبالأحرى أن يؤدي إذا علم أن عليه شهودًا[(٢)].

ومن يأخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله، ومن الناس من لا يُوفِّي دينه، ولو كان مكتوبًا موثقًا، وشهد عليه أمة من الناس، ومنهم

(١) يُنظَر: النص في «المسند» (٢١٨٨٣) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير عُمارة فمن رجال السنن وهو ثقة، وهو في أبي داود (٤/ ٣١) (٣٦٠٧) والنسائي (٧/ ٣٠١) والحاكم (٢/ ١٧) والطبراني في الكبير (٣٧٣٠).
(٢) الأثر (٦٣٦٢) من «تفسير الطبري».

من يُوَفِّي دينه، ولو لم يكن مكتوبًا، ولم يشهد عليه أحد من الناس، حتى ولو مات صاحب الحق، أو ضل طريقه فإنه يُبَرِّئ ذمته بالبحث عنه أو عن ورثته، فإن فَقد الأمل تصدق عليه به.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في سبعة مواضع بطرق صحيحة عن أبي هريرة ما معناه: أن رجلًا من بني إسرائيل سأل رجلًا أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء، قال: كفى بالله شهيدًا، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فأعطاها إليه إلى أجل مسمى، فلما جاء موعد السداد أخذ يبحث عن مَرْكَبٍ؛ ليعبُر البحر، ليأتي صاحب الدين، فلما لم يجد أخذ خشبة ونقرها وأدخل فيها ألف دينار ومعها صحيفة إلى صاحبها، وأحكم سد هذه الثغرة في الخشبة، ثم أتى البحر وقال: اللهم إنك تعلم أني قد استلفتُ من فلان ألف دينار فسألني كفيلًا، قلت: كفى بالله كفيلًا، وسألني شهيدًا، قلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بذلك، وإني قد أجهدت نفسي لأجد مَرْكَبًا أَصِلُ إليه فلم أجد، وإني استودعتك إياها، ورمى بها في البحر حتى دخلتْ فيه، ثم انصرف، ولأن الرجل يريد أداء الدين ونيته صادقة، فقد حدث أن صاحب الدين خرج في الوقت نفسه يتلمس الرجل عند البحر لعله يأتي، وإذ به يجد الخشبة فأخذها حطبًا لأهله، فلما كسرها وجد فيها المال والصحيفة، وبعد وقت، وجد الرجل الذي عليه الدين مَرْكَبًا فجاء إلى صاحب الدّين وأعطاه ألف دينار واعتذر عن التأخير؛ لأنه لم يجد مَرْكَبًا، فسأله صاحب الدين: هل بعثت إليَّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مَرْكَبًا قبل هذا الذي جئتُ فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشدًا[1].

الْحُكْمُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ: التِّجَارَةُ الْحَاضِرَةُ:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾

أما التجارة الحاضرة، التي يدفع فيها المشتري الثمن ويأخذ السلعة، فلا تحتاج إلى كتابة ولا إلى إشهاد، أي: لا يلزم كتابتها؛ لأن فيها تبادلًا فوريًا ووقتيًا لا يحتاج إلى

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» بأرقام: (١٤٩٨، ٢٠٦٣، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٤٣٠، ٢٧٤٤، ٦٢٦١).

توثيق، فقد قبض البائع الثمن وأخذ المشتري السلعة، وفي هذا رُخْصة للناس ورحمة بهم، لكثرة تبادل التجارة بينهم،

ومن أنواع التجارة الحاضرة: سلع الطعام والشراب والملابس والأثاث ونحوها، فإن هذه التجارة تنتهي بتسليم النقود واستلام السلعة، ومن التجارة الحاضرة: العقارات الثابتة ونحوها مما يحتاج إلى الشهادة عليه، رغم أنه تجارة، وهذا ما قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي: فيما جرت العادة بالإشهاد عليه، وقد يكون هناك نزاع بين البائع والمشتري، فيلزَمُ الإشهاد على البيع في مثل هذه الحالة وقد تكون السلعة ثمينة القيمة أو تشتبه بغيرها فتحتاج إلى توثيق الشراء ونحو ذلك.

عَدَمُ إلحاقِ الضَّررِ بالكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾

ولا ينبغي أن يترتب على الشهادة أو الكتابة مضارَّة لأحد، للكاتب أو الشاهد، لا ينبغي أن يلحقهما ضرر، لا من الدائن ولا من المدين، فلا يضارَّ أحد منهما في ماله، أو في أهله، أو في ولده، أو في نفسه من جرَّاء الكتابة أو الشهادة، إذ لا ذنبَ لهما، ما لم يقع منهما زورٌ أو مخالفة شرعية تتعلق بالكتابة أو الشهادة، وإن يُصَبْ أحد منهما بسوء فإن هذا خروج عما رسمه الله سبحانه.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ خافوه وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. **والعلم نوعان:**

أ- علم يحصل بالمطالعة والمذاكرة والمثابرة، يُحصِّله الإنسان بهذه الطريقة.

ب- وعلم يُفِيضُ الله تعالى به على العبد، إن كان من المتقين الصالحين، فيُلهمه إياه إلهامًا، ويكون خاصًا به، كما قال سبحانه في شأن الخِضْر، فقد أَرشد اللهُ موسى ﷺ أن يبحث عنه، ويذهب إليه، ويتعلم منه، وهو نبي مرسل ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فبيَّن سبحانه أنَّ عِلْمَ الخضر علمٌ خاصٌ به لم يعرفه رسول زمانه، وهو عِلْم لَدُنِّي مِنَ الله سبحانه، وهذا النوع من العلم يكون لأولياء الله، وعباده الصالحين المتقين، ممن يستوي في هذه التقوى ظاهرهم وباطنهم،

بل إن باطنهم يكون أفضل من ظاهرهم، فإن وُجِد شخص لا يصلي مع الجماعة، ويدَّعي أنه يصلي في الحرم؛ لأن منزلته عالية، فاعلم أنه شخص أفَّاك دجَّال فاسق، فليس في الإسلام أحد يصلي في مكان وجسمه في مكان آخر.

وإن وُجِد شخص يدَّعي الكرامة، ثم يَخْتلِي بالنساء بدعوى قضاء حوائِجِهن ونحو ذلك فهو كاذب آثم.

وإن وُجِد شخص من أصحاب الطرق الصوفية يأخذ عوائد مالية أو عينية من الناس بدعوى توزيعها على المحتاجين، فهو شخص محترف للتواكل،وأكل أموال الناس بالباطل.

وإن وُجِد شخص يَدَّعِي المعرفة بشيء مما يجهله الناس من علم الغيب، أو يكتب لهم أحْجبة وتعاويذ، فهو إنسان يستبيح ما حرَّم الله، بحجة أنه عبد صالح، أو ولي من أولياء الله؛ لأن الله سبحانه لم يحلَّ ما حرَّمه لأحد من خلقه، ولم يُطْلِع أحدًا على شيء من الغيب إلا من ارتضاه من رسله مع الحفظ التام من الشياطين.

وما يدعيه بعض الناس من الكرامات، استشهادًا بالآية لا يكفي، بل لابدَّ من تقوى الله تعالى في السر والعلن، ولابدَّ من أن يكون ظاهر هذا الشخص مُتَّفِقًا تمامًا مع الإسلام، فلا خُصُوصِية لأحد في ارتكاب ما حرم الله كالخلوة بالنساء، ولا خصوصية لأحد في ترك فرائض الله فيما هو ظاهر للناس ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وليس لأهل التصوف غير الحقيقي شاهد في الآية؛ لأن عطف التعليم على التقوى ينافي أن يكون العلم جزاءً مرتبًا على التقوى؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، ولأن المسبب لا يكون سببًا، والفرع لا يكون أصلًا، والنتيجة لا تكون مقدمة.

والعلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم؛ لأن العلم هو الأصل، وقد قدمه الله على العمل فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فالتقوى تتوقف على العلم بكيفية العمل، ولا يكون العلم إلا بالتلقي والتعليم.

والمعنى العام لآية المُدَاينةِ

يا مَنْ آمنتم بالله واتبعتم الرسول، إذا تعاملتم بالدَّين إلى وقتٍ معلوم فاكتبوه، حفظًا للمال

وأن طريق ذلك هو الصدقة والزكاة دون مَنٍّ ولا أذى، ثم حَرَّمتْ الوجه المقابل للصدقة وهو الرِّبا، فلعنتْهُ ومقتتْهُ وبينتْ غضبَ الله ﷻ على آكل الرِّبا؛ لما فيه من الجشع والاستغلال، وأخْذ أموال الناس بالباطل.

وفي أعقاب ذلك تحدثتْ آية المداينة هذه، عن بقية أحكام المعاملات التجارية والاقتصادية، من القرض والسَّلَم وبيع السَّلَم والتجارة الحاضرة، وما إلى ذلك.

عن سعيد بن المسيب، أنه بلَغه أنَّ أحدث القرآن بالعرش آية الدين(١)

فهذه الآية تشمل جميع العقود والوثائق، وفي مقدمتها: بيع السَّلَم.

فقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أشهد أن السلَف المضمون إلى أجل مُسَمًّى، أن الله قد أحله، وقرأ هذه الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما حرم الله تعالى الرِّبا أحلَّ بيع السَّلَم.

والسَّلَم معناه: أن يبيع الإنسان الثمر في الشجر، قبل بدو صلاحه في وقت معلوم إلى أجل معلوم كبيع الثمر أو التمر في النخيل، أو الحب في سنبله، قبل نضجه واستوائه، أي: قبل أن يبدو صلاحه، يبيعه مدة معلومة بثمن معلوم، سنة أو سنتين، أو أكثر من ذلك، أو أقل.

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما قَدِم المدينة، وجدهم يُسلفون في الثمار، أي: يبيعون الثمار مقدمًا بالسنة والسنتين، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من أسلف فلْيُسْلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**»(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما حرَّم الله الرِّبا أباح السَّلَم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه، وأنزل فيه أطول آية، وأوجب ﷻ على عباده المؤمنين أن يُوَثِّقُوا ديونهم ومعاملاتهم التجارية، وكذا القرض الحسن الذي يكون بلا فائدة بين الناس، يوثقوا ذلك ويكتبوه؛ لما في ذلك من ضمان الحقوق، ولأن الآجال بيد الله سبحانه، وحتى لا يضيع الحق عند

---

(١) الطبري (٦/ ١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٣/ ١٢٢٦) برقم (١٦٠٤) و«فتح الباري» (٤/ ١٠٥) ورقمه في البخاري: (٢٢٣٩، ٢٢٤٠، ٢٢٥٣) وأبو داود (٣٤٦٣) والترمذي (١٣١١) والنسائي (٤٦٣٠) وابن ماجه (٢٢٨٠).

أحد الطرفين، فيؤول إلى الورثة بعد الممات، وحتى لا يُنكِر المدين.

ومع الكتابة، يُشهد عليه، حتى لا ينقص منه شي أو يزيد عليه، ولا يطلبه قبل الموعد المحدد، وهذا من فوائد الكتابة، فاكتبوا هذا الدَّيْن ووثِّقوه بمدة محددة إلى أجل معلوم، في دين أو قرض، أو بيع أو سَلَم، أو أية معاملات تجارية.

فيامن آمنتم بالله واتّبعتم الرسول، إذا تداينتم من غيركم بدين، قليل أو كثير، فسجلوا هذا الدين واكتبوه، وحددوا قيمته وقَدْره، وحلول أجله ليكون ذلك معلومًا لدى ورثة الطرفين، فإن الآجال بيد الله، وحتى لا تضعف بعض النفوس فتنكره، وأشهدوا عليه شاهديْن، ليكون ذلك أوثق وأضمن، ولا حرج في ذلك حتى لوكان المدين أقرب الناس إلى الدائن، فإن الحق أحق أن يتبع.

كاتب العدل:

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ والآية تعرضت إلى الكاتب الذي يكتب، وتعرضت إلى الشهود، وتعرضت إلى ما لا يحتاج إلى كتابة ولا إشهاد في المعاملات التجارية الحاضرة، وبينت أن الذي يتولى كتابة الدَّيْن أو المعاملات التجارية وتوثيقها ينبغي أن يكون رجلًا عنده علم وفِقْه بتوثيق الحقوق والديون، يَعْرِف كيف يضمن حقوق الطرفين، ولا يكون عنده ميول لأحدهما لسبب من الأسباب، ولا يَكْتُب جُمَلًا تحتمل وجوهًا عدة، أوتحتمل التأويل، أو يشترك فيها أكثر من معنى، إنما يحدد ويدقق ولا يزيد ولا ينقص، ويكتب بما يَصْلُح حجة عند التقاضي، وعند الخصومة لكلا الطرفين، والذي يكتب العقد ويحرره لا يكون البائع ولا المشتري، إنما يكون طرفًا ثالثًا، كاتب عدل، مستشارًا شرعيًّا وقانونيًّا، عنده فقه وعلم بالكتابة.

ضريبة العلم:

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾

قيل: هو للوجوب، والذي عليه الجمهور: أنه محمول على الندب والاستحباب، ولا ينبغي على هذا الكاتب أن يمتنع من الكتابة، وقد علمه الله ذلك، فينبغي له أن يكتب إذا

طُلب منه الكتابة ولا يتأخر، فقد يتعيَّن هذا على شخص معين إذا لم يوجد غيره.

كما في الحديث عن أبي ذر أن من الصدقة أن: «**تعين صانعًا أو تصنع لأخرق**»(١).

وفي الحديث عن أنس وابن عباس وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كتم علمًا يعلمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار**»(٢)، ولا بأس أن يأخذ أجرًا على ذلك.

وفائدة الكتابة: حفظ الحقوق من الجانبين، فلا زيادة في الحق، ولا تأخير في الأجل، وليس في هذه الكتابة خجل، ولا حياء من الصديق ولا القريب ولا الجار؛ فإن النص الكتابي فيه تبرئة للذمة، وإثبات للحقوق، وعدم خوف من ضياعها.

شروط المُمْلِي

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ(٣) هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾

هذه أربعة شروط فيمن يملي وهو المدين:

الشرط الأول: أن الذي يملي هو المَدِين؛ حيث تتحدث الآية عن المملي، مَن الذي يُمْلي على الكاتب، ويقول له: اكتب كذا وكذا؟ هل هو الدائن، أم المدين؟ الله سبحانه يبين أن المدِين الذي عليه الحق هو الذي يملي؛ لأنه في موقف ضعف، والدائن في موقف قوة، وقد يستحي المدين من الدائن، إذا هو أملى ألفاظًا قوية غير صالحة، وصاحب الحاجة يكون في موقف ضعيف، ولذلك فإن الله سبحانه جعل إملاء الكتابة للعقد أو كتابة الدَّيْن بتحديد المقدار، وتحديد المدة، والشروط، والحدود، وغير ذلك، يُمليها المدين؛ لأنه سيلتزم بما أَملى، وسيقوم بالوفاء به؛ ليكون هذا حُجَّة عليه.

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ١٧٦) والحديث في البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٨٤).

(٢) الطبراني (١١/ ٥) والحديث عن أنس في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٢) وأبي يعلى (٢٥٨٥) والطبراني (١١٣١٠) عن ابن عباس والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١) والحاكم (١/ ١٠١) عن أبي هريرة، وهو في المسند (١٠٤٨٧، ١٠٥٩٧) حديث صحيح، كما قال محققوه.

(٣) قرأ قالون وأبو جعفر بخلف عنهما بإسكان الهاء من (يمل هو)، وضمها الباقون.

الشرط الثاني: أن يتقي الله فيما يمليه، وعليه أن يخاف الله فيما يملي ويحذر عقابه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فلا يحابى أحدا، ولا ينحرف عن الحق في كتابته.

الشرط الثالث: عدم الانتقاص من الحق؛ فلا ينقص صاحب الحق في إملائه، وفي وفائه وأدائه شيئًا مما يجب عليه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

الشرط الرابع: التوكيل في الإملاء له ثلاثة أسباب هي: السَّفَهُ، والضَّعْف، وعدم القدرة، فإن كان المدين لا يُحسن التصرف في الأموال، وهو مسرف مُبَذِّر، يُحْكَم عليه بالحجر؛ لضعف عقله وسوء تصرفه، أو كان جاهلًا، يقال له أيضًا: سفيهًا، أو كان ضعيفًا: شيخًا كبيرًا هرمًا، أو طفلًا صغيرًا، لا يستطيع أن يملي؛ لأنه أبكم أو أصم، أو لا يعرف لغة القوم، ونحو ذلك لأي سبب من الأسباب، فإن وكيله الذي ينوب عنه يقوم بالمهمة، والمراد وكيله الشرعي، أو الذي يتولى أمره.

الإشهاد على العقود

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ(١) أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ(٢) إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ﴾

ثم تنتقل الآية بعد الحديث عن الكتابة وتوثيق العقود إلى الإشهاد على العقود، أو على الدَّيْن، فتُبيِّن نصابها في الشهادات المالية، وأنها تكون، بشهادة رجلين من المسلمين الأحرار البالغين العاقلين المشهود لهم بين الناس بالعدالة وأن يكون الشاهد غير متهم بالكذب، ولا يجهر بالمعصية، متصف بالعدالة، يرضاه الطرفان، لا يميل لأحدهما، ولا يُتهم بعداوته أو محبته لأحد الطرفين دون الآخر، وإنما يلتزم الحيدة والحذر في ذلك، ولا يخص أحد الطرفين بالاحتياط دون الآخر.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء خالصة من (الشهداء أن)، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ من (الشهداء إذا) وبإبدالها واوًا خالصة، وحققها الباقون.

وشهادة الكافر لا تجوز؛ ولا تُقبَل شهادة المُصِرِّ على الكبائر، ولا تُقبَل شهادة الوالد لولده ولا العكس، ولا تقبَل شُهادة من يجر لنفسه نفعًا بشهادته.

شهادة المرأة في المعاملات:

وإذا لم يتيسر رجلان لسبب من الأسباب فرجل وامرأتان، ولماذا امرأتان، وليست امرأة واحدة؟ الله سبحانه ذكر السبب، وبين العلة في الآية ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تنسى جزءًا من الشهادة فتذكِّرها الأخرى.

وقد فُسِّر الضلال في الآية بمعنى النّسيان، وقد يكون الضلال أعمُّ من النسيان، فإن مِن شأن المرأة أنها ترعى شؤون البيت، كتربية الأولاد، وقد لا تفقه بعضهن في العقود والمعاملات التجارية والمالية، ولذا فإن من شأنها أن تنسى، وأن تتأثر، وأن تنفعل، وأن تكون عاطفية أكثر من الرجل، ولذلك فإن الله سبحانه جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل في الحقوق المالية(١).

ولا يقبل للمرأة شهادة في الحدود والقصاص، وفي شهادتها في الأحوال الشخصية من: طلاق، وزواج، ورضاع، ونفقة، وعدة، ونحو ذلك خلاف بين الفقهاء، أما ما لا يطلع عليه إلا النساء، كالبكارة والرضاع فإنه يجوز فيه شهادة أربع نسوة.

هذا: ونقصان العقل في المرأة هو غالبًا بمعنى الانسياق وراء العاطفة والشهوة والتزين والانفعال والتأثر وشؤون البيت، ولأن شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

أما نقص الدِّين فيها، فقد بيَّنه النبي ﷺ بأنه يأتيها الحيض، ويأتيها النِّفاس؛ فلا تصوم بعض رمضان أو كله في وقته، ولا تصلي بضعة أيام من كل شهر بسبب الحيض، وكذلك مدة النفاس، ولا تتهجد، ولا تقرأ القرآن، ولا تطوف بالبيت وهي نُفَساء أو حائض، وهذا نقص في الدِّين.

عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وأبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن من الاستغفار؛ فإني رأيتُكُن أكثرَ أهل النار**»، فقالت امرأة

(١) فسر بعضهم الضلال بالضياع، وقال المعنى: أن تضل المرأة إحدى الشهادتين عن إحدى المرأتين فتذكر بها المرأة الأخرى، فجعل (إحدى) الأولى للشهادة والثانية للمرأة، من «تفسير المنار» (٣/ ١٢٣)

منهن جزلة: وما لنا -يا رسول الله- أكثر أهل النار؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللعن، وتَكْفُرْنَ العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أغلب لذي لبٍ منكن**»، قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «**أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين**»[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل**»، قلْن: بلى، قال: «**فذلك من نقصان عقلها**»[٢].

والشاهد إذا طُلب للشهادة، يندب له أن يشهد، ويستحب له أن لا يمتنع ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ أي: لا يمتنعوا من الشهادة على العقود أو الديون على وجه الوجوب، بالنسبة لمن شهد على هذه العقود من الرجال أو النساء كتابةً.

فإن وُجد غيره بأن كانت الشهادة شفهية فلا بأس من أن يكون مخيرًا إذا قام غيره بها، أما إذا تحتم عليه الأمر فلم يوجد غيره فيلزم الإدلاء بالشهادة، ولا يجوز له أن يمتنع عنها، بل يجب عليه الوفاء بها، ولا يخش إلا الله.

ولا ينبغي للشاهد أن يكتم الشهادة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَۚ﴾ أي: حين يطلب منكم الإدلاء بها لأدائها، فإنه يلزم أن تؤدوها، ويحرم كتمان الشهادة عند طلبها، ولكن لا يتبرع بها الإنسان من تلقاء نفسه دون طلب لها؛ فإن فيه فسقًا وفجورًا، وخروجًا عن حدود الله عزَّ و جلَّ، وقد ذمَّ الإسلام شهداء الزور الذين يتبرعون بالشهادة؛ فيشهدون قبل أن تطلب منهم الشهادة، وأيمانهم تسبق شهادتهم[٣].

كما مدح شهداء الحق، ومن لا يوجد غيرهم لأداء هذه الشهادة، على الإدلاء بشهادتهم قبل أن تطلب منهم[٤].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٩، ٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٠٤، ١٤٦٢، ٢٦٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٨) و«صحيح مسلم» (٨٠).

(٣) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم (٦٤٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٥)

(٤) يُنظَر «صحيح مسلم» برقم (١٧١٩) وأبو داود (٣٥٩٦) والترمذي (٢٢٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٦٠٢٩) وابن ماجه (٢٣٦٤)

ودفعًا للنزاع، وليقم بالكتابة رجل أمين ضابط، ومن علَّمه الله الكتابة فلا يمتنع، وعلى المدِين أن يُملي ما عليه، ولا ينقص منه شيئًا، فإن كان جاهلًا، أو مريضًا، أو محجورًا عليه، أو صغيرًا، أو مجنونًا، أو أخرسًا، فليقم بالإملاء وكيله، وأشهدوا رجلين مسلمين عدلين، فإن لم يوجد فرجل وامرأتان ترضوْن شهادتهم، حتى إذا نسيت إحداهما ذكّرتْها الأخرى، وعلى الشهداء أن يؤدوا الشهادة، ولا تَمَلُّوا من كتابة الدين، قليل أو كثير، فهو أعدل في شرع الله، ولكن إذا كان الأمر أخْذ سلعة ودفع ثمن فلا حاجة للكتابة.

ويُستَحَبُّ الإشهاد منعًا للنزاع، والشهود والكُتَّاب لا يلحق بهم ضرر، وخافوا الله في جميع أموركم، ويعلمكم الله مصالح دينكم ودنياكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

وهذه بعض الأحكام المستنبطة من الآية:

١- جواز جميع المداينات المشروعة.

٢- لابد لبيع السَّلَم أن يكون مُعيّنًا وإلى أجل معلوم.

٣- ينبغي كتابة جميع عقود المداينات وجوبًا أو استحبابًا.

٤ - أمر الله الكاتب بالكتابة بين المتعاقدين.

٥- وجوب أن يكون الكاتب عدْلًا، ولا تقبل شهادة من يشك في عدالته.

٦- وجوب تحري العدالة في الكتابة بين الدائن والمدين.

٧- يجب أن يكون الكاتب على علم بكتابة الوثائق.

٨- يُعمل بكتابة العدل الضابط إذا كان خطُّه واضحا معروفًا.

٩- لا يمتنع من الكتابة مَنْ مَنّ الله عليه بمعرفتها.

١٠- مَنْ عليه الدين هو الذي يُملي.

١١- يُبيّن الكاتب جميع الحقوق ولا يبخس منها شيء.

١٢- الإقرار سيّد الأدلة، لأن الله تعالى أمرَ مَنْ عليه الحق أن يُملي على الكاتب.

١٣- قول من عليه الحق هو المقبول دون قول من له الحق.

١٤- يحرم على مَن عليه الدين أن ينقص أو يبخس الدائن في شيء مما يمليه.

١٥- إذا كان المدين لا يستطيع الإملاء فإنه يُنيب عنه وَليُّه.

١٦- يلزم الوليّ من العدل وعدم البخس، ما يلزم مَنْ عليه الدين.

١٧- يشترط عدالة الوليّ.

١٨- ثبوت الولاية في الأموال.

١٩- الحق يكون على المدين، ولو كان سفيهًا أو صغيرًا، لا على الوليّ.

٢٠- تصرف السفيه والمجنون والصغير غير صحيح.

٢١- صحة تصرف الولي في مال مَنْ ذُكر.

٢٢- مشروعية تعلّم كتابة الوثائق والعقود، وأنه فرض كفاية.

٢٣- مشروعية الإشهاد على العقود وجوبًا إن كان المتصرف هو ولي أمر اليتيم، أو ندبًا إن كان لمجرد حفظ الحقوق.

٢٤- نصاب الشهادة في الأموال: رجلان أو رجل وامرأتان، ويقبل الشاهد مع يمين المدعي كما بينت السنة.

٢٥- لا تقبل شهادة الصبيان.

٢٦- ولا تقبل شهادة النساء منفردات في الأموال.

٢٧- شهادة العبد البالغ مقبولة لأنه رجل.

٢٨- شهادة الكفار ذكورًا أو إناثًا غير مقبولة.

٢٩- بيان فضل الرجل على المرأة.

٣٠- من نسى شهادته فذُكّر بها فهي مقبولة، لقوله تعالى ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾.

٣١- إذا خاف الشاهد نسيان شهادته وجب عليه كتابتها.

٣٢- لا يجوز للشاهد أن يأبى الشهادة إلا لعذر.

٣٣- لا تجب الإجابة لأداء الشهادة إلا على من اتصف بالعدل والضبط، إذا لا فائدة من شهادة غيرهم.

٣٤- النهي عن السآمة والملل من كتابة جميع ما يتعلق بالديون من شروط وقيود.

٣٥- في الآية بيان الحكمة من مشروعية كتابة الديون والإشهاد عليها، بأنه يتضمن العدل الذي به قوام العباد والبلاد، وهو أبعد من الريبة والتنازع والتشاجر.

٣٦- الرخصة في ترك الكتابة، إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر.

٣٧- يشرع الإشهاد على التجارة الحاضرة ذات القيمة الثمينة.

٣٨- لا يضار الكاتب أو الشاهد بترك عمله -مثلا - أو بحصول المشقة له، ولا يضار صاحب الحق بالامتناع أو بطلب أجره.

٣٩- مخالفة ما ذكر الله تعالى في الآية فسق.

٤٠- يشترط في عدالة الشاهد، ألا يفسّقه الشرع، وألا يخالف ماهو متعارف عليه عند الناس، فكل من كان مرضيًا عند الله وعند الناس فشهادته مقبولة.

٤١- لا تقبل شهادة مجهول الحال حتى يزكي.(١)

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ: الرَّهْنُ عِنْدَ تَعَسُّرِ الكِتَابَةِ

٢٨٣-﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ(٢) مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ(٣) ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ(٤) أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

وهذه الآية تتحدث عن الرهن:

فقد يحدث لسبب من الأسباب أن لا يتمكن الإنسان من الكتابة لتوثيق الدَّيْن، أو

(١) ينظر في هذه البنود تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي للآية.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (فرُهُن) بضم الراء والهاء جمع رهن كسقف وسُقف، وقرأ الباقون (فرهان) بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها جمع رهن ككعب وكعاب.

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا من (فليؤد)، ومثلهما حمزة عند الوقف.

(٤) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (الذي اؤتمن) وصلًا ياء خالصة، وكذا حمزة وقفًا، ولو ابتدأ القارئ بكلمة (اؤتمن) يبدأ بهمزة مضمومة بعدها واو.

المعاملة التجارية، أو لا يوجد كاتب، أو لا توجد أدوات الكتابة، وقد يكون الإنسان مريضًا أو مسافرًا، ونحو ذلك، وقد يريد الإنسان أن لا يُعلِم أحدًا بحاله، فيأتي برَهْن معادل للحق، أو يزيد عن الحق ويعطيه للدائن؛ يكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، أو ليأخذ منه الدَّيْن إن لم يقم بالسداد، وهو رَهْن مقبوض، يحدث عند السفر وعند الحضر، فإن كان الرهن غير مقبوض، فإنه لا يحصل به التوثيق، وخص السفر في الآية؛ لأنه مظنة تعسر الكتابة، وقد ثبت في السُّنة وقوع الرهن من النبي ﷺ وأصحابه في الحضر.

كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ تُوُفِّيَ ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقًا من شعير، كان قد أخذها قوتًا لأهله.

وفي رواية للنسائي: «**من يهود المدينة**»[١].

وعن عائشة ﵂ قالت: اشترى رسول الله ﷺ طعامًا من يهودي بنسيئة، ورهنه درعًا له من حديد[٢].

والرهن عِوض عن الشهادة في توثيق الدَّين، فإن كان الذي عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق، ولم يأخذ رهنًا منه لِحُسْنِ ظنه به، أو لكونه مضمونًا مُؤتَمنًا، وليس من شأنه أن يجحد أو يُمَاطِل، فلم يكتب ولم يُشهِد عليه، ولم يأخذ منه رهنًا؛ لأن هناك ثقة متبادلة بين الطرفين؛ فإن الواجب على المدِين أن يؤدي الدَّيْن في موعده بلا مماطلة ولا مطالبة، ويكون عند حسن ظن أخيه.

وقد يكون هناك رحم بين الدَّائن والمدِين، ولا يريد الدائن الكتابة بينهما؛ لأنه يَضْمَن حقه من المدين حيًّا أو ميتًا، فعليه في هذه الحالة أن يوصي به في مرضه، ويُعْلِم ورثته، إذ لا حرج ولا مانع من الكتابة والإشهاد أو الرهن ولكنه لم يسجل ولم يوثق، وعلى المدين أن يتقي الله سبحانه، وأن يدفع ما عليه من حق في حياة الدائن أو بعدموته ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وهذا الأمر بأداء الامانة يعود على ما في هذه الآية والتي قبلها، حيث يكون الدَّيْن أمانة في الذمة حتى يُوفَّى به.

---

(١) مسلم عن عائشة (٣/١٢٢٦) والبخاري عن أنس كما في الفتح (٤/ ٣٥٤) وهو في البخاري برقم (٢٥٠٨) و«سنن النسائي» (٧/ ٢٨٨).

(٢) البخاري (٢٠٦٨) ومسلم (١٦٠٣) والنسائي (٤٦٢٣، ٤٦٦٤) وابن ماجه (٢٤٣٦) والبيهقي (٦/ ٣٦).

عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «**على اليد ما أخذت حتى تؤديه**»(١).

الْحُكْمُ الأَرْبَعُونَ: النَّهْيُ عَنْ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إذا دُعِيتم إليها؛ حتى لا تضيع الحقوق بين الناس، لأن الحق مبني عليها، لا يثبت بدونها، وكتمانها من أعظم الذنوب، لما يترتب عليها من فوات الحق، وترك الإخبار بالصدق ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

عن زيد بن خالد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها**»(٢).

أما حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهَدوا**»(٣).

وكذا قوله ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ﷺ: «**ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم**»(٤).

وفي رواية: «**ثم يأتي قوم يشهدون ولا يُستشهَدون**»(٥)

فهي أحاديث صحيحة وردت في الصحيحين وغيرهما، ولكنها تعني شهادة الزور قال

---

(١) رواه أحمد (١٢/٥) برقم (٢٠٠٨٦، ٢٠١٣١، ٢٠١٥٦) وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه الطبراني (٦٨٦٢) وأهل السنن عن قتادة، وأبو داود برقم (٣٥٦١) والترمذي برقم (١٢٦٦) والنسائي برقم (٥٧٨٣) وابن ماجه برقم (٢٤٠٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧١٩) ورواه أصحاب السنن، وهو في المسند: (١٧٠٤٠، ١٧٠٤٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأخرجه أبو مصعب في الموطأ (٢٩٣١) وابن حبان (٧٠٥٩) والبغوي في شرح السنة (٢٥١٣) وابن حبان (٥٠٧٩) والترمذي (٢٢٩٥).

(٣) في مسلم (١٧١٩) وأبي داود (٣٥٩٦) وابن ماجه (٢٣٦٤) والترمذي (٢٢٩٥) والمسند (١٧٠٤٠) حديث صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان (٥٠٧٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٥٩٨٥)، والمؤطأ من رواية يحيٰ (٢/ ٧٢٠) ومن رواية أبي مصعب (٢٩٣١).

(٤) يُنظَر: البخاري (٦٤٢٩) ومسلم (٢٥٣٣) وابن ماجه (٢٣٢٦) والترمذي (٣٨٥٩) والمسند (٣٥٩٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٣٢٨) وغيرهم.

(٥) البخاري برقم (٦٤٢٨) ومسلم برقم (٢٥٣٥).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم ويحاسبكم.

والمعنى: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا من يكتب، فأعطوا صاحب الحق رهنًا ضمانًا لحقه إلى أن يردّ ما عليه، فإن وَثِق بعضكم في بعض فلا حرج في ترك الشهادة والكتابة والرهن، ويبقى الدَّيْن أمانة في الذمة، فإن أنكر المدين، وكان هناك مَنْ حَضَر، فعليه أن يُظهِر شهادته، ومن كتم هذه الشهادة فهو صاحب قلْبٍ غادر فاجر، والله سبحانه هو المطلع على السَّرائر، المحيط بكل الأمور، وسوف يحاسبهم على ذلك.

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالسَّرَائِرِ وَالعَلَانِيَةِ

٢٨٤-﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ(١) لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ(١) مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

أخبر سبحانه أنه مالك لهذا الكون وما فيه، فهو الخالق الرازق المدبر، والخلق لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا، وهو ربهم ومالكهم، يعلم سرهم ونجواهم أمرهم ونهاهم، وسوف يحاسبهم على ما أسروه وما أعلنوه وكل ماقدمت أيديهم.

وما دام الله تعالى يعلم كل صغيرة وكبيرة، فعليكم أن تبذلوا الجهد والطاقة في العمل الصالح، فإنّ ما تملكونه من هذه الدنيا عارية مستردة، والملك الحقيقي لله وحده، وهو سبحانه مطلع على جميع ما في هذا الكون من العالم العلوي والعالم السفلي، لا يخفى عليه شيء مما تظهرونه أو تخفونه من أقوالكم وأفعالكم، وهو سبحانه محاسبكم ومجازيكم بما كسبت أيديكم، وعملت جوارحكم، فيعفو عمن يشاء، ويعاقب من يشاء، وهو قادر على كل شيء، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٩] ومنطوق هذه الآية أن الله تعالى يحاسب

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب برفع الراء والباء من (يغفر)، و (يعذب) على الاستئناف، أي: فهم يغفر، وقرأ الباقون بجزمهما، عطفًا على (يحاسبكم) وأدغم الراء في اللام من (فيغفر لمن) أبوعمرو بخلف عن الدوري، وأدغم الباء في الميم من (ويعذب من) أبو عمرو والكسائي وخلف العاشر، وبالإظهار والإدغام لقالون وابن كثير وحمزة، والباقون بالإظهار فيهما.

الإنسان على عمل الجوارح ومكنون النفس، وأنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.
وقد عفا سبحانه عن حديث النفس، وخَطَرات القلب من هذه الأمة، وهو ما يجول في صدر الإنسان
وقد تجاوز الله سبحانه عن حديث النفس، وأَخَذَ بالأقوال والأعمال وعَقْدِ العزم على الفعل:

١- قال أبو هريرة ﷺ: لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، ثم جَثَوْا على الركب لحرصهم على الطاعة، وخوفهم من التقصير في جنب الله ﷻ، وقالوا: يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ فقال ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين قبلكم؟**» يعني: اليهود والنصارى «**سمعنا وعصينا، بل قولوا:** ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾» فلما قالوها ونطقتْ بها ألسنتهم، ودانت بها قلوبهم أنزل الله بعدها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[1].

فقالوا يا رسول الله: نتوب من عمل اليد والرجل واللسان، فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس[2]؟ وفي لفظ مسلم: «**فلما فعلوا ذلك نسخها الله**»[3].

وهذا لا يعني النسخ المصطلح عليه عند الأصوليين، وإنما المراد تخصيص العموم، فإن الآية الأولى ﴿وَإِن تُبْدُواْ﴾ تفيد أنهم محاسبون حتى على حديث النفس.

والآية الثانية ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ تفيد أن التكليف إنما يكون بحسب الوسع والطاقة وهذا تخصيص لعموم الآية الأولى.

٢- قال ابن عباس ﷺ: إن هذه الآية لما نزلت غَمَّتْ أصحاب رسول الله ﷺ غمًّا شديدًا... وقالوا: يا رسول الله هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا فقال ﷺ: «**قولوا: سمعنا وأطعنا**»، قالوا: سمعنا وأطعنا، فنزلت الآيتان بعدها، فتَجوَّز لهم عن حديث النفس وأُخذوا بالأعمال[4].

---

(١) «المسند» (٢/ ٤١٢) برقم (٢٠٧٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققوه) و«صحيح مسلم» (١٢٥، ١٢٦) عن ابن عباس والترمذي (٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٥٩).

(٢) يُنظَر: الأثر (٦٥٠٣) في الطبري.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٢٥) والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار، فالأرجح أنها محكمة كما سيأتي.

(٤) «المسند» (١/ ٣٣٢)، برقم (٢٠٧٠، ٣٠٧٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) والحاكم (٢/ ٢٨٦).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ اشتد ذلك على القوم، فقالوا: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نحدِّث به أنفسنا هلكنا! فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[١].

٤- ولما تلا عبد الله بن عمر هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال: لئن آخذنا الله بهذا لَنَهْلَكَنَّ، ثم بكى ابن عمر حتى سُمع نشيجه، فقال ابن مَرْجانة: فقمتُ حتى أتيت ابن عباس فذكرتُ له ما تلا ابن عمر، وما فعل حين تلاها، قال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لعمري لقد وَجِد المسلمون منه حين أُنزلت مثل ما وَجِد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة.

قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله ﷻ أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل[٢].

وأنزل الله ﷻ مخففًا عن عباده؛ لأنهم لا يستطيعون منع الوسوسة وحديث النفس، فبيَّن الله تعالى معنى هذه الآية في قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فمراد من قال بالنسخ بين هذه الآية ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والآية التي بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ هو البيان والإيضاح والتخصيص، أي: أن الآية الثانية موضِّحة ومخصصة للأولى، وليس معناه زوال الحكم:

١- لأن الوساوس والخواطر التي تكون داخل النفس لا تختلف باختلاف الأزمنة والأحوال.

٢-ولأن قوله تعالى ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ خبر، والأخبار لا تنسخ.

٣- ولأن كسب القلب وعمله يؤاخذ عليه المرء سواء ظهر أثره على الجوارح، أم لا.

٤- كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٥- والمرء يُسأل عن عمل الفؤاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ

(١) «المسند» برقم (٩٣٤٤) حديث صحيح وإسناد حسن ومسلم مطولًا (١/ ٤٦) برقم (١٣٥) والطبري (٦٤٥٦).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ١٥٤) مختصرًا والطبري برقم (٦٤٦٠) وهي في «الطبراني الكبير» (١٠٧٧٠) والبيهقي (٣٢٩).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]. والفؤاد ليس من الجوارح.

٦- وحب إشاعة الفاحشة من عمل القلب، وقد توعَّد الله عليه بالعذاب في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النور: ١٩].

والمقصود بعمل الفؤاد: ما يثبت في النفس، ويستقر عليه القلب، ومن ذلك: الحب والبغض، وكتمان الشهادة، وقصد السوء، وفساد النية، وخُبث السريرة، والأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، وإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم.

وهذا معنى الهَمِّ بالحسنة والهَمِّ بالسيئة، والمؤاخذة بهما، ولذلك كان قصد الإلحاد في الحرم يسبب العذاب الأليم، أما الخواطر السانحة، والوساوس العارضة، وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت، والعزم أو الهم، فهو الذي لا يحاسب الله عليه، ولا يؤاخذ به، وهذا إيضاح وبيان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾.

والوسع: ما يسع الإنسان، ولا يُضيِّق عليه ولا يُحْرِجه.

والتكليف: منه تكليف ما لا يطاق؛ كتكليف الأعمى النظر وهو محال، وغير مطلوب منه.

ومنه تكليف ما يمكن احتماله بمشقة؛ كمشقة قيام الليل، وصيام النهار، وهو المراد في هذه الآية ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ أي: من الطاعات ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ من المعاصي.

والمعنى: لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر.

ولفظ ﴿كَسَبَتۡ﴾ يشير إلى أن عمل الخير هو الأصل الذي جُبِل المرء عليه، مع اعتقاد أنه نافع وأن فعله خير من تركه، بخلاف عمل الشر فهو مخالف للفطرة يعرض للإنسان، ثم يزول عنه مع اعتقاد أنه ضار.

وقيل: إن ما يصيب الناس في الدنيا من المصائب والأحزان والآلام، هو عقوبة لما يخفونه في أنفسهم من سيئ القول والعمل، ويؤيده قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء].

والله ﷻ لا يؤاخذنا في الآخرة إلا بما عملت أيدينا وجوارحنا، وما نطق به اللسان، أي: لا يؤاخذنا إلا على القول أو العمل، كما قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تكلم أو تعمل**»(١).

وفي حديث ابن عباس وأبي هريرة ﭫ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٢).

أي: ما لم يفعل بجوارحه وأعضائه، أو ينطق به لسانه، فإنه مؤاخذ عليه، فإذا تبلْوَر حديث النفس، أو الخواطر التي تكون داخل الإنسان، وانتقلت إلى مرحلة القصد أو العزم على فعل الشيء، ثم حال بين العبد وبين الفعل أو القول حائل أو مانع خارج عن إرادته، منَعَهُ من اقتراف هذا الذنب، فإنه مؤاخذ على حبه للشيء، ومؤاخذ على عزمه وإرادته، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩]

وهذا العذاب الأليم أعده الله في الدنيا والآخرة لمن لم يفعل الفاحشة، ولكنه يحب إشاعتها بين الناس، فهو متوعَّد بهذا العذاب في الدنيا ويوم القيامة لمحبته للمعصية.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الإلحاد في الحرم عن إرادة وعزم وقصد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧) والسنن عن أبي هريرة في أبي داود (٢٢٠٩) والترمذي (١١٨٣) والنسائي (٣٤٣٤) وابن ماجه (٢٠٤٠،٢٠٤٤).

(٢) وأخرجه البخاري(٥٢٦٩) وأبوداود(٢٢٠٩) و «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) وابن حبان (٧٢١٩) والحاكم (٢/ ١٩٨) والدارقطني(٤/ ١٧٠) وابن المنذر (١٨٥) والطبراني في «الصغير» (١٧٠١١)، وفي المسند عن أبي هريرة (٩١٠٨، ٩٤٩٨، ١٠٣٦٣).

فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. إنه لم يقع منه فعل الإلحاد، وإنما أحبه وعزم عليه وهم به، ومع ذلك فقد توعَّده الله بالعذاب الأليم، وجاء في هذا أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ منها:

ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «**إذا هَمَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هَمَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا**»(١).

وفي لفظ آخر عن ابن عباس ﷺ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثُمَّ بيَّن ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَمَّ بها فعملها، كتبها الله عنده عَشْرَ حسنات، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**»(٢).

ففِعلُ السيئة يُكتَب سيئة واحدة، وتركُها بعد الهَمِّ بها يُكْتب حسنة، وفعْلُ الحسنة يضاعف من عشر إلى ما شاء الله، وتركها إن كانت على سبيل الندب لا مؤاخذة عليه، ففضل الله رحمته بعباده كبير.

فحديث النفس على قسمين: **قسمٍ** يوطن الإنسان نفسه على فعله، ويعزم على إظهاره في الوجود.

وقسمٍ يخطر على باله، ولايمكن دفعه، ولكنه يكرهه، ولا يعزم على فعله، ولا على إظهاره في الوجود.

والأول مؤاخذ عليه، والثاني معفوٌّ عنه، ويدخل في ذلك حب موالاة الكفار وبغضهم.

ورسل الله وأنبياؤه لا يعزمون على فعل المعصية لعصمتهم منها، والجمهور على أن الإنسان مؤاخذ على العزم المؤكد.

وقوله سبحانه: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ هذه المحاسبة على ظاهرها، ولا يلزم من الحساب العقاب، فمايجيش في النفس ويخطر بالبال لا تعلمه الملائكة، ولا تدونه، فهو لا يكتب في صحيفة

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٢٨) بلفظه و«صحيح البخاري» (٧٥٠١).
(٢) البخاري (٦٤٩١) ومسلم برقم (١٣١).

العبد، ومن هنا فإن الله سبحانه إذا كان يوم القيامة أخبر عبده بما كان يدور في خلَده، وما يجيش في نفسه؛ حتى يعلَم العبد أنه جل شأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وعلْمُه شامل ومحيط للسر والعلانية ، وما هو أخفى من السر، قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أخفى من السر.

فالمؤمن يُقربه ربه منه يوم الحساب؛ حتى يضع كنفه عليه، أي: يشمله جل شأنه برحمته وعطفه ورعايته، ثم يقرره بذنوبه ولا يعاقبه، ولا يسأله على رؤوس الأشهاد، وهذا هو الحساب اليسير ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] فيعطى كتابه بيمينه وتُطوى صحيفة حسناته، وحسابه يكون سرًّا بينه وبين ربه، ومَنْ نُوقش الحساب علنًا فقد عُذِّب.

وإذا ستر الله العبد في الدنيا على ذنب اقترفه، فإن هذا دليل على أن هذا العبد سيتوب ويرجع إلى الله سبحانه:

في الصحيحين عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدنو المؤمن من ربه، حتى يضعَ عليه كَنفَهَ، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف ذنب كذا، فيقول: ربِّ اغفر، مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يَبْلُغ، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه، أما الكافر والمنافق فُينادى على رؤوس الأشهاد** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(١) [هود: ١٨].

وقد أجمل الله تعالى في هذه الأحوال المغفورة وغير المغفورة؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء، فلا يُقصر في فعل الخيرات، ولا يتهاونُ في ارتكاب المنكرات، ولذا: ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يعفو عنه ولا يعاقبه بفضله وإحسانه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فيؤاخذه بما قال وفعل بعدله وحكمته، وهو القادر على كل شيء، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل.

---

(١) البخاري: (٢٤٤١، ٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨) وأحمد برقم (٥٤٣٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين والطبري (٦٤٩٦، ٦٤٩٧) (٦/ ١١٩) وابن خزيمة (٢٣٢) وعبد بن حميد (٨٤٦) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٩) وابن حبان (٧٣٥٦) وأبو يعلى (٥٧٥١).

مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ رُسُلَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الإِيمَانِ

٢٨٥-﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ(١) وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ(٢) بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين بالله وملائكته وكتبه، ورسله، وهذا يشمل الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وما أخبرت به رسل الله عنه من صفات الكمال والجلال، ويشمل الإيمان بما تضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وهذا الإيمان يعم رسل الله جميعا ولا يفرق بين أحد منهم.

هذا: ولما شق على الصحابة محاسبة الله لهم على ما تخفيه نفوسهم، وشَكَوْا ذلك إلى النبي ﷺ فقال لهم: «**لعلكم تقولون: سمعنا وعصينا؛ كما قالت بنو إسرائيل**»، فقالوا: بل نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فأنزل الله الآية ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾(٣).

قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة: فرْض الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والطلاق، والإيلاء، والحيض، والجهاد، وقصص الأنبياء، وكلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبيه والمؤمنين بكل ذلك فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهو القرآن الذي نزل عليه من عند الله، وآمن بسائر الكتب السماوية، فصدق وأيقن بما أُوحى إليه من ربه، وآمن بها المؤمنون أيضًا فأيقنوا بما جاء من عند الله، وعملوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: وكل من الرسول والمؤمنين آمن بالله ربًا، وملائكته الكرام، وكتبه المنزلة على رسله.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وكتابه) على التوحيد على أن المراد به القرآن أو الجنس وقرأ الباقون (وكُتُبِه) على الجمع، وذلك لتعدد الكتب السماوية.

(٢) قرأ يعقوب (لا يُفَرِّقُ) بالياء على أن الفاعل ضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنون وقرأ الباقون (لا نُفَرِّق) بالنون، على التكلم أي كل من الرسول والمؤمنون يقول: لا نفرق: إلخ.

(٣) يُنظَر «تفسير الطبري»، «الأثر» (٦٤٧٧) و(٦/ ١٢٥) والقرطبي وابن كثير والسيوطي (٤٧) والنيسابوري (٧٨) وغيرهم.

فهذه أربعة من أركان الإيمان وهي:

أولًا: أن يؤمن العبد بالله واحدًا أحدًا، لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد ولا نظير، ويؤمن بجميع أسمائه وصفاته كما جاءت، وأنه سبحانه حي عالم، قادر على كل شيء، سميع بصير ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

ثانيًا: ويؤمن بوجود ملائكة الله تعالى الكرام، وأنهم معصومون مطهَّرون، وأنهم السفرة الكرام البررة، وأنهم الواسطة بين الله تعالى وبين رسله.

ثالثًا: ويؤمن بالكتب المنزلة من عند الله تعالى، وأنها وحي الله إلى رسله وهي: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأن القرآن لم يُحرَّف ولم يُبدَّل، ولم يُغيَّر، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن المحكم يكشف المتشابه.

رابعًا: أن يؤمن برسل الله إلى عباده، وأنهم أمناء الله على وحيه، وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق، وأن بعضهم أفضل من بعض.

ومعنى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي: نحن -المؤمنين- لا نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فالمسلم يؤمن بالرسالات السابقة كلها قبل محمد ﷺ يؤمن برسالة نوح، ورسالة إبراهيم وموسى وعيسى، وغيرهم من رسل الله، ممن ذَكر الله في كتابه، وممن لم يذكر على أنها رسالات سبقت ونُسخت، وانتهى زمانها ومكانها، وكل رسالة منها أدت غرضها في وقتها، ثم نسختها الرسالة التي تليها، فالمسلم يؤمن برسل الله جميعًا على هذا النحو.

وفي الآية إشارة إلى أن اليهود والنصارى يُفرِّقون بين رسل الله؛ فاليهود لا يؤمنون بعيسى ﷺ، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ، وَيُفَرِّقون بين موسى وعيسى، والنصارى يفرقون بين عيسى ومحمد، مع أن الوحي الذي نزل على هذا الرسول، هو نفسه الذي نزل على الرسول الآخر، فهذه تفرقة بين رسل الله، والمؤمنون يستجيبون لكل ما جاء من عند الله ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ربنا ما أوحيتَ به إلى رسلك، وأطعنا في كل ذلك، فاغفر لنا ربنا بفضلك، فإليك المرجع وإليك المصير، وذلك أن المؤمنين حين نزلت عليهم هذه التكاليف من أركان الإيمان وسواها قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا الدعاء تَلْقِين من الله تعالى لرسوله وعباده المؤمنين.

الجَزاءُ عَلَى القَوْلِ وَالعَمَلِ وَلا مُؤَاخَذَةَ عَلَى الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ

٢٨٦-﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه بعض مظاهر رحمته بعباده، وأنه ﷻ يَسَّر على خلقه، ولم يكلفهم فوق الطاقة، فمن فعل خيرًا نال خيرًا، ومن فعل شرًّا نال شرًّا.

قال المفسرون: لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ جاء أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وناس من الأنصار إلى النبي ﷺ فجثَوْا على الرُّكَب، وقالوا: يا رسول الله، والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إنَّ أحدَنا ليُحدِّث نفسه بما لا يحب أن يَثْبُتَ في قلبه، وأن له الدنيا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا؟ هَلَكْنا والله!! فقال النبي ﷺ: «**هكذا أنزلت**» فقالوا: هلكنا وكُلِّفنا من العمل ما لا نطيق، قال: «**فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا**» فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وأنزل الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ الآية، واشتد ذلك عليهم، ومكثوا حوْلًا، فلما سمعوا واستجابوا لربهم أنزل الله تعالى الفرج والراحة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ فنسخت هذه الآية ما قبلها، أي: وضَّحتْها وبينتْها وخَصَّصَتْهَا.

قال النبي ﷺ: «**إن الله قد تجاوز لأمتي ما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به**»[(١)].

والله تعالى لا يكلف نفسا ما يشق عليها كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨] والأوامر والنواهي التي جاء بها الإسلام، ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وعند وجود الأعذار التي هي مظنة

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣٤٢) والقرطبي (٣/ ٤٢٧) وغيرهما، وقد جاء هذا المعنى في الصحيحين والسنن والمسانيد، انظر حديث ابن عباس في المسند (٢٠٧٠، ٣٠٧٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وصحيح مسلم (١٢٦) والترمذي (٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٥٩) والحاكم (٢/ ٢٨٦) والطبري (٣/ ١٦٠).

المشقة يكون التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف أو إسقاط بعضه، كما في المريض والمسافر،

ولما أخبر سبحانه أنه لا يكلفنا فوق طاقتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل قال: قد فعلت، إجابة لهذا الدعاء.

وهكذا فإن الله جل شأنه يعلمنا أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

والنسيان المعفو عنه هو الذي يكون عن سهو وغفلة، أما النسيان الذي يكون عن تفريط وتقصير وتضييع، فإنه غير داخل فيه، وكذلك الخطأ الذي يكون عن جهل أو عن ظن فإنه يختلف عما يفعله الإنسان عن إهمال أوتهور مخالفًا ما نهى الله تعالى عنه، فإنه يؤاخذ عليه، وعلى هذا **فالنسيان على وجهين:**

أحدهما: ما يكون بسبب الإهمال والتقصير و التفريط، فيترك العبد ما أُمر بفعله أويفعل ما نُهي عنه، كمن ينسى الصلاة لانشغاله عنها بالعمل أو اللهو وما أشبه ذلك، وهذا النسيان هو الذي يقول الله فيه ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وهو الذي يعاقب الله العبد عليه، ويطلب العبد من ربه ألا يؤاخذه عليه في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أما النسيان الذى يكون عن سهو وغفلة فهو المعفوّ عنه، كما جاء في الحديث (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استنكر هوا عليه).

وثانيهما: ما يكون بسبب عجز الإنسان عن حفظ ما أسند إليه أو وُكل إليه حفظه؛ لضعف احتمال ذاكرته له، فهذا غير مؤاخذ عليه، لعجز عقله عن وِعاء ما وُكل إليه، وذلك كالحريص على حفظ القرآن أو شيء منه، ولكنه مع كثرة تعاهده ومراجعته ينسى، فلا ذنب للعبد في هذا، ولا وجه لمساءلته، وكذا ما يكون عن غفلة وسهو غير مقصود، كمن يخالف أمرًا أو نهيًا في لحظة ضعف أو نسيان من غير إصرار ولا تعمد.

والخطأ أيضًا على وجهين:

الأول: أن يفعل العبد ما نُهي عنه، أو يترك ما أُمر به من غير قصد مخالفًا أمر الله تعالى ونهيه، فهذا خطأ شرعي مؤاخذ به، والعبد يسأل ربه الصفح عنه. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

الثاني: ما يفعله العبد جهلا، وظناً منّه أنه على صواب، ثم يتبين له أنه كان على خطأ كمن يأكل

بعد أذان الفجر ظانًّا أنه لم يُؤذِّن وهو ناوٍ للصيام، أو من يقوم للركعة الخامسة ظنًّا منه أنها الرابعة.

والفرق بين النسيان والخطأ، أن النسيان: ذهول القلب عما أمر به، فيتركه نسيانًا، أما الخطأ فهو أن يقصد شيئًا يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله، فهذان قد عفا الله عنهما رحمة منه وإحسانًا.

ثم يسأل العبد ربه ألا يُحمله من التكاليف الشاقة التي كانت على الأمم السابقة كمن كانوا مكلّفين بصيام شاق، أو بخمسين صلاة في اليوم والليلة، أو يُخرجون ربع أموالهم زكاة، أو أن الذنب يكتب على باب المذنب، والثوْب لا تزول نجاسته حتى يُقرَض، أي: يقطع المكان، وينزع من الثياب، والتوبة من الشرك أو الكفر لا تكون إلا بقتل النفس كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ وغير ذلك من التكاليف الشاقة التي كانت على بني إسرائيل، ورفعها الله سبحانه عن هذه الأمة، ثم يسأل العبد ربه قائلًا: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ اعف عنا الذنب الكبير، واغفر لنا الذنب الصغير.

وهذه الآية قد اشتملت على **سبعة أدعية** عَلَّمنا إياها رب العالمين لندعوه بها:

الدعاء الأول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يا رب، يا واسع العفو والمغفرة لا تعاقبْنا إن نسينا أمرك أو نهيك، أو خالفنا الصواب جهلًا منا بوجهه الشرعي.

الدعاء الثاني: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي: ذنبًا عملا شاقًا ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يا رب لا تكلفنا بتكاليف شاقة نعجز عنها كما كلفتَ بعض الأمم قبلنا.

الدعاء الثالث: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ يا رب لا تُحمّلنا ما يشق و يصعب علينا مُزاولته، فنسألك يا ربنا ألا تبتلينا بما لا نطيقه ولا نقدر عليه مما لا نستطيعه.

الدعاء الرابع: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ يا ربِّ تجاوز عن ذنوبنا، وامحُ عنا ما ألَمَّ بنا من سيئات ومعاصٍ.

الدعاء الخامس: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ يا ربِّ استُر عيوبنا، ولا تفضحنا في الدنيا ولا في الآخرة، فأنت وحدك الغفَّار السِّتير.

الدعاء السادس: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ يا رب ارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء؛ فإننا مع

تقصيرنا في طاعتك نرجو ألا تحرمنا من رحمتك وعفوك.

الدعاء السابع: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يا رب أنت ولي النعم، ومتولي أمورنا، وحافظنا وناصرنا ومعيننا، فانصرنا يا ربنا على كل من جحد وحدانيتك، ولم يؤمن بخاتم رسلك؛ لكي تكون كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ قال الله ﷻ: قد غفرت لكم، فلما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله ﷻ: لا أحملكم، فلما قرأ ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم، فلما قرأ ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ قال الله عزَّ و جلَّ: قد رحمتكم فلمَّا قرأ: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الله عزَّ و جلَّ: قد نصرتكم عليهم[1].

ولما نزلت الآية قال الله سبحانه: قد عفوت عنكم، وغفرت لكم، ورحمتكم، ونصرتكم على القوم الكافرين[2].

فاللَّهمَّ انصرنا على القوم الكافرين، ولا تعاقبنا ربنا إن نسينا شيئًا مما افترضتَه علينا، أو أخطأنا في فعل شيء نُهينا عنه، ولا تكلِّفنا ربنا من الأعمال ما لا نطيق كغيرنا ممن سبقونا، ولا تعاقبنا بذنوبنا كما عاقبتهم، ولا تُحمِّلنا ما لا نستطيعه، وامحُ ذنوبنا، واستر عيوبنا، أنت ربنا، ومالك أمرنا، فانصرنا على من جحد دينك، وأنكر وحدانيتك، وكذَّب نبيك محمدًا ﷺ واجعل الدائرة عليهم، والعاقبة لنا في الدنيا والآخرة.

وكان معاذ ﷺ إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: آمين[3].

---

(١) رُوي مرفوعًا وموقوفًا، يُنظَر: تحقيقه للعلامة أحمد شاكر في «تفسير الطبري» برقم (٦٥٣٤) والمرفوع أرجح وأصح إسنادًا.

(٢) الحديث رقم (٦٥٣٤، ٦٥٤٠) في «تفسير الطبري» عن ابن عباس.

(٣) الأثر برقم (٦٤٢) في «تفسير الطبري» (٦/ ١٤٦).

ومما ورد في فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ما جاء:

١- عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في لَيلةٍ كَفَتَاه**»[١].

٢- وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيتُ خواتِيمَ سورة البقرة من كَنْزٍ تحت العرش، لم يُعطَهن نبي قبلي**»[٢].

٣- وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلت الأرض كلها لنا مسجدًا، وجُعِلت تربتها لنا طهورًا، وجُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وأُوتِيتُ هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يُعطَ منه أحد قبلي، ولا يعطى منه أحد بعدي**»[٣].

٤- وعن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربَها شيطان**»[٤].

٥- وعن ابن عباس ﷺ قال: «**بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فُتح من السماء ما فُتح قَطُّ، قال: فنزل**

---

(١) صحيح البخاري» برقم (٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و«صحيح مسلم» برقم (٨٠٨/٢٥٦) و«المسند» (٤/١٢١) برقم (١٧٠٦٨) وأبو داود برقم (١٣٩٧) والترمذي برقم (٢٨٨١) وقال: حديث حسن صحيح والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٥٥٨٠) ((١٠٥٥٤) وابن ماجه (١٣٦٩) والدارمي (٢/ ٤٥٠) وابن حبان (٧٧٨) والبيهقي (٣/ ٢٠).

(٢) «المسند» (٥/ ١٥١) برقم (٢١٣٤٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٢٢) والطبراني (٣٠٢٥) والبيهقي في «الشعب» (٢١٧٨، ٢٤٠٤) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٣) «السنن الكبرى للنسائي» برقم (٧٩٦٨)، والمسند (٢٣٢٥١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي مالك الأشجعي، فمن رجال مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٢٦٣) والطيالسي (٤١٨) ومسلم (٥٢٢) والبزار في مسنده (٢٨٣٦) والطبراني في الكبير (٣٠٢٥) والأوسط (٤١٥٧) وغيرهم.

(٤) قال الترمذي: هذا حديث غريب، «سنن الترمذي» برقم (٢٨٨٢) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرك» (١/ ٥٦٢) وأخرجه الطبراني عن شداد بن أوس برقم (٧١٤٦) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٥): رجاله ثقات وهو في «سنن النسائي الكبرى» (١٠٨٠٣) وابن حبان (٧٨٢) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١١) وأبو عبيد ص١٢٤ و وهو في المسند (١٨٤١٤) بإسناد حسن ورجال ثقات.

مَلَك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفًا منهما إلا أوتيته»[١].

٦- وقال علي ﷺ: (ما أرى أحدًا يعقل بَلَغَهُ الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسيِّ وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش)[٢].

٧- وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة؛ فإن الله اصطفى بهما محمدًا»**[٣]

تم تفسير (سورة البقرة) ولله الحمد والمنة



(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٦) و«سنن النسائي» (٢/١٣٨) واللفظ له.

(٢) قال النووي: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وقد رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» برقم (١٦٩) من طريق أبي إسحاق عن عمير بن سعيد.

(٣) «المسند» (٤/١٤٧) ((١٥٨) برقم (١٧٤٤٥) صحيح لغيره، وأبو يعلى (١٧٣٥) والطبراني في الكبير (٧٧٩) وإسناده حسن، قال الهيثمي في «المجمع»: (٦/ ٣١٥) فيه عمرو بن الحارث بن سويد الحاسب المهري ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٢٤.

تَفسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمرَانَ (٣)

مُقَدِّمَةُ السُّوْرَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، سُميت بهذا الاسم لذكر قصة آل عمران فيها وهم: يحيى، وعيسى، ومريم.

وذكر الألوسي أنها تُسمَّى سورة الأمان والكنز والمجادلة، وسورة الاستغفار، ومن أسمائها الزهراء كما في حديث: «**اقرءوا الزهراوين**»، فهذه ستة أسماء.

وقد نزلت هذه السورة بالمدينة اتِّفاقًا سنة ثلاثٍ من الهجرة، بعد غزوة أُحد.

وهي مئتا آية باتفاق أهل العدد(١) وثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفا وخمس مئة وعشرون حرفًا.

وإذا كانت سورة البقرة في نصفها الأول قد خصَّت اليهود بالحديث عنهم، فإن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن النصارى، وهم الشِّق الثاني من أهل الكتاب، والنصف الثاني من سورة آل عمران تحدث عن غزوة أُحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، وعلَّقت السورة على ما أصاب المسلمين فيها من جراحٍ، وما يتخللها من أحكام، إلى ما قبل ختام السورة بعشر آياتٍ، أي: نحو سبعين آية.

وهكذا فإن وسورة آل عمران نزل نصفُها الأول -وقدره أربع وثمانون آية- بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ سنة اثنتين من الهجرة؛ لمناظرته في شأن عيسى عليه السلام(٢) لمَّا بلغهم مبعث النبي ﷺ، ونزل بعد ذلك ست وثلاثون آية تعقيبًا على تلك

(١) ذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره أن المصحف الشامي يعدها مئة وتسع وتسعون آية، ولم أجد ذلك في كتب هذا الفن (علم الفواصل)، ولمعرفة علم عدِّ الآى المتفق عليها والمختلف فيها ينظر: «بشير اليسر، ومعالم اليسر»، و«شرح ناظمة الزهر» للشاطبي وشرحها للشيخ عبد الفتاح القاضي، وله أيضا: «نفائس البيان شرح الفرائد الحسان»، وللشيخ أحمد البنا: «إتحاف فضلاء البشر» وغيرها.

(٢) يستبعِد (سيد قطب) -رحمه الله- أن تكون هذه الآيات نزلت في وفد نصارى نجران، سواء صحت الروايات أم لم تصح؛ لأن الوفد قدم على المدينة في السنة التاسعة من الهجرة، وجوُّ السورة يشير إلى نزولها في الفترة الأولى من الهجرة، وهو كلامٌ وجيهٌ، ولكنَّا لا نجد له سندًا وهو وهْمٌ منه رحمة الله عليه.

قلت: وقد قدم وفد نجران على النبي ﷺ في مكة حين بلغهم خبره بعثته ﷺ كما جاء في سبب نزول آية (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) [القصص: ٥٢] وذكر المفسرون أن وفد نجران قدم إلى المدينة سنة اثنتين من الهجرة؛ فلا يلزم أن تكون هذه الحادثة عام الوفود.

القصة؛ ليعتبر أهل الكتاب.

قصة وفد نصارى نجران:

قَدِمَ هذا الوفد المكوَّن من ستين رجلًا فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم، وثلاثة من أكابرهم: أميرهم (العاقب) ووزيرهم (السيد) وحَبْرهم (أبو حارثة) دخلوا مسجد رسول الله ﷺ في صلاة العصر، فلما حانت صلاتهم صلُّوا إلى جهة الشرق، فلما فرغوا تقدموا إلى رسول الله ﷺ يناظرونه في شأن عيسى ﵇، وهم يمثِّلون في حواراتهم ومُناظراتهم فرق النصارى ومذاهبهم المختلفة.

فقالت فرقة منهم للنبي ﷺ: إن عيسى هو الله، واستدلوا على ذلك بأنه: يُحيي الموتى، وأنه يُبرئ الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا، وأنه يعلِمُهم بشيء من الغيب مما يأكلونه ويدَّخِرونه في بيوتهم، وهذه الأمور من خصائص الألوهية.

والجواب على ذلك معروفٌ، فهذه الأشياء التي ذكروها أجراها الله ± على يدِ عيسى ﵇ من باب المُعجزة الدالة على صدقه في رسالته؛ فإن معجزة كل رسول تكون من نوع ما نبغ فيه القوم.

فقوم موسى كانوا سحرة، فجاءهم موسى ﵇ بمُعجزة خارقة للعادة من جنس السِّحر، لا يستطيع السَّحرة أن يفعلوها، وهي قلب العصا حيَّة، وما إلى ذلك.

وقوم محمد ﷺ كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فكانت معجزة الرسول ﷺ مناسِبَةً لحال القوم، مما نبغوا فيه من الفصاحة والبلاغة، وهي هذا القرآن الكريم، وأنه معجزةٌ قائمةٌ إلى يوم الساعة، وليست معجزةً كونيةً يراها الناس ثم تنصرف عنهم، ولكنها بين أيديهم إلى يوم القيامة.

وكانت معجزةُ عيسى ﵇ من نوع ما نبغ فيه قومُه، فقد كانوا أطباءَ ماهرين، بلغ الطب ذروته في عهد عيسى ﵇، فأراد الله سبحانه أن يُجري على يدَيْ عيسى من المعجزات من نوع ما نبغ فيه القوم، ولكنها فوق مستوى البَشر؛ فمهما بلغ الطب من تقدُّم، فإنه لن يصل إلى معرفة إحياء الموتى، ولن يصل إلى معرفة شيء من علم الغيب. وكان عيسى ﵇ ينبئهم -كما ذكر القرآن- بما يأكلون، وما يدَّخِرون في بيوتهم، فهذا الذي أجراه الله

على يديْ عيسى عليه السلام هو معجزة له بإذن الله تعالى، وليس من صُنع عيسى ولا من قُدرته.

وقالت الفرقة الثانية التي تُمثِّل مذهبًا آخر من مذاهب النصارى: إن عيسى هو ابن الله، واستدلوا على ذلك بأنه قد وُلِد بغير أبٍ، وأنه قد تكلَّم في المهد، وهذا أمرٌ خاصٌّ بعيسى في زعمهم.

والجواب على ذلك: أن خلْق عيسى من غير أبٍ -كما ذكر الله سبحانه- آيةٌ من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى؛ كي تكتمل القِسْمَة العقلية، فالله سبحانه أراد أن يبيِّن لخلقه أن خلْقه للإنسان لا يتوقف على تلقيح الذكر للأنثى، فقد خلق الله آدم بغير أبٍ ولا أمٍ، وخلق حواء بغير أم، وخلق عيسى من غير أبٍ، وخلق الناس جميعًا من أبٍ وأمٍ. وهذا هو مقتضى القسمة العقلية، أربعة أصناف لا تخرج عنها الخليقة، فخلْق الله تعالى لعيسى من غير أب، آية دالة على قدرة الله سبحانه، وأنه لا يحتاج في خلْقه للإنسان إلى هذا التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة، وإنما الله سبحانه قد يخلق الإنسان من غير أب، أو يخلقه من غير أم، أو يخلقه بأب وأم، أو يخلقه بدونهما، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

فليس عيسى ابن الله، حاشا لله عزّ وجل.

وأمّا كلامه عليه السلام في المهد فهذا لا يخص عيسى وحده، فقد بيَّن النبي ﷺ أن هناك ثلاثة تكلموا في المهد وهم صغار، وقيل أربعة: عيسى عليه السلام، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون[1]. هؤلاء أربعةٌ تكلموا في المهد، فهذه حجةٌ لا تصلح؛ لأنها لا تخص عيسى وحده من بين البَشر.

وقالت الفرقة الثالثة: إن عيسى ثالث ثلاثة، أي: أن الإله عندهم مكوَّن من ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس. واستدلوا على ذلك بأن عيسى يقول: قلنا وفعلنا وخلقنا، وهذا يدل على جمع، ولو أنه واحد لقال: قلتُ وفعلتُ وخلقتُ وهكذا.

والجواب على ذلك معلومٌ، فالإنسان يُعظِّم نفسه، ويتحدث عنها ويقول: نحن فلان

---

(١) ينظر أدلة ذلك في الآية (٤٦) من هذه السورة، وفي سورة مريم عند قوله تعالى (قال إني عبد الله...)

وهو شخصٌ واحدٌ، ويقول: قمنا بكذا، وشرحنا كذا، وفعلنا كذا... وهكذا- معبِّرًا عن نفسه، ومعظِّمًا لها، يُعبِّر بهذا الضمير الذي يصلُح لأكثر من واحد عن نفسه، لا سيما الملوك وكبار القوم. وهذا تعبيرٌ سائغٌ في العربية، وليس هناك وجهٌ للاعتراض عليه.

ولما ذكر الوفد للنبي ﷺ؛ أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة:

١- قال ﷺ: **«ألستم تعلمون أن ربَّنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسى يموت؟»** قالوا: بلى.

٢- قال ﷺ: **«ألستم تعلمون أن كل ولدٍ يُشبِه أباه»**، وأن عيسى ليس له أب يشبهه؟ قالوا: بلى.

وهكذا: فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وهو واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا والد له ولا ولدٌ، فمن يشبهه؟! هل هو عيسى عليه السلام؟!

٣- قال ﷺ: **«ألستم تعلمون أن ربَّنا قيِّمٌ على كل شيء يحفظه ويرزقه؟»** قالوا: بلى، قال: **«فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟»** قالوا: لا.

٤- قال لهم النبي ﷺ: **«ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟»** قالوا: بلى. قال: **«فهل يعلمُ عيسى من ذلك إلا ما علَّمه الله سُبحانه إياه وأخبره به؟!»** كما قال سبحانه في أمور الغيب: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] أي: فإنه يخبره ويُعْلِمه بشيء من الغيب، وفق مراد الله سبحانه.

٥- قال النبي ﷺ لوفد نصارى نجران: **«ألستم تعلمون أن الله تعالى قد صوَّر عيسى في الرحم كما يشاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب؟!»** قالوا: بلى[1].

والله سبحانه يصوِّر الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء، وعيسى قد صُوِّر كذلك في رحم أُمِّه.

٦- قال ﷺ: **«ألستم تعلمون أن عيسى حملتْه أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعتْه كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يُغذَّى الصبيُّ، ثم كان يَطْعم ويشرب ويُحْدِث؟»** قالوا: بلى.

(١) شرحتُ سبب النزول بالمعنى، وأضفتُ إليه ما يوضحه. ينظر النص عند ابن اسحاق (٢/٢١٨) وما بعدها، وابن جرير (٣/١٠٨) وما بعدها، وكتب التفسير.

فعيسى قد حملته أمه بين أحشائها، ووضعتْه، وأرضعتْه، وغُذِّي كما يُغذَّى الصبية. وهو يأكل ويشرب، و يدخل الخلاء، فيبول ويتغوَّط، وليس هذا مناسبًا ولا جائزًا في حق الذات العُليا جلَّ في عُلاه، وربُّنا سبحانه لا يأكل ولا يشرب، ولا يُحدِث ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: هو وأمه، ومعنى ذلك أنهما يدخلان الخلاء، ويتبوَّلان ويتغوَّطان كما يفعل البشر.

قال: فكيف يكون عيسى إلها كما زعمتم؟! فسكتوا.

أبى القوم إلا الجحود، وتداولوا أمرهم، وهم فيما بينهم معترفون بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولكن حب الرئاسة والكبرياء والجحود هو الذي يمنعهم من تصديق محمد ﷺ.

٧- قال ﷺ: **«ألا تُسْلِمُوا؟»** قالوا: قد أسلمنا قبلك.

٨- قال ﷺ: كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاثة أشياء:

أ- ادِّعاؤكم أن لله تعالى ولدًا، وهذا شرك أكبر بالله سبحانه.

ب- وعبادتكم للصليب. ج- وأكْلكم لحم الخنزير.

هذه ثلاثة تُكذِّب ادِّعاءكم أنكم قد أسلمتم، وكل واحدة منها تمنعكم من الإسلام.

ثم قالوا بعد حوارهم مع النبي ﷺ: نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك أمينًا نحكِّمه فيما بيننا، ويقوم بالقضاء فيما اختلفنا فيه.

فقال النبي ﷺ: **«ائتوا في العشية أُرسل معكم رجلًا من أصحابي»**. وفي المساء اجتمع أصحاب النبي ﷺ للصلاة، وأخذ كل واحد منهم يستشرف ويتطلع أن يكون هو الذي يرسله النبي ﷺ مع القوم، حتى إن عمر -رضوان الله عليه- يقول: ما أحببت الإمارة قط كما أحببتها يومئذ؛ رجاء أن أكون صاحبها، فجعلْتُ أتطاول بعد الصلاة -وهو في المسجد، أي: يَمُدُّ عنقَه لأعلى؛ كي يراه النبي ﷺ فيؤمِّره على القوم- فلما سلَّم الرسول ﷺ أخذ ينظر يمْنةً ويسْرةً ثم وجد أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: قم يا أبا عبيدة، وأمَره أن يذهب معهم، ثم قال لهم: **«هذا هو أمين هذه الأمة»**.

ولمَّا قال وفد نصارى نجران للنبي ﷺ في نهاية الحوار عن عيسى: إذا لم يكن هو ابن

الله، فمن أبوه؟ فصمت النبي ﷺ بعض الوقت: فأنزل الله سبحانه أربعًا وثمانين آية من صدر سورة آل عمران، تبيِّن شأن عيسى عليه السلام، وتردُّ عليهم بأنه إن كانت منازعتكم معشر النصارى في معرفة الإله فهو الله الذي لا اله إلا هو الحيُّ القيُّوم، فكيف تُثْبتون له ولدًا؟! فبيَّن تعالى أنه لا يستحق العبادة أحدٌ سواه؛ لأنه الواحد الأحد، ليس له شريك ولا ولد، وهو الدائم الباقي الذي لا يموت، المتَّصِف بالحياة الكاملة، القائم على كل شيء، ومنها تدبير شؤون الخلق ومصالحهم.

مَوْضُوْعَاتُ السُّورَةِ

يمكن تقسيم سورة آل عمران إلى ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول عن نصارى نجران:

وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ الآية الرابعة والثمانون، وهذه الآيات تتناول قصة وفد نصارى نجران الذي قَدِمَ على النبي ﷺ بالمدينة بعد معرفتهم برسالته؛ ليسألوه عن عيسى عليه السلام، وهو القسم الأول من القصة.

يلي هذه الآيات ست وثلاثون آية تُعَقِّب على هذه القصة، وهو القسم الثاني المتعلق بها.

وقد قدَّمت السورة في أولها لهذه القصة بآيات فيها إثباتٌ لوحدانية الله تعالى، وإثباتٌ لصدق صاحب الرسالة الأخيرة وكتابه، وفيها ردٌّ على الشبهات التي يُثيرها أهل الكتاب عن الإسلام، وتحذيرٌ لهم من الانصراف إلى غيره، ومن اتِّباع شهواتهم وملذَّاتهم. والإسلام يعرِض دعوته عليهم، ويقرِّر أن الدِّين عند الله هو الإسلام، فمن استجاب له فقد فاز ونجا، وآخيناه وعاونَّاه، ومن أعرض عنه تصدَّينا له معتمدين على الله.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

وتُبيِّن آيات السورة في هذه المقدمة أن أهل الكتاب لما كانوا عاجزين تمام العجز عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقستْ قلوبهم، وساءت أخلاقهم، وتشبَّعوا من الدنيا، وردُّوا على الله أمره ونهيه، وأشركوا معه غيره، وتطاولوا عليه بما لا يليق بجلاله.

لهذا وغيره كان لا بد من صرف الوحي عنهم إلى جنس آخر من البشر؛ خير منهم حالًا ومآلا، فكان أن تحولت منهم النبوة إلى العرب، فأثار هذا حقْدهم وحسدهم وكُفْرهم وعنادهم، ولم يتأمل القوم قول الله تعالى في مقدمة الحديث عن وفد النصارى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وهذه الآيات سبقتْها مقدِّمات وحيْثيَّات الحكم في آيات قبلها:

منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

والكلام وإن كان تقريعًا لأهل الكتاب، إلا أن العِبْرة موجَّهة إلى الذين شرَّفهم الله تعالى بأن بدأت رسالة الإسلام منهم، حتى لا يتجرَّدوا عن إسلامهم، أو ينسلِخوا من العمل بتعاليمه، فتكون عاقبتهم كعاقبة الذين مسخهم الله قردة وخنازير؛ فالناس سواسية، وسُنَّة الله في خلقه لا تتخلَّف.

وتمضي الآيات في ذكر آل عمران حيث ينحدر منهم عيسى، ومن ثَمَّ إلى حوار النصارى، حتى مباهلتهم.

القسم الثاني من الحديث عن وفد نصارى نجران:

يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ إلى نهاية الآية العشرين بعد المئة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وهو ستٌّ وثلاثون آية، تُعقِّب على حوار أهل الكتاب، فتُعَنِّفهُم على عدم إيمانهم بخاتم الأنبياء، وتحذِّرهم من سوء المصير، وتَرُدُّ على شبهاتهم.

وفي هذا السياق تأتي هذه النداءات السبع إلى أهل الكتاب من اليهود:

١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

٢- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨].

٣- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [٩٩].

٤- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [٦٤].

٥- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ [٦٥].

٦- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

٧- ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

وفي الردِّ على هذه النداءات السبع يقول تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾

وفي هذا المقطع من السورة ردٌّ على الشُّبُهات التي يثيرها أهل الكتاب، فقد قالوا: كيف نتبعُ دينًا يستبيح الأطعمة المحرمة علينا ونحن نبتعد عنها ولا نأكلها؟ فأجابهم الله تعالى بأن حظْر هذه الأطعمة عليهم كان موقوتًا وطارئًا، فقد كانت الأطعمة كلها حِلًّا لبني إسرائيل، فلما فَسقُوا واستمْرأُوا العدوان، عاقبهم الله بذلك ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولما نزل القرآن عاد بالتشريع إلى أصله فلم يحرِّم إلا الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به والدم المسفوح.

وفيما يتعلق بشُبهتهم حول تحويل القِبْلَة فإن البيت الحرام هو القبلة الأولى والأخيرة للناس كافة، وقد كان التحول لبيت المقدس لظروف عارضة، وقد زالت العوارض ورجعت المياه إلى مجاريها، واسْتُؤنف التكريم للبيت العتيق ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾.

الموضوع الثاني عن غزوة أحد:

وبعد هذا التعقيب على أهل الكتاب يأتي العنصر الثاني في السورة وهو الحديث عن غزوة أُحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ إلى الآية التاسعة والثمانين بعد المئة، أي: في تسع وستين آية.

وفي ثنايا الحديث عن غزوة أحد يأتي الحديث عن الرِّبا في إشارة إلى أن الأموال المحرمة إذا دخلت في التصنيع الحربي أو في شراء الأسلحة، فإن ذلك يكون سببا في

الهزيمة، ولذا جاءت الدعوة في ثنايا الآيات إلى الإنفاق في السراء والضَّراء، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله فإن الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وجاء الأمر بالإسراع إلى التوبة بعد مقارفة الذنب، لأننا إذا استوينا مع العدو في ارتكاب المعاصي تفوّق علينا بقوة السلاح، وبعد ذلك يواصل الحديث عن نتائج المعركة.

والقرآنُ بهذا يشير إلى أن سبيل النصر على العدوِّ هو إصلاح الجبهة الداخلية أوَّلًا، وتطهيرها من كل محرَّم كالربا والخمر والزنى، والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فإن هذا من الانتصار على النفس، ولن ينتصر العبد على عدوه إلا إذا انتصر على نفسه، ولذا قال أحد الصحابة حين رجع من الغزو في سبيل الله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) فسمّي جهاد النفس جهادًا أكبر، وجهاد العدو جهادٌ أصغر، لأن جهاد العدو لابد له من جهاد النفس أوّلًا، ولابد من بذل النفس والنفِيس لإعداد العُدَّة والأخذ بوسائل النصر المادية والمعنوية، وبهذا تكون الأمة أهلًا للانتصار، فإن هذا الانتصار ليس انتصار الأشخاص، إنما هو انتصار المبادئ السامية والمسالك القويمة.

والخصومات الشخصية -بين الأفراد أو الشعوب والأمم، أو بين بعض الحكام - ليس لها مجالٌ في الحروب، فإن مصلحة العباد والبلاد أكبر من ذلك، ولأن خصوم الأمس قد يكونون أصدقاء الغد إذا اصطلحوا مع الله ورسوله، وزالت أسباب العداوة، ولذا عاتب الله نبيه لمّا دعا على بعض خصومه بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

وهزيمة أُحد لم تكن من سُوء التخطيط، بل كانت من التَّفريط في إنفاذ أوامر القيادة، حين خالف الرماة أمر نبيهم وتركوا مواقعهم، بسبب حبِّ الدنيا والتطلع إليها، والرغبة في جميع الغنائم من بطن الوادي، ظنا منهم أن النصر قد تم للمؤمنين، والله تعالى قادرٌ في كل وقت أن يهزم الباطل ويُخزي أهله ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقد ربط الله الأسباب بالمسببات وربط النتائج بالمقدمات في مثل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وبعد ذكر نتائج المعركة، أخذت الآيات تُداوي الجراح، وتشدُّ العزائم، وتُعيد للمؤمنين تماسكهم.

فقد كان هناك رجالٌ رَكلُوا الدنيا بنعالهم، ومضوْا إلى ما عند الله، لا يلْوُون على شيء.

وهناك رجالٌ ثبتوا إلى آخر رمق.

وهناك نساء انطلقْن إلى المعركة بقلوب ملؤها البطولة والفداء، وهناك من رُزق الشهادة، وهناك، وهناك.

منهم: **عبد الله بن حرام،** كان له غلامٌ واحدٌ هو جابر، وست بنات، فلم تَطِب نفسُه حتى خرج إلى المعركة تاركًا بناته الست وراءه، ورُزق الشهادة.

وأنس بن النضر وُجد به ثمانون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، لم تعْرفه إلا أخته، عرفتْه من أطراف بنانه.

وفي ثنايا التعقيب على غزوة أحد، يُلْفت القرآن نظر أتباعه إلى جُرْأة اليهود على ربهم في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ وإلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ١٨١] لقد سمع الله قولهم وسجله عليهم، وعلم فعلهم، وسوف يجازيهم على ذلك عذاب الحريق، فتأتي النار على أجسادهم وجوارحهم، وفي هذا عبرة وعظة، لأن ترك مثل هذه الجرائم، يكون سببا في النصر على العدو.

وينقطع الحديث عن غزوة أُحد ليتصل بأهل الكتاب مرة أخرى ليُعرِّفنا طبيعتهم ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [١٨٦].

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران].

وفي السورة خلال آياتها يُوجِّه الله تبارك وتعالى **سبع نداءات للمؤمنين** تُولي فيها هذه الآيات اهتمامًا بالغًا بالعناية بتربية المؤمنين تربيةً صالحةً عالية المستوى يعرفون من خلالها طبيعة عدوهم حتى يأخذوا حذرهم، ويبتعدوا عن كبائر الذنوب، ويمتثلوا أمر ربهم ويجتنبوا نهيه، ويصبروا عند اللقاء،ويصابروا عدوهم، ويلزموا الحدود والثغور،

حتى يتحقق لهم النصر على عدوِّهم، ويكونوا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذه **النداءات السبع** هي قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [١١٨].

٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [١٥٦].

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

الموضوع الثالث في السورة عن دلائل وحدانية الخالق سبحانه:

والآيات العشر الأواخر من السورة تنتقل بالإنسان من ذكريات الماضي بحلْوه ومرِّه، فتُلفت نظره إلى هذا العالم الذي يعيش فيه، ويرى خيْراته ونعمه ودلالاته على وحدة الصانع سبحانه، فكأن هذه الآيات تقول للإنسان: اترك الخلاف بين الشرائع واطْرحه الآن جانبًا، وأعْمِل عقلك الذي ستُحاسب به، وفكِّر في مصيرك بعد هذه الدنيا، لماذا تنسى ربك؟! لماذا تبتعد عن صراطه المستقيم؟! أكثر من التسبيح والتحميد والثناء على الله سبحانه، يجب أن تلوذَ بجناب الله تعالى وتلجأ إلى حماه في كل وقت وحين.

لقد جاء محمد ﷺ وأخذ يصيح بأهل الأرض: أن تُوبُوا إلى رُشْدكم وآمنوا بربكم، أفلا يستحق هذا الداعي أن نتدبَّر دعوته ونستجيب لها؟ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إن الله تعالى يجيب هذا الدعاء، ولا يُضِيعُ عمل عامل من ذكر أو أنثى، لكن العُميان من عبدة الأصنام والمتعصِّبين من أهل الكتاب تألَّبُوا على رسول الله وقاتلوه، وأخرجوه من بلده، فلْيكُن جزاؤهم من جنس ما فعلوا ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

ودعت آيات السورة في نهايتها أهل الكتاب أن يؤمنوا بالنبي الخاتم، وأَثْنتْ على من آمن منهم بمحمد ﷺ.

وأمر الله سبحانه المؤمنين في الختام بأربعة أوامر، هي مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق العزة والكرامة بالنصر على أعداء الله، الذين يجحدون وحدانية الله تعالى، ويكفرون بخاتم رسله، وهذه الوصايا الأربع هي: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، ورتَّب الله على ذلك الفوز والفلاح في الدارين، فهل من مُجيب؟

فَضْلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَعَ سُورَةِ البَقَرَةِ:

١- في صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراويْن: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صواف، تُحَاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإنَّ أَخْذَهَا بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»**[1].

قال معاوية -أحد رواة الحديث-: بلغني أن البطلة السحرة، والغياية السحابة والمَظَلَّة، وفِرْقان يعني: قطعتان.

٢- وعن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا: **«تعلَّمو البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظلّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فِرْقان من طير صواف»**[2]

٣- ومن ذلك حديث النواس بن سمعان وغيره سبق ذكره في أول سورة البقرة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) وابن حبان (١١٦) والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٢، ٨١١٨) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٣٩٥). وجاء مثله عن النواس بن سمعان في مسلم (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد برقم (١٧٦٣٧، ٢٢١٤٦).

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح.

تَفسِيرُ السُّورَةِ

حُرُوفُ التَّهَجِّي فِي فَوَاتِحِ السُّوَرِ

١ - ﴿الٓمٓ[١] ﴿١﴾﴾

هذه هي حروف التَّهجي، التي تحدَّى الله بها المكذِّبين بهذا الكتاب، من المشركين الوثنيين، ومن اليهود والنصارى وسائر المِلل والنِّحل، والسور التي افتُتحت بها تسعٌ وعشرون سورة، وهي سرٌّ من أسرار الله تعالى في هذا الكتاب، ومن المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وبهذه الحروف أيقظ الله المُعارِضين للقرآن، ونبَّهَهم إلى التأمُّل في هذا الكتاب المكوَّن من هذه الحروف والذي عَجَز أرباب الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مع أنه من جنس ما يتكلَّمون ويكتبُون ويقرؤون.

والآيات التي تلت هذه الحروف في فواتح السور، تشير إلى القرآن في جميع هذه السور، ما عدا ثلاثًا منها هي: مريم، والعنكبوت، والروم، وما عدا هذه الثلاث فالآية التي تلي هذه الحروف تتحدث عن القرآن المكوَّن منها، إشارة إلى أنها للتحدِّي والإعجاز، والتأمل في هذا الكتاب.

---

(١) (الم الله) قرأ جميع القراء بإسقاط همزة لفظ الجلالة، وتحريك الميم بالفتح، عند وصلهما معًا في التلاوة، وكان التخلص من الساكنين بالفتح لخفته ومراعاة لتفخيم لفظ الجلالة. ويجوز لكل القراء عند وصلهما وجهان:
أحدهما: مد الميم ست حركات؛ نظرا للأصل وعدم الاعتداد بالعارض.
وثانيهما: عدم مد الميم إلا مدًّا يسيرا أقل من حركتين، اعتدادًا بالسكون العارض بعدها، وعند الوقف على الميم يكون فيها المد فقط ست حركات.
وقرأ أبو جعفر بالسكت من غير تنفس على: ألف، ولام، وميم، على أنها حروف مستقلة مقطَّعة ويترتب على هذا السكت: المد ست حركات في لام وميم، وعدم جواز القصر؛ لأن سبب القصر هو تحريك الميم، وقد زال هذا السبب بالسكت، ويترتب على السكت أيضا: إثبات همزة الوصل من لفظ الجلالة حالة وصلها بما قبلها.
هذا: وقد عد (الم) آية المصحف الكوفي وتركها من العدد بقية المصاحف.

وَصْفُ اللَّه تَعَالَى لذَاتِهِ بِأَربَعَةِ أَوصَافٍ

٢- ﴿ٱللَّهُ لَآ[١] إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾

بدأ الله سبحانه السورة باسمه العلَم؛ لتربية المهابة في نفوس السامعين.

وثنَّى بكلمة التوحيد، من باب براعة الاستهلال في الردِّ على أهل الشرك من الوثنيين والنصارى. والآيات في سياق الرد على وفْدِ كنسيٍّ جاء ليُجادل النبي ﷺ في العقيدة التي قرروها، من القول بأن عيسى عليه السلام هو ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة! تعالى الله عما يقولون علُوا كبيرا.

وثلَّث بصفة الحياة الباقية الدائمة التي لا تفنى أبدا، وهي صفة ينفرد بها الإلهالحق، فهي حياة غير مسبوقة بالعدم، وغير منتهية إلى زوال، إنه سبحانه (الأول والآخر).

والوصف الرابع في الآية من صفات الإله المتفرِّد بالوجود والبقاء، وهي أنه سبحانه قَيُّوم على تدبير شؤون الكون، لا يغفل عنه لحظة من ليل أو نهار، فهو المتفرِّد بالألوهية، المستحق للعبادة دون سواه.

وهكذا افتتح الله السورة بالإخبار عن أُلوهيته، وأنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل، فهو الحي حياة كاملة مستلزمة لجميع الصفات التي لا تكتمل الحياة إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة والبقاء والدوام، فهو سبحانه قائم بنفسه، وهو القيوم، المستغني عن جميع المخلوقات، والكل مفتقر إليه، حيث يقوم بشؤون خلقه يدبرها ويصرفها، فهو سبحانه قائم بغيره.

اسم الله الأعظم:

هذا: وجاء عن رسول الله ﷺ أن **اسم الله الأعظم** - الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى- موجودٌ في آية الكرسي وفي أول سورة آل عمران، واللفظ المتَّفق عليه بين آية

---

(١) يجوز لكل من قرأ بقصر المد المنفصل التوسط في (لا) من كلمة التوحيد ويسمى هذا «مد التعظيم»، وهو سبب معنوي، وحمزة يمده ست حركات وكذا ورش، وابن ذكوان من طريق النقاش، وذلك للمبالغة في النفي.

الكرسي وأول سورة آل عمران، هو قول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾:

١- عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[١].

٢- وعن أبي أمامة يرفعه قال: «**اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه**» ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾[٢] وهذه الآية يتخللها كلمة التوحيد.

٣- وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن عُمير قال: قرأ رجل البقرة وآل عمران فقال كعب: قد قرأت السورتين، إن فيهما الاسم الذي إذا دُعي به أجاب[٣].

٤ - وعن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فقال والذي نفس محمد بيده: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب**»[٤].

٥- وعن أنس ﷺ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٤٦١) برقم (٢٧٦١١) قال محققوه: إسناده ضعيف لضعف عبدالله بن أبي زياد، وشهر بن حوشب، وأخرجه أبو داود (٢/١٦٨) برقم (١٤٩٦) وفي «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٧) والترمذي في «تحفة الأحوذي» (٩/٤٤٧) وقال: حديث حسن صحيح، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٤) وهوفي «السنن» (٣٤٧٨) وفي ابن ماجه (٢/٢٦٧) و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٥٥) وفي « السلسلة الصحيحة» برقم (٧٤٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه والطبراني في «الكبير» والطحاوي في «مشكل الآثار» عن هشام بن عمار برقم (١٧٦٨/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الدعاء (٩٤١٢) وفي الزهد (٣٨٥٥) والطبراني في «الكبير» (٤٤٠، ٤٤١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٧٥) وفي «الشعب» (٢١٦٦).

(٤) حديث صحيح في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٣٢٤) وفي «السنن» برقم (١٤٩٣)، وهو في المسند برقم (٢٣٠٤١) بنحوه، إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٧١) وابن ماجه (٣٨٥٧) والحاكم (١/ ٥٠٤) وانظر في المسند (٢٢٩٥٢) وهذا لفظه من حديث طويل عن بريدة ، بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه.

أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ **«لقد دعا باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»**[١].

وفي هذه الأحاديث ثلاثة من أسماء الله الحسنى هي: (الله، الحي، القيوم) فلعلها تكون هي اسم الله الأعظم مجتمعة، أو أحدها، أو اثنان منها هما ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، أو لفظ الجلالة كما جاء في الأحاديث السابقة، وفيها أنه إذا سأل به المسلم ربه أجاب سؤاله، وإذا دعاه به أجاب الله مطلوبه.

وفي هذه السورة يردُّ الله سبحانه على النصارى ويعلِمهم: أنه الله، حيٌّ دائمٌ لا يموت، وعيسى يموت.

وأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، وقائم على كل شيء في هذا الكون، فيدبر شؤون الخلق، ويرعاهم ويرزقهم، هذا هو معنى القيوم، وعيسى لا يقوم على شيء من الكون فإنه قد رُفع إلى السماء، وفي معتقدهم أنه صُلب، فكيف يكون إلهًا وهو لا يمنع الصَّلب؛ والتعذيب عن نفسه؟! إله يُصلب؟! كيف يستقيم ذلك؟!

الكُتبُ الثَّلاثَةُ وَأَوْصَافُ القُرآنِ الثَّلاثَةِ

٣، ٤- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ[٢] ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ[٣] إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

ومن قيامه تعالى بشؤون خلقه ورحمته بهم، أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ وهو أجل الكتب وأعظمها وأشملها، فما أخبر به حق وصدق، وما حكم به فهو عدل، وهو مصدق لما قبله من الكتب، ومن كفر بآيات الله المنزلة على رسله، فقد أعد الله له عذابًا شديدًا وهو المنتقم ممن عصاه وخالَف أمره.

(١) حديث صحيح في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٣٢٦) وفي «السنن» برقم (١٤٩٥)، وهو في المسند (١٢٢٠٥) بنحوه، وهو حديث صحيح أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٧٢) وابن ماجه (٣٨٥٨) والضياء في المختارة (١٥٥٢) والترمذي (٣٥٤٤) والطبراني في الكبير (٤٧٢٢).

(٢) قوله تعالى (وأنزل التوراة والإنجيل) لم يعدها آية المصحف الشامي، وهي آية عند بقية علماء العدد.

(٣) قوله تعالى (وأنزل الفرقان) لم يعدها آية المصحف الكوفي، وهي آية عند بقية علماء العدد.

وهكذا: أشار سبحانه إلى الكتب الثلاثة الرئيسة التي نزلت من عند الله عزّ وجل، وابتدأها بالقرآن، وأشار إلى أن التوراة والإنجيل نزلا من قبل لأداء مهمَّة معيَّنة في مرحلتين من مراحل دعوة الرسل، فأخبر سبحانه أنه جل شأنه نزَّل القرآن على محمد ﷺ بالحق الذي لا ريب فيه، يصدِّق الكتب قبله في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع.

وأنزل قبله التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، أنزلهما سبحانه هدى للناس من يهود ونصارى، قبل التحريف وأثناء صلاحية الرسالة، وأنزل القرآن هدى للمسلمين المؤمنين بما في هذه الكتب من الشرائع والأحكام، فهو الذي يُنزِّل الكتب السماوية على رسل الله، وعيسى ليس بإمكانه أن يفعل ذلك، بل هو رسولٌ أنزل الله عليه الإنجيل، كما نزَّل القرآن على محمد، وكما أنزل التوراة على موسى، فالكتب السماوية نزلت قبل عيسى وبعد عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو القرآن؛ لأنه الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وفارق بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في شأن عيسى.

وأعيد ذكره تعظيمًا لشأنه، ولبيان أن نزوله كان متأخرًا عن التوراة والإنجيل.

وقيل: إن الفرقان اسم جنس لجميع الكتب المنزَّلة من عند الله، ومن كفر بالكتب المنزلة من عند الله وآخرها القرآن، فله عذابٌ شديدٌ في الآخرة، والله عزيز لا يغلبه شيء، منتقم ممن كفر بآياته، وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنه لم يُنَزَّلْ جُملة واحدة، وإنما نزل مُنَجَّمًا مُفرَّقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال على مدى ثلاثة وعشرين عاما. وذلك ليسهُل استيعابه على الأمة، وليتدرج في تربيتهم، ويساير الحوادث، ويجيب على أسئلة السائلين، ويكشف حال الكافرين والمنافقين، ويُثَبِّتُ قلب النبي ﷺ وقلب المؤمنين، وقد بدأ نزوله ليلة القدر.

وللقرآن الكريم نزلان منسوبان إلى ابن عباس رضي الله عنهما:

أحدهما: من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الأولى.

وثانيهما: من بيت العزة على رسول الله ﷺ طول مدة الرسالة.

والوصف الثاني: أن هذا القرآن نزل متلبِّسا بالحق، مشتملًا على الحجج والبراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق صاحب الرسالة ﷺ، يحتوي ما يُصلح

البشر إلى يوم القيامة. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم ينزل عبثًا ولا لغوًا ولا لهوًا ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

الوصف الثالث: أن هذا القرآن يصدِّق الكُتب التي نزلت على رسل الله قبله، يُصدِّقها فيما أخبرت به عن قديم الزمان، وما بَشَّرَتْ به مِنْ وَعد الله تعالى بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه.

أما التوراة: فهي اسمٌ عِبرانيٌّ، ويُقصد بها غالبًا الألواح التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل طور سيناء، وفيها الوصايا العشر. وهذه الألواح أصل الشريعة التي جاء بها موسى، واليهود يسمونها (سِفْر طُورا) ومعنى طورا: الهدى. وقد فُقدت التوراة الأصلية في تابوت العهد.

أما الإنجيل: فهو اسمٌ يونانيٌّ معناه البشارة، وقد رُفع عيسى عليه السلام، وليس هناك إنجيلٌ مكتوبٌ، كما أنه لا يوجد إنجيلٌ باسم عيسى. والأناجيل الموجودة كتبها تلاميذه من بعده مما بقي في أذهانهم.

وما يوجد الآن من العهد القديم والجديد مما يشتمل على التوراة والإنجيل، قد امتدت إليهما أيدي التحريف والتبديل، وهما غير المنزَّلين على موسى وعيسى عليهما السلام ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

وجميع الكتب السماوية نزلت في شهر رمضان كما في حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: **«أُنزلت صُحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لستٍّ مضيْن من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان»**[1]. وليلة القدر كانت في هذه الليلة من هذا العام.

---

(١) «المسند» (٤/١٠٧) برقم (١٦٩٨٤) قال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطّان، وهو ممن لا يحتمل تفرده (فقد ضعفه قوم وأثنى عليه آخرون)، وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير عبدالرحمن بن عبدالله، فقد أخرج له البخاري متابعة، وهو ثقة، وأخرجه الطبراني (١٨٥) وابن أبي حاتم (٣٣٥) وحسنه السيوطي في فيض القدير مع الجامع (٣/٥٧). وقال الألباني: هذا إسنادٌ حسن ورجاله ثقات، «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٥) وله شاهد من حديث جابر.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّه تَعَالَى بِمَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ

٥- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

وما دام الله تعالى هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، فإنه جل شأنه محيطٌ بكل ما في الكون، لا يخفى عليه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا جليلٌ ولا حقيرٌ، ولا ظاهر ولا باطن، وهذا من خصائص الخالق المعبود، فالإنسان إذا علم شيئا من الأرض فإنه لا يعلم شيئا في السموات، وفيه ردٌّ على النصارى في أن عيسى يعلم الغيب، وهو لا يعْلَم إلا ما علَّمه الله له، أما الغيب المطلق فهو إلى الله سبحانه، هو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن علمه المحيط أنه يعلم حال الأجنة في البطون:

٦- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

ومن خصائص الله ﷻ أنه يصوِّر الجنين في بطن أمه بأي خلْق، وأي هيئة، وفي أي صورة ما شاء ركبه!! فقد خلق الله الإنسان وصوَّره في صور متفاوتة في الخِلقة: ذكر أو أنثى، تام الخلقة أو غير تام، أبيض أو أسود أو أحمر، حسن أو قبيح، شقي أو سعيد، صور مختلفة -في ظلمات الأرحام- في الشكل والطبع واللون، وكل ذلك من نطفة.

في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد..**»[١].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري أن النبي ﷺ قال: «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يارب، أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي ربِّ، أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه. ثم تُطوى الصحف، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص**»[٢].

---

(١) في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤).

(٢) الباب الأول من كتاب القدر في «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤).

وأحوال الجنين في بطن أمه يشير إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون].

أما كتابة الشقاء والسعادة فهي وفق علم الله تعالى عن هذا العبد، كيف يكون حالُه عندما يُصبح مكلَّفا حرًّا مختارًا، وسيسلك أحد الطريقين، فهذه الكتابة تسجيلٌ لعلم الله تعالى عن العبد، وعلم الله لا يتخلَّف ولا يتغيَّر ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وعيسى مُصوَّر في رحم المرأة، وقد تقلَّب في الأحشاء وانتقل من حال إلى حال؛ فكيف يكون إلهًا؟ وفي هذا ردٌّ على قولهم بالبنوة أو التثليث أو الإلهية.

وُجُوبُ التَّلَقِّي عَنِ الله تَعَالَى فِي المُحْكَمِ وَالمُتَشَابِهِ

٧- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

ثم تبيِّن السورة ثلاثة خطوط عريضة، لابد من الإلمام بها لإدراك ما فيها، ومجملها يتمثل في قبول التلقي عن الله تعالى والإيمان به، وهذه الخطوط هي:

أولا: وجوب الاتباع والطاعة، وقبول التلقي عن الله تعالى في كل محكم أو متشابه لكل ما أنزله الله تعالى سواء أدركنا معناه أم لا ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ واضحات الدلالة ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ يلتبس معناها على كثير من الناس لكونها مجملة وغير واضحة الدلالة.

ثانيًا: أن الله تعالى واحدٌ أحدٌ، مدبِّر هذا الكون، لا شريك له في ملكه.

ثالثًا: التحذير من موالاة غير المؤمنين ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾.

والآيات المحكمات واضحة الدلالة، هي أصل الكتاب الذي يُرجع إليه في معرفة الحلال والحرام، والأحكام:

١- والقرآن كله محكمٌ، بمعنى أنه حقٌّ كلُّه وصدقٌ كلُّه، وليس فيه عبثٌ ولا هزلٌ.

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] فهما من الإحكام والإتقان.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فهو غاية في العدل والإحسان.

٢ - والقرآن كله متشابه، بمعنى أن بعضه يشبه بعضًا في الحُسن والحق والصدق والفصاحة والبلاغة والإعجاز، وبعضه يصدق بعض، ويطابقه لفظا ومعنى، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالحاصل أن من آيات القرآن، آيات واضحة بينة لكل أحد، ومنها آيات تُشكِل على بعض الناس، والواجب أن يُرد المتشابه إلى المحكم، والخفي إلى الجلي، وبهذا يُصَدِّق بعضه بعضًا، ولا يحصل تناقض ولا تعارض.

٣ - والقرآن منه المحكم ومنه المتشابه.

تعريف المحكم: المحكم هو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، وهو مستقلٌّ بنفسه في المعنى؛ فهو واضح الدلالة لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتمل النسخ ولا التأويل.

قال ابن عباس: المحكمات ثلاث آيات: في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ [الآيات: ١٥١- ١٥٣] الآيات الثلاث، ونظيرها في سورة بني إسرائيل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ [الآيات: ٢٣، ٢٩].

قلت: ولعل المراد بإحكام هذه الآيات أنها وصايا أتت في جميع الرسالات الإلهية.

وعن ابن عباس ﷺ قال: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.

وعن ابن مسعود: المحكم الحلال والحرام، والمتشابه ما سوى ذلك، يشبه بعضه

بعضًا، ويصدِّق بعضه بعضًا.

تعريف المتشابه: أما المتشابه فهو ما يحتمل أوجهًا، ولا يستقل بنفسه في المعنى، فيحتاج إلى بيان، ويحتمل النسخ والتأويل، أو هو مما استأثر الله بعلمه، وفي حالة الاشتباه يُرد المتشابه إلى المحكم حتى يتعين المراد منها.

والمتشابه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر أن يصلوا إلى معرفته، كالعلم بذات الله تعالى وصفاته، والعلم بقيام الساعة، ونحو ذلك؛ فهذا مما استأثر الله به.

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والتأمل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] فخفاء المعنى في الآية، جاء من الإجمال الذي فيها، وعند دراسة الآية وفهمها يتبين معناها، وهو: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء، ومثل إثبات السؤال ونفيه يوم القيامة في آيتين مختلفتين: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦].

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، كالفتوى في أحكام المواريث والطلاق[(١)].

فالنصارى -مثلا- يحتجُّون على تمييز عيسى على غيره بقول الله سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ففي القرآن الكريم ما هو محكمٌ، واضح المعنى، ظاهر الدلالة، وفيه ما هو متشابه يخفى على كثير من الناس، وقد يدركه الراسخون في العلم، وهم الذين يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، ومن شأنهم أن يردوا المتشابه إلى المحكم.

فالقرآن الكريم يُحمل فيه المطلق على المقيَّد، والمُجْمَل على المفصَّل، والمتشابه على المحكَم.

وهكذا فقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يفصِّلُها قول الله ﷻ في شأن عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف]

(١) ينظر: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (٢/ ١٧٤).

فهو عبدٌ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، فكيف يتبع الإنسان التشابه في الآيات التي يُمكن أن تحتمل أكثر من معنى من غير قرينة أو سند مرجح؟!

هذا شأن الخوارج، ومَنْ على شاكلتهم.

وأول فتنة وقعت من الخوارج كانت في هذا الصدد، حيث أوَّلُوا قول الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، ويوسف: ٤٠] ففضَّلُوا تحكيم أبي موسى الأشعري بين علي ومعاوية، وخرَجُوا على عليٍّ متأولين قول الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مُدَّعين أن لا أحد يحكم بين فريقين من عباد الله، وكانت هذه أول فتنة أو بدعة في الإسلام، ويسير عليها مَنْ يسير مِنْ خلق الله، فمن أخذوا من الدين بطرف ووقفوا عنده.

أما شأن المؤمن فإنه يدعو ربه أن لا يميل قلبه عن الصواب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وكان النبي ﷺ يدعو ربه ليلًا ونهارًا أن يثبِّت قلبه على الإيمان، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن.

ومن الآيات المتشابهات في معناها أوائل السور، الحروف الهجائية، وليس منها آيات الصفات، مثل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] ومثلها: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فهي واضحة الدلالة مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وإن خفيت الكيفية عنّا.

ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر**»[1].

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشتملة على صفات الله وأسمائه، ويوضع في مقابلها كلها قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ليس كمثله شيء في ذاته، وليس كمثله شيء في صفاته.

ومما استأثر الله بعلمه ولاسبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي الإخبارُ عن أشراط الساعة، مثل: الدجال، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها،

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٧٥٨).

وفناء الدنيا، وقيام الساعة، فهذا مما استأثر الله به.

ومن فوائد المتشابه:

١ - الإيجاز والاختصار في الكلام.

٢ - اشتغال أهل العلم والنظر بردّ المتشابه إلى المحكم.

٣ - بيان فضل العالم على الجاهل.

٤ - اختبار أذهان المتعلِّمين في معرفة العلوم الغامضة، والمسائل الدقيقة، إعمالا للفكر.

فقد قيل: الغِنَى يورث البلادة، والفقر يورث الفطنة. ولو نزل القرآن كله محكمًا لاستوى في معرفته العالم والجاهل.

٥ - اختبار إيمان المؤمن وإظهار ارتياب المنافق في المتشابه من كتاب الله.

٦- القرآن شريعة دائمة، يفتح أبواب النظر في الفروع لأهل الاجتهاد، ويعوِّدهم البحث والتنقيب لتؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

(أ) في الصحيحين وغيرهما عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلخ، فقال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّاهم الله، فاحذروهم**»[١].

(ب) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قومًا يتدارؤون -أي: يقع بعضهم في بعض- فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدِّق بعضه بعضا؛ فلا تكذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلُوهُ إلى عالِمه**»[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٥) و«صحيح البخاري» برقم (٤٥٤٧) وأبو داود (٤٥٩٨) والترمذي (٢٩٩٣) وابن ماجه (٤٧) وابن حبان (٧٣، ٧٦).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» برقم (٢٠٣٦٧) والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٣ و«المسند» (٢/ ١٨٥) بتحقيق أحمد شاكر رقم (٦٧٤١). وقال محققوه: صحيح، وهذا إسناد حسن و«صحيح الجامع» (٢٣٧٠) وابن ماجه (٨٥) والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٠). قال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٨٥): إسناده صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٢٥٨).

(ج) وفي رواية الإمام أحمد وغيره عن عائشة ﵂: **«فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهُم الذين عنَى اللهُ فاحذروهم»**(١).

(د) وجاء عن أبي أمامة أن الذين يتبعون ما تشابه منه، والذين تسوَدُّ وجوههم يوم القيامة- هم الخوارج(٢).

(هـ) وعن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قومٌ يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرَّة وجْنتاه، كأنما تقطُران دمًا. فقال: **يا قوم، لا تجادلوا بالقرآن، فإنما ضلَّ من كان قبلكم بجدالهم. إن القرآن لم ينزل ليكذِّب بعضُه بعضًا، ولكن نزل يصدِّق بعضه بعضًا؛ فما كان من محكمِه فاعملوا به، وما كان من متشابهه فآمنوا به**(٣).

قال ابن كثير: ومعناه صحيحٌ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا، حين قسَّم رسول الله ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوْا أنه لم يعْدل في القسمة، فقال ذو الخويْصرة: اعدل فإنك لم تعدل؛ فقال ﷺ: **«لقد خبتُ وخسِرْتُ إن لم أعدل»** ثم أخبر ﷺ: أنه يخرج من جنس هذا الرجل **«قومٌ يحْقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم- يمرُقون من الدِّين كما يمرُق السَّهم من الرميّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم»**.

ثم كان ظهورهم أيام عليٍّ، وقتلَهم بالنهروان، ثم نبت منهم القدَريّة، ثم المعتزلة، ثم الجهمية(٤).

وقد بيَّنت الآية أن الذين يتبعون المتشابه، هم قوم فسدت فطرهم وانحرفت قلوبهم، فاتبعوا الغي والضلال، وتركوا الهدى والرشاد، وهم يقصدون أمرين:

الأول: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: طلبًا لفتنة المؤمنين في دينهم، وتشكيكهم في عقيدتهم،

---

(١) «المسند» (٦/٤٨) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٧) و صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٤٤) وفي ظلال الجنة ٥.

(٢) ورد هذا المعنى مرفوعا وموقوفا، ينظر: «المسند» (٥/ ٢٦٢) (٢٢٥٩) والطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٢٥) (٨٠٤٦) من طريق أبي غالب وعبد الرزاق (١٨٦٦٣).

(٣) أخرجه نصر المقدسي في الحجة عن ابن عمر، «فتح القدير» (١/ ٣٩٨) و«الدر المنثور» (٤٦٥١٣).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» بتصرف (٢/ ١٠).

وإثارة الريب في قلوبهم، كالتشكيك في البعث والنشور، والتشكيك في السنَّة، ونحو ذلك، فإن المتشابه تحصل به الفتنة، بسبب الاشتباه الواقع فيه، كما أن المحكم الصريح ليس محلًّا للفتنة لوضوح الحق فيه.

ومن ذلك ما قاله العاص بن وائل، لخباب بن الأرتِّ لمَّا جاءه يتقاضاه أجرًا، فقال العاص متهكِّمًا: وإني لمبعوث بعد الموت؟! فسوف أقضيك هناك. يريد تشكيك خباب في البعث ليثنيه عن الإسلام.

ومثل قول زعيم القرامطة وهو في مكة وهم يقتلون الحُجَّاجَ: أليس قد قال لكم محمد المكي: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ فأي أمن هذا؟! يريد فتنة الناس عن دينهم.

الثاني: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: يتعلقون بالمتشابه طلبًا لتأويل آيات القرآن بالباطل تبعًا لأهوائهم ورغباتهم، أو استجابة لحكامهم أو نزواتهم وشهواتهم، فيفسرونه تفسيرات تتفق مع مرادهم، فأهل الزيغ يبحثون عن المتشابه، ويتكلفون ما لا علم لهم به، أما الراسخون في العلم فيؤمنون به ويكلون معناه إلى الله، فيسَلِّمون ويسْلَمون.

عن سليمان بن يسار أن صَبيغ بن عِسل قَدِم المدينة، وأخذ يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه. فلما حضر ضرب رأسه بعرجون فشجَّه، وتابع ضربه حتى سال الدم على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين!! فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي[(١)].

فأهل الزيغ والضلال يتبعون ما تشابه من القرآن ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلبًا للشُّبهات واللَّبس؛ ليبرروا بها كفرهم وضلالهم، ولفتنة الناس عن دينهم ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ طلبًا للمعاني التي ينشدونها ويشتهونها، ولا يعلم تأويل المتشابه إلا علَّام الغيوب.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**جدالٌ في القرآن كفر**»[(٢)].

ولا ينطبق هذا على النقاش الموصِّل لمعنى الآيات، وإنما المراد بالجدال في الحديث

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٤) وأخرجه الدارمي في مسنده (١/ ٥٤) ونصر المقدسي في (الحجة).

(٢) صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٧٤) وهو في «السنن» (٤٦٠٣) وعند الحاكم (٢/ ٢٢٣)، وهو في المسند (٧٥٠٨، ١٠٢٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٩) وأبو يعلى (٥٨٩٧) والطبراني في الصغير (٥٧٤).

الجدال الذي يؤدي إلى الشك والتكذيب، فإن هذا يوصِّل إلى الكفر.

معنى التأويل: والتأويل له معنيان:

أحدهما: حقيقة الشيء وما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به عن يوم القيامة.

وثانيهما: التفسير والبيان والكشف والإيضاح، كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦].

فإن أريد بالآية المعنى الأول فالوقف يكون على لفظ الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمُها إلا الله.

وإن أريد المعنى الآخر فيصح وصل ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ بلفظ الجلالة قبلها.

فكأن المعنى: إن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم، وإزالة ما فيه من شبهة لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم يعلمونه أيضًا، فيؤمنون به ويرددون المتشابه إلى المحكم، ويقولون (كل) من المحكم والمتشابه (من عند ربنا).

وعلى المعنى الأول يكون الكلام تامًّا، ويكون المراد: أنّ ما استأثر الله بعلمه فالإيمان به واجب، وحقائقه مفوَّضة إلى الله تعالى. وهذا قول أكثر المفسِّرين، وهو ما ذهب إليه ابن مسعود وأُبيٌّ بن كعب وعائشة وأكثر التابعين.

قال ابن عباس: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسيرٌ تعْرفه العرب من لغاتها، وتفسيرٌ يعلمه الراسخون في العلم، وتفسيرٌ لا يعلمه إلا الله[(١)].

وقال ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله[(٢)].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس وضمَّه إليه ثم قال: «**اللهم فقهه في الدِّين وعلِّمه الكتاب**»[(٣)].

---

(١) الطبري (١/ ٥٧).

(٢) الطبري (٦/ ٢٠٣).

(٣) البخاري في فتح الباري (١/ ٢٠٥) وهو في البخاري برقم (٧٥، ١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠) وفي مسلم (٢٤٧٧).

وعن مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا أخاف على أمتي إلا ثلاثَ خلال: أن يكثرُ لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يُفْتَح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يُبالون عليه**»(١).

والراسخون في العلم هم الثابتون فيه المتقنون له. وهم العلماء العاملون بعلمهم ممن توافر له التقوى لله، والتواضع للناس، والزهد في الدنيا، وجهاد النفس.

والرسوخ في العلم أبلغ من الاستقامة؛ لأنها أدنى درجاته.

سُئِل أنس بن مالك عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم، المتبع له. ولا يتَّعظ بالقرآن إلا أهل العقول والأفهام، وهم الذين يقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيعملوا بالمحكَم ويؤمِنوا بالمتشابه، وما كان من عند الله فليس فيه تعارض ولا تناقض، إذ أن المتشابه مردود الى المحكم، وما يتعظ بهذه المواعظ إلا أصحاب العقول الواعية، فيفعلون ما ينفعهم ويتركون ما يضرهم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾.

المُسْلِمُ يسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ فِي الدُّنْيَا وَحُسْنَ الجَزَاءِ فِي الآخِرَةِ

٨- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾

ثم إن هؤلاء الراسخين في العلم يسألون ربهم ألَّا يُميل قلوبهم عن الحق، فيصرفها عن العمل بمحكم كتابه، والإيمان بمتشابهه، بعد أن منَّ عليها بالهداية لدينه، ويسألونه التوفيق والثبات على الحق، وأن يجعلهم هداة مهتدين، فهو سبحانه كثير الفضل، واسع العطاء، فباعد يا ربنا بيننا وبين الزيغ الذي لا يرضيك، وبين الضلال الذي يُفسد القلوب، ويعمي البصائر؛ ووفقنا للخيرات، واعصمنا من المنكرات، فأنت مالك الملك لا مانع لما أعطيت ولا مُعطِي لما منعت، فأنت الوهَّاب.

١- في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلْبٍ واحد، يُصرِّفه**

(١) الطبراني في «الكبير» (٣/٢٩٢) (٣٤٤٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٢٨) فيه: محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، ولم يسمع من أبيه.

حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: **«اللهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك»**[(١)].

وفي الحديث إثبات الأصابع لله ﷻ، ونحنُ نؤمن بما وصف الله تعالى به نفسه، من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف. نؤمن بها كما جاءت، ونكِلُ علمها إلى الله تعالى، ونؤمن أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى:١١]

٢- وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول: **«يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»** قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: **«نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلِّبها»**[(٢)].

٣- وعن سَبْرَةَ بن فاتِك، قال: قال النبي ﷺ: **«قلبُ ابن آدم بين إصبعين من أصابع الربِّ، فإذا شاء أقامه وإذا شاء أزاغه»**[(٣)].

٤- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن هذا القلب كريشةٍ بفلاة من الأرض، تُقيمُها الريحُ ظهرًا لبطن»**[(٤)].

٥- وقال المقداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَقَلْبُ ابن آدم أشدُّ انقلابا من القِدْرِ إذا اجتمع غليانا»**[(٥)].

وخُصَّت القلوب بالذكر؛ لأنها محل الخواطر والإرادات والنيَّات، وهي مقدِّمات

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٣٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٨، ٧٤٠) والطبري (٥/ ٢٣٢).

(٢) «صحيح الأدب المفرد» (٥٢٧) وفي الأدب المفرد (٦٨٣) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٩) و«المسند» (١٢١٠٧) وهو إسناد قوي على شرط مسلم والترمذي (٢١٤٠).

(٣) البخاري في تاريخه (٤/ ١٨٧) والطبراني (٦٥٥٧) والطبري (٥/ ٢٣١). قال الألباني في «ظلال الجنة» لابن أبي عاصم (٢٢٠): حديث صحيح، رجاله موثقون، غير أبي مطيع الطرابلسي، وهو صدوق له أوهام، وبنحوه في المسند عن عبدا لله بن عمرو (٦٦١٠) وهو حديث صحيح كما قال محققوه.

(٤) «المسند» (١٩٦٦١) بنحوه، وهو حديث صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٧١)، وصححه الألباني أيضًا في ظلال الجنة (٢٢٧) وفي المشكاة (١٠٣).

(٥) صححه الحاكم (٢/ ٢٨٩) و« السلسلة الصحيحة» للألباني (١٧٧٢).

الأفعال، ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب في الحركات والسكنات. ويحصل الزيغ في القلب من خلل في ذاته، أو من ضعف إرادة، أو من رُفقاء سوء، أو من شهوة ونزوة، ونحو ذلك.

عن واثلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله ﷺ سُئل عن الراسخين في العلم؟ فقال: **«من برَّتْ يمينُه، وصَدَق لسانه، واستقام قلبه، ومن عفَّ بطنُه وفرجُه فذلك من الراسخين في العلم»**(١).

ومن دُعاء الراسخين في العلم قولهم: ربنا إننا نُقِرُّ ونشهد بأنك ستجمع الناس للحساب والجزاء يوم القيامة، ونعلمُ أن وعدك حقٌّ، وأن من أزغْتَ قلبه فهو هالك، ومن مننْتَ عليه بالهداية والرحمة فهو ناجٍ من العذاب سعيدٌ.

وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من الليل قال: **«لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني استغفرْتك لذنبي، وأسألك رحمة، اللهم زدني علمًا ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهَّاب»**(٢). قال تعالى:

٩- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

ثم علَّم الله عباده دعاء آخر يتضرعون به إلى خالقهم فيقولون: يا ربنا، إنك جامع الخلق جميعا -مُحسِنهم ومسيئهم، مؤمِنهم وكافرهم- ليومٍ لا شك في وقوعه؛ لتجزي فيه الذين أساؤوا بما عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت جلَّ شأنك لم تخلق خلقك عبثًا، ولن تتركهم سُدى، وإنما خلقتهم ليعرِفوك ومن ثَمَّ يعبدوك ويطيعوك، فمن استجاب لك فقد تفضَّلت عليه بالثواب العظيم، ومن أعرض عن طاعتك عاقبْته بما يستحق.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: أُتي النبي ﷺ يومًا بلحمٍ، فقال: **«إن الله يجمع يوم القيامة الأوَّلين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمعهم الداعي، ويُنفِذُهم**

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٢٣) وابن أبي حاتم (٢/ ٥٩٩) (٣٢٠٥) والطبراني في «الكبير» عن أنس وأبي أمامة (٢/ ١٥١) (٧٦٥٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٤): عبد الله بن يزيد ضعيف.

(٢) هذا لفظ ابن مردويه، وأخرجه أبو داود برقم (٥٠٦١) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٧٠١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٧) عن عائشة رضي الله عنها وسنده ضعيف.

البصر، وتدنو الشمس منهم -فذكر حديث الشفاعة- **فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيُّ الله وخليله من الأرض، اشفع لنا إلى ربك!!**: -فذكر كذباته- ثم قال: **نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى»**[1].

جاء في الأثر: **«أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه ردَّه الله عليه، ويقول بعد قراءتها: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيني وبين مالي** -وفي رواية: اجمع عليَّ ضالتي- **إنك على كل شيء قدير»**[2].

وهكذا: فقد أثنى الله على الراسخين في العلم **بسبع صفات هي عنوان السعادة**:

١- العلم، وهو الطريق الموصل إلى الله، المبيِّن لأحكامه وشرائعه.

٢- الرسوخ في العلم، فهم يعرفون أسرار الشريعة، وهم علماء محققون مدققون عاملون.

٣- وقد وصفهم ربنا بالإيمان بكتابه كله، ورد المتشابه إلى المحكم.

٤- إنهم يسألون الله العفو والعافية مما ابتُلي به الزائغون المنحرفون.

٥- وهم يسألون الله رحمته، وحصول كل خير، واندفاع كل شر، ويتوسلون إليه بأسمائه وصفاته.

٦- وهم يعترفون بمنة الله عليهم بالهداية ويطلبون منه الثبات وعدم الانحراف.

٧- إنهم يؤمنون ويوقنون بيوم القيامة وما فيه من حشر وحساب وجزاء، ويخافون منه سبحانه.

مَصِيرُ الكُفَّارِ - قَدِيمًا وَحَدِيثًا - فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

ثم تتحدث الآياتُ عن مصير الكفار الجاحدين لدين الله وكتابه، ومنهم وفد نصارى نجران الذي قدِم على النبي ﷺ يناظره في شأن عيسى عليه السلام، وكذا كل مبغِض لله ورسوله من اليهود والمشركين والمنافقين وأمثالهم، فتُبيِّن مصيرهم في الدنيا والآخرة، باستحقاق

---

(١) البخاري برقم (٣٣٦١) وعن أنس (٣٣٤٠) وأخرجه مسلم مطولا (١٩٤).

(٢) روي مرفوعا عن جعفر بن محمد الخلدي، كما في «فتح القدير» للشوكاني (١/٣٩٨) وأخرجه ابن النجار في تاريخه، وهو في «الدر» (٤٧٢١٣).

العذاب بسبب كفرهم وجحودهم، وأنه لا يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا، وتبيِّن في مقابلة ذلك ما أعدَّه الله تعالى لعباده المتقين.

وبعض الناس قد يعجب ويتساءل: لماذا غير المسلمين أكثر حظًّا في هذه الدنيا من المسلمين، في الغالب الأعم؟ لماذا هم أكثر مالًا وأكثر متاعًا وأكثر جاهًا؟

لقد بيَّن النبي ﷺ جواب هذا السؤال، في أن الكافر تُعَجَّلُ له طيباته في الحياة الدنيا، وتُعجَّل له حسناته، فهو لا يخلُ من أن يَصْدُق في قوله، أو يُحْسِن أداء عمله، أو يُحْسِن معاشرة الناس، ونحو ذلك، فتُعجَّل له حسناته وطيباته في الدنيا في صورة كثرة المطاعم والمشارب والمساكن والمتاع، وغير ذلك، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا سجنُ المؤمن وجنةُ الكافر**»(١).

فالمؤمن مُبتلًى وممتحن ومُضيَّق عليه؛ لأن نعيمه الذي ينتظره في الآخرة كبيرٌ وعظيمٌ.

والكافر مُمَتَّع مُنعَّم في الدنيا؛ لأنه يأخذ حقَّه ونصيبه كلَّه فيها، وليس له عند الله يوم القيامة شيءٌ من النعيم. وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم وَقود النار، وأن ما أُوتوه من أموال وأولاد في الدنيا لن تُنجيهم من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة]

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

الله جل شأنه يبيِّن في آيات من سورة الزخرف (٣٣-٣٥) أنه لولا أن يعتقد الناس أن إعطاء الله تعالى للأموال ومنْحها للناس بكثرة، تكون دليلًا على محبة الله له، لولا أن يعتقد الناس ذلك لأعطى اللهُ الكفَّارَ أكثر من ذلك، ولجعلهم أكثر مالًا وجاهًا ومتاعًا، ولجعلهم يعيشون ويتقلَّبون على أَسِرَّة من ذهب، وجعل سُقُف بيوتهم وأبوابها من ذهب وفضة.

فالمعنى: لولا أن يكفُر الناس جميعًا، ويكونوا على ملة واحدة -هي الكفر- لجعل الله ما سبق ذكره للكفار في الدنيا؛ لأنها جنتهم ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد هو الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ هي الدرج ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ﴾ وكل ذلك من

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٦).

سُقُف البيوت وأبوابِها وأسرَّتها التي يجعلها الله لهم من الذهب والفضة ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لا يشاركهم فيها الكفار؛ لأن النعَم في الآخرة خاصة بالمتقين، لا يشاركهم غيرهم ممن أخَذُوا حقَّهم وافرًا في الدنيا، فينبغي على المسلم ألا ينخدع بما هم عليه من متاعٍ وزُخرف كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران] أي: أن تقلُّبَهم في الدنيا في النعيم والمتاع والمال والجاه قليل؛ لأن سنوات العمر محسوبة ومعدودة، فهو لا يقاس بما عند الله في الدار الآخرة من نعيم دائم لا يزول ولا يفنى ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

إن الأموال والأولاد مظنة الحماية والوقاية والنعيم والجاه، ولكنهما لا يغنيان عن العبد شيئا يوم لقاء الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي: لن تنفعهم عند الله تعالى شيئا، ولن تمنعهم من عذاب الله ﷻ يوم لقائه، لقد كان أبناؤهم في الدنيا يدفعون عنهم النكبات ويقولون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ ٣٥] ويوم القيامة يَظْهَر لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، فليس للأولاد والأموال قدر عند الله، والذي ينفع هو الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]

ولو أن أحدهم افتدى نفسه بملئ الأرض ذهبًا ما نفعه ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

قال سبحانه مبينًا مصيرَ الكفارِ - في الماضي والحاضر والمستقبل- على مختلف أجناسهم وألوانهم يوم القيامة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أن الكفارَ هم الحطب الذي تتَقِدْ به النار يوم القيامة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] فالناس من الكفَّار، والحجارة هم وقودها يوم القيامة، كما أن الحطب والغاز والكهرباء وقود النار في الدنيا.

جاء في الحديث عن أم الفضل: **«لَيظْهَرنَّ الإسلام حتى يُردُّ الكفر إلى مواطنه، ولتخوضُنَّ البحار بالإسلام، وليأتينَّ على الناس زمانٌ يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم**

يقولون: قد قرأنا وعُلِّمنا، فمن هذا الذي هو خير منا! فهل في أولئك من خير؟! قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار»[1].

وهكذا العابد والمعبود حطب جهنم ووقودها:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء] هذا خطابٌ للمشركين الذين يعبدون الأصنام والطواغيت، وكل ما عُبِد من دون الله، وهو راضٍ بالعبادة حيث يقال لهم ذلك.

ويأتي التعقيب من الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء] العابد والمعبود مخلَّد في نار جهنم، والعياذ بالله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة].

وكما أن الكفار لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، كذلك ما جرى لفرعون ومَنْ قبله، ومَنْ بعدهم من الفراعنة وسائر الطغاة، من أرباب الأموال والجنود، لَمَّا كذبوا بآيات الله، وجحدوا ما جاءت به الرسل، فقد حل بهم عقاب الله، فأخذهم بذنوبهم:

١١- ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

أهم أغراض هذه الآيات، هو الرد على النصارى، وكان اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أن العرب كانوا أعلق بأخبار عاد وثمود.

ولذا فإن القرآن هنا ذكَّر النصارى بحال فرعون دون عاد وثمود، فحالهم يشبه حاله في الكفر بالله وتكذيب الرسل وارتكاب المعاصي، فشأن النصارى الكفار في ذلك، شأن من سبقهم من الأمم، ممن كذبوا رسل الله وآياته التي أنزلها على جميع الأنبياء والمرسلين ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: حالهم كحاله.

وقد أهلك الله قوم فرعون ونجَّى موسى وقومه، وحالهم أيضا كحال من كان قبل

---

(١) من حديث أم الفضل في ابن أبي حاتم برقم (١٥٢) وإسناد رجاله ثقات إلا ابن لهيعة، فإنه صدوق، واختلط بعد احتراق كتبه، وتابعه غيره في هذا الحديث، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (١٣٣) وهو في «المعجم الكبير» للطبراني برقم (١٣٠١٩).

فرعون من الأمم السابقة، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وغير ذلك، فماذا فعلنا بهم حين كذَّبوا بآياتنا وجحدوا وحدانيتنا؟ لقد أخذهم الله بذنوبهم وأهلكهم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا في الآخرة.

فَمَاذَا فِي الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ لِلْكُفَّارِ؟

١٢- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ(١) وَتُحْشَرُونَ(١) إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

يقرر الله سبحانه في هذه الآية أن الكفار محرُومون من النعيم الأُخروي، فهم في الآخرة سيدخلون جهنم، وفي الدنيا سيهزمون ويُغلبون وسيُنفقون أموالهم للصدِّ عن سبيل الله، ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، ومن واجب المسلمين أن يَعُمَّ الإسلام ويدخل ديار الكفر، وأن ترتفع راية الإسلام عالية خفَّاقة في أرجاء المعمورة، والمسألة مسألة وقت بين المسلمين وغيرهم، يومٌ لك ويومٌ عليك ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولكن وعدَ الله بالنصر للمسلمين لا يتخلف كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقد أخبر النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنه «**لا تقوم الساعة حتى يقاتِلَ المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهوديُّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعالَ فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود**»(٢).

هذا الوعد آتٍ لا محالة، وعلى المسلمين أن يصبِروا ويأخذوا بأسباب النصر، يأخذوا بأسباب القُرب من الله سبحانه، وإعداد العدة للعدو؛ حتى يكونوا أهلًا لتحقيق هذا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (سيُغلبون ويُحشرون) بياء الغيبة فيهما، والمعنى: قل لهم يا محمد قولي هذا: سيغلبون... إلخ

وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيهما، أي: خاطبهم يا محمد، وقل لهم: ستغلبون.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٢٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٩٢٦).

الوعد الذي وعده الله سبحانه لعباده المؤمنين. ولن تقوم الساعة حتى يتحقق هذا بمشيئة الله سُبحانه كما أخبر بذلك القرآن، وكما أخبر رسول الله ﷺ.

هذا ولمَّا نصر الله رسوله في يوم بَدر -مع قلة عدد المسلمين، وشيء لا يذكر من العُدة في مواجهة الكفار- جمع الرسول ﷺ يهود المدينة في سوق بني قَيْنُقَاع، وقال لهم: «**يا معشر يهود، لقد علمتم ما أصاب قريشًا من الهزيمة، فأسلِموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشًا؛ فقد عرفتم أني نبيٌّ مرسلٌ تجدون ذلك في كتابكم**» فماذا كان جواب القوم؟ قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة، ولئن قاتلتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس، فأنزل الله سبحانه[1] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ممن كانوا في عهد النبي ﷺ ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا وتهزمون كما هزم كفار مكة يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ مهادكم، الذي مهّدتموه لأنفسكم.

وعن ابن عباس ﷺ أنه لما هَزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر، قال يهود المدينة: هذا والله النبي الذي بَشَّر به موسى، لا تُردُّ له راية، فقال بعضهم لبعض: لا تعْجَلوا، فلما كان يوم أحد شَكُّوا، فلم يُسْلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة، فنقضوا العهد، فذهب كعب بن الأشرف في ستين راكبا إلى مكة ليستفزهم ويستنفرهم، ويجمع كلمتهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله، فلما رجعوا إلى المدينة أنزل الله الآية[2].

وهذا السبب يفيد أن السورة نزلت بعد غزوة أُحد وهو المرجَّح.

والآية تُقرر أن الكفار سيُهزمون في الدنيا، والمراد بالكفار في وقت التنزيل يهودُ المدينة، والقاعدة عامة، وهذا أمر متحقق إلى يوم الساعة بمشيئة الله، وقد تحقق منه في وجود النبي ﷺ إجلاء بني النضير، وإجلاء بني قينقاع، وقتل بني قريظة، وفتح خيبر، ونصر الله سبحانه رسوله على اليهود وعلى المشركين، وهذه الآية من قبيل الإخبار بالغيب.

---

(١) ذكرته بالمعنى، وهو عن محمد بن اسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة، كما في سيرة ابن إسحاق ق(١٦٢) وهو في «سنن أبي داود» برقم (٣٠٠١) وفيه ضعف، وفي الطبري (٣/١٢٨) وعند الواحدي (٨١) والسيوطي (٤٩).

(٢) رواه الواحدي في« أسباب النزول» عن أبي صالح ص٨١ و«زاد المسير» (١/٣٥٦).

والمعنى: قل يا محمد للذين كفروا من اليهود وغيرهم، والذين استهانوا بنصرك في يوم بدر: إنكم ستُهزمون في الدنيا، وستموتون على الكفر، وتُحشرون إلى نار جهنم؛ لتكون لكم فراشًا دائما، وبئس الفراش فراشكم.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار بالخزي والمذلة في الدنيا والآخرة، وأن هذا سنة جارية إلى قيام الساعة وإن تخللها دروس وتمحيص، ومع أن الكفار مغلوبون في الدنيا، فهم محشورون يوم القيامة إلى جهنم، وهذا هو ما مهدوه لأنفسهم، فبئس المهاد وبئس الجزاء.

مَثَلٌ تَارِيخِيٌّ لانتِصَارِ المُسْلِمِينَ عَلَى عَدُوِّهِم فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

١٣- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ[١] ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ[١] تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم[٢] مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ[٣] بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ[٤] ﴿١٣﴾﴾

ثم ضرب الله للكفار مثلًا بيوم بدر؛ للدلالة على أن الله تعالى مظهرٌ كلمته، وذلك حين التقى طائفتان في يوم بدر: قلةٌ مؤمنة صابرة، قليلة العدد والعُدة، تقاتل في سبيل الله، وعدد آخر كثير، ثلاثة أمثال المسلمين في العدد، والعِبرة في الحروب وقتها بكثرة العدد؛ لأن السيف هو المستعمل في الحرب، أما العُدَّة فإنها لا تُذْكر، فرسان للمسلمين في مقابل سبعين فرسًا للعدو، وهكذا.

ومع ذلك فإن الله سبحانه نصر المسلمين؛ ليبيِّن للناس إلى يوم القيامة أن النصر لا يكون بالمقياس المادي فحسب، إنما هو بعون الله ومدده إذا علم الله سبحانه صدق عباده، مع ضرورة الأخذ بأسباب النصر وإعداد العدة المماثلة لقوة العدو.

---

(١) أبدل أبو جعفر همزة (فئتين) و(فئة) ياء وحققها غيره.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (تَرَونَهُم) بتاء الخطاب لمناسبة الخطاب في قوله تعالى (قد كان لكم آية)... إلخ، وقرأ الباقون (يَرَونَهُم) بياء الغيب على الالتفات.

(٣) أبدل ورش وابن جماز همزة (يؤيد) واوا وحققها الباقون.

(٤) أمال أبو عمرو ودور الكسائي وابن ذكوان بخلْف عنه ألف (الأبصار) وقللها ورش وفتحها الباقون.

ومن عوامل النصر أنه جل شأنه يُكثِّر عدد المسلمين في نظر أعدائهم؛ كي يَرْهبُوهم ويخافُوهم، ويقلِّل عدد الكفار في نظر المسلمين؛ حتى يُقْدموا عليهم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿ءَايَةٌ﴾ علامةٌ دالةٌ على أن الله تعالى مُعزٌّ دينه، وناصرٌ رسوله، ومُعْلٍ كلمته إلى يوم الساعة؛ فقد رأيتم كيف نصر الله المؤمنين مع قلتهم وكيف هزم الكافرين مع كثرتهم، وذلك حين التقاء فئتين: إحداهما قليلة العدد والعدة، والأخرى كثيرة العدد والعدة ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ بالعين المجردة، وهذا من عوامل النصر حين يرى الكفار المؤمنين ضِعْفيهم في العدد، فيدبُّ الرُّعب في قلوبهم.

أما الفئة الأولى المسلمة: فقد كان عدد المسلمين يوم بدر ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا: سبعة وسبعون من المهاجرين، والبقية من الأنصار. وكانت راية المهاجرين بيد علي بن أبي طالب ﷺ، وراية الأنصار بيد سعد بن عُبادة، وكان معهم سبعون بعيرًا وفرسان، ومعهم ستة أدرع وثمانية سيوف، ومع ذلك لم يهابوا لقاء العدو.

وقد مدح الله هذه القِلة بأنها تُقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، وليست لهم غاية دنيوية.

وأما الفئة الأخرى الكافرة: فكانوا تسع مئة وخمسين رجلًا من المقاتلين، على رأسهم عتبة بن ربيعة، وكان فيهم مئة فرس، ومع ذلك فقد هزمهم الله على كثرة عددهم وعدَّتهم.

وقد ذمَّ الله هذه الفئة فوصفَها بالكفر إيذانًا بإلقاء الرعب في قلوبها.

وكانت غزوة بدر أول المَشَاهد التي شهدها رسول الله ﷺ.

وقرأ نافع وغيره ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ بالتاء، أي ترون المقاتلين من أهل مكة ضِعفيْ عدد المسلمين يا معشر اليهود، وهو تقديرٌ تقريبيٌّ وليس حقيقيا؛ لأن المشركين كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين.

وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة ولمن النصر، فرأوا المشركين مثلَيْ عدد المسلمين، ومع ذلك فقد رأوا النصر للمسلمين، فكان هذا النصر معجزةً خارقة لهم. فالمخاطب في الآية على هذا هم اليهود.

وعلى قراءة (ترونهم) بالتاء بمعنى: أن المسلمين يرون المشركين مثليهم كما هم على الحقيقة، أو بمعنى أن الله تعالى أظهر للمسلمين أن عدد المشركين أقل من الواقع؛ لإزالة

الخوف من قلوب المسلمين، وهذا هو الأصح، فالضمير على هذا للمشركين والرؤية بصرية.

وقد رأى الكفَّار المسلمين يوم بدر عند القتال والتلاحم مثل عددهم مرتين، فوقع الرعب في قلوبهم.

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[الأنفال: ٤٤]؛ لأن المسلمين قُلِّلوا أوَّلًا في أعيُن المشركين حتى اجترَؤوا عليهم، فلما اجتمعوا -أي المشركين - كثُروا في أعينهم - أي المسلمين - حتى غُلبوا - غلب المسلمون المشركين - كما حدث هذا منامًا للنبي ﷺ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣] فكان التكثير والتقليل في حالتين مختلفتين.

أو لأن الله تعالى قلَّل المشركين في أعيُن المسلمين حتى اجترؤوا عليهم، فصبروا على قتالهم.

قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا.

وعنه ﷺ قال: لقد قُلِّلوا في أعيُننا، حتى قُلْتُ لرجلٍ إلى جانبي: تُراهم سبعين؟ قال: أُراهم مائة، قال: فأسرْنا رجلا منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفا[(١)].

فعندما عاين كلٌّ من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، ليطلبوا من الله الإعانة عليهم.

ورأى المشركون المؤمنين مثليْهم ليحصل لهم الرعب والخوف.

ثم لما التقى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعيُن هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ لِيقْدِمَ كلٌّ منهما على الآخر، وتظهر كلمة الإيمان على كلمة الكفر، فيُعزُّ المؤمنون ويُذل الكافرون، وتحصل بهذا العبرة والعظة.

وعلى المسلمين أن يطمئنوا إلى نصر الله سبحانه بعد الأخذ في الأسباب المادية والمعنوية.

---

(١) الطبري (٦/ ٢٣٦) و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣٥٨).

فالله تعالى هو القادرُ على نصر الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على غيرها من الفئات الأخرى.

فلا يغترُّ القويُّ بقوته؛ فإن قوانين الله تخرق الأمور المعتادة حتى يعتبر المعتبِرون ويتَّعِظ المتَّعِظُون.

أُصُولُ الشَّهَواتِ البَشَرِيَّةِ سِتَّةٌ

١٤- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا(١) وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾

لما كانت الأموال والأولاد لا تغني الكافر شيئا يوم لقاء الله، فقد ذكر سبحانه هنا أصول الشهوات البشرية التي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار، وهي أعظم الشهوات، وغيرها تبع لها، والناس بالنسبة لهذه الشهوات على قسمين:

قسم جعلوها أكبر هَمِّهم، فانساقوا خلفها، وأخذوا يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام، ولا يبالون من أي وجه حصّلوها، وفيم أنفقوها وصرَفوها، فكانت زادهم إلى الشقاء والعذاب.

وقسم جعلوها وسيلة يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بها لتعينهم على طاعة الله ومرضاته، صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، فجعلوها معبرًا للدار الآخرة، ومتْجرًا لزيادة رصيدهم وثوابهم، وهي ستة أنواع من الملذات في مجملها.

وهي: النساء، والأولاد، والأموال، والخيول المعَلَّمة، والأنعام، والأرض.

فقد بيَّن الله ﷻ أنواع الشهوات والملذَّات والمتاع في هذه الدنيا، وبيَّن أن ما في هذه الحياة من شهوات ومناصب تكون غالبًا هي السبب في كفر الكفار؛ حفاظًا على مناصبهم، وحفاظًا على جاههم وسلطانهم، وحفاظًا على ما هم فيه من نعيم ومتاع. وهذا المتاع في حدِّ ذاته إذا كان من الحلال الطيِّب، ويُستخدم فيما أحلَّ الله- فإن الله سبحانه لا يحرِّمه على المسلمين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذا المتاع محصورٌ في ستة أشياء ذكرها الله سبحانه في الآية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

(١) قرأ بإمالة (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلفه.

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والمزيِّن لهذه الشهوات الحلال هو الله سبحانه باعتبار أصل الخلق، وليس باعتبار الدعوة إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] أما المزيِّن للشهوات المحرَّمة بتحسينها والدعوة إليها فهو الشيطان، وقد أمر الله العبد ألا يفتتن بالدنيا وشهواتها.

وأولها: حبُّ النساء: وقدَّم النساء؛ لأن فِتْنَتَهُنَّ أشدُّ، والتلذذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، وهو للابتلاء، وفي حديث أسامة أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء**»(١).

فأما إذا كان القصد بهن الإنجاب والإعفاف فهو أمر مندوبٌ إليه.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاعٌ، وخير متاعها المرأة الصالحة؛ إن نظر إليها سرَّته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله**»(٢).

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء، والطيب، وجُعلتْ قرة عيني في الصلاة**»(٣).

واكتفى القرآنُ بذكر محبة الرجل للمرأة؛ لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، والمرأة تُحب أن تكون مطلوبة لا طالبة، ولو كانت محبتها للرجل أشد، ويُكتفَى بذكر أحدهما عن الآخر. والرجل يأتي شهوته - في زوجته - ويؤجر عليها.

وثانيها: حبُّ البنين، ثمرات القلوب، وقرة العيون، وهم الثمرة من الزواج، وهم

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب شؤم المرأة برقم (٥٠٩٦) ومسلم برقم (٢٧٤٠) وهو عند ابن ماجه (٣٩٩٨) والترمذي (٢٧٨٠) و«المسند» (٢١٧٤٦) وابن حبان (٥٩٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٠، ٢٢٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٧) و«سنن النسائي» (٦/ ٦٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٥) وابن أبي حاتم (٣٢٧٧) وكلهم عن عبد الله بن عمرو.

(٣) «صحيح سنن النسائي» (٣٦٨٠) والحاكم (٢/ ١٦٠) وابن أبي حاتم (٣٦٥٢)، وهو في المسند (١٢٢٩٣، ١٢٢٩٤) بإسناد حسن، وأخرجه أبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) وعبدالرزاق (٧٩٣٩) والضياء في المختارة (١٧٣٧).

امتداد للآباء، وبقاء للنوع الإنساني، وسند الآباء عند العجز والحاجة.

وذكَر القرآن الذكَر (البنين) لأنه يقوم مقام أبيه ويعضده، بخلاف الأنثى، وهو أحب غالبًا، وقدَّمهم على الأموال؛ لأن الأولاد أولى عند الإنسان من ماله، وحب الأبناء طبيعة في النفس البشرية، والآباء يخافون على الأبناء من اليُتْم والفقر والمرض؛ ولذا فقد وصفهم الله تعالى بأنهم فتنة.

وثالثها: حب الأموال: فقد ثلَّث سبحانه من الشهوات بالأموال الكثيرة، وقد عبَّر القرآن عنها بالذهب والفضة، وورد تحديد القنطار باثني عشر ألف أوقية.

وحبُّ المال تارةً يكون مذمومًا إذا صحبه الفخر والخُيَلاء والتكبر على الضعفاء، وتارة يكون محمودًا إذا صحبتْه النفقة، وصلة الرحم، والقرُبات، ووجوه البِر والطاعات، وقد وَصف الله الإنسان بحبِّه الشديد للمال، فلو كان له واديان من ذهب لتمنى أن يكون له ثالثًا.

ورابعها: حبُّ الخيل المسوَّمة أي: المعلَّمة بالغُرَّة والتَّحجِيل، أو المعلمة للسباق والغزو في سبيل الله، أو الراعية، والسائمة، أو الحسان الجِمال، للزينة والترفيه.

ولم تزل الخيل محبوبة ومرغوبة للخاصة والعامة، مهما جدَّ من المراكب المتنوعة، ويقاس عليها مثلها، وأنواع المواصلات الحديثة من طائرات وسيارات وغير ذلك على مختلف أنواعها.

وللخيل ثلاث حالات: فتارة تكون أجرًا ومثوبة لصاحبها، إذا كانت معدَّة للجهاد في سبيل الله، وتارة تكون وزرًا على صاحبها إذا كانت فخرًا ومضادة للإسلام، وتارة تكون سترا لصاحبها إذا كانت للنسل والتعفف، وأدَّى حق الله تعالى فيها.

وخامسها: حبُّ الأنعام من الإبل والبقر والغنم، حيث تؤكل لحومها وتُشرب ألبانها، ويُنتفع بصوفها وأوبارها.

وقد فَصَّلتْ سورة الأنعام أنواعها الثمانية: الجمل والناقة، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والتيس والمعز، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

وسادسها: حبُّ الحرث، والمرادُ به في الآية حبُّ الأرض للزراعة والثِّمار والغرس ونحو

ذلك. وما من إنسان يغرِس غرسًا أويزرع زرعًا فيأكلُ منه إنسان أوطير أو بهيمة إلا كان له به أجر.

وقد خلقَ اللهُ هذه الأرض لنعمِّرها وننتفع بها، ولكن الدِّماء تسيل هنا وهناك من أجل الأرض.

وما الأمم التي تتقاتل هنا وهناك إلا من أجل الأرض، والمسلمُ يقاتِل لإعلاء كلمة الله.

قال سبحانه في وصف شهوات الدنيا: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متمثِّلا في هذه الأمور الستة؛ فاستعملوها فيما أحله الله، ولا تبدِّدُوها في غير مرضاته، ثم رغَّب سبحانه فيما عند الله ليزهِّد العبد فيها، وهي فانية زائلة فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: عنده حسن المصير، وحسن المرجع. والأموال في الدنيا وسيلة لتحقيق المتاع، أما الآخرة فلا تحتاج إلى وسائل لبلوغ الغايات، وغاية النعيم يتحقق بدخول الجنة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على كثير من هذه الشهوات، وتحذير لمن يغترون بنعيم الدنيا، وتزهيد لأهل العقول النيّرة.

أُصُولُ المَتَاعِ الأُخْرَوِيِّ ثَلَاثَةٌ

١٥- ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم(١) بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ(٢) مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

ثم ربط الله سبحانه بين هذه الشهوات التي لا يحرِّمها الإسلام في حدِّ ذاتها، وإنما يحرم الإسراف والطغيان والبطر والأشر بسببها، وأن تؤدِّي بالإنسان إلى ما هو غير محمود في الإسلام، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إنها دار القرار، ومصير المتقين الأبرار، إنها جنات عاليات، ذات منازل وغرف عالية، وأشجار مثمرة متنوعة، وأنهار جارية، وأزواج مطهرة، وخلود دائم في هذا النعيم، ورضوان الله أكبر من هذا

(١) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أؤنبئكم) مع الإدخال، وقرأ قالون وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال وعدمه، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال، ومعنى الإدخال: إدخال ألف بين الهمزتين، أما التسهيل فهو كتسهيل لفظ (ءاعجمي) عند حفص.

(٢) قرأ شعبة بضم الراء من (ورضوان) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

النعيم، فاختر لنفسك أيها العاقل؟ هل أدلكم على ما هو أفضل من نعيم الدنيا ومتاعها، وفيه عوضٌ كامل عما فيها من شهوات وملذَّات وزيادة؟ إنه يتمثل في **ثلاثة أشياء**:

أولها: أن في **الجنة** بساتين تجري من تحت قُصورها وأشجارها الأنهار، وفيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر، إنه نعيم الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول، فلئِن أُعطي الناس في الدنيا هذه الشهوات، فتمتعوا بالخيل المسوَّمة، والأنعام والحرث، والأموال، فإن الله تعالى يُعطي المؤمنين في الآخرة مقابل ذلك جناتٍ تجري من خلالها وفي جوانبها أنهار العسل والخمر واللبن والماء ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو نعيمٌ لا يزول ولا يفنى ولا يتغيَّر، وهو نعيمٌ حسيٌّ ماديٌّ في الجنة، وهم في هذا النعيم خالدون مخلدون.

وثانيها: **الأزواج المطهَّرة** من الدنس الحسيِّ والمعنويِّ، فلئن أُعطي الرجال في الدنيا النساء وهنَّ أشد شهوة وفتنة لهم، فإنهم يُعطون في الآخرة الحور العين في مقابلة نساء الدنيا ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهرة من الحيض والنفاس والخبث والأذى والبول والغائط، ومن الدنس والرجس وسوء الخلق ومن كل قذر وعيب ظاهر وباطن، وغير ذلك، يفضُلْن أزواج الدنيا بمراحل عِدَّة.

ثالثها: وهناك نعيمٌ روحيٌّ معنويٌّ فوق نعيم الجنة، وأكبر منه، هو **رضوان الله** سبحانه، كما قال جل شأنه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أكبر من الجنة وما فيها، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ.

في الصَّحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!!، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك!! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك؟! فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[١].

وقيل: إن العبد إذا علم أن الله قد رضي عنه يكون ذلك أتم لسُرورِه وأعظمُ لفرحه،

---

(١) البخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) ومسلم برقم (٢٨٢٩).

والله مطَّلِعٌ على أسرار خلقه، عالمٌ بأحوالهم فيجازيهم عليها.

وَصْفُ المُتَّقِينَ بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ

١٦، ١٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن ذكر الله الجنة ونعيمها، ذكر في هاتين الآيتين المستحقون لهذا النعيم، وهم الذين اتقوا ربهم بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فقد بيَّن سبحانه صفات المتقين الذين أعدَّ الله لهم هذا النعيم الأخروي، فبيَّن أنهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم ووصفهم بأوصاف **ستة**، فهم المؤمنون المستحقون لمغفرة الله سبحانه، الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون، المستغفرون بالأسحار. وهذه الأوصاف هي:

أولا: الإيمان، وهو أساس قبول الأعمال، وأساس العقيدة التي هي أصل دعائم هذا الدين وأصل كل شريعة من عند الله تعالى.

ثانيا: الصبر، وفيه ترفُّعٌ على الألم والشكوى، وجهادٌ على الطاعة وترك الشهوات، وقبولٌ لقضاء الله وقدره.

ثالثا: الصدق وفيه اعتزازٌ بالحق، وترفُّعٌ عن الضعف، واتقاءٌ للضرر، وجلبٌ للنفع.

رابعا: القنوت، وفيه أداءٌ لحق الله، وتحقيقٌ لغاية الخلق، وشكرٌ للنعم.

خامسا: الإنفاق، وفيه تحررٌ من عبودية المال، وأداءٌ لحق الله وتحقيقٌ للتكافل بين الناس.

سادسا: الاستغفار بالأسحار: وفيه اتصالٌ بالله تعالى، وقربٌ منه، في وقت يَصْفُو فيه الجو، وتلتقي روح الإنسان مع الكون كلِّه في اتجاه الباري سبحانه.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربُّنا إلى سماء الدنيا في كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له؟**»[١].

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥) والترمذي (٤٣٩٨).

وكان ابن عمر يُصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحَر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يُصبح[١].

وهؤلاء المتقون يتوسلون إلى الله تعالى بتوفيقهم للإيمان؛ أن يغفرلهم ذنوبهم، ويقيهم شر عذاب النار، وهم إلى جوار ذلك يرون أنفسهم مذنبين مقصرين، فيستغفرون ربهم، ويتحرَّوْن أوقات الإجابة، ومن أفضلها وقت السحر.

وهكذا: فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات، حال الناس في الدنيا، وبيّن أنها متاع زائل، ثم وصف الجنة وما فيها من نعيم، وبيّن فضل الآخرة على الدنيا، ثم وصف أهل الجنة وهم المتقون، وذكر خصالهم، حتى يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

الأَصْلُ الأَوَّلُ فِي جَمِيْعِ الشَّرائِعِ السَّمَاوِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيْدُ

١٨- ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الخامسة والعشرين من سورة آل عمران، تتحدث هذه الآيات عن الأصل الأول الذي أرسل الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب وهو توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة. ولا يكْمُل إيمان المرءِ إلا إذا حكَّم الناسُ كتابَ الله فيما شجَر بينهم من خلاف، في جميع شؤون الحياة العامة والخاصة.

وفي هذه الآية تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى، وشهادة خواص الخلق، وهم الملائكة وأهل العلم:

جاء في سبب النزول أن النبي ﷺ لما استقرَّ به المقامُ في المدينة أقبل عليه حبْران من أحبار اليهود، فلما رأيا المدينة، ولم يكونا يعرفانها،- قالا: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الخاتم! فقد عرفاها من وصفها في التوراة، فيها نخيلٌ وجبالٌ، وتقع بين حرَّتيْن، فعرفا أن هذه مدينة النبي الخاتم. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالوصف، فقالا له: أنت محمدٌ؟ قال: نعم، أنت أحمدُ؟ قال: نعم، قالا: إنا نسألك عن شيء، فإن أجبتنا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ٢٧٤) وابن المنذر (٢٩٧) وابن أبي حاتم (٣٣٠٢).

عليه آمنا بك وصدَّقناك واتَّبعناك، ما أعظَمُ شهادة في كتاب الله؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فأسلم الحبران[١].

وفي الآية دليلٌ على فضل العلم والعلماء.

وقيل: إن الآية نزلت في الردِّ على وفد نصارى نجران وما ادَّعُوه في شأن عيسى.

وقد سُئل أعرابيٌّ عن وجود الله سبحانه فقال: البَعرةُ تدلُّ على البَعير، وآثارُ الأقدام تدل على المَسير؛ فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟!

والمعنى: شهد الله سبحانه أنه المتفرِّد بالإلهية، وقد أخبر عباده بذلك، وأعلمهم في آياته وعلى ألسنة رسله، وعن طريق التأمل في هذا الكون، وكلها أدلة قاطعة تشهد بوحدانيته تعالى، وأنه لا معبود بحق سواه، والكل عبيده، ومفتقِرٌ إليه.

وقد شهد الله سبحانه لنفسه بالتوحيد، بما أقامة من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده سبحانه في الأنفس والآفاق.

وتلتْه شهادة الملائكة، وقد عرفناها عن طريق إخبار الله تعالى بواسطة رسله.

وثالثها شهادة أولي العلم، فهم المرجع في الأمور الدينية، وعلى رأسها أجل العلوم وأعظمها وهو التوحيد.

وشهادتهم تتمثل في الاستجابة والطاعة، إذ لا ينبغي ولا يليق أن يشهد أحدٌ على الله سبحانه بالتوحيد، فهو الذي شهِدَ لنفسه؛ لأنه جلَّ شأنه هو الأول فلا أحد قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده، وهو الخالق سبحانه، وهو الذي يدبِّر أمور خلقه، وكفى بالله شهيدا ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

وشهادةُ الله على نفسه بأنه واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا والد له ولا ولد، أعظم وأكبر شهادة في كتاب الله سبحانه، بمعنى أن الله سبحانه قد أعلم ملائكته وبيَّن لهم حقيقة التوحيد، وأنه جل شأنه، واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، وأن الملائكة جميعًا قد أقروا واعترفوا

---

(١) النيسابوري (٨٢) و«تفسير القرطبي» (٤/ ٤١) و«البحر المحيط» (٢/ ٤٠١) بالمعنى.

بتوحيد الله سُبحانه، ثم بلَّغوا ذلك إلى رُسل الله، وأن رُسل الله أقروا واعترفوا بذلك، وبلَّغوا جميع الأمم بهذا، فحدثت الشهادة من الجميع.

وقام بهذا الشرف العظيم من البشر أولو العلم، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل والدعاة إلى الله سبحانه، والراسخون في العلم، وفي هذا فضلٌ وتشريفٌ لهم بأنهم حمَلُوا لواء دعوة الرسل ليبلِّغوها إلى الناس كافة.

ولما سمع الأعمَش هذه الآية قال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، ولي عند الله وديعة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ قالها مرارًا، فلما سُئل عنها قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله أنه يُجاء يوم القيامة بصاحبها، فيقول الله ﷻ: إن لعبدي هذا عندي عهدًا، وأنا أحقُّ من وفَّى بالعهد، أَدْخِلوا عبدي الجنة[1].

وفي هذه الآية ردٌّ على وفد نصارى نجران، وقد نزل فيهم أربع وثمانون آية، من أول السورة ردَّ الله فيها على محاورتهم ومناظرتهم للنبي ﷺ وقولهم: إن عيسى ابن الله، أوأنه هو الله أو أنه ثالث ثلاثة، فبيَّنت الآية أن الله جل شأنه واحدٌ أحدٌ، فرد صمد، لا والد له ولا ولد.

ورَدَ أن الكعبة كان حولها ثلاث مئة وستون صنمًا، فلما نزلت هذه الآية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ خرَّت هذه الأصنام سُجَّدًا لله سبحانه، وفي الآية دليل على فضل العلم وشرفه، ومن ذلك:

١- أن الله تعالى خصّهم بالشهادة على أعظم مشهود.

٢- وأن الله تعالى قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته.

٣- وأن الله تعالى أضافهم إلى العلم، لأنهم القائمون به، المتصفون بصفته.

٤- وأن الله تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالتوحيد، فكل من عمل به نالهم من أجره.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ٢٤٥) (١٠٤٥٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٦): فيه عمر بن المختار وهو ضعيف، ورواه بن عدي في الكامل (٥/ ١٦٩٣) من طريق عمار بن عمر المختار وأخرجه أيضا البيهقي في «الشعب» (٢٤١٤) والخطيب في تاريخه (٧/ ١٩٣) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٠٣): هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرد به عمر بن المختار.

٥- وفيها بيان أن إشهاد الله تعالى لأولي العلم يتضمن تزكيتهم وتعديلهم وأمانتهم.

هذا: ولما قرر الله توحيده قرر عدله في قوله ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ ولم يزل متصفًا بالقسط في أفعاله وتدبيره شؤون عباده، فهو على صراط مستقيم، فيما أمر ونهى، وفيما خلق وقدّر.

ثم أعاد سبحانه تقرير التوحيد فقال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا التوحيد قد دلت عليه الأدلة النقلية والعقلية، فكل ما في الكتاب والسنة من الأمر بالتوحيد ونبذ الشرك وأهله؛ أدلة نقلية.

ومن الأدلة العقلية: اعتراف المشركين بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر، وأنه سبحانه الذي يدفع النقم ويجلب النعم، وهو الذي ينفع ويضر، وإليه يجأر الخلق في الشدائد، وغير ذلك، ومن هنا وجب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه.

الأَصْلُ الثَّانِي هُوَ الإِسْلَامُ بمعْنَاهُ الْعامّ

١٩- ﴿إِنَّ[١] ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

ومما يجب الإلمام به اعتقاد أن الله تعالى واحد أحد، وأنه القوَّام على البشر وعلى الكون كله، وأنه هوالذي يجب الاستسلام له والتوجُّه إليه وحده بالعبادة، وهذا منهج كل الرسل، فإسلامهم واحد، وقد بيَّن جل شأنه في هذه الآية أن الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لعباده -عقيدة وشريعة- هو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو التسليم بعبادة الله وطاعته كما دعت إليها الرسل، وحثّت عليها الكتب، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه، فهو دين يتضمن الإخلاص لله في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء، ومتابعة الرسول ﷺ.

ولما ادَّعى اليهودُ أن اليهودية أفضلُ الشرائع، وادَّعى النصارى أن النصرانية هي الأفضل، ردَّ الله تعالى عليهم بأن الدين عند الله هو الإسلام.

---

(١) فتح الهمزة من (إن) الكسائي وكسرها الباقون.

والإسلام يعني التوحيد، وهو إسلام الوجه لله سبحانه، بمعنى الاستسلام لله جل شأنه والانقياد له بالطاعة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولو لم يدرك العقلُ العلةَ أوالسببَ، فهو مُذعنٌ ومُصدِّقٌ بأن الله واحدٌ أحدٌ، متَّبع له في أوامره ومجتنبٌ لنواهيه.

ومن لقي الله تعالى بعد بعثة محمد ﷺ بدين غير الإسلام فلن يُقبل منه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

والإسلام له معنى عامٌّ، ومعنى خاصٌّ.

فالمعنى العام للإسلام: هو التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وجميع الشرائع التي سبقت محمدا ﷺ لم تكن شريعتها عامة، فأكبر هذه الشرائع هي شريعة موسى عليه السلام، وهي لم تدْعُ غيرَ فرعون وبني إسرائيل، وكذلك دعوة عيسى عليه السلام، فقد دعا الناس إليها القديس بولس بعد عيسى عليه السلام بثلاثين عامًا، وكل رسول أرسله الله إلى أمة من الأمم كان مسلمًا، وأن الأمة كانت أمة مسلمة، فالرسول ﷺ -أيَّ رسول- جاء من عند الله بالتوحيد، وأمته أُمرت بالتوحيد، وهو الأصل الأول، فالأممُ كلُّها يطلق عليها الإسلام، وكل رسول أرسله الله تعالى إلى قومه ليقول لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قالها نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وبقيَّة رُسل الله لأقوامهم، وهذا هو الإسلام أي: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وقد قرر الله ذلك في شأن رسله جميعًا:

١- فإبراهيم عليه السلام ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ أي في هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا هو إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

٢- وإسماعيل ولد إبراهيم -عليهما السلام- كان مسلمًا، جاء ذلك في دعائه مع أبيه وهما يرفعان قواعد البيت ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

٣- ويعقوب -الذي هو إسرائيل أصل بني إسرائيل، وأبوهم- كان مسلمًا- قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بكلمة التوحيد والإسلام ﴿إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ فهو يقول لذريته:

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ولما حضر يعقوبَ الموتُ، كانت الوصية التي وصّى بها أبناءه من بعده هي الإسلام ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

٤- ويوسف عليه السلام قال: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمًا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

٥- والحواريون -أتباع عيسى عليه السلام- كانوا مسلمين ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]

هذا هو الإسلام بمعناه العام (التوحيد) على لسان جميع الرسل وفي جميع الأمم.

وقد يكون المراد بشهادة الله تعالى وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم، على أن الدين عند الله الإسلام، وهو التوحيد الخالص، فتكون الآية التالية بيان وتوضيح لهذه الآية، وشهد الله على ذلك وأشهد ملائكته وأولوا العلم.

المعنى الخاص للإسلام: ثم أُطلق الإسلام على خصوص أمة محمد ﷺ؛ لأنه الدين المهيمن على الشرائع السابقة، المصدِّق لما فيها، الناسخ لما قبله، وهو الدين الوحيد الذي يؤمن بجميع رسل الله ولا يكذِّب أحدا منهم، فهو الرسالة التي جاء بها خاتم الأنبياء، وليس فيه تحريف ولا تغيير ولا تبديل، ويبقى اسم الإسلام الذي أراده الله لجميع الأمم قائمًا بالتوحيد الخالص في هذه الأمة إلى يوم الساعة ممثَّلًا في أمة محمد ﷺ. والإسلام بمعناه الخاص قد اشتمل على:

١- إصلاح العقيدة، التي لا يشوبُها شائبة شِرك، ولا يتخذ بعض الناس بعضا أربابًا من دون الله.

٢- إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، وإصلاح منهج الحياة، وأصول الأخلاق.

٣- يقوم هذا الدين على الترغيب والترهيب، ومجادلة غير المسلمين بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، ورعاية مصالح الناس.

٤- إنها رسالة عامة لجميع البشر وإلى قيام الساعة، ولم يدَّعِ رسولٌ قبل محمد ﷺ أن

رسالته عامة مستمرة، وأنه لا رسالة بعدها، مع نسْخها لما قبلها.

٥- الإسلام دينٌ ودولة، ومصحفٌ وسيف، والسياسة الداخلية والخارجية للبلاد من أصول الإسلام، وهي لا تخرج عن نطاقه.

إن الخلاف الذي وقع بين اليهود والنصارى -من أهل الكتاب- في شأن الإسلام وشأن نبي الإسلام لم يقع عن جهل، وإنما وقع عن علم يقيني منهم، وكان عن حسد منهم بعدما جاءهم العلم بنبوة محمد ﷺ، كما وقع الخلاف بين اليهود والنصارى، حيث كفر اليهود بعيسى عليه السلام، فتفرقوا شيعًا وأحزابًا من بعدما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وهكذا: وقع الخلاف بينهم بسبب البغي والحسد والعدوان، والحرص على الرئاسة والجاه، فعزَّ على بني إسرائيل أن تنتقل النبوة منهم إلى العرب، ويُبعث منهم محمد ﷺ، فأنكروا صفاته وجحدوا نبوَّته كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ المطابق لما في كتبهم، وكان كفرهم هذا حسدًا منهم وهو معنى ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وقد وضع الله سبحانه سنة عامة في خلقه، تقضي بالعقوبة العاجلة لكل من كفر بآيات الله سبحانه ولم يؤمن بخاتم المرسلين ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصًا مَن ترك الحق بعد معرفته، فهو مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم.

وهذه إجابة على اليهود والنصارى وغيرهم، ممن يفضل غير دين الإسلام عليه:

٢٠- ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ(١) لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ(٢) وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

وإن حاجوك - أيها الرسول - في شأن الإسلام، وإن جادل النصارى أو اليهود أيَّ مسلم -في شأن التوحيد إلى يوم القيامة- فقل لهم كلمة الفصل والحسم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ فانْقدتُ بقلبي ولساني وجميع جوارحي لله تعالى، وأخلصت عبادتي لله

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح الياء وصلا من (وجهي) وسكنها الباقون.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلا ووقفا من (ومن اتبعن) والباقون بحذفها في الحالين.

وحده، وتركت ما سوى دين الإسلام، أنا ومن اتبعني من المؤمنين، فإن الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرٌ، فأَعْرِضْ عليهم الإسلام ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى والأميين من العرب -وقد سُمُّوا أُمِّيين لأنه لم يُبعث فيهم نبي قبل محمد ﷺ لقلة من يعرف منهم القراءة والكتابة وقت نزول الوحي على رسول الله ﷺ- قل لهم: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بمثل ما آمنتم به، أم أنتم باقون على كفركم، فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ ونفعوا أنفسهم بالخروج إلى الهدى، وصاروا إخوانكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم.

ولما قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أهل الكتاب، قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: «**أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟**» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدا، وذلك قوله تعالى ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾[(١)].

والمعنى: فإن جادلك أهل الكتاب -يا محمد- ومن كان مثلهم، بالمغالطات وزور القول، بعد أن قامت الحجج على صدقك- فلا تُسايِرْهم، ولا تلْتفت إلى أكاذيبهم، وأعْلِن عبادتك وإخلاصك لله وحده أنت ومن سار على درْبك واتبع سبيله؛ فإن أسلموا وجوههم لله، وصدقوا بما جئت به -فقد اهتدَوْا إلى الحق والدِّين الذي ارتضيته لهم، وإن أعرضوا فإن هذا لن يضرك شيئًا فقد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحْت الأمة، فقد قامت عليهم الحجة، وثبت لك أجر البلاغ، ولم يبق إلا مجازاتهم بالعقاب على جُرْمهم.

عن أنس ﷺ أن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وَضُوءه وَيُناولُه نعليه، فمرض، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه، وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان قل: لا إله إلا الله**» فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه: أَطِعْ أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أخرجه بي من النار**»[(٢)].

والمراد من جملة: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ **ثلاثة أمور**:

أحدها: أَعْرِضْ عنهم واقْطع المجادلة معهم، فإنهم مكابِرون، ولا فائدة في الحوار معهم.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (١/ ٢٣).

(٢) ينظر: «المسند» (٣/ ١٧٥) برقم (١٢٧٩٢) وهو حديث صحيح، أخرجه والبخاري برقم (١٣٥٦، ٥٦٥٧).

ثانيها: أن يكون المراد بها إقامة الحجة عليهم في إسلامهم الوجه لله؛ ليحملهم هذا على التسليم والإذعان.

وثالثها: أن يكون المراد: إن كنتم تحاجون في أن الدين عند الله الإسلام فقل: إني بالإسلام أسلمت وجهي لله، ولن ألتفت إلى عبادتكم غير الله، فديني هو الحق، وأنتم لستم على دين، وإسلام الوجه لله يراد به **سبعة أمور**:

١- تمام العبودية لله تعالى وإخلاصها له.

٢- والتعرف على مراد الله تعالى وما يرضيه للعمل به.

٣- وامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

٤- وألا يجعل لنفسه حُكْمًا مع الله تعالى فيما حكم به.

٥- وإن أُشكل عليه أمر اتَّبع إشارة العقل لا إشارة الهوى.

٦- وأن يصدِّق بالغيب كله.

٧- ويحسن معاملة الناس أفرادًا وأممًا وجماعات[١].

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ فأبوا إلا الإشراك بالله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، هذه مُهمَّتك، والله سبحانه يحاسبهم ويعاقبهم يوم القيامة.

وفي الآية تسليةٌ للنبي ﷺ؛ لأنه كان شديد الحرص على إيمانهم، ويتألم لعدم إجابتهم.

وفيها دليلٌ على عموم رسالة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرسلت به- إلا كان من أصحاب النار**»[٢].

---

(١) ملخصا من «تفسير الطاهر بن عاشور» (٣/٢٠٣) بتصرف.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

وقال ﷺ: «وبُعثت إلى كل أحمر وأسود»[١].

وقال: وكان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة[٢].

وَصْفُ الْيَهُودِ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ

٢١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ[٣] بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ[٤] ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

وبعد مُجادلةِ النَّصَارَى في وحدانيةِ الله تعالى، يأتي بيانُ أحوال اليهود، فتصفهم الآية بثلاثة أوصاف شنيعة هي: كُفْرُهم بالله تعالى، وقَتْلُهم لأنبياء الله، وقَتْلُهم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ورتَّب سبحانه على ذلك شدةَ العذاب يوم القيامة.

وَرُسُلُ الله وأنبياؤه يبلِّغون الدَّعْوَة إلى الخَلْق، ومِن أولي العلم الدُّعَاة إلى الله سبحانه، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، الداعون إلى الخير والإصلاح، ومِن البشر مَن يتعرَّض إلى الرُّسُل، وإلى الدُّعَاة إلى الله، بالقَتْل والسَّجن والتعذيب والتشريد، حدث هذا على مَدَى التاريخ في القديم والحديث، فبنو إسرائيل قتلوا أنبياءهم:

١- قتلوا (زكريا)؛ لأنه حاول تَخليص ابنه يحيى من قتلهم له.

٢- وقتلوا (يحيى)؛ لأنه آمن بعيسى، وحارب مُخالفةَ الشريعة في نكاح المَحَارِمِ.

٣- وقتلوا النَّبِي (إرمياء) بمصر.

٤- وقتلوا (حزقيال)؛ لأنه وبَّخَهم على سوء أفعالهم.

٥- وزعموا أنهم قتلوا (عيسى) عليه السلام.

٦- ونشروا (أشعياء) بالمنشار؛ لأنه نَهاهم عن المنكر.

٧- وقتلوا (منشا) ابن حُزقيال.

---

(١) من حديث جابر بن عبد الله في البخاري (٣٣٥) وانظر (٤٣٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله.

(٣) قرأ نافع (النبيئين) بالهمز، والباقون بإبدالها ياء مدغمة.

(٤) قرأ حمزة (ويقاتلون الذين) من المقاتلة، فالمفاعلة من الجانبين، وقرأ الباقون (ويَقْتُلُون) من القتل.

والطغاة من الحُكام في كل زمان ومكان يتعرضون لأولي العلم والدُّعَاة إلى الله ﷻ بالقتل والتعذيب والسجن والتشريد.

والآية تَقْرن قتلَ الأنبياء والدُّعَاة إلى الله بالكُفْر بالله ﷻ، وتجعله قرين الكفر بالله جل شأنه.

وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ أن أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة رجلٌ قتل نبيًّا، أو رجلًا أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ثم قال ﷺ: **«يا أبا عبيدة، قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا من أول النهار في ساعة واحدة، ثم قتلوا مئة وسبعين رجلًا، وهم الذين نَهوهم عن المنكر»**.

كما حدث من بني إسرائيل، فقد قتلوا عددًا من أنبيائهم الذين ذكَّروهم بأحكام التوراة، وقتلوا مَن أمروهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر من الدُّعَاة إلى الله سبحانه.

هذه ثلاث صفات وَصَفَ الله بها اليهود في الآية وهي: الكُفْر بالله، وقَتْلِ الأنبياء، وقَتْلِ الدُّعَاة إلى الله. قال سبحانه في عاقبتهم مُتهكمًا: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. مؤلم للأبدان والقلوب والأرواح بسبب ما ارتكبوه من منكرات.

والمتصفون بهذه الصفات قد بطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، ولا يوجد من ينصرهم من عذاب الله، ولا من يدفع عنهم نقمته، فقد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر: قال تعالى:

٢٢- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: أن أعمالهم الصالحة التي قدَّموها في الدنيا لا أجرَ عليها، ولا ثوابَ لها؛ فقد أَبطلوها في الدارين، ولم يبقَ لها أثرٌ، وليس لهم من نصيرٍ يَمنعهم من عذاب الله يومَ القيامة.

وأصل الحبوط: انتفاخ بطن الدابة التي تَرْعَى نبتًا مسمومًا توطئة لهلاكها.

أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ مَنْهَجٌ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا

٢٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ[1] بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وهذا الإسلام لا يَكتمل العملُ به إلا إذا حكَّمه المسلمون في مناهج حياتهم، وفي مناهج تعليمهم، وفي وسائل إعلامهم، وفي إقامة حدود الله، وفي سلوكهم، حكَّموا كتابَ الله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، أما أن يدَّعيَ المسلمُ الإسلامَ ويصلي ويصوم، وهو يُعرض عن تَحكيم كتاب الله سبحانه، فإنه لا يُعَدُّ مسلمًا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

أرأيت - أيها الرسول - أعجبَ من حال اليهود الذين آتاهم الله حظًّا من الكتاب؛ فعلموا من خلاله أن ما جئتَ به هو الحقُّ، هؤلاء اليهود إذا دُعوا إلى التحاكم لكتاب الله؛ ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يوافقْ هذا الحكم أهواءهم امتنعوا عن قبوله؛ لأن من عادتهم الإعراضَ عن الحقِّ، وإن وَافَقَ أهواءهم قَبِلُوه.

والآيةُ تشير إلى أن طائفة من اليهود دُعوا إلى التوراة؛ للتحاكم بينهم فيما تنازعوا فيه مع رسول الله ﷺ فأبَوْا، ومِن التنازع الذي حَدَثَ بينهم مع النَّبي ﷺ ما حَدَثَ في شأن النُّبوَّة، هل هو نَبِيٌّ أم لا؟ وما تنازعوا فيه من أمر إبراهيم ﷺ، هل هو يهوديٌّ أو نصرانيٌّ؟ وممَّا تنازعوا فيه حدُّ الرجم، فهذه أمثلة لِمَا نازعوا فيه رسول الله ﷺ.

وفي الآية تحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصبنا ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دُعي إلى الله ورسوله أن يسمع ويطيع وينقاد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]

في أسباب النزول:

١- أن رجلًا وامرأة من يهود خيبر زنيا، وهما من أشراف القوم، وحُكْم الزاني

(١) قرأ أبو جعفر (لِيُحْكَمَ بينهم) بضم الياء وفتح الكاف على البناء للمفعول، وقرأ الباقون (لِيَحْكُمَ بينهم) بفتح الياء وضم الكاف على البناء للفاعل.

المُحْصَن في التوراة هو الرجم، كما هو في الإسلام، وقد كره القوم رجمَهما؛ لشرفهما ومنزلتهما، فذهبا إلى رسول الله ﷺ يلتمسان رخصةً أو حُكْمًا أخف؛ فحكم النَّبِي ﷺ بالرجم، وقال: تَجدون ذلك في التوراة، فأنكر بعضُهم ذلك، فأمر ﷺ بإحضار التوراة، فأُحضرت التوراة، وقرأ عبد الله بن صوريا، من يهود (فدك) الآية من التوراة، ووضع يده فوق كلمة الرجم، وتخطَّاها، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله، قد جاوزها، ثم قام ورفع كَفَّه عنها، فأزاحها النَّبِي ﷺ وبيَّن لهم حُكمَ الزاني المحصَن في التوراة، وهو الرجم، وأمر ﷺ برجمهما فغضبوا.

٢- وأخرج الطبري بسند حسن عن ابن عباس ﷺ أن النَّبِي ﷺ دخل مِدْراس اليهود، فسأله رجلان منهم هما: نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد، أنت على أيِّ دين؟ فقال: «**أنا على ملة إبراهيم**»، قالا: إن إبراهيم كان يهوديًا، قال: «**بيننا وبينكم التوراة، هلموا إليها**»؛ فأبيا؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود، أُوتوا حظًّا وبعضًا من الكتاب، وحرَّفوا وغيَّروا بَعْضَه.

٣- وفي الصحيحين عن ابن عمر ﷺ أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النَّبِي ﷺ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تَجدونه في التوراة في شأن الزاني؟ فقالوا: نفضحهم ويُجْلَدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إن فيها الرجم، فأتَوْا بالتوراة، فجعل أحدهم يده على آية الرجم، ثم جعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدَك؛ فرفعها، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صَدَقَ محمدٌ، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما.

فهذا الحديث الصحيح ليس فيه أن هذه القصة سببٌ لنزول الآية، ولكنها تشهد بصحة سبب النزول المذكور.

والنَّصارَى أوتوا شيئًا من الكتاب، وحرَّفوا وغيَّروا بعضَه، والمسلمون أوتوا الكتاب كله؛ لأن القرآنَ جامعٌ للأصول، ومصدِّقٌ لِمَا سبقه، ومُحْتوٍ على ما فيه من الكتب الإلهية، فهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ فالذي لا يَقبل حُكْمَ الله سبحانه ليس بمؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وما فيه من جنة ونار وحساب وعقاب.

خُرَافَةُ اعْتِقَادِ الْيَهُودِ بِأَنَهُمْ مُتَمَيِّزُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالى

٢٤- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه العلةَ والسبب في تولِّيهم وإعراضِهم، وأنه بسبب زَعْمِهم الفاسد، أنهم في أمان من العذاب يوم القيامة إلا أيامًا قليلة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ بقَدْرِ التطهير من المعاصي والذنوب؛ أي: أنه يصيبهم شيء يسير من العذاب ثم يدخلون الجنة؛ حيث قالوا بأنهم لن تَمسهم النار إلا سبعة أيام، أو أربعين يومًا، مدة عبادتهم للعجل.

وقيل: إنهم قالوا: لن يُدخلنا الله النار إلا تحلة القسم، والأيام التي أصبنا فيها عبادة العجل، والذي جرَّأهم على الحلف بالله تعالى، زعمُهم أنهم على حقٍّ، فانصرافهم عن الحقِّ بسبب هذا الاعتقاد الفاسد، مِن أنهم لا يُعذبون في النار إلا أيامًا قليلة، وقد أدَّى هذا إلى جُرأتهم على الله تعالى، واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على الباطل الذي خَدعوا به أنفسهم، وهو مجرد كذب وافتراء. قال تعالى:

٢٥- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ[(١)] فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

أي: إن هؤلاء اليهود افترَوْا على الله وكذَّبوا رُسلَه، وقتلوا الأنبياء والعلماء، فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله للحساب في يوم لا ريب فيه، وأخذ كل منهم جزاءه من غير ظلم؟! فهو اليوم الذي تُوفي فيه كل نفس ما كسبت، وتجازى فيه بالعدل والقسط، ولا يظلم ربك أحدا.

النُّبُوَّةُ وَالْحُكْمُ لا يُورَّثَانَ

٢٦- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا ذكر الله تعالى تآمرَ غير المسلمين على المسلمين، وإعراضَهم عن التحاكم إلى كتاب الله، ودَعْوَاهم أن النار لن تَمسهم إلا بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، بيَّن ﷻ أن السَّبب

---

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمدِّ (لا) مِن (لا ريب) أربع حركات مبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

في ذلك هو حسدُهم للنبي ﷺ، حيث انتقلتِ الرسالة من شعب بني إسرائيل إلى العرب، فردَّ الله عليهم بأن المُلك لله يُعطيه لمَن يشاء، وينزعه عمَّن يشاء.

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى سينزع ملك الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم، ويعطيه أمة محمد ﷺ، وفيها إشارة إلى انتقال النبوة والرسالة من بني إسرائيل إلى العرب، فحصول الملك ونَزْعه تبع لمشيئة الله تعالى، ومن أسباب حصول الملك وزمام الحكم: الإيمان والعمل الصالح، والتآلف والصبر وعدم التنازع:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]

وقد انتقد اليهود والمشركون على النَّبِي ﷺ **أمورًا** يزعمون أنها لا تُناسب شأنَ النُّبُوَّة؛ فأمر الله تعالى رسولَه أن يتوجَّه إلى الله تعالى بهذا الدعاء المتضمِن ردَّ المُلك والملكوت لله وحده.

فكأن الآية تقول: يارب، يا مَن لك المُلك وحدك، أنت الذي تَمنح المُلك والمال، والتمكين في الأرض مَن تشاء، وتَهب العِزَّة في الدنيا والآخرة لمَن تشاء، وتجعل الذِّلة على مَن تشاء، فالخيرُ كلُّه بيديك، وأنت وحدك القادر على كلِّ شيء، ومِن ذلك أنك تَنزع النُّبُوَّة من بني إسرائيل، وتجعلها في ذرية إسماعيل، وتَصطفِي مَن تشاءُ من خلقك، فتخصه بالنُّبُوَّة والرسالة وإن اعترض المكذِّبون.

أمور مزعومة:

١- لقد عاب المشركون على النَّبِي ﷺ كيف يكون نبيًّا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كالبشر ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

والله سبحانه يَرُدُّ عليهم بأن هذا ليس خاصًّا بمحمدٍ ﷺ، وإنما هو شأنُ جميع الرُّسُل، فهم بَشَرٌ يأكلون ويشربون ويسعَوْن على أرزاقهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

٢- كما عاب المشركون على النَّبِي ﷺ كيف يكون نبيًّا وهو يتزوج وتكون له ذرية، والله سبحانه أجابَهم بأن هذا لم يخص محمدًا ﷺ وحده بهذا، بل هو شأن الرُّسُل

جميعًا، كلهم يتزوجون وكلهم يتناسلون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

٣- وعاب أهل الكتاب من اليهود والنَّصارَى على النَّبِي ﷺ كيف تنتقل النُّبُوَّة من بني إسرائيل إلى العرب، وكيف ظلَّتِ النُّبُوَّة والرسالة دهرًا طويلًا حِكْرًا على بني إسرائيل، ثم انتقلت إلى محمدٍ ﷺ، فقال اليهود: والله لا نُطيع رجلًا جاء ينقل النُّبُوَّة من بني إسرائيل إلى غيرهم.

ولمَّا ناقش وفد نَصَارَى نَجْرَان هذا المبدأ مع رسول الله ﷺ نزل بصدد الإجابة عن ذلك ثلاث وثمانون آية من صَدْرِ سورة آل عمران.

الأيام دُوَلٌ: ولمَّا كان المسلمون ضِعافًا مُضطهدين في أول الدَّعْوَة، وربَّما أَخْفَوْا صلاتَهم، ولم يجهروا بها، وربما قضى أحدُهم حاجتَه خُفْيَة، وبينما هم في هذه الحالة إذ بشَّر النَّبِي ﷺ بأنهم سيملكون مُلْك كِسْرَى وقيصر، وكنوزهما، كما يَملكون قصور صنعاء، فعجب المنافقون واليهود، وقالوا: كيف يُمنِّي محمدٌ ﷺ أصحابَه بهذه الأماني الباطلة.

ولما افتتح رسولُ الله مكةَ قال ابن عباس وأنس بن مالك: إن النَّبِي ﷺ وعد أمتَه مُلْكَ فارس والروم، فقال اليهود والمنافقون: ألم يكفِ محمدًا مكة والمدينة، حتى طَمِعَ في مُلْك فارس والروم؛ فأنزل الله جل شأنه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾(١).

ومن ذلك: أن الله سبحانه قد سَلَبَ النُّبُوَّة والمُلك من بني إسرائيل، وجعلها في أُمَّة محمدٍ ﷺ، والنُّبُوَّةُ أعظمُ مراتبِ المُلك، كما أَعْطَى الله المُلك والنُّبُوَّة لإبراهيم من قبل ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

كما أَعطَى اللهُ سبحانه داودَ وسليمانَ المُلك والنُّبُوَّة، وأَعطى النُّبُوَّة والرسالة إلى عددٍ كثيرٍ من رسل الله وأنبيائه، قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]

وقال سبحانه ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقال جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) الطبري (٣/ ١٤٨) والقرطبي (٤/ ٥٢) و«زاد المسير» (١/ ٣٦٨) والسيوطي (١٠) والنيسابوري (٨٤).

وقد حقَّقَ الله لأُمَّة محمدٍ ﷺ مُلْك وكنوز كسرى وقيصر والشام وصنعاء، كما أخبر بذلك المُصطفَى ﷺ، وهذه الأيام دُوَلٌ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

يومٌ لك، ويومٌ عليك، يومٌ تدين، ويومٌ تدانُ، يوم صحيح، ويوم مريض، يوم عزيز، ويوم ذليل، يوم جارح، ويوم مجروح.

انتقال النُّبوة من بني إسرائيل إلى العرب:

وها هو النَّبِي ﷺ وأمتُه، يرثون عزّو مُلك مَن سبقهم من بني إسرائيل، فما هو السبب؟ السبب: أن المالك في الحقيقة هو الله سبحانه، المالك لهذا الكون، وحينما يُعطي الله جل شأنه شيئًا من الحُكم أو المُلك في هذه الأرض لبعض خلقه، فيصْبحوا حُكامًا أو رؤساءأو ملوكًا، إنما يَخضع هذا المُلك لشروط المُمَلكٌ الأصلي، وهو الله ربُّ العالمين، وذلك بإقامة منهج الله فيِ الأرض، وعدَم الفساد فيها، وتحقيقِ العدل بين الرَّعِية، فإذا لم يتحقق هذا، ولم يطبّق منهج الله في أرضه، ولا قامت الخلافة الإسلامية بين الناس، وفسد الحكم بين الرعية، فإن هذا الحاكم أو هذه الأمَّة، جديرة بأن يَسلُب الله منها المُلك إلى غيرها ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

وقد أفسد بنو إسرائيل في الأرض، فقتلوا الأنبياء، وغيَّروا أحكام الله في التوراة والإنجيل، وبدَّلوا ما أنزل الله فيهما، فتحولتِ النُّبُوَّة منهم إلى غيرهم، وأعطى الله سبحانه النُّبُوَّة لمحمدٍ ﷺ، وهذا شأن كلِّ مَن يُفسد في الأرض، ولا يُقيم منهج الله فيها، فإن النِّعمة تُسْلَبُ منه ويُعطَى الأمرُ لأهله، وحسابه في آخرته على ربِّ العالمين.

عن أنس ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال لمعاذ: «**ألا أعلمك دعاءً تدعو به، لو كان عليك مثلُ جبل أحد دَيْنًا لأدَّاه الله عنك؟ قل يا معاذ: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك مَن تشاء، وتنزع الملك ممَّن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، رحمٰن الدنيا والآخرة ورَحيمَهُما، تعطيهما مَن تشاء، وتَمنع منهما من تشاء، ارحمْني رحمةً تغنيني بها عن رحمة مَن سواك**»(١).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٣٠٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٦): ورجاله ثقات.

ثَلاثَةُ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

٢٧- ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ[1] مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا ذَكَرَ سبحانه أنه مالك المُلك، أتبعه بذكر **ثلاثة** من آثار قدرته تعالى:

أحدهما: قدرتُه الباهرة في تصريف هذا الكون؛ فالله ﷻ من كمال قدرته وقوته ما جاء في هذه الآية: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ﴾ وهذا من خصائص الألوهية، لا يَملكها إلا خالقُ هذا الكون ومدبِّرُه، فهو جل شأنه يزيد هذا وينقص هذا، يُدخل الليل في النهار فيذهَب النهار، ويُدخل النهار في الليل فيذهب الليل، وينتجُ عن ذلك فصول العام، كما ينتج عنه الظلمة والنور، والظل والسكون والانتشار، وهذا أكبر دليل على قدرة الله تعالى وعظمته، وحكمته ورحمته بعباده.

وثانيهما: أنه جل شأنه يُخرج الحيَّ من الميت، ويُخرج الميت من الحي، وفي هذا إشارةٌ إلى ظهورِ النُّور والهُدى في أُمَّة أُمِّيَّة، وظهور الضلال والكفر في أهل الكتاب، وهذا من خصائص الألوهية أيضًا، إذ لا يمكن لبشر أن يفعل مثل ذلك.

وخَلْقُ الحي من الميت منْهُ حياة مادية، ومنه حياة معنوية، وكذلك خَلْق الميت من الحي، منه موت مادي، وموت معنوي.

فالله تعالى يَخلق الإنسانَ من النُّطفة، والنُّطفة من الغذاء، والغذاء من التُّراب، وكذلك يَخلق الله النخلة من النواة، والزرع من الحب، وما إلى ذلك من أنواع الحياة المادية، والموت المادي.

وهناك الحياة المعنوية، والموت المعنوي التي تكون الحياة فيها بالإيمان، والموت بالكُفْر، فالله سبحانه يُحيي القلوب بنور الإيمان كما يُحيي الأرض بوابل السماء.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن الإيمان بالحياة، وعن الكُفْر بالموت في قوله تعالى:

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشُعبة بتخفيف الياء ساكنة من لفظ (الميت)، والباقون بتشديدها مكسورة.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كان كافرًا فأحييناه بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الكافر ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالله تعالى يُخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، ويُحيي الأرض بعد موتها.

وهذا أعظم دليل على قدرة الله تعالى، حيث يخلق الضد من ضده، وكلها مسخرة لله تعالى، لا تملك من أمر التدبير شيئًا.

وثالثها: والله سبحانه يَرزق مَن يشاءُ بغير حساب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان]

وقال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص]

والإعزاز والإذلال بيدِ الله، فهو سبحانه قادرٌ على إعزاز مَن شاء، وإذلال مَن شاء، فالملوك والرؤساء نواصيهم بيد الله تعالى، وكما تكونوا يُولَّ عليكم.

الْأَصْلُ الثَّالِثُ: عَدَمُ مُوَالَاةِ الْكَافِرِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

٢٨- ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً(١) ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة غير المسلمين بالمحبة والنصرة والاستعانة، وبيان أن هذه الموالاة لا تجتمع مع الإيمان.

أسباب النزول:

١- قيل: نزلتْ هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، كانوا يتولوْن اليهود والمشركين، ويأتونَهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية، ونَهى المؤمنين عن مثل فعلهم(٢).

٢- وقيل: إن الآية نزلتْ في نفر من الأنصار، كانت لهم ولايةٌ مع نفر مِن اليهود،

(١) قرأ يعقوب (تَقِيَّة) بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء مفتوحة، وقرأ الباقون (تُقاة) بضم التاء وألف بعد القاف، وهما مصدران.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٧).

فنصح الأنصار بعضَ المسلمين أن يتركوا ولاية اليهود حتى لا يفتنوهم عن دِينهم، فأَبَوْا إلا مُباطنتهم؛ فأنزل الله الآية.

٣- وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن تأول، وكان يُظهر المودة لكفار مكة.

٤- وورد أنها نزلتْ في عبادة بن الصامت، كان له خمس مئة حليفٍ من اليهود، فأراد أن يستعينَ بِهم يوم الخندق لحرب العدو؛ فنزلت الآية[١].

وممَّا يَجب الإلمام به؛ لفَهْم مضمونِ سورة آل عمران؛ وحديثها عن النَّصَارَى، موضوع: **الولاء والبراء في الله**، والتحذير من ولاية غير المؤمنين، وتقريرُ نَفْيِ الإيمان مع مَحبةِ الكُفَّار مَحبةً قلبيَّةً وولايتهم.

وما دام الله سبحانه هو القويُّ القادرُ، وبيده أسباب النصر والقوة؛ فلا ينبغي للمسلمين أن يلجؤوا لغير المسلمين، ويَستمدوا منهم العون والنصر والوئام، وإلا كانوا غيرَ سائرين على منهج الله تعالى، مخالفين لهدْيِ رسول الله ﷺ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في صداقتهم، وأعمالهم، وولائهم، ومحبتهم، والمودة إليهم، يتخذونهم بطانة، يُسرون إليهم بأسرارهم، ويَستبدلونهم بالمسلمين، ولا يجوز للكافر أن يتولى ولاية من ولايات المسلمين، فالآية تحتمل هذا المعنى والمعنى الذي قبله.

والعدوُّ على **نوعين**:

النوع الأول: مَن كانت عداوتُه مبنيَّةً على اختلاف الدين، كالكافر والمسلم، وبينهما عداوة قائمة؛ لوقوف غير المسلمين عَقَبة في وجه الدَّعْوَة، أو لاحتلالهم دِيار المسلمين.

النوع الآخر: مَن كانت عداوتُه مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ مِن نقل أخبار المسلمين إليهم، أو التحدث إليهم عن عوراتهم، أو محبتهم والمسرَّة بلقائهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ وفي هذا تبرؤٌ من الله سبحانه ممَّن يفعل ذلك، فهو ليس من الله في شيء، حتى ولو كان هذا الذي يواليه أقرب ما يكون إليه، ولكنه غير مؤمن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

(١) الواحدي (٨٥) والسيوطي (٥٠).

قال تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

والله ﷺ يأمر بالتبرؤ منهم أفرادًا أو جماعاتٍ أو أممًا، ويُعَدُّ مَن يُواليهم من الظالمين لأنفسهم بموالاة أعداء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن الظلم أن يُوالِي المؤمنُ غيرَ المؤمن، أو يتخذه موضع سِرٍّ له، أو يثق فيه دون المؤمنين؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أصول الإيمان ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاقٌ وضعفُ إيمان وخوفٌ من صولة العدو ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في مودتهم ومحبتهم وموالاتهم، وطلب النُّصرة منهم، فهم يَحتمون فيهم، ويخافون على عروشهم أن يثور عليهم شعوبُهم أو أعداؤهم.

و﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: ضعفٌ، فنحن نخشى غوائل الزمن أن يَحيف علينا قومٌ أو أقوامٌ فننتصر بهم عليهم، ونلجأ إليهم عند الحاجة إلى سلاحهم، وإلى قوتهم وجنودهم، نَخشى أن تدور علينا الدوائر، يقول الله سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ على المؤمنين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢] فتتغيَّر الأحوال وتتبدَّل، فينقلب الضعف إلى قوة، والفقر إلى غِنَى.

فالله سبحانه مالك المُلك، يُؤتي المُلك مَن يشاء، ويَنزعه ممَّن يَشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وتغييرُ الأحوال يكونُ إذا عَلِمَ الله من خَلْقه صِدْقَ الإيمان، وصِدْقَ الولاء مع الله سبحانه، ومع عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة].

وأهلُ الكتاب الذين لا يحاربوننا، وبيننا وبينهم عهدٌ وميثاقٌ، ولم يَحتلوا ديارَنا، ولم يُخرجونا من أرضنا، لا بأس من صلتهم، وحسن معاملتهم، وهناك فَرْقٌ بين حُسْن المعاملة، وبين المودَّة والمحبة والموالاة والنُّصرة، فالإسلام أمَرَ المسلمَ أن يُحسن معاملةَ غير المسلم من المسالمين الذين لا يحاربوننا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ

﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: لم يَحتلوا أوطانَكم، ولم يُخرجوكم من دياركم ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد حرَّم الإسلامُ الاستعانة بالمشرِك على قتال المسلم على خلاف في ذلك، وجمهور الفقهاء على الجواز بشرطين:

١- عند الحاجة الماسة. ٢- وعند وجود الثقة القوية فيه.

وقد حدث في يوم بدر أن رجلًا فيه جُرأة أراد أن يَلحق بالمسلمين ويُقاتل معهم، فقيل للنبي ﷺ: استعِن بمشرِك، قال: لا أستعين بمشرِك.

وقيل: إن هذا منسوخ بما بعده، وأن النَّبي ﷺ استعان بيهود بني قَيْنُقاع، واستعان بصفوان في حرب هوازن، وكان هذا في وقتٍ متأخرٍ، حَدَثَ قبل وفاة النَّبي ﷺ.

وفي ذلك تفصيلٌ، يَحكم فيه أهل الفتوى والفقه عند الحاجة، والضرورة الماسَّة له.

ولا يُستعان بالمشركين على قتال البغاة من المسلمين، أو على قتال المسلمين.

التَّقية: قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ أي: إلا أن تكونوا ضعفاء خائفين على أنفسكم خوفًا يَجب اتقاؤه، كأن كان الكافر متسلطًا قويًّا جبارًا، له على المسلم سلطانٌ، ويَخشى على أُمَّتِه، أو على نفسه، أوماله، أوولده، أوعرضه من القتل والانتهاك، فيحل لكم أن تعصموا دماءكم، وتظهروا ما تحصل به التقية من غير كذب ولا نفاق، وهذا كحال من يرى منكرا يعجز عن مقاومته بيده فينكره بلسانه .

وهكذا كان حال مؤمن آل فرعون، فهو لم يوافقهم على دينهم، ولا كان يكذب، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يُبِحْه الإسلام إلا لمن أكره وقلبه ومطمئن بالإيمان.

وتكون هذه التقية مع العدو الكافر، عند الضرورة، مع سلامة النية، وملء القلب بالإيمان.

قال سعيد بن جبير: إنما التقية في الحرب، وقال قوم: إنما كانت التقية في أول الإسلام، قبل أن يعزَّ الله الإسلام والمسلمين، ولعل القول بأنها رخصةٌ عند الضرورة أرجح.

أخرج البخاري عن أبي الدرداء: إنا لَنَكْشِر في وجوه أقوام، وقلوبُنا تلعنهم[١].

وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة[٢].

والتقية تكون باللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان؛ مَخافةَ القتل، أو الضرر البالغ الذي يلحق بالفرد أو الأُمَّة. والتقية تنقسم إلى **قسمين**:

القسم الأول: أن يكون المسلم في بلدٍ لا يُمكنه أن يُظْهِر فيه دينَه.

وهذا يَجب عليه أن يهاجر إلى بلدٍ آخر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء] والموافقة لغير المسلمين تكون بقَدْر الضَّرورة، وهي بِمثابة الرُّخصة يستعملها حتى يمكنَه الفرار بدِينه.

ومن ذلك ما ورد أن مسيلمةَ الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النَّبِي ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم، قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا الثاني، فقال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم، قالها ثلاثًا، فضرب عنقَه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما هذا المقتول فقد مضى على صِدْقِه ويقينه، فهنيئًا له، وأما الآخر فقد قبل رخصة الله فلا تبعة عليه.

والقسم الثاني: مَن كانت عداوتُه بسبب المال والإمارة وغيرهما.

وهذا عليه أن يُدَارِي الفَسَقَة والظَلَمَة، ويُلين الكلام لهم، ولا تلزمه الهجرة ما دام يتمكن من أداء الفرائض.

جاء في البخاري وغيره عن عائشة ﵂ قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال: «**ائذنوا له بئس أخو العشيرة، (أو ابن العشيرة)**»، فلما دخل، ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلتَ الذي قلت، ثم ألنْت له الكلام قال: «**أيْ عائشة، إن مِن شر الناس مَن تركه الناس، أو وَدَعه الناس اتقاءَ فُحشه**»[٣].

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٤) وهو في البخاري في كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس قبل الحديث رقم: (٦١٣١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٣٢، ٦٠٥٤) ومسلم (٢٥٩١).

وهكذا نَهَى الله المؤمنين أن يُلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وَلِيجَةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيُظهرون لهم اللطفَ، ويخالفونهم في الدين، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وتُختم الآية بالتحذير من الانضمام إلى صفوفِ الأعداء، وعدمِ الاستعانة بهم، أو اتخاذِهم بطانةً ومستشارين، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أن تعصوه وتخالفوا أمره وتتعرضوا لسخطه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمرجع، فيُجازِي كُلًّا بعمله، فإياكم أن تفعلوا من القبائح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا بما يحصل به الأجر والمثوبة.

ثماني حالات من مظاهر موالاة غير المسلمين:

هذا، وموالاةُ الكفار قد تكون في الظاهر والباطن، أو في الظاهر فقط، وينتجُ عن ذلك **ثمانية أحوال:**

أولًا: أن يتخذَ المسلمُ غيرَ المسلم وليًّا له في الباطن؛ ميلًا إلى كفره، ومناوءة للمسلمين، وهذه الحالة تُكفِّر صاحبَها؛ لأنه منافقٌ في عقيدته، يُظهر ما لا يُبطن.

ثانيًا: الميل إلى غير المسلمين؛ بسبب القرابة أو المُصاهرة، دون ميل إلى دينهم، مع أن غيرَ المسلمين هؤلاء مُجاهِرون بعداوتهم للإسلام، والاستهزاء بأهله، وهذه الحالة فيها إثمٌ كبيرٌ، ولكنها لا تكفِّر صاحبَها.

ثالثًا: الركون إلى غير المسلمين، الذين لا يُبغضون المسلمين، ولا يؤذونهم، وهذه لا تُوجب الكفر، ولكن منهيٌّ عنها، إذ قد تجرُّ إلى استحسان ما هم عليه من المخالفات.

رابعًا: الاستعانة بغير المسلمين؛ للانتصار بهم على جماعة من المسلمين، وهذه الحالة تُقَدَّرُ بقَدْرها، ويَرجع الحُكم فيها إلى ما يراه اجتهادُ أهل الحَلِّ والعقد في الأُمَّة.

خامسًا: الاستعانة بغير المسلمين؛ للانتصار بهم على غير المسلمين، مع محبة هؤلاء الكفار للمسلمين، وعرْضهم النُّصرة لهم، وهذه الحالة مُختلَفٌ في حكمها، والراجح الجواز فيها عند الحاجة، ويُحتج لها بقتال صفوان بن أمية مع النَّبي ﷺ في غزوة حنين والطائف، وهو غيرُ مسلم، وحديث: «**لن أستعين بمشرك**» مختلَفٌ في سنده.

سادسًا: أن يَتخذ واحدٌ من المسلمين واحدًا من غير المسلمين، في حُسن المعاشرة أو القرابة، من غير أن يأتيه منه ضررٌ، وهذا غير ممنوع، كما قال ﷺ: لأسماء: «**صِلي أمك**».

وكان طوائف من مشركي مكة وهم: كنانة، وخزاعة، ومزينة، وبنو الحارث بن كعب، كانوا يودُّون انتصار المسلمين على أهل مكة، وقال مالك: تَجوز تعزيةُ الكافر، وكان ﷺ يَرْتاح للأخنس بن شريق؛ لِمَا يبدو من محبته للنبي ﷺ، والتردد عليه.

سابعًا: حالات المعاملات الدنيوية؛ كالتجارات، والعهود، والعقود، والمصالحات، والاستشارات، ولا مانعَ منها في حدود المصلحة العامة، وأن تكون التجارات غير مُحَرَّمَةٍ، وغير ربوية، وليس فيها مخالفات شرعية، والاستشارات لا تكون في الأمور الشرعية بل في العلوم التجريبية والمسائل الدنيوية.

ثامنًا: إظهار الموالاة لهم اتقاء لضررهم إذا كانوا في موقف لا يُقاوم، وهذا الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، وهذه التقية لا تكون أبدًا بين السُّنَّةِ والشِّيعَة، ولا بين سائرِ الفِرَقِ الإسلامية [١].

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ

٢٩- ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

والله تعالى مطلعٌ على حقيقة ما في قلوبكم من حب موالاة الكفار أو معاداتهم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالى لعباده ألا يرتكبوا ما نهى الله عنه، فهو سبحانه عالمٌ بجميع أمورهم، قادرٌ على تعجيل العقوبة لهم، ولكنه سبحانه يُمهِل ولا يُهمِل.

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عُبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلتُ على عُبادة وهو مريض، أتخايلُ فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، قال: يا بُني إنك لا تَطْعَمُ طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قال: قلت: يا أبتاه، فكيف لي أن أعلم ما خير

---

(١) ملخصًا من «تفسير التحرير والتنوير» (٣/ ٢١٩).

القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلْتَ النار**»(١).

فيأيها المؤمنون إن تكتموا ما استقر في قلوبكم من موالاة الكفار ونصرتهم، أو تُظهروا ذلك، لا يَخْفَ على الله منه شيءٌ، فإن علمه محيطٌ بكل ما في السموات وما في الأرض، وله القُدرة التامة على كل شيء.

عَمَلُ الخَيرِ وَالشَّرِّ، سَبَبٌ لمَحبَّةِ اللَّهِ تَعالَى وَبُغْضِهِ، وَثَوابِهِ وَعِقَابِهِ

٣٠- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ(٢) بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

وفي يوم الحساب والجزاء تجدُ كل نفس ما عملته في الدنيا من خيرٍ حاضرًا أمامها ينتظرها، فتُسرُّ به ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].
والخير اسم جامع لكل ما يقرب العبد من ربه من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها.

وأما ما عملته من شرٍّ فتتمنى لو كان بينها وبين ما عملته من سوء زمانًا بعيدًا أو مكانًا بعيدًا، ويوم القيامة يتبرَّأُ الإنسان من عمله السيِّئ، ويتبرأ من الشيطان الذي جرَّأه على مخالفة شرع الله، وقد كان قرينه في الدنيا، ولكنه في الآخرة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] قال تعالى مقررًا عدم جدوى هذا التبرُّؤ:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف]

وجاء في آية أخرى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [ق].

---

(١) «المسند» (٥/ ٣١٧) برقم: (٢٢٧٠٥) حديث صحيح بإسناد حسن كما قال محققوه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٩٣٣) وانظر «مشكاة المصابيح» (٩٤) والطحاوية (٢٣٢)، وقد أخرجه الطيالسي (٥٧٧) والترمذي (٢١٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٤) وغيرهم.

(٢) قرأ أبو عمر وشُعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (والله رؤف) بحذف الواو بعد الهمزة، والباقون بإثباتها، وهما لغتان.

فليحذر العبد من أعمال السوء قبل أن يقول ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقبل أن يتمنى لو تُسوّىٰ به الأرض ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا﴾ [النساء: ٤٢] وفي هذا اليوم يندم المقصر ويعضُّ أصابعه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]

والسوء كلمة جامعة لكل ما يسخط الله تعالى من الأعمال السيئة، صغيرها وكبيرها ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]

فاستعدوا للقاء الله وخافوا بطشه وانتقامه، فهو سبحانه رؤوف بكم، ومن رأفته بكم أنه حذَّركم من التعرض لسخطه، ومن رأفته بكم أيضًا أنه أمهلكم للتوبة وتدارُك العمل الصالح، وذلك أنه سبحانه لما توعَّد العصاة بالعقاب في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أتبعه بوعده رحمته لعباده المؤمنين فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

فراقبوا الله - أيها المؤمنون - وتزوَّدوا بالعمل الصالح، واذكروا يوم الحساب والجزاء حيث تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ ينتظرها تراه بعينها في صحيفة عملها ثابتًا ومسجَّلا، فتتمنى أن يكون بينها وبين عملها السيِّئ زمانًا بعيدًا، فاستعدوا للقاء هذا اليوم، وخافوا عقاب الله، ومع شدة عقاب الله تعالى فإنه رؤوفٌ بعباده رحيمٌ بهم، يفتح لهم باب التوبة حتى يقلعوا عن خطاياهم. قال تعالى:

٣١- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

ثم إن الخير الذي يجده المرءُ في صحيفة عمله يوم لقاء ربه سببُه محبة الله ورسوله، واتباع ما أمر الله به ورسوله، فإن كنتم تريدون الفوز بالجنة والنجاة من النار فاسلكوا طريق المحبِّين، وإن كنتم تريدون عكس ذلك فأنتم في دار المُهلة.

وعلامة الصدق: اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دلّ ذلك على صدق محبته لله تعالى، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالى، لأن محبة الله توجب اتباع رسوله،

وعلى قدر اتباع الرسول ﷺ تكون محبة العبد لربه، وما نقص من ذلك فبمقداره.

أَسْبَابُ النُّزُوْلِ:

١- ولما قال اليهود والنَّصارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعرضها عليهم رسول الله ﷺ فلم يقبلوها[١].

٢- وقيل: وقف الرسول ﷺ على قريش وهم يسجدون للأصنام، فقال لهم: «**لقد خالفتم ملَّة أبيكم إبراهيم وإسماعيل**» فقالوا: إنما نعبدها حبا لله، لأنها تقربنا إلى الله زلفى، فنزلت الآية[٢].

٣- وسبب النزول الموافق لسياق السورة أن نصارى نجران قالوا للنبي ﷺ: إنما نقول هذا في عيسى حُبًّا وتعظيمًا له، فأنزل الله الآية[٣] تُبين أن نبوة محمد ﷺ ثبتت بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الباهرة، ونسخت ما قبلها، فوجب على جميع الخلق متابعته، فإن كنتم تحبون الله فاتبعوا محمدًا وآمنوا به؛ يحببكم الله، ويمحو ذنوبكم، فهو غفار لذنوب عباده، رحيمٌ بهم.

٤- وقال الحسن وابن جريج: زعم أقوامٌ على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد، إنا نحب ربنا، فأنزل الله الآية[٤].

وهذه الآية حاكمةٌ على كل من ادَّعى محبة الله تعالى وليس متبعًا لرسول الله ﷺ أنه كاذبٌ في دعواه، حتى يتابع الرسول ﷺ حق المتابعة، فكلُّ من كان صادقًا في دعوى محبة الله تعالى فعليه أن يكون منقادًا لأوامر الله تعالى مطيعًا له، وأن يتَّبع محمدًا ﷺ، فإن اتباعه وطاعته من محبة الله وطاعته.

فإن كنتم تحبون الله حقًّا فاتبعوني وآمنوا ظاهرًا وباطنًا يحببكم الله ويمحُ ذنوبكم، فإنه غفورٌ لذنوب عباده المؤمنين رحيمٌ بهم.

أخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا سأل النَّبي ﷺ: متى الساعة يا

---

(١) النيسابوري عن ابن عباس (٨٦).

(٢) «زاد المسير» (١/ ٣٧٣).

(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ١٥٥).

(٤) الطبري (٣/ ٢٣٢) والألوسي (٣/ ١٣٠).

رسول الله؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**» **قال**: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسوله، قال: «**أنت مع مَنْ أحببت**»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبَّه، قال: فيحبُّه جبريل، ثم ينادِي في أهل السماء، فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يُوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أُبغِض فلانًا فأبْغِضْه، قال: فيُبْغِضه جبريل، ثم ينادِي في أهل السماء: إن الله يَبغَضُ فلانًا فأبغِضوه، قال: فيُبغِضونه، ثم تُوضَع له البغضاء في الأرض**»(٢).

ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول -رأس المنافقين- لأصحابه: إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبَّتِ النَّصارَى عيسى ابن مريم، فأنزل الله تعالى:

٣٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أطيعوا الله في كتابه، وأطيعوا رسوله في سنته، وطاعة الله متعلِّقة بطاعة الرسول، وطاعة الله لا تتمُّ مع عصيان الرسول.

والسُّنَّةُ هي المصدر الثاني للتشريع وإنكارها كفر مُخْرِج من الملة.

وطاعة الله والرسول يدخل فيها: التوحيد والإيمان، وجميع ما أمر الله به من الأصول والفروع، والأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ويدخل فيها: اجتناب ما نهى الله عنه، فمن أطاع الله والرسول فأولئك هم المفلحون، ومن تولى وأعرض فإن الله تعالى يبغضه ويمقته، وهو متبع لهواه وشيطانه ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وكأن في هذه الآية بيانًا وتفسيرًا لما في الآية السابقة من محبة النبي ﷺ.

عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن النَّبي ﷺ قال: «**لا ألفينَّ أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أَمرْتُ به، أو نَهيْتُ عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا**

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٦٨٨، ٦١٧١) و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٣٧).

في كتاب الله اتبعناه»[١].

وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع النَّبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ عند مجيئه ويتَّبعوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]

وإذا وجب اتباع محمد ﷺ ونصرة دينه على الرُّسُل فإنه واجب على بقية الخلق من باب أولى.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أَبَى»** قالوا: ومن يأبى؟ قال: **«مَنْ أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»**[٢].

وفي الصَّحِيْحَين عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعصِ الأمير فقد عصاني»**[٣].

بَدْءُ قِصَّةِ النَّصَارَى

٣٣- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

بعد التمهيد للرد على نصارى نجران تخلُص السورة إلى بدء قصة النَّصارَى من لدن آدم ونوح عليهما السلام، فهذا المقطع من السورة يتحدث عن ولادة مريم أم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام، ويتحدث كذلك عن ولادة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك في إطار الحوار والمناظرة التي أجراها رسول الله ﷺ مع وفد نصارى نجران لإثبات التوحيد، وأن الله ﷻ واحدٌ أحدٌ، لا والد له ولا ولد، وأن عيسى عبد الله ورسوله،

---

(١) أبو داود برقم: (٤٦٠٥) وهو في «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٨٤٩) والترمذي برقم: (٢٦٦٣) و«المستدرك» (١/ ١٠٨) (٢٣٨٦١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ١٠٨) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم: (١٣) وقال البغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٠): حديث حسن وأخرجه ابن حبان (١٣)، وهو في المسند (٢٣٨٧٦) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه.

(٢) «المسند» برقم: (٨٧٢٨) إسناده صحيح على شرط البخاري، وأخرجه البخاري برقم: (٧٢٨٠) والحاكم (١/ ٥٥).

(٣) الحديث في البخاري (٢٩٥٧، ٧١٣٧) وفي مسلم (١٨٣٥، ١٨٤١).

ليس إلهًا ولا ابنًا للإله ولا جزءًا من إله.

قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾.

ابتدأ الله ﷻ هذا الرُّبع من القرآن، ببيان أن الله تعالى قد اصطفى من البشر رجلين، والرجلان هما آدمُ ونوح، وآدم هو أبو البشر عند جميع أهل الشرائع، وقد ألهمه الله تعالى هذا الاسم؛ ليكون عَلَمًا عليه.

أ- وفي سفر التكوين - مِنْ كُتب العهد عند اليهود - أن آدم وُجِد على الأرض في وقت يوافق سنة ٣٩٤٢ قبل الميلاد، وأنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، فتكون وفاته سنة ٣٠١٢ قبل الميلاد.

ب- وأما نوح عليه السلام فتقول التوراة: إنه ابن لَامَك، وجِدُّه أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، وبين إدريس وشيث بن آدم أربعةُ آباء، فيكون نوح قد وُلد تقريبًا سنة ٢٨٨٦ قبل الميلاد، وتُوفي سنة ١٩٣٦ قبل الميلاد، ودُفن نوح في العراق في نواحي الكوفة غالبًا.

ج- وآل إبراهيم عليه السلام هم أبناؤه وحفيده وأسباطه، ومن عَقِبِه إسماعيل، وموسى، ومحمد، وحنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان، وهما من أنبياء بني إسرائيل.

د- وأما آل عمران فهم: مريم وعيسى، وعمران من نسل هارون أخي موسى وليس المراد: عمران والد موسى وهارون، وإنما هو عمران بن ياشم بن ميشا بن حُزقيال، وينتهي نسبه إلى إبراهيم.

هـ- ومن أبناء إبراهيم، إسحاق، ومن بنيه عددٌ من الأنبياء: كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون.

ومن فرع إسحاق، آل عمران، وهم ذريته وأقاربه، كزكريا ويحيى وعيسى، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل.

إن الله اصطفى آدم أبا البشر الأول، ونوحًا أبا البشر الثاني عليهما السلام، وسُمِّي نوحًا لكثرة نوحه على نفسه.

واصطفى من العشائر، عشيرتين، بمعنى أنه تعالى اختارهم وأخلصهم للإسلام، وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الإسلام.

العشيرةُ الأولى: آلُ إبراهيمَ:

ومن ذرية إبراهيمَ إسماعيلُ، ومنه محمد ﷺ، ومن ذريته أيضًا إسحاق ويعقوب، ومنهما جميع أنبياء بني إسرائيل عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جعل الله إبراهيم أصلًا لشُعْبتَين، فجعل إسماعيل أصلًا للعرب، ومحمدًا سيِّدُهم، وجعل إسحاق أصلًا لبني إسرائيل، وجعل فيهم النُّبوَّة والملك إلى زمن محمد ﷺ، فجمع الله لإبراهيم ولأمته بين النُّبوَّة والملك إلى يوم القيامة.

واختصه الله بالخلّة، وبذل نفسه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان، وجعله أمة، وأسوة يقتدى به، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

واصطفاء آدم عليه السلام يعني خلْقه بيد الله تعالى، ونفخه فيه من روحه نفخة مباشرة، وعلَّمه الأسماء كلها، وأسْجد له الملائكة، وأسكنه الجنة، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به ذريته.

واصطفاء نوح عليه السلام بأن جعله الله أول الرُّسُل، لعبدة الأوثان، ونَجَّاه من الغرق، وأهلك المكذِّبين له، وأعطاه الكثير من الصبر والتحمل والشكر، وقام بالدعوة إلى الله تعالى في جميع الأوقات، وترك الله عليه ثناءً يذكر به إلى يوم الدين.

وقد جعل الله من آل إبراهيم محمد عليهما السلام، ومن آل عمران عيسى عليه السلام.

وَالْعَشِيرَةُ الثانية: آلُ عِمْرَانَ:

الذي تتحدث عنه هذه الآيات من سورة آل عمران، وهو عمران والد مريم أم عيسى عليه السلام، وهو غير عمران والد موسى وهارون عليهما السلام، وبين عمران والد موسى وعمران والد مريم، نحو ألف وثمان مئة عام، أي: أن بينهما قرونًا وأجيالًا كثيرة.

وقيل: إن المراد بعمران في الآية، والد موسى عليه السلام، والأول أنسب لسياق الآيات. قال تعالى:

٣٤- ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾

وهؤلاء الأنبياء الذين انحدروا من صلب آدم أبي البشر الأول، ومن صلب نوح أبي البشر الثاني، سلسلةٌ طاهرة متواصلة في إخلاص التوحيد والعمل لله تعالى، والله سميعٌ لأقوال عباده، عليمٌ بأحوالهم، وسوف يجازيهم عليها، إنها سلالةٌ بعضها من بعض في النُّبوَّة والصلاح والتقوى، والله سبحانه يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق فيخذُ لَه ويُرْديه، وقد ذكر الله لنا قصة هؤلاء الأصفياء كي تقتدى بهم.

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لما وفقهم، فهم أهل الثناء في الأولين والآخرين.

وِلادَةُ مَريَمَ وَكَفالَتُها وَخِدْمَتُها لبَيْتِ العِبادَةِ

٣٥- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ[(١)] عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ[(٢)] إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾

أما امرأة عمران -أم مريم- فاسمها حنَّة بنت فاقوذ بن قنبل، أم مريم وجدَّة عيسى.

وعمران هو زوجها، وهو أبو مريم، وكانت حنَّة امرأةٌ مسنةٌ لا تلد، جلست ذات يوم تحت شجرة في حديقة، فرأت طائرًا يُطعِمُ فرخه ويَذُقُّ الطعام بفمه، فاشتاقت نفسها إلى رؤية المولود، وأن تكون أمًّا لولد، فدعت ربها أن يرزقها ﷻ ولدًا، ونذرت لله جلَّ شأنه إن رزقها الله ولدًا أن تجعله لخدمة البيت المقدس، محررًا لخدمته خالصًا لوجه الله سبحانه، ولخدمة بيته الكريم، وسألت ربها القبول فهو السميع لأقوالها، العليم بحالها حيث قالت: ﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي.

والنذر: ما يوجبه الإنسان على نفسه، وكان هذا النذر مشروعًا عندهم، إذ لم يكن أحدٌ من أنبياء وعلماء بني إسرائيل إلا ومن أولاده مَن هو محررٌ لخدمة البيت المقدس، ولم يكن يحرَّر إلا الغلمان؛ لأن الجارية لا تصلُح لخدمة بيت العبادة، لما ينتابُها من الحيض والأذى، فحررت أم مريم ما في بطنها.

---

(١) (امرأت) رُسمت بالتاء المفتوحة في المصاحف، ويُوقف عليها بالتاء تبعًا للرسم، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة فصحى.

(٢) فَتَحَ ياء الإضافة من (مني إنك) نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها غيرهم، وهما لغتان.

والمحرَّر: هو من يقوم على خدمة الكنيسة، ولا يشغله عنها شيءٌ، ولا يبرحُ مقيمًا فيها حتى يبلغ الحلم، ثم يخيَّر، فإن اختار الإقامة فيها وإلا ذهب حيث يشاء. قال تعالى:

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ[1] وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي[2] سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

أجاب الله دعاء حنَّة فحملت بمريم، ولكن المرأة لا تصلح لخدمة بيوت الله كما يصلُح الرجل؛ لأنها تحيض وتلد.

فلمَّا وضعتها ووجدت المولود أنثى وليس بذَكر -والله سبحانه أعلم بما وضعت- فهو لا يحتاج إلى علمها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي.

عندئذ اعتذرت (حنَّة) إلى الله ﷻ؛ لأن المولود لا يصلُح لخدمة البيت، وليس الذكر كالأنثى في خدمة بيوت الله، كأنها تشوفت أن يكون المولود ذكرا ليكون أقدر على الخدمة.

وقد أسمتْها مريم، ومعنى مريم العابدة الخادمة لله ﷻ، وأعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم.

وفي أمر مريم وأُمها وابنها عيسى وقصة ولادته ردٌّ على من ادعى ألوهية عيسى ﵇.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من بني آدم مولودٌ إلا يَمَسُّه الشيطان حين يُولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها**»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[3].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﵁ قال: «**كلُّ ابن آدم يَطْعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يُولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب لِيطْعَنَ فَطَعَنَ في الحجاب**»[4].

---

(١) قرأ ابن عامر وشعبة ويعقوب بإسكان العين وضم التاء من (وضَعْتُ) وهو من كلام أم مريم والتاء للفاعل، والباقون بفتح العين وإسكان التاء (وضعَتْ) من كلام الله تعالى، والتاء للتأنيث.

(٢) فَتَحَ ياء الإضافة وصلًا من (وإني أعيذها) نافع وأبو جعفر، وسكنها الباقون وصلًا ووقفًا.

(٣) البخاري (٣٢٨٦، ٣٤٣١) ومسلم (٢٣٦٦) و«المسند» (٧١٨٢، ٨٢٥٤) وعبد الرزاق (١/ ١١٩) وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري(٣٢٨٦)،(٣٤٣١) وهوفي مسلم(٢٣٦٦) و«تفسير الطبري»(٦/٣٤٢)و«المسند»(٢/٥٢٣) برقم (١٠٧٧٣)، قال محققوه: حديث صحيح وإسناد قوي من طريق أبي الزناد عن الأعرج، والحميدي (١٠٤٢).

فالله ﷻ قد أجاب دعوة أم مريم وأعاذها وابنها عيسى من نخس الشيطان ونزغه.

قالت أم مريم: وإني أعيذها -أي: مريم- بك وذريتها، وهو عيسى عليه السلام من الشيطان الرجيم، وقد ثبت في السنة تسمية المولود وتحنيكه والعقُّ عنه.

صحَّ في البخاري وغيره أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنَّكه وسمَّاه عبد الله(١).

وعن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «**كل غلام رهين بعقيقته، يُذبح عنه يوم سابعه، ويُسَمَّى، ويُحلق رأسُه**»(٢).

حول ولادة عيسى عليه السلام: لم يتصل بمريم أحدٌ من البشر، ولما كان بعض الناس يقولون: إن عيسى ابن الله، فإن هذه المقالة تدفع إلى وهم لا أصل له، وهو أن بين الله تعالى وبين مريم صلة خاصة، وكان عيسى ثمرتها، وهذه جهالة بحق الألوهية، لقد كان ميلاد عيسى خارقًا للعادة لا يحكمه قانون السببية، ولذلك فقد جاء ذكر قصة مريم وابنها، وهي خارقة للعادة، بعد قصة زكريا وزوجته وهي خارقة للعادة أيضًا، ويستحيل أن يكون لله ولدٌ وفق هذا التصوُّر الهابط ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤].

ومن عجائب الأمور أن يُكْفَلَ ثلاثة من أولى العزم من الرُّسُل، ثلاث نساء ضعيفات، وهم موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

كَفَالَةُ زَكَرِيَّا لمَريَمَ

٣٧- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا(٣) زَكَرِيَّا(٤) كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (١٣٠١، ١٥٠٢، ٥٤٧٠) و«صحيح مسلم» برقم: (٢١١٩، ٢١٤٤).

(٢) «المسند» (٥/ ١٢) برقم: (٢٠٠٨٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه. والترمذي (١٥٢٢) وأبو داود (٢٨٣٨) والنسائي (٧/ ١٦٦) وابن ماجه (٣١٦٥) والبخاري (٥٤٧٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٥٣٢).

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتشديد الفاء من (وكفَّلها) على أن فاعل كفل ضمير يعود على الله تعالى، والهاء مفعول ثانٍ مقدمٌ، وزكريا مفعول أول؛ أي: جعل الله زكريا كافلًا مريم وضامنًا لها، وقرأ الباقون بتخفيف الفاء، والفاعل زكريا، والهاء مفعول به؛ أي: كفل زكريا مريم.

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (زكريا)، وقرأ الباقون (زكرياء) بالهمز والمد.

ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

تُوفي والد مريم وذهبت أمها بها إلى بيت المقدس وفاءً بنذرها بعد أن بشَّرها ربها بأنه قَبِلَ منها هذه الأنثى لخدمة البيت.

روي أنها لَفَّتْها في خِرْقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار، من أبناء هارون، وكانوا في بيت المقدس كالحجَبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا عليها؛ لأنها كانت ابنة إمامهم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي جعل الله نذرها مقبولًا، وأجارها وذربتها من الشيطان.

قالت أم مريم للأحبار الذين يكتبون التوراة، وهم سَدَنَةُ بيت المقدس، ومنهم زكريا وهو كاهن إسرائيلي من نسل بنيامن، جاءته النُّبوَّة على كِبر، وكانت امرأته (نسيبة) خالة مريم على الصحيح، وليست أختها، وزكريا عليه السلام هو النَّبِي المرسل، وهو زوج خالتها.

قالت حنَّة للأحبار: هذه ابنتي نذرتُها لله عز وجل، وأعطتْهم إياها، فكان كلٌّ منهم يريد أن يقوم على تربيتها وكِفالتها، فاقترعوا وضربوا السِّهام، وألقوْا بأقلامهم، التي يكتبون بها التوراة في نهر الأردن وكانوا سبعة وعشرين، والعلامة أن من يجري قلمه في النهر فإنه لا يأخذ مريم، وأن الذي يثبت قلمه ويقف على وجه الماء هو الذي يأخذ مريم ويقوم على رعايتها وتربيتها، فكانت القرعة من نصيب زكريا عليه السلام، زوج خالتها، حيث وقف قلمه على وجه الماء كأنه مغروزٌ في طين ثابت لا يتدحرج ولا يتحرَّك، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ في النهر ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أي: وهم يتصارعون ويختصمون ويختلفون فيمن يقوم بكفالة مريم، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أن تخدم البيت، وأنبتها نباتًا حسنًا برعايتها وحُسن أخلاقها وصلاحها وتقواها وكفلها زكريا، فنشأت في عبادة ربها، وانقطعت للعبادة، ولزمت المحراب.

أقام لها زكريا مكانًا مخصصًا في جهة المحراب لا يصل إليه أحد، فكان كُلَّما ذهب إليها وجد عندها أمرًا عجيبًا، حيث وجد عندها الطعام والشراب والفاكهة من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها في غير أوانه مما هو ليس عند سائر الناس، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء وهو يعلم تمامًا أنه لا يصل إليها أحد، فمن

أين ذلك؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا من باب كرامات الأولياء الخارقة للعادة.

رآى زكريا مَا منّ الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء، من غير سعي منها، عندئذ طمعت نفسه في الولد، فدعا ربه:

طَلَبُ زَكَرِيَّا لِلْوَلَدِ، وَوَصْفُ (يَحيَى) بِأَربَعَةِ أَوصَاف

٣٨- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا(١) رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

وقبل أن يغادر زكريا المحراب -وهو في هذا المكان مظنة الإجابة- سأل ربه الذرية الصالحة، وكان زكريا قد بلغ المئة إلا عامًا من عمره، وقيل: مئة وعشرون عامًا، وزوجه أقل منه بعام واحد، قد بلغت المئة إلا عامين، ولم يولد له ولدٌ، وامرأته عاقرٌ، اجتمع عليها الكبر وعدم الإنجاب، وكان زكريا وعمران قد تزوجا: (إيشاع وحنة).

وقد تحركت في نفس زكريا رغبة الإنجاب حين رأى قدرة الله سبحانه عند مريم من الطعام والشراب في غير أوانه، قال: إن الله تعالى القادر على ذلك قادرٌ على أن يرزقني الولد ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]

والآيات من صدر سورة مريم تحكي بتفصيل أوسع ما تتضمنه هذه الآيات من سورة آل عمران.

خاف زكريا من أقاربه الذين يرثون النُّبُوَّة من بعده أنهم لا يُقيمون عهد الله سبحانه ولا يحكِّموا شرعه لَمَّا تفشَّى فيهم الفساد وتحكيم الأهواء والشهوات، فسأل ربه أن يرزقه الولد، وسؤال الله الولد سُنَّة المرسلين والصِّدِّيقين.

وقد ترجم البخاري (باب طلب الولد) وقال النَّبِي ﷺ لأبي طلحة حين مات ابنه: «**أعرستم الليلة؟**» قال: نعم، قال: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**» فقال رجلٌ من

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي (زكريا) بدون همز، وقرأ الباقون (زكرياء) مد متصل.

الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[٢].

ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

وبينما كان زكريا قائما في محرابه يتعبد لربه ويتضرع إليه نادته الملائكة:

زَكرِيَّا يُبَشَّرُ بِيَحْىَ

٣٩- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[٣] وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ[٤] ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ[٥] بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا[٦] مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

دخل زكريا المحراب، وأغلق الأبواب وسأل ربه الولد، أجاب الله دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ عبَّر عن جبريل بالملائكة من باب إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بمولود سمَّاه الله يحيى قبل أن يُولد، وقد كان زكريا هو الحبر الذي يقدِّم القُربان ويفتح الأبواب، فلا يدخلون المسجد إلا بإذنه، وكان من ذرية هارون سَدَنَة المسجد، فبينما هو قائم يصلي في المحراب، والناس ينتظرون الإذن بالدخول إذ برجل -شاب هو جبريل- في صورة رجل عليه ثياب بيض، ففزع منه زكريا، فناداه جبريل يا زكريا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ سُمِّي كذلك في القرآن، واسمه يوحنا بالعبرانية.

---

(١) ينظر البخاري (١٣٠١، ٥٤٧٠) ومسلم (٢١٤٤).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٠٤) وفي «السنن» (٢٨٨٠) والمسند (٨٨٤٤) بإسناد صحيح، وأخرجه مسلم (١٦٣١) والدارمي (٥٥٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) والترمذي (١٣٧٦) وأبو يعلى (٦٤٥٧) وابن خزيمة (٢٤٩٤).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فناداه) بألف بعد الدال على تذكير الفعل، وقرأ الباقون (فنادته)، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل جمع تكسير.

(٤) قرأ ابن عامر وحمزة بكسر همزة (إن) إجراء للنداء مَجرى القول، أو على إضمار القول، وقرأ الباقون بفتح الهمزة على تقدير حذف حرف الجر.

(٥) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين المخففة، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشددة.

(٦) قرأ نافع (ونبيئا) بالهمز، مد متصل، وقرأ الباقون بياء مشددة (ونبيًّا).

وسُمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا به عقْر أمه، أو أحيا قلبه بالإيمان، أو أحياه بالطاعة، فلم يعصِ الله تعالى.

وقيل: سُمي يحيى لأنه آمن بكلمة الله التي خَلق منها عيسى، وقيل: إن الله تعالى أخبر الأنبياء أنه سيخلق نبيًّا من غير أب، فلما جاء عيسى قيل: هذا هو الكلمة، أي: الوعد الذي وعد الله به.

ووصفه الله في كتابه بأوصافٍ لا نظير لها قبل أن يولد، فهو مصدقٌ من عند الله بأوصافٍ أربعة:

الوصف الأول: أن ولادته غير عادية، حيث وُلد بأمر الله تعالى على كبرٍ من أبويه، وُلد بكلمةٍ من الله، كما أُطلقت كلمة الله على عيسى عليه السلام الذي خلقه الله بكلمة كُن، فكان من غير أبٍ، فسُمي كلمة الله لأنه خُلق بها.

وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدَّقه، وكان يحيى أكبرُ من عيسى بسِتَّة أشهر اعتبارًا من بدء الحمل، ولكن عيسى لم يمكث في بطن أمه تسعة أشهر كيحيى، ولذا فإن عيسى نزل قبل يحيى، وكان يحيى أكبر من عيسى بالنسبة لمدة الحمل، وكانا ابني خالة، وقُتل يحيى في كُهولته قبل أن يُرفع عيسى عليه السلام.

وقيل: إن أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان، فقالت أم يحيى: أشعرُ أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، وعيسى وُلد قبل يحيى بثلاثة أشهر، وقد حملت أم يحيى بيحيى قبل حمل أم عيسى بعيسى بثلاثة أشهر.

وكانوا ثلاثة أنبياء في وقت واحد؛ زكريا، وابنه يحيى، وعيسى ابن خالة يحيى، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكان يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قومه وعشيرته، ومصدقًا بعيسى عليه السلام.

الوصف الثاني: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون بها سيدا، يُرجع إليه في الأمور، والسيد هو الذي يسودُ قومه ويفوقهم في الشرف والعلم والحِلْم وحسن الخلق، ويقوم على إصلاح شؤونهم في الدنيا والآخرة، وهو رئيس قومه الذي يكون له الأمر الأخير، وهو صاحب المكانة والمنزلة العالية.

الوصف الثالث: ﴿وَحَصُورًا﴾ يمنع نفسه من الشهوات والنزغات ولا يأتي المنكرات، والحصور هو الذي لا يأتي النساء ولا يقربهُن مع قدرته على إتيانهن؛ زهدًا وعفة، وانشغالًا بخدمة ربه وطاعته، وهو وصفٌ في مَعرض المدح والثناء، وإعلامٌ من الله لزكريا أنه أجاب دعوته كرامة له بعد أن انقطع عقبه.

الوصف الرابع: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بشَّره الله أن يحيى يكون نبيًّا، أي: أنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله، فأي بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده وبكمال صفاته.

٤٠ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

تعجب زكريا عليه السلام فقال من شدة فرحه: رب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ مئة وعشرون عامًا ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ ثمان وتسعون سنة ولا تلد، وكلا الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا، ردَّ الله على زكريا بما يُزيل عجبه، ويبين له أن هذا أمر خارق للعادة، فهو سبحانه خالق الأسباب والمُسَبِبَات ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وكما قَدِرَ على وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل فإذا أراد أن يوجدهم من غير سبب فعل، لا يستعصى عليه شيء.

طلب زكريا من ربه علامة يستدل بها على تحقيق هذه الأمنية:

٤١ - ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ[1] ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ زكريا مناجيًا ربه ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة دالة على أن زوجتي قد حملت، لكي يطمئن قلبي على صدق هذه البُشرى، وهو مؤمن ومصدق، ولكن كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال سبحانه: ﴿ءَايَتُكَ﴾ أي: العلامة على أنه سيُولد لك هذا المولود أنك تُحبس وتُمنع من الكلام، ليس لعلة فيك، ولكن الله تعالى يمنعك ألا تنطق، وألا تُحدِّث الناس مدة أيام ثلاثة، من غير مرض ولا آفة، فلا تكلمهم إلا بالإشارة والرمز ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: بالإشارة، وقد عقد الله

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (اجعل لي)، وسَكَّنَها الباقون.

لسان زكريا عن الكلام، وأبقى له قدرة على التسبيح والذِّكر.

وكما أن الله تعالى يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسباب.

فأكْثِر من ذكر الله وتسبيحه وتمجيده، فبالذكر تطمئن القلوب، وتسكن النفوس، وتغسل الخطايا والذنوب ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: في أيام عجزك ومنعك وحبس لسانك عن الكلام الآخر؛ لئلا ينشغل لسانك بغير التسبيح، فتخلص المدة لله، فإذا انتهت هذه الثلاثة كان ابتداء مدة الحمل، وفي الآية الأخرى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]

قِصَّةُ قَتْلِ يَحْيَى عليه السلام: أراد حاكم فلسطين في عهد يحيى عليه السلام أن يتزوج ابنة أخيه، وكانت ابنة أخيه هذه على قدر كبير من الجمال، وهذا الزواج محرَّمٌ عند المسلمين وعند أهل الكتاب؛ لأنه لا يجوز أن يتزوج العم ابنة أخيه، عارَضه يحيى عليه السلام في هذا الزواج وأظهر له ذلك وأنكر عليه، وكانت البنت وأمها يريدان الزواج من العم، فدبَّرت الأم مكيدة ليحيى عليه السلام، حيث زيَّنت ابنتها وطيَّبتها وجمَّلتها وأدخلتها على الحاكم الإسرائيلي الذي يحكم فلسطين في ذلك الوقت، فملكت عليه مشاعره وأوقعته في حبالها، ثم قال لها: تمنِّي عليَّ واطلُبي ما تشائين، قالت له: أُريد رأس يحيى بن زكريا في هذا الطَّبق والدم ينزف منها، فما كان من الحاكم إلا أن أمر بقتل يحيى عليه السلام وذبحه كما تُذبح النعجة وهو يُصلي، وأُتي برأسه وهي تنزف دمًا في طبق، وقُدِّمت للفتاة وأمها بين يدي الحاكم، ولمَّا استنكر عددٌ كبير من العلماء والأحبار -ومنهم زكريا والد يحيى- قُتل منهم عدد كبير، ومن هؤلاء زكريا عليه السلام حيث نُشر بالمنشار بعد استشهاد يحيى ولده.

هذه إشارة لقول الله سبحانه عن بني إسرائيل ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]

وقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقد وصف الله سبحانه اليهود في القرآن الكريم بأنه فضلهم على الوثنيين في العالم؛ لأنهم وحدهم كانوا أهل كتاب، وذلك قبل أن يستحقوا غضب الله ومقته، وقبل أن يقتلوا الأنبياء ويكفروا بآيات الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وفي قصة قتل يحيى إشارة إلى أن هؤلاء اليهود من شأنهم استخدام النساء في الوصول إلى مآربهم، ومن شأنهم استخدام الشهوة في الوصول إلى مآربهم، وعدم تورُّعهم في قتل من يخالف أهواءهم وشهواتهم، حتى لو كان رسولا يُوحى إليه من قِبَل الله ﷻ، كقتل يحيى عليه السلام وزكريا وغيرهما وتآمرهم على قتل عيسى عليه السلام.

اصْطِفَاءُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ

٤٢- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

بلغت مريم سِنَّ التكليف، وتأهلت للطهر والعفاف والقنوت والعبادة، فجاءتها البِشارة عن طريق الملائكة بأن الله اصطفاكِ لكثرة عبادتك، وطهَّرك من الذنوب ولَنْ يَمسَّك رجلٌ بسوء، واختاركِ على عالم زمانك، وعلى جميع النساء.

والاصطفاء الأول: قبولها منذورة محررة لخدمة المسجد الأقصى لما فيها من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة، والتميز الكبير.

والاصطفاء الثاني: أن الله وهب لك - يا مريم - عيسى عليه السلام وخصَّك بكلام الملائكة، واصطفاك على نساء العالمين ولم يحصُل هذا لغيرك، وإن شاركها أفراد من النساء في الاصطفاء، كخديجة وعائشة وفاطمة، فإنه لا ينافي هذا الاصطفاء، وقد ورد في ذلك **أحاديث**:

١- ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسائها مريمُ بنتُ عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»(١).

٢- وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء العالمين: خديجةُ، وفاطمةُ، ومريمُ، وآسيةُ امرأة فرعون**»(٢).

٣- وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمُل من**

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٣٢، ٣٨١٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٠) والترمذي (٣٨٧٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٣٠٥٢) والنسائي (٨٣٥٤) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٣٤).

(٢) صححه الحاكم (٢/ ٥٩٥) ووافقه الذهبي.

الرجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»(١).

٤- وأخرج ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: **«أربعُ نسوة ساداتُ نساء عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلُهن عالَمًا فاطمةُ»**(٢).

٥- وعن أنس ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: **«حسبُك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»**(٣).

٦- وفي الصحيحين وغيرهما: كان أبوهريرة يحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خير نساء ركبْن الإبل نساءُ قريش، أحْنَاهُ على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يد»** قال أبوهريرة: ولم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط(٤).

قلت: إذا كان خير نساء قريش ركبْن الإبل فإن وسائل المواصلات في العصر الحاضر بمثابة الإبل قديمًا.

وفي الباب أحاديث كثيرة تفيد أن مريم سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم(٥). ولَمَّا أخبرتْها الملائكة باصطفاء الله لها وتطهيرها، كان في هذا ما يوجب شكرها لله تعالى، فلهذا قالت لها الملائكة:

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٢٨) والترمذي (١٨٣٤) والنسائي (٨٣٥٣) وابن ماجه (٣٢٨٠).

(٢) ابن عساكر (٧٠/ ١٠٧).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩١٩) والترمذي (٣٨٧٨) و«المسند» (٣/ ١٣٥) (١٢٣٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و«مشكاة المصابيح» (٦١٨١) و«صحيح الجامع» (٣١٤٣) و«صحيح الترمذي» (٣٠٥٣) و«الطبراني في «الكبير» (٤٠٢) وأبو يعلى (١٠٠٤، ٣٠٣٩) و«المستدرك» (٣/ ١٥٧) وابن حبان (٧٠٠٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٢٧) والبخاري برقم: (٣٤٣٤، ٥٠٨٢) و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ١٢٨) والطبري (٥/ ٣٩٤) وابن المنذر (٤٥١) وابن أبي حاتم (٣٤٨٨).

(٥) ينظر: الشوكاني في «فتح القدير».

٤٣- ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك: قامت حتى تورَّمت قدماها، فقالت لها الملائكة شِفاهًا: يا مريم، داومي على طاعة ربك، وقومي إلى الصلاة في خشوع وتواضع، وليكن ركوعك في جملة الراكعين مع جماعة المسلمين، صلِّي معهم، والقنوت، دوام الطاعة في خضوع وخشوع، وخص السجود والركوع بالذكر، لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله تعالى، وقد فعلت مريم ما أمرت به شكرا لله تعالى.

قيل: قُدِّم السجود على الركوع؛ لأنه كان كذلك في شريعتهم.

وإنما قال: الراكعين، ولم يقل: الراكعات؛ لأنه أعم، يدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الجميع تكون أفضل وأتم، وليس في كتب النَّصَارَى ذِكرٌ لعِمْران ولا لعيسى، ولكنها تبتدئ فجأة بأن عذراء في بلدة الناصرة مخطوبة ليوسف النجار، قد حملت من غير زوج.

قِصَّةُ مَرْيَمَ مِنْ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

ولما كانت قصة مريم من الأمور التي لا تُعرف إلا بالوحي، وقد أخبر الله بها نبيه قال:

٤٤- ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ(١) إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وما سبق بيانه من حديث زكريا ويحيى ومريم وأمها وعيسى عليه السلام من أخبار الغيب، التي لا طريق لمعرفتها إلا عن طريق الوحي ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ ولم يكن محمد ﷺ حاضرًا حين تسابق سدنةُ الهيكل إلى كفالة مريم وقت أن جاءت بها أُمُّها إلى الهيكل وهي مولودة، وفاءً بنذرها، ولم يكن محمد ﷺ حاضرًا حين اقترع السدنة على كفالة مريم، وألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة في نهر الأردن، تبرُّكا بها، فاحتمل الماء جميع الأقلام طافية فوق سطحه إلا قلم زكريا، فإنه قد ثبت في مكانه، وكان هذا علامةً لهم على أن الله اختاره لكفالتها، فسلَّموا مريم لزكريا.

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (لديهم) في الموضعين، والباقون بكسرها، وقرأ قالون بخلف عنه وابن كثير وأبو جعفر بصلة ميم الجمع بحرف مدٍّ وصلًا، وسَكنها الباقون.

وليست هذه القرعة من شعائر الإسلام إلا في مواضع تمييز الحقوق المتساوية ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ في النهر ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ يُربيها ويقوم على مصالحها ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ حين اختلفوا في كفالة مريم؛ أيُّهم أحق وأولى بها، فأجْرَوا القرعة فخرج السَّهم لزكريا، فعُلم بهذا أنك - يا محمد- رسول الله حقًّا وصدقًا، فوجب عليهم الانقياد لك، والامتثال لأمرك.

وهذا الحادث لم يذكره (العهد القديم) ولا (العهد الجديد) المتداولان حاليًا، ولكنه كان معروفًا لدى الأحبار والرهبان، وكان من أسرار الهيكل التي لا تُفشى ولا تُذاع، فواجه بها القرآنُ -وقت نزوله- أهلَ الكتاب، وكان ذلك دليلًا على نبوة محمد ﷺ.

وبمثل هذه الآية ختم الله قصة نوح عليه السلام ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقصة يوسف عليه السلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]

وقصة موسى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود].

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] وهي من المعجزات الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ.

البِشَارَةُ بِعِيسَى عليه السلام تَضَمَّنَت أَحَدَ عَشَرَ وَصْفًا لَهُ

٤٥- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم بعيسى، يخلقه الله بكلمة كن، بدون أسباب التناسل، ويجعله من آيات الله وعجائب مخلوقاته، حيث أرسل جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها، فخلق الله من هذه النفخة، عيسى عليه السلام، فقد خُلق آدم عليه السلام بالنفخ في مادة خلقه من روح الله، وخلق الله سائر البشر بالنفخ فيهم من روح الله، بعد أن يكون

مضغة في رحم أمه، فالجميع مخلوق من مادة وروح، ومنهم عيسى ﷺ، ولكن النفخ بالنسبة لعيسى ﷺ كان بدون وجود أسباب التناسل الذي يكون بين الرجل والمرأة.

وهكذا، تمضي الآيات؛ لتبين أن محمدًا ﷺ لم يكن حاضرًا حين بشرت الملائكة مريم بولادة عيسى ﷺ من غير أب، كما خُلق آدم من غير أب ولا أم، وكما خُلقت حواء من غير أم، وكما خُلق سائر البشر من أب وأم؛ للدلالة على أن خلْق الإنسان لا يتوقف على التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة.

وكما نفخ الله في آدم من روحه، فكرمه وميزه، وكما أن الملك الموكل بالأرحام ينفخ الروح في كل جنين حين يكون مضغة في بطن أمه بعد مئة وعشرين يومًا من بدء الحمل، كما يحدث النفخ بالروح في كل هؤلاء فإنه سبحانه نفخ في فتحة جيب درع مريم بواسطة جبريل ﷺ، كما ينفخ الملك في كل جنين، فهذا النفخُ ليس خاصًا بعيسى، إنما هو عامٌّ لجميع الخلق.

أما طريقة النفخ وماهيته وكيفية اتصاله بالمخلوق بواسطة جبريل أو بدونه، وكيف تكون هذه الحياة بعد العدم؛ فتلك من أسرار الله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولقد خلق الله تعالى عيسى بكلمة ﴿كُن﴾ فهل النفخة هي كلمة ﴿كُن﴾ أو أن الكلمة هي ﴿عِيسَى﴾ أو غير ذلك؟ الله أعلم، وكل مخلوق وُجد بكلمة ﴿كُن﴾ إلا أن عيسى وحده وُجد بمجرد الكلمة من غير واسطة كغيره، فلذا أُضيف خلقه إلى الكلمة، وسُمِّي بها، كما قال ابن عباس ﷺ: الكلمة هي عيسى ﷺ.

بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله، هي عيسى ابن مريم، وتضمنت البشارة:

أحد عشر وصفًا لعيسى ﷺ:

الوصف الأول: تحديد نوع المولود المبَشَّر به وأنه ذكر.

الوصف الثاني: تعيين لقبه بـ(المسيح) ولُقب كذلك:

١- لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ.

٢- أو لأن جبريل مسحه بجناحِه لكيلا يكون للشيطان عليه سبيل.

٣- أو لأنه مُسِحَ من الأقذار والذنوب، وقيل غير ذلك.

وسمّى الدجال مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة ويقال: مسيخًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوخة، أي: مطموسة.

الوصف الثالث : تحديد اسمه بـ﴿عِيسَى﴾ وأصلُ عيسى العبراني: يشُوع، كما قالوا عن موسى: موشى، فقيل عندهم: يسوع، وهو في القرآن: عيسى.

الوصف الرابع: ذِكْرُ نسبه، وأنه يرجع إلى أمه، وأن القرآن صرَّح باسم أمه، ردًّا على المشركين الذين قالوا: إنه (ابن الله) وقد كان العرب يستحيون من ذكر أسماء نسائهم صريحًا فصرَّح القرآن باسمها؛ لما تضمنه من الرد عليهم، وهذا النسب علامة على أنه وُلد بغير أب.

الوصف الخامس: بيان **مكانته عند الله** تعالى، وأنه ذو جاه وقدْر، أما وجاهته في الدنيا فلأنه يُبْرئُ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، أما وجاهته في الآخرة فبعلُوِّ شأنه ومرتبته، وهو من أُولى العزم من الرسل، ومن أصحاب الشرائع الكبار.

الوصف السادس: **أنه من المقرَّبين** عند الله تعالى، قيل: برفعه إلى السماء، وأهل الجنة درجات، وأعلاهم رتبة النَّبيون.

الوصف السابع: لعيسى ؏: كَلَامُهُ فِي الْمَهْدِ:

٤٦- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وتَضَمَّنت البشارة معجزة لعيسى تصاحب ولادته، وهي أنه يكلم الناس في المهد، وهو مَضْجَعُ الصبي في رضاعه، فيدعوهم إلى عبادة الله، ويبرِّئ أمه من القذف ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠].

ويُحكى أن مريم قالت: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدَّثني وحدَّثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبَّح وهو في بطني وأنا أسمع، قالوا: ولما نطق ببراءة أمه سكت بعد ذلك، ولم يتكلم إلا في الوقت الذي يتكلم فيه الصبيان.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ؓ عن النَّبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جُريْج، كان يصلي فجاءته أمه فدعته،**

فقال: أُجيبُها أو أصلِّي، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَه وجوه المُومسات، وكان جريج في صومعته فتعرضتْ له امرأة وكلّمتْه فأبى، فأتت راعيًا فأمكنتْهُ من نفسها فولدت غلامًا، فقالت: مِنْ جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبُّوه، فتوضأ وصلَّى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، إلا من طين.

وكانت امرأة من بني إسرائيل تُرضع ابنا لها، فمرَّ بها رجلٌ راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه.

ثم مر بأمة تُجرر ويُلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبارٌ من الجبابرة، وهذه الأَمة يقولون لها: زنيت، وتقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، ويقولون: سرقت، وتقول: حسبي الله»[1].

وعن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: **«لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون»**[2].

الوصف الثامن: اكتمال شبابه وقوته: وهذا يشير إلى مستقبل عيسى عليه السلام وأنه سَيَبْلُغ سنَّ الكهولة، ويكلِّم الناس حال كهولته، بالدَّعْوَة والرسالة، كما كلمهم في المهد.

والكهلُ في اللغة: هو الذي اجتمعت قوته، وكمُل شبابه، والكهل عند العرب: من جاوز سن الثلاثين إلى الأربعين.

قال ابن قتيبة: لمَّا كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى، فمكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله تعالى.

وقال وهب بن منبه: جاء الوحي على رأس ثلاثين سنة، فمكث في نبوته ثلاث

---

(١) حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/ ٣٠٧) برقم: (٨٠٧١، ٨٠٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري في الأنبياء (١٢٠٦، ٣٤٣٦) ومسلم في البر والصلة برقم: (٢٥٥٠) وابن أبي حاتم (٣٥٢١)، وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٥٩٥) وضعفه الألباني بهذا اللفظ في «السلسلة الضعيفة» (٨٨٠).

سنوات، ثم رفعه الله.

وقال الحسن بن الفضل: ويكلِّم الناس كهلًا بعد نزوله من السماء، وفيه نصٌّ على أنه سينزل من السماء إلى الأرض.

وفي الآية إخبارٌ بأن عيسى سوف ينتقل من حال إلى حال، ولو كان إلها كما زعمت النَّصَارَى لم يدخل عليه التغيير، ففيه ردٌّ على النَّصَارَى الذين يزعمون أنه إله.

الوصف التاسع: يتبين **منه منزلة عيسى بين الناس**؛ وأنه من زمرة الصالحين في قوله وعمله، فهو ذو علم صحيح، وعمل صالح، وهو كإخوانه من الأنبياء في الصلاح مثل: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم. والصلاح من أعظم المراتب، وأشرف المقامات.

ولا يكون العبد صالحًا إلا إذا واظب على النهج الأصلح، والطريق الأقوم في أقواله وأفعاله.

تعجبت مريم من هذه البشرى، إذ كيف تحمل وتلد، دون أن يمسّها بشر:

٤٧- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ[1] ﴿٤٧﴾﴾

تلقَّت مريم البشرى بمجيء عيسى عليه السلام على هذه الأوصاف، وهي فتاة عذراء، فتعجبتْ وتطلعتْ إلى كشف هذا اللغز الذي يحيِّر العقل ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟ فلستُ بذات زوْج ولا بَغِيٍّ ﴿قَالَ﴾ الملَك ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخلق الله منكِ ولدًا من غير أن يَمَسَّكِ بشرٌ، فيجعله آية وعِبرة للناس، والإنسان يألف دائمًا ربط الأسباب بالمسببات، ولكن حين يعود الأمر إلى الله تعالى فلا عجب ولا استبعاد على قدرته، فيخلق من العدم ما يشاء، ويصنع ما يريد، وإذا أراد شيئًا قال له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ومن قدرته تعالى أنه خلَق يحيىٰ بن زكريا من أبوين، أحدهما كبير والآخر عاقر، وأعجب من ذلك خلْق عيسى من أم بلا أب، ليدل سبحانه أنه فعال لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وبعد الاعتراض بين هذه الآيات -بذكر جواب مريم وتعجُّبها من خلْق ولدٍ منها دون أن

---

(١) قرأ ابن عامر بنصب نون (فيكون) على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

يمسَّها بشر-.تأتي البُشرى العاشرة من بشائر جبريل لها حين أخبرها بخلق عيسى منها:

الوَصْفُ العَاشِرُ: تَعْلِيمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ:

٤٨- ﴿وَيُعَلِّمُهُ(١) ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ(٢) ﴿٤٨﴾﴾

يخبر الله تعالى مريم بأنه سيعلِّم عيسى الكتاب،أي يعلِّمه الكتب المنزلة من عند الله، التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل، وقد يراد بالكتابِ الكتابةُ والخطُّ، ويعلِّمه الحكمة، يعني: السنة وأحكام الشرائع، أو يعلِّمه البيان والسداد في القول والعمل، ويعلمه التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذي ينزل عليه، وفي كل هذا امتنان على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، لأن هذا من الكمال الإنساني.

الوَصفُ الحَادِي عَشَرَ: مُعْجِزَاتُ عِيْسَى عليه السلام الْخَمْسُ

٤٩- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ(٣) أَنِّي(٤) قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ(٥) ٱلطَّيۡرِ(٦) فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا(٧) بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ(٨) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

يخبر الله سبحانه أن عيسى عليه السلام سيكون نبيًّا ورسولًا إلى بني إسرائيل، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يعقوب وآخرهم عيسى عليهما السلام، فلما بُعث إليهم عيسى قال: ﴿أَنِّي قَدۡ

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ويعلمه) بالياء، وقرأ الباقون بنون العظمة.

(٢) انفرد المصحف الكوفي بعد (والإنجيل) آية، وتركها غيره من العدد.

(٣) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة مع المد والقصر في (إسرائيل) ومعه حمزة عند الوقف.

وقد عدّ هذه الكلمة (إسرائيل) آية، المصحف البصري والحمصى، وتركها غيرهما.

(٤) قرأ نافع وأبو جعفر (إني أخلق) بكسر همزة (إني) على إضمار القول أو على الاستئناف، وقرأ الباقون (أني) بفتح الهمزة بدل من قوله تعالى: (أنّي قد جئتكم)، و قرأ ابن كثير وأبو عمر بفتح الياء من (إني)، والباقون بإسكانها مديّة.

(٥) قرأ أبو جعفر بياء مشددة في (كهيَّة)، والباقون بهمزة مفتوحة.

(٦) قرأ أبو جعفر (الطَّائر) على الإفراد، وقرأ الباقون (الطَّيْر) على أن المراد به اسم الجنس.

(٧) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (طائِرًا) على الإفراد، وقرأ الباقون (طَيْرًا) على أن المراد به اسم الجنس.

(٨) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب (في بُيُوتكم) بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها، وهما لغتان.

جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ علامة ومعجزة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على أني مرسل من عند الله، وقد جاء عيسى بآيات كثيرة، وسميت هذه الآياتِ آيةٌ واحدةٌ؛ لأنها تدل على شيء واحد هو صدقه في الرسالة، وكأنهم سألوه عن هذه الآية فبيَّنها لهم كما علَّمه الله.

والمراد بالآية في ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ معجزاتٌ خمس ذكرتها هذه الآية:

المعجزة الأولى: أن يخلُق من الطين طائرًا بإذن الله

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أصوِّر لكم من الطين صورةً على هيئة الطير، فأنفخ في هذا الطين فيكون طيرًا حقيقيًا بإذن الله، وفي قراءة: (فيكون طائرًا) على الإفراد.

قيل: إن عيسى لما ادعى النُّبوَّة، وأظهر الله على يديه المعجزات أخذوا يتعنتون عليه، فطلبوا منه أن يخلق لهم خفَّاشا؛ لأنه يطير بالليل ويطير بلا ريش وله أسنان.

قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتا؛ ليتميَّز فعل المخلوق من فعل الخالق.

وإذا كانت نفخة عيسى في الطين تكون سببًا في حياة الطين، وجَعْلِه طيرًا حقيقيًّا يطير بين السماء والأرض، فما العجب في خلق عيسى بالنفخ في جيب أمه؟! وكأن معجزة النفخ التي بشَّر الله بها مريم صحبت عيسى بعد ذلك ليواجه بها بني إسرائيل.

المعجزة الثانية: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾

أي: أشفي من وُلد أعمى، فأجعله يُبصر بإذن الله، وأشفي من به مرض البرص، فأردَّه إلى لونه الطبيعي بإذن الله تعالى، فكانت تأتي إلى عيسى الأعداد الغفيرة المريضة، فيدعو الله تعالى ويداويها بإذن الله، على شرط الإيمان برسالته.

المعجزة الثالثة: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

قال ابن عباس: قد أحيا أربعةً:

١ - (ابن العجوز) وكان ميتًا محمولًا على سرير، فدعا الله، فأحياه الله.

٢ - وأحيا ابنة رجل كان يأخذ العشور من الناس.

٣ - وأحيا (عازر) كان صديقًا لعيسى. ٤ - وأحيا سام بن نوح.

وقد أيَّد الله تعالى كل نبي بمعجزة من نوع ما نبغ فيه قومه، وكان قوم موسى سحرة، فكانت معجزته من نفس النوع الذي نبغ فيه القوم، ولكنها ليست في مقدور البشر.

وكان الناس في زمن عيسى، مهرة في الطب، فجاءهم عيسى بما ليس في مقدور الأطباء، وهو إحياء الموتى بإذن الله، ومعالجة الأكمه والأبرص.

وكان العرب أرباب فصاحة وبلاغة، فكان القرآن معجزة خاتم الرُّسُل، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ما استطاعوا، ولا بكلام يشبهه.

المعجزة الرابعة: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما يأكله اليوم وما أكله البارحة وما يدخره للعشاء.

وقيل: كان هذا في نزول المائدة، فقد أمرهم أن يأكلوا ولا يدَّخروا، ولا يخونوا، فخانوا وادَّخروا، فكان عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة، وما ادَّخروا منها.

وما أتى به عيسى هو من قَبيل المعجزات، وليست في مقدُور أحد، بخلاف المنجِّم والمشعْوِذ، فإنه يستعين بواسطة الكواكب أو الجن على معرفة المطلوب، وكثيرًا ما يخطئ فيما يُخبر به.

والكاهن يستعين بالجن، وهو يكذب في تسعة أعشار كلامه.

أما إخبار الأنبياء عن المغيَّبات فهو من الله تعالى بواسطة الوحي المنزَّل من عند الله تعالى.

وفي هذه الأمور العظيمة دليلٌ على نبوة عيسى ﷺ إن كنتم تصدِّقون حُجج الله وآياته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، و أي آية أعظم من جعْل الجماد حيوانًا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء على معالجتها، وإحياء الموتى والإخبار بما غاب عنهم، فكل واحدة من هذه الأمور معجزة بذاتها، فكيف إذا اجتمعت وصدّق بعضها بعضا، فإنها موجبة للإيمان.

المعجزة الخامسة: نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام:

٥٠- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ[١] ﴿٥٠﴾﴾

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء الزائدة وصلًا ووقفًا من (وأطيعوني)، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين، وهي لغة عامة العرب.

فقد أخبر عيسى قومَه أنه يصدِّق التوراةَ التي نَزَلَتْ على موسى، وكلاهما يُعلن حقيقةَ التوحيدِ الذي جاء به كلُّ رسولٍ، وكل نبي يُصدق مَن قبله من الرُّسُل.

فجميعُ الأنبياء صدَّق بعضُهم بعضًا فيما أَنْزَلَ الله عليه من الكتب والشرائع والأحكام.

وكانتِ التوراةُ تَحمل الشريعةَ المُنَظِّمَةَ لحياة بني إسرائيل، ونُظُمَ التعاليم والتعامل بينهم، وكانِ الإنجيل يَتضمن إحياءَ الروح، وتهذيبَ النفس، وإيقاظَ الضمير، وتَتضمن دعوةُ عيسى عليه السلام تعديلاتٍ لبعض العقوبات التي نزلت ببني إسرائيل؛ جزاءَ بغيهم وظُلمهم، فتُحِلّ لهم ما حُرم عليهم، وتضع الآصار والأغلال عنهم.

والإنجيل أقرَّ أكثر أحكام التوراة فلم ينسخها، بل كان متممًا لها ومقررًا.

وكان الله قد حَرَّم على اليهود لحوم الإبل والثُّرُوب والشحوم، وأشياء من الطير والحيتان.

وكان التَّحريمُ باقيًا إلى عهد عيسى عليه السلام تشديدًا على بني إسرائيل؛ بسبب ظلمهم وعصيانهم، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ولما كان يومُ السبت مُحَرَّمًا على اليهود أن يَعملوا فيه من باب العقوبة أيضًا، فإن الله تعالى بدَّل به يوم الأحد في شِريعة عيسى عليه السلام، وأخبر عيسى قومَه بأنه جاءهم بِحُجة من ربِّه تَدلُّ على صِدْقِ ما يقول: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أمرَه ونهيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم عن الله، فقد جئتكم بجنس ما جاءت به التوراة، وما جاء به موسى عليه السلام، إخبار بالصدق وأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض.

عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

٥١- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ[1] مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

---

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (صراط)، وهي لغة عامة العرب، وقرأها حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

ثم أكَّد عيسى على أنه عبدٌ مَربوبٌ لله تعالى كسائر الخَلْق، وأنه وَهُمْ سواء في الطاعة والعبودية والخضوع له سبحانه، فيقول لهم: إن الله الذي أدعوكم إليه هو ربي وربُّكم فاعبدوه، وجميعُ الرُّسُل جاؤوا بهذا التوحيد، ولم يَختلفوا فيه فأنتم سواء في العبودية، لقد استدل عيسى بتوحيد الربوبية الذي يقره المشركون، على توحيد الألوهية الذي ينكرونه، فكما أن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر، فليكن هو إلٰهنا ومعبودنا، نحبه ونخافه ونرجوه وندعوه ونستعين به ونستغيث به، ولا نلجأ لأحد سواه.

وفي هذا براءةٌ مما يَنسبه إليه النَّصارَى في كل زمان ومكان من أنه ابنُ الله، أو أنه ثالثُ ثلاثة، وبيانٌ للطَّريق الصَّوَاب الذي لا اعْوِجَاجَ فيه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فاتقوا الله، ولا تخالفوا أمري، وأطيعون فيما أبلغكم به عن الله، فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]

الْحَوَارِيُّونَ

٥٢- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ[1] إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

طَوَتِ السُّورَة ولادةَ عيسى، وكلامه في المَهْد، ودعوةَ قومه وهو كَهْل، اكتفاء بما جاء في سورة مريم؛ لأن موضوع هذه السُّورَة هو الرسالة؛ **ولذا**: فإن سياق الآيات يَنتقل مباشرةً إلى إحساس عيسى بكفر بني إسرائيل به بعدما أراهم هذه المعجزات التي ليست في مَقْدُورِ البشر، ولمَّا ظهر أمرُ عيسى عليه السلام قصدوا قتلَه، وكفروا به،.

وتقدير الكلام: وُلِد عيسى، وكَلَّم الناس في المَهْد، وأراهم المعجزات الباهرات، ودعاهم إلى التصديق به وطاعته؛ فكفروا به، فلما أحسَّ منهم بالكُفْر طلب النُّصْرَة من قومه؛ لإظهار دعوة الله تعالى.

وقيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المُبَشَّر به في التوراة، فلما أظهر عيسى دعوتَه؛ اشْتَدَّ ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه، وكفروا به، ولم ينقادوا لدعوته، وقالوا: هذا

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أنصاريَ إلى) وصلًا، وسكَّنها الباقون في الحالين.

سحر مبين، وأرادوا قتلَه، فلمَّا استشعر عيسى تصميمَهم على الكُفْر؛ طلب النُّصرة عليهم ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن يتبعني على ديني، ويمنعني مِن أذى قومي؛ لأبلغ دعوة ربي.

كما كان النَّبِي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل الهجرة: **«هل مِن رجل يَحملُني إلى قومه حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»**(١).

وهكذا عيسى ﷺ، كان له طائفة من قومه آمنوا به، وهم الحَوَارِيُّونَ، قيل: كان عددهم اثني عشر، ورئيسهم شمعون ويعقوب، وهؤلاء الحَوَارِيُّونَ هم:

١- سَمْعَان بطرس. ٢- وأخوه أندراوس. ٣- ويوحنا بن زبْدي.

٤- وأخوه يعقوب، وكلهم كانوا صيَّادي سمك. ٥- ومتَّى العشَّار.

٦- وتوما. ٧- وفيليبس. ٨- وبرثو لماوس. ٩- ويعقوب بن حلفي.

١٠- ولباوس. ١١- وسَمعان القانوي. ١٢- ويهوذا الأسخريوطي.

وقد آمن معهم أفرادٌ متفرِقُون من اليهود، وآمن من النساء: أمُّه ومريم المجدلية، وأمُّ يوحنا، وحماة سمعان، ويوثا امرأة حوزي، وسوسة، ونساء أُخريات، ولكن النساء لم يُطلب منهن نُصرة.

وكان عيسى قد مرَّ بهم وهم يصطادون السمك، فدعاهم إلى الله؛ فسألوه آية تدلُّ على صِدْقه، فدعا الله تعالى؛ فأراهم آيةً بالغةً في كثرة أسماكهم؛ فآمنوا به، وانطلقوا معه.

وقيل: سُمُّوا حواريين لبياض قلوبهم وصفائها، وبياض ثيابهم، أو لأنهم أصفياؤه وخاصتُه، أو لأنهم الخلفاء والوزراء بعده، أو لأنهم الأنصار الذين يُستعان بهم، ولعله الأصح.

كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير،

---

(١) من حديث جابر رضي الله عنه في «المسند» برقم(١٥١٩٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن المغيرة فمن رجال البخاري، قاله محققوه. وأخرجه الدارمي (٣٣٥٤) والبخاري في خلق أفعال العباد (٨٦، ٢٠٥) وأبو داود (٤٧٣٤) وابن ماجه (٢٠١) والترمذي (٢٩٢٥) والنسائي في الكبرى (٧٧٢٧).

ثم ندبهم، فانتدب الزبير ﷺ، فقال النَّبِي ﷺ فيما يرويه جابر بن عبد الله: «**إن لكل نبيٍّ حواريًا، وحَوَارِيِّ الزبير**»[١].

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ الداعون إلى دينه، المؤمنون به، صَدَّقْنا بالله واتَّبعناك، ونشهد يا عيسى بأنا منقادون لِمَا تُريد مِن نَصْر دِينك والذَّبِّ عنك، وأنا مستسلمون لله بالطاعة والانقياد ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وهذه شهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله، ثم قالوا:

٥٣- ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ثم توجَّه الحَوَارِيُّونَ إلى ربهم بعد إشهاد عيسى على إيمانهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ من الإنجيل على عيسى، وما أَنْزَلت على رُسلك من كُتُبٍ ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ عيسى عليه السلام، وامتثلْنا ما أَتَى به من عند الله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بفضلك ورحمتك مع الذين شَهِدوا لأنبيائك بالصِّدْق، واتبعوا أمرَك ونَهْيَك.

قال ابن عباس: أي: مع محمد ﷺ وأمته؛ لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة، فإنهم يشهدون للرُّسل بالبلاغ، وقيل: ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع النَّبِيين؛ لأن كلَّ نبي شاهدٌ على أمتِهِ.

فلما قام الحواريون بنُصرة عيسى وإقامة شرعه، آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان، فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

الزَّعْمُ بِقَتْلِ عِيسَى عليه السلام وَصَلْبِهِ

٥٤- ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

الْمَكْرُ من الإنسان: خبث ودهاء وحِيَل، **والمكر من الله سبحانه**: أن يجازيَ العبد ويعاقبَه على سوء مَكْرِه، وقد مكر بنو إسرائيلَ بعيسى حين وكَّلوا به مَن يقتله غِيلَةً، فألْقَى الله شَبَهَه على رجل دلَّهم عليه؛ فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظنًّا منهم أنه عيسى.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٣) ورقمه في البخاري (٢٨٤٦، ٢٩٩٧، ٣٧١٩، ٧٢٦١) ومسلم (٢٤١٥) والترمذي (٣٧٤٥) وابن المنذر (٥١٩).

والذين مكروا بعيسى عليه السلام مِن كفار بني إسرائيل هم الذين أحسَّ منهم الكُفْر، وكانوا قد ذهبوا إلى الحاكم الرُّوماني، وسَعَوْا بالفساد، ووشوا بعيسى عنده، قالوا له: إنه سيُفسد الرَّعية عليك، وإنَّ زوال ملكِك وسلطانِك سيكون على يديه، وكان هذا الحاكم كافرًا، ضالًا مُضِلًا.

وقالوا له: إن عيسى ساحرٌ، وهو ابنُ زِنًى، وهكذا مَلَؤوا قلبَ الرجل حتى أصدر أمرًا بالقبض على عيسى، وأن يَقتلَه صلبًا، وذهبت الشرطة تَبحث عن عيسى عليه السلام.

وكان مِن بين الحواريين أصحاب عيسى رجلٌ اسمه يهوذا، وكان قد دخل في دِين عيسى، وتقربَ منه رياءً ونفاقًا، فهو الذي دلَّ الشرطة على المكان الذي فيه عيسى عليه السلام.

والله سبحانه عاقبَه على سُوء فِعلتِه وسوء تدبيره، فقد دخل يهوذا على عيسى فألْقَى الله تبارك وتعالى شَبَه عيسى على يهوذا؛ فأصبح الذي يَرى يهوذا كأنه يَرى عيسى تمامًا، ورفع الله تعالى عيسى إليه.

ودخلتِ الشُّرْطَةُ إلى المكان فلم تجدْ إلا رجلًا واحدًا، فاعتقدوا أنه عيسى عليه السلام، وهو في الحقيقة يهوذا الذي أَلْقَى الله تعالى شَبَه عيسى عليه عقوبة له؛ لأنه دلَّهم على مكان عيسى، وصَلبوه وقَتلوه، وهم يعتقدون أنهم قتلوا عيسى، فكان مكرُ الله بهم أن أَلْقَى شَبَهَه على يهوذا الذي وَشَى به، ونَجَّى الله نبيَّه مِن بين أظهرهم، وتركهم يتخَبَطُون في شأنه.

وفِرَق النَّصَارَى تَختلف في شَأن صَلْب عيسى عليه السلام، فهم بعد أن قَتَلوا يهوذا وصلبوه يقولون: إنه من المفروض أن يكون في المكان رجلان (عيسى ويهوذا)، ولكنهم لم يَجدوا إلا رجلًا واحدًا، فمَن الذي قتلوه؟ وأين الرجل الثاني؟

ولذلك وقع الخلافُ بين فِرَق النَّصَارَى في شأن صَلْب المسيح؛ منهم مَن يقول: إنه صُلب وقُتل، ومنهم من يقول: إنه لم يُصلب ولم يُقتل، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وإن الذين اختلفوا في شأن صَلْب عيسى وقتْله لفي شك منه ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧] فهم يَظنون أنه عيسى ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

هَلْ رُفِعَ عِيسَى عليه السلام بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ؟

٥٥- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

اعتقد اليهودُ وبعضُ النَّصارَى أنهم صَلبوا عيسى وقَتلوه، ولكن الله جَلَّ شأنُه رَفَعَ عيسى إليه في هذه اللحظة ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ رفعه بجسده وروحه حيًّا كما تنطق بذلك الأحاديث الصحيحة التي تَصِل إلى حدِّ التواتر عن رسول الله ﷺ، وتبيِّن أن الساعةَ لن تَقوم حتى ينزلَ عيسى عليه السلام، وأن نزولَه يكون من علامات الساعة الكبرى، يَنزل إلى الأرض ويَحكمُ بشريعة محمدٍ ﷺ، ويَقتل الخنزير، ويَقتل المسيخ الدجال، ويَكْسر الصليب، ويظل هكذا حتى يَموت كما يموت كلُّ كائنٍ بشريٍّ، ذلكم قول الله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] والوفاة في القرآن الكريم تُطلق على النوم، وتُطلق على الموت، فالنومُ هو الوفاةُ الصُّغْرَى، قال سبحانه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] أي: حين منامِها، حيث تَنفصل الروح عن الجسد، ولكنها لا تنفصل عنه كُليًّا، بل تَظلُّ مُتصلِة به، هذه الوفاة هي المَوْتَة الصغرى، وقت المَنَام.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ يعني: حين تنامون، سماها القرآن أيضا وفاة ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: أني مُنيمُك وقابضُك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ و أنت مُلْقى عليك النوم، ومُخلصك مِن الذين كفروا بك، برفْعك وإلقاء الشبه على غيرك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]

وقد كف الله بني إسرائيل عن قتلك بعد عزمهم الجازم وعدم المانع من ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ١١٠] وله الحكمة البالغة في إلقاء الشبة على الذين دلّهم عليه، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء]

ذكر العلماء أن التوفِّي على طريقتيْن:

الطريقة الأولى: إذا حُملتِ الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير، يكون **معنى الوفاة أحد وجوهٍ ستة:**

المعنى الأول: أني قابضُك ورافعك إليَّ مِن غير موت، حتى لا يَصِل إليك أعداؤك من اليهود (بقَتْل أو صَلْب).

المعنى الثاني: أن المراد بالوفاة هو: النوم؛ أي: مُنيمُك ورافعك إليَّ، فإن الوفاة تُطلق على النوم مجازًا.

المعنى الثالث: أن المراد حقيقة الموت، قالها ابن عباس، ووهب بن منبه.

ويزعم النَّصَارَى أن عيسى مات ثلاث أو سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه إليه، والذين يقولون بهذا هُم الذين يَحتفلون بعيد القيامة من كل عام.

المعنى الرابع: أن الواو من ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ لا تفيد الترتيب.

أما كيف يُتَوفَّى؟ ومَتَى يُتَوفَّى؟ فالأمر موقوفٌ على الدليل، وقد ثَبَتَ أن عيسى سَيَنْزِل ويقتل الدجال، ويمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يموت، ويُصلَّى عليه.

المعنى الخامس: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ عن شهواتِك وحُظوظ النفس، ورافعك إليَّ.

المعنى السادس: أنه رُفع بِجَسده وروحه إلى السماء وافيًا، كاملًا.

وفيه ردٌّ على النَّصَارَى، حيث زعموا أن المسيح رُفِع منه اللاهوت؛ يعني: الروح، وبَقِيَ الناسوت؛ يعني: الجسد.

أما الطريقة الثانية: فهو أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا؛ ويكون المعنى: إني رافعُك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومُتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض؛ أي: أني مُميتك ورافع منزلَتك وروحَك إلى مَحَلِّ كرامتي، ومقرِّ ملائكتي كما تُرفع أرواح الأنبياء.

فَالتوفِّي: معناه الموت، وهذا ما يُفيده ظاهر القرآن، ولكن كثرة الأحاديث التي بَلَغَتْ حد التواتر تُوضح أن عيسى قد رُفِعَ حيًّا بجسده وروحه، ثم ينزل آخر الزمان ويَحكم بشريعة محمدٍ ﷺ ثم يموت، والحكم بشريعة محمد لا يعني مجيء نبي بعده وإنما يعني

أنه سيكون من أتباع محمد ﷺ الداعين إلى شريعته.

ولعل المعنى الصحيح للآية: إني قابضك من الأرض، من غير أن يَنالك سوء، ورافعك ببدنك وروحك، ومُخلِّصُكَ من الذين كفروا، ومُخرِجُك من بينهم، وجاعل الذين اتبعوك على التوحيد، وصدَّقوا بك، وبما جئتَ به من عند الله، ومما جئتَ به البشارة بالدِّين الأخير؛ وهو رسالة محمدٍ ﷺ، وجاعل الذين اتبعوك فشهدوا أنك عبدُ الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، جاعلهم فوق الذين كفروا بك وجحدوا نبوَّتك إلى يوم القيامة، وقد كان من شأنهم أنهم يؤمنون بالرِّسالة الخاتمة حين مجيئها، ثم يَرجَعُ الفريقان إلى ربهم يوم القيامة، فمنهم مَن آمن بعيسى، ومنهم من كفر، فيُفْصَلُ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون من شأن عيسى عليه السلام.

وقد كان كل منهم يدّعي أن الحق معه، وأنه المصيب، وغيره المخطيء، وهذا مجرد دعاوَى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حكمه بينهم بالقسط والعدل فقال:

٥٦- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: فأُعَذِّب مَن كَفَرَ بالله وآياته ورسله، ولم يؤمن بك من اليهود والنَّصارَى عذابًا شديدًا في الدنيا بالقتل والسبي، وفي الآخرة بالنار، وغضب الجبار، والحرمان من الثواب، وليس هناك مَن ينصرهم ويدفع عنهم عذابَ الله تعالى إن مَاتُوا على كفرهم.

٥٧- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ[1] أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: وأثيب مَن آمن بك ثوابًا كاملًا ممن آمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وتزوَّد بالعمل الصالح ابتغاء وجه الله ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ في الدنيا إعزازًا وإكرامًا ونصرًا وحياة طيبة، وفي الآخرة بالأجر الحسن والثواب الجزيل، والله لا يُحب مَن أشرك به، وهذا هو شأن عيسى ﷺ، وفَصْلُ القولِ فيه بلا مراءٍ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه.

(١) قرأ حفص ورويس (فيوفيهم) بياء الغيبة على الالتفات، وقرأ الباقون بنون العظمة على نسق ما قبله، وضم يعقوب هاءها، وكسرها الباقون.

نُبْذَةٌ عَنْ عِيسَى عليه السلام

قال أهل التاريخ: حَملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدتْه ببيت لحم من أرض أورشليم، لمضُيِّ خمس وستين سنة من غَلَبَة الإسكندر على أرض بابل، وأَوْحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة، ورَفَعَه الله من بيت المقدس ليلة القَدْر من رمضان، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فكانت نبوتُه ثلاث سنين، وعاشتْ أمه بعد أن رَفَعَه الله إليه ست سنوات، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبِي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده ليُوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكْسِرَ الصليب، ويقتلَ الخنزير، ويضعَ الجِزْيَة، ويفيضَ المال حتى لا يَقْبَلَه أحدٌ**»[1].

وفي حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النَّبِي ﷺ قال: «**فبينما هم كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء، شرقيَّ دمشق بين مَهْرُودَتيْنِ واضعًا يده على أجنحة ملكين. . .**»[2]. وبين مَهْرُودَتيْن، أي بين حلتين جميلتين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبِي ﷺ قال: «**ليس بيني وبينه** (أي: عيسى) **نبيٌّ، وإنه نازِلٌ، فإذا رأيتموه، فاعرفوه، فإنه رجل مربوعٌ إلى الحُمرة والبياض، ينزل بين مُمَصَّرَتيْنِ، كأن رأسه يَقطُرُ، وإن لم يصبه بللٌ، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجِزْيَة، ويُهلك الله المِلل في زمانه كلَّها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، ثم يَمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتوفَّى، ويُصلِّي عليه المسلمون**»[3].

---

(١) البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨، ٣٤٤٩) ومسلم (١٥٥).

(٢) كما في حديث أوس بن أوس عند الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٩٠) قال الهيثمي: رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٥)، وهو في سنن أبي داود (٤٣٢١) وفي صحيح أبي داود (٣٦٣١) وأوله (إن يخرج وأنا فيكم) وهو في المسند (١٧٦٢٩) من حديث طويل عن الدجال، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم (٢٩٣٧) وابن ماجه (٤٠٧٦) والترمذي (٢٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٨٠٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود بسند صحيح في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٣٥) وفي « السلسلة الصحيحة» (٢١٨٢)، وهو في سنن أبي داود (٤٣٢٤)

وبعد رَفْعِ عيسى ﷺ اختلف النَّصَارَى في شأنه، فمنهم مَن آمن به على أنه عبدُ الله ورسولُه، ومنهم مَن غَالَى في شأنه فقال: إنه الله، أو إنه ابن الله، أو إنه ثالث ثلاثة.

ومن العجيب أن بعضَ النَّصَارَى يعتقدون أن عيسى هو الإله، ومع ذلك يقولون: إنه قد صُلِب وقُتِل، كيف يُصْلَبُ الإله ويُقْتَل؟ ومَن الذي حكم العالم ودبَّر الكون حين قُتل الإله وصُلب؟ كيف لا يَمنع نفسَه من الصَّلْب أو القَتْل؟ أو كيف لا يَمنع الإله ابنَه ويَحول بينَه وبين الصَّلْب أو القَتْل؟

ثم يقولون: إنه صُلب وقُتل فداءً وتكفيرًا لخطايا البشر، وليس من العدل الإلهي أن تَزِرَ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر]

والإنسانُ مأخوذٌ بذنبه وجريرته، لا يُؤاخذ شخصٌ بذنب آخر، فأنت يومَ القيامة لا تُسأل عن أبيك ولا عن ابنك، وأنت غيرُ مسؤولٍ عن زوجك ولا عمَّن تَعول، بعد القيام بإخلاص النصيحة لهم في الدنيا، فكيف يُسأل المسيح ويُعاقب على ذنوب البشر؟!! كلامٌ يُشبه الخُرافات، لا أصل له.

كِتَابَةُ الْأَنَاجِيلِ: وقد كُتبت الأناجيل بعد رفع عيسى إلى السماء بمدة طويلة، والأناجيل الموجودة اليوم ليس فيها إنجيلٌ كُتب في وقت عيسى، أو كَتَبه عيسى بنفسه، أو كتبه تلاميذُه وقتَ وجوده، إنما الحَوَارِيُّونَ كتبوا هذه الأناجيل بعد رَفْعِ عيسى، وهي عبارة عن الوصايا التي تذكَّروها، وبقيتْ في أذهانهم، ودَخَلها التحريف والتغيير.

وقد كُتِبَ أول إنجيل بعد رَفْعِ عيسى بأربعة أعوام، وهي أقل مدة، وكُتب الإنجيل الثاني بعد عشرين عامًا، وكُتب الإنجيل الثالث بعد اثنين وثلاثين عامًا، وكُتب الإنجيل الرابع بعد إحدى وستين سنة، كُتبت هذه الأناجيل كلُّها بعد رَفْعِ عيسى ﷺ.

قُسْطَنْطِينُ يُحَرِّفُ النَّصْرَانِيَّةَ: وبعد ثلاث مئة عام مِن رفع عيسى ﷺ دخل في النصرانية قُسطنطين مَلِكُ اليونان، وكان يهوديًا، وهو الملِك الذي بَنَى مدينة القسطنطينية، دخل في النصرانية حيلة ليفسدها، فحرَّفها وغيَّرها وبدَّلها، **ومن ذلك أنه**:

أمر الناس أن يصوموا عشرة أيام من أجل ذَنْبٍ ارتكبوه، وهذا أمر سائدٌ إلى يومنا.

وأمرهم أن يتحولوا في صلاتهم إلى جِهة المَشرق، فغيَّر وحرَّف وبدَّل.

وأباح الخِنزير وهو مُحرَّم في جميع الشرائع، ومنها شريعة عيسى عليه السلام.

وملأ الكنائس بصور المسيح وصور أمه، وصار دين المسيح دين قسطنطين، فوُضِعَتْ له القوانين، واتبعه الطائفة الملكية منهم.

وتَمَّ ذلك كله على يدِ الملك قسطنطين اليهودي الذي دخل في النصرانية؛ ليكيد لها ويُحرِّف ويبدِّل كلام الله عز وجل، والله تعالى مُبطل مذهب قسطنطين، وكلِّ مَن كَفَرَ بالله تعالى، فالله تعالى يقول في شأن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مما اتهموك ورمَوْك به، ومُخلِّصك من كَيْدهم، وهكذا في كل مِلَّةٍ يرفع الله المؤمنين فوق الكافرين، مِن الذين يتبعون كلَّ رسول ويؤمنون به في مدة صلاحية رسالته، وقبل أن تأتيَ الرسالةُ الأخرى، وهم فوق مَن لم يتبعوا دِينَه إلى يوم القيامة، إذا ماتوا في مدة رسالته.

أمَّا إذا جاءتِ الرسالةُ التالية التي نَسَخَتْ هذه الرسالة، فإنه لَا بُدَّ لهم أن يُؤمنوا بهذا الرَّسُول الذي نَسَخَ شريعتَهم، كما أنه لَا بُدَّ لمَن جاء في عهد رسالة محمدٍ ﷺ أن يُؤمن بِها، ويَكفر بكل الرسالات السابقة، ويؤمن بالرسالات الأخرى على أنها رسالاتٌ سبقتْ، جاءتْ في وقتٍ معيَّنٍ ولجيلٍ معيَّنٍ، تُمَهِّد للرسالة الخاتَمَة التي جاء بها محمدٌ ﷺ. قال تعالى:

٥٨- ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

والله سبحانه يُعَقِّبُ على قصة المسيح عليه السلام بقوله: ذلك الذي نقصُّه عليك في شأن عيسى مِن الدَّلالات الواضحة على صِحْةِ رسالتك يا محمد، وصحة القرآن الذي جِئْتَ به فاصلًا بين الحقِّ والباطلِ، خاتِمًا به الرسالات إلى الخَلْق جميعًا حتى قيام الساعة، فلا شك فيه ولا مراء، وهذه منة من الله تعالى على رسوله وعلى أمته حيث أنزل عليه هذا الكتاب مفصلا للحلال والحرام، فيه أخبار الأولين والآخرين كي يحصل العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد.

إِبْطَالُ أُلُوهِيَّةِ عِيسَى عليه السلام

٥٩- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

ثُم شَرَعتِ الآياتُ في إِبطال أُلوهية عيسى عليه السلام؛ فتُبيِّن أن ما أخبر الله به من شأن عيسى عليه السلام هو الحق، في أعلى درجات الصدق، ولا مجال للشك فيه، فليس الأمر كما يزعم النصارى، لأن جميع الأسباب طوع مشيئة الله تعالى وتبعًا لإرادته، ولا يوجد من يستحق المشاركة لله تعالى بوجه من الوجوه، ومع هذا فإن آدم خلقه الله من تراب، لا من أب ولا من أم، ولم يزعم فيه أحد ما زعمه النصارى في عيسى، وما خُلق من أم بلا أب أولى، فإن صح ادعاء البنوة أو الألوهية في عيسى، فآدم أولى وأحرى.

وهذه الآيات مِن أول السُّورَة إلى هنا كانت بِصَدَدِ الحِوار مع وَفْدِ نَصَارَى نَجْران، الذين قالوا للنبي ﷺ: ما لك تشتمُ صاحبَنا، قال: «**وما أقول؟**» قالوا: تقول: إنه عبدٌ، قال «**أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**» فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ إنسانًا قَطُّ من غير أب؟ فإن كنتَ صادقًا فَأَرِنَا مثلَه؛ فأنزل الله سبحانه جوابًا لهم هذه الآية(١).

وعن الحسن قال: جاء راهبا نجران إلى النَّبِي ﷺ فعرض عليهما الإسلام، فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال: «**كذبتُما، إنه يمنعكما من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولد**» قالا: مَن أبو عيسى؟ وكان لا يُعجل (أي: لا يسرع في الجواب) حتى يأمرَه ربُّه، فأنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾(٢).

أي: مَثَل عيسى عند الله في خَلْقه من غير أب، كمثل آدم خلقه الله تعالى بلا أب وبلا أم، فقد شَبَّه الله سبحانه القريبَ بالأقرب منه، حيث الذي خُلِق من غير أب، أقرب في عُرْفِ الناس ممَّن خُلق من غير أب ولا أم، وقد خَلَق الله عيسى كما خَلَق آدم، خَلَقه بكلمة ﴿كُن﴾ فكان، ونَفَخَ الله سبحانه في عيسى مِن رُوحه كما نفخ في آدم من روحه، فصِفَةُ خَلْق عيسى مِن غير أب كصفة خلْق آدم مِن تراب، وخَلْق آدم أعجبُ وأغربُ وأبلغُ

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٠٣).

(٢) النيسابوري (٨٦) والسيوطي (٥١).

في القدرة، قال تعالى:

٦٠- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾

قال سبحانه مُعقِّبًا على القصة ومبيِّنًا أن هذا الذي قَصَّه القرآنُ في شأن عيسى هو الذي أَوْحَى الله إليك به يا محمد، فدُمْ على ما أنت عليه مِن يقينٍ، ولا تكن مثلَ هؤلاء الشَّاكِّين في أن عيسى عبدٌ من عباد الله، فإن هذا هو الحقُّ، وما عداه مِمَّا يقوله أعداء الإسلام من النَّصارَى وغيرهم هو الباطل، وإذا قامت الأدلة على أنه حق، وجزم به العبد، وهو من مسائل الاعتقاد، فيجب الجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تَرِدُ عليه فاسدة، لأن ما خالف الحق فهو باطل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]

آيَةُ الْمُبَاهَلَةِ وَالْمُلَاعَنَةِ فِي شَأْنِ عِيسَى عليه السلام

٦١- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾

أَرَادَ النَّصارَى بعد هذا البيان الواضح أن يُجادلوا النَّبيَّ ﷺ، وأن يُطيلوا الحِوار فوق ذلك، فقَطَع الله سبحانه عليهم الطريقَ، وقال للنبي ﷺ: مَن جادلك وخاصمك في شأن عيسى بعدما جاءك من العلم فقل لهم: تعالوا إلى المُباهلة.

والمُباهلة معناها: أن يَجتمع الفريقان المتحاوران ويأتي كل منهم بنفسه وبأهل بيته؛ من زوجه وأبنائه وبناته، ويَحتشد الجميع في صَعِيدٍ واحدٍ، ثم يبتهلون إلى الله سبحانه تعالى، ويتجهون إليه بالدعاء أن يُنزل عقوبتَه ولعنتَه على الكاذبين في قولهم، المُصِرِّين على عِنَادِهم.

والابتهال: الاجتهاد في الدعاء، **وبَهَلَهُ الله:** لعنه وأبعده من رحمته، وكُلٌّ من آدم وعيسى خُلِق على غير العادة، فمَن أقرَّ بخَلْق أحدهما يقر بالآخر، فصِفة الخَلق واحدةٌ، وكلاهما خُلِق من غير أب، والخَلق من التراب اليابس أبلغُ في القدرة لكل ذي لُبٍّ، فكيف تنسبون عيسى إلى الله سبحانه بالبنوة أو الألوهية أو التثليث؟!! وقد اتفق الجميع على أن آدم عبدٌ من عباد الله، والمبتهلون يَطلبون لعنة الله على الكاذب.

وعقوبةُ هذه المباهلة كما وقعتْ عند الرُّسُل السابقين أن الله تعالى يُهلك الكاذب.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: مَن جادلك في شأن عيسى وزعم أنه فوق منزلة العبودية ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بِهَذِه الحقائق الثابتة الواضحة، مِنْ أنه عبد الله ورسوله، وأنه عبد أنعم الله عليه، فإن أقمت له الأدلة وعاند، فهو معاند مشاق لله ورسوله، وليس فيه حيلة، فما عليك إلا أن تباهله وتلاعنه، بأن يجعل الله لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ وهذه المباهلة وضّحتْها الآية نفسُها ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ نسأله وندعوه أن يَجعل لعنة الله على الكاذبين.

وقد قَبِل منهم النَّبي ﷺ هذه المباهلة؛ فطلبوا مدةً يتشاورون فيها، ثم تشاوروا فيما بينهم، بين كبارهم وعلمائهم وأحبارهم، وهم في حقيقة الأمر يصدِّقون ويعترفون في داخلهم بنبوَّة محمدٍ ﷺ، ولكنهم لا يريدون الاعتراف الصريح؛ خوفًا على مناصبهم، وخوفًا على كراسيهم ومنزلتهم بين أقوامهم.

وبعد أن تشاوروا هربوا من المباهلة، فتولّوْا و أعرضوا وعلموا أنهم إنْ لَاعَنُوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم، فلم يجدوا أهلًا ولا مالًا، وعُوجلوا بالعقاب، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا في غاية الفساد والعناد، حيث قال بعضُهم لبعضٍ: ما باهل قومٌ نبيًّا إلا أهلكهم الله تعالى؛ فامتنعوا من المباهلة، وقبلوا الصُّلح على أن يَدفعوا الجِزْيَة لرسول الله ﷺ، وبعد أن أخذ النَّبي ﷺ في صبيحة هذا اليوم عليًّا وفاطمة والحسن والحسين، وذهب إلى المباهلة امتنعوا مِن قَبُولها فأنزل الله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ قال ابن عباس ﷺ: لو بَاهَلَ أهل نَجران رسولَ الله ﷺ لرجعوا لا يَجِدون أهلًا ولا مالًا[1].

وكان سبب هذه المباهلة: أن وفد نصارى نَجران قَدِم على النَّبي ﷺ، وأخذوا يُجادلونه فيما يزعمون من بنوة عيسى وألوهيته؛ فأنزل الله صَدْرَ هذه السُّورَة ردًّا عليهم.

وجاء عند ابن إسحاق أنهم كانوا ستين راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يؤول إليهم أمرهم، وكان فيهم أميرهم (العاقب) وعالمهم (السيد الأيهم) وأسقفهم (أبو

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٢٣) والبخاري (٤٩٥٨) والترمذي (٣٣٤٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٨٥) وغيرهم.

حارثة)، وكان رجلًا من العرب قد تنصَّر، فعظَّمه الروم، وجعلوا له شأنًا، ودخلوا على رسول الله بعد صلاة العصر في مسجده بالمدينة، وبعد أن صلوا متجهين إلى المشرق، كلَّموا النَّبِي ﷺ مع اختلافهم في شأن عيسى.

فاحتج مَنْ قالوا: إنه إله بأنه يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويُخبر بالغيب، واحتج من قالوا: إنه ابن الله، بأنه وُلِد من غير أب، واحتج من قالوا: إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: (فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا)، ولو كان واحدًا لقال: فعلتُ وأمرتُ وخلقتُ وقضيتُ.

ثم عَرَضَ عليهم النَّبِيُّ ﷺ الإسلام؛ فقالوا: قد أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتم، يَمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدًا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير**»، قالوا: فمَن أبوه؟ فصمَت النَّبِي ﷺ فأنزل الله تعالى بضعًا وثَمانين آية من أول السُّورَة.

فلما أخبر اللهُ رسولَه وأوقفه على شأن عيسى دعاهم إلى المباهلة، وبعد أن تَشاوروا فيما بينهم، قال أميرهم: لقد عرفتم يا معشر النَّصَارَى أن محمدًا نبيٌّ مُرْسَلٌ، وما باهل قوم نبيًّا قَطُّ فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتُم لتهلكن.

فإن أبيتم إلا البقاء على دينكم، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ، وكان قد قابلهم مستعدًّا للمباهلة، وقد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تَمشي خلفه، وعليٌّ خلفها، وهو يقول: «**إذا دعوْتُ فأمِّنوا**».

فقال أسقف نجران: يا معشر النَّصَارَى، إني لأرى وجوهًا، لو سألوا الله أن يُزيل الجبال من مكانها لأزالها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يَبْقَى على وجه الأرض نصراني.

قالوا: يا أبا القاسم رأينا ألا نباهلك، وصالحوا النَّبِي ﷺ على الجِزْيَة؛ فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلَّى على أهل نَجران، ولو تلاعنوا لَمُسِخوا قردة وخنازير، ولا اضطرم عليهم الوادي نارًا، ولا استأصل الله نَجران وأهلَه**»، وفي هذا دليلٌ وبرهانٌ قاطِعٌ على صِحَّةِ نبوة محمدٍ ﷺ.

وفي البخاري عن حُذيفة أن وفد نَجران قالوا للنبي ﷺ: ابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «**لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمينٍ**»، فاستشرف له أصحاب

رسول الله ﷺ فقال: **«قم يا أبا عبيدة بن الجراح»** فلما قام قال رسول الله: **«هذا أمينُ هذه الأمة»**[١].

وفي رواية أنس في البخاري أيضًا: **«لكل أمةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدةَ بنَ الجراحِ»**[٢]. قال تعالى:

٦٢، ٦٣ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ[٣] ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

إن هذا الذي قَصَصْنَاه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الخبرُ اليقين الذي لا مريةَ فيه؛ وكل قصص يخالفه فهو باطل، إذ ليس عيسى بإله، ولا ابن للإله، ولا ثالث ثلاثة، كما يَدَّعِي النَّصارَى، وهذا هو النَّبأُ الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وما من معبودٍ يستحق العبادة إلا الله وحده، وإن الله لغالبٌ في مُلكه، حكيمٌ في تدبيره وفعله، له الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل.

فإن أعرضوا عن اتِّبَاعك وتصديقك، ولم يقروا بالتوحيد؛ فهم المفسدون، والله عليمٌ بهم وسيجازيهم، فهم قومٌ مفسدونَ متكبرون، لا يريدون الاعتراف بمحمدٍ ﷺ؛ كِبْرًا وفُجُورًا وعنادًا، وخوفًا على مناصبهم ومنازلهم بين القوم، وإن كانوا في حقيقة الأمر مقرِّين ومعترفين أنه رسول الله ﷺ، وسوف يعاقبهم الله على ذلك أشد العقوبة.

حَدِيثُ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَان

ذكر البيهقي في دلائل النُّبُوَّة عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جَدِّه، قال يونس - وكان نصرانيًّا فأسلم- ما مُلخصه:

إن النَّبِي ﷺ كَتَب إلى أهل نَجران قبل أن تَنزل عليه سورة النمل: **«باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد رسول الله إلى أسقف نجران، وأهل نجران، أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيْتُم**

(١) «فتح الباري» (٧/ ٦٩٥) وهو في البخاري (٣٧٤٥، ٤٣٨٠) وفي مسلم (٢٤٢٠).

(٢) البخاري (٣٧٤٤، ٤٣٨٢) ومسلم (٢٤١٩).

(٣) سَكَّنَ الهاء من (لهْو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

فالجِزْيَة، فإن أبيْتُم فقد آذنتكم بحرب، والسلام».

فلمَّا وَصَلَ الكِتَابُ إلى أسقف نجران؛ أرسل إلى شُرحْبِيل بن وداعة، وكان رجلًا يحلُّ المعضلات، فقال الرجل: ليس لي في النُّبُوَّة رأيٌ، ولو كان أمرٌ من أمور الدنيا لأشرتُ عليك فيه برأيي.

وبَعَثَ الأسقف إلى عدد من كبار القوم يَستشيرهم، فقالوا كما قال شُرحْبيل، وكانوا إذا فَزِعُوا من شيء ذي خطر شديد؛ أمر الأسقف بضرب النواقيس في الكنائس، ورفْعِ النيران في الصوامع، ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وفي الوادي ثلاث وعشرون قرية، فاجتمعوا وقرأ عليهم كتاب الرَّسُول ﷺ ثم سألهم الرأي فأجمعوا أمرَهم على أن يُرسلوا وفدًا لمقابلة النَّبِي ﷺ بالمدينة.

ولمَّا وصل الوفدُ إلى المدينة، خلعوا ثياب السفر، ولبسوا حُلَلًا وخواتيم ذهب، ثم ذهبوا إلى النَّبِي ﷺ فلم يُكلمهم، فاستشار عثمان، وعبد الرحمن بن عوف في ذلك، واستشار عليَّ بن أبي طالب، فقال: أرى أن يَخلَعوا حُلَلهم وخَواتيمَهم ويلبسوا ثياب سفرهم، ففعلوا وذهبوا إلى النَّبِي ﷺ فقال: **«لقد أتوْني أول مرة ومعهم إبليس»**.

ثم أخذوا يسألونه عن عيسى عليه السلام فقال: **«ما عندي شيء أقوله اليوم، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لي ربي في عيسى»**، فأصبح الغد، وقد أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ إلى نهاية آية المباهلة، وطلب منهم التناصف فيما بينهم؛ لإقامة الحُجة عليهم، لمَّا ظهرتِ المكابرةُ منهم في الحقِّ، ولمَّا كانوا يُحبون الدنيا طلب منهم أن يحشُدوا أحب شيء إليهم؛ وهم: الأنفس والأبناء والنساء، ويسألوا الله اللعنة على الكاذب.

فلما أصبح النَّبِي ﷺ أقبل عليهم، ومعه الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تَمشي عند ظهره للملاعنة، وعليٌّ معهم، ولم يكن معه أحدٌ من نسائه، فتراجع الوفد عن المباهلة، وقالوا: لئن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلًا ولاعَنَّاهُ فلن يَبْقَى منَّا على وجه الأرض أحدٌ إلا هَلَكَ، فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنْهم، ثم قالوا له: مهما حكمتَ فينا فهو جائز، فكتب لهم كتابًا فيه شروطُ دَفْعِ الجِزْيَة، قال الزهري: كان أهل نجران أول من أدَّى الجِزْيَة إلى رسول الله ﷺ(١).

---

(١) يُنْظَر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٥) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٧٣) والطبري (٦/ ١٥١).

والظاهر أن هذه القصة كانت سنة تسع عام الوفود، ثم إنهم طلبوا من النَّبي ﷺ أن يَبْعَثَ معهم رجلًا أمينًا؛ لِيدفعوا له الجِزْيَة، فاستشرف لهذا أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم عمر، ثم قال ﷺ: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**»، فلما قام قال ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»[1].

هذا: وقد جاء في صحيح مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن معاوية بن أبي سفيان لمَّا أمره بِسبِّ عليّ ﷺ فقال له: ذكرتُ ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ فلن أَسُبَّه؛ لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليَّ من حمُر النعم:

١- سمعت رسول الله ﷺ يقول له وقد خلَّفَهُ في بعض مغازيه، فقال عليٌّ: يا رسول الله، خلَّفْتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**أما تَرْضَى أن تكون مِنِّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيَّ بعدي**»[2].

٢- وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه، قال: فتطاولْنا لها، قال: «**ادعوا لي عليًّا**» فأُتي به أرمد، فبصق في عينه، ورفع الراية إليه، ففتح الله عليه[3].

٣- ولمَّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسَنًا وحُسيْنًا، فقال: «**اللهم، هؤلاء أهلي**»[4].

وتوجد أحاديث أخرى تشملهم وتشمل كل من حُرم الصدقة.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٨٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٢٠) كلاهما عن حذيفة والترمذي (٣٧٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٨١٩٧) وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٤) و«صحيح البخاري» (٤٤١٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (٢٤٠٥) وسهل بن سعد (٢٤٠٦) والبخاري (٢٩٤٢، ٤٢١٠) وعن سلمة بن الأكوع في مسلم (٢٤٠٧) والبخاري (٢٩٧٥، ٤٢٠٩).

(٤) «صحيح مسلم» في فضائل الصحابة ورقمه: (٢٤٠٤) عن معاوية بن أبي سفيان، والبخاري (٣٧٠٦) والترمذي (٢٩٩٩) والحاكم (٣/ ١٤٧) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٦٣) وغيرهم.

أَرْبَعُ نِدَاءَاتٍ لِأَهْلِ الْكِتَابِ:

النداء الأول: وجوب وحدانية الله تعالى

٦٤- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم تَمضي الآيات لِتقرر عقيدةَ الوحدانية بعد امتناعهم عن المباهلة، وتدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، وألا يشركوا معه نبيًّا ولا رسولًا، ولا صنمًا ولا صليبًا ولا طاغوتًا، وأن يَلتزم الجميع بعدم الدينونة إلا لله تعالى، فكلهم عبيدٌ الله، وحقُّ الطاعة لله وحده، وحقُّ التشريع لله وحده، ومن ادَّعى شيئًا من ذلك لغير الله؛ فقد نَازَع اللهَ تعالى في خصائص الألوهية، لقد أرسل الله الرُّسُل لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الخَلْق إلى عدل الخالق.

ولمَّا نزلت هذه الآية وآية التوبة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ قال عدي بن حاتم: ما كنَّا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: **«أما كانوا يُحلّون لكم ويُحرِّمون، فتأخذون بقولهم؟»** فقال: نعم، فقال: **«فتلك عبادتهم»**(١).

قال المفسرون: لما قَدِم وفدُ نَصَارَى نَجران إلى المدينة، اجتمعوا باليهود، فاختصموا وتجادلوا في شأن إبراهيم ﷺ؛ فزعمت النَّصَارَى أنه كان نصرانيًّا، وأنهم على دينه، وأَوْلَى الناس به، وقالت اليهود: كان يهوديًّا، وهم على دينه، وأَوْلَى الناس به؛ فقال رسول الله ﷺ: **«كِلاَ الفريقين بريءٌ من إبراهيم ودينه، بل كان إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وأنا على دينه»**.

فقالت اليهود: ما تُريد إلا أن نتخذك ربًّا، كما اتخذتِ النَّصَارَى عيسى ربًّا، وقالت النَّصَارَى: يا محمدُ، ما تريد إلا أن نَقول فيك ما قالتِ اليهود في عزيرٍ؛ فأنزل الله تعالى **أَرْبَعَ نداءات** وَجَّهَهَا لأهل الكتاب تضمنت هذه النداءات:

أولًا: أن يُخْلِصوا العبادة لله وحده.

وثانيًا: أنَّ موسى وعيسى جاءا بعد إبراهيم، فكيف يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا؟!

---

(١) يُنْظَر: «سنن الترمذي» برقم (٣٣٠٦) وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٧١).

وثالثًا: أنهم يَشهدون في كتبهم أن الرَّسُول حقٌّ، فكيف يكفرون به وهو موصوفٌ عندهم؟!

ورابعًا: لِمَ يَخلطون الحقَّ بالباطل، ويُخفون أوصاف خاتَم النبيّين وهم يعلمونها؟!

النداء الأول: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنَّصَارَى ﴿تَعَالَوْاْ﴾ هَلُمّوا نجتمع على ما اتفق عليه الأنبياء والمرسلون من كلمة التوحيد، ولم يخالفها إلا الضالون المعاندون، وهي كلمة مشتركة بيننا وبينكم، لا تختص بأحدنا دون الآخر.

تعالَوْا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ عدل وحق نلتزم بها جميعًا؛ وهي كلمة التوحيد، لا اله إلا الله، نَخصُّه وحده بالعبادة، ولا نُشرك معه غيره، وهي كلمة ﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أنها كلمة متفق عليها بيننا بالسواء والعدل والنَّصَف، نستوي فيها نحن وأنتم، لا يَختلف فيها أهل التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن.

ثم فسَّر هذه الكلمة بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بل نُفرده وحده بالعبادة، كما جاءت بذلك جميع الرُّسُل، فلا نتخذ وثنًا ولا صنمًا ولا صليبًا ولا طاغوتًا ولا غير ذلك، ولا يَدين بعضُنا لبعض بالطاعة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُطيعونهم في الأمر والنهي، والتحليل والتحريم من غير رجوع إلى الشَّرْع، ولا يَسجد بعضُنا لبعض؛ لأن السجود لا يكون إلا لله، ولا نُطيع أحدًا في معصية الله، بل تكون الطاعة كلها لله والرسول، فإن طاعة المخلوق فيما هو من خصائص الألوهية تجعله في منزلة الربوبية، فإن أجابوك كانوا مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فهم معاندون، متّبعون أهواءهم، فأشهِدوهم أنكم مسلمون، فإذا أسلمتم وآمنتم، فلا يضر عدم إسلامهم لخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] وورود الشبهات على العقيدة الإسلامية يوجب على المؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن إسلامه، وأهل الكتاب قد عبدوا غير الله تعالى وأشركوا معه غيره:

وذلك أن النَّصَارَى عبدوا غير الله، وأشركوا به: الأب والابن وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، واتخذوا أحبارهم ورُهبانَهم أربابًا من دون الله، فأطاعوهم فيما أَحلوا لهم، أو حرموا عليهم، فثَبَتَ بهذا أن النَّصَارَى جَمعوا بين هذه الأنواع الثلاثة من الشِّرك.

وأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، فقل لهم أيها الرَّسُول: تعالوا إلى أمر منصف عدل، فلا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، فكل منهما بشَر مخلوقٌ لله، ولا نُطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من تحريم وتحليل ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد وأعرضوا عن هذه الدَّعْوة الطيبة، وما أمرتهم به، فأشهدوهم على استمراركم على الإسلام، وقولوا لهم: اشهدوا علينا بأنا مسلمون مخلِصون لله بالتوحيد والعبادة مُنْقَادُون له بالطاعة والإخلاص.

وهذه الدَّعْوة مَوَجَّهَةٌ لكل مَن لم يُؤمن بالله ربًّا ولا بالإسلام دينًا، ولا بالقرآن كتابًا، ولا بمحمد نبيًّا، ولا بالكعبة قبلةً، ولا بالحساب والجزاء ثوابًا وعقابًا.

في الصحيحين عن ابن عباس ﷺ أن أبا سفيان كان مع ركْب من قريش في تِجارة بالشام، فدعاهم هرقل في مَجلسه وحوله عظماء الرُّوم، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دَحْيَة الكلبي إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يُؤتِكَ الله أجرك مرتين، فإن توليتَ فإنما عليك إثم الأريسيِّن، و**﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾»(١).

والأرِيسيِّين: قيل: هم الفلاحون والمزارعون، وقيل: هم أتباع عبد الله بن أريس، بعثه الله فخالفه قومه، وقيل: هم الأشراف والملوك الذين يُخالفون أنبياءهم.

النِّدَاءُ الثَّانِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ: النَّهْيُ عَنِ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ

٦٥- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

ثم أنكر الله على اليهود مُحاجتهم في إبراهيم، وأبطل دَعْوَى كل من اليهود والنَّصَارَى أنه منهم، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يا أصحاب الكتب المنزلة على اليهود والنَّصَارَى، كيف يُجادل كل منكم في أن إبراهيم كان على دِينه ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وتَختصمون في

(١) البخاري (٧، ٢٩٣٦، ٢٩٧٨، ٧١٩٦) ومسلم (١٧٧٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٤) وعبد الرزاق (٩٧٢٤).

شأنه، وكل منكم يَزعم أنه على مِلَّتِه ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فقد نزلا بعد إبراهيم بزمانٍ طويلٍ، فبيْن إبراهيمَ وموسى ألف سنة، وبيْنه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دينٍ لم يحدث إلا بعد عهده بزمنٍ بعيدٍ.

وقد ردّ الله تعالى جدالهم في شأن إبراهيم عليه السلام من **ثلاثة أوجه**:

الوجه الأول: أنهم يجادلون في أمر ليس لهم به علم.

الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى التوراة، والنصارى ينتسبون إلى الإنجيل، وكلاهما نزل بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو متقدم عليهم.

الوجه الثالث: أن الله تعالى برّأ خليله من اليهود والنصارى، والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا، وجعل أوْلى الناس به محمد وأمته، فهم الذين اتبعوه.

وهكذا: فقد أخبر الله سبحانه بأن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا، فثَبَتَ ما قاله المسلمون، وبَطَلَ ما ادَّعاه اليهود والنَّصَارَى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطأ قولكم وبطلانه حتى تُجادلوا هذا الجدال المحال، فلا يَصح إذن ما تزعمونه من وراثة كل منكم لدين إبراهيم، واحتكار النُّبوَّة في نَسْله، والولاية على دينه، فالتوحيد والشِّرك لا يلتقيان، وأنتم على عقيدة منحرفة ضالَّة، فتشكيك المسلمين في أنهم الوارثون للحنيفية السَّمْحَة، ادِّعاءٌ كاذبٌ، لا يَستند إلى دليل، وقول الله تعالى هو القول الفصل الذي لا يَبْقَى معه قولٌ لقائل.

قال ابن عباس: اجتمعتْ نَصَارَى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقالت النَّصَارَى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا، فأنزل الله الآية(١).

وقال القرطبي: نزلتْ هذه الآية بسبب دَعْوَى كل فريق من اليهود والنَّصَارَى أن إبراهيم كان على دِينه، فأكذبَهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾(٢).

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق.

(٢) «تفسير الطبري» (٤/ ١٠٧).

والمعنى: أنه لا يسوغ لكم - يا معشر اليهود والنَّصَارَى - أن تُجادلوا في دين إبراهيم وشريعته؛ فإن التوراة و الإنجيل نزلا مِن بعده بأزمان طويلة، فكيف يَدين بالتوراة مع أنها لم تكن نزلت؟! وكيف يَدين إبراهيم بالإنجيل مع أنه لم يَنزل من بعده إلا بآلاف السنين؟! إن هذه المُحاجة ظاهرةُ البطلان واضحةُ الفساد، وهو جَهل فاضح؛ لأن وجودَ إبراهيم كان سابقًا على وجودهما بأزمانٍ طويلةٍ.

فنُفِي عن إبراهيم موافقة اليهود، وموافقة النَّصَارَى، وموافقة المشركين، وأُثبِتَتْ موافقتُه للإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ؛ وذلك لِمَا عليه المشركون من الوثنية، ولِمَا طرأ على اليهودية والنصرانية من الشِّرك والتحريف.

ويؤخذ من الآية: النهي عن الجدال بغير علم، لأنه يتكلم في أمر لا يعرفه، وبالتالي فلا ينبغي أن يُمكّن منه ولا يُسمع له فيه، وفي هذا رد لكثير من الأقوال الباطلة والدعاوَى الكاذبة، قال تعالى:

٦٦- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

ومن هنا جاء الإنكار على مَن تكلَّم فيما لا عِلْمَ له به ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ يا هؤلاء جادلتم رسول الله ﷺ فيما لكم به علم مِن أمر دينكم، مما تعتقدون صحتَه في كُتبكم، وادَّعيتم أنكم على دينه، فلِمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم؛ من دَعْوَى أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا؟! ولو أنكم تَحاورتم فيما يتعلق بشريعتكم التي شُرعت لكم، لكان أَوْلَى بكم، وإنما تَكلمتم فيما لا علم لكم به، مما مردُّه إلى عالِم الغيب والشهادة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فعِلْمُ الحقائق كلها عند الله، وأنتم تَجهلونها.

ثم قرر الله الحقيقة، وحسم نتيجة الخلاف فقال:

٦٧- ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾

وهكذا بَرَّأَ الله تعالى إبراهيم عمَّا قالوه، وكفى عنه ردّ ما نسبوه إليه في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ كما زعمتم فلم توجد اليهودية ولا النصرانية إلا من بعده، ثم وصفه بما كان عليه من الدِّين فقال ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ مُتَّبِعًا لأمر الله وطاعته،

مائلًا عن الشِّرك إلى الدين المستقيم، والإيمان الصحيح، مستسلمًا لأمر ربِّه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا عزيرًا أو المسيح، فإبراهيم بريءٌ من الشِّرك الذي أنتم عليه، وبريءٌ من كلِّ دينٍ يُخالف الإسلام.

وقيل: إن الآية نزلت في المشركين الذين ادَّعوا أنهم على دين إبراهيم في مَجلس النجاشي، وهو يحاورهم في مقابلة وفد المسلمين، فنزلتْ في خصومتهم في إبراهيم، وإثبات أنه لم يكن مشركًا؛ بل كان حنيفًا مسلمًا.

أَحَقُّ النَّاسِ بِالنَّسَبِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ

٦٨- ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ[١] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن أحقَّ الناس بإبراهيم، وأخصَّهم به، وأقربَهم منه متابعةً لدينه **ثلاثة أصناف** من الناس؛ هم:

١- الذين اتبعوا إبراهيم، وأجابوا دعوته في حياته، وبعد مماته.

٢- و اتبعوا النَّبِي محمدا ؛ لمجيئه بالتوحيد الخالص.

وأتباع إبراهيم، هم الذين اتبعوه في زمانه، وآمنوا به وصدَّقُوه، واتبعوا شريعتَه.

﴿وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ومن صدَّقوه من هذه الأمة، ومَن تبعهم ممَّن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به بالنصر والعون، ما داموا مُتبعين لشرعه.

رَوَى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لكل نبيٍّ وُلَاةً من النَّبِيين، وإن وَلِيِّي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم** ﷺ» ثم قرأ الآية[٢].

---

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (النَّبِيء)، والباقون بالياء المشددة.

(٢) من حديث ابن مسعود في «المستدرك» (٢/ ٢٩٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و«سنن الترمذي» برقم (٣١٩٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٩٤) والمشكاة (٥٧٦٩) التحقيق الثاني وهو في «تفسير الطبري» (٦/ ٤٩٨) إبراهيم (٧٢١٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح مُتصل، وهو أيضًا في «سنن سعيد بن منصور» برقم (٥٠١) وابن أبي حاتم (٢/ ٢٩٢) والطبري (٥/ ٤٨٩)، والحديث في المسند (٣٨٠٠) بإسناد ضعيف، لأن أبا الضحى، لم يدرك ابن مسعود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: وقد تكلم محققو المسند كثيرا في انقطاع الحديث واتصاله، فمن قال بانقطاعه ضعفه ومن قال باتصاله حسنه ومنهم الألباني.

سَبَبُ الْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ عِنْدَ الْيَهُودِ

٦٩- ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم يَكشف الله سبحانه عمَّا يُريده أهل الكتاب من وراء هذا الجدال وهذا المِراء، فيواجه أهل الكتاب بكيدهم ومكرهم وتدبيرهم، ويمزِّق القِناعَ عن وجوههم، فهم يبذلون جُهدهم لإضلال هذه الأمة، ويَكرهون لها أن تَهتديَ إلى عقيدتها، ويعملون على إخراجهم من دينهم، وهذا مِن حسد اليهود وبغيهم.

قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] ومعلوم أن من ودّ شيئا سعى جاهدا في تحصيله، فهم يبذلون الجهد في رد المؤمنين عن دينهم وإدخال الشبه عليهم بكل طريق،

ومما ورد في سبب النزول: أنها نزلت في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، حين دعاهم اليهود إلى الدخول في دينهم، ليردُّوهم بعد إيمانهم كفارًا ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾(١).

والمراد بالطائفة: جماعة منهم؛ وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فقد دعَوْا هؤلاء الثلاثة إلى الخروج من الإسلام.

هذا: والضلال يكون **بطريقين**:

أحدهما: خَلْط الحقِّ بالباطل حتى لا يتميز أحدهما من الآخر.

وثانيهما: جَحْدُ الحقِّ وإخفاؤه حتى لا يظهر للناس.

والمراد بهذه الآية النوع الثاني؛ وهم الذين يجحدون الحق ويخفونه، لصرفكم عن الإسلام بإخراجكم من دينكم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وأتباعهم؛ لأن وَبَالَ ضلالهم يعود عليهم، فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فهم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم قال

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ولأن المؤمنين لن يقبلوا قولَهم، فيعود الإثم عليهم بتمنِّيهم ذلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يسعون في ضرر أنفسهم، فهم لا يعلمون ذلك، ولا يدْرُون أن الضَّرر يعود عليهم، فالمسلمون مَكْفِيُّونَ أمرَ أعدائهم، والله سبحانه يتولى ردَّ كيد أعدائهم عنهم، ما داموا مُستقيمين على إسلامهم.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: يَفْضَحُ كِتْمَانَهُمْ دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ

٧٠- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثُمَّ يَفضح الله حقيقة أمرهم في هذا النداء والذي يليه على مدار التاريخ، وذلك أنهم يَرتكبون أكبر الذنوب وأعظمَها؛ وهو الكُفْر بالله تعالى، وفيه الكُفْر بالوحي المُنَزَّل على محمدٍ ﷺ، وليس بعد الكُفْر ذنبٌ، وهذا الكُفْر ليس لنقص في الدليل، ولكن للهَوَى والمَصلحة، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لِمَ تكفرون بالقرآن، مع علمكم أنه من عند الله، ولِمَ تكفرون بدلائل نبوة محمد مع علمكم أنكم على باطل، وأن ما جاءكم به محمد هو الحق الذي لا شك فيه، ولمَ لا تصدقون بالبشارة به في التوراة والإنجيل، وتنكرون القرآن، وتنكرون نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك، ولكنكم تَجحدون، ودليل ذلك أنهم كانوا إذا خَلَا بعضُهم ببعضٍ أظهروا صِدْقَ محمدٍ ﷺ، وشهدوا أن القرآن حقٌّ فيما بينهم، فإذا كانوا مع المسلمين كَتَمُوه، فهم يَشهدون بصدق الرَّسُول في الواقع، وينكرونه في الظاهر، ثم وبخهم الله تعالى على إضلالهم الخلق:

النِّدَاءُ الرَّابِعُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: عَدَمُ خَلْطِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ

٧١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

إن اليهود يُشككون في الإسلام، وفي رسول الإسلام، وفي تراث الإسلام (القرآن) منذ بداية تَحريف الديانتين إلى وقتنا الحاضر؛ فخلطوا الإيمان برسولهم بالكُفْر بالنَّبِي الخاتَم، وخلطوا بين ما يعلمونه بقلوبهم عن صحة دعوة الإسلام، بما يقولونه بألسنتهم، وخلطوا الحقَّ الذي نَزَلَ من عند الله، بما حرَّفوه وبدَّلوه، وزعموا زورًا وبُهتانًا أن التوراة لا

تُنسخ، والقرآن يوبخهم على أمرين، يضلون بهما من انتسب إلى الإسلام، وهما: خلط الحق بالباطل لعدم التمييز بينهما، وكتمان الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ومن ذلك كتمان أوصاف محمد ﷺ.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بإدخال الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة فيه ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ بما حَرَّفتم وغيَّرتم، وأخفيتم من صِفَةِ محمد ﷺ في كتبكم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن دينَ محمدٍ حقٌّ، ولكنكم بذلتم الجُهد على مدى التاريخ للدَّس في التاريخ الإسلامي والحديث النبوي والتفسير بالإسرائيليات.

وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب أن يظهروا للناس الحق ولا يكتمونه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وقد تابع اليهودَ الصليبيون في ذلك، ولم تَزَلْ جهود المستشرقين وتلاميذهم على قَدَمٍ وساقٍ، ومع هذه المحاولات فإن الله تعالى حَفِظَ كتابه من التحريف والتبديل، فلو تَغيَّرت حركةٌ فيه لضجَّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ولقد قَيَّض الله للسُّنَّة رجالًا جرَّحوا وعدَّلوا وميَّزوا الصحيح من غيره، وردَّ الله كيدَ الأعداء في نُحورهم.

الْيَهُودُ يُشَكِّكُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقِيدَتِهِمْ

٧٢- ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

تشكيكُ المسلمين في عقديتهم، طريقةٌ خبيثةٌ ماكرةٌ، من أقوى ما تَفَتَّقَ عنه تدبيرهم الشيطاني، فكانوا يُظهرون بألسنتهم الدخول في الإسلام، ثم يرجعون عنه؛ لإحداث بلبلة وتشكيك عند المسلمين؛ لأنهم إذا رأَوْهم يرتدُّون عن الإسلام، يعتقدون أنهم رجعوا عنه لنقصٍ أو علَّةٍ فيه؛ بسبب أنهم على عِلْمٍ بالكتب السابقة، وبإظهار الكُفْر بعد الإيمان، يَدخل الشكُّ في قلوب ضِعَافِ الإيمان، خاصةً الأمِّيون منهم.

وهذه أربعة أمثلة لمكر اليهود وحيلهم:

١- قال مجاهد ومقاتل: صلَّتِ اليهود مع النَّبِي ﷺ صلاةَ الفجر، وكفروا آخر النهار مكرًا منهم؛ ليُرُوا الناس أنه قد بَدَتْ لهم الضَّلالة بعد أن اتبعوه[١]

وهذا من تلبيسات اليهود.

٢- وقال السدي والحسن: تواطأ اثنا عشر رجلًا من يهود خيبر، فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمدٍ أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب، ثم اكفروا آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كُتُبِنا فظهر لنا كذبُ محمدٍ، وأنه ليس المنعوتَ عندنا، فإذا فعلتُم ذلك شَكَّ أصحاب محمدٍ في دينه واتهموه، وقالوا: إن أهل الكتاب أعلمُ به منَّا، فيرجعون عن دينه[٢].

٣- وقيل: إنه لمَّا حُوِّلت القِبلة، قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا؛ أي: صلُّوا إلى الكعبة أول النهار، ثم ارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار، لعلهم يرجعون إلى قبلتنا، بعد أن ألقينا عليهم الشُّبْهَة.

٤- وأخرج الطبري عن قتادة بسند حسن، أن بعضَهم قال لبعض: أعطوهم الرِّضى بدينهم أول النهار واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يُصدِّقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تَكرهون، وهو أجدر أن يَرجعوا عن دِينهم.

ولمَّا دبروا هذه الحيل؛ أخبر الله رسوله بهذه الآية، فلَمْ يتم لهم ما أرادوا، ولم يَحصل أثرٌ من شَكٍّ في قلوب المسلمين.

وقد لجأتِ القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى أساليبَ متعددةٍ من هذا القبيل عن طريق فلاسفة وباحثين وكُتَّاب وشُعراء وفنَّانين وصحفيين؛ لخلخلة عقيدة المسلمين في صورة: بحث، وعِلْم، وفن، وتقدُّم، وحضارة، وحقوق، ومساواة، وعلْمنة، وصِحَافة، وحريةِ رأي، والرأي الآخر، والاتجاه المعاكس، وقد يكون هؤلاء من المسلمين بالهوية، وهم بذلك يؤدُّون دوْرَ أهل الكتاب القديم.

---

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري، والطبري بسند صحيح وابن كثير (٢/ ٥٩).

(٢) النيسابوري (٩٣) و«تفسير القرطبي» (٤/ ١١٢).

والمُتَتَبِّعُ لمراحل التاريخ قديمًا وحديثًا يرى أن الدهاة في السياسة والحرب يَتخذون إيقاع الشك والحَيْرة والاضطراب في قلوب الناس ذريعةً لإشاعة الخَلل والاضطراب في صفوف أعدائهم.

قال الشيخ محمد عبده: هذا النوع الذي تَحكيه الآيات من صدِّ اليهود عن الإسلام، مبنيٌّ على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألَّا يرجع عنه مَن يعرفه، وقد فَقِه هذا هرقل ملك الروم، فكان ممَّا سأل عنه أبا سفيان من شؤون النَّبي ﷺ أن قال له: هل يرتدُّ أحدٌ مِن أتباع محمدٍ سخطًا لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان -وهو يومئذ على كُفْره: لا.

وقد أرادتْ هذه الطائفة أن تغُشَّ الناس من هذه الناحية؛ ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بُطلان الإسلام لَمَا رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطَّلعُوا على خوافيه وبواطنه، إذ لا يُعقل أن يَترك الإنسانُ الحقَّ بعد معرفته لغير سبب[١].

ثم إن إخبارَ الله تعالى لنبيِّه بما يَكشف نواياهم هو من باب الإخبار بالغيب، ولمَّا أَطْلَع الله المؤمنين على هذه النوايا الخبيثة لم يَعُد لها أثرٌ بعد معرفتهم لها، ثم إن الله تعالى قد فَضَحَ حيلَهم؛ ليكون هذا ردعًا لأمثالهم ممن يُقدم على الحِيل الخبيثة[٢].

إحَاطَةُ التَّشْكِيكِ فِي الْإِسْلَامِ بِالسِّرِّيَّةِ التَّامَّةِ والرَّدِّ عَلَيهِمْ

٧٣- ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ[٣] أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

لمَّا قال بعض اليهود لبعض: تظاهروا أول النهار بالإسلام، واكفروا آخره لعلهم يَرجعون عن الإسلام، قال بعضهم لبعض: ولْيكن هذا سرًّا بينكم، لا تُبدونه، ولا تَأْتمنوا عليه إلا أهلَ دينكم، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ متصلٌ بكلام

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٢٣).

(٢) يُنْظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٨/ ١٠١).

(٣) قرأ ابن كثير (أأن يؤتى) بهمزتين، ثانيتهما مُسهلة من غير إدخال ألف بينهما على الاستفهام التوبيخي، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الإخبار.

اليهود؛ أي: لا تُفْشُوا أمرَكم، وتُظهروا سرَّكم إلا لمَن وافقَ مِلَّتَكم التي أنتم عليها وهي اليهودية؛ وذلك **لسببين**:

السبب الأول: حتى لا يَحتجوا به عليكم، فلا تُظهروا ما عندكم من العِلْم للمسلمين، حتى لا يتعلموه منكم، فيساووكم في العِلْم به، وتكون لهم الأفضلية عليكم، واثبتوا على ملازمة دين اليهودية.

وهذا تعليلٌ لِمَا سبق من ضرورة الإسرار بما عندهم من العِلْم، ومنه نَعْتُ النَّبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وهو من باب الحقد والحسد والنِّقْمَة.

السبب الثاني: حتى لا يُحاجُّوكم يوم القيامة عند ربكم بالحقِّ، ويغلبوكم بالحُجَّة، فلا تصدقوا محمدًا بالنُّبُوَّة، وانظروا فيمَن ادَّعى النُّبُوَّة، إن كان متبعًا لدينكم فصدقوه، وإلا فكذبوه، ولا تَعترفوا لأحد بالنُّبُوَّة؛ حتى لا يُؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنُّبُوَّة.

والغرض من هذا نَفْيُ النُّبُوَّةِ عن محمدٍ ﷺ في الظاهر، وكأن الله تعالى لا يعلم سرهم ﷻ، وهذه مقولةٌ لا تَنِمُّ عن إيمان صحيح.

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ هذا هو السبب الأول.

أي: حتى لا يحصل لهم من العلم مثل ما حصل لكم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ هذا هو السبب الثاني، أي حتى لا يقيموا عليكم الحجة عند ربكم فيغلبوكم.

وهكذا فقد جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعًا عنهم العلم، وموجبًا لإقامة الحجة عليهم، وقد لقَّن الله رسوله الرد عليهم: قل لهم يا محمد: إن الفضل والعطاء كلَّه بيد الله، يُؤتيه من يشاء، ومنه نُبوة محمد ﷺ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومن الفضل: الهداية والتوفيق للحقِّ، والله تعالى يَسَعُ بعلمه وفَضْلِه جميع مخلوقاته ممَّن يستحق فضلَه ونعمتَه، وفي هذا ردٌّ على حَسَدِهم للمسلمين، وبيان أن الهدى من الله، ولا موفَّق إلا من وفقه الله ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، وقد شاء الله تعالى أن يَجعل الرسالة والكِتاب في غير أهل الكتاب، لمَّا فقدوا الأهلية لهذا المنصِب، وعجزوا عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقستْ قلوبهم، وتجرؤوا على ربِّهم، ورفضوا أمرَه ونهيَه.

وبناء على ما سبق فإن الآية إما أن تكون من كلام اليهود، وإما أن تكون خطابًا من الله تعالى

للمؤمنين، فإن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملة معترضة بين كلام اليهود.

ومعناه: أن ما أنتم عليه -معشر اليهود- هو بأمر الله وحكمه، فإذا أَمَر الله بدِين آخر فعليكم اتِّباعه.

أو يكون المعنى: أن الهدى من الله لمَن شاء هَدَاهُ، فيُسلِم وَيثْبُت على الإسلام، وأن كيدهم للإسلام لا ينفع.

وقد تكون الآية كلُّها خطابًا موجهًا من الله تعالى للمؤمنين، يُثبِّت به قلوبَهم حتى لا يشكُّوا في تلبيس اليهود وكيدهم.

فلا تصدِّقوا أيها المسلمون إلا مَن اتبع دينكم الإسلامي، ولا تأمنوا مكر اليهود والنَّصَارَى؛ وعليه فالجملة ليست معترضة.

والله واسع الفضل، كثير الإحسان، عليم بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يصلح فيحرمه:

٧٤- ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

والله سبحانه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِن خَلْقه بالنُّبُوَّة والهداية وغيرهما ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا فضلَ أعظمُ مِن فَضْله على أمةٍ بالهُدىٰ، ولا رحمةَ أفضلُ من النُّبُوَّة والرِّسالة، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا.

اسْتِحْلَالُ الْيَهُودِ لِأَمْوَالِ غَيْرِهِمْ

٧٥- ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ(١) إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ(١) إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة من (يؤده) في الموضعين معا واوًا خالصة، وأسكن هاءها أبو عمرو وشُعبة وحمزة، واختلس كسرتَها قالون، وقرأ أبو جعفر بالإسكان والاختلاس فيها، وقرأ ابن ذكوان بالاختلاس وإتمام الحركة مع الإشباع، وقرأ هشام بالإسكان والاختلاس والإشباع، وقرأ الباقون وهم: ابن كثير وحفص والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإشباع كسرة الهاء فيهما، وَوَصَل الهاء بحرف مدٍّ ورش، والباقون بدون صلة.

ثم يَمضي السياق لِيصف أهل الكتاب بالنسبة للوفاء والخيانة في الأموال بعد أن ذَكَر ما هم عليه من خيانة في الدين وكتمان للحق، وخُبث ومكر وكيد للإسلام وأهله، فتصف اليهود على وجه الخصوص من الناحية المالية والدينية، حيث خانوا الله فحرَّفوا كتابه، وخانوا الناس فاستحلُّوا، أكلَ أموالِهم بالباطل، وقد يقول قائل: لماذا نَجد القرآن يَذكر مساوئ اليهود ويُعدِّد عيوبَهم ولا نَجده يمدحهم ويُثني عليهم؟

قلت: هذا غير صحيح؛ فالقرآن الكريم يُنْصف اليهود والنَّصَارَى وغيرهم، ولا يبخسهم شيئًا ولا يغْبُنُهم في شيء، والمتأمل لآيات القرآن الكريم يَجد أن الله ﷻ يَذكر لنا أخلاق اليهود ويبيِّنها؛ كي نتعلم كيف نتعامل معهم، ونتعرف على طبائعهم وأخلاقهم التي وضَّحَها ربُّ العالمين في كِتابه، وفي مواضعَ من الثناء عليهم يَستحقونها فإن القرآن الكريم يَمدحهم ويذكُر محاسنَهم، ولا يبخسُهم شيئًا.

من ذلك قول الله سبحانه عن اليهود: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف] أي: أن جماعة مِن اليهود مِن أتباع موسى مستقيمين على الحق، يهدون الناس به، ويَعدلون به في الحُكم في قضاياهم.

ومن ذلك أن الله ﷻ لمَّا ذكر جرائم اليهود وفضائِحَهم في هذه السُّورَة، قال سبحانه في نهايتها: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي: أن اليهود ليس بعضُهم كبعضٍ، بل منهم الصالح ومنهم الطالح ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وهذا ثناءٌ منه سبحانه على مَن دخل منهم في الإسلام، وحَسُن إسلامه كعبد الله بن سلام وغيره.

ومن ذلك هذه الآية التي معنا، الخامسة والسبعون من سورة آل عمران وما بعدها، فهي تتناول أنواع التعامل والتعاقد بالنسبة لليهود.

فالله ﷻ يبيِّن فيها أن مِن أهل الكتاب مِن اليهود مَن إن تأمنه على مالٍ كثيرٍ من الذهب وغيره يُؤده إليك من غير خيانة، وافيًا كاملًا غيرَ منقوصٍ.

ومِن اليهود مَن إن تأمنه بدينارٍ فأقل؛ أي: بمال ولو قليل، فإنه لا يؤديه إليك، ولو كان مكتوبًا، أو في أمانته، فهو يُماطِلُك، وتَبذل غايةَ الجُهد في مطالبته دون جدوى.

ومن أمثلة الفريق الأول: ما ورد أن عبد الله بن سلام وهو يهودي لمَّا أسلم ائتمنَه رجلٌ من قريش على ألف ومئتيْن أوقية من الذهب؛ فأداها إليه وافيةً كاملةً، فأَثْنَى الله تعالى عليه وعلى أمثاله، ممَّن يؤدون الأمانة ويوفُّونها حقَّها في هذه الآية.

ومن أمثلة الفريق الآخر: أن رجلًا يهوديًّا يُسمى فنحاص ابن عازوراء ائتمنه رجلٌ من قريش على دينار؛ فخانه ومَاطَلَه وأنكره، وظل قائمًا عليه يطالبه به كي يؤديَه له.

ثم بيَّن الله ﷻ السبب في أن اليهود يَأكلون أموالَ غيرهم، ولا يبالون بذلك، سواء أكان عن طريق الرِّبا، أم عن طريق أكل المال بالباطل أم غير ذلك، بزعم أن العرب ليست لهم حرمة، فهم يجمعون بين أكل الحرام واعتقاد حله.

إنها عقيدة فاسدة تَجعلهم يستحلُّون أموال الناس بالباطل، ويقولون: ليس علينا إثمٌ ولا حرجٌ في أكل أموالهم؛ لأن الله قد أحلها لنا، وهم بهذا يَكذبون على الله بألسنتهم، ويعلمون في أنفسهم أنهم كاذبون، وهذا أعظم إثما من القول على الله بغير علم، إنهم ينسبون ذلك إلى الله سبحانه ويقولون: إن دينهم يأمُرُهم بهذا، وأنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن غيرهم من الخلْق خُلقوا من نطفة أخرى، وهم بمنزلة العبيد لهم، لا سِيَّمَا العرب.

وهم في القرآن يُسمَّوْن بالأميِّن، فإنه يجوز لهم -فيما يزعمون- أن يأكلوا أموالَهم، لا حرج عليهم في ذلك ولا إثم، فإنهم عندهم كالعبيد، والعبد وما ملكتْ يداه لسيِّده.

ومن ذلك أنه يجوز لليهودي في شريعته المحرَّفة أن يَزني بغير اليهودية، وأن يَسرق غير اليهودي، وأن يَقتل غير اليهودي ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾

والأمِّيُّون: هم غير اليهود، من عرب وغير عرب؛ ممن لم يبعث فيهم نبي، أي: ليس علينا حرجٌ ولا إثمٌ في أن نأكل أموال غيرنا، وأن نتعامل هكذا مع غير اليهود، فهم جنسٌ آخر، من نطفة غير النطفة التي خُلقنا منها، ولمَّا قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ كذَّبهم الله سبحانه وبيَّن أن قولهم هذا باطل ومُفْتَرَى، لا أساس له فقال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذب.

قال رجل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنا نُصيب في الغزو، ونحن نُجاهد في سبيل الله من

أموال أهل الذِّمة، الشاة والدجاجة ونحو ذلك، هل يَحل لنا هذا؟ قال عبد الله بن عباس ﷺ: فماذا تقولون حين تستحلون هذه الشاة أو هذه الدجاجة؟ قال: نقول ليس علينا بأسٌ؛ أي: إثم ولا حرج، قال عبد الله بن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: أن هذا لا يَحل لكم، ولو كانوا أهل ذمة، ولو كانوا مخالفين لكم في الشريعة، فإنه لا يَحل لكم أن تأخذوا شيئًا من أموالهم إلا بطيب نفس، ما داموا أهل ذمة لا يحاربونكم[1].

وعن سعيد بن جبير أن اليهود لما قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «**كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر**»[2].

وبهذا نرى أهل الكتاب فريقين: فريقًا يُؤدي الأمانة ولا يَخون، وهم الذين مدحهم الله تعالى، وفريقًا لا يؤدي الأمانة ويَستحل الخيانة، وهم الذين ذمَّهم الله تعالى؛ لأنهم يَحتقرون غيرَهم، ويستخفون بحقوق المخالِفين لهم في الدين.

وقد جَرَّأَهُم على هذا، تحريفُهم لنصوص التوراة، وسوء فهمهم لبعضها، فقد جاء في سِفْرِ التثنية، الإصحاح الثالث والعشرين (لا تقرض أخاك برباً فضة، أو ربا طعام، وللأجنبي تقرض بربا).

وعن ابن الكلبي قالت اليهود: الأموال كلُّها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنْ هم ظلمونا وغصبونا فلا إثمَ علينا في أخذ أموالنا منهم[3].

والأصل أن الرِّبَا مُحرَّم في الشرائع كلِّها، فقد جاء في التوراة (لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضتَه) فحرَّف اليهود هذا النص هكذا (لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته).

هذا: ومَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومَن أخذها يُريد إتلافها أتلفه الله.

عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعضَ

---

(١) رواه عبد الرزاق عن صعصعة بن يزيد (١/ ١٢٣) وقد ذكرتُه بالمعنى، وأخرجه الطبري (٥/ ٥١٢) وابن المنذر (٢٢٩) وابن أبي حاتم (٣٧١١).

(٢) ابن أبي حاتم (٢/ ٣٤٩)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٥٢٢) وهو مرسل.

(٣) «تفسير الألوسي» (٢/ ٥٠٢).

بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهدهم، فقال: كَفَى بالله شهيدًا، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقتَ، فدفعها إليه على أجلٍ مُسمى.

فخرج في البحر فَقَضَى حاجتَه، ثم التمس مَرْكبًا يركبها يُقْدم عليها للأجل الذي أجَّله، فلم يَجد مركبًا، فأخذ خشَبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعه، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنتُ تسلَّفتُ فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرَضِيَ بذلك، وسألني شهيدًا فقلتُ: كفى بالله شهيدًا، فرضِي بذلك، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني استوْدَعتكَها، فرمَى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذي كان قد أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدِم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله مازلتُ جَاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك بمالك فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه، قال: هل كنت بعثْتَ إليَّ بشيء؟ قال: ألم أُخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئتُ فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثْت في الخشبة، فانصرفْ بالألف دينار راشدًا[1].

ثم رد الله تعالى على اليهود زعمهم الفاسد الذي يستحلون به أكل أموال الناس فقال:

٧٦- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾

على القارئ أن يقف على ﴿بَلَىٰ﴾ استحبابًا، ثم يستأنف القراءة بعدها.

وقد بيَّن سبحانه أنه ليس الأمر كما زعموا، بأنهم ليس عليهم في الأميين سبيل، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بل عليهم أعظم الحرج وأكبر الإثم في أكل أموال غيرهم بالباطل.

والوفاء بالعهد يشمل العهد الذي بين العبد وربه في جميع ما أوجبه الله عليه من

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٨، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٧٣٤، ٦٢٦١) أورده معلقًا وموصولًا، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤٨) عن يونس بن محمد عن الليث، وهو في «البداية والنهاية» (٢/ ١٢٨).

حقوق، ويشمل العهد الذي بين العبد وبين سائر الناس من العقود والأمانات وسائر الحقوق والعهود، فمن وفي بهذه العهود فهو من المتقين المحبوبين عند الله تعالى.

والمعنى: لكن مَن أَوْفَى وأدَّى الأمانة، فإن الله تعالى يُحبه، ورَبَطَ القرآن الكريم ذلك بتقوى الله سبحانه فقال: ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ وهذا الوَفِيُّ التقي هو الذي يُحبه ربُّ العالمين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى ترك المعاصي فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الخلق، سواء أكان من الأميين أم من غيرهم، فمن قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ لم يوفِّ بعهده ولم يتق الله، فليس ممن يحبهم الله، وإذا عُرف الأميون بالوفاء بالعهد وتقوى الله تعالى، وعدم أكل أموال الناس بالباطل، كانوا هم المحبوبين عند الله تعالى، وليس كما تدَّعون مِن أنكم أبناء الله وأحباؤه، هذه صورة من صور التعامل مع اليهود جاء ذكرها في الآيتين الأخيرتين.

والذين يقولون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ داخلون في الآية التالية:

وَعِيدُ اللهِ لِلْيَهُودِ بِخَمْسِ عُقُوبَاتٍ

٧٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ(١) يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ(١) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

يدخل في هذه الآية: كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ترك حق من حقوق الله، أو حقوق عباده، وكذا كل من حلف يمينًا يقتطع بها حق أحد من خلق الله.

وهذه صورةٌ أخرى في التعاقد والتعامل مع اليهود تحكيها لنا هذه القصة: وهي أن رجلاً من الصحابة اسمه (الأشعث بن قيس الكندي) كانت له بئرٌ، اغتصبها منه أحد اليهود، ثم طلبها منه فلم يُعطِها له، وليس عنده بيِّنة، ولا شهود ولا عقد ولا كتابة، فذهب إلى النَّبي ﷺ وأخذ معه اليهودي يَختصم عند الرَّسُول ﷺ، فقال النَّبي ﷺ للصحابي: «**ألك بيِّنة وشاهدان؟**» قال: لا، قال لليهودي: احلف، قال الأشعث: إذًا يَحلف ولا يبالي، ويَذهب بمالي، فأنزل الله سبحانه(٢) يبيِّن جُرم هذا اليمين الكاذب، فهي يمينٌ فاجرة

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء في (إليهُم، ويزكيهُم) وحمزة بضم الهاء في (إليهُم) فقط، وَوَصَلَ ميمَ الجمع فيهما بحرفِ مدٍّ طبيعيٍّ ابنُ كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

(٢) يُنْظَر: الحديث في البخاري (٢٤١٦، ٧٤٤٥) ومسلم (١٣٨) وأبو داود (٣٢٤٣) والترمذي (١٢٦٩) والنسائي (٥٩٩١) وغيرهم عن ابن مسعود.

يَغتصب الحالف بمقتضاها حقَّ أخيه؛ من أرض أو مال أو متاع أو نحو ذلك.

وقد بيَّن النَّبي ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن **«مَن حلف على يمين صبرٍ، يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لَقِيَ الله وهو عليه غضبان»**[١].

واختصم رجل من حضرموت وامرؤ القيس بن عابس عند النَّبي ﷺ في أرض، فقَضَى على الحضرمي بالبيِّنة، فلم يكن له بيِّنة، فقَضَى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرميُّ: إن أمْكَنْتَهُ من اليمين يا رسول الله، ذهبتْ أرضي؟ فقال النَّبي ﷺ: **«مَن حلف على يمين كاذبة؛ ليقتطع بها مال أحد لَقِيَ الله ﷻ وهو عليه غضبان»** وتَلَا رسول الله الآية، فقال امرؤ القيس: ماذا لمَن تركها يا رسول الله؟ فقال: **«الجنة»** قال: فاشهد أني قد تركتُها له كلها[٢].

وهذا هو اليمين الغموس الذي يُغمَس صاحبُه في النار، وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية تضع قاعدةً عامة إلى الخَلْق جميعًا حتى يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: أن مَن يَحلف بالله كذبًا؛ لينال به شيئًا من حُطام الدنيا، يأخذه من حقِّ أخيه، ماذا له من عقوبة؟

انظروا إلى هذه العقوبة الشديدة المغلَّظة التي أعدَّها الله لمن يَحلف كاذبًا، ويأخذ حقَّ أخيه بِمقتضى هذا اليمين عند القاضي أو غيره ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي الذين ليس لهم نصيبٌ فيها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامةغضبًا عليهم وسخطًا لتقديمهم هوى أنفسهم على رضى ربهم ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهرهم من ذنوبهم ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط وعذاب جهنم. **هذه خمس عقوبات:**

العقوبة الأولى: أنهم ليس لهم نصيبٌ ولا حظٌّ في نعيم الآخرة؛ بسبب ما ارتكبوه من غرور وافتراء.

---

(١) من حديث طويل في البخاري برقم (٢٣٥٦، ٢٣٥٧، ٤٥٤٩، ٤٥٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٨).

(٢) «المسند» (٤/ ١٩١) برقم (١٧٧١٦) من حديث عَدِيّ بن عُمَيْرة، بإسناد صحيح، وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (٥٩٩٦) وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٨٠) وابن ماجه (٢٣٢٢)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٥٤) وفي الشعب (٤٨٤٠).

العقوبة الثانية: شِدَّة سخط الله تعالى وغضبه عليهم، المعبَّر عنه بعدم كلامهم.

العقوبة الثالثة: أن الله تعالى لا ينظر إليهم نظرَ رحمة ولا عطف ولا إحسان؛ بسبب خيانتهم للأمانات.

العقوبة الرابعة: أن الله تعالى لا يُطهِّرهم من الذنوب والأوزار؛ لأنهم مستمرُّون عليها حتى الموت.

العقوبة الخامسة: أن لهم في الآخرة عذابًا موجعًا؛ بسبب ما ارتكبوه من آثام وذنوب.

وهذه العُقُوباتُ سَبَبُها أمران:

الأول: أنهم استبدلوا بعهد الله إليهم عَرَضًا دنيويًّا.

الثاني: أنهم وثَّقوا هذا العهد بالأيمان بالله تعالى، ومع ذلك نقضوها.

وفي أحاديثَ عِدَّة، شَرَحَ النَّبي ﷺ هذا المعنى، ومنهم التاجر الذي يبيع سلعتَه باليمين الفاجرة، يَحلف كذبًا أنه وُضع له فيها كذا من المال، وهو كاذب في يَمينه، يقول هذا ليغرر بالمشتري، وليحمله على الشراء بثمن معين.

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ مَنَعَ ابن السبيل فضلَ ماء عنده، ورجلٌ حلف على سلعة بعد العصر** (يعني: كاذبًا) **فصدَّقه فاشتراها بقوله، ورجُل بايع إمامًا، فإن أعطاه وفَّى له، وإن لم يعطِه لم يوفِّ له**»[1]؛ أي: بايع إمامَه للدنيا.

٢- وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النَّبِي ﷺ قال: «**إن لله تعالى عبادًا لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم**» قيل: ومَن أولئك يا رسول الله؟ قال: «**متبرئٌ من والديه**

(١) «المسند» (٢/ ٤٨٠) (١٠٢٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأبو داود برقم (٣٤٧٤) والترمذي برقم (١٤٩٥) وانظر «صحيح البخاري» برقم (٢٣٥٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٨) وابن ماجه (٢٢٠٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٧٦).

راغبٌ عنهما، ومتبرئٌ من ولده، ورجلٌ أنعم عليه قومٌ فكفر نعمتهم وتبرأ منهم»[(١)].

٣- وفي حديث أبي ذر ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»** قلت: يا رسول الله، مَن هم؟ خابوا وخسروا، قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: **«المسبل إزاره خيلاء، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنَّان»**[(٢)].

٤- وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: **«مَن اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، حرَّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار»** فقالوا: يا رسول، وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: **«وإن كان قضيبًا من أراك»**[(٣)].

٥- وعن الحارث بن البَرْصَاء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ في الحج، بين الجمرتين، وهو يقول: **«مَن اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة؛ فليتبوأ مقعدَه من النار، لِيُبلِّغ شاهدُكم غائبَكم»** مرتين أو ثلاثًا[(٤)].

٦- وعن ابن مسعود ﷺ قال: كنَّا نعدُّ من الذنب الذي ليس له كفارة، اليمين الغموس، قيل: وما اليمين الغموس؟ قال: الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل.

وَقَدْ وَرَدَ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ لِنزولِ هذه الآية، منها:

١- أنها نزلتْ في أحبار اليهود ورؤسائهم، الذين كَتموا ما عَهِدَ الله به إليهم في التوراة، في شأن محمدٍ ﷺ، فبدَّلوا وكتبوا بأيديهم غيرَه، وحلفوا أنه من عند الله؛ لئلا

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٤٠) برقم (١٥٦٣٦)، بإسناد ضعيف، كما قال محققوه، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٣٧) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٥) وقال: رواه أحمد والطبراني.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي ذر (٥/ ١٤٨) برقم (٢١٣١٨، ٢١٤٨١، ٢١٥٤٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه مسلم (١/ ١٠٢) برقم (١٠٦) وأبو داود برقم (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذي (١٢١١) وابن حبان (٤٩٠٧) والنسائي (٥/ ٨١) وابن ماجه (٢٢٠٨) والطيالسي (٤٦٧) وأبو عوانه (١١٥).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٧)، ومسند أحمد (٢٢٢٣٩) باسناد صحيح ورجال ثقات، والنسائي في الكبرى (٥٩٨٠) والدارمي (٢٦٠٣) والطبراني في الكبير (٨٠٠) وفي الأوسط (١١٩٠).

(٤) أخرجه ابن حبان (٥١٦٥) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني (٣٣٣٠، ٣٣٣٢) والحاكم (٤/ ٢٩٤).

تفوتَهم الرِّشوة والأموال التي كانت تأتيهم من أتباعهم.

٢- وقيل: نزلتْ في قول اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فكتبوه بأيديهم، وحلفوا أنه من عند الله.

٣- وفي الصَّحِيْحَين وغيرهما عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين هو فيها فاجرٌ؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم لَقِيَ الله وهو عليه غضبان»** قال: فقال الأشعث: فِيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فَقَدِمتُه إلى النَّبِي ﷺ فقال: **«ألك بيِّنة؟»** قلت: لا، فقال لليهودي: احلِف، قال: قلت: يا رسول الله، إذًا يحلف، ويذهب بِمالي، فأنزل الله تعالى الآية[1].

٤- وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن أوفى أن رجلًا أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطى بها ما لم يعطِ؛ ليوقع فيها رجلًا من المسلمين؛ فنزلت[2].

٥- وقال عكرمة: نزلت في أبي رافع، ولبابة بن الحقيق، وحُييِّ بن أخطب، وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عَهِدَ الله إليهم في التوراة من شأن محمدٍ ﷺ، وبدَّلوه وكتبوا بأيديهم غيرَه، وحلفوا أنه من عند الله؛ لئلا يفوتهم الخير والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم[3].

والآيةُ عامةٌ، يدخل فيها هذه الأسباب وغيرها، من جميع العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرُّسُل، وكل ما ألزم الإنسان به نفسه من عهد ميثاق، فيجب الوفاء به.

والمعنى: إن الذين يستبدلون بعهد الله، ووصيتِه التي أوصى بها في الكتب التي أنزلها على رسله، عوضًا وبدلًا دنيئًا من عَرَض الدنيا وحُطامها، أولئك لا نصيب لهم من الثواب في الآخرة، ولا يكلِّمهم الله بما يَسُرهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة بعينِ الرحمة، ولا يطهِّرهم من دنس الذنوب والكُفْر، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ[4].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٥٦، ٢٤١٦، ٢٦٧٣) و«المسند» برقم (٣٥٧٦، ٣٥٩٧، ٤٢١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في «صحيح مسلم» (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣) والترمذي (١٢٦٩) وابن ماجه (٢٣٢٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٨٨، ٤٥٥١) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٥٥) (٣٧٢٢) وابن المنذر (٦٣٤).

(٣) «زاد المسير» (١/ ٤١٣) و«تفسير الفخر الرازي» (٨/ ١١١).

(٤) «التفسير الميسر» طباعة مجمع الملك فهد ص٥٩ .

تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَلَاعُبُهُمْ بِالْأَلْفَاظِ

٧٨- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ[١] مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ثم تَمضي الآيات فتعرض صورة أخرى لأهلِ الكتاب، وهم الذين يؤوِّلون النصوص بما تقتضيه أهواء الحُكام فيحرفونها عن مقصودها؛ ليصلوا إلى أهداف معينة، يزعمون أنها مدلولُ هذه النصوص، بينما هي تُصادمُ حقيقة دين الله، وهؤلاء عكسوا القضية، وأفهموا الناس غير المراد منها، إما تعريضًا وإما تصريحًا.

فيذكُر القرآن الكريم فريقًا من أهل الكتاب، وهم اليهود، فيقول عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: وإن من اليهود لَجماعة يبدِّلون كلام الله؛ لِيُوهموا غيرَهم أن هذا من الكلام المُنَزَّلِ من عند الله، وما هو منه في شيء، فهم يحرِّفون التوراة، مثل: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيي بن أحطب، وشعبة بن عمرو، ومعنى يُحرف: يُميل ويلوى لسانه؛ ليوهم السامع كلامًا آخر، سِيَّمَا العامة، فيزيد وينقص، ويغيِّر ويبدِّل، سِيَّمَا أوصاف النَّبي ﷺ في التوارة والإنجيل فَهُم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: يحرِّفونه أو يَقْلبونه، كتبديل حكم آية الرجم، وصفة النَّبي ﷺ، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: لتحسبوا أنه من التوراة مُنزلٌ من عند الله، وما هو من التوراة، وهم لأجل دنياهم يَكْذبون على الله، ويعلمون أنهم كاذبون.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذبا ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بزعمهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ على وجه الحقيقة وهم بهذا قد جمعوا بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، فكذبوا على الله، واستعملوا الألفاظ الدالة على الحق في المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

وقد أكد الله هذا المعنى مرتين؛ زيادةً في التشنيع على اليهود والنَّصارَى الذين حرَّفوا التوراة والإنجيل، وألْحقوا في كتاب الله ما ليس منه.

ويدخل في معنى الآية تأويلُ النصوص وتوظيفُها لمعنى يريده الإنسان؛ لتؤدي مهمة

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر (لِيَحْسَبُوهُ) بفتح السين، وقرأ الباقون بكسر السين، وهما لغتان.

تُرضي الساسة أو الحكام، حيث يعمد مَن يريد ذلك إلى حكم معين فيلْوي نَصًّا معينًا من كتاب الله، فيستخرج منه المعنى الذي يريده؛ ليتوصل به إلى فتوى معينة، أو حُكم معين؛ لِيُرضي به الأهواء، وهذا يدخل في معنى ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ومن ذلك أن النَّصارَى يُحرفون النصوص ويستخدمونها في غير موضعها مثل: (روح القدس) (كلمة الله)، فإنهم يؤوِّلون مثل هذه الكلمات؛ ليتوصلوا من خلالها إلى أن عيسى إله، أو أنه ابن الإله، وهذا تَحريفٌ للكلم عن مواضعه.

وقد نَهَى الله تعالى المؤمنين عن التلاعب بالألفاظ والمصطلحات؛ لتحريفها وتأويلها، كما كان يفعل اليهود حين يَدْعون على النَّبِي ﷺ بالموت في تحيتهم له قائلين: (السام عليكم)، وهم يُوهمونه أنهم يُلقون السلام عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

وقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]

وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وكذبهم وتحريفهم لم يكن عن جهل أو نسيان، إنما كان عن علم وإصرار، وذلك أن القلوب إذا فَسَدت، واستولى عليها الحسدُ والجُحود، ارتكبتْ كلَّ منكر ورذيلة دون تَفَكُّرٍ في العواقب، ولا تَدَبُّرٍ لِمَا جاءتْ به الشرائع، وأمرتْ به العقول السليمة، نعوذ بالله من علمٍ لا ينفع، ومن قلب لا يَخشع.

وَلَيُّ اللسان بالكلام له معنيان

المعنى الأول: لَوْيُ الحُجة وإلقاؤها على غير وجهها، وهو معنى تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة، والقياس الفاسد، وتحميل الألفاظ ما لا تتحمله من المعاني الكاذبة.

والمعنى الآخر: هو تحريفُ اللسان بحرف من حروف الهجاء، كمَن ينطق بالألف نحو الياء، وهو ما يُسمى بالإمالة، أو يَختلس حركة حرف ويُسرع به، أو يَخلطه بحرف آخر، وهو ما يُسمى بالإشمام؛ ليُفوِّت على السامع معنى آخر يَقصده.

وكِلَا المعنيين يَستعملهما اليهود، فمِن الأول تحريفُ التوراة، ومن الثاني اختلاسُ لام (السلام)؛ ليراد منها (السام) وهو الموت.

الرُّسُلُ لَا يُؤَلَّهُونَ إِلَّا اللَّه سُبْحَانَهُ

٧٩- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ(١) ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ(٢) ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

نزلت هذه الآية ردًّا على من قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لمّا أمرهم بالإيمان به وطاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله،فذكرت أنه يستحيل على بشرٍ مَنَّ الله عليه بالرسالة أن يدعو الناس إلى عبادته، ولكنه يأمرهم بأن يكونوا ربانيِّين، علماء حكماء حلماء، معلمين للناس الخير، فهم يأمرون بالعلم والتعليم والعمل، ويستحيل عليه كذلك أن يأمر أحدًا بعبادة أحدٍ من خلق الله، كالملائكة والنبيين.

من أسباب النزول

١- روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعتِ الأحبار من اليهود والنَّصارَى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد، أن نعبدَك كما تعبدُ النَّصارَى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نَجران نصراني يقال له الرئيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني»** فأنزل الله في ذلك ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ

(١) قرأ نافع (النبوءة) بهمزة بعد الواو، والباقون بواو مشددة.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (تُعَلِّمون الكتاب) مضارع (عَلَّم) فينصب مفعولين؛ أولهما: محذوف تقديره (الناس) وثانيهما: الكتاب، وقرأ الباقون (تَعْلَمُون الكتاب) مضارع (عَلِمَ) وهو ينصب مفعولًا واحدًا هو (الكتاب).

كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١].

٢- وقال الحسن: بلغني أن رجلًا قال: يا رسول الله، نُسلم عليك كما يسلم بعضُنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «**لا ينبغي أن يُسجَد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحقَّ لأهله**» فأنزل الله الآية[٢].

٣- قيل: إن نصارى نَجران قالوا: إن عيسى أَمَرهم أن يتخذوه ربًّا؛ فنزلت الآية، فبيَّن سبحانه أنَّ كل نبي يُوقن أنه عبدٌ لله، وأن الله وحده هو الرب، فلا يمكن لنبيٍّ أن يَدَّعِي لنفسه صفة الألوهية.

ومُقْتَضَى العلم بالكتاب والسنة أن يكونوا مُنتسبين إلى الرب، يتوجهون إليه وحده بالعبادة، ويأخذون منه منهجَ حياتِهم.

والمعنى: أن كل نبي يأمر قومَه أن يكونوا حُكماء علماء فقهاء بما تعلَّموه عن طريق الوحي، وبما درسوه من فقهٍ وعلم ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أن يؤتيه الله ما ذُكِر، ثم يَأمر الناسَ بعبادة نفسه، مثل عيسى أو محمد أو غيرهما، وكان بعضهم قد قال للنبي ﷺ: أفلا نسجد لك؟ أفلا نتخذك ربًّا كما يتخذ النَّصارَى عيسى ربًّا.

والله سبحانه يَرُدُّ عليهم بأن هذا لا ينبغي ولا يليق ولا يكون من عبدٍ يُنْزِّل الله عليه الكتاب من عنده، ويعلِّمه الحِكمة؛ أي: الفقه والفَهْم لهذا الكتاب، ويشرفه بدرجة النُّبُوَّة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ هذا الإنسان للناس: اعبدوني من دون الله، أو اتخذوا الملائكة والنَّبِيِّين أربابًا من دون الله، هذا لا يحدث لرسول من رسل الله أبدًا، أن يدعوَ الناس إلى عبادة نفسه.

﴿وَلَٰكِن﴾ يقول لهم ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ كونوا عبادًا مُطيعين قانتين مُنْقَادِين خاشعين لله ﷻ؛ بسبب كونكم تتعلمون الكتاب، وتعلمونه للناس، وتَهدون الناس وتصلحونَهم من خلال ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي بسبب تعليمكم لغيركم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فلا يصح لبشر مهما آتاه الله من النعم أو الجاه أو العلم أو السلطان أن يقبل مِن رعاياه

(١) الطبري (٦/ ٥٣٩) بإسناد حسن وكذا ابن أبي حاتم والسيوطي في «أسباب النزول» (٥٥).

(٢) النيسابوري (٩٨) والسيوطي (٥٥) و«زاد المسير» (١/ ٤١٣) و«تفسير الكشاف» وقد أخرجه عبد بن حميد عن الحسن.

أن ينحنوا له قريبًا من الركوع أو السجود؛ لأن ذلك من خصائص الله تعالى، ولا يَفعل ذلك إلا الجَهَلة، ولا يَقبله إلا المتكبرون من فراعنة الزمان. قال تعالى:

٨٠- ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ(١) أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ(٢) أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم(٣) بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

وإذا كان طاعة الخَلْق في تحريم ما أحلَّ الله، أو تَحليل ما حرَّم الله، لا يَصلح بالنسبة لنبيٍّ مرسل، فإنه لا يَصلح لأحد من الناس من باب أَوْلَى؛ لأن عبادة الخَلْق معناها طاعتهم في التحليل والتحريم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذه الآية تعمِّم ما خصَّصتْه الآية السابقة، فتقرر أن النبي لا يأمر أحدا بعبادة نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ أي: ليس من شأن نبيٍّ من أنبياء الله، ولا أحد من خَلْق الله أن يأمركم - أيها الناس - بعبادة أحدٍ غير الله، لا نبي مُرسل، ولا مَلَك مُقرب، ولا يأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي: والأنبياء ﴿أَرْبَابًا﴾ من دون الله ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على من ألّه الملائكة أو الأنبياء، بأن هذا لا يكون ولا يُتصوّر، وخَصَّ الملائكة والنَّبِيين بالذكر؛ لأن عبادتَهما شاعتْ عند كثير من الناس، ويُقاس عليهما كل ما عُبد من دون الله، أي: ولا يُعقَل أن يأمركم الرُّسُل بالكُفْر بعد أن هداكم الله للانقياد لأمره.

ومن الآيات الواردة في توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة؛ قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر برفع راء (ولا يأمرُكم) على الاستئناف، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب وخلف العاشر بنصبها بأن مضمرة، وللسوسي وجهان: إسكان الراء واختلاس ضمتها، وللدوري أبي عمرو ثلاثة أوجه: الإسكان والاختلاس والضمة الكاملة، وأبدل الهمزة ألفًا ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، وحمزة عند الوقف.

(٢) قرأ نافع بالهمز في ألفاظ (النبوة، والنَّبِيين، والنَّبِيون) وقرأ الباقون بإبدال الهمزة واوًا مشددة.

(٣) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاص ضمتها من (أيأمركم)، وقرأ دوري أبو عمرو بالإسكان والاختلاس والضمة الخالصة، وقرأ الباقون بالضمة الخالصة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: ٤٨، ٤٩].

فالمؤمن مُستسلِمٌ لله بقلبه وقالَبه، فينفعه إسلامه، والكافر تحت التسخير والقهر والسلطان، فهو مستسلم لله كرهًا عند الشدائد حين لا ينفعه هذا الاستسلام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

كما أن جميع الكائنات مُنقادةٌ وخاضعة لله سبحانه، وإليه المرجعُ والمآبُ يوم القيامة، فيُجازِي كلًّا بعمله، وهذا تحذيرٌ من الله تعالى أن يعودَ أحدٌ منهم إلى الله يوم القيامة وهو على غير الإسلام.

أَخْذُ الْمِيثَاقِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ

٨١- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم[1] مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

ولمَّا ذكر الله تعالى تَحريف أهل الكتاب كلام الله عن مواضعه، وكِتمانهم أوصاف محمدٍ ﷺ الموجودة في كتبهم، حتى لا يؤمنوا به، بيَّن سبحانه ما تَقوم به الحُجة عليهم؛ وهو أن الله تعالى قد أخذ المِيثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ إن أدْركوا حياتَه، ويتَّبعوه وينصروه، وأن يُعْلِموا أُمَمَهم بذلك إن لم يدركوا حياتَه ﷺ؛ ليكون هذا الميثاق

(١) قرأ حمزة (لِمَا آتَيْتُكم) بكسر اللام على أنها لام الجر وما مصدرية، والتاء الثانية مضمومة، وقرأ نافع وأبو جعفر (لَمَا آتَيْنَاكم) بفتح اللام على أنها لام الابتداء، وقرأ الباقون (لَمَا آتَيْتُكُم) بفتح اللام وضم التاء الثانية لمناسبة قوله تعالى: (وإذ أخذ الله).

محفوظًا لدى سائر الأجيال.

وبهذا دعا إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبهذا قال موسى ﷺ كما جاء في سِفْرِ التثنية: (قال لي الرب: أُقيم لهم نبيًّا من وسط إخوانهم مِثْلَك، وأجعلُ كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه به) وقوله: (من وسط إخوانهم) المراد: إخوة بني إسرائيل، وهم بنو إسماعيل، وهو محمد ﷺ، ولو كان نبيًّا إسرائيليًّا لقال: (أُقيم لهم نبيًّا منهم).

وبهذا بشَّرت الأناجيل، ففي إنجيل متَّى: (وتقوم أنبياء كذَبة كثيرون، ويُضلُّون كثيرين، ولكن الذي يصبر (أي: يبقى أخيرًا) إلى المنتهى، فهذا الذي يخلص ويكرز (أي: يُحسن تبليغ الرسالة) ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى) وهذا الذي يأتي أخيرًا، وتبقى رسالته إلى نهاية الدنيا هو محمد ﷺ.

وفي إنجيل يوحنا: (وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعزّيًا آخر؛ ليمكث معكم إلى الأبد، فهو يُعلِّمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قُلْته لكم، ومتى جاء المعزّي فهو يشهد لي) **والمعزّي**: هو محمد ﷺ.

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذا ميثاقٌ أخذه الله على النَّبيين أن يُصدق بعضُهم بعضًا، وأن يبلِّغوا كتاب الله ورسالاتِه، فبلَّغ الأنبياء كتابَ الله ورسالاتِه إلى قومهم، وأخذوا عليهم أن يُؤمنوا بمحمد ويصدِّقوه وينصروه.

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس ﵄ أن هذا العهد والميثاق مأخوذٌ على أهل الكتاب، وعلى أنبيائهم أن يصدقوا محمدًا ﷺ عند مجيئه، ويُقِرُّوا برسالته.

والآية تصوِّر حقيقةَ الترابط بين الرُّسُل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، والقرآن يطوي الأزمنة بين الرُّسُل، ويَجمعهم كلهم في مشهدٍ واحدٍ، فيبيِّن أنهم يُمثلون حقيقةً واحدةً، ورسالة واحدة، يقوم بها مَن يصطفيه الله من أمَّته؛ حتى يسلمها لمَن يُصطفَى بعده.

وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب، يُخبرهم الله سبحانه بأنه قد أَخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم جميعًا، من لدن آدم إلى عيسى على طاعة الله، وامتثال أمرِه،

واجتناب نهيِه، ومِن ذلك أنهم يأخذون العهد على أممهم أنه إذا بعث الله محمدًا ﷺ أن يُؤمنوا به ويَنْصُرُوه.

قال البغوي: قال الله ﷻ للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم، والأنبياء فيهم كالمصابيح والسُّرُج وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمدٍ ﷺ قال: أأقررتم بالإيمان به ونُصْرته؟ ثم أخذ الأنبياء هذا العهد على أُممهم، فأشهدهم، وشهد سبحانه على هذا الميثاق.

كما أن الله تعالى قد أخذ الميثاق على الرُّسُل أن يبلِّغوا رسالات الله، ويُصدق بعضُهم بعضًا، فعلى كل نبيٍّ أن يُؤمن بالنَّبِي الذي يأتي بعده، وينصره إن أدركه، ويَأمر قومَه بالإيمان به، ونُصْرتِه إن أدركوه.

أخذ الله سبحانه هذا العهد والميثاق على جميع الرُّسُل والأنبياء والأمم التابعين لهم ميثاقًا مؤكّدًا، الشاهد عليه ربُّ العالمين، ورسلُ الله جميعًا قد وثَّقُوا هذا الميثاق وأخذوه على أممهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ اذكر يا محمد هذا العهد المؤكَّد الذي أخذه الله على الأنبياء جميعًا والأمم التابعين لهم ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ مهما أتيتكم من كتاب وحكمة فاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، ممَّا أنزل الله عليهم من الكتب والصحف والسنن، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب المنزَّلة من عند الله، أو جاءكم رسول بعد الرَّسُول السابق، وهو عيسى ؑ في سلسلة الرُّسُل المتتابعة، لتؤمنن بهذا الرَّسُول الذي جاء مؤخرًا وتتبعنَّ دينه، فهل أقررتم واعترفتم وأخذتم على ذلك عهدي وميثاقي؟

فقد أوجب الله على الأنبياء أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضًا، لأن ما نزل عليهم جميعًا هو من عند الله، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ﴾ قبلنا ما أمرتنا به ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: فلْيَشهد بعضُكم على بعض، واشهدوا على أُممكم ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لقد شهد ربُّ العالمين على هذا الميثاق، المأخوذ على الأمم والأنبياء، على الإيمان بمحمدٍ ﷺ، لأنه النبي الخاتم، فكل الأنبياء آمنوا به واتبعوه ونصروه بمقتضى هذا الميثاق، فهو إمامهم وخاتمهم.

وفي الأثر: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بُعث محمدٌ ﷺ وهم

أحياء ليؤمنن به ولينصرنه[١].

وفي الأثر أيضًا: (أخذ الله ميثاق النَّبِيين أن يُصدق بعضهم بعضًا)[٢].

وفي الحديث عن عبد الله بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النَّبِيين**»[٣].

فمحمدٌ ﷺ هو الإمام الذي لو وُجد في أيِّ زمان لوجب اتِّباعه؛ ولهذا كان إمام الأنبياء ليلة المعراج، وكان الشفيع يوم القيامة، وصاحب المَقام المَحمود.

في حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه -والله- لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حَلَّ له إلا أن يتَّبعَني**»[٤].

فالرَّسُولُ محمدٌ ﷺ هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد في أيِّ عصر لكانت طاعته مُقدَمَةً على الأنبياء كلهم.

قال القرطبي: والمراد بالرَّسُول هنا (أي: في هذه الآية) محمد ﷺ، واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معيَّن، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

وعلى هذا: فإن الميثاق المذكور في الآية يَشمل وجوب الإيمان بخاتَم الرُّسُل ﷺ من جميع الأنبياء وجميع الأمم، كما يَشمل وجوب أن يُصدق الرُّسُل بعضهم بعضًا، وكل نبيٍّ يُؤمن بمَن سبقه ومَن لَحِقَه من الرُّسُل، وينصره ويؤيده إن أدركه، وإن لم يدركه أَمَرَ قومَه

---

(١) ذكره ابن كثير (٢/ ٦٧) عن علي وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) هو قول طاوس والحسن وقتادة.

(٣) من حديث طويل أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٥) برقم (١٥٨٦٤) و(١٨٣٣٥) و وهو ضعيف (محققوه)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٣): رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وهو عند عبدالرزاق في المصنف (١٠١٦٤، ١٩٢١٣) والبيهقي في الشعب (٥٢٠١).

(٤) «مسند البزار» برقم (١٢٤) «كشف الأستار» و«مسند أحمد» (٣/ ٣٨٧) برقم (١٤٦٣١) بإسناد ضعيف لضعف مجالد، (محققوه) والدارمي (١/ ١١٥) وقد حسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤)، وأخرجه أبو يعلى (٢١٣٥) وعبدالرزاق في المصنف (١٠١٥٨، ١٩٢٠٩) والبيهقي في الشعب (١٧٩).

بالإيمان به إن أدركوه، وهذه قاعدةٌ عامةٌ؛ ولأن محمدًا ﷺ لا نبيَّ بعده لزم النص عليه في الآية. قال تعالى:

٨٢- ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فمَن أَعْرَض عن الإيمان بمحمدٍ ﷺ، وعن نُصرته بعد أَخْذ الميثاق المؤكَّد عليه، بشهادة من الله ورسله، ومَن أعرض عن دعوة الإسلام بعد العهد الذي أخذه الله على الأنبياء، فهؤلاء هم الخارجون عن دين الله إلى دركات الكُفْر والفسق للخلود في النار، إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ أَسْلَمَتْ لِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى

٨٣- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ[1] وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[2] ﴿٨٣﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أن الإيمان بخاتَم الرُّسُل حقٌّ واجبٌ على جميع الرُّسُل والأمم، أعقب ذلك ببيان أن كلَّ مَن أنكر الإيمان بما جاء به محمد ﷺ فهو بعيدٌ عن الحقِّ، مُستحِقٌّ للعقاب.

والمعنى: أيريد الفاسقون من أهل الكتاب وغيرهم دينًا غير دين الإسلام الذي بَعَثَ الله به محمدًا ﷺ مع أن كل مَن في الكون منقادٌ لله تعالى ومستسلم له إما طوعًا واختيارًا وهم المؤمنون المطيعون، وإما كُرهًا وإخضاعًا، وهم سائر الخلق، حتى الكافرون منهم، إذ ليس في وسعهم الخروج على قضاء الله وقدره، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟!

وجاء في سبب النزول: أن أهل الكتاب اختلفوا، فادَّعى كلُّ فريق منهم أنه على دين إبراهيم، فاختصموا إلى النَّبي ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: **«كلا الفريقين بريءٌ من دين**

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (يبغون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (مَن) في قوله تعالى: (فمن تولى)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب لمناسبة الكاف في (فأولئك) أو على الالتفات.

(٢) قرأ حفص (يُرْجَعُون) بياء الغيبة مضمومة مع فتح الجيم؛ لمناسبة (يبغون)، وقرأ يعقوب بفتح ياء الغيبة مع كسر الجيم (يَرْجِعُون)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب مضمومة مع فتح الجيم؛ لمناسبة (تبغون) هكذا (تُرْجَعُون).

إبراهيم» فغضبوا وقالوا: والله لا نرضَى بقضائك، ولا نأخذ بدِينك، فأنزل الله الآية[١].

قال تعالى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿ يَبْغُونَ﴾ أي يرغبون ويَطلبون، بعد هذا الميثاق والعهد الذي أخذه الله على الأنبياء وأُمَمِهم، والحال أن جميع مَن في الكون خاضعٌ لأمر الله تعالى، طوعًا في حالة الرخاء، وكرهًا في حالة الشدة، الإنس والجن، وكلُّ مَن له عقل يطيع ربَّه طوعًا واختيارًا، وحين يخرج الإنسان عن الإسلام يَخرج منه وهو عاقل مُختار.

أما باقي الكائنات ممَّن لا عقول لهم فهي تطيع ربها كرهًا؛ لأنها مَجْبُولة بالفطرة على الطاعة والانقياد لله تعالى، وجميعُ الخلق مُنقادٌ لله تعالى في وجود العقل وعدمه، فكل ما سوى الله تعالى خاضعٌ لجلاله، وهي مسخَّرة لله سبحانه وذلك مثل: الأشجار والنبات والحيوانات وسائر الكائنات، فهي تسجد وتسبح بحمد ربها ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولا يخرج عن ذلك أحد من خلق الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]

وُجوبُ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ اللهِ جَمِيعًا

٨٤- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

ثم وجَّه ﷻ الخطابَ إلى النَّبِي ﷺ؛ ليقول للثَّقلَيْن ما في هذه الآية ويخبرهم بما فيها بِمَسْمَعٍ من الناس جميعًا، مسلِمهم وكافرِهم.

قل - يا رسولنا - لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل، وجحدوا الحق مع علمهم به، قل لهم ولغيرهم:

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٧).

١- آمنا بالله وأطعناه، ربًّا ومعبودًا واحدًا، واستجبنا له في كل ما أمر ونَهى.

٢- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله علينا، وهو القرآن الذي يَهدي إلى الرشد، ويُخرج الناس من ظلمات الكُفْر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم.

٣- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله على إبراهيمَ خليل الرحمن، والوحي الذي نزل على ابنيه: إسماعيل وإسحاق.

٤- وآمنا بالوحي الذي أنزله الله على يعقوب بن إسحاق، وبالوحي الذي نزل على الأنبياء من بني إسرائيل الاثني عشر، من ولد يعقوب، وهم إخوة يوسف عليه السلام، حيث وُلِد لكل رجل منهم أمة، فسُمُّوا أسباطًا؛ أي: أحفادًا لإسحاق.

٥- وآمنا بالتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، وغيرهما من المعجزات.

٦- وآمنا بما أنزله الله على سائر رسله وأنبيائه من وحي ومعجزات تدل على صِدْقِ دعواهم.

نؤمن بذلك كله، ولا نفرق بين أحدٍ من رسل الله، وأن خاتَمهم محمدٌ ﷺ؛ إذ الكُفْر بواحد من الأنبياء كُفْرٌ بهم جميعًا، والوحي الذي نزل على أول رسول هو نفسه الوحي الذي نزل على آخر رسول، فمَن آمن بنزوله على موسى يُؤمن بنزوله على عيسى، ومَن آمن بنزوله على عيسى يُؤمن بنزوله على محمدٍ، ونحن لله وحده مُنقادون له بالطاعة، مُقِرُّون له بالربوبية والألوهية والعبادة.

وقد خَصَّ القرآنُ بالذِّكر هؤلاء الأنبياء؛ لأن أهل الكتاب يدَّعون أنهم مُتبعون لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، فأراد الله تعالى أن يقول لهم: لو كنتم مؤمنين بهم حقًّا؛ لآمنتم بمحمدٍ ﷺ، ولا تُوجد أمةٌ تؤمن بجميع رسل الله إلا أمةُ محمدٍ ﷺ.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٥) وانظر (٧٣٦٢، ٧٥٤٢).

هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم؛ وهي الإيمان برسل الله جميعًا، كلٌّ في زمانه ومكانه، وما أنزل على كل منهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كأهل الكتاب الذين يُؤمنون ببعض الرُّسُل ويكفرون ببعض ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ والإسلام هو الدِّين الذي ارتضاه الله لخَلْقه إلى قيام الساعة، ونظير هذه الآية في سورة البقرة ١٣٦ .

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء]

آيَاتُ التَّعْقِيبِ عَلَى قِصَّةِ وَفْدِ نَصَارَى نَجْرَان: لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا غَيْرَ الْإِسْلَامِ

٨٥- ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وبعد أن قرر القرآن وجوبَ الإيمان برسل الله جميعًا، بيَّن أنه بعد مجيء الإسلام الذي خَتَمَ الله به الرسالات لا يَقبل من أحد دينًا غيره، لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده فمن يدين بغيره فعمله مردود عليه، وفي التمسك بالإسلام النجاة من عذاب الله، والفوز برضاه، وكل دين سواه باطل، فهو ناسخ لكل ما سبقه.

وهذه الآية وما بعدها، تشير إلى بطلان ما جاء به وفد نصارى نجران من المحاورة في شأن عيسى عليه السلام، وتثبت للإسلام القول الفصل في شأن عيسى عليه السلام وتردّ عليهم جدالهم:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن عن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أنزل الله بعدها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ويوم القيامة لا يأخذ الله تعالى إلا بالإسلام، ولا يُثيب إلا عليه، مِن لدن بعثة النَّبي ﷺ إلى نهاية الدنيا.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب، أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة، فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب، أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، على ذلك فيقول الله عز وجل: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخُذُ، وبك أُعطِي، قال الله في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾»[١].

والشاهد في الحديث: «**بك اليوم آخُذُ، وبك أُعطِي**» وبدون ذلك يَخسر العبد حظَّه في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: «**لو كان موسى وعيسى حيَّين ما وسعهما إلا اتِّباعي**»[٢].

وكلُّ مخلوقٍ إلى قيام الساعة يَسمع برسالة محمدٍ ﷺ ولا يؤمن بها، ويموت على ذلك؛ فهو من الخالدين في نار جهنم.

والإسلامُ شهادةٌ تُقال باللسان، وإيمانٌ يستقر في القلب، وعملٌ بالجوارح، يَشمل منهجَ الله تعالى في العقيدة والعبادة، وتَحقيق هذا المنهج في واقع الحياة، والإسلام هو الدِّين المقبول عند الله تعالى، وبعد مجيء الإسلام فإن كلَّ دِين غيره لا يُقبل، وصاحبُه محرومٌ من الثواب عليه، والعقاب حاصلٌ له في الآخرة.

ولَا بُدَّ للمسلم أن يكون موحدًا لله تعالى، متوجهًا إليه وحده بالطاعة والعبادة، خاضعًا ومُنقادًا له جل شأنه.

ولَابُدَّ له من الإيمان بمحمدٍ ﷺ، وبما جاء به مِن عند الله، مع وجوب المتابعة والمحبة ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) «المسند» (٢/ ٣٦٢) برقم (٨٧٤٢) قال محققوه: إسناده ضعيف، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٤٥): فيه عباد بن راشد، وثَّقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبو يعلى (٦٦٣١) دون ذكر الآية والطبراني في الأوسط (٧٦٠٧) قال عبدالله بن الإمام أحمد: عُبّاد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

(٢) «المسند» (٣/ ٣٣٨).

أَصْنَافُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالتَّوْبَةِ

٨٦- ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قال ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان رجل من الأنصار قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن اسألوا رسول ﷺ إن كان لى من توبة؟ فنزلت الآية.

ثُمَّ تَمضي الآيات لتبين حُكم مَن ارتدُّوا أو كفروا بهذا الدين، كيف يوفَّقُون إلى الإيمان بالله ورسوله، وقد جَحدوا نُبوة محمدٍ ﷺ بعد أن آمنوا بها، وشهدوا بصدق الرَّسُول ﷺ، وما جاءهم به، بعدما جاءتهم الحُجج والبراهين الدَّالَّة على صِدْق هذا الدين وصحته، وفي هذه الآية استبعاد أن يهدي الله قومًا اختاروا الكفر والضلال، بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق.

أخرج الطبري عن الحسن في معنى الآية قال: هم أهل الكتاب، كانوا يَجدُون محمدًا ﷺ في كتابهم، ويَستفتحون به، فكفروا بعد إيمانهم.

قلت: وسياق الآيات يَشهد لهذا، والآية عامةٌ تشهد على كلِّ مَن كَفَرَ بعد إيمان.

وقد أُسندت الهداية إلى الله تعالى؛ لأنه مُوجِدُ الأسباب ومسبباتها.

ومن العرب الذين أسلموا ثم كفروا ثم ندموا: الحارث بن سويد، وأبو عامر الراهب، وطُعيْمة بن أُبيْرق، أما اليهود والنَّصارَى فقد شهدُوا أن الرَّسُول حقٌّ، وقامت الأدلة لديهم على صِدْقه ﷺ، ثم كابروا، وشكَّكُوا الناس، وجاءتهم الآيات فلم يتعظوا، فلا مَطْمَعَ في هدايتهم بعد هذه الأحوال.

والله سبحانه لا يُوفق للصواب كلَّ مَن عَدَلَ عن الحقِّ إلى الباطل، واختار الكُفْر على الإيمان، فقد جَرَتْ سُنةُ الله تعالى في خَلْقه ألَّا يَهدي إلى الصِّراط المستقيم قومًا كفروا بعد إيمانهم، والآيةُ تصف هؤلاء الكفار المرتدين **بأربعة أوصاف**:

أولها: كُفْر بعد إيمان.

ثانيها: الإقرار بالشهادتين وتصديق الرَّسُول قبل أن يكفر به.

ثالثها: وجود المعجزات الدالة على صدق النُّبوَّة، وعلى رأسها القرآن الكريم.

رابعها: وصفهم بالظلم، وهو العُدُول عن الإيمان إلى الكُفْر.

ومن هنا فإن المرتدَّ لا يُوفق للحقِّ والصَّوَاب؛ لِمَا سبق في علم الله تعالى أنه ظالم، وأنه لن يَهتدي إلى الصَّوَاب، كما أنه لن يهتدي إلى الجنة، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ممن عرفوا الحق وتركوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يُرجى له الهداية، هو الذي يحرص على التماس الحق، فهو حَرِيٌّ أن يُيَسِّر الله له أسباب الهداية ويُبعده عن طريق الغواية.

قال تعالى مبينًا عقوبة هؤلاء الظالمين المعاندين في الدنيا والآخرة:

٨٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ[(١)] لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وهؤلاء الذين جَمعوا بين هذه الصفات الأربع في الكُفْر والرِّدة، مُستحقون لغضب الله تعالى ولعنته وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، وقد سَخِطَ الله عليهم؛ لأنهم استحبوا الكُفْر على الإيمان، واستحقوا أيضًا سخط الملائكة والناس أجمعين، ومُقتضَى هذه اللعنة إيجابُ العذاب لهم يوم لقاء الله. قال تعالى:

٨٨- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

وهم يَستحقون الخلود المستمر في نار جهنم إذا ماتوا على ذلك؛ عقوبةً مُلازمةً لهم في الآخرة، كما لازموا الكُفْرَ في الدنيا، فلا يفتَّر عنهم هذا العذاب، ساعة ولا لحظة، وهو لا يحول ولا يزول، ولا يخفف عنهم بعض شدته، وهم لا يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذرالله منهم من عمّر عمرًا يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، فلو كان فيهم خير لظهرت دلالاته، ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، ولا يوجد مَن ينصرهم ويَمنعهم من عذاب الله تعالى يوم لقاء ربِّ العالمين.

وفي الآيتين **عقوبات ست** لمن كَفَرَ بالله تعالى، وكَفَر بخاتَم رسله بعد إيمان، ولم يَتُبْ، وهذه العقوبات هي:

١- لعنة الله تعالى. ٢- لعنة الملائكة. ٣- لعنة المؤمنين من الناس.

٤- الخلود في جهنم. ٥- عدم تخفيف العذاب عنهم. ٦- عدم قَبول المَعْذِرة منهم.

(١) ضَمَّ الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وصلًا ووقفًا، وكسرها الباقون.

قال تعالى مستثنيًا من هذه العقوبات:

٨٩- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أما مَن تاب ورجع إلى الله تعالى، وأكثر من العمل الصالح؛ فإن الله تعالى يَغفر له ذنبَه، فيستره في الدنيا، ويَرحمه من العذاب في الآخرة، إذا هو استمر على توبته، وأصلح ما أفسده بكفره وظلمه.

روى ابن عباس ﷺ أن رجلًا من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ، ولَحِق بالشِّرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه أن سَلُوا لي رسول الله، هل من توبة؟ قال: فنزلت الآيات السابقة؛ فأرسل إليه قومه فأسلم(١).

وورد أن الحارث بن سويد الأنصاري أسلم، ثم ارتدَّ، ولمَّا رجع إلى قومه أنزل الله هذه الآيات، فحملها إليه رجل من قومه، أرسله أخوه الجلاس، فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث، فأسلم وحسن إسلامه(٢).

أَوْصَافٌ تَنْطَبِقُ عَلَى الْيَهُودِ:

٩٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

أما مَن ارتدَّ أكثر من مرة، فلن تُقبل له توبة عند حضور الأجل؛ لأنه قد ضلَّ الطريق، وأخطأ المنهج، وتمادى في الغي والضلال، وقطع أسباب الرحمة والغفران، وسدّ على نفسه باب التوبة، وأصبح لا يُنتج إلا السيئات، فهو ممن أضلهم الله لفسقهم، وممن أزاغ الله قلوبهم لأنهم هم الذين زاغوا أوّلًا، وهم ممن علم الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠]

---

(١) رواه ابن جرير عن عكرمة في التفسير (٦/ ٥٧٢).

(٢) صححه الألباني في صحيح «سنن النسائي»، ورواه النسائي في «السنن» (٧/ ١٠٧) (٤٠٧٩) و«السنن الكبرى» (٦/ ٣١١) والحاكم (٤/ ٣٦٦) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٦/ ٣٢٣) برقم (٤٤٧٧) وأخرجه عبد الرزاق عن مجاهد (١/ ١٢٥) والطبري (٥/ ٥٥٧) وابن أبي حاتم (٣٧٩٥).

فهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، **وفي الآية ثلاثة أوصاف:**

١- كفر بعد إيمان، واليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى عليهما السلام.

٢- ازدياد الكفر، حين كفروا بمحمد ﷺ.

٣- الضلال، وهو وصف ملازم لهم.

وفي أسباب النزول: أن اليهود والنَّصَارَى كفروا بمحمدٍ ﷺ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه؛ لِمَا ثَبَتَ عندهم مِن نعته وصفته في كتبهم، ثم ازدادوا في كُفرهم بالإصرار على ذلك؛ فأنزل الله تعالى الآية، قاله أبو العالية والحسن.

والذين ازدادوا كفرًا هم اليهود، آمنوا بموسى، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمدٍ ﷺ، فالآية فيهم خاصة، قاله قتادة وعطاء، والصَّوَاب أن الآية عامة، تتناول كلَّ مَن ارتدَّ عن الإسلام، وازداد كفرًا بالإصرار عليه، ومقاومة الحقِّ، وإيذاء أهلِه.

فالذين كفروا وازدادوا كفرًا لن تُقبل توبتهم ما أقاموا على كفرهم وشركهم، وقد وصفهم ربنا بالضلال، لأنهم ضلوا الطريق إلى الممات، فتعين هلاكهم وشقاؤهم إلى الأبد، فإن تابوا مِن شركهم وكفرهم قبل الحَشْرَجَة، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وأصلحوا باطنَهم بمراقبة الله تعالى وخشيتِه، وأصلحوا ظاهرهم بالعبادات والطاعات، وأكثروا من العمل الصالح فإن الله غفورٌ لهم، رحيمٌ بهم.

عِقَابُ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ:

٩١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ[(١)] ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

في أسباب النزول أن الحارث بن سويد كان معه أحد عشر رجلًا؛ منهم: طعيمة بن أُبَيْرق، وحجوج بن الأسلت، وقد أقاموا على ردتهم وكفرهم بمكة، قالوا: حتى ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث، فلما فُتحت مكة، كان منهم مَن دخل في الإسلام، فقُبلتْ توبته، ومنهم مَن مات على الكُفْر؛ فأنزل الله فيهم ومَن على شاكلتهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

(١) حذف ابن وردان والأصبهاني عن ورش بخلْف عنهما همزة (ملء) ونقلا حركتها إلى اللام، ونطقا بلام مضمومة، والباقون بالهمزة.

فإن ظلَّ الكافرُ على كفره حتى حضره الموت؛ فإن التوبة عند الاحتضار لا تُقبل؛ لأنه قد ضلَّ وأخطأ الطريق، وهؤلاء الذين ماتوا على الكُفْر كأصحاب الحارث بن سويد وأضرابهم، فإن أحدهم لو كان يملك ملء الأرض ذهبًا، وأراد أن يفديَ نفسه بهذا المال من عذاب الله تعالى؛ فإن ذلك لا ينفعه، بل لايزال في العذاب الأليم، بلا شافع ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذه من عذاب الله تعالى.

وكذا لو تقرب إلى الله تعالى بملء الأرض ذهبًا ما نفعه ذلك؛ لأنه مات على الكُفْر والشِّرك، فقَبُول العمل منه مرفوضٌ من جميع الوجوه؛ لأن الطاعة مع الكُفْر غير مقبولة، وتخليص الإنسان نفسه من العذاب، ولو مَلَكَ كنوز الدنيا لا يجدي، ولا يغني عنه شيئًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

وفي الصَّحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: «**يقول الله تبارك وتعالى لأهْوَنِ أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنتَ مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أهونَ مِن هذا، وأنت في صُلب آدم، ألَّا تشرك، ولا أُدخلك النار، فأبيتَ إلا الشِّرك**» وهذا لفظ مسلم(١).

وعن أنس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول له: يا بن آدم، كيف وجدتَ منزلك؟ فيقول: أيْ ربِّ، خَيْرُ مَنزل، فيقول: سَلْ وتَمنَّ، فيقول: ما أسأل، ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك عشر مرات؛ لِمَا يرى من فضل الشهادة، ويُؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول له: يا بن آدم، كيف وجدتَ منزلك؟ فيقول: أَيْ ربِّ، شرُّ منزل، فيقول له: أتفتدي مني بِطِلَاعِ الأرض ذهبًا؟ فيقول: أي رب، نعم، فيقول: كذبْتَ، قد سألتُك أقلَّ من ذلك وأيسر، فلم تفعل، فيُردُّ إلى النار**»(٢).

---

(١) برقم (٢٨٠٥) وفي البخاري برقم (٣٣٣٤، ٦٣٥٨، ٦٥٥٧) بلفظ مشابه، وفي «المسند» (٣/ ١٢٧) برقم (١٢٣١٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبغوي (٤٤٠٣) وانظر في المسند (١٢٢٨٩).

(٢) «المسند» (٣/ ٢٠٨) برقم (١٣١٦٢، ١٣٥١١)، بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات كما قال محققوه، وأخرجه عبد بن حميد (١٣٢٩) وأبو يعلى (٣٤٩٧) وابن حبان (٧٣٥٠)..

ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم وموجع يوم لقاء الله سبحانه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي: وما لهم من أحدٍ يُنقذهم من عذاب، ولا يُجيرهم من عقابه.

فَالنَّاسُ بالنِّسبَة لِلإيمَانِ والكُفْرِ والتَّوبَةِ أَصْنَافٌ ثَلَاثَةٌ

الصِّنفُ الأوَّلُ: قِسْمٌ كفر بعد إيمانه، ثم تاب عن كفره توبةً صادقةً؛ فآمن وعمل صالحًا، فقبل الله توبته، وهذا هو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ وهكذا الكافر الذي أسلم ثم ارتدَّ وخرج من إسلامه، ثم تاب وندم، حاله كحال نفر من الأنصار حدث منهم ذلك، ثم أرسل بعضُهم للنبي ﷺ بعد أن ندم، وأراد أن يعود إلى الإسلام ويتوب، فسأل هل له من توبة؟ فتاب الله عليه، هذا صِنْفٌ من الناس، ومنهم من آمن بعيسى وكفر بمحمد، فهذ كفر بعد إيمان.

والصِّنْفُ الثَّاني: قِسْمٌ كفر بعد إيمان، ثم تاب عن كفره توبة غير صادقة؛ فلم يقبلْها الله منه، وهو الذي يتردد في كفره ويزداد فيه، ويظل مصممًا عليه حتى يأتيَه الموت، ثم هو عند حشرجة الروح، وحضورها في الحلقوم يريد أن يتوب، فهذه التوبة لا تُقبل، ولا ينفعه إيمانُه، ولا توبته حين حضور الأجل قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] ويدخل في هذا الذي كَفَرَ بعيسى بعد إيمانه بموسى، ثم كفر بمحمدٍ، وازداد كفرًا؛ بمعنى: الذين آمنوا بموسى، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بمحمد.

فالآية تنطبق على اليهود خاصة، فهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرًا بمحمدٍ؛ لن تُقبل توبتهم، وأولئك هم الضالون، وهذا تفسيرٌ مُتعيَّنٌ؛ لأن الضلال وصفٌ ثابتٌ لليهود، وهم الذين كفروا برسولين، وهم أشد عداوة ممَّن كفر برسول واحد وهم النَّصَارَى، وهذا الصِّنف من الناس يشمل مَن ارتدَّ أكثر من مرة، وزاد إصرارًا على كفره، وعداوة للإسلام وأهله، والكيد لهم، وإيذاءهم.

الصِّنفُ الثَّالِثُ: قومٌ كفروا وماتوا على الكُفْر دون أن يَحدث منهم أيُّ توبة، وهم الذين ماتوا وهم كفار، هؤلاء لا ينفعهم عمل صالح قدَّموه في الدنيا، ولو كانوا ينفقون ويتصدَّقون ويحسنون التعامل، فالأصل منتفٍ، وهو الإيمان، وما يترتب عليه لا قيمة له، ثم هو لا يستطيع يوم القيامة أن يُنجي نفسه من عذاب الله، ولا بكنوز الأرض ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨].

وهو يريد أن يفتديَ به من عذاب الله يوم القيامة دون جَدْوَى.

سألت عائشة ﵂ رسول الله ﷺ قالت: عبد الله بن جُدعان، كان في الجاهلية يَصِل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1].

بَذْلُ الْمَالِ مِنْ أَهَمِّ خِصَالِ الْبِرِّ

٩٢- ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ[2] وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

وبعد أن تَحدثتِ الآياتُ عن الكُفْر وجزاء الكافرين، تناولتِ الحديثَ عن وسائل البر الذي تدور شرائعُ الإسلام عليه؛ فنوَّهت هذه الآية بشأن البر، وحثت على الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه من أهمِّ خِصال البر الذي ينفع أهل الإيمان، ويبلُغ بصاحبه إلى مرتبة البر، وقد حث الله عباده في هذه الآية على الإنفاق في وجوه الخير من المال والمتاع الذي تحبه النفوس، فإن تقديم محبة رضى الله تعالى على محبة المال، دليل على صدق الإيمان وقوة اليقين، وبقدر الإنفاق من المحبوب قلة أو كثرة، بقدر ما ينال العبد من البر نقصًا وزيادة، وهو مثاب على كل حال.

وفي معنى البر روى النواس بن سمعان ﵁ عن النَّبِي ﷺ أنه قال: «**البر حسن الخلُق، والإثم ما حاك في النفس، وكَرِهْت أن يطلع عليه الناس**»[3].

والبر لا يحصُل إلا ببذل النفس والنفيس؛ ومن ذلك الإنفاق مما هو محببٌ إلى النفس، فهو دليلُ السخاء، والوقاية من الشح، والرغبة فيما عند الله، وقد بيَّن تعالى خِصال البر في نقاط عشر في آية البرِّ من سورة البقرة.

قال الحسن البصري: إنكم لن تنالوا ما تُحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون ما

(١) من حديث عائشة في «صحيح مسلم» برقم (٢١٤).

(٢) عدّ كلمة (تحبون) آية، المدني الأخير والدمشقي والمكي، فتكون متروكة من العدد لغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٣).

تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

وأصل البر: التوسع في فِعْلِ الخير، سواء بين العبد وربِّه أو بينه وبَيْن الناس.

والبِرّ: هو ثوابُ الطاعة، والعمل الصالح، الموصل إلى الجنة وإلى محبة الله ﷻ؛

ولا يكون ذلك حتى تنفقوا من أطيب أموالكم، ومن أجلِّ كَسْبكم.

ومعنى الآية: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبْلُغوا ثوابَه الجزيل الذي يُوصلكم إلى رضَى الله تعالى، ودخول جنته التي أعدَّها لعباده الصالحين؛ حتى تتصدقوا بما تُحبون، وتُؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله، ومهما أنفقتم من شيء قليل أو كثير فإن الله عليمٌ به، وسيجازيكم عليه بأكثر ممَّا بذلتم وأنفقتم.

فلا يُنجِّي العبد يوم القيامة كنوز الأرض لو ملَكَها وأنفقها؛ ليَفْدي بها نفسَه من عذاب الله إن مات على الكفر، ولكن الذي ينجيه هو الإيمان بالله تعالى وبرسوله والعمل الصالح كما جاء في هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- سمع أبو طلحة هذه الآية، وكان له حديقة في مقابل المسجد، وهي أحبُّ أمواله إليه، فقال: يا رسول الله، إني تصدقتُ بها لوجه الله، قال النَّبِي ﷺ: «**اجعلها في أقرب الأقربين**»[1] يعني: اجعلها وقفًا على أقرب الناس إليك، فأوقفها على حسان بن ثابت، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما جميعًا.

٢- كما في الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثرَ الأنصار بالمدينة مالًا، وكان أحبُّ أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مُسْتقبِلةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يَدخلها، ويشرب من مائها.

قال أنس: فلمَّا نزلت ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبَّ

---

(١) في المسند (١٢١٤٤) بلفظ (اجعله في فقراء أهلك) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البخاري (٤٥٥٥) وعبد بن حميد (١٤١٣) وأبو يعلى (٣٨٦٥).

أموالي إليَّ (بَيْرُحاء)، وإنها صدقةٌ لله ﷻ، أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله، فضعْها يا رسول الله حيثُ شئتَ، فقال رسول ﷺ: **«بَخٍ بَخٍ، ذاك مال رابح، وأنا أرى أن تَجعلها في الأقربين»** فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسولَ الله، فَقَسَمَها أبو طلحة في أقاربه، وبني عمه، **وبيرحاء**: اسم لموضع بالمدينة، كان به حديقة لأبي طلحة[(١)].

٣- وصَحَّ أن عمرَ ﷺ قال: يا رسول الله، لم أُصِبْ مالًا قَطُّ هو أَنْفسُ عندي من سهْمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: **«حبِّس الأصل، وسَبِّل الثمرَة»**[(٢)].

٤- وعمر بن الخطاب ﷺ كانت له جارية أحبُّ ما تكون إلى نفسه، ولمَّا سمع هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ أعتقها لوجه الله سبحانه[(٣)].

٥- وأبو ذَرٍّ ﷺ جاءه ضيوفٌ، فقال لراعيه: تَخيَّر لنا أنفَس الإبلِ واذْبحها، فجاء بإبل هزيلة وذَبَحَها، قال له: إنك خُنْتني، قلتُ لك: تخيَّر أحسنها، قال: لقد تركتُ أحسنها لمهمة أعظم من هذا الضيف، فقال أبو ذر: إني أُقدِّمها لأضْيق وقت، للقبر حين أَنزل في حُفرتي[(٤)].

٦- وكان لعبد الله بن عمر ﷺ جاريةٌ رومية، هي أحبُّ شيء إلى نفسه، فخطرت هذه الآية على قلبه، فتذكر أحب ما أعطاه الله إليه، فقال: هي حرَّةٌ لوجه الله تعالى، فلو أني أعود في شيء جعلته لله؛ لنكحتُها؛ أي: تزوجتها[(٥)].

٧- وجاء زيد بن حارثة بفرَس هو أحب ما يملك، وقال: يا رسول الله، تصدق بها، فأعطاها النَّبي ﷺ أسامة (ابنه) فقال: يا رسول الله، أردت أن أتصدق، قال عليه الصلاة

---

(١) «المسند» (٣/ ١٤١) (١٢٤٣٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (١٤٦١، ٢٣١٨، ٢٧٥٢، ٢٧٦٩، ٤٥٥٤، ٥٦١١) و«صحيح مسلم» برقم (٩٩٨) ومالك (٢/ ٩٩٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢)، و«سنن النسائي» (٢/ ٢٣٢) في كتاب الأحباش و«سنن الدارقطني» (٤/ ١٩٣) عن نافع عن ابن عمر ﷺ برقم (٤٤٠٢، ٤٤٠٨، ٤٤١٠) وهو في «المسند» (٤٦٠٨، ٦٤٦٠) بأطول من هذا، وابن حبان (٤٨٩٩).

(٣) ابن جرير (٣/ ٢٤٦).

(٤) الإمام أحمد (٤/ ٢٦٥).

(٥) «مسند البزار» (٢٩١٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢٦): وفيه مَن لم أعرفه.

والسلام: «**إن الله قد قَبِلَها**»[١].

تَكْذِيبُ الْيَهُودِ فِي إِبَاحَةِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ

٩٣- ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٢] إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ[٣] ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذا رد على اليهود في زعمهم أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة في التحليل والتحريم، وكان يعقوب قد نذر لئن شفاه الله من مرض عرق النساء ليُحرمنّ على نفسه أحب الأطعمة إليه، وهي لحوم الإبل وألبانها، وتبعه بنوه في ذلك، وكان هذا قبل نزول التوراة، ولما نزلت التوراة حَرَّمت على اليهود غير ما حَرَّمه يعقوب على نفسه مما كان حلالًا لهم، وقد أمرهم الله أن يقرؤوا التوراة ليجدوا فيها ما ذكر.

وهكذا تَمضي الآيات لتبيِّن بقيةَ الجدل بين اليهود خاصة والمسلمين في المدينة؛ لتردَّ على الاعتراض الأول منهم، وهو إباحةُ القرآن لبعض ما حُرِّم على اليهود من طعام، وتبيِّن أن ذلك كان عقوبةً لهم على بعض المخالفات التي ارتكبوها.

وقد كان اليهود يتصيدون كلَّ شُبهة للطعن في الإسلام، فلما قال القرآن: إنه مصدِّقٌ للتوراة، قالوا: كيف وهو يحللُ مِن الأطعمة ما حُرِّم على بني إسرائيل؟!

وفي أسباب النزول: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانَها، وأنت تأكل ذلك، فلَسْتَ على ملته؛ فقال النَّبِي ﷺ: «**كان ذلك حلالٌ لإبراهيم**»، قالوا: كل ما نُحرمه اليوم كان حرامًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا؛ فأنزل الله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ..الآية؛ تكذيبًا لهم[٤].

(١) «الدر المنثور» (٢/ ٥٠) وابن جرير (٣/ ٢٤٧).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) مع المد والقصر وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من (تنزل) وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

(٤) النيسابوري (٩٨) والألوسي (٤/ ٣).

إِجَابَةُ النَّبِي ﷺ عَلَى أَسْئِلَةُ اليَهُودِ:

في حديث ابن عباس عن سعيد بن جبير قال: أقبلتْ يهود إلى النَّبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرَّعد ما هو؟ قال: «**ملَك من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله**»، فقالوا ما هذا الصوت الذي نَسمع؟ قال: «**زجْرهُ بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر**»، قالوا: صدقت، فأخبرْنا عما حَرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**اشتكى عِرْقَ النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانَها، فلذلك حرمها**»، قالوا صدقت[1].

وكان يعقوب قد نَذَرَ إن شفاه الله أن يُحرم على نفسه أحبَّ شيء إلى نفسه، وإسرائيل هو يعقوب، وكان قد حرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؛ تعبُّدًا وزهدًا وقهرًا للنفس، وطلبًا لمرضاة الله قبل نزول التوراة، فلما نزلتِ التوراة حَرَّم الله على اليهود فيها ما شاء؛ بسبب ظلمهم وبغيهم، وأحل لهم ما شاء.

وقد خَصَّ القرآنُ هذا الحُكمَ بالذِّكر؛ لأنه أصْرح دليلٍ في التوراة على وقوع النَّسْخِ الذي اعترضوا عليه.

جاء في سِفْرِ التكوين: أن يعقوب حرم على نفسه العرق الذي على الفخذ.

وفي الحديث السابق: أنه حَرَّم لحوم الإبل وألبانها، وكان ذلك على وجه النذر، فقد كان يعيش في البادية، ولا تستقيم عافيته إلا بأكل اللحم الذي فيه العرق، ولم يحرمه على نفسه بوحي من الله تعالى، بل من تلقاء نفسه.

ففي الآية ردٌّ عليهم؛ أي: ليس الأمر كما تدَّعي اليهود، إنما حَرَّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها؛ لسبب معين، وبَقِيَتِ الحُرمة في أولاده، ولمَّا أنكر اليهود ذلك؛ أمرهم النَّبِي ﷺ بإحضار التوراة، فلم يَجدوا فيها ما ادَّعوه من تحريم هذه الأشياء على إبراهيم.

وكان اليهود أنكروا وقوع النسخ؛ فأبطل الله ذلك، وبيَّن أنَّ النَّسْخَ حاصلٌ من زمن آدم إلى وقتنا:

١- فهذا زواج الأخ بأخته يُحرِّمه الله تعالى بعد آدم عليه السلام، وكان جائزًا في بدء الخليقة.

(١) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) مختصرا، وصححه أحمد شاكر بنحوه في «المسند» برقم (٢٤٧١، ٢٤٨٣) وقد حسنه محققوه، و«تفسير الطبري» برقم (١٥٠٦، ٧٤٢٠) و«المعجم الكبير» (٣٠١٢).
وقد سبق تخريجه في الجزء الأول بأتم من هذا وفيه تضعيف رواية الرعد.

٢- وهذا نوح ﷺ، أحل الله لقومه بعد الخروج من السفينة جميعَ دواب الأرض؛ ليأكلوا منها.

٣- وكان الجمع بين الأختين سائغًا، وقد جمع يعقوب ﷺ بين أختين، ثم حُرِّم عليهم ذلك في التوراة.

وقد أحل الله لعيسى ﷺ ما كان مُحرَّمًا على بني إسرائيل من الأطعمة؛ عقوبة لهم.

والقول بأن يعقوب حَرَّم هذه الأشياء على نفسه، وتركَها لله ﷻ مع أنه كان سائغًا في شريعتهم، هذا المعنى يناسب الآية قبلها: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فقد ترك يعقوب لله ما يحبه ويشتهيه.

وإخبار النَّبي ﷺ بما حرَّمه يعقوب على نفسه دليلٌ على صحة نبوَّته، فقد كان ﷺ أُمِيًّا، لا يقرأ ولا يكتب، فلمَّا أُخبَر أن ما يقوله اليهود ليس في التوراة، عُلم منه أن الذي أخبر به النَّبي ﷺ وحْيٌ من الله تعالى.

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: حضرتْ عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله ﷺ فقالوا: حدِّثْنا عن خِلالٍ نسألُك عنهن، لا يعلمهن إلا نبيٌّ، قال: **«سَلُوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدَّثْتُكم شيئًا فعرفتموه لَتُتَابِعُنِّي على الإسلام؟»** قالوا فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خِلال:

أخبرنا عن الطعام الذي حَرَّم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة، وماء الرجل؟ وكيف يكون الذَّكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النَّبي الأميُّ في النوم؟ ومَن وَلِيُّهُ من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابِعُنَّه.

فقال: **«أنشدكم بالذي أَنْزَل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيلَ مرض مرضًا شديدًا، وطال سُقْمُه، فنَذَرَ لله نذرًا، لئن شفاه الله من سُقْمِهِ لَيُحرِّمنَّ أحبَّ الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحبُّ الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟»** فقالوا: اللهم نعم، قال: **«اللهم اشهد عليهم»**.

وقال: **«أنشدكم بالله الذي لا اله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا، كان له الولد والشَّبَه بإذن الله، إن علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان ذكرًا بإذن الله، وإن علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل**

كان أنثى بإذن الله؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد عليهم».

وقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النَّبِي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبُه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد».

قالوا: وأنت الآن، فحدثنا من وَلِيُّك من الملائكة؟ فعندها نُجامعك أو نفارقك، قال: «إن وليّي جبريلُ، ولم يبعث الله نبيًّا قَطُّ إلا وهو وليُّه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وَلِيُّك غيره لتَابَعْنَاك وصدقناكَ فعندئذ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾[1].

وجاء هذا الحديث من طريق آخر عن ابن عباس ﷺ وفيه أن اليهود سألوا النَّبِي ﷺ عن خمسة أشياء هي:

١- علامة النُّبُوَّة؛ فأخبرهم بأن النَّبِي تنام عيناه، ولا ينام قلبه.

٢- وكيف يَخرج المولود ذَكَرًا أو أنثى؛ فأخبرهم بأنه يَخرج تبعًا لعُلُوِّ ماء أحد أبويه على الآخر.

٣- وماذا حَرَّم يعقوب على نفسه؛ فأخبرهم أنه يشتكي عرق النسا؛ فحرم لحوم الإبل وألبانها على نفسه.

٤- وسألوه عن الرعد وصوته؛ فأجابهم بأنه صوت الملَك حين يسوق السحاب بمخراق في يده.

٥- وسألوه مَن الذي يَنزل عليه من السماء؛ فقال: «جبريل»، قالوا: ذاك عدُوُّنا ينزل بالحرب والقتال والعذاب، ولو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطْر لكان؛ فأنزل الله آية البقرة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2].

---

(١) «المسند» (١/ ٢٧٨)، برقم (٢٥١٤) وإسناده حسن، وله طرق يتقوي بها كما في حديث (٢٤٨٣) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٤) والطيالسي (٢٧٣١) وابن إسحاق في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩١) والطبراني (١٣٠١٢) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنْظَر: «المسند» (١/ ٢٧٤) برقم (٢٤٨٣) وأوله (أقبلت يهود) و«سنن الترمذي» برقم (٣١١٧) وقال: حديث غريب والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٠٧٢)، والطبراني (١٢٤٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٤) وابن أبي حاتم (٩٥٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١١٤) قال محققو المسند: حديث حسن دون قصة الرعد.. وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير العجلي فقد روى له الترمذي والنسائي وهو ثقة.

وفي هذه الرواية زيادة ما يتعلق بالرعد وصوته وهي ضعيفه.

ومعنى الآية: كلُّ الأطعمة الطيبة كانت حلالًا لأبناء يعقوب ﷺ، إلا شيئًا واحدًا حرَّمه يعقوبُ على نفسه؛ لمرض نزل به، وهو ما حرَّموه على أنفسهم اقتداءً به، وهذا قبل نزول التوراة، فلمَّا نزلت التوراة حرَّم الله على بني إسرائيل بعضَ الأطعمة التي كانت حلالًا لهم؛ لظلمهم وبغيهم، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]

فإن ادَّعوْا أن هذا في التوراة وجادلوك فيه فاطلب منهم -أيها الرَّسُول- أن يأتوا بالتوراة ويقرؤوها حتى يعلموا صِدْق ما جاء في القرآن مِن أن الله تعالى لم يُحرِّم شيئًا عليهم قبل نزول التوراة، إلا ما حرَّمه يعقوب على نفسه.

وبهذا أبطل القرآن حجَّتهم فيما يتعلق بقضية النَّسْخ، وكذبهم في دعوى التحريم، وفي هذا أمرٌ من الله لرسوله أن يتحداهم بنصوص التوراة؛ ليبكِّتهم بما قالوه، ولم يجرؤ أحدٌ منهم أن يُخرج التوراة، وبذلك قامتِ الحجةُ عليهم، قال تعالى:

٩٤- ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

وبعد أن تحدَّاهم القرآن بالرجوع إلى التَّوراة، بيَّن سبحانه أنهم كَذَبُوا على الله بزعمهم أن ذلك كان مُحرَّمًا في ملة نوح وإبراهيم، بعد وضوح وبيان الحقيقة، وبعد أن ألزمَهم الحُجَّة القاطعة أنهم المتقوِّلون على الله بالباطل؛ افتراءً وظلمًا وتعمدًا للكذب، وتجاوزًا لحدود الله، وإذن فلا مَنَاصَ من تصديق ما جاء به القرآن على لسان محمدٍ ﷺ، فأي ظلم أعظم من ظلم مَن يُدْعى إلى تحكيم كتاب الله فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرا وتجبرا؟ قال تعالى:

٩٥- ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

وبعد أن فَرَغَ القرآنُ من إعلان كذبِهم بالحُجة القاطعة، قال: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ فيما أخبر به وحكم، وفيه تعريضٌ بكذبهم؛ أي: فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لإبراهيم فاتبعوا ملتَه، وما يدعوكم إليه محمدٌ هو مِن ملة إبراهيم، وهو الدين الصحيح الذي لا

يُقبل من أحدٍ سواه، فإن كنتم تريدون الطريق القويم فاتبعوا ملة الإسلام كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل] وكما قال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

وفي الآية أمر باتباع التوحيد ملة إبراهيم، وترك الشرك وأهله، وفيها دليل على أن اليهود غير موحدين، أي أنهم ليسوا على ملة إبراهيم ﷺ.

وفي الآية أمر بقول ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ عن عقيدة ويقين، وأعظم الناس تصديقا لله، أعظمهم علمًا ويقينًا بالأدلة النقلية والعقلية.

ويُستفاد من الآية جوازُ التصديق بعد القراءة أحيانًا؛ أي: قول (صدق الله العظيم) في نهاية التلاوة، وعدم الالتزام بها؛ حتى لا يُتوهم أنها من القرآن، ويتأكد هذا الجواز إن كان ما يُتلى من القرآن في وسائل الإعلام، وبعده موسيقى ونحوها من الأغاني والتمثيليات؛ للفصل بين القرآن وغيره من المواد التي لا تُناسب كلام رب العالمين.

أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ لِلْعِبَادَةِ

٩٦- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

وهذه الآية التي نحن بصددها تتحدث عن الشُّبهة الأخيرة في معركة الجدل بين اليهود والمسلمين؛ وهي اعتراضهم على تحويل القِبلة، فبيَّن الله تعالى لهم أن الكعبة هي بيت إبراهيم، وهي أول بيت وضع مُتعبدًا للناس، فاعتراضكم على تحويل القبلة أمرٌ مستنكرٌ، مع ادعائكم أنكم ورثة إبراهيم، ولكن اليهود يُبْدئون ويعيدون في هذا وغيره، بُغْية التشكيك والبلبلة في ثوابت الإسلام.

ومِن اتِّباع ملة إبراهيم التي جاء الأمر بها في الآية السابقة بناء البيت الحرام، وأداء شعائر الحج والعمرة، وكيف علَّمها جبريل الأمين إلى خليل الرحمن كما نؤديها اليوم.

والبيت الحرام هو أول بيت وضعه الله متعبدًا للناس في الأرض، لمغفرة الذنوب، وإقالة العثرات، وحصول الطاعات والقربات، والفوز بالجنات، والنجاة من النيران، وهو بيت مبارك، في قصده منافع دينية وأخروية، وفيه هدى للعالمين بمعرفة أداء المناسك والعبادات،

وهدى بمعرفة دلائل التوحيد وآثار الأنبياء والأولياء، ومن ذلك مقام إبراهيم، وأمْن الحرم، وفيه هداية للعالمين لمن حج واعتمر بخروجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وقد وصف الله البيت **بخمس صفات**:

١- كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض متعبَّدًا للناس.

٢- إنه مبارك، كثير الخير والنفع والبركة.

٣- أنه نفسه هدى للعالمين.

٤- أن مقصده واجب على كل مسلم بالغ مستطيع.

٥- ما تضمن من الآيات التي هي مشاعر الحج وهي تزيد على الأربعين.

٦- الأمن الحاصل في الحرم دون غيره.

جبريل يعلم الرسول المناسك:

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: أفاض جبريل بإبراهيم، عليهما السلام، فصلَّى بِمنَى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من مِنَى إلى عرفة، فصلَّى بها الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابتِ الشمس، ثم دُفِع حتى أتى مُزْدَلِفة، فنزل بها، فبات وصلَّى، ثم صلى، كأعجل ما يُصلي أحدٌ من المسلمين، ثم وقف، به كأبطأ ما يُصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى، فرَمَى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(١).

البيْتُ الأول:

جاء في سبب النزول: أن اليهود قالوا للمسلمين: بيتُ المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة، وأقْدم، وهو مُهاجَرُ الأنبياء وقبلتهم، وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله الآية(٢).

---

(١) حديث رقم (٩٦١) في تفسير ابن أبي حاتم، وهو في «المعجم الكبير» للطبراني، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٥١) عن أسانيده: رجال بعضها رجال الصحيح، ورجاله ثقات إلا الحسين بن حفص محله الصدق، فالإسناد حسن كما قال: د/ حكمت بشير في «التفسير الصحيح» (١/ ٤٣٦).

(٢) النيسابوري (٩٨) عن مجاهد.

وسأل خالد بن عرعرة، عليَّ بن أبي طالب ﷺ أسئلة؛ منها أنه قال له: فما البيت المعمور؟ قال: قال علي لأصحابه: ما تقولون؟ قالوا: نقول: هو البيت الحرام، قال: بل هو بيت في السماء يقال له: الضُّراح، حيال هذا البيت، حُرمته في السماء كحرمة هذا في الأرض، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملَك، ثم لا يعودون إليه، ثم تلا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: أما إنه ليس بأوَّل بيتٍ كان، قد كان نوح قبلهُ وكان في البيوت، وكان إبراهيم قبلهُ وكان في البيوت، ولكنه أول بيت وُضِع للناس فيه البركة.

ثم حدَّث أن إبراهيم ﷺ لما أُمر ببناء البيت ضاق به ذرعًا، فلم يدْرِ كيف يبْنيه؛ فأرسل الله السكينة، وهي ريح فَجُوج، لها رأس، فتطوَّقت له بالحُجج، فكان يبني عليها كل يوم ساقًا، ومكة شديدة الحر، فلما بلغ الحَجَر، قال لإسماعيل: اذهب فالتمس لي حجرًا أضعه، فذهب إبراهيم يطوف في الجبال فوجد حجرا، فوضعه، فجاء إسماعيل فقال: من أين هذا؟ فقال: جاء به مَن لم يتكل على بنائي وبنائك، فوضعه، فلبث ما شاء الله أن يلبث، ثم انهدم، فبنتْه العمالقة، ثم انهدم فبنتْه جُرْهُم، ثم انهدم فبنتْهُ قريش، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر، تنازعوا في وضعه، قالوا: أول مَن يَخرج من هذا الباب يضعه، فخرج النَّبي ﷺ من باب بني شيبة، فأمر بثوب فبُسط، ووَضع الحجر في وسط الثوب، وأمر من كل فخذٍ رجُلًا أن يأخذ ناحية الثوب، فأخذوه فرفعوه، فأخذه النَّبي ﷺ فوضعه[1].

فالبيت الحرام هو أول بيت وُضع للعبادة في الأرض؛ لإعلان التوحيد، وهداية الناس، وقد وُضِعَتْ قبله بيوتٌ كثيرةٌ، قبل بناء إبراهيم له -على القول بأن إبراهيم هو أول مَن بناه؛ ومِن ذلك بُرج بابل الذي بُنِيَ في إثْر الطوفان، وما بناه المصريون قبل عهد إبراهيم، وما بَنَى الكلدان في بلد إبراهيم قبل رحلته إلى مصر.

بركة الحرمين: ومما ورد في بركة الحرمين ما أخرجه الترمذي وغيره بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بحَرَّة السُّقْيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: **«ائتوني بِوَضوء»** فتوضأ، ثم قام فاستقبل القِبْلة، ثم

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٢/ ٦٠) رقم (٤٣٨) وحسنه المحقق، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٢٩٢).

قال: **«اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك، ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك، أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مُدِّهم وصاعهم مِثْلَيْ ما باركْتَ لأهل مكةَ، مع البركة بركتين»**[١] وهي بركات كثيرة ماديَّة ومعنوية حَبَا الله بها الحرمين الشريفين.

والمعنى: إن أول بيت بُني لعبادة الله في أرضه، هو البيت الحرام بمكة، وهو بيت تُضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، واستقباله في الصلاة، وقصده لأداء الحج والعمرة، صلاحٌ وهدايةٌ للناس أجمعين، فهو أولُ بيت جعله الله مُتعبدًا للناس -وهو موضع الطاعة- وقبلة الصلاة، وموضع الحج والطواف، يستوي فيه العاكف والباد، وقد أضافه الله لنفسه تعظيمًا وتشريفًا له، وأضافه للناس؛ لأنه مكان حَجِّهم وقبلة صلاتهم.

بكة: وسميت مكة (بكة): من البك، وهو الدفع والازدحام، وهذا ما يحدُث في الحج، أو لأنها تَبكُّ (أي تَدقُّ أعناق الجبابرة، فلا يقصدها جبارٌ إلا قصمه الله)، والأَوْلَى أن يُقال: إن مكة هي بكة، وهما لغتان فيها، والعرب تُعاقب بين الباء والميم، كقولهم: ضربة لازب ولازم، ومن أسمائها: البيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم رُحْم، وأم القرى، والمقدَّسة، والكعبة، والبلدة، وغير ذلك.

أول من بنى البيت:

١- قال مجاهد: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين.

٢- وقيل: إنه ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض، وهو في محاذاة البيت المعمور.

٣- وقيل: أول مَن بناه الملائكة.

وفي الصَّحيحين من حديث مالك بن صعصعة فى شأن الإسراء والمعراج أن النَّبي ﷺ

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٩١٤) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٠٩) قال محققه: إسناده صحيح، وابن حبان في «الإحسان» برقم (٣٧٤٦) قال محققه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٥٤٣، ٥٤٤) بإسناد صحيح، وهو في مسند أحمد (٩٣٦) بإسناد صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤٢٧٠).

قال عن السماء السابعة: «**فرُفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه**»(١)؛ وذلك من كثرة الملائكة.

٤- وقد ورد أن آدم عليه السلام هو أول مَن بنى الكعبة؛ وذلك أنه لمَّا أُهبط إلى الأرض قال الله تعالى له: «**يا آدم، اذهب فابن لي بيتًا، فطُف به، واذكرني حوله، كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام (موقعه) وبناه، فكان آدم أول مَن أسس البيت وطاف حوله**»(٢).

وهذا الأثر يفيد أن آدم عليه السلام هو أول من بنى البيت، وقيل بخلافه.

حَدِيثُ القُرْآنِ عَنْ بِنَاء البَيْتِ

والقرآن الكريم يشير إلى وجود قواعدَ للبيت قبل رفع إبراهيم لهذه القواعد عند بنائه للبيت، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

ولمَّا كان الله تعالى ليس كمثله شيء، وهو جَل شأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولمَّا كان سبحانه مُنزهًا عن مُشَابَهَة المخلوقين، فقد اختار جل شأنه قطعةً من الأرض تتوسط العالم علْويه وسفْليه، طولها نحو اثني عشر مترًا، وعرضها نحو عشرة أمتار، أرض فضاء، ميَّزها الله وفضَّلَها، وأمر سبحانه ببناء الكعبة (البيت العتيق) في هذا المكان؛ ليستقبلها العباد فى صلاتهم من كل جهة في العالم، وكأنهم بهذا يَستقبلون وجه الله تعالى؛ لينظروا إلى البيت العتيق، ويطوفوا حوله في حِجهم وعمرتهم، وليتشبهوا بالملائكة، وهم يطوفون بالبيت المعمور في السماء السابعة، وهو يُحاذي البيت العتيق فى مكة المكرمة على شكل عموديٍّ.

---

(١) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» وهو في حديث رقم (١٠٣).

(٢) نُسب هذا القول إلى ابن عباس، راجع: «زاد المسير» في علم التفسير» لابن الجوزي ج٢ ص١١٤، وقد جاء ذلك في حديث مرفوع في «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من فردات ابن لهيعة، وهو ضعيف.

بناء المسجد الأقصى: وسُمِّيَ بالبيت العتيق؛ لأنه أول بيت بُني على وجه الأرض، وقد بَنَى إبراهيم البيت سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، ولما مرَّ ببلاد الشام، عيَّن الله له الموضع الذي سيكون به أكبر مسجد تبْنيه ذريتُه في هذا المكان، فأقام في هذا الموضع مسجدًا، هو المسجد الأقصى، وجعله على الصخرة التي كانت مَذبحًا للمشركين، وكان أهل هذا المكان يذبحون فيه القرابين، وبمرور الوقت، اندثر بناء إبراهيم للمسجد الأقصى.

وقد ثبت ذلك في سِفْرِ التكوين؛ ففيه: أن إبراهيم بَنَى مذابح (أي: مساجد) في جهات مرَّ عليها من أرض الكنعانيين؛ لأن الله أخبره أن يُعطيَ تلك الأرض لنسله، وكان هذا البناء بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا كما جاء في حديث الشيخين، في الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون عامًا**»[1].

ثم هَدَى الله سليمان بن داود عليهما السلام إلى تجديد بناء إبراهيم للمسجد الأقصى بعد أن أصبح شبه مندثر؛ لطول المدة بين إبراهيم وسليمان، وهي أكثر من ألف عام، فجدد سليمان بناءه فوق الصخرة التي كانت مذبحًا للقربان، والتي بنى إبراهيم عليها المسجد قبل ذلك بأكثر من ألف عام.

والثابت لدينا في بناء البيت هو الذي جاء به القرآن من لدن رَفْع إبراهيم لقواعده، وما قبل ذلك فهي آثارٌ محتملِةٌ للصحة من عدمها، وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما يتحدث عن بناء إبراهيم للبيت، وهو يُقرر أيضًا أن إبراهيم هو أول من بنى المسجد الأقصى بعد أربعين عامًا من بنائه للمسجد الحرام، والمسجد الحرام أول بيت خُصَّ بالبركة وزيادة الخير، وجميع الطاعات والعبادات يَتضاعف ثوابها ويزداد عنده.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٩) ورقمه في البخاري (٣٣٦٦)، (٣٤٢٥) و«صحيح مسلم» (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢٠) و«المسند» (٥/ ١٥٠) (٢١٤٢١، ٢١٤٢٨) وابن أبي شيبة (١٤/ ١١٦) والطبري (٥/ ٥٩٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٩٨٢).

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»(١).

وفي حديث جابر ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة**»(٢).

وهو أهدى للعالمين؛ لأنه قبلتُهم ومتعبدُهم، يهتدون به في صلاتهم، ومَن قصده في صلاته وحجِّه، وكان عمله خالصًا صوابًا؛ فقد أوجب الله له الجنة برحمته وفضله، ورجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

أَرْبَعُ قَضَايَا فِي هَذِهِ الآيَةِ

٩٧- ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ(٣) وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ(٤) ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

تضمنتْ هذه الآية **أربع قضايا** هي: مقام إبراهيم، وأمن الحرم، وفرضية الحج، والاستطاعة: وفي البيت الحرام علاماتٌ واضحة دالة على حرمته ومزيد فضله، ومن هذه الدلالات: مقام إبراهيم، وأَمْنُ مَن دخله.

ومن آيات الحرم: الحجر الأسود، والحطيم، والملتزم، وزمزم، ومشاعر الحج كلها آيات.

القضية الأولى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

وهو الحَجَر الذي كان يقوم عليه عند بنائه للبيت، وفيه أثرُ قدميه، وهذه آية خاصة بإبراهيم؛ لأن من شأن الْقَدَم، أنها لا تغوص في الحَجَر الصلْد، وغَوْصُ قَدميْ إبراهيم في الحجَر،

---

(١) البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧١) والترمذي (٣٢٥) والنسائي (٢٨٩٩) وابن ماجه (١٤٠٤).

(٢) «المسند» (١٤٦٩٤) و (١٥٢٧١) بإسناد صحيح وحسن، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١١٥٥)، وفي ابن ماجه (١٤٠٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٩).

(٣) قوله تعالى (مقام إبراهيم) عدّها آية، الشامي والمدني الأخير، وأسقطها من العدد غيرهما.

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر (حِجُّ البيت) بكسر الحاء، وهي لغة نَجد، وقرأ الباقون (حَجُّ البيت) بفتح الحاء، وهي لغة أهل الحجاز وأسد.

وإبقاء ذلك فيه إلى يومنا هذا، آيةٌ دالة على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة إبراهيم عليه السلام.

ولمَّا فَرَغ إبراهيم من بناء الكعبة، وضع الحَجَر إلى جدار الكعبة، وظل كذلك حتى أخَّره عمر رضي الله عنه في خلافته إلى ناحية المشرق؛ ليتسع المطاف، ولم يُنكر عليه أحدٌ من الصحابة؛ لقول النَّبي ﷺ: في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه **«اقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر»**[1].

وأخرج البيهقي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقًا بالبيت، ثم أخَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رَمَلَ ثلاثة أشواط، ومَشَى أربعًا، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم، فصلَّى خلفه ركعتين.

والمَقَام: هو الحَجَر الذي كان يقف عليه إبراهيم لبناء البيت.

وقيل: إن المراد بمقام إبراهيم، مواضع المناسك: كالطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة والرمي وسائر الشعائر.

القضية الثانية: أمْنُ الحَرَمِ

ومن ذلك أنَّ مَن مات فيه وهو محرِم؛ فإنه يبعث يوم القيامة آمنا من النار.

١- **ومن مظاهر أمن الحرم:** امتناع الطير من الارتفاع فوق الكعبة في الهواء، بل ينحرف عنها يمينًا أو شمالًا إذا وصل إليها، والطير يَأْمَنُ على نفسه فيه، فالحمَام لا يَخاف الحِدَأَةَ.

٢- والوحوش لا يُؤذي بعضُها بعضًا في الحرم، حتى إن الذئاب لا تهيِّج الظِّباء، في الحرم، ولا تصطادها.

٣- **ومن حرمته:** تعجيل العقوبة في الدنيا لمَن قصده بسوء أو انتهك حرمته، كما حدث

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٩٥) وفي «سنن الترمذي» (٣٩٢٤)، والمسند (٢٣٢٧٦،٢٣٢٤٥) وهو حديث حسن بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، لكنه منقطع بين عبد الملك بن عمير وربعي بن حراش (محققوه) وأخرجه الحميدي (٤٤٩) والبزار في مسنده (٢٨٢٧) والبغوي (٣٨٩٤) والطبراني في الأوسط (٣٨٢٨.

لأصحاب الفيل وغيرهم.

وهذا الأمن يشمل جميع الحرم؛ لقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]

٤- والإنسان يأمن على نفسه فيه، قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يَقْتُل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيَلْقاه ابن المقتول فلا يُهيِّجه حتى يخرج.

وكان العرب في الجاهلية يَقتل بعضُهم بعضًا، ويَسبي بعضهم بعضًا، ويُغِير بعضهم على بعض، فإذا كانوا داخل الحرم أمنوا من هذا ومن غيره.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

٥- **ومن جملة تحريمه**: حرمة اصطياد صيده، وحرمة تنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجره، وقلْع حشيشه.

وفي يوم فتح مكة خطب عليه الصلاة والسلام فقال: «**إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يَحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يَحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوْكُه، ولا ينفَّر صيْدُه، ولا يَلتقط لُقطته إلا مَن عرَّفها، ولا يختلي خلاها**»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقيْنهم ولبيوتهم، فقال: «**إلا الإذخر**»[1].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح**»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي شُريح العَدوي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة؛ لقتال عبد الله بن الزبير: ائذن لي أيها الأمير أن أحدِّثك قولًا قام به رسول الله ﷺ الغدَ من يوم الفتح، سمعتْهُ أُذناي، ووعاه قلبي، وأبصَرتْه عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ**

(١) أخرجه الشيخان «فتح الباري» (٤/ ٥٦) ورقمه في البخاري: (١٥٨٧، ١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥، ٣٠٧٧) ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٥٦).

يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دمًا، ولا يعضِد بها شجرة، فإن أحدًا ترخَّص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

فقيل لأبي شُريح: ما قال لك عمرو، قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخَرْبه[1] (أي: سرقة أو خيانة).

٦- وذهب أبو حنيفة إلى أن مَن وجب عليه القتل حدًّا أو قِصَاصًا، ثم لجأ إلى الحرم، لا يُستوفى فيه، وإنما يُضَيَّق عليه، ويُمنع من الطعام والشراب، حتى يخرج منه، فيُقام عليه الحدُّ أو القصاص خارج الحرم.

وقال الشافعي: إذا وجب عليه القتل خارج الحرم، ثم لجأ إلى الحرم، فإنه يُستوفى منه فيه.

وأجمعوا على أنه لو قتل أو سرق أو زنى في الحرم، فإنه يُستوفى منه الحدُّ فيه؛ عقوبةً له.

أما إذا ارتكب جنايته خارج الحرم، ثم لجأ إليه للحماية فيه، فقيل: يُقتص منه فيه، وقيل: يُضيَّق عليه حتى يَخرج منه، وقد أمر النَّبِي ﷺ بقتل (ابن خطل) وهو متعلق بأستار الكعبة يوم الفتح.

القضية الثالثة: حج بيت الله الحرام

ثم تُقرر الآية أن الله تعالى **فرض الحجَّ على المستطيع** من عباده، قيل: إنه لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ جَمَعَ رسول الله ﷺ أهل الشرائع، فخطبهم: **«إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»** فآمنت به ملة واحدة، هم المسلمون، وكفرتْ به بقية الملل، فقالوا: لا نؤمن، ولا نصلي إليه، ولا نحج، فنزل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مَن جَحَدَ وأنكر فريضةَ الحج؛ فإن الله غني عنه وعن عبادته، وهو قول ابن عباس والحسن وعطاء.

وقيل في معنى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: مَن كان عنده القدرة على الحج ولم يحج؛ فإن الله غني عنه، وسمَّاه كُفْرًا تشنيعًا عليه، ووعيدًا له؛ لعدم القيام بشكر النعمة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣٥٤) والبخاري برقم (١٨٣٢) والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٢٨٧٦).

وفي الآية إيحاءٌ بأن الحج مكتوبٌ على اليهود، بعد انخراطهم في الإيمان، ودخولهم في الإسلام، فهو بيت أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ، وهو أول بيت وضعه الله للعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فوائد وأسرار:

١- فقد قدّم تعالى اسمه، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، وهو سبحانه الموجب للحج، وفي تقديمه اهتمام وتعظيم.

٢- ثم ذكر تعالى مَنْ أوجبهُ عليهم وهم الناس.

٣- وأتبع ذلك بتنكير السبيل لإفادة، أيّ سبيل تيسّرت من قوت أومال.

٤- ثم جاء أعظم تهديد بالكفر لمن ترك الحج مع الاستطاعة أو تركه جحودا له.

٥- وأتبعه باستغناء الله تعالى عن خلقه وأنه ليس بحاجة إلى حج أحد، وهو يتضمن مقت الله تعالى وسخطه.

٦- ثم أكد سبحانه ذلك بلفظ (فإن) وذَكَر العالمين جميعًا دون الاكتفاء بمن كفر، فله وحده الغني التام المطلق.

القضية الرابعة: الاستطاعة

ويجب الحَجُّ على المسلم البالغ العاقل المستطِيع، والاستطاعة أن يكون قويًّا قادرًا على السفر، يُمكنه الثبوت على الراحلة وحده، مالكًا للزاد، ونفقة السفر له ولمَن يَعُولُ أثناءَ الحج، ولا يَخاف أمن الطريق.

ويوجد مع المرأة مَحْرَمها، وإلا فهي لم يَتوفر لها شرطُ الاستطاعة.

وتجوَّز بعض الفقهاء (الشافعي) في سفر الحج للمرأة؛ فقالوا: يَجوز سفر المرأة مع رِفقة مأمونة (أي: جماعة فيهم رجال ونساء)، فإن لم تُؤمَن الخلوة أو الفتنة، فإنه لا يجوز لها السفر؛ لأن الرِّفقة غير مأمونة حينئذ.

فإن كان المسلمُ عاجزًا بنفسه؛ بأن كان مريضًا مرضًا لا يُرجَى برؤه، ولا يَثْبُت معه على الراحلة وعنده مالٌ؛ فإنه يجب عليه أن يستأجر مَن يَحج عنه، وإن لم يكن له مال، وحَجَّ عنه غيره، أو تبرع له بتكاليف الحج جاز.

جاءت امرأة من خثعم تقول: يا رسول الله، إن فريضة الحج أدركتْ أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يَثْبُت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «**نعم**»، وكان ذلك في حجة الوداع(١).

والثُّبوت على الراحلة يعني: أن الإنسان يُمكنه أن يجلس وحده على الكرسي، فإن أجْلَسْتَه على مقعد من المقاعد، ثم وقع، ولم يَثبت عليه، فهذا هو الذي لا يثبت على الراحلة.

ومَن مات ولم يَحج، يُحَج عنه من ماله قبل تقسيمه، وإن حج عنه غيره أجزأه.

الحج مرة: والأَوْلَى لمَن يُكثر مِن حج التطوع أو العمرة، أن يصْرِف نفقة ذلك في وجوه الخير المتعددة، ولْيترك مكانًا لغيره بالمشاعر ممَّن لم يَسبق له الحج أو العمرة من إخوانه المسلمين، لَا سِيَّمَا وقد كَثُرَتِ الناس، وضاقتْ بهم المشاعر، وزهقت الأرواح بسبب الازدحام، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ فهذه أربع من قضايا الحج: المقام، والأمن، والحج، والاستطاعة.

والحَجُّ أحدُ أركان الإسلام، والحج المبرور ليس له جزاءً إلا الجنة، ومَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والمُتَابَعَةُ بين الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما يَنفي الكيرُ خبثَ الحديد.

ولما سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ حين قال: «**أيها الناس، إن الله فرض عليكم الحجَّ فحجُّوا**»، فقال: أكل عام يا رسول الله؟ أعرض عنه النَّبِي ﷺ ولم يرد، حتى قالها ثلاثًا، ثم قال: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ فقال: «**يأيها الناس، إن الله كتب عليكم**

---

(١) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (١٥١٣) من حديث ابن عباس وانظر (١٨٥٤، ٤٣٩٩، ٦٢٢٨) و«صحيح مسلم» (١٣٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٩٧٥) برقم (١٣٣٧) وعند أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠٨) برقم (١٠٦٠٧) عن أبي هريرة، وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين غير الربيع بن مسلم، فمن رجال مسلم، وأخرجه ابن خزيمة (٢٥٠٨) وابن حبان (٣٧٠٤).

الحج»، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «**لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فما زاد فهو تطوع**»[١].

وقبل نزول هذه الآية كان الحَجُّ تطوُّعًا وتقرُّبًا إلى الله تعالى، وقد حَجَّ النَّبي ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة مرتين، ووقف مع الناس بعرفة.

أما وجوب الحج على الناس فقد فُرِضَ بنزول هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وقد صحَّ أنها نزلت سنة ثلاث من الهجرة عقب غزوة أحد.

وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الحَج كان واجبًا على التراخي منذ سنة ثلاث من الهجرة، ولكن المسلمين كانوا مُحْصَرين عن أداء الفريضة حتى فُتحت مكة[٢] سنة ثمان من الهجرة.

وحجَّ أبو بكر بالناس سنة تسع من الهجرة، وحجَّ النَّبي ﷺ الحَجَّة الأولى والأخيرة بعد نزول هذه الآية، وفرضيةُ الحج سنة عَشْرٍ من الهجرة، وتُوفِّي النبي بعدها بنحو ثلاثة أشهر ﷺ.

وفي هاتين الآيتين مَدَحَ الله بيتَه **بثلاثة أوصاف**؛ أنه:

١- مباركٌ. ٢- وهدى للعالمين. ٣- وفيه آيات بينات، منها:

(أ) مقام إبراهيم. (ب) أمن الحرم.

كُفْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِدَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَدُّ النَّاسِ عَنْ دَعْوَتِهِ

٩٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

وفي نهاية الحِوار بين أهل الكتاب والمسلمين، يُوجه الله سبحانه **نداءين** لأهل الكتاب، يُعلن فيهما الحقيقةَ، ويواجههم بها حيثُ يدْمغهم بالكُفر الصريح؛ لأنهم كفروا

---

(١) «المسند» (١/ ٢٩٠) برقم (٢٦٤٢) وإسناده صحيح على شرط مسلم وأبو داود برقم (١٧٢١) و«سنن النسائي» (٥/ ١١١) وابن ماجه (٢٨٨٦) و«المستدرك» (٢/ ٢٩٣) قال الحاكم: إسناده صحيح ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٥١٤)، وهو عند الدارمي (١٨٣٩) والطبراني (١٢٤٧٩).

(٢) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٤/ ٢١).

بآيات الله السمعية، وهي القرآن، وكفروا بآيات الله العقلية، وهي دلائل صِدْقِ الرَّسُول ﷺ، وليس لأحدٍ أن يرتاب في ذلك، فكلُّ مَن ابتغى غير الإسلام دينًا؛ فهو كافر، ولن تُقبل منه ديانة أخرى، وكل مَن لم يؤمن بخاتَم الرُّسُل رسولًا للخلق جميعًا؛ فهو كافر، وكلُّ مَن أشرك بالله؛ فهو كافر.

والنداء الأول: يقرِّر كُفر أهل الكتاب بالنَّبِي ﷺ؛ لعلمهم بصحة نبوته كما جاءت في كتبهم.

والنداء الثاني: يقرِّر أنهم يَمنعون الناس من الإيمان برسول الله ﷺ مع شهادتهم بصدقه في قرارة أنفسهم، فهم يَجمعون بين الكُفْر في أنفسهم، وصدِّ الناس عن الدخول في الإسلام.

قل - أيها الرَّسُول - لأهل الكتاب من اليهود والنَّصَارَى: لِمَ تَجْحدون حُجَج الله وآياته المنزلة على رسله، والتي دلَّت على أن دِين الله هو الإسلام، وتُنكرون ما في كتبكم من دلائلَ وبراهينَ على ذلك، وأنتم تعلمون صحتها، والله شهيد على صنيعكم! مطلع على أعمالكم ونياتكم، وفي هذا تهديدٌ، ووعيدٌ لهم، وتعنيفٌ على عنادهم للحقِّ، وكفرهم بآيات الله. قال تعالى:

٩٩- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثُمَّ وبَّخهم ثانيًا على إضلالهم لغيرهم، بعد أن وبَّخَهم على ضلالهم في أنفسهم؛ وذلك أنهم كانوا يُحاولون إرجاعَ المؤمنين إلى الكُفْر بالتشكيك فيه.

قال مقاتل: دَعَتِ اليهود حذيفة وعمار بن ياسر إلى دينهم.

وقال السدِّي: كانوا إذا سُئلوا: هل تَجدون محمدًا في كتبكم، قالوا: لا؛ ليصدُّوا عنه الناس، وفي ذلك نزلتِ الآية تقول لهم: لِمَ تَمنعون وتصرفون عن دين الله مَن آمن، وتُلْقون عليه الشُّبَه والشُّكوك، وتنكرون أوصاف محمدٍ ﷺ في كتبكم؟! وكان المُتوقَّع منكم أن تكونوا أول مَن آمن به، ولكنكم جمعتم بين الكفر، وبين صد الناس عن الإيمان بها، وتحريفها والميل بها عما جُعلت له، فأنتم ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وباطلًا وميلًا عن الحقِّ، فتصدون الناس عن السبيل المستقيم، وتريدون السبيل المعوج، وأنتم تعلمون ذلك فتلبِّسون على الناس، وتُوهمونهم أن في الإسلام خللًا ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: وأنتم

شاهدون عالمون بأن ما فعلتموه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبات، وأنتم أيضا شهداء على ما جاء في التوراة، وتَشهدون على صحة معجزاته التي تدل على نبوته، وتعلمون أنها حقٌّ، والله يعلم ما تكيدونه وتدبرونه للإسلام في كل زمان ومكان، وسوف يحاسبكم ويُجازيكم على ذلك.

مَسَاعِي أَهْلِ الْكِتَابِ لإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ

١٠٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾

وبعد انتهاء الجَدَل مع أهل الكتاب تتوجه الآيات إلى مُخاطبة المسلمين؛ لتحذِّرهم من مكايدهم، وعدم الوقوع في حبائلهم، أو اتباع دينهم، فهم يَحرصون على ذلك، حسدًا منهم وبغيًا عليكم، وتأمرهم بالتقوى، والاستمساك بحبل الله، والقيام بواجب الدَّعْوة إلى الله.

في سبب النزول:

مرَّ شاس بن قيس اليهودي بنفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه ما رأى من الأُلفة بينهم؛ فأمر شابًّا من اليهود أن يَجلس معهم ويذكِّرهم بما كان بينهم يوم بُعاث، وهي آخر حروبهم التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان الظفر للأوس، وأنشدهم الأشعار التي كانت تهيِّجهم؛ فتنازع القوم وتفاخروا، ونادى كلُّ فريق قومَه، فخرجوا بالسلاح للقتال.

فبلغ ذلك النَّبي ﷺ فخرج إليهم في نفر من المهاجرين، وقال: «**يا معشر المسلمين، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وألَّف بين قلوبكم، فألقوا السلاح وتعانقوا**»، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين.

قال جابر: فما رأيتُ يومًا أقبح أوَّلًا، وأحسنَ آخرًا من ذلك اليوم(١) فأنزل الله تعالى يُحذِّرهم بالله ورسوله واليوم الآخر أن يُطيعوا جماعة من اليهود والنَّصارَى ممَّن أتاهم الله التوراة والإنجيل؛ لئلا يُضلوكم، ويوغروا صدوركم، ويوقعوا بينكم العداوة والبغضاء، ويُلْقوا إليكم الشُّبَه في دينكم؛ لترجعوا جاحدين للحقِّ، كافرين بالله بعد إيمان، فلا تأمنوا جانبهم، ولا تقبلوا لهم رأيًا ولا مشورةً.

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٧٨) عن زيد بن أسلم.

وقد أخبر سبحانه بذلك في كثير من آياته؛ منها قوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] وقوله سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

ثم ماهو السبب الموجب لثبات المؤمنين وعدم زحزحة عقيدتهم ويقينهم، قال تعالى مبيّنًا ذلك:

١٠١- ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ[(١)] مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

بيّن سبحانه وتعالى على وجه التعجب والإنكار، والمنع والتغليظ، أنه: مِن أين يتطرق إليكم الكُفْر بالله؟! وكيف يَليق بكم ذلك، وآيات القرآن تُتْلَى عليكم، ورسول الله بينكم حيٌّ، ورسالته قائمة فيكم بعد موته، وفي كتابه وسنته الوعظ والتذكير، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؟! ومَن يستمسك بالقرآن والسنة، فقد وُفِّق لطريق واضح، ومِنْهَاجٍ مستقيم، وهذه الآيات توجب القطع بموجبها، والجزم بمقتضاها، وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، فقد نصح الرسول وبلّغ أعظم البلاغ.

وفي الآية دليلٌ على فضل الصحابة وعِظَمِ قدرهم، ولو أن الواحد منَّا أنفق من الأموال مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ من الأجر مثل ما ينفق أحدهم ملء الكف من المال.

والتعجب الذي في الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد].

وكما جاء في الحديث أن النَّبِي ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**أيُّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟**» قالوا: الملائكة، قال: «**وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟**» وذكروا الأنبياء، فقال: «**وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟**»، قالوا: فنحن، قال: «**وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟**»، قالوا: فأيُّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: «**قوم يَجيئون بعدكم، يَجدون صحفًا يؤمنون بما فيها**»، ثم قرأ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[(٢)].

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (صراط)، وهي لغة عامة العرب، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وهي لغة قريش.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤/ ٢٢) من حديث أبي جمعة الأنصاري.

أي: ومع هذا فإن التوكل على الله، والاعتماد عليه، هو العمدة والوسيلة إلى الرَّشَاد والسداد، وهو الطريق الموصِّل إلى دار السعادة، لأنه جمع بين الاعتصام بالله تعالى وبين اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

وفي صحيح مسلم وغيره عن زيد بن أرقم ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ خطيبًا بماء يُدْعى (خُمًّا) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ الناس وذكَّر، ثم قال: «**أما بعد: ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يُوشك أن يأتي رسول ربي؛ فأجيب، وأنا تارك فيكم ثَقَلَيْنِ؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهُدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه**»، ثم قال: «**وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»[1] بأن تكرموهم ولا تؤذوهم في حياتهم ولا بعد مماتهم ولا تُهينوهم، ولا تسبُّوهم، وقوموا بواجب المحبة لهم، ومرجع الأقوال والأعمال هو موافقة الكتاب والسنة.

قلتُ: إن الله تعالى قد أنزل على رسوله في حَجَّة الوداع قبل ذلك بأيام أنه تعالى أكملَ له الدين، وأتمَّ عليه النعمة، وأنزل عليه بعدها في مِنَى سورةَ النصر، وقد فَهِمَ منها بعضُ الصحابة أن الله تعالى يَنْعَي رسوله، حتى قال ﷺ: «**لا أراه إلا قد حان أجلي**»؛ أي: بعد دخول الناس في دين الله أفواجًا، وأَمْرِ الله له بالإكثار من التسبيح والاستغفار.

أقول: فلمَّا استشعر النَّبي ﷺ دُنوَّ أجله؛ أوصى أمتَه بالتمسك بكتاب الله وسنَّته، ثم أوصاهم بأهل بيته، كما يُوصي كلُّ مُشرف على فراق الدنيا.

وحبُّ آلِ البيت من الإيمان، ونحن نصلي على محمد وآله في كل صلاة، وفي جميع أحوالنا.

وقد نَهَى الرَّسُول ﷺ عن الغلوِّ، حتى ولو كان في شخصه، أو في قبره من بعده، فكان مِن آخر ما قال: «**اللهم لا تَجعل قبري وثنًا**»[2].

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٤٠٨)، وفي المسند (١٩٢٦٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أبو داود (٤٩٧٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٥٥٠) والنسائي في الكبرى (٨١٧٥) وابن خزيمة (٢٣٥٧) وغيرهم وأنظر حديث أبي سعيد الخدري في المسند (١١١٠٤) وجاء في الحديث (١٩٣٠٢) زيادة (ومن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والي من والاه وعادى من عاداه) وإسناده صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، غير ابن خليفة فمن رجال السنن وهو ثقة (محققوه) وانظر (١١١٠٣).

(٢) «المسند» برقم (٧٣٥٨) من حديث أبي هريرة، بإسناد قوي، وأخرجه الحميدي (١٠٢٥) وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٤٣) والبزار (٤٤٠) كشف وابن سعد (٢/ ٢٤١) وفي الموطأ (١/ ١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

هذا: والآيات التي نحن بصددها تَنْهَى عن اتباع اليهود، وتُوجب عدمَ التلقي عنهم، لَا سِيَّمَا في شأن العقيدة، ومنهج الحياة، بِخلاف التَّجارب العملية، والعلوم التجريبية عند أَمْنِ الدسائس.

وكذلك سُنَّة النَّبِي تدعو إلى عدم الأخذ عنهم، وعدم تصديقهم وتكذيبهم فيما يُخالف شيئًا من الكتاب والسنة.

لمَّا طَلَبَ عمرُ ﷺ من النَّبِي ﷺ أن يعرض عليه جوامع من التوراة، كتبها له يهودي من بني قريظة، تغيَّر وجهُه ﷺ وقال ﷺ فيما يرويه عبد الله بن ثابت عن عمر ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»**[١].

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلُّوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبِعَني»**[٢].

عَلاقَةُ الْمُسْلِمِ بِرَبِّهِ حَتَّى الْمَمَاتِ

١٠٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

وبعد هذا التحذير من التلقِّي عن أهل الكتاب، يأتي النداء الآخر؛ ليوجِّه المسلمين إلى **قاعدتَيْنِ أساسيَّتَيْنِ** هما: تقوى الله، والأُخوَّة في الله.

فالقاعدة الأولى: في العَلاقة مع الله تعالى.

والقاعدة الثانية: في العَلاقة مع الناس.

والآيات تبيِّن صورةً مِن مكر اليهود بالمسلمين، وعملهم المستمر على تَمزيق وحدتِهم، وتفريق صفوفهم، وتمزيق شملهم؛ لمَّا بدت بادرةٌ للوحدة بينهم، وجَمْع صفوفهم، وهو دأب اليهود في كل زمان ومكان.

---

(١) أخرجه أحمد بسنده عن عبد الله بن ثابت عن عمر برقم (١٨٣٣٥).

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى عن «الشعبي» عن جابر، وأخرجه أحمد برقم (١٤٦٣١)، وانظر تخريجه في الآية (٨١).

وها نحن نعيش ثِمار هذا الكيد، منذ أن عملوا على تقويض الدولة الإسلامية العثمانية، وعملوا على تفريق المسلمين وحدانًا وزرافات.

فقد نزل في الأوس والخزرج حين اقتتلوا وأصلح النَّبي ﷺ بينهم، قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ولما نزلت هذه الآية شَقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا: ومَن يَقْوى على هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] على أن الآية محكمةٌ، ولعله الأرجح.

والله تعالى يأمر عباده أن يتقوه حق التقوى، وأن يستمروا على ذلك ويستقيموا عليه إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه.

والمراد بحق التقوى: أداء ما يَلزم العبد على قَدْر الطاقة، وألا يكون فيها تقصيرٌ ولا رياء؛ لأن الاستطاعة هي القدرة، والتقوى مقدورة للناس، فآيةُ الاستطاعة مُفَسِّرَةٌ ومبيِّنةٌ لآية حقِّ التقوى، وهذه الآية أصلٌ عظيمٌ من أصول الأخلاق الإسلامية.

أما التقوى فحاصلها: امتثال الأمر، واجتناب النهي في الأعمال الظاهرة، والنوايا الباطنة.

فقد فسَّرها ابن مسعود ﷺ بقوله: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

وعن أنس ﷺ قال: لا يَتقي اللهَ العبدُ حقَّ تقاته حتى يَخزِن لسانه.

وعن ابن عباس ﷺ: أن يُجاهد العبد في الله حق جهاده، وألا يأخذ العبد فيه لومة لائم، وأن يقوم له بالقسط.

وعلى كلٍّ **فالتقوى هي**: أن تَجعل بينك وبين عذاب الله وقايةً، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وألَّا يَرَاك حيثُ نهاك، ولا يَفقدك حيث أمرك، ولا يكون العبد من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

والتقوى رُتبةٌ فوق رُتبة الإيمان، وهي درجة الوِلاية كما عرَّفها ربنا في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

ثم حذرنا الله سبحانه ونَهانا أن يُدركنا الموت، ونحن على غير الإسلام؛ بمعنى أن نتمسك

بعُرَى الإسلام حتى الموت، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن مُجاهد أن الناس كانوا يَطوفون بالبيت، وابن عباس جالسٌ معه مِحْجَن فقال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ **ولو أن قطرة من الزقوم قُطرت في الدنيا؛ لأفسدت على أهل الأرض معايشَهم، فكيف بمَن ليس لهم طعام إلا الزقوم**»(١).

وعن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «**لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله**»(٢)، فيرجو رحمة ربه، ويحذر من اليأس والقنوط.

والمعنى: يأيها الذين صدقوا الله، واتبعوا رسولَه، وخافوا الله حقَّ خوفِه، داوموا على تَمسككم بإسلامكم إلى آخر حياتكم؛ لتلقوا ربكم وأنتم على إسلام.

وُجُوبُ وَحْدَةِ الأُمَّةِ

١٠٣- ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ(٣) وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثم حذَّر اللهُ الأمةَ من تَمزيق الصف الإسلامي، وإثارة الفتنة، وأسباب الفُرقة بين المسلمين، فأمرهم أن يتمسكوا جميعًا بحبل الله، الذي هو كتابُه، كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**»(٤)، وسُمِّي

---

(١) حديث حسن صحيح، أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم (٢٥٨٥) وهو في «تحفة الأحوذي» (٧/ ٣٠٧) وأخرجه أيضًا النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣١٣) برقم (١١٠٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٦) برقم (٤٣٢٥) وابن حبان (٩/ ٢٧٨) برقم (٧٤٧٠) وأحمد (١/ ٣٠١) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٥) برقم (١٤١٢٥، ١٤٤٨١) حديث صحيح وإسناد قوي على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ومسلم (٤/ ٢٢٠٥) برقم (٢٨٧٧)، وأخرجه أبو داود (٣١١٣) وعبد بن حميد (١٠١٥) وابن حبان (٦٣٧) والطبراني في الأوسط (١٦١٣) وأبو يعلى (١٩٠٧).

(٣) قرأ البزي بتشديد التاء من (تفرقوا) ومد الكلام قبلها ست حركات، وهذا في حالة الوصل.

(٤) «تفسير الطبري» (٧/ ٧٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٠٦) و«صحيح الجامع الصغير» (٤٣٤٩).

حبلًا؛ لأنه السبب الموصِّل إلى الله ﷻ، والقرآن هو حبل الله المتين، ونوره المبين.

قال ابن مسعود ﷺ: عليكم بالجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به.

واجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم، يؤدي بهم إلى صلاح دينهم ودنياهم، ويحصل به من المصالح والمنافع ما تستقيم به الحياة ومنها النصر على الأعداء.

ونهاهم عن الفُرقة وأسبابها من كلِّ ما يُؤدي إلى الاختلاف وعدم الأُلفة، والبغضاء، والمعاداة، وتقطيع أواصر الأخوة والمحبة والمودة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«إن الله يرضَى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا؛ يرضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تُنَاصِحُوا مَن ولَّاه الله أمرَكم، وَيَكْرَه لكم: قِيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**(١).

ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمة جليلة من نِعَمِ الله تعالى على المسلمين في كل زمان ومكان؛ حيث جَمَعَ الله بين قلوبهم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبِ بعضِهم محبةَ بعضٍ، بعد أن كان بعضهم يعادي بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، فأصبحوا بفضل من الله تعالى بعد بعثة محمد ﷺ إخوةً متحابين فيه، وكانوا قبل ذلك في شِقَاقٍ وفُرقة على حافَّةِ نار جهنم قبل الإسلام، ليس بينهم وبينها إلا أن يموتوا فيدخلوها، فهداهم الله إليه، ونَجَّاهم من النار.

وكما بيَّن الله لكم معالم دِينِه، والإيمان الصحيح، يبيِّن لكم ما فيه صلاحُكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة؛ لتهتدوا إلى سَبيل الرشاد، فتسلكوها ولا تنحرفوا عنها.

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ وفيها إشارة إلى ما كان بين قبيلتي الأوس والخزرج، وهما في الأصل أخوان شقيقان، فوقعت بينهما عداوةٌ وحروبٌ استمرت مئة وعشرين سنة، إلى أن أطفأها الله بالإسلام، وألَّف بين قلوبهم بخاتَم النَّبيين ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقد امْتَنَّ رسول الله ﷺ على الأنصار بذلك يومَ تقسيم غنائم حُنين، حين غَضِبَ

(١) يُنْظَر: «صحيح مسلم» (٣/ ١٣٤٠) برقم (١٧١٥) والبيهقي (٨/ ١٦٣)، والمسند (٨٧٩٩، ٨٣٣٤) بإسناد صحيح، وأبوداود (٦٧٨).

بعضُهم من القِسْمة؛ فخَطَبَهم النَّبي ﷺ فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدْكم ضلَّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي**»، فكلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أمنُّ[1].

والآيَةُ عامةٌ في كل أهل فُرقة وخِلاف يَجمع الله بينهم على الإيمان، وعلى محبته سبحانه، وأمة الإسلام في أمس الحاجة لهذا الدرس العظيم:

١- عن زيد بن أرقم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تَمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل مَمدود من السماء إلى الأرض، وعِتْرَتِي أهل بيتي، ولن يتفرَّقا حتى يردا الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[2].

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات مِيْتَة جاهلية، ومَن قاتل تحت راية عِمِّيَّةٍ، يغضب لعُصْبَةٍ، أو يدعو إلى عُصْبَةٍ، أو ينصر عُصْبَةً، فقُتل، فَقتْله جاهلية، ومَن خرج على أمتي، يضرب بَرَّها وفاجرَها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني، ولستُ منه**»[3].

٣- وجاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتِك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثًا سمعتُ رسول الله ﷺ يقوله: «**مَن خلع يدًا من طاعة لَقِيَ الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومَن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية**»[4].

٤- وعن عوف بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**افترقتِ اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فرقة في الجنة وسبعون في النار، وافترقتِ النَّصَارَى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقنَّ أمتي**

(١) النسائي (٥/ ٩١) وهو في البخاري (٤٣٣٠، ٧٢٤٥) وفي مسلم (١٠٦١).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٠) و«المسند» (٣/ ١٣، ١٤، ١٧، ٢٦، ٢٩) وأيضًا (٥/ ١٨٢) ورقمه: (١٩٢٦٥، ١٩٣١٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وقد سبق تخريجه بأوسع من هذا، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٦٢): إسناده جيد، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٢/ ٣١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٤٨)، والمسند (٧٩٤٤، ١٠٣٣٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥١) و«المستدرك» (١/ ٧٧) (١١٧).

على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»، قيل: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «**الجماعة**»[(١)].

وُجُوبُ تَبْلِيغِ الدَّعْوةِ فِي الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ

١٠٤ - ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

إن الأمة الإسلامية في أرجاء الأرض، وفي كل زمان ومكان، مُطالَبةٌ بأن يكون فيها **جِهازان مهمان** يقومان بواجب تبليغ الدَّعْوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الجهاز الأول: يقوم على تبليغ الدَّعْوة، ونشر الإسلام إلى غير المسلمين في العالم كلّه، بالوسائل الحديثة المختلفة، عن طريق الاتصال الشخصي، وعن طريق الهاتف، والفاكس، والتلكس، وعن طريق أجهزة الإعلام المختلفة؛ كالإذاعات، وشاشات التلفاز، والقنوات الفضائية، والصحف، والمجلات، وشبكة المعلومات، وغير ذلك، بترجمة مبادئِ الإسلام ومحاسنه إلى اللغات العالمية، ونشرها وبثّها لغير المسلمين في العالم، وبالمحاضرات والندوات واللقاءات، وبناء المدارس والمراكز الإسلامية والمساجد والمعاهد..

هذه مهمة أولياء أمور المسلمين، ومهمة علمائهم، وحكامهم، وهذا هو واجب الدَّعْوة إلى الإسلام، وهو الذي سمَّاه القرآن خيرًا في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فالدَّعْوةُ إلى الخير تعني: دعوة غير المسلمين للإسلام، واللام من ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، والأمر للوجوب، ما لم يصرفْه صارِفٌ عن الوجوب، ولا صارِفَ له هنا، والخير يطلق على الإسلام، ويطلق على كل ما يقرب العبد من ربه ويبعده عن سخطه.

والجهاز الثاني: يقوم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بالنسبة لأبناء المسلمين.

فكلُّ بلدٍ إسلاميٍّ لَا بُدَّ وأن يكون فيه هيئةٌ تقوم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بحيث يكون المظهر الإسلامي متحقِّقًا في الشارع، وفي السوق، وفي المسجد، والمدرسة، ووسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية وغير ذلك.

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٢٦) و« السلسلة الصحيحة» (١٤٩٢)، وسنن ابن ماجه (٣٩٩٢) وابن أبي عاصم (٦٣) والطبراني في الكبير (١٨ (٩١) و (١٢٩) وإسناده قوي.

فلا تَرَى خَمرًا يُباع جهرًا وعلانيةً، ولا ترى إفطارًا في نَهار رمضان، ولا ترى تَبَرُّجًا في الشارع، ولا اختلاطًا في المكاتب، والدواوين، والتعليم، وغيره، ولا ترى بيعًا أو شراءً أثناءَ أداء الصلاة جماعة أول وقتها في المساجد، ولا ترى رِشوةً متفشِّيةً في الوظائف الحكومية، ولا ترى غِشًّا في الأسواق، أو تطفيفًا في الكيل والميزان، ونحو ذلك.

هذه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُسمَّى قديمًا الحسبة، وكانوا رجالًا ونساء يحتسبون متطوعين أو معينين من قبل الدولة للقيام بهذه المهمة في الأسواق والشوارع، بحيث يكون المظهر العام مظهرًا إسلاميًا، لا ترى فيه مجاهرةً بمعصية، ولا ترى فيه مخالفًا في الظاهر لأحكام الإسلام، فارتكاب الجرائم من خمر وزِنًى وغير ذلك خفيةً، لا تضر إلا فاعلها، وارتكابُها علانيةً يُفسد المجتمعَ كلَّه.

وقد كانتِ المعاصي تَحدثُ في وقت الرَّسُول ﷺ، وفي مدينته الطيبة المباركة، كان يَحصل وقوعها من بعض الأفراد خُفية، وإذا كانت المعصية مستترة فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما أن تُسْتَحَلَّ هذه المعصية، وأن يُؤتى بها جهارًا مرخصًا من الدولة؛ فهذه طامة كُبرى، فإذا ظهر المنكر فإنه يَعُمُّ، ويَتَفَشَّى، ويضُرُّ المجتمعَ كلَّه حتى يصبح المنكرُ معروفًا، والمعروفُ منكرًا.

فإذا قلتَ لزيد من الناس: هذا الشيء حرام، أو معصية، أو منكر، يقول لك: الناس كلُّها تفعل، الدولة تفعل، زيد من الناس يفعل، وهو أهل علم وصلاح، فالموازين تنعكس، والناس يَفهمون الأشياء بما يتوارثونه، وما يَجدون عليه غيرَهم، ويقلدونهم من غير رجوع إلى أصل الحلال والحرام.

والمعروف: كلُّ ما أمر به الشرع على سبيل الفريضة أو النفل، وعَرَفَهُ العقل السليم والطبع القويم ستحسنه.

والمنكر: كلُّ ما أنكره الشرع على سبيل التحريم أو الكراهية، ولم يستحسنه العقل السويُّ والطبع القويم.

والقيام بهما فرضٌ متعينٌ على الحاكم المسلم في أبناء رعيته، عن طريق الدعاة ورجال الحسبة، والقيام بهما كذلك فرضُ عَيْنٍ على كل راعٍ في رعيته، كالوزير في وِزارته،

والمدير في إدارته، والأب في بيته، والمدرس في فَصله، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى، ورجال الاحتساب، ونحوهم.

أما بالنسبة لعامة الأمة فهو فَرْضُ كِفَايَةٍ فيهم بالنسبة لغيرهم، إلا إذا تعيَّن واجبُ الدَّعْوة إلى الله تعالى على شخصٍ معينٍ لا يوجد غيره، فيجب عليه وجوبًا عينيًا.

ولفظ (من) في ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ إما أن تكون للتبيين؛ فيكون المعنى: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، وإما أن تكون للتبعيض؛ فيكون المعنى: وليكن بعضكم آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

ولعل الأرجح أن (من) للبيان، ولكن هذه الفريضة لها درجاتٌ ومراتبُ، تختلف من الحاكم إلى العالِم، إلى المسؤول، إلى الوالد، فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا على كل إنسان بحسبه، إلى درجة أن من لا يَملك تغيير المنكر لا بفعله ولا قوله، أو يَخاف على نفسه من الضرر المؤكد، عليه أن يتمعَّر وجهه غضبًا لله تعالى؛ تعبيرًا عن الإنكار بقلبه، وأنه يُوالي في الله، ويُبغض في الله.

ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن رأى منكم منكرًا فلْيغيره بيدِه**»، وهذه مهمة مَنْ يملك التنفيذ والعقوبة من الحُكام والأمراء، والمخوَّلِين بذلك، وأولياء الأمور، «**فإن لم يستطع فبلسانه**» وهي مهمة العلماء والدعاة والكُتَّاب، وكل مَن عرف حكمًا فهو حُجة على مَن لم يعرف «**بلِّغوا عني ولو آية**»، «**وإن لم يستطع فبقلبه**» وينبغي ظهور الإنكار على جوارحه، وفي معاملته ومودته، وهذه مرتبةٌ يَملِكُها كلُّ إنسان، ولو كان سجينًا أو مقيَّدًا؛ ولذلك كانت أدنى المراتب و«**ذلك أضعف الإيمان**» و«**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[(١)].

وجاء الوعيد الشديد للأمَّة إذا تقاعستْ عن القيام بهذا الواجب:

عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف**

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» (١/ ٦٩) برقم (٤٩)، وفي المسند عن أبي سعيد (١١٤٦٠، ١١٥١٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في الترمذي (٢١٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٦٤٩).

ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم»(١).

هذان الجهازان: القيام بنشر الإسلام وتبليغ الدَّعْوة، بالنسبة لغير المسلمين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالنسبة لأبناء المسلمين، أوجبهما الله سبحانه على الأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أَمْرٌ من الله سبحانه، والأمة تَختلف عن الطائفة، وعن الفرقة، والجماعة.

فالأمة عندها إمكانات مادية، وطاقات بشرية، وسلطة تنفيذية، وعندها قوة تستطيع أن تُبلِّغ دعوةَ الله سبحانه للعالَم، وتستطيع أن تَشْجُبَ مَن يُخالف أوامرَ الله ﷻ، ويرتكب معاصيَه علانيةً، وهذه الأمة تدعو الناس إلى الخير، ويُفَسَّرُ الخير بأنه الإسلام؛ أي: يُبلغون دعوةَ الإسلام لغير المسلمين في العالم أجمع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ بالنسبة للمسلمين في كل مكان ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الذين يَقُومون بهذه المهمة حُكامًا وشُعوبًا ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون يوم لقاء رب العالمين.

النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالاخْتِلَافِ

١٠٥ - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

كما ينهانا سبحانه أن نَتشبه بغيرنا من اليهود والنَّصارَى وغيرهم، في الفُرقة والاختلاف، وتقسيم الأمة الإسلامية شِيعًا وأحزابًا، كما افترقت اليهود والنَّصارَى على أكثر من سبعين فرقة(٢)؛ فمَزقتْ وَحْدَةَ الصَّفِ فيها.

وقد أمرنا سبحانه في الآية السابقة بوحدة الصف في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ حيث تقوم الأمة الإسلامية على ركيزتين: الإيمان بالله، والحب في الله.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ تَنْهَى الآية عن الاختلاف في أصول الدين، وتنهى عن

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، «تحفة الأحوذي» (٦/ ٣٩٠) برقم (٢١٦٩) و«المسند» (٥/ ٣٨٨) برقم (٢٣٣٠١، ٢٣٣٢٧)، حسن لغيره وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٥٨) وفي السنن (١٠/ ٩٣) والبغوي (٤١٥٤).

(٢) يُنْظَر: الحديث في «المسند» (٤/ ١٠٢) برقم (١٢٢٠٨) عن أنس وأبي داود برقم (٤٥٩٧)وقد سبق ذكره وتخريجه.

الفُرقة والاختلاف، وتُبيِّن أن وَحدة الصف، ووَحْدَة الأمة، هي السلاح بعد الإيمان بالله ﷻ، السلاح الذي يَنصرهم الله به في الدنيا، ويضمن لهم الفوز والنجاة يوم لقاء رب العالمين، أما الذين صاروا شِيعًا وأَحْزابًا وتفرَّقوا واختلفوا، فالله سبحانه بيَّن مصيرهم في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ يوم القيامة.

والاختلاف والتنازع من أكبر أسباب الهزيمة وضعف الأمم ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقد برَّأ الله رسولَه من الذين افترقوا في أصول الدين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم].

أَسْبَابُ بَيَاضِ الْوُجُوهِ وَسَوَادِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٠٦- ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾

ويوم القيامة ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ لِمَا يعلوها من البهجة والسرور والنعيم والحبور، فتظهر آثار ذلك عليها ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ لما أصابها من الخزي والهوان والذلة والفضيحة وهو بياضٌ حسيٌّ ومعنويٌّ، وسوادٌ حسيٌّ ومعنويٌّ.

يوم تبيضُّ وجوه المؤمنين أهل الطاعة والاعتصام والائتلاف فرحًا واستبشارًا وحقيقة، وهم أهل السعادة، قال تعالى ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١]

وتَسْوَدُّ وجوه الكفار المخالفين حزنًا وكآبةً وكمدًا من أهل الفرقة والاختلاف، والخروج على جماعة المسلمين، وهم أهل الشقاء.

ثم يفصِّل الله سبحانه ويبيِّن السببَ في بياض الوجوه وسوادها يوم لقاء الله، فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَكَفَرۡتُم﴾ بالإسلام ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ به أيها اليهود والنَّصارَى، بعدما تَحقَّقَ لديكم بعثة محمدٍ ﷺ، وعرفتُم أنه حقٌّ، وأن كتابَه حقٌّ، كما تَنْطِق بذلك التوراة والإنجيل، ولكنهم كفروا بعد مجيئه ﷺ، فاختاروا الكُفْر على الإيمان، وقد بيَّن القرآن الكريم **أن لسواد الوجوه يوم القيامة أسبابًا** منها:

١- الكُفْر بعد الإيمان ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٢- والكذب على الله تعالى؛ بنسبة الشريك والولد إليه سبحانه ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

٣- اكتساب السيئات ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

٤- الكُفْر والفجور ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

والذين يكونون يوم القيامة فريقين: مبيضَّة وجوههم، ومسودَّة وجوههم، كلاهما من أمة محمدٍ ﷺ، ممَّن ارتدَّ بعد إيمانه، أو كذب على الله تعالى، أو أكثر مِن ارتكاب الموبقات، وكان من الفاجرين الكافرين.

وأمةُ محمدٍ تشمل أمة الدَّعْوة والإجابة؛ فيدخل في ذلك اليهود والنَّصارَى وغيرهم من سائر المِلَل والنِّحَل التي وصلتها دعوةُ خاتَم الرُّسُل، ولم تدخل تحت لوائه، فهم قد كفروا به عن علم، ويدخل في ذلك أهل الكتاب الذين علموا صِدْقَ دعوة محمدٍ ﷺ، كما جاءت في كتبهم، ثم كفروا به عن علم وإقرار سابق، واللاحق منهم يَتَّبِعُ السابق، والله سبحانه قد أخذ الميثاق والعهد على الخلق جميعًا أن يؤمنوا بالله ربًّا واحدًا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم في أصلاب آبائهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ وأخذ عليهم الميثاق على أَلْسِنَةِ رسلهم أن يُؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، ولكن هذا الميثاق يَنقضه أكثر الناس ممَّن كفروا بالله ورسوله، فيستحقون العقاب يومَ لقاء الله، ويقال لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ بسبب كفركم. قال تعالى:

١٠٧- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي: وأما أهل الإيمان والطاعة فيهنؤون أكمل تهنئة، ويبشرون أعظم بشارة، فهم يبشرون بدخول الجنة، ورضى ربهم ورحمته، ودخول الجنة أثر من آثار رحمة الله تعالى، فهم يتمتعون في النعيم المقيم والعيش السليم إلى جوار أرحم الراحمين.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود ﷺ أن الجنة يدخلها سبعون ألفًا بدون حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، فطلب عُكَّاشة بن محصن أن يكون منهم؛ فقال له النَّبي ﷺ: **«أنت منهم»**، ثم طلب ذلك رجلٌ آخر، فقال ﷺ: **«سبقك بها عُكَّاشة»**، وفيه: **«أنهم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى**

ربهم يتوكلون»[١].

وعن ابن مسعود ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: **«أما تَرْضَون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟»** فكبرنا، ثم قال: **«أما تَرْضَوْنَ أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟»** فكبرنا، ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»**[٢].

ثم يقول الله سبحانه مُعقبًا على هذا البيان، ومبينًا مصيرَ الفريقين، وأنه جل شأنه لا يُوقع العقوبةَ بِخلْقه ظُلْمًا:

١٠٨- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

هذه آيات الله وبراهينه، أو أمره ونواهيه، مشتملة على الحكمة والرحمة والثواب والعقاب، نَقُصُّها عليك - أيها الرَّسُول - والله حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يظلم أحدًا بنقص أو زيادة، بل يجازيهم بأقوالهم وأعمالهم، قال تعالى:

١٠٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ[٣] ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

والله ﷻ لا تضرُّه معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة المطيعين؛ ذلكم لأن الذي يظلم غيره، يظلمه كي ينال منه مالًا، أو عزًّا، أو سلطانًا، أو جاهًا، فهو يَظْلِمُ لسبب من الأسباب.

والله سبحانه غنيٌّ عن العالمين، يَستحيل عليه الظلم؛ لأنه جل شأنه ليس في حاجة إلى خَلْقِه حتى يظلِمَهم، فجميع ما في هذا الكون مِلْكٌ لله سبحانه، خَلْقًا وتَدبيرًا ومصيرًا يتصرف فيهم بقضائه وقدره، فيجازي كلًا بما يستحق ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والله سبحانه قد خَلَق هذا الكون، وهو في قَبضة يده وتحت تصرفه، وإليه يَرجع في الآخرة، فيجازي كلًّا على عمله حسنها وسيئها.

---

(١) تنظر ألفاظ الحديث ورواياته في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٦) وابن حبان في «موارد الظمآن» برقم (٢٦٤٦) و«مسند أبي يعلى» (٩/ ٢٣٣) والبزار (٤/ ٢٠٤) وفي معجم «الطبراني الكبير» (١٨/ ١٨٣) و«مسند أحمد» (١/ ٤٠١) برقم (٣٨١٩، ٣٩٨٧، ٤٣٣٩) وجاء أيضًا عن أبي هريرة وعن ابن عباس وعن عمران بن حصين.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) و«صحيح مسلم» (٢٢١).

(٣) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (تَرْجِعُ الأمور) بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون (تُرْجَعُ الأمور) بالبناء للمفعول.

مَنَاطُ الْخَيْرِيَّةِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ

١١٠- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه وَصْفَ هذه الأمة التي أَوْجب الله عليها الدَّعْوة إلى الخالق جل شأنه، وتبليغ الإسلام للناس كافَّةً، وأَوْجب عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيَّن سبحانه أن هذه صِفَةٌ خاصَّةٌ بأمة محمدٍ ﷺ، وأنها بهذه الصفة كانت خيرَ أمَّةٍ أخرجت للناس، فقد كُملت في نفسها بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وأكملت غيرها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتضمن دعوة الخلق إلى الله، وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وجاء في الأثر: «**وجعلت أمتي خير الأمم**»(١).

وهذه الصفة المَنُوطة بهذه الأمة هي التي تميزها عن غيرها ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَن سَرَّه أن يكون من خير أمة، فلْيقمْ بشرط الله فيها(٢).

فأنتم خيرُ الأمم وأنفعُهم للناس، فمَن أراد أن يكون من أمة محمدٍ ﷺ فعليه أن يُحقق شرطَ الله سبحانه في هذه الأمَّة، وهو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أوجبه الله علينا في الآيات.

واللام للوجوب ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ والمخاطَب بذلك أمة محمدٍ ﷺ، وفي مقدمتهم أصحابُ رسول الله ﷺ، فهم خير القرون ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يلونهم.

والإيمان بالله تعالى يشترك فيه سائرُ الأمم، أما الأمر بالمعروف والعمل به فهو مَنَاطُ

---

(١) أخرجه أحمد عن علي بن أبي طالب، «المسند» (١/ ٩٨) وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل، سيئ الحفظ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، فإسناده حسن، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٣٤) وبنحوه البزار (٦٥٦).

(٢) رواه ابن جرير.

الخيرية لهذه الأمة.

والإسلام لا يريد منك أن تُصلي وتصوم فحسب، وتنتهي عمَّا حرَّم الله، وتَمتثل ما أمرك الله به وحدك، ليس هذا هو المطلوب من المسلم فحسب، فخيرُ الناس أنفعُهم للناس، وعليك أن تُحبَّ للناس ما تُحبه لنفسك، فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر.

لا تقل: كلُّ إنسانٍ معلَّقٌ بِذَنْبِه، فعليك واجب التبعة أمام رب العالمين، إذا صليتَ فأنت مسؤول عن صلاة أهل بيتك وأولادك وبناتك ونسائك.

وأنت مسؤول عن جارك الذي تركتَه في المكتب وأتيتَ إلى المسجد وحدك، ولم تُكلِّف خاطرك كلمة تُذكره بها مرة ومرتين وعشر ومئة، وأن تتحمل الأذى في سبيل الله، طالما كانت دعوتُك بالحسنى والرِّفق واللِّين.

وأنت مسؤول عمَّن وجدتَهم في الطريق يجلسون، ولا يقومون لأداء الصلاة.

وأنت مسؤول عن المنكر الذي تراه في الشارع، وفي السوق، وما ظهر منه عند جارك، لا تغمض عينك؛ فأنت مسؤول عن كل ذلك.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصِيَّةٌ من خصائص هذه الأمة، ولو أنها فَقدتْ هذا الشرط؛ فإنها تستوجب مَقتَ الله سبحانه ولعنتَه وغضبَه، كما حلَّ ذلك ببني إسرائيل ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨] لماذا؟ ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: ٧٩] يجلس أحدهم مع مرتكب المنكر، يؤاكله ويشاربه، وهو يعلم أنه يعمل كذا وكذا من المنكرات، وربما يُجادل ويدافع عن نفسه في ارتكاب المعصية، لا أقول: إنه يقاطعه من أول وهلة، إنما يدعوه إلى ترك المنكر مرات ومرات، بالحسنى وبطرق مختلفة، ويتودد إليه بالهدية والعزيمة، حتى يهديَه الله ﷻ على يده.

قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود، وأُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، اليهوديَّيْن قالا لهم: إن دِيننا خيرٌ ممَّا تدعوننا إليه، ونحن خيرٌ وأفضلُ منكم، فأنزل الله هذه الآية(١).

---

(١) السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٨٥).

والمعنى: كونوا آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، حتى تكونوا خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس، كونوا دعاةً للخير، فأنتم أَوْلَى الناس بتبليغ أمر الله ونهيه، وأنتم الذين تَلقيتم الشريعة من رسول الله ﷺ مباشرةً، وآمنتم بالله إيمانًا جازمًا مُؤَيَّدًا بالعمل، وفي هذا وجوبُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل جِيل بطريق القياس؛ لئلا يتعطلَ هذا القطب العظيم في الإسلام لهداية البشر.

وهو واجبٌ على الكفاية، فالدَّعْوةُ إلى الخير يقوم بها كلُّ مسلم، ومنه ما يَحتاج إلى علم فيقوم به أهله، فيبيِّنون للناس المعروف، ويأمرون به، ويبيِّنون للناس المنكر وينهون عنه، والأمر والنهي يكونان بالحِكمة والموعظة الحسنة، ومُجَادَلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، أما امتثال المأمورين والمنهيِّين، فهذا يَرجع إلى الله تعالى ثم إلى وُلاة الأمور الذين يَحملونَهم على الفعل أو الترك.

وشرطُ النهي عن المنكر ألا يجُرَّ هذا النهي إلى منكرٍ أعظم، والأمور الخلافية لا ينبغي أن يكون فيها تَعصبٌ إلا للدليل الصحيح، وقد يتعصب الإنسان لشيءٍ يعلمه، وهو لا يعلم أنه قد غابت عنه أشياء يَجهلها ولا يعرفها، والناسُ أعداءٌ لِمَا يَجهلون.

وتَرْكُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُفضي إلى التفرق والاختلاف، وكثرة الشقاق والنزاع، فأنتم خيرُ أمة أخرجت للناس، **والمراد بالناس**: جميع البشر من أول الخليقة.

ومناط الخيرية في الآية يرجع إلى سببين:

أولهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانيهما: الإيمان بالله تعالى.

ولا شَكَّ أن الإيمان بالله مُقَدَّمٌ على كل شيء، ولكن المقصود الأساس في الآية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التسليم بوجود الأصل وهو الإيمان؛ **ولذا**: قُدم عليه.

وقد خَتَمَ الله الآية ببيان أن أهل الكتاب من اليهود والنَّصَارَى لو آمنوا بالله معبودًا واحدًا، وآمنوا بخاتَم النُّبُوَّة والرسالةِ لكان خيرًا لهم، ولكن قليلًا منهم آمن، وأكثرهم لم يُؤمن، وكان النَّبِي ﷺ قد دعاهم إلى الإسلام، وقَصَدَ بَيْتَ مِدْراسهم، وآمن به بعضهم.

قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**لو آمن بي عشرة من اليهود؛ لآمن بي اليهود**

كلهم»[1] والمراد عشرة من كبار أحبارهم، وممَّن آمن من اليهود والنصارى: عبد الله بن سلام، وأخوه، وعمتُه خالدة، وسنعة بنت عريض، وثعلبة ابنها، وأسد بن سعية القرظي، وأسد بن عبيد القرظي، ومُخيْرق، والنجاشي، ونَصَارَى نَجران، أما نصارى الحبشة فلم يُسلموا، ولكنهم لم يتعرضوا للمسلمين بأذى.

ثَلَاثُ بِشَارَاتٍ لِلنَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١١١- ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

ثم بشَّر سبحانه المؤمنين بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب، التي ناصبتكم العداء، لن يضروكم ضررًا بليغًا، ما دمتم مُتمسكين بالإسلام وتعاليمِه، فلن يؤذوكم إلا بلسانِهم وإلقاءِ الشُّبَه عليكم، ولن يضروكم ضررًا يُغيِّر عقيدتَكم، أو يهدم كِيان الأمة، ويزلزل ثوابتَها، واليهودُ أهلُ قوةٍ اقتصادية وسياسية وعسكرية في الحاضر، وهم يعملون على تحقيق ذلك، والله سبحانه أخبرنا وأعلمنا أنهم لن ينالوا منا الشيءَ الكثير، فلن تَمتد أيديهم إلى الإسلام فيُغيروه، أو يزيلوه من قلوب أبناء الأمة، وإيذاؤهم لنا لن يكون إلا إيذاءً خفيفًا لا يَخرج عن حدِّ القول أو الفعل المُماثل، وقد بشَّر الله الأمة **بثلاث بشارات:**

البُشْرَى الأُولَى: عدم حصول الضَّرر البالغ منهم ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي: ما يُؤذي أسماعَكم، كألفاظ الشِّرك والكُفْر، وهذه بُشرى من ربِّ العالمين؛ أنهم لن يضروكم حين تشتركون معهم في المعارك إلا الشيء القليل، باللسان والكلام، وينصركم الله عليهم، هذا إخبارُ العليم الخبير.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٣٠) وقال كعب: اثنا عشر، وتصديق ذلك في سورة المائدة: (وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا).

البُشْرَى الثَّانِيَةُ: ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فإن توليةَ الأدبار تعني: هزيمة العدو حين يُولي ظهره هربًا، وخوفًا من المواجهة في ساحات القتال.

ولو قاتلوا المؤمنين لولّوا الأدبار فرارًا، ثم تستمر هزيمتهم، ويدوم ذلهم، فليس لهم نصردائم، فالله سبحانه يقرِّر في كتابهجبنهم وضعفهم، فيقول سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الحشر:١٣] ويقول أيضًا: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾[الحشر:١٤].

البُشْرَى الثَّالِثَةُ: أن النصر لا يكون لهم في نهاية الأمر، بل سينصركم الله عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

ولو تأملتَ التاريخَ تَجد أن هذا قد تَحقَّقَ في أوقات عديدة، منذ جاء الإسلام إلى وقتٍ قريبٍ، طالما تَمسك المسلمون بدينهم، وطالما نصروا دينَ ربهم، فإن الله سبحانه يُحقق لهم النصر على عدوِّهم، وقد حدث هذا مع اليهود في خيبر، وبني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة، وإلى وقت قريب، في حرب العاشر من رمضان، وفي عدوانهم على أهل غزة، عام ١٤٣٠هـ حيث نصر الله سبحانه الأمة الإسلامية في سائر الأزمنة والأمكنة عليهم، فالله سبحانه يطمئن المسلمين ويُخبرهم بالنتائج المستقبلية.

وإن حدث عكسُ هذا في وقتٍ من الأوقات، فإنما هو درسٌ، وابتلاءٌ، وتمحيصٌ للمسلمين؛ لأنهم تخلَّوْا عن رسالة ربِّهم، ولم يَركنوا إلى الله ﷻ، ولم تكن موالاتُهم لله وفي الله، ولم يعتمدوا على أنفسهم في تصنيع الأسلحة التي يحاربون بها عدوهم..

ثَلاثُ جَرَائِمَ لِلْيَهُودِ وَثَلاثُ عُقُوبَاتٍ

١١٢- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ(١) ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ(١) ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ(٢) بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾

بيَّن سبحانه بعض العقوبات التي عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم، فقد عاقبهم الله بالذلة في بواطنهم، والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمئنون، ثم ذكر سبحانه **ثلاثًا من جرائمهم**:

---

(١) كسر أبو عمرو الهاء والميم وصلًا في كلمتي (عليهم الذلة) و (عليهم المسكنة)، وضمهما حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وصلًا كذلك، وكسر الهاء وضم الميم الباقون.

(٢) قرأ نافع (الأنبئاء) بالهمز مد متصل، والباقون بالياء.

الجريمة الأولى: كفرهم بآيات الله ﷻ.

الجريمة الثانية: قتلهم الأنبياء بغير حق.

الجريمة الثالثة: خروجهم عن طاعة الله تعالى وتجاوز حدوده.

والله ﷻ عاقبهم على ذلك **بعقوبات ثلاث:**

العقوبة الأولى: أنه تعالى قد ألزمهم الذِّلَّة والصَّغَار، وألصقها بهم في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أينما حلّوْا وأينما وُجدوا، والذلة بمعنى: المطاردة، والتشرد، وعدم العيش بحرية ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: أينما وجدوا في أي مكان من العالم، فالهوان والصَّغَار يلازمهم.

والعقوبة الثانية: ضَرْبُ المسكنة عليهم، والمسكنة هي الفقر الشديد - وإن كان في أيديهم المال والسلاح- فهم في خوف وقلق وحيرة واضطراب، غير آمنين، وغير مستقرين وحالهم يشبه حال الأسير الذليل المقيَّد المهان، المضطهد من كل من حوله.

وهذه الذلة والمسكنة تحيط بهم من كل جانب؛ كإحاطة السرادق بمن في داخله، فهم في حالة اضطهاد وحرب دائمة، وكُرْهٍ ورُعبٍ ومهانةٍ إلى يوم القيامة.

ثم استثنى سبحانه حبل الله وحبل الناس: **حالتين عارضتين** تقْوى فيهما شوكتهم وتشتدُّ شكيمتهم:

الحالة الأولى: حَبْلُ اللّهِ تعالى قال تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وحبل الله معناه: أن يدخلوا في دين الإسلام، أو يدخلوا في ذمة المسلمين، بالتحالف معهم، وبالعقود والعهود والمواثيق، ويكون لهم معهم ميثاق وعهد؛ فإنهم في هذه الحالة يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وهو عقد أهل الذمة، وإلزامهم أحكام الإسلام، هذا هو حبل الله.

والحبل في الأصل: هو ما يربط بين شيئين، وهو مستعارٌ في الآية بمعنى: العهد والميثاق.

الحالة الثانية: حَبْلُ الناسِ، وهو أن يكون بينهم وبين قوة عظمى -ذات بأس شديد- عهدٌ وميثاقٌ؛ فيعيشون تحت حمايتهم وفي رعايتهم، ويستنصرون بهم، ويستمدون منهم

قوتهم،وهذا هو حبل الناس، بمعنى: أن يكونوا في حمى دولة قوية،تحميهم وتأخذ بيدهم وتمنعهم.

فهم لا يسلَمُون من الذلة والمسكنة إلا إذا دخلوا في أحد هذين العهدين، وإلا فهم لا يُنصرون بأنفسهم، وهذا أمر واقعي مشاهد، وهو من دلائل النبوة.

العقوبة الثالثة: استحقاقهم لغضب الله تعالى وسخطه عليهم؛ بسبب كفرهم بآيات الله التي جاء بها محمد ﷺ، وبدلائل صدق نبوته الموجودة لديهم، ولأنهم قتلوا أنبياء الله بما لم يحدث في أمة غيرهم، وبسبب طغيانهم وتجاوزهم حدود الله تعالى، وجرأتهم عليه، وارتكاب أعظم الآثام والمعاصي.

وهم قد رجعوا بغضب من الله؛ فلا ترى اليهودي إلا وعليه آثار الخوف والرعب من أهل الإيمان، ولا يعمل لكيدهم وحربهم إلا خفية؛ وهذا بسبب كفرهم وتجاوزهم حدود الله، وقتلهم أنبياء الله، وجرأتهم على الله بارتكاب معاصيه، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[1].

أسباب العقوبات الثلاث:

ثم ما السبب في أنهم باؤوا بمقت وغضب من الله ﷻ وأنه جلَّ شأنه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة؟ السبب في هذا، **أربعة أشياء** ذكرها الله سبحانه:

السبب الأول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، التي أنزلها على محمد ﷺ وهي توجب اليقين والإيمان، ولكنهم كفروا بها بغيًا وعنادًا

السبب الثاني: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كما قتلوا نبي الله يحيى وزكريا عليهما السلام، وغيرهما، فيقابلون إحسان الأنبياء إليهم بقتلهم والإساءة إليهم.

السبب الثالث: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾، حيث خالفوا أمر الله ورسوله وسعوا بالفساد في الأرض.

والسبب الرابع: ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ والعدوان من شأنهم، فهم يعتدون على شرع الله وعلى خلق الله.

---

(١) وقف عليها الكسائي وحمزة بخلف عنه بالإمالة.

أَحَدَ عَشَرَ وَصْفًا لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ

١١٣- ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ملحوظة: لا ينبغي للقاريء أن يبدأ تلاوته بهذه الآية لشدة تعلّقها بما قبلها وتوقُّف المعنى في الآية السابقة على جملة ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾.

هذا: وبعد ذكر قبائح اليهود وغضب الله عليهم قال سبحانه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي: أن اليهود والنصارى، ليسوا مستوين في هذا الأمر؛ فمنهم الذي بلَغتْه دعوة الإسلام فدخل فيه كالنجاشي وأصحابه، وعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سلام، وأسد بن كعب، وأخيه أسيْد بن كعب، وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام، وهذه هي الفرقة المؤمنة، ومنهم من عاند وكابر واستمر على كفره وطغيانه، وهي الفرقة الفاسقة المذكورة في الآية السابقة.

قال أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، فهم جماعة استقامت على منهج الله، فآمنت بالله ورسوله، وأقبلت على ربها، وبادرت إلى فعل الخيرات، والله سبحانه يصفهم بهذه الأوصاف في هاتين الآيتين: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات، ومن ذلك أداء الصلاة فهم ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى طول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم، وخشوعهم في ركوعهم وسجودهم لله عز وجل.

وتمضي الآيات في وصف هذا الصنف من الناس وهم المؤمنون من أهل الكتاب، فيقول تعالى:

١١٤، ١١٥- ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟(١) مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ(٢) وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

---

(١) ،(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر والدوري عن أبي عمرو بخلف عنه (وما يَفْعَلُوا من خير فلن يُكْفَرُوه) بياء الغيبة في الفعْلين؛ لمناسبة قوله تعالى: (من أهل الكتاب)، وقرأ الباقون (وما تَفْعَلوا من خير فلن تُكفروه) بتاء الخطاب فيهما وهو الوجه الثاني للدوري، ووجه الخطاب رجوعًا إلى خطاب أمة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم المتقدم في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)... إلخ.

وقد وصف الله سبحانه بعض أهل الكتاب بالصلاح ممن دخل منهم في الإسلام؛ وذلك لأن رؤساء اليهود وأحبارهم، حين دخل من سبق ذكرهم في الإسلام، قالوا: هؤلاء أشرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وما استبدلوا به دينًا آخر، فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾[(١)] وهو وقف تام، يقف عليه القارئ[(٢)]، واكتفى القرآن بذكر أحد الفريقين، وهو الفريق الصالح.

والله سبحانه يبيِّن أن أعمالهم الصالحة لن تضيع سُدى، وإنما يُجزوْن عليها الجزاء الحسن ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: مِنْ عمل صالح قليل أو كثير ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ لن يعدموا ثوابه وأجره بل يثيبهم الله عليه أكمل ثواب، فلن يُحرموه، ولن يفوتهم منه شيء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي أن ثواب الأعمال يتبع قلب صاحبها من الإيمان والتقوى ومهما قل العمل أو كثر، فإنه لن يضيع عند الله، وسيجازيهم عليه، وهو سبحانه عليم بمن فعل الخيرات، وابتعد عن المحرَّمات، وابتغى رضوان الله تعالى وطلب ثوابه.

وقال بعضهم: إن المعنى: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ، كما قال ابن مسعود والسدِّي.

ثم بيَّن تعالى أن من أهل الكتاب، أي: من أمة محمد ﷺ أمة مؤمنة، وهم أهل كتاب، ووصفهم سبحانه بأوصاف هي من خصائص المؤمنين، ولم يتصف بها اليهود، **وأقول**: إن سياق الآيات يقضي أن المراد بهذه الأوصاف: مَنْ دخل في الإسلام من أهل الكتاب وهم اليهود على وجه الخصوص، وهم الفريق المقابل لمن ضُربت عليهم الذلة والمسكنة منهم، وهذه **الأوصاف الأحد عشر للفريق المهتدي هي**:

أولها: أنهم جماعة مهتدية مستقيمة عادلة قائمة بأمر الله تعالى، فهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ معتدلة مستوية مستقيمة على دين الله.

وثانيها: أنهم يتلون القرآن في ساعات الليل المختلفة، ومنها جوف الليل ووقت السَّحَر، وهذا معنى ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ﴾، أي في صلاة التهجد.

---

(١) النيسابوري (١٠١) والسيوطي (٥٦) وتفسير الطبري (٤/ ٣٥) وابن أبي حاتم بسند حسن عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس.

(٢) لا ينبغي للقارىء أن يبدأ تلاوته بهذه الآية (ليسوا سواء) وإن كانت أول ربع، وإنما يقف عند نهاية المعنى في الآية الخامسة عشرة بعد المئة أو قبل بدايته، في الآية التاسعة بعد المئة.

وثالثها: أنهم يُصلُّون صلاة التهجد وغيرها بخشوع وخضوع، ويجمعون في الصلاة بين السجود والتلاوة، وعبّر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أخص أركانها، وهذا معنى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، خضوعًا لله عز وجل.

ورابعها: أنهم يؤمنون بالله تعالى إيمانًا لا يشوبه شرك، وهذا يستلزم الإيمان بجميع الأنبياء والكتب والملائكة، وهذا معنى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وخامسها: أنهم يؤمنون باليوم الآخر، ويصفونه بما يصفه به المؤمنون، وهذا يستلزم ترك المعاصي خوفًا من هذا اليوم، والإيمان الحقيقي باليوم الآخر، يحث المؤمن على فعل ما يُقرِّبُه من ربه مما يُثاب عليه وترك ما يعاقب عليه.

وسادسها: أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فلا يداهنون، ولا ينافقون.

وأساس المعروف: توحيد الله تعالى والإيمان بمحمد ﷺ، ومن المعروف أنهم يدعون غيرهم إلى الدخول في الإسلام، ويأمرون الناس بكل خير، وينهوهم عن كل شر.

وسابعها: أنهم يَنْهون غيرهم عن المنكر، وأساس المنكر: الإشراك بالله تعالى، وكتمان صفة محمد ﷺ في التوراة.

وثامنها: أنهم يبادرون إلى فعل الخيرات خوف فواتها، ويرغبون في المسارعة إليها غير متوانين، ولا متثاقلين، ولا متكاسلين، وهذا معنى ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. أي يبادرون إلى فعلها، منتهزين الفرصة فيها، وأوّل وقتها.

وتاسعها: أنهم من جملة الصالحين، الذين صلحت أحوالهم، فرضي الله عنهم، واستحقوا الثناء عليهم، فوصفهم ربنا بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

والصلاح أعلى الدرجات وأكمل المقامات، والإسلام يدخل فيه بالضرورة فهم مسلمون صالحون، يدخلهم الله في رحمته، ويتغمدهم بمغفرته، ويشملهم بفضله وإحسانه.

وعاشرها: أنهم مجزيون على أعمالهم، ولن يَعدِموا ثواب أعمالهم، أو يُحرموا جزاءه.

وهو خطاب للمؤمنين على القراءة الأخرى بتاء الخطاب ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

حادي عشر: أنهم من جملة المتقين، وفي هذا بشرى لهم على جزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عند الله تعالى إلا أهل الإيمان والتقوى.

والإيمان أدنى درجة من التقوى، وقد وصف الله تعالى أولياءه بأنهم يجمعون بينهما فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

ومن خصائصهم صلاة الليل، كما جاء عن ابن مسعود ﵁ قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، قال: «**أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم**» قال: وأنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وإيمان المسلمين لا يشوبه شرك بالله تعالى، وإيمانهم باليوم الآخر إيمانًا كاملًا، وليس كإيمان من لم يدخل في الإسلام من أهل الكتاب يؤمنون ببعض الكتب والأنبياء ويكفرون ببعض، ولا يمتنع أن يتصف بهذه الصفات كل مَنْ حَسُن إسلامه من اليهود والنصارى؛ فأصبح من زمرة المؤمنين.

الكَافِرُ لَا يَنْفَعُهُ مَالُهُ وَلَا وَلَدُهُ وَلَا عَمَلُهُ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ تَعَالَى

١١٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

ولما وصف القرآن صورة المؤمن الحق، وبيَّن أنه مُثاب ومَجْزيٌّ على عمله، ذَكر في المقابل صورة الكافر الذي لا ينفعه ماله ولا ولده؛ لأنه لا جزاء له في الآخرة على عمل

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦) برقم: (٣٧٦٠) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) والطبراني في الكبير (١٠٢٠٩) وأبو يعلى (٥٣٠٦) والبزار في كشف الأستار برقم: (٣٧٥) وابن حبان في الإحسان برقم: (١٥٣٠) وإسناده حسن، وهذا لفظ أحمد، وهو في تفسير الطبري برقم: (٧٦٦٢) وابن أبي حاتم في التفسير برقم: (١٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (١١٠٧٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣١٢): رواه أحمد والبزاز والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاحتجاج به، وفي إسناد الطبراني عبيد الله بن زَحْر وهو ضعيف.

صالح، ولا قيمة لعمله إلا أن يرتبط بالإيمان، فمهما أنفق الكافر وبذل من أموال في وجوه الخير، وأحسن تعامله مع الناس، فإنه لن ينال شيئًا عليه في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات الله وكذبوا رسله ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ملازمون لها، لا يخرجون منها، وكانوا قد أنكروا ذلك في الدنيا:

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ]

ويوم القيامة لا ينفعهم شيء مع عدم الإيمان ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ﴾ [الممتحنة: ٣] ثم ضرب القرآن لهم مثلًا، فبالمثال يتضح المقال؛ قال تعالى:

١١٧- ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أي: ومثل عمل الكافر من صالح الأعمال مثل حقل تهيأ للإخصاب، فإذا عاصفة من الثلج تحرق هذا الحرث، فيتم دماره وهلاكه ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾أي: مثل ما ينفقه الكافرون من أموال في وجوه الخيروما يرجون من ثواب وجزاء عليه.

ومَثَلُ ما ينفقونه لصدِّ الناس عن سبيل الله، وإطفاء نوره، كمثل رجل زرع زرعًا، وبينما هو ينتظر خيرها وثمرها، إذ أصابتْها ريح فيها برد شديد مهلك، فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلا العناء والتعب ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد محرق ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: هبت هذه الريح على زرع قوم كانوا يرجون خيرها ﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ ودمرته، ولم يبق له أثر، لم تُبقِ المعاصي من أعمالهم شيئًا، وهؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثوابًا على ما قدَّموه في دنياهم﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك حين أبطلوا أعمالهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، حيث كفروا بالله، وكذبوا رسول الله، وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه هي الأمور التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

قال ابن عباس ﷺ: يريد بني قريظة وبني النضير؛ وذلك أن رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال في معاداة النبي ﷺ، ومقصودهم تحصيل الرئاسة والأموال.

وقيل: نزلت في مشركي قريش؛ فإن أبا جهل أنفق كثيرًا من الأموال في يومي بدر

وأُحد على المشركين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

والآية أعمُّ من هذا وذاك؛ فهي تشمل نفقة الكفار للصدِّ عن سبيل الله، كما تشمل نفقتهم في وجوه الخير، وكلاهما لا ينفع صاحبه، وكذا نفقة المرائي.

النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِ المُسْلِمِ بِطَانَةً

١١٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

ثم تمضي الآيات بعد أن بيَّنت ما في سلوك أهل الكتاب من انحراف، وكشفت عمَّا في جدالهم من مغالطة، وفضحتْ ما يريدونه بالمسلمين من سوء؛ لتحذِّر المسلمين من اتخاذهم بطانة تجعلهم أمناء على أسرارهم ومصالحهم، يوالونهم ويأتمنونهم، وهم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم بالعداوة والبغضاء، فظهرت على أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، وهو تحذير صادق في كل وقت، وفوق كل أرض، وكلَّما غفل عنه أهل الإسلام أصابهم من الشر والأذى والمهانة ما أصابهم.

وهذا التحذير ليس مقصورًا على فترة تاريخية معينة، بل هو حقيقة دائمة:

ففي ساعات قوة اقتصاد المسلمين وغلبتهم، يتظاهرون لهم بالمودة، فينخدع بهم المسلمون ويمنحونهم ثقتهم ومودتهم، وهم لا يريدون إلا الكيد والدسَّ والوبال والخبال للمسلمين.

وفي ساعات الضعف والهزيمة نفتح قلوبنا لهم، ونتخذ منهم رفقاء في الحياة، وتبلغ بنا الهزيمة الروحية إلى أن نجاملهم في عقيدتنا؛ فنتحاشى ذكر الجهاد، وذكر الولاء والبراء في الله تعالى، ونطمس معالم ديننا.

والقرآن يعلمنا كيف نتقي مكرهم وكيدهم، وندفع أذاهم، وننجو من شرهم، وذلك بالصبر والتقوى، وعدم المجاملة في الدين أو التنازل عن شيء من العقيدة، وتحقيق منهج الله تعالى في حياتنا، فما استعان بهم أحد في مشورته، أو اتخذهم أصدقاء وأعوانًا

وخبراء ومستشارين إلا كتب الله عليهم الهزيمة، ومكَّن أعداءهم منهم؛ فأذل رقابهم، وأذاقهم وبال أمرهم.

عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»**[(١)]

وقيل لعمر بن الخطاب ﷺ: إن هنا غلام من أهل الحيرة، حافظ، كاتب، فلو اتخذته كاتبًا، قال: قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين[(٢)].

وفيه دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة والأعمال الإدارية، مما فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم، التي يخشى إفشاؤُها إلى الأعداء من أهل الحرب.

وورد أن عمر ﷺ لما بلغه أن أبا موسى استكتب رجلًا من أهل الذمة، فكتب إليه يعنِّفه، وقال: لا تردُّوهم إلى العزِّ، بعد أن أذلهم الله.

وقال أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب.

وقال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود؛ لما بينهم من القرابة والصداقة والجوار والحلف والرضاع، فأنزل الله تعالى الآية فنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم.

ويراد بالآية جميع الكفار والمنافقين؛ لما ورد أن قومًا من المؤمنين كانوا يُصافُون المنافقين، ويواصلون اليهود؛ لما بينهم من قرابة وجوار ورضاع وصداقة، ويُفشون إليهم أسرارهم، ويطلعونهم على خفاياهم، فنهاهم الله عن ذلك[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري كما في فتح الباري (١٣/ ٢٠١) وهو في البخاري برقم: (٦٦١١، ٧١٩٨) وأبو يعلى (١٢٢٨) وابن حبان (٦١٩٢) والنسائي (٧/ ١٥٨) في «السنن الكبرى» برقم: (٨٧٥٥) و«المسند» (١١٣٤٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٥٠) وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٥٨) من طريق أبي حيان التيمي، وعبد بن حميد.

(٣) «زاد المسير» (١/ ٤٤٦) وابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس.

وقد نهى الله المؤمنين عن مخالطة اليهود والمنافقين لما يترتب على ذلك من أضرار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا الله واتبعوا رسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، تطلعونهم على أسراركم، ثم ذكر سبحانه الأسباب التي تمنع من محبة وموالاة المخالفين لنا في العقيدة، فذكرت الآية **أربعة أسباب**:

السبب الأول: أنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يفْتُرون عن إفساد حالكم، ولا في وقوع الضرر بكم ولا يقصِّرون جهدًا فيما يؤرِّث جذور الشر والفساد بينكم، ويعملون على حصول ذلك.

السبب الثاني: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أنهم يفرحون بما يصيبكم من ضرر، ويتمنون ما يشق عليكم، ويضرُّ بكم ويهلككم.

السبب الثالث: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ظهرت شدة البغض في كلامهم، وفلتات لسانهم، وفي الوقيعة والدس بين المسلمين، واطلاع المشركين على أحوال المسلمين واستغلال ما فيها من ثغرات.

السبب الرابع: أن ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة والغيظ والبغضاء لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾، وهي البراهين والحجج الدالة على موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ لتتعظوا وتحذروا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله مواعظه وأمره ونهيه، فتعرفونها وتفرقون بين العدوّ والصديق، والعاقل إذا ابتُلي بمخالطة العدوّ، فإنه ينبغي عليه أن تكون خلطته في الظاهر، ولا يطلعه على بواطن الأمور، ولو تملّق له العدوّ وأقسم.

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى خَطَأِ بَعْضِ المُسْلِمِينَ فِي مَحَبَّةِ اليَهُودِ

قال تعالى: مهيّجًا للمؤمنين على الحذر من منافقي أهل الكتاب ومبينا شدة عداوتهم:

١١٩- ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

وهذه هي الأدلة على خطئكم في محبتهم مكونة من **خمسة أسباب**:

أولًا: أنهم لا يبادلونكم المحبة؛ فها أنتم تحبون اليهود والنصارى، وتحسنون إليهم؛

لِمَا بينكم من قرابة أو جوار أو مصاهرة أو حِلْف، وهم لا يحبونكم؛ لِمَا بينكم من مخالفة في الدين، ويحْمِلون لكم العداوة والبغض؛ لأن الكفر ثابت في قلوبهم، فلا توالوهم، ولا تفشوا إليهم أسراركم.

ثانيًا: أنتم تؤمنون بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم وهذا معنى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: وهم لا يؤمنون بكتابكم.

ثالثًا: أنهم يظهرون محبتكم نفاقًا ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وصدَّقنا كتصديقكم، وهذه صفات اليهود والمنافقين، وهم كاذبون فيما يدَّعون.

رابعًا: أن اليهود إذا خلا بعضهم ببعض بدا عليهم الغم والحزن؛ لوحدة المسلمين وائتلافهم أو لتمسكهم بدينهم، وأظهروا فيما بينهم شدة العداوة لكم، والغيظ والحنق عليكم؛ لما يرون من ائتلاف بينكم، واجتماع لكلمتكم، فعضُّوا أطراف أصابعهم من الغيظ والغضب، وهذا معنى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ غمًّا وكمدًا، وابقوا هكذا إلى الممات؛ فالله تعالى مطلع على ما تخفي الصدور، والخواطر القائمة بالقلوب والدواعي لها، والصوارف عنها، وسيجازي كُلًّا على ما قدمت يداه من خير أو شر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وعليم بما هو أخفى من ذلك مما يسرونه في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه] فيعلم سبحانه ما هو أخفى من السر؛ من وسوسة النفس، وخواطر القلب.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يقدروا على تنفيذ غيظهم، وأنهم لايزالون معذبين حتى يموتوا، فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة، قال تعالى:

١٢٠- ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ[1] كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يَضِرْكُمْ) بالجزم وكسر الضاد جوابًا للشرط. وقرأ الباقون (يَضُرُّكم) بضم الضاد والرفع، على أن الفعل مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، والجملة في محل جزم جواب الشرط.

خامسًا: إنهم يحزنون لأفراحكم، ويفرحون لأحزانكم؛ فهم بعداوتهم لكم، إن نزل بكم أمرٌ حسن؛ مِنْ رخاء وخصب وصحة وغنيمة ونصرة، وأي شيء من منافع الدنيا، ظهرت الكآبة والأحزان عليهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ والعكس صحيح، فإن أصابكم شر، أو هزيمة، أو نقص في الأنفس والأموال والثمرات، فرحوا بما أصابكم من مكروه ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ هزيمة أومرض أو فقر ﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على ما أصابكم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله فيما أمركم ونهاكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يمسكم أذى مكرهم وعداوتهم، والله عليم بما يعمل هؤلاء الكفار، محيط بأسرارهم، وسيجازيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، فإذا أتيتم بأسباب النصر، كالصبر والتقوى، فإن كيدهم لا يضركم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم، وهو سبحانه محيط بهم، لا يخفي عليه شيء.

غَزْوَةُ أُحُدٍ: بُطُولَاتُ المُؤْمِنِينَ وَتَخَاذُلُ المُنَافِقِينَ

١٢١ - ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

تبدأ الآيات من هنا إلى نحو سبعين آية في الحديث عن غزوة أحد، ولعل السبب في ذكرها هنا أن الله تعالى لَمّا وعد المؤمنين بالنصر، وردّ كيد العدو، إنْ هُم صبروا واتّقَوْا، وكان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ و هذا حكم عام، ووعد صادق، لذا ضرب الله المثل بذكر قصة غزوة أحد وفي إثنائها إشارة إلى انتصار المسلمين في غزوة بدر.

ولمّا أخل الرماة في غزوة أحد بتقوى الله تعالى، أصابهم بعض ما يكرهون، وفي هذا عبرة ودرس للمسلمين يستفيدون منه في حياتهم، وفي مجابهة أعدائهم، وفي هذا يقول سبحانه ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ويقول ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذا: وبعد بيان خطأ المؤمنين في محبة المنافقين واليهود والنصارى، ينتقل القرآن

الكريم من ميدان التوجيه والتحذير إلى ميدان المعركة يوم أحد؛ ليبيِّن مظهرًا من مظاهر كيد المخالفين في الدين للإسلام وأهله.

عن المِسْور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف - أيْ خالي - أخبرني عن قصتكم يوم أُحد؟ فقال: اقرأ العشرين ومئة من آل عمران تجد ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[1] [آية: ١٥٤].

وكان المسلمون قد انتصروا قبلها في يوم بدر، وقتلوا رؤساء قريش وأئمة الكفر، فأخذ أبو سفيان يُؤلب المشركين لأخذ الثأر من المسلمين، وكانت القافلة التي فيها أموال قريش قد نجت فلم تقع في أيديهم، فرصدوا أموالها لحرب المسلمين.

فجمع أبو سفيان نحو ثلاثة آلاف مقاتل، ومئتي فرس، ورتَّب جيوشه، وخرج في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وجاؤوا معهم بنسائهم لِيرْفَعْن معنوياتهم، ونزل أبو سفيان بجيشه قريبًا من جبل أحد عند سفح الجبل؛ لأخذ الثأر مما نالهم يوم بدر.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه، أيخرج إليهم، أم يمكث في المدينة؟ فأشار الشُبَّان ممن فاتهم الخروج يوم بدر بالخروج إليهم، وأشار الشيوخ، ومنهم (عبد الله بن أُبي بن سلول) بالبقاء في المدينة.

فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «**إني رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي، فأوَّلتُها خيرًا، ورأيت في ذُباب سيفي ثُلمة، فأوَّلتُها هزيمة، ورأيت أني أدخلْتُ يدي في درع حصينة، فأوَّلتُها بالمدينة**».

وكان مِنْ رأي النبي ﷺ أن يتحصَّنوا في المدينة، ولا يخرجوا للقاء العدو، فلم يزل به قوم يرغِّبونه في الشهادة حتى لَبِس لأْمَتَهُ، فلما رأوْهُ قد لبس السلاح ندموا فقاموا واعتذروا، فقال ﷺ: «**ما كان لنبي لبس لأْمَتَه أن يضعها حتى يقاتل**».

فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح في الشِّعب يوم السبت منتصف شهر شوال، في السنة الثالثة من الهجرة، وأمَّرَ (عبد الله بن جبير) على الرُّماة الخمسين، وقال لهم: ادفعوا عنا

---

(١) أسباب النزول للواحدي (١٠٣).

بالنبل؛ حتى لا يأتونا من ورائنا - وكان ظهرُ المسلمين إلى جبل أحد - ثم قال لهم: لا تبرحوا مكانكم، ولو رأيتم الطير يتخطفنا، سواء هُزمْنا أو انتصرنا.

وكان النبي ﷺ قد أبى الاستعانة بحلفاء الأنصار من اليهود؛ فالمعركة بين الإيمان والكفر.

وكان عدد المسلمين نحو ألف، فيهم عبد الله بن أُبيّ، ومعه ثلاث مئة من المنافقين، فرجع عبد الله بمن معه قائلًا: لقد عصانا وأطاع الوِلْدان، وهمت طائفتان من المسلمين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وَصلوا إلى أحد رتّبهم النبي ﷺ وأسند ظهورهم، إلى جبل أحد، ورتّب الرماة، وأمرهم أن يلزموا مكانهم حتى لا يأتيهم أحد من ظهورهم.

والتقى الجمعان، وانهزم الثلاثة آلاف من المشركين أمام المسلمين وقتلوا منهم نيفًا وعشرين والقُوَّةُ يومئذ بكثرة العدد، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

ورأى بعض الرماة -المنتصرين- الغنائم التي خلَّفها العدوُّ في بطن الوادي فطمعوا فيها، فنزلوا إليها وتركوا أماكنهم، مخالفين أمر رسول الله ﷺ، ووعظهم أميرهم فلم يلتفتوا إليه، ولم يبق منهم إلا عدد قليل منهم عبد الله بن جبير أميرهم، فانقضَّ عليهم الأعداء من خلْف، بقيادة خالد بن الوليد، الذي لمَّا يُسلم بعدُ، وقد أراد الله سبحانه أن يُلقِّن المسلمين درسًا؛ حتى لا يجرؤوا على حب الدنيا، ومخالفة أمر النبي ﷺ مرة أخرى، وليعْلموا أن نصْرهم يوم بدر كان بسبب طاعتهم لله والرسول، ولما خالفوا أمر الرسول ﷺ سلَب الله منهم النصر الذي أحرزوه يوم أحد، وكان بعض المسلمين قد ظن أن النصر يكون حليف المسلمين دائمًا، ثم إن الله تعالى نزع الرُّعب من قلوب المشركين فكرُّوا راجعين على المسلمين، فترك المسلمون أماكنهم. وهذه **أمثلة من بطولات يوم أحد**:

١- لقد بقي النبي ﷺ وحده في جماعة من أصحابه، منهم: أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد، وكُسرت رَباعيته ﷺ وشُجَّ وجهه، وأُشيع أن محمدًا ﷺ قد قتل، إلا أنه ﷺ ثبت في موضعه وأخذ ينادي: «**إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله**»، فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلًا ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين، واستُشهد من الصحابة نحو سبعين صحابيًّا، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وغيرهم ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢- ومر أنس بن النضر على نفر من المسلمين قد أَلْقوا السلاح، فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ وتوجه نحو المشركين، فسأله سعد بن معاذ إلى أين؟ قال: واهًا لريح الجنة، إني أجد ريح الجنة دون أحد، فقاتل حتى قُتِل، وَوُجِد به بضع وثمانون ما بين طعنة وضربة ورمية، **وقد** مُثِّلَ به، ولم تعرفه إلا أخته،عرفتْه من أطراف بنانه.

٣- وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، فاجتمعوا حوله، فأدركه (أُبيُّ بن خلف) على فرس له كان قد أعدَّه؛ ليقتل عليه محمدًا ﷺ فلما سمع النبي ﷺ مقالته، قال: «**بل أنا قاتله إن شاء الله**»، وتناول النبي ﷺ الحربة من (الحارث بن الصمة) وطَعن بها عدوَّ الله في ترقُوَته، فخرَّ يخور كالثور، وكان قد أيقن أنه مقتول حين سمع قول النبي ﷺ ومات بالفعل.

٤- وكانت أم عمارة (نُسَيْبة بنت كعب المازنية) تقاتل دون رسول الله ﷺ قتالًا شديدًا، وقد ضربتْ (عُمر بن قَمِئَة) بسيفها ضربات عدة.

٥- وكان أبو دُجانة يُترِّس بظهره عن النبي ﷺ والنَّبل يقع عليه.

٦- وكان (طلحة بن عبيد الله) يقف وحده دون رسول الله ﷺ حتى أصابته بِضْعَ عشرة ضربة.

٧- ومَصَّ مالك، والد أبي سعيد الخدري جُرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه، فقال له: مُجَّه، قال: والله لا أَمُجُّه أبدًا، ثم ذهب، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**».

٨- أما حنظلة الأنصاري (غِسِّيل الملائكة) فقد شدَّ على أبي سفيان، فلما تمكن منه حَمَلَ على (حنظلة) شدَّاد بن أوس، فقتله، وكان حنظلة جُنُبًا، قد نزل فورًا إلى ساحة المعركة حين سمع داعي الجهاد، وكان عروسًا في حضن امرأته، فقام من فوره، وقاتل حتى قُتِل، وكان النبي ﷺ قد رأى الملائكة تُغَسِّلُه بين السماء والأرض بماء المُزْن، فقال: «**سلوا امرأته فأخبرتهم أنه نزل إلى ساحة الجهاد وكان جُنُبًا**».

٩- وأرسل النبي ﷺ زيد بن ثابت في طلب سعد بن الربيع، قال: فأتيته وهو بآخر رمق، وبه سبعون، ما بين ضربةٍ بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فأقرأه السلام من رسول الله ﷺ، ثم سأله عن حاله؟ فقال: قُلْ لرسول الله ﷺ: أَجد ريح الجنة، وقل

لقومي من الأنصار: لا عذرَ لكم عند الله، إن خُلِص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرِف، وفاضت نفسه إلى بارئها.

١٠- ومرَّ رجل من المهاجرين برجل يتشحَّط في دمه من الأنصار، فقال له: أَشَعَرْتَ أن محمدًا قد قُتِل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتِل فقد بلَّغ، فقاتِلوا عن دينكم.

١١- وكان سعد بن خيثمة قد قُتِل شهيدًا يوم بدر، فرآه أبوه يَسْرَحُ في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول له: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فجاء خيثمة إلى النبي ﷺ يقول: لقد أصبحت مشتاقًا الى مرافقة ابني في الجنة، وقد كَبُرت سِنِّي، ورَقَّ عظمي، وأحببتُ لقاء ربي، فادع الله أن يرزقني الشهادة، فدعا له، فرُزق الشهادة يوم أحد.

١٢- وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردَّها رسول الله ﷺ فعادت أحسن ما كانت.

١٣- وكان عمرو بن الجموح، شديد العرج، وله أربعة بنين يغزون مع رسول الله ﷺ فأراد أن يخرج مع النبي ﷺ يوم أحد، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، وإنا نكفيك، فجاء إلى النبي ﷺ يشكو له أن أبناءه يمنعونه الجهاد، ثم قال: والله إني لأرجو أن أُستشهَد، فأطأُ بعرْجتي هذه أرض الجنة، فقال له النبي ﷺ: **«أمَّا أنت فقد وضع الله عنك الجهاد»**، وقال لبنيه: **«وما عليكم أن تدَعُوه، لعل الله يرزقه الشهادة»**، فخرج مع رسول الله ﷺ، واستُشهِد يوم أحد.

ولمَّا لاكتْ هند بنت عتبة، كبد حمزة ﷺ، بعد أن بَقَرتْ بطنه وأخرجتْه، لم تستطع أن تبلع منه شيئًا، وقد تأثر النبي ﷺ تأثرًا شديدًا، وقال: **«لن أُصاب بمثلك أبدًا، وما وقفتُ موقفًا أغيظ عليَّ من هذا**.

ثم سأل النبي ﷺ: **«هل أكلتْ هند شيئًا من كبد حمزة»**، قالوا: لا، قال: **«ما كان ليدخل شيء من حمزة في النار»**.

وعند دفْن الشهداء كان النبي ﷺ يُقدِّم الأكثر حفظًا للقرآن على غيره.

ثم دُفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح، في قبر واحد، وقال ﷺ: **«ادفنوا هذين المتحابين في قبر واحد»**.

هذه نماذج من التضحيات الجسام التي دفعها أصحاب النبي ﷺ ثمنًا لتطلع بعضهم إلى الغنائم ومخالفتهم أمر الرسول ﷺ تمحيصًا لقلوب المؤمنين، وإعدادًا للجماعة المسلمة؛ لِتَلَقِّي المهام العظمى والقيادة الراشدة.

والقرآن الكريم لم يتتبَّع أحداث المعركة للرواية والعرض، ولكنه تتبع ما بداخل النفوس وخوالج القلوب، ويتخذ من أحداث الغزوة درسًا للتنبيه والتوجيه؛ لاستخلاص العبرة والعظة لكل قلب متفتح للإيمان في أي زمان ومكان.

فتُؤوَّل الآية الأولى في الحديث عن الغزوة هكذا:

واذكر - أيها الرسول - حين خرجْت من بيت عائشة ماشيًا على رجليك إلى جبل أُحد، لابسًا عُدة الحرب بعد المشورة، (تبوؤا المؤمنين مقاعد للقتال) تنظم صفوف أصحابك لمواطن القتال، على الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين والساقة والرماة، وتُنْزل كل واحد في منزله، وذلك يوم الأربعاء والخميس، ثم صليت بهم الجمعة وخرجْت بعدها لملاقاة المشركين يوم السبت للنصف من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة، والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم وسوف يحاسبكم على ما قدمت أيديكم، ويجازيكم أتم الجزاء وأعدله، قال تعالى:

١٢٢- ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

واذكر أيها الرسول موقف الضعف والفشل، حين هَمَّ بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس بالرجوع، وكانا جناحي العسكر، مع زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ، خوفًا من لقاء العدوِّ، قائلًا: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، وهمت الطائفتان بالانصراف، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فثبتوا وساروا معك متوكِّلين على الله، والله ناصرهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والرعاية، ومن تولاه الله عصمه من الفشل والفرار، وعصمه عما فيه مضرته، فالله ولي المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في جلب المنافع ودفع المضار، وبحسب إيمان العبد وثقته بالله، يكون توكله، خصوصًا في مواطن الشدة والقتال للاستنصار بالله سبحانه:

في الصحيحين عن جابر قال: نزلتْ فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قال:

نحن الطائفتان (بنو حارثة، وبنو سلمة)، وما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(١).

ففيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف، وأن الله وليهم، وأن تلك الهَمَّة التي همُّوا بها كادت أن تخرجهم من ولاية الله.

وهكذا يكشف الله المخبوء في صدور الرجال؛ إذا لهمُّ هو حديث النفس مع القصد.

ولما عزموا على الثبات والبقاء مع النبي ﷺ وكان ذلك في غزوة بدر مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم فقال:

التَّذْكِيرُ بِالنَّصْرِ يَوْمَ بَدْرٍ

١٢٣- ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقبل أن تمضي الآيات لاستعراض أحداث المعركة التي انتهت بالهزيمة، يُذَكِّر الله تعالى بالنصر في معركة بدر؛ لتتم المقابلة بينهما بتأمل أسباب النصر وأسباب الهزيمة، والنتائج التي رتِّبت على الحالتين.

ولقد نصركم الله أيها المؤمنون ببدر، وبدر اسم لموضع الماء، سُمِّي به المكان بين مكة والمدينة حيث كانت المعركة، نصَركم على عدوِّكم، مع قلة عددكم وعدتكم؛ حيث كنتم ثلاثمائة وثلاثة عشر في مقابلة ألف مقاتل، مع عدم القدرة على مقاومة العدو؛ لضعف الحال، وقلة السلاح والمركوب والمال، فقد كان الثلاثة منكم يتعاقبون على بعير واحد، حتى إن رسول الله ﷺ كان واحدًا من ثلاثة يتناوبون الركوب على بعير واحد، ويقسِّمون الطريق أثلاثًا، ولما عرض عليه صاحباه أن يركب هو قال: **«ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأعف منكما عن الأجر»**، وكانت سِنُّه ﷺ في الخامسة والخمسين، وأكثرهم رجَّالة، ولم يكن مع المسلمين سوى فرسان في مقابلة مئة فرس مع العدو، وسبعون بعيرا في مقابلة ألف بغير، وكان معهم الشوكة والسلاح، والذي نصرهم هو تقوى الله تعالى والخوف منه مع الأخذ بالأسباب المستطاعة، وعدم الخروج على طاعة الله والرسول.

---

(١) البخاري برقم: (٤٠٥١، ٤٥٥٨) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٥٠٥).

فاتقوا الله وخافوه ينصركم من يملك النصر والهزيمة، واشكروا نعم الله عليكم، ومنها النصر على عدوكم وأنتم قلة ضعفاء.

هذا: وكانت غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، فقد خرج المسلمون ليعْترضوا عيرًا لقريش قدمتْ من الشام، فسمع بهم المشركون فخرجوا لقتالهم، والتقى الفريقان عند ماء بدر، ونصر الله المسلمين، حيث قتلوا سبعين من صناديد قريش و أسروا سبعين، وجاء تفصيل أحداث القصة في سورة الأنفال.

المَدَدُ بِالمَلَائِكَةِ فِي يَوْمَيْ بَدْرٍ وَأُحُدٍ

١٢٤- ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ[(١)] ﴿١٢٤﴾﴾

ثم يذكِّر الله سبحانه عباده بمدده لهم بالملائكة يوم بدر، حيث أمدهم سبحانه بألف من الملائكة كما جاء في سورة الأنفال.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده قال: سمعت عياضًا الأشعري قال: شهدتُ اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبوعبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض، وليس عياض هذا بالذي حدَّث سمَّاكًا، قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبوعبيدة، قال: فكتبنا إليه إنه قد جاس إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على مَنْ هو أعز نصرًا، وأحضر جندًا، وهو الله ﷻ، فاستنصِروه؛ فإن محمدًا ﷺ قد نُصر يوم بدر في أقل من عُدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، قال: وأصبنا أموالًا، فتشاوروا، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل رأس عشرة، قال: وقال أبوعبيدة: من يراهنني، فقال شاب: أنا، إن لم تغضب، قال: فسبقه، فرأيتُ عقيصتيْ أبي عبيدة تنْقُزان وهو خلْفه على فرس عربي[(٢)].

---

(١) قرأ ابن عامر (مُنَزَّلين) بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون بسكون النون وتخفيف الزاي، وهما لغتان.

(٢) «المسند» بتحقيق أحمد شاكر برقم: (٣٤٤) وإسناده حسن، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢١٣): رجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه ابن حبان، وحسنه عنه شعيب الأرناءوط من طريق محمد بن جعفر برقم: (٤٧٦٦) وأخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٤).

ولما بلغ المسلمون في يوم بدر أن (كُرز بن جابر) يريد أن يمد المشركين بعدد من المقاتلين، شق ذلك على المسلمين، فوعدهم الله تعالى بأن يُنزل عليهم ثلاثة آلاف من الملائكة مُنَزَّلين من السماء.

وكان (كرز بن جابر) كان قد بلغه رجوع المشركين وهزيمتهم. فرجع قبل أن يصل إليهم، ولم يمدَّهم بما وعدهم به، وبالتالي فإنه لم يتم مدد المسلمين بالملائكة، لأنه كان في مقابلة وعد (كرز) لقومه. قال تعالى مبينا أن الصبر والتقوى من أقوى أسباب النصر على العدوّ:

١٢٥- ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ[١]﴾

ثم وعد الله تعالى المؤمنين -إن يصبروا على ملاقاة العدو، ويتقوا الله ويخافوه- أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة معلَّمة هي وخيولها بعلامات واضحة، وهذا معنى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلَّمين، وكان ذلك الوعد لِتقْوى به قلوبهم على مواجهة العدو.

قال عكرمة: لم يصبروا ولم يتَّقُوا يوم أحد فلم يُمَدُّوا، ولو أُمِدُّوا لم يُهزموا.

وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا في معركة يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون.

وقد ثبت في سورة الأنفال أن الله أمد المسلمين بألف من الملائكة، أما يوم أُحد فالأدلة على أنهم لم يُمَدُّوا أوضح من أنهم أمِدُّوا.

وقد ثبت في الصّحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص أنه رأى ملَكين عن يمين النبي ﷺ وشماله، وهذا خاص بالنبي ﷺ؛ لأنه ثبت وصبر، ولم ينهزم كما فعل أصحابه، فهو لا ينافي عدم الإمداد بالملائكة لعموم المسلمين يوم أحد؛ لتعلقه على شرط هو الصبر والتقوى، وعدم تحقيق الشرط يستلزم عدم حصول المشروط وهو الوعد في ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ في مقابلة وعد كرز بن جابر، وتحقيق الصبر والتقوى في ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

وهذا بناء على أن آية ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلقة بيوم بدر تتمة للآية قبلها.

ومنهم من قال: إن الوعد بالملائكة متعلق بآية ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي: يوم أحد، وهو مشروط بالصبر والتقوى، ولأن الشرط لم يتحقق، لم تنزل الملائكة، ولعل هذا هو

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب (مسوِمين) بكسر الواو، اسم فاعل، وقرأ الباقون بالفتح، اسم مفعول.

المراد، لأن سياق الآيات يرشح هذا المعنى، ولأن سورة الأنفال صرّحت بنزول الملائكة في بدر وأنهم كانوا ألفًا، كما في الآية التاسعة من سورة الأنفال. وهنا يقول تعالى:

١٢٦- ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

أي: وقد جعل الله الإمداد بالملائكة في بدر، والوعد به في أُحد بشرى للمؤمنين بالنصر، وتطمينًا لهم؛ لئلا يفزعوا من كثرة العدوِّ، ولكن عليهم أن يعلموا أن النصر من عند الله، فلا يحيلوه على الملائكة، فاستعينوا بالله وتوكلوا عليه.

ثم أخبر سبحانه أن نصره لعباده المؤمنين، له كيفيتان: إما أن يأتي على فريق من الكفار فيهلكهم، وإما أن ينصر المسلمين عليهم فيرجعوا بغم وحسرة وندامة، قال تعالى:

١٢٧- ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

أي: وقد نصر الله المسلمين يوم بدر: ليهلك فريقًا من الكفار، ويهدم ركنًا من أركان الشرك، إما بقتل أو بأسر، أو غنيمة، أو استيلاء على بلد، فيقْوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وتذهب بعض قوتهم من الأشخاص أو العتاد، ومن نجا منهم من القتل نجا حزينًا كئيبًا ضيق النفس، يَظْهَر عليه الخزي والعار، ولم يُرِد الله استئصالهم، بل استبقى منهم طائفة؛ ليتوب عليهم ويهديهم فيكونوا قوة للمسلمين فيما بعد، وهم من آمن قبل الفتح ويوم الفتح، مثل: أبي سفيان، والحارث بن هشام أخي أبي جهل، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُمية، وخالد بن الوليد.

وعذَّب الله منهم طائفة في الدنيا بالأسر أو القتل، مثل: ابن خطل، والنضر بن الحارث.

وبهذا فقد قطع الله دابر طرفٍ من الكفار، وهم الذين قُتلوا يوم بدر.

وانتقم الله من طرف آخر بالكَبْت وهو الحزن على قتلاهم، وذهاب رؤسائهم، واختلال أمورهم.

واستبقى منهم طائفة، وهم الذين اهتدوْا وأسلموا، فهذه أحوال أربعة لحقت بالمشركين يوم بدر:

١- فمنهم من قُتِل. ٢- ومنهم من عُذِّب بالأسر.

٣- ومنهم من حزن على قتلاه وأسْراه. ٤- ومنهم من تاب الله عليه فأسلم.

فهم إما أن ينصرفوا مهزومين مقهورين، وإما أن يعتبروا بانتصار المسلمين فيقودهم هذا إلى التوبة. ويختم الله لهم بالإسلام والهداية.

مَرْجِعُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْهِدَايَةِ وَالضَّلَالِ

١٢٨- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

كان بعض المنافقين قد قال يوم أحد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فبيَّن ﷺ: أن أحدًا من خلق الله ليس له من أمر النصر أو الهزيمة شيء، ولا حتى رسول الله ﷺ فكأن الكلام على تقدير: ليقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم، أو يعذِّبهم، فإنهم ظالمون، وليس لك من الأمر شيء، في هدايتهم أو إضلالهم، بل الأمر كله لله في أن يقطع طرفا منهم فيهزمهم أو يهديهم أو يضلهم.

وعلى هذا فإن جملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه هذا معنى.

ويصح أن يكون المعنى: ليس لك من الأمر شيء حتى أتوب عليهم، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتليهم ليتوب عليهم، أو يُولَد منهم مَنْ يكون مسلمًا بَرًّا تقيًّا، ولأجل هذا منعه الله من الدعاء عليهم؛ لأن دعوته ﷺ مجابة، ولو دعا عليهم لهلكوا، وقد سبق في علم الله تعالى أن منهم من سيتوب، وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة، وسيهلك بعضهم بالقتل أو الموت.

وكان النبي ﷺ أخذ يدعو على رؤساء من المشركين، مثل: أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، بسبب ما أصاب النبي ﷺ والمسلمون يوم أحد، فأنزل الله تعالى يقول لرسوله: إن الأمر كله لله، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ومهمتك هي البلاغ وإرشاد الخلق، فلا تدْع عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله ونحو ذلك، فأمرهم راجع إلى ربهم إن اقتضت حكمته هدايتهم هداهم، وإن اقتضت بقاءهم على كفرهم أبقاهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم وتسببوا في ذلك، وقد تاب الله على هؤلاء الذي سبق ذكرهم فهداهم الله للإسلام، وأخرج من أصلابهم من يوحّد الله تعالى.

وفي سبب نزول هذه الآية أقوال:

منها: أن النبي ﷺ كُسِرت رَباعيته يوم أحد، وشُجَّ في جبهته حتى سال الدم على

وجهه، فقال: كيف يُفْلِح قوم شجُّوا وجه نبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

في صحيح مسلم وغيره عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كُسرت رَباعيَّته يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلُت الدم عنه وهو يقول: **«كيف يفلح قوم شجُّوا وجه نبيهم، وكَسروا رَباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟»** فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١).

ومنها: أن النبي ﷺ كان يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فترك ذلك(٢).

فالآية نزلت في شأن الذين دعا عليهم النبي ﷺ بسبب قصة أُحُد.

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو قنَت بعد الركوع، فربما قال إذا قال: سمع الله لمن حمده: **«اللهم ربنا لك الحمد: اللهم أَنْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشدُد وطْأتك على مُضَر، واجعلها سنين، كسِني يوسف»** - يجهر بذلك - وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: **«اللهم الْعن فلانًا وفلانًا»** - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٣).

وفي نهاية معركة أحد خشي النبي ﷺ أن يكون تراجُع المشركين من أجل مهاجمة المدينة، فقال لعلي بن أبي طالب: **«اخرُج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ فإن هم جنَّبوا الخيل، وامْتطُوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم، ثم لأناجزنَّهم فيها»**، قال علي: فخرجت في آثارهم، فرأيتهم جنَّبوا الخَيل، وامْتطوا الإبل، واتجهوا إلى مكة، وعندما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه: **«قل له: نعم، بيننا وبينك موعد»**. قال تعالى:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٧٩١) والبخاري (٤٠٦٩) والترمذي (٣٠٠٢) والنسائي في الكبرى (١١٠٧٧) وأبو يعلى (٣٣٠١، ٣٧٣٨) وغيرهم.

(٢) أحمد (٢/٩٣). برقم (٥٩٩٧) عن ابن عمر بإسناد حسن، ونحو (٥٦٧٤) وانظر (٥٨١٢، ٦٣٤٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٨٠٧، ٤٥٦٠) و«صحيح مسلم» (١/٤٦٦) برقم: (٦٧٥).

١٢٩- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

ثم أثبت ﷻ أن جميع الأمور تؤول إليه؛ لتأكيد ما قبله، من أن الأمر كله لله، وليس للرسول منه شيء، وكل ما في الكون في العالم العلوي والسفلي، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات، الكل ملك لله، خلقًا وتدبيرًا وحياة وموتًا، وهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه، وهو سبحانه يغفر برحمته لمن يشاء من عباده، ويعذب بِعدْلِه من يشاء منهم، لا منازع له في حكمه، ولا معارض له في فعله.

وهو جل شأنه يستر ذنوب عباده، ويرحمهم بترك تعجيل العقوبة بهم في الدنيا.

أَرْبعَةٌ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ عَلَى العَدُوِّ

١٣٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ(١) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

ثم تمضي الآيات لتبين الصلة بين النصر على العدوِّ، وبين تطبيق منهج الله في أرضه.

فتُبيِّن أن من عوامل النصر على العدو ما يلي:

أولًا: ترك التعامل بالرِّبا؛ إذ كيف يتحقق النصر من مال حرام، ويدخل فيه كل مال غير مشروع للأمة والأفراد.

ثانيًا: تقوى الله تعالى والخوف منه في السِّرِّ والعلانية، وامتثال أمره واجتناب نهيه، والخوف من النار ومن عذابها.

ثالثًا: طاعة الله والرسول، وقد كان درس غزوة أُحد بسبب مخالفة الرُّماة لأمر القائد ﷺ.

رابعًا: المبادرة إلى أسباب المغفرة والرضوان، وتقوى الله تعالى، ودخول الجنة، والشهادة في سبيل الله.

ثم وصف الله تعالى المتقين بأربعة أوصاف:

١- إنفاق الأموال في حالتي الشدة والرخاء، لا سِيَّمَا في الجهاد في سبيل الله.

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (مُضَعَّفة) بحذف الألف وتشديد العين، للتكثير، وقرأ الباقون (مضاعفة) بإثبات الألف وتخفيف العين.

٢- عدم مقابلة السيئة بمثلها، والارتقاء بالنفس إلى عدم الغضب وكظم الغيظ.

٣- الإحسان في التعامل مع الله تعالى، والإحسان إلى الناس بنفْعهم والصفح عمَّن أساء منهم، ومقابلة إساءته بالإحسان إليه.

٤- التوبة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ارتكاب ذنب صغير أو كبير، وعدم الإصرار على الذنب بتكراره وتبييت النية على ارتكابه.

أما أكل الرِّبا، فقد نصت الآية على صورته في الجاهلية، وهي مضاعفة الديْن عند حلول أجله بالزيادة فيه مقابل الزيادة في الأجل.

قال مجاهد: كانوا يبتاعون إلى أجل، فإذا حلَّ الأجل، زادوا عليهم، وزادوا في الأجل، فنزلت هذه الآية.

وقال عطاء: كانت ثقيف تُداين بني النضير في الجاهلية، فإذا جاء الأجل قالوا: نُرْبيكُم وتؤخِّرُوا عنا، فنزلت[1] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ وقد حرَّم الله أصل الرِّبا ومضاعفاته.

وذِكْر الأضعاف المضاعفة وَصْفٌ للواقع، وليست شرطًا يتعلق بالحكم.

وفيه تنبيه على شدة شناعة الربا بكثرته، وتنبيه على حكمة تحريمه لما فيه من الظلم واستغلال حاجة المحتاج.

ومُحال أن يجتمع إيمان ونظام ربويٌ، فإذا وُجِد الربا خرج الإيمان، ولا يتحقق النصر على العدو من أموال الرِّبا، كما لا يتحقق النصر عليه من الكسب الحرام؛ كالخمر، والملاهي، والمراقص.

وهذه الآية تمثل مرحلة من مراحل تحريم الرِّبا، وقد نزل بعدها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة].

والمقصود هنا تحريم الربا قليله وكثيره، وأن من عواقب أكله أنه يأتي بالهزائم أمام العدو.

---

(١) أسباب النزول للسيوطي (٥٨) و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢٠٢) و«زاد المسير» (١/ ٤٥٧).

فاحذروا الربا - أيُّها المؤمنون - بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم وإن قَلَّت، فكيف إذا كانت مضاعفة، واتقوا الله بالتزام شرعه رجاء أن تفوزوا في الدنيا والآخرة.

واحذروا - أيُّها المؤمنون - أن تستحلُّوا ما حرَّم الله من الرِّبا وغيره؛ فإنَّ استحلال ما حرّم الله كفر بالإجماع، يستحق صاحبه عذاب النار، وفي هذا تهديد ووعيد للمؤمنين إن لم يتقوا الله ويجتنبوا محارمه. قا تعالى:

١٣١ ، ١٣٢ - ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

اتقوا الله، فإن فلاح العبد في دنياه وأخراه متوقف على تقوى الله، واتقوا الله فإن ترك الشرك والمعاصي والذنوب متوقف على تقوى الله، فترك المعاصي ينجي من النار، وفعل الطاعات يدخل الجنات، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي من أسباب حصول الرحمة والغفران.

قال أبو حنيفة عن الآية الأولى: هذه أخوف آية في القرآن؛ حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب ما حرم الله.

في البخاري وغيره عن عديّ بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه تُرْجُمَان، ثم ينظر فلا يرى شيئًا قُدَّامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة**»[١].

وبعد أن أمر الله عبادهُ أن يتقوا عذاب النار التي أعدها للكافرين.

أتبع ذلك بتعليق الرجاء في الله تعالى بحصول رحمته وعدم عذابه إن هم أطاعوا الله والرسول، فيما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من المحرَّمات، ومنه أكل الربا، ولا طاعة لمجتمع يقوم على النظام الرِّبوي، وهو تأكيد بعد تأكيد، ولعل وعسى في جانب الله تعالى للتحقيق.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٦٥٣٩) وانظر: (١٤١٣) و«صحيح مسلم» (٢/ ٧٠٣) برقم: (١٠١٦).

وُجُوبُ المُبَادَرَةِ إلَى جَنَّةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ

١٣٣- ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ[١] إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

أمر الله عباده بالمسارعة إلى مغفرته، والتسابق إلى جنته، التي أعدها للمتقين، فهم أهلها، والتقوى هي الطريق الموصل لها.

قال ابن إسحاق: في هذه الآية معاتبة للذين عصوا الرسول يوم أحد، ومن شأن المطيعين لله والرسول: أنهم يتسابقون إلى الخيرات والمبرَّات، والأعمال الصالحة، وإخلاص العبادة لله وحده، وإزالة العقبات من طريق الجنة، وكذا إزالة أسباب العقاب على المخالفات.

فإذا أزلتم الأسباب الموجبة للعقاب، وأخلصتم العبادة لله تعالى، وسابقتم إلى الأعمال الصالحة فإنكم مسارعون إلى جنة عرضها السموات والأرض، أعدَّها الله للمتقين ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ أي: بادروا بطاعتكم لله والرسول، وسارعوا بصالح الأعمال لاغتنام مغفرة الذنوب والفوز بجنة عظيمة الاتساع فوق السموات وتحت العرش، أعدَّها الله لمن أخذ بأسباب المغفرة وأسباب دخولها.

وقد نبَّه سبحانه بعرض السموات على طولها؛ لأن الطول يكون أكثر من العرض.

وفي سورة أخرى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

ويستفاد من هذا التشبيه: وَصْفُ الجنة بأوسع ما عَلِمَه الناس من البسط والسعة.

وجمهور المفسرين على ظاهر اللفظ من غير تشبيه، بمعنى: أن السموات والأرض تُقْرنان ببعضهما، كما تبسط الثياب ويُوصَل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة[٢].

وقيل: إن طول الجنة كعرضها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المستدير عرضه كطوله، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ: **«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش**

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (سارعوا) بحذف الواو قبلها على الاستئناف، وقرأ الباقون (وسارعوا) بإثبات الواو عطفاً على قوله تعالى (وأطيعوا الله).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٤٦٣).

الرحمن»[١] فالجنة فوق السموات وتحت العرش.

وجاء هذا الوصف للجنة في حديث النبي ﷺ فيما رواه أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، فقال عُميْر بنُ الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال ﷺ: «**ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟!**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل[٢].

وورد أن هرقل أرسل إلى النبي ﷺ: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فسبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟**»[٣].

قيل في معناه والله أعلم: إن الفلَك إذا دار، كان النهار في جانب، والليل في جانب آخر ضده، فكذلك الجنة تكون في جهة العلوِّ، والنار في جهة السفل[٤].

وروى طارق بن شهاب أن ناسًا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه عن ذلك، فقال: أرأيتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار فأين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزَعْتَ مثلَها من التوراة[٥].

ومعناه: حيث يشاء الله، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فأين النار؟ قال: «**أرأيت الليل إذا لبس كل شيء، فأين**

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٤) وهو من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم: (٢٧٩٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٠١) والمنذر (٩٢٠) والحاكم (٣/ ٤٢٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٢) من حديث التنوخي برقم (١٥٦٥٥) وهو حديث طويل، والتنوخي لقي النبي ﷺ كافرا ثم أسلم بعد وفاته، وإسناده لا بأس به كما قال ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ١٥) وقال محققو المسند: حديث غريب وإسناده ضعيف، وأخرجه أبو عبيد في الأموال (٦٢٥) مختصرا وهو في تفسير الطبري (٧/ ٢١١) وعند البيهقي في الدلائل (١/ ٢٦٦).

(٤) «تفسير الخازن» للآية.

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٢١١) وابن المنذر (٩١٩).

النهار؟» قال: حيث شاء الله، قال: «**فكذلك حيث شاء الله**»(١)

ولا يلزم من عدم مشاهدتنا لليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، والعكس صحيح؛ لأن الليل يكون في جانب والنهار في جانب، فكذلك الجنة فوق السموات وتحت العرش.

ثم وصف الله سبحانه أهل الجنة وهم المتقون من عباد الله بخمس صفات:

خَمْسُ صِفَاتٍ لِلْمُتَّقِينَ وَجَزَاؤُهُمْ فِي الآخِرَةِ

١٣٤- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

أي: ينفقون أموالهم في العسر واليسر، والغنى والفقر، والرخاء والشدة، والفرح والسرور، والمحنة والبلاء، فهم ينفقون المال في جميع أحوالهم في المسرة والمضرة، ولا سِيَّمَا مواساة فقراء المسلمين، وجهاد العدوِّ، فهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله والإنفاق في مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه، وهم إن أيسروا أكثَروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا ولو قلّ.

وأفضل الصدقة، الصدقة على ذى الرحم الكاشِح، أى الذي يبغضك ويكن عداوتك، فإن الصدقة عليه تمحو عداوته وتستجيب مودته، كما أن أفضل الصدقة، أن تصدق وأنت شحيح بخيل، تخشى الفقر وتأمل الغنى.

في الصحيحين، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قال: قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا مالُه أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»(٣).

---

(١) كما قال ابن عباس، وكما في حديث أبي هريرة هذا في «المستدرك» (١/ ٣٦) على شرطهما ومعه الذهبي والبزار في الكشف (٢١٩٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٧) ورجاله رجال الصحيح.

(٢) البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

(٣) البخاري (٦٤٤٢).

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾

والكظم معناه: حبس الشيء عند امتلائه، وهو امتلاء القلب بالحنق الموجب للانتقام بالقول أو الفعل، والذي يَكْظِم غيظه، هو الذي إذا امتلأ قلبه غيظًا ردَّه إلى جوفه، ولا يُظهره بقول أو فعل، ويصبر عليه ويسكت عنه، ولا يقابل السيئة بمثلها، وكظم الغيظ إخفاؤه؛ حتى لا يظهر عليه أثر الغضب.

وهذه جملة من الأحاديث في ذم الغضب والأمر بكظم:

١- في الصحيحين وغيرهما، عن أبي هريرة ﷺ: **«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[١].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تعدُّون فيكم الصُّرَعة؟»** قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: **«لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»**[٢].

٣- وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما تجرَّعَ عبد جُرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»**[٣].

والغضب يجمع الشر كله، وعلى الإنسان إذا غضب، أن يُغَيِّر وضعه ومكانه الذي هو فيه حال الغضب، ويتوضأ ويصلي حتى يطفئ نار الشيطان.

(١) «المسند» (٢/٢٣٦) برقم (٧٢١٩، ٧٦٤٠) و«صحيح البخاري» برقم: (٦١١٤) و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٠٩).

(٢) الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [illegible] و«صحيح مسلم» برقم: (٢٦٠٨).

(٣) ابن ماجه برقم: (٤١٨٩) وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٧٧) والبيهقي في الشعب (٨٣٠٧) والأدب المفرد للبخاري (١٣١٨) و«المسند» (٢/١٢٨) من طريق علي بن عاصم عن يونس بن عبيد برقم: (٦١١٤) واللفظ له، وهو حديث صحيح كما قال محققوه.

٥- وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ: **«ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ابتغاء وجه الله، إلا ملأ جوفه إيمانًا»**[(١)].

٦- وفي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ أيضًا: **«من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور العين شاء»**[(٢)].

قال الترمذي: حسن غريب.

٧- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: مُرْني ولا تكثر عليَّ، فلعلي أعقله، فقال: **«لا تغضب»**، فأعاد عليه فقال: **«لا تغضب»**.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾

إن كظم الغيظ عند أهل التقوى لا يتحول إلى حقد دفين، بل يعفو المظلوم عمَّن ظلمه، ويكف الشر عمن أذاه، ولا يبقى في نفسه غلٌّ ولا ضغينة لأخيه وهو قادر على الانتقام لنفسه، وليس عن ضعف وذل أوقبول للضيم.

جاء في الأثر: **«ينادي منادٍ يوم القيامة، أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا»** ويُصدِّقه قول الله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الأثر: **«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول: أين العافون عن الناس؟ هَلِمُّوا إلى ربكم، وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة»**[(٣)].

والعفو عمن أساء بقول أو فعل، أبلغ من كظم الغيظ، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا لا يكون إلا ممن تحلى بالأخلاق الحميدة، وتخلى عن

---

(١) راجع: نص الحديث في «المسند» وهو حديث طويل عن ابن عباس (١/ ٣٢٧) برقم: (٣٠١٥) قال ابن كثير (١/ ١٢١): انفرد به أحمد، وإسناده حسن، ليس فيه مجروح، ومتنه حسن، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف جدا.

(٢) رواه أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه (٣/ ٤٣٨) برقم: (١٥٦٣٧) بإسناد حسن، وأبو داود (٥/ ١٣٧) برقم (٤٧٧٧) والترمذي «تحفة الأحوذي» (٦/ ١٣٩) وهو في سنن الترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣) وأبي يعلى (٤٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم: (٣٣٧٥)، وفي السنن (٤١٨٦).

(٣) رواه الضحاك عن ابن عباس.

الأخلاق الرذيلة، فتاجر مع الله وعفا عن عباده وأحسن إليهم، وكره حصول الشر بينهم، قال تعالى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

الإحسان هو: الإتقان والإجادة، وهو نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، وقد فسره النبي ﷺ بقوله «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» ويكون الإحسان مع النفس بالطاعة والتوبة.

والنوع الآخر: هو الإحسان إلى الخلق، فيكون مع الآخرين بالعفو والصفح عمَّن أساء، فالمحسنون يحسنون في عبادتهم لله تعالى، ويحسنون في التعامل مع الناس، بإيصال النفع الديني والدنيوي لهم أو بدفع الضُّر عنهم، والإحسان إلى من أساء؛ لأن الإحسان إلى المحسن تجارة، والإحسان أعلى المقامات.

والإحسان بهذا المعنى على أساس أن (ال) للعهد، فإن قلنا: إنها للجنس، فهي تشمل كل إحسان، وكل ما سبق ذكره من باب الإحسان، فالمنفقون أموالهم محسنون، وكظم الغيظ إحسان، والعفو عن الناس إحسان وهكذا؛

فتعليم الجاهل إحسان، ووعظ الغافل إحسان، والصلح بين المتخاصمين إحسان، وقضاء حاجة المحتاج إحسان، والصدقة إحسان، والكلمة الطيبة إحسان، وكف الأذى إحسان.. الخ

وهذه جملة من الأحاديث في الأخلاق الحسنة:

١- فقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لنسائهم**»[١].

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصتْ صدقة من مال،**

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٩٢٨) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٧) والسلسلة الصحيحة (٢٨٤) وابن حبان (٤٧٩) والبغوي (٢٣٤١) وأبو داود (٤٦٨٢) والحاكم (١/ ٣) والبيهقي (٧٩٨١)، والمسند (٧٤٠٢، ١٠١٠٦) حديث صحيح وإسنادحسن. (محققوه).

وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(١)].

٣- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»[(٢)].

٤- وعن أبي الدرداء ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أُعطي حظُّه من الرفق فقد أُعطي حظُّه من الخير، ومن حُرم حظُّه من الرفق، فقد حُرم حظُّه من الخير**»[(٣)].

٥- وعنه ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، فإن الله يُبغض الفاحش البذيء**»[(٤)].

٦- وفي حديث أبي الدرداء ﵁ «**وإن صاحب حُسْن الخلُق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**»[(٥)].

٧- وعن أبي هريرة ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «**الفم والفرج**»[(٦)].

٨- وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لَيُبَلِّغُ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة**»[(٧)].

٩- وفي حديث أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[(٨)].

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٨) وانظر أحمد (٤/ ٢٣١) برقم: (١٨٠٣١) عن أبي كبشة الأنماري، و(٧٢٠٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه).

(٢) البخاري (٣٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٦) والترمذي (١٩٧٥).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١٦٣٧) وفي السنن (٢٠٩٩) والسلسلة الصحيحة (٥١٥،٨٧٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٣)، وأبو داود (٤٧٩٩) وابن حبان (٤٨١، ٥٦٩٣) والبزار في الكشف (١٩٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٥٠).

(٤) سنن الترمذي (٢٠٨٧) وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٨) والسلسلة الصحيحة (٨٧٦) والروض النضير (٩٤١).

(٥) من حديث أبي الدرداء في الترمذي (٢٠٨٨) وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٩). بتصحيح الألباني.

(٦) «صحيح سنن الترمذي» (١٦٣٠) وفي السنن (٢٠٨٩) بإسناد حسن، وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٤/ ٣٢٤) والبيهقي في «الزهد» (٩٥٥).

(٧) الطبراني في «الكبير» (٣٩٧٠) والحاكم (١/ ٦٠) و« السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٥٢).

(٨) «المسند» (٢١٣٥٤، ٢١٤٠٣) والترمذي (١٩٨٨) والحاكم (١/ ٥٤) قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وإسناد رجاله ثقات، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٠٢٦) والدارمي (٢٧٩١).

الصِّفَةُ الخَامِسَةُ: التَّوْبَةُ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالكَبَائِرِ

١٣٥- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

ومن صفات المتقين أنهم إذا صدر منهم ذنب صغير أو كبير، أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وأسرعوا إلى التوبة، فذكروا ربهم وما وعد به المتقين من الأجر العظيم و النعيم المقيم، وتوعّد به المذنبين من الخزى والعذاب المهين، فسألوا الله المغفرة للذنوب، والستر للعيوب.

والفاحشة: أكبر الذنوب وأفحشها، وكل ما عظم قُبحه من الأفعال والأقوال فهو من الغفلة المتجاوزة الحد في الفساد، وتطلق الفاحشة في القرآن غالبًا على الزنى، كما قال جابر ﷺ.

وظلم النفس هو الذنب الصغير، من قول أو فعل وهوما دون الزنى؛ كاللمس والنظرة، ونحوذلك من سائر الذنوب مع عدم الإصرار؛ لأن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة في حق المصرّ عليها.

فإن ارتكب العبد شيئًا من الذنوب الصغيرة أو الكبيرة، فإن من شأنه أن يلجأ إلى التوبة، ويطلب من الله المغفرة مع الندم، والعزم الأكيد على عدم العودة، والإقلاع عن الذنب في الحال، وقضاء الفوائت، ورد المظالم، مستصحبًا في ذلك وعد الله ووعيده، وسؤاله عن ذنبه يوم الفزع الأكبر، وهو موقن أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولذلك فهو لا يقيم على معصية، ويعلم أنه إذا تاب، تاب الله عليه.

وجملة ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، تطييبًا لنفوس العباد، وحثًا على التوبة، وردعًا عن اليأس والقنوط، وبيانًا لسعة رحمة الله تعالى وقرب مغفرته، وإشعارًا للنفوس بأن الذنوب وإن عظمت، فإن عفو الله أعظم، والاستغفار: طلب الغفران، وهو ستر الذنوب، ولا يطلب مغفرة الذنوب والصفح عنها إلا من أقلع وترك الذنب، أما المستمر على ارتكاب الذنب فكيف يطلب المغفرة؟

والعبد لا يطلب المغفرة إلا من الله تعالى؛ لأنه القادر على عقاب المذنب، والقادر على إزالة العقاب عنه، فلا يجوز طلب الغفران إلا منه سبحانه.

أُتي بأسير إلى النبي ﷺ فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال

النبي ﷺ: «**عرف الحق لأهله**»[١].

والمسلم لا يقيم على الذنب ولا يثبت عليه، ولا يُصر على ذنب صغير ولا كبير، وإنما يتوب من قريب.

إذ لا إصرار مع الندم والاستغفار، ولا كبيرة مع الاستغفار والتوبة، ولا صغيرة مع الإصرار والاستمرار.

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: وهو على المنبر: «**. . . ويل للمُصرِّين، الذين يصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون**»[٢].

قيل: لما نزلت هذه الآية بكى إبليس[٣].

مِنْ أَسْبَابِ النُّزولِ:

١- قال ابن مسعود ﷺ، قال المؤمنون للنبي ﷺ: كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، كان أحدهم إذا أذنب ذنبًا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه: اجدع أنفك، اجدع أذنك، افعل كذا، فسكت رسول الله ﷺ فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤].

٢- وقال عطاء عن ابن عباس: نزلت الآية في نبهان التمَّار أتته امرأة حسناء فضمها إلى نفسه وقبَّلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك، فنزلت الآية[٥].

٣- وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ آخى بين أنصاري وثقفي،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٥) من حديث الأسود بن سريع ورقمه: (١٥٥٨٧)، وهو حديث ضعيف لأن الحسن البصري لم يسمع من الأسود كما قال محققوه، وهو عند الطبراني في الكبير (٨٣٩) والحاكم (٤/ ٢٥٥) والبيهقي في الشعب (٤٤٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو ورقمه بتحقيق أحمد شاكر (٦٥٤١، ٧٠٤١) بإسناد حسن وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٤٧٥) وفي «صحيح الجامع» (١/ ٣٠٨) وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١٥٥١٣) إسناده جيد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٠).

(٣) جاء هذا في حديث أنس عند عبد الرزاق (١/ ١٣٣) وتفسير الطبري (٧/ ٢٢٠) وليس فيه أنس

(٤) أسباب النزول للواحدي (١٠٥)

(٥) الواحدي (١٠٥) و«زاد المسير» (١/ ٤٦١)

فخرج الثقفي في غزوة واستخلف الأنصاري على أهله، فاشترى لهم لحمًا ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ اللحم قبَّل يدها، ثم ندم وانصرف، ووضع التراب على رأسه، وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي، لم يستقبله الأنصاري، فسأل امرأته عن حاله، فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله، وذكرتْ له ما حدث، والأنصاري يسْبَح في الجبال تائبًا نادمًا مستغفرًا، فطلبه الثقفي حتى وجده، فأتى به إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: ويحك، أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم لقيا عمر، فقال لهما مثل ذلك، فأتيا النبي ﷺ فقال لهما مثل ذلك، فأنزل الله الآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

والإسلام بهذا يقيل عثرة الضعيف، ويملأ نفسه بالحياء والرجاء والأمل والطمع في مغفرة الله تعالى، ويثير فيها داعي التوبة والندم والإقلاع والاستغفار، ولا يثير فيها الاستهتار.

أما المستهترون المصِرُّون على الذنوب فهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههم الأبواب ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]

وقد ورد الكثير من الأحاديث ترغب في التوبة، منها:

١- ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: أن العبد إذا أذنب ذنبًا ثم رجع إلى الله، وتكرر هذا بضع مرات، فإن الله تعالى يقول: **«علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»**(١).

٢- وفي الحديث القدسي عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: **«يابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم: لو بلَغتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يابن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**(٢).

---

(١) يُنظَر الحديث عند أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٦) برقم: (١٠٣٧٩) والصحيح مع الفتح (١٣/ ٤٧٤) بنحوه ورقمه في البخاري: (٥٧٠٧) وفي مسلم برقم: (٢٧٥٨) عن أبي هريرة وأوله (أذنب عبد ذنبًا).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم: (٣٥٤٠) وهو في «المسند» عن أبي ذر (٢١٥٠٥) و(٢١٤٧٢) حديث حسن (محققوه)، وأخرجه الدارمي (٢٧٨٨) والبيهقي في الشعب (١٠٤٢).

٣- وفي الحديث القدسي أيضًا عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»[١].

٤- وفي حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار، ويبسط يده بالنهار حتى يتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

٥- وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل يذنب ذنبًا، فيتوضأ فيحسن الوضوء، قال سفيان: ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله عز وجل، إلا غُفِر له**» زاد في رواية: ثم قرأ الآية[٣].

٦- وعن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك، مادامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[٤].

قال تعالى في جزاء أهل التقوى، الموصوفون بالصفات السابقة:

١٣٦- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

بيَّن سبحانه أن الموصوفين بالإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس،

---

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

(٢) المسند (١٩٥٢٩، ١٩٦١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في صحيح مسلم (٢٧٥٩) والطيالسي (٤٩٠) والنسائي في الكبرى (١١١٨٠) وأبي الشيخ في العظمة (١٢٩) وعبد بن حميد في المنتخب (٥٦٢).

(٣) «المسند» (٢، ٤٧، ٤٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه. والطيالسي وابن أبي شيبة (٢/ ٣٨٧) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٦) والترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٤٧، ١١٠٧٨) وابن ماجه (١٣٩٥) وابن حبان (٦٢٣) وغيرهم.

(٤) «المسند» (١١٢٣٧، ١١٢٤٤) حديث حسن، وأخرجه أبو يعلى (١٣٩٩) والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣) والحاكم (٤/ ٢٦١) وصححه بموافقة الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادى أبي يعلى.

والإحسان إليهم، والتوبة، وعدم الإصرار على الذنب، جزاؤهم أن يستر الله ذنوبهم، بمعنى أنه لا يصل إليهم عقاب من الله تعالى، وهو مقتضى غفران الذنب، وجزاؤهم أيضًا وصول الثواب إليهم ممثلًا في جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها المياه العذبة، وأجرهم دائم، يخلدون فيها، ولا يخرجون منها، ونعمت الجنة ثوابًا للمطيعين من عباد الله تعالى، بما فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور، لا يحولون عنها ولا يبغون عنها حولًا، ونعم العمل عملهم، ونعم الجزاء جزاؤهم يجده التقيّ كاملًا موفورًا.

الاعْتِبَارُ بِأَحْوَالِ الأُمَمِ

١٣٧ - ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

في أعقاب غزوة أحد يُعزِّي الله عباده المؤمنين ويسليهم، فيخبرهم أنه قد مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنهم الله تعالى وابتلاهم بقتال الكافرين، وكانت العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وخُذْلان الكافرين وعاقَبَهم في الدنيا بخراب ديارهم وزوال ملكهم، وسلطانهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

والآيات من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إلى ستين آية بعدها من سورة آل عمران، هذا القدر الكبير، يتناول أحداث غزوة أحد بالتحليل والتفصيل، وذكْرُ الأسباب التي أدت إلى الهزيمة بعد النصر؛ لأن ما بُلي به المسلمون في هذه الغزوة، كان أول حَدَثٍ يعرض لهم من نوعه.

والله ﷻ يُربِّي هذه الأمة؛ لتقود الناس إلى يوم القيامة، يعلمهم أسباب النصر والهزيمة، يربيِّهم ويلقِّنهم الدروس المستفادة من أول لقاء تنكَّبَ فيه المسلمون طريق النصر.

حيث يبيِّن الله ﷻ أن نصر المشركين في غزوة أحد، حدث عابر، ونصْرُ المشركين والكفار على المسلمين في كل زمان ومكان مرتبط بعلة مؤقتة، وبوقت معين، وليس هو مقتضى سنة الله ﷻ في هذا الكون، فقد بيَّن الله جلَّ وعلا أن من سننه في خلقه إهلاك الأمم الكافرة، فكل من كذَّب بالله، وبرسل الله، وآيات الله، كانت عاقبته إلى هلاك، انظروا وتأملوا عاقبة المكذبين في الأمم جميعًا: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وأهل مدين... وغيرهم.

يشير إلى ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أمثلة كثيرة: هي مقتضى سُنَّة الله في خلقه، والآية تذكرنا بحقيقة تاريخية هامة، وهي الاعتبار بأحوال الأمم، وأن سنة الله تعالى قد اقتضت أن تكون أحوال الدنيا سجالًا، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله تعالى في خلقه، وهي أن قوة الظالمين، وعُتُوِّهم على الضعفاء أمْر زائل، والعاقبة للمتقين.

فانظروا في آثار المكذبين برسل الله، وابحثوا في أسباب هلاكهم، وكيف كانوا قبل ذلك قوة طاغية، فاستأصلهم الله تعالى، وكثير منهم في بلاد العرب، كقوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرَّس، والسَّيْر في الأرض يكون حسِّيًّا بالبدن عن طريق السياحة والسفر، ويكون السير معنويًّا بقراءة التاريخ، ومطالعة أحوال الأمم والاعتبار بها.

وهذه الآية تشير إلى أن الله ﷻ يربط الأسباب بالمُسَببات، فالنصر على العدو يحتاج إلى طاعة لله والرسول، يحتاج إلى قوة إيمان، وإلى إعداد العُدة، فإذا أخذ المسلمون بهذه الأسباب، فإنهم منتصرون بحول الله تبارك وتعالى على عدوهم، وإذا خالفوا أمر الله وأمر رسوله، تخلف عنهم هذا النصر، كما حدث من الخمسين راميًا الذين عيَّنهم النبي ﷺ يحمون ظهور المسلمين في غزوة أحد، حينما رأوا الغنائم التي خلَّفها المشركون بعد أن انهزموا وولُّوا الأدبار، نزلوا إلى الغنائم في بطن الوادي، وسعوا وراء الدنيا وتركوا أماكنهم، مخالفين بذلك طاعة الرسول ﷺ فكانت النتيجة هذا الدرس القاسي، هذه سُنَّة الله في خلقه إلى قيام الساعة.

فكلما اقترب المسلمون من ربهم، فامتثلوا أمر الله ﷻ، ووصلوا حبالهم بالعلي الأعلى، فإنهم منصورون على عدُوِّهم، وكلما ابتعدوا عن ربهم فإنهم يَلْقَوْن الدروس الممحصة كما حدث في غزوة أحد.

فالأرض مسرح للحياة البشرية، وما جرى لمكذبي اليوم يجري مثله لمكذِّبي الغد، وفي الدعوة إلى تأمل أحوال الأمم الماضية، تسلية عما حدث للمسلمين يوم أحد، وفيه ربط للماضي بالحاضر. قال تعالى:

١٣٨- ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

الإشارة بـ (هذا) إما أن تعود على ما أوقعه الله بالمكذبين لرسول الله ﷺ من الهلاك فيكون فيه حكمة ودلالة ظاهرة، تبيّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وتبيّن الصادق من الكاذب في مجال الابتلاء، وملاقاة الأعداء.

ويصح أن يعود اسم الإشارة على القرآن وما تضمنه من كل ما سبق.

والمعنى: وفي هذا القرآن، وما حدث في يوم أحد، وما نزل بالمكذبين من هلاك، في كل هذا بيان وإرشاد إلى طريق الحق، وتذكير للناس، تخضع له قلوب الذين يخشون ربهم، فهم الذين ينتفعون بالموعظة، وفيه هدى من الضلالة، وإزالة لما علق ببعض النفوس من شبهات حول هزيمة المسلمين في أحد، فالبيان هو الكلام الذي يهدي إلى الحق ويزيل الشبهة بعد حصولها، وهو الكلام الزاجر عما ينبغي تركه.

والهدى: هو الإرشاد إلى ما فيه الخير في الحال والاستقبال.

والموعظة: هي الترغيب والترهيب للحث على ما ينبغي فعله أو تركه؛ حتى يحذروا الفساد، ولا يغتروا كغيرهم وينتزعوا المسببات من الأسباب.

أما غير المتقين فإن في هذا بيان لهم تقوم به الحجة عليهم، ليهلك من هلك عن بينة.

النَّهْيُ عَنْ أَسْبَابِ الْفَشَلِ وَالْوَهَنِ

١٣٩- ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

ثم نهى الله المسلمين عن أسباب الفشل والوهن والضعف، ويبيّن أن ما حدث للمسلمين في يوم أحد، وما يحدث في أمثاله على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من نكبات وهزات وانتكاسات، لا ينبغي أن تكون سببًا في ضعفهم، ولا في وهنهم، ولا في حزن قلوبهم ولا في قعودهم عن الجهاد، ولا في عدم تعلُّمهم وتعليم أبنائهم أسباب الحرب والجهاد؛ فإن الجهاد ماضٍ في هذه الأمة إلى قيام الساعة، الجهاد ماضٍ بين الحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى أن يُهزم اليهود في نهاية الأمر، ويختبئ اليهودي وراء الحجَر ويُنْطِقُ اللهُ الحجرَ، ويقول: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله.

قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحُد، فبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين، يريد أن يعلو عليهم الخيل، فقال النبي ﷺ: «**اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدُك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر**»، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزموهم.

وفي الآية تعزية لأصحاب محمد ﷺ، وحث لهم على قتال عدوهم، نهيٌ لهم عن العجز والوهن في طلب عدوهم.

فلا تهنوا، ولا تضعفوا، ولا تجبنوا، ولا تقعدوا عن القتال، ولا تتركوا تعليم أبناءكم آيات الجهاد وأحاديث الجهاد وفنون الحرب والقتال، فأنتم الأعلون بربكم، أنتم الأعلون بمنهجكم، بعقيدتكم، تسجدون لله، وهم يسجدون لغير الله، أنتم تحكمُون بشرع الله، وهم يُحكِّمون شرع البشر، وأنتم الأعلون؛ فقتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، أنتم الفائزون المنتصرون بشرط تحقق الإيمان فيكم، فأنتم الغالبون المنتصرون على عدوكم إن شاء الله.

يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ

١٤٠- ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ(١) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ(١) مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

وإن هُزمتم يوم أحد فقد هُزم المشركون يوم بدر، فلا ينبغي للمسلمين إن أصابهم جراح أو أصابتهم هزائم أن يضعفوا ويقعدوا عن الجهاد وينتكسوا، وإنما يفيقون إلى رشدهم، ويرجعون إلى الله، ويأخذون بالأسباب، فإن هذه الحرب سجال، يوم لك ويوم عليك.

والله سبحانه يشدد المحنة على الكفار تارة، وعلى المؤمنين تارة، وذلك لو أنه تعالى شدد المحنة على الكفار دائمًا، لعلم الناس بالضرورة أن الإيمان حق وما عداه باطل، فلا يكون هناك حاجة للثواب والعقاب، والجنة والنار، ومن جهة أخرى فإن المؤمن حين يخرج عن حدِّ الطاعة أحيانًا فإنه يحتاج إلى أدب وتمحيص فيُبتلى بالشدائد، أما ابتلاء

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (قُرْحٌ) بضم القاف في الكلمتين معًا، وقرأ الباقون (قَرْحُ) بفتح القاف في الكلمتين معا وهما لغتان، مثل الضَّعْف والضُّعْف وقيل: القَرْح بالفتح: الجرح، وبالضم: أَلَمُه

الكافر بالشدائد فهو غضب من الله عليه(١).

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ إن يمسسكم جراح من قتل، أو هزيمة، أو غير ذلك فقد مس المشركين قرح مثله في يوم بدر وغيرها من معارك المسلمين، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون (﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤]

ومن حكمة الله تعالى أنه يعطي في الدنيا: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة ويوم لتلك، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها تكون خالصة للمؤمنين ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. قال تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

قال راشد بن سعد: لما انصرف النبي ﷺ من أُحد كئيبًا حزينًا، كانت المرأة تأتي بزوجها وابنها مقتولَيْن، فقال النبي ﷺ: «**أهكذا يُفعل برسولك؟**» فأنزل الله ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾(٢).

والمراد بالقرح: ما أصاب المسلمين يوم أحد من القتل والأسر.

ثم ما الحكمة؟ وما العلة في هذه المحن والهزائم؟ والله سبحانه يذكر لنا خمسًا منها، يبيِّنها في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾.

حِكَمٌ سِتٌّ فِي ابْتِلَاءاتِ المُؤمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ

الحكمة الأولى: تمييز الصادقين في إيمانهم:

وذلك أن يميِّز الله سبحانه المؤمنين صادقي الإيمان، صادقي العزم والجهاد مع الله ﷻ من غيرهم، ابتلاءً وتحميصًا للمسلمين، ليتبين المؤمن من المنافق كما حدث في غزوة أحد التي نزلت بسببها الآيات وهي دروس عامة مستفادة إلى يوم القيامة، وإذا كان السبب خاصًّا فقد ميَّز الله سبحانه المنافقين من المؤمنين، حيث رجع عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول وهو رأس النفاق والمنافقين من الطريق بثلث الجيش، وواصل المؤمنون الصادقون سيْرهم مع رسول الله ﷺ إلى أن خاضوا المعركة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الذين انتصروا في

(١) يُنظَر تفسير الفخر الرازي (٩/ ٦٥).

(٢) النيسابوري (١٠٦) والسيوطي (٥٨).

غزوة أحد أول الأمر، حيث هُزم المشركون وقُتل منهم أكثر من عشرين وسقط علم المشركين، ولم يتقدم منهم أحد لرفعه حتى رفعتْه امرأة، فتجمَّعُوا حولها، ثم كانت الغلبة للمشركين لما خرج أكثر الرماة عن أمر الرسول، فأصاب المسلمين ما أصابهم، ولولا أن الأيام دُوَل ما أوذي المؤمنون، ولكن يدال للكافر من المؤمن، ويُبتلَى المؤمن بالكافر؛ ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب، أي يظهر ذلك في عالم الوجود.

ولو كان النصر حليف المؤمنين دائما لدخل في الإسلام من لا يريده.

والحكمة الثانية: اتخاذ الشهداء

وذلك أن يتخذ الله من المؤمنين شهداء يصطفيهم، فالشهداء يختارهم رب العالمين، ويرجع المسلمون من ساحة المعركة إما بالنصر أو الشهادة، أما الهزيمة فليست من شأن المؤمن؛ فالشهيد يُختار ويُصطفى من بين المقاتلين لينال هذا الشرف ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ والشهادة من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بحصول أسبابها، أما الذين ظلموا أنفسهم وقعدوا عن الجهاد فإن الله يبغضهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْحِكْمَةُ الثَّالِثَةُ: تَمْحِيصُ الْمُؤْمِنِينَ

١٤١- ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويطهرهم من الذنوب والموبقات والخطايا التي يرتكبونها ويخالفون بها أوامر الله ﷻ، فإن الشهادة والجهاد في سبيل الله يكفر الذنوب، فهذه الهزيمة كانت اختبارًا وتصفية للمؤمنين، وتخليصًا لهم من المنافقين.

أما الحكمة الرابعة: فهي محق الكافرين، فيهلكهم الله ويستأصل شأفتهم عقوبة لهم، وهو أمر قد تحقق على أيدي المسلمين بعد تجاوز المحنة، واستخلاص النصر من الهزيمة، ولو دام النصر لغير المسلمين لازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم.

الْحِكْمَةُ الْخَامِسَةُ: مُكَافَأَةُ الْمُجَاهِدِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ:

١٤٢- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

ودخول الجنة محفوف بالمكاره، ليس سهلًا، وإنما يحتاج إلى جهاد وصبر ودعوة وابتلاء ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ أظننتم أنكم تدخلون الجنة دون ابتلاء بالقتال

والشدائد، وصبْر على ألم الجراح، وقتْل في سبيل الله يدخلكم به الجنة كما دخل غيركم، والله يعلم ذلك، ولكن يبتلي به عباده؛ ليظهر أفعال العباد في عالم الوجود، والملائكة تكتب ما يُفعل وما يُقال ولا تعلم ما في الصدور، وإنما يعلمه رب العالمين وحده، فإذا أراد الله سبحانه أمرًا أظهره في عالم الوجود لتسجله الملائكة وليُطْلِع خلقه عليه، وهذا معنى عِلْم الله تعالى في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ليظهر علمه لخلقه؛ إذ ليس الإيمان بالتمني وليس طلب الشهادة بمجرد القول وإنما بالفعل والتفاني فيه، فقد تمنَّى الشهادة أصحاب النبي ﷺ، فوطنوا أنفسهم لها وعملوا ما يؤهلهم لنيلها.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

وهكذا: أنكر الله ﷻ في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يُبتلَى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره.

وبعد غزوة بدر لما استُشهد من استُشهد، ورأى الشهداء ما هم فيه من النعيم، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، يفرحون ويستبشرون قالوا: من يبلِّغ عنا إخواننا في الدنيا ما نحن فيه من هذا النعيم فيلْحقوا بنا، قال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، وأنزل الله سبحانه الآيات ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ لقد تمنَّى بعض الصحابة أن يلحقوا بهم، وأن يموتوا في المعركة شهداء بأيدي الكفار كما حدث يوم بدر، فأشهدهم الله يوم أحد[١].

والآيات قبل أن تفصِّل الحديث عن يوم أحد ذكَّرت المؤمنين بالنتائج الطيبة التي حصلوا عليها يوم بدر.

---

(١) يُنظَر: السيوطي(٥٩) و«زاد المسير» (١/٤٦٨).

الْحِكْمَةُ السَّادِسَةُ: عَدَمُ تَمَنِّي لَقَاءِ الْعَدُوِّ

١٤٣- ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ[1] تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

وبعض الذين أشاروا على النبي ﷺ بالخروج إلى المشركين في يوم أحد تمنَّوا القتال، ولكنهم قعدوا وتقاعسوا، والله سبحانه ينكر عليهم ذلك فقد وبَّخهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ بأعينكم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وقيل: إن قومًا من المسلمين تمنَّوا يومًا كيوم بدر، يقاتلون فيه ويُستشهدون، فأراهم الله يوم أحد، فها هو قد حصل لكم ما تمنيتم وطلبتم، فدونكم فقاتلوا و صابروا.

وفي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تتمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظِلال السيوف»**[2].

وفي الآية عتاب للمنهزمين في تمنيهم الشهادة، وهم لم يثبتوا حتى يُستشهدوا، وعتاب لهم على تمنيهم الحرب، ثم جُبنهم وتخاذلهم بعد ذلك، أما طلب الشهادة في سبيل الله لنصرة دين الله فهذا أمر محمود، فقد كان من أقوال النبي ﷺ: **«وددت أني أُقْتَل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقْتَل ثم أحيا، ثم أُقْتَل»** وقال عمر ﷺ: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك.

وقد خاض خالد بن الوليد مئة غزوة وغزوة وما في بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ولما جاءه الموت وهو على فراشه، أخذ يؤنب نفسه ويقول: وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

الرُّسُلُ يَمُوتُونَ وَالرِّسَالَةُ تَبْقَى

١٤٤- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلة ميم الجمع مع المد ست حركات وصلًا لتشديد التاء الثانية من (كنتم تمنون) لأن أصلها (تتمنون) فأدغمت التاء في التاء، وإذا وقف على (كنتم) بدأ بتخفيف التاء من (تمنون) والباقون بالقصر وعدم التشديد.

(٢) فتح الباري (٦/ ١٨١) ورقمه في البخاري معلقا (٣٠٢٦) وانظر (٢٨١٨، ٧٢٣٧) ومسلم (٣/ ١٣٦٢) برقم: (١٧٤١)

أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

ولمَّا أُشيع أن النبي ﷺ قُتل في غزوة أحد بعد أن ضربه ابن قمئة بحجر في وجهه فسال منه الدم، ورجع ابن قمئة يُخْبر القوم أن محمدًا قد مات، وصاح الشيطان في وسط المعركة: إن محمدًا قد مات.

فقال ضعاف الإيمان: علام نقتل أنفسنا مادام محمد قد مات، فلماذا نقاتل؟

ومنهم من قال: ارجعوا إلى دين قومكم.

ولما نهض رسول الله ﷺ من الحفرة التي حفرت له أخذ يقول: «**إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله**»، فاجتمع حوله ثلاثون رجلًا، فحملوه حتى كشحوا عنه المشركين، وقَتل ابن قمئة مُصعب بن عمير، صاحب راية رسول الله ﷺ فرجع ليخبر أنه قتل محمدًا ﷺ، وصاح إبليس بذلك في الناس.

والله ﷻ يربط عباده دائمًا بالعقيدة لا بشخص محمد ﷺ ولا غيره، فمحمد رسول يبلِّغ رسالة ربه، وينفِّذ أوامره، ويموت كما مات الرسل جميعًا، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهؤلاء الرسل قد بلَّغوا رسالة الله:

مرَّ أحد المهاجرين على رجل من الأنصار في غزوة أحد وهو يتشحط في دمه، قال له: أما بلَغك أن محمدًا قد مات؟ قال الرجل: إن كان محمد قد مات، فقد بلَّغ رسالة ربه، فقاتلوا عن دينكم فنزلت الآية(١).

ومرَّ أنس بن النضر بقوم جلوس، وصل الخبر إليهم أن محمدًا قد مات، فقعدوا وتركوا الجهاد، سألهم: لماذا أنتم جلوس؟ قالوا: إن محمدًا قد مات، فقال أنس: فماذا تصنعون بالحياة بعده، فإن كان محمد قد مات، فإن ربَّ محمد لن يموت، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

وشهَر أنس بن النضر سيفه قائلًا: اللهم إني أعتذر إليك مما فعل المسلمون، أي: حين قعدوا وأثَّرت فيهم الإشاعة، وأبرأُ إليك مما فعل المشركون، وأخذ يقاتل في سبيل الله حتى سقط شهيدًا، ووُجد في جسده بضع وثمانون، ما بين ضربة وطعنه ورمية، ولم يعرفه

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٤٨) عن أبي نجيح عن أبيه.

أحد؛ لأنه قد تقطَّعت أوصالُه، لم تعرفه إلا أخته، عرفتْه من أطراف بنانه، وفيه وفي أمثاله نزل قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

إن موت محمد ﷺ لا يُثني المسلم عن الدعوة إلى الله تعالى، ولا عن تبليغ دين الله والجهاد دونه، وفناء النفس في سبيله.

والرسل الذين كانوا قبل محمد ماتوا، وهو كذلك مثلهم يموت كما ماتوا ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ وتركتم الجهاد، وأراد بعضكم أن يرتد عن الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الثابتين على إيمانهم والجهاد في سبيل الله.

وكأن الله ﷻ يمهد بهذه الآية إلى الصدمة الكبرى التي يتلقاها المسلمون حينما يموت الرسول صلوات الله وسلامه عليه عندما ينتهي به الأجل، ولقد حدث فعلًا أن دَهش المسلمون لموت رسول الله، حتى إن بعض الصحابة لم يصدقوا أنه قد مات، كأنهم تخيَّلوا أن الرسول لن يموت كسائر البشر، حتى إن عمر شهر سيفه في وجه من يقول: إن محمدًا قد مات، حتى جاء أبو بكر رضوان الله عليه وقبَّل الرسول ﷺ بين عينيه وهو يقول: طبت حيًّا وطبت ميْتًا يا رسول الله، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ أبو بكر هذه الآية يوم وفاة النبي ﷺ وكانت قد نزلت قبل ذلك بنحو تسع سنين.

روى البخاري وغيره عن عائشة ﵂ أن أبا بكر ﵁ أقبل على فرس من مَسْكَنه بالسُّنْح - وهي منازل بني الحارث بن الخزرج، وكان متزوجًا منهم- حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فقصد رسول ﷺ وهو مُسجَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، وقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك مَوْتتين، أما الموتة التي كُتِبَتْ عليك فقد مُتَّها.

قال أبو سلمة: فأخبرني ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس، فأبى، فتشهد أبو بكر، فمال إليه الناس وتركوا عمر فقال: أما بعد: فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ الآية،

فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر[١].

وفي الصحيحين وغيرهما عن جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المقفَّى - الذي لا نبي بعدي - ونبي التوبة، ونبي الرحمة»**

وفي لفظ **«... وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب»**[٢].

لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا

١٤٥- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا[٣] وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ[٤] مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ أنه لن يموت أحد حتى يستوفي أجله الذي قدّره الله له، كتابًا مؤجلًا، فمن حضر أجله، فإنه يموت ولوبغير سبب، ومن لم يحضر أجله فإنه لن يموت ولو تجمعت عليه الأسباب، قال تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

ثم أخبر سبحانه أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إرادتهم، فإن من يطلب بعمله عرَض الدنيا نُعطه ما قسمناه له من رزق، ولا حظَّ له في الآخرة، ومن يطلب بعمله الجزاء من الله في الآخرة، يمنحه ما طلب ويعطه جزاء وافرًا، مع ما لَه في الدنيا من رزق مقسوم؛ لأنه قد أطاع الله وجاهد في سبيله.

---

(١) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم: (١٢٤١، ٤٤٥٢) وما بعده وانظر رقم: (١٢٤١، ١٢٤٢) والنسائي (١٨٤٠).

(٢) يُنظَر ألفاظ الحديث في البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) والترمذي (٢٨٤٠) وشمائل الترمذي (٣٦٦) و«المسند» (١٦٧٢٤) وابن حبان (٦٣١٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٢٦).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف من كلمة (مؤجلًا).

(٤) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة (نؤته) في الموضعين بإسكان الهاء، وصلا ووقفا، وقرأ قالون ويعقوب بكسر الهاء من غير صلة، وقرأ ابن ذكوان بالقصر والإشباع، وقرأ أبو جعفر بالإسكان والقصر، وقرأ هشام بالإسكان والقصر والإشباع، وقرأ الباقون بالإشباع، وأبدل الهمزة واوًا في الحالين ورش وأبو جعفر وأبو عمرو، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بالهمزة.

قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠،٢١]

وقد حَرَّض الله المؤمنين على الجهاد، وشجَّعهم على لقاء العدو، فقرر ﷻ أن الشجاعة والإقدام والجرأة في الحروب لا تنقص من عمر المرء شيئًا، وأن الجُبن والخوف والقعود والتخلُّف عن الجهاد في سبيل الله لا يزيد من عمر الإنسان شيئًا، وأن عمر الإنسان محدد باللحظة فضلًا عن الساعة واليوم، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ بعمله وجهاده في سبيل الله سبحانه ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: يعطيه الله من الدنيا ما يشاء، وليس له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بعمله وجهاده ثواب الآخرة يؤتيه الله ثوابه في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

وقال أيضًا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

والآيات مقيدة بمشيئة الله وإرادته، وتبيِّن أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة؛ لأنها مبذولة للجميع، وإنما الغبطة هي لما يحدث للعبد في الآخرة من نعيم مقيم وثواب جزيل. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا الجزاء يكون على قدر الشكر قلة وكثرة وحُسْنًا، وهو جزاء كثير وعظيم.

مِنْ أَسْبَابِ انْتِصَارِ الرُّسُلِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ

١٤٦- ﴿وَكَأَيِّن[1] مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ[2] مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

أي وكثير من أنبياء الله وأتباعهم، قد أصابهم قتل وجراح، فما ضعفتْ أبدانهم ولا ذلّوا لِعدوِّهم، بل صبروا وثبتوا وانتصروا عليه، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ المحتسبين، المصابرين لعدوهم، المرابطين في الحدود والثغور.

هذا: ولما قيل: إن النبي ﷺ قد مات في غزوة أحد، أخذ يدفعه بعض الصحابة، وهو ينادي: «**إليَّ عباد الله**»، وتأخر بعضهم وانهزم، لمَّا سمع هذه الإشاعة الكاذبة، والله سبحانه يعاتب الأمة ويربيها ويربطها بالمنهج الإلهي إلى يوم القيامة، يربطها بالمعين الأول وهو الإسلام، والعقيدة الصحيحة، حتى وإن مات محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم يضرب القرآن لهم الأمثلة من الأمم السابقة بأن كثيرًا من الأنبياء قاتل معهم أتباعهم وأصحابهم، فقاتلوا وقتلوا ، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا وما قعدوا عن الجهاد ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: كثير منهم ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ أي: أتباع وأصحاب ﴿كَثِيرٌ﴾ فماذا كان موقفهم؟ ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من جُرْح أو قَتل، ولا عجزوا، ولا خضعوا لعدوهم، وما قعدوا وما استسلموا، وما تركوا الجهاد، وإنما صبروا وصابروا.

والمعنى: كثير من الأنبياء قاتل معه العدد الكثير من أصحابه، فأصابهم من عدوِّهم قروح وجراحات فاستمروا في جهادهم، ولم يضعُفوا فكونوا مثلهم.

وفي قراءة (قتل) بالبناء للمجهول على معنى: أن القتل قد نال النبي ﷺ أيضًا ومن

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وَكَائِن) بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة ويكون من قبيل المد المتصل إلا أن أبا جعفر يُسهِّل الهمزة مع المد والقصر، وقرأ الباقون بدون ألف بعد الكاف مع تشديد الياء، وفيها التسهيل والتحقيق لحمزة وقفًا ووقف عليها أبو عمرو ويعقوب بالياء تنبيهًا على الأصل، والباقون بالنون.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (قُتِلَ معه) مبني للمفعول، وهو من القتل وربِّيُّون نائب فاعل، وقرأ الباقون (قاتَلَ) بالبناء للفاعل وهو من القتال (وَرِبِّيُّون) فاعل.

معه، وحينئذ يكون الوقف تامًّا على (قُتل).

والمعنى: أن كثيرًا من الأنبياء قُتِلوا، وأنّ مَنْ بقي بعدهم ما وهنوا في دينهم، ولا استكانوا لعدوّهم واستمروا في جهادهم.

وعلى قراء (وكأين من نبي قُتِل) فإن من الأنبياء ما عُلم قتله، ومنهم من لم يُعلم، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وممن قُتِل وعرف قتله منهم، ستة:

١- (أرمياء) ٢- (حزقيال) ٣- (أشعياء) ٤- (زكريا) ٥- (يحيى)

هؤلاء قتلهم بنو إسرائيل، ٦- وقتل أصحاب الرّس نبيهم (حنظلة بن صفوان).

والربيُّون هم: المتبعون لشريعة الرب، والمراد بهم: أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء.

ثم ذكر سبحانه استنصار النبيين وأتباعهم بربهم فقال:

١٤٧- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

والله ﷻ يعلمنا أن نكون مثل أنبياء الله وأتباعهم المخلصين في مواجهة أعداء الله، وأن تكون عزائمنا مثل عزائمهم، وإن بُلينا بالهزيمة في زمن من الأزمنة فلا نفرِّط ولا نستسلم ولا نقعد، وإنما نربِّي أنفسنا وأبناءنا على الجهاد إلى الجولة القادمة، والدعاء والتضرع إلى الله تعالى من عوامل النصر، وهؤلاء الذين انتصروا على عدوهم دعوا ربهم **بأربعة أمور** فقالوا:

أولًا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فإنّ مغفرة الذنوب والتخلي عنها من أسباب النصر.

وثانيًا: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ فإن الإسراف في المعاصي والذنوب ومجاوزة الحد فيهما من أسباب الخذلان و الهزيمة، وتركها من أسباب النصر.

وثالثًا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند لقاء العدو.

ورابعًا: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في كل زمان ومكان.

وإذا تضرعنا إلى الله تعالى مثلهم بعد الاستعداد بالسلاح فإننا نكون مثلهم. وهكذا دعا الذين نصرهم الله على جالوت وجنوده حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

حُسْنُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

لقد جعل الله العاقبة لأولياء الله في الدنيا، نصرًا وظفرًا؛ وفي الآخرة فوزًا برضى ربهم، ونعيمًا مقيمًا.

١٤٨- ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

إن الله تعالى أعطى هؤلاء الصابرين جزاءهم في الدنيا، بأن نصرهم على عدوهم، وغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم، ولهم الثناء الحسن بين الناس، ومكَّن لهم في الأرض، ومنحهم الجزاء العظيم في الآخرة بالثواب الجميل وجنات النعيم، والله سبحانه يحب من أحسن عبادته لربه وأحسن معاملة خلقه.

التَّحْذِيرُ مِنْ مُوَالاَةِ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ

١٤٩، ١٥٠ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

في هذا نهي للمسلمين عن طاعة غير المسلمين، فإنهم يريدون وقوع الشرّ بهم، وردّهم عن دينهم حتى يَبُوؤُوا بالخيبة والخسران.

وهكذا: تمضي الآيات لاستعراض أحداث المعركة، والكشف عن دسائس الأعداء الذين سنحت لهم الفرصة لينفُثوا عن سمومهم، فيحذِّر الله سبحانه من طاعة الكفار، ويَعِدُ عباد الله بالنصر.

وقد حذرنا الله سبحانه من طاعة المشركين أو الدخول معهم في صلح وأمان؛ لأن في ذلك إظهارًا للضعف أمامهم والحاجة إليهم، وكان بعض المسلمين قد اقترح أن يأخذ ابن أُبيٍّ أمانًا لهم من أبي سفيان فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ في كل زمان ومكان.

وبيَّن جلَّ شأنه أنه لا ينبغي لنا أن نلتمس النصر ولا العزة في الولاء للكفار وفي سماع أقوالهم وطاعتهم، أو الاستعانة بهم، وحينما مُني المسلمون بالنكبة في غزوة أحد، انتهز بعض الكفار والمنافقين هذه اللحظة فجاؤوا إلى المسلمين يقولون لهم: لو كان محمد نبيًّا ما هُزم - على حدّ زعمهم -، ارجعوا إلى دينكم، ارجعوا إلى إخوانكم.

وليس هذا خاصًّا بهذه الحادثة، وإنما هو حاصل في كل وقت، والله سبحانه يحذِّرنا من ذلك فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بألوهيتي، ولم يؤمنوا برسلي في كل زمان ومكان، يُضلُّوكم عن الحق، و ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وتعودوا إلى الخسران المبين، والهلاك المحقق.

وليس بالضرورة أن تكون هذه الردة جماعية أو دفعة واحدة، بل يكفي كونها تدريجيًّا، وعلى أزمنة متباعدة، ويكفي التشكيك في الإسلام والطعن فيه، تمهيدًا للانسلاخ الكامل منه.

وهؤلاء الأعداء لن ينصروكم بل الله ناصركم ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الله وحده هو مولاكم، ولا يُحتاج إلى غيره، وإن لم تلتمسوا النصر والعزة من الله سبحانه فممن تلتمسونها؟ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وفي هذا بشارة بأن الله تعالى سيتولى أمور المسلمين بلطفه ورحمته، ويعصمهم من شرور أعدائهم.

سَبَبُ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ

ومن ولاية الله تعالى ونصرته للمسلمين، أنه يلقى الرعب في قلوب غير المسلمين فيمنعهم هذا الرعب من مقاصدهم، ونيْل مآربهم من المسلمين. قال تعالى:

١٥١- ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ[١] بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ[٢] بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

ثم بشَّركم الله تعالى بأنكم إن توليتم الله وحده، فإنه سبحانه سيمدكم بأسباب النصر، ومن أسبابه أن يُلْقي الرعب والفزع والخوف في قلوب الكفار مهما كانت أعدادهم، ومهما كانت

---

(١) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب (الرُّعُبْ) بضم العين، والباقون (الرُّعْبْ) وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يُنْزِلَ) بالتخفيف مضارع (أنزل)، وقرأ الباقون (يُنَزِّلَ) بالتشديد مضارع (نَزَّل).

قوتهم، ومهما كنتم ضعفاء، فقد نُصرتم بالرعب من مسيرة شهر.

كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحلت لي الغنائم، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصة وبُعِثت إلى الناس عامة»**[(١)].

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُعطيت خمسًا: بُعثت إلى الأحمر والأسود، وجُعلت ليَ الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُحلَّتْ لِيَ الغنائم، ولم تحل لمن كان قبلي، ونُصرت بالرعب شهرًا، وأُعطيت الشفاعة، وليس من نبيٍّ إلا وقد سأل شفاعته، وإني اختبأتُ شفاعتي، ثم جعلْتُها لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»**[(٢)].

فمن خصائص النبي ﷺ أن ينصره الله تعالى، وينصر أمته بإلقاء الرعب في قلب العدو، دون سلاح ولا عتاد ولا عدد، فيرهب ويضعُف ويجبن ويخاف.

وذلك أنه لما انتصر المشركون في غزوة أحد وتركوا أرض المعركة، وبينما هم في الطريق إلى مكة ندموا، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: لماذا لا نعود ونقضي على المسلمين ونستأصلهم؟ فهمّوا بذلك، فأنزل الله على رسوله هذه الآية ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فألقى الله في قلوبهم الرعب، فواصلوا سيرهم ولم يرجعوا إلى مكان غزوة أحد، وانصرفوا خائبين.

والسبب أنهم أشركوا بالله آلهة مزعومة، من الأنداد والأوثان، ليس لهم عليها دليل ولا برهان ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾، وهذا الشرك يستوجب إلقاء الرعب في قلوبهم، وذلك لأن نصر المؤمنين إما أن يكون بقطع دابر طرف من الكافرين، أو بكبتهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم: (٥٢١).

(٢) «المسند» (٤/٤١٦) برقم: (١٩٧٣٥) صحيح لغيره قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٢٥٨): رواه أحمد متصلا ومرسلًا، وهو عند الطبراني، و رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٤٣٣) وله شاهد في الحديث السابق.

وكان النبي ﷺ قد ندب المشركين إلى لقائهم لمَّا علموا بنية المشركين في العودة إليهم، فقيَّض الله معبد بن أبي معبد الخزاعي، حيث لحق بقريش وأدركهم بالروحاء، وكان كافرًا فقال لهم: إن محمدًا وأصحابه قد خرجوا يطلبونكم في جمع لم أر مثله، يتحرَّقون عليكم ما تخلَّف عنه أحد.

قال السدِّي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد، متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يَبْقَ منهم إلا الشرذمة تركناهم؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك، ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما همُّوا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

لقد حاول الكفار وهم في طريق عودتهم إلى مكة، أن يعودوا إلى المسلمين للقضاء عليهم، إلا أن الخوف والرعب ملأ قلوبهم، حتى قال صفوان بن أمية: يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم؛ فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان.

وسبب هذا الرعب أن المشركين على غير يقين في عبادتهم للأوثان، فقلوبهم خاوية مزلزلة؛ لأنهم ليسوا على بَيِّنة أو حجة، فيما يعبدون.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى قذف في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة.

فالكفار في الدنيا في رعب وهلع من المؤمنين، وفي الآخرة يكون مأواهم النار؛ بسبب ظلمهم وإشراكهم بالله تعالى وعداوتهم للمؤمنين، وساء المصير مصيرهم، بسبب ظلمهم وعداوتهم.

ووَعْدُ الله تعالى قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان في القديم والحديث.

أَسْبَابُ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ

١٥٢- ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

وتمضي الآيات لِتَمَسَّ جسم المعركة، فتستحضر مصداق وعد الله لعباده في أُحد حيث

(١) «زاد المسير» (١/ ٤٧٤) والقرطبي (٤/ ٢٣٢).

كان النصر حليفهم في أول المعركة واستحرَّ القتل بالمشركين، وولَّوا الأدبار، وتركوا الغنائم، وسقط لواؤهم، فلم تمتد إليه يد حتى رفعتْه امرأة، وكان بعض الصحابة قد قال: من أين أصابنا هذا وقد وَعَدنا الله النصر؟! فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر على العدو أول النهار ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلًا ذريعًا وتستأصلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ فإن قتْلَكم لهم كان بعلم الله وأمره وقضائه وقدره، واستمرَّ نصْركُم عليهم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع وعصيان أمر الرسول ﷺ وتَطلُّعكم إلى الغنائم، فكان الضعف والخور.

في البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: **«لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرْنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظَهَرُوا علينا فلا تُعينونا»** فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشْتددْن في الجبل، رفعْن عن سوقهن وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ، الغنيمةَ، فقال عبد الله: عَهِدَ إليَّ النبي ﷺ ألَّا تبرحوا، فأبَوْا، فلما أَبَوْا صَرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلًا، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: **«لا، لا تجيبوه،** فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك، فقال: أبو سفيان: اعلُ هُبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا الْعُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول: قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني»[1].

قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ حيث أمركم الله بالائتلاف فاختلفتم، فمن قائل: نبقى في المكان الذي وضعنا فيه رسول الله ﷺ.

ومن قائل: لماذا نبقى وقد انهزم العدو، فعصيتم الرسول وتركتم أمره بعد أن انخذل عدوكم ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ فقد ضعف فريق منكم أمام ما تركه العدوُّ من متاع في بطن الوادي، فكنتم فريقين:

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٣٩، ٤٠٤٣).

فريق أحب الدنيا، ورغب في الغنائم مخالفًا بذلك أمر الرسول ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وفريق أحب ما عند الله من أجر ومثوبة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

والذين أرادوا الآخرة هم: عبد الله بن جبير، ونحو عشرة من الرماة، فثبتوا وقالوا: لا نبرح أمر رسول الله ﷺ.

والذين أرادوا الدنيا هم من بقي من الرماة نحو الأربعين، حيث قالوا: ما نصنع بمقامنا هاهنا، وقد انهزم المشركون، ثم أقبلوا على الغنيمة.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ما شعرت أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد.

قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! فأنزل الله الآية[١].

ولكن الله تعالى لا يمنح النصر للمؤمنين إلا إذا خلصت نفوسهم لله، ومحّصهم الله، ومحّضهم له.

ولذا: فإن الله صرف وجوهكم عن عدوكم، وصرف قوّتكم وبأسكم وانتباهكم عنهم، موافقة لتصرفكم الذي صرف الرماة عن ثغر الجبل، وميدان القتال، ولاذوا بالفرار، وكان هذا ابتلاء من الله، ليتبيّن المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفّر عنكم بهذا البلاء ما صدر منكم.

فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك، وكانا من قادة العدوّ حيث قتلوا أمير الرماة ومن معه، وكانت الدائرة على المسلمين، جزاء عصيان أمر الرسول ﷺ وقد فعل الله بكم ذلك؛ لتعرفوا من أين جاءتكم الهزيمة، فتتقوا الوقوع في أمثالها ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي صرف الله وجوهكم عن عدوكم بعد حصول المخالفة منكم، وكان ذلك ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ فيمحصكم ويعاملكم معاملة المختبر.

---

(١) الواحدي (١٠٧) والقرطبي (٤/ ٢٣٣) وغيرهما.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ لعلمه سبحانه بندمكم وتوبتكم، وقلّتكم وكثرتهم عددًا وعدة، فلم يعاقبكم ولم يستأصلكم بسبب عصيانكم ومخالفتكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنصرهم أولًا، ثم عفا عمن خالف منهم ثانيًا، والله المتفضل على عباده في جميع الأحوال، وهذا من تمام نعمته على عباده السائرين على منهجه المقرين بعبادته وحده، ومن فضل الله على المؤمنين أن منّ عليهم بالإسلام.

أَحْدَاثُ الْهَزِيمَةِ فِي أُحُدٍ رَأْيَ الْعَيْنِ وَسَبَبُهَا

في هذه الآية وصف لحال المسلمين وقت الهزيمة، وعتاب لهم على ما حدث منهم؛ قال تعالى:

١٥٣- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ثم تستحضر الآيات صورة الهزيمة كأنها ماثلة أمام الأعين: وذلك أن المسلمين قد لاذُوا بالجبل فارِّين هاربين، فأخذوا يذهبون في صعيد الأرض، يبتعدون فيها، وقت الهرب من العدو، وكانوا في حالة اضطراب ودهشة وخوف ورعب، بحيث لا يلتفت أحد إلى أحد خوفًا من العدو.

فاذكر أيها الرسول هذا الموقف وقت صعودكم وأنتم تأخذون ذاهبين في صعيد الجبل ولا يلوي أحد على أحد، أي: لا يلتفت إليه، فالآية تصور حالهم عندما اضطربت صفوفهم وأخذوا يصعدون في الوادي بدون تثبت، ولا تمهل، ولا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يسمع أحد صوت أحد، وقد ثبت رسول الله ﷺ في الميدان ومعه قلة من المؤمنين، وهو يناديكم من ورائكم: **«إليّ عباد الله، أنا رسول الله، من كرّ** -أي: رجع- **فله الجنة»** فلم تلتفتوا إليه، ولم تعرّجوا عليه ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: والرسول في آخر الجيش يناديكم من ورائكم، فكانت النتيجة أن الله تعالى جازاهم على مخالفتهم أمر الرسول ألمًا وضيقًا وغمًّا يملأ نفوسهم ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: جازاكم ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: غمًّا على غمٍّ، فالإثابة بمعنى المجازاة، والباء بمعنى على، والغم الأول هو ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني: ما نالوا من القتل والهزيمة.

وقيل: الغم الأول: ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثاني: ما أُشيع أن محمدًا

قد قُتِل، فأنساهم الغم الأول، وقيل غير ذلك.

فالفرار موجب للّوْم، ودعوة الرسول لهم، موجبة لتقديمها على النفس.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن قتادة قال: الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الآخر: حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قُتِل، فأنساهم الغم الأخير ما أصابهم من الجراح والقتل وما كانوا يرجون من الغنيمة.

وهذا الغم الذي نزل بهم يَصْغُر معه كل عَرَض فاتهم من متاع الدنيا ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نصر وغنيمة، ولتتمرنوا على الصبر وتجرُّع الصعاب ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ وما حل بكم من خوف وهزيمة عقوبة لكم، وقد ورد أنهم لما سمعوا أن النبي ﷺ قد مات نسوا ما فاتهم وما أصابهم.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من جميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها. قال تعالى:

١٥٤- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ(١) طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ(٢) لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ(٣) ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

وتمضي الآيات في تصوير أحداث الهزيمة كأنها حية متحركة، حيث **كان الناس فريقين:**

الفريق الأول: هم المؤمنون المخلصون الذين رجعوا وأنابوا إلى الله ورسوله، لقد

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (تَغْشَى) بتاء التأنيث على أن الفاعل ضمير يعود على (أَمَنَةً)، وقرأ الباقون (يَغْشَى) بياء التذكير، على أن الفاعل ضمير يعود على النُّعاس.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (كُلُّهُ لله) بالرفع، على أنها مبتدأ ومتعلق (لله) خبرها، والجملة خبر إن، وقرأ الباقون (كُلَّهُ لله) بالنصب على أنها تأكيد للأمر الذي هو اسم (إن) ومتعلق (لله) خبر إن.

(٣) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر (بِيُوتِكُمْ) بكسر الباء، وقرأ الباقون (بُيُوتكم) بضم الباء، وهما لغتان.

شملهم الله برحمته، فأعقب هزيمتهم سكونا وراحة نفسية، وطمأنينة وأمنًا وأمانًا ، فأزال الله خوفهم، وسكَّن رُعبهم، وأنزل عليهم نعاسًا، أي: نومًا خفيفًا، سكنت فيه نفوسهم، وأمَّن الله خوفهم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وفي هذا رحمة من الله، وتثبيت لقلوبهم، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، فإذا زال الخوف أتاه النعاس.

عن أبي طلحة ﷺ قال: كنت فيمن تغشَّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقطُ وآخذُه، ويسقط وآخذه[١].

وعن أبي طلحة ﷺ أيضًا قال: رفعتُ رأسي يوم أحد، وجعلتُ أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يَمِيدُ تحت جحفته من النعاس[٢].

وهؤلاء هم أهل الإخلاص واليقين، أفاض الله عليهم نعمة النوم الخفيف وقت الشدة.

والفريق الآخر: هم المنافقون الذين شُغلوا بأنفسهم، ولم يكن لهم هَمٌّ إلا خَلاصُ أنفسهم، فضعُفت عزائمهم، وخارت قواهم، وأساؤوا الظن بربهم وبنبيهم وبدينهم، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم مع الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: هل كان لنا من اختيار في الخروج؟ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، وهذا استفهام إنكاري، حيث أساؤوا الظن، فظنوا أن الله لا يتم أمر هذا الدين، وأن الهزيمة هي القاضية عليه.

قال الزبير بن العوام ﷺ: لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول مُعتِّب بن قُشَيْر، والنعاس يغشاني، ما أسمعه إلا

(١) أخرجه البخاري عن أنس، فتح الباري (٧/ ٢٢) ورقمه في البخاري: (٤٠٦٨، ٤٥٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١١٠٨٠).

(٢) رواه البخاري في المغازي معلقًا، وفي التفسير مسندًا، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم (٢/ ٢٩٧) عن أنس، وهذا لفظ الترمذي، وقال: حسن صحيح، «تحفة الأحوذي» (٨/ ٣٥٨) ورقمه في «السنن» (٣٢٠٦) وصححه الألباني في صحيح السنن برقم: (٢٤٠٥) والمختارة (٨٦٦) وهو في الطبراني الكبير (٤٦٩٩) والحاكم (٢/ ٢٩٧) وابن سعد (٣/ ٥٠٥) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٤٨) وفي مسلم (٥/ ١٧٩).

كالحلم يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[(١)].

قال ابن مسعود ﷺ: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان[(٢)].

ولما أشار عبد الله بن أُبيّ على النبي ﷺ بعدم الخروج يوم أحد، وحدث ما حدث، قال: هل لنا من الأمر شيء؟ أي: ليس لنا أمر يطاع.

وقد أراد الله سبحانه أن يميز المؤمنين من المنافقين، فأمّن المؤمنين بالنعاس، آية باهرة، ومعجزة لهم، وبقي المنافقون في الخوف دون أن يُلقي الله عليهم النعاس؛ ليظلوا في قلق وذعر، وليظهر نفاقهم واعتراضهم على خطة القائد العظيم ﷺ حيث قال بعضهم: لو كان لنا عقول، لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة.

وقال آخرون: لو كنا على الحق ما قتلنا ههنا، بالإضافة إلى قول مُعْتب وابن أُبيّ، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وهذا يشمل الأمر القدَري، والأمر الشرعي، وأن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، ومن ذلك النصر والهزيمة، فلا أمر لأحد غير الله، كما قال الله لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

فالنصر والظفر والهزيمة والجراح، كل ذلك بيد الله، فهو الذي قدَّر خروجكم للقتال، وهؤلاء المنافقون ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ من الكفر والشك والندم على الخروج معك ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

ثم فسَّر الله تعالى ما أخفوه في أنفسهم بهذه المقالة، وفيها إنكار وتكذيب بقدر الله، وتسفيه لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فهم ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ ونفوسهم إلى جوار ذلك ملأى بالوساوس والهواجس، وحافلة بالاعتراضات والاحتجاجات، والله تعالى يبيِّن لهم ما لا يظهرونه من الحسرة على الخروج مع رسول الله ﷺ بأن الآجال بيد الله، وأنه لا يغني حذر من قدر، وأن التدبير لا يقاوم التقدير، فلو كنتم في بيوتكم، وقدّر الله أنكم تموتون لخرج الذين كتب عليهم الموت إلى حيث يُقتلون، فلا رادَّ لقضاء الله، ولا معقب لحكمه ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق والمختارة برقم: (٨٦٤) وإسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي رُزين، ورجاله ثقات إلا عاصمًا صدوق، وإسناده حسن.

وهي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ أي: لخرجوا إلى مصارعهم التي يُصرعون فيها، فالأسباب تتقطع إذا لم يعارضها القدر، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لابد من وقوع ما هو مقدر عند الله، فما هو مدوّن في اللوح المحفوظ من الموت أو الحياة.

وما جعل الله ذلك إلا ليُظهِر لخلقه ما في صدوركم من الشك والنفاق، فيميز المؤمن من المنافق، ويَظْهَر للناس في أقواله وأفعاله ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ ويظهر أيضًا ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ويمحصها من وساوس الشيطان، ويختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف يقين ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ والتمحيص هو تخليص الشيء مما يخالطه وفيه عيب، وصفات غير حميدة.

والله سبحانه لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه، فهو عالم بالبواطن كما هو عالم بالظواهر ومن حكمته تعالى أن قدّر من الأسباب ما تظهر به خفايا الصدور وسرائر الأمور ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجازيكم على أقوالكم وأفعالكم.

وهذا إخبار عن حال الذين فرّوا أمام العدوّ يوم أحد، قال تعالى:

١٥٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾

وفي يوم أحد انهزم أكثر المسلمين، وفرُّوا من ساحة القتال حين التقى المسلمون والمشركون، وممن انهزم وترك موقعه، أكثر الرماة الذين كانوا يَحْمُون ظهر المسلمين، وثبت مع النبي ﷺ نحو أربعة عشر رجلًا، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار.

والله سبحانه يبيِّن أن فرار من فرَّ في هذه الغزوة كان بسبب إغواء الشيطان لهم، فزيَّن لهم معصية رسول الله، وتسلّط عليهم، وهم الذين مكّنُوه من أنفسهم بما فعلوه من مخالفة أمر النبي ﷺ، لأن المعاصي مَرْكَبُه ومَدْخله، ولو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾ [الإسراء: ٦٥]

ثم طمأنهم الله تعالى بأنه قد عفا عنهم وتجاوز عما حدث منهم فلم يعاقبهم والله

تعالى غفور للمذنبين التائبين خطاياهم، حليم لا يعاجل بالعقوبة، بل يمهلهم، ويدعوهم إلى الإنابة إليه والإقبال عليه.

عُوتِب عثمان ﷺ في عدم حضوره يوم أحد، فقال: ذلك وإن كان خطأ، لكن الله قد عفا عنه، وقرأ الآية[١].

وقد ترخص قوم في الفرار يوم أحد لما سمعوا أن النبي ﷺ قد مات، قاله ابن عباس.

أو أن الشيطان ذكَّرهم خطاياهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها؛ قاله الزجاج ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

التَّحْذِيرُ مِنَ الْمُثَبِّطِينَ عَنِ الْجِهَادِ

١٥٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ[٢] بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

ثم يحذر الله المؤمنين ألا يشبهوا الكفار والمنافقين، في قولهم لإخوانهم في النفاق والكفر، أو لإخوانهم في النسب، إذا خرجوا في سفر للتجارة أو غيرها فماتوا، أو كانوا غزاة مجاهدين فقُتِلوا: لو لم يخرج هؤلاء، وأقاموا معنا ما ماتوا وما قتلوا؛ لأن هذا القول يزيدهم حسرة وندامة وحُزنًا يستقر في قلوبهم وغمًّا وأسفًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا تشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ ولم يخرجوا للغزو أو السفر ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [الآية: ١٥٤] ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ والحسرة هي الهم المضني والحزن المستمر والألم الشديد.

أما المؤمنون بالله ورسوله، فهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيؤمنون ويسلمون،

(١) يُنظَر «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٦٦).

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف العاشر (يَعْمَلُون) بياء الغيبة ردًّا على الذين كفروا الوارد أول الآية وقرأ الباقون (تَعْمَلُون) بتاء الخطاب ردًّا على قوله تعالى: (ولاتكونوا كالذين كفروا) وهو خطاب للمؤمنين.

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف عنهم آلام المصيبة.

ثم رد الله على قول المنافقين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ فقد يميت المقيم والقاعد، ويُحيي الغازي والمسافر، فالجلوس في البيت لا يمنع الإنسان من الموت، والسفر أو الغزو لا يُعجِّل بالموت أو القتل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فهو سبحانه مطلع على ما تعملونه من خير أو شر، وسوف يجازيكم على أعمالكم، فلا تكونوا كالمنافقين الذين ينفِّرون المؤمنين عن الجهاد، فَلأَنْ يموت المسلم في الجهاد، فيستوجب الثواب، خير له من أن يموت في بيته بلا فائدة، قال تعالى:

١٥٧ - ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ(١) لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ(٢) ﴿١٥٧﴾﴾

على أن الموت أو القتل ليس نهاية المطاف، بل هناك ما هو خير من هذه الحياة وما فيها، وهو مغفرة الله ورحمته، فإذا قُتلتم شهداء في سبيل الله فإنكم ستنالون هذه المنزلة فتفوزون بجنات النعيم، وذلك خير من الدنيا وما يجمعه أهلها.

وإذا مات الإنسان أو قتل على أي حال، فإن مرجعه إلى الله، ومآله إليه، فيجازى كلًّا بعمله، فلا فرار إلا إلى الله، ولا عاصم إلا بحبل الله، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

وثبت في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن عليَّ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كَلْم يُكْلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم، لونُه لون دم، وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولايجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده، لَوددْتُ أن أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأقتل»**(٣).

---

(١) قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف العاشر (مِتُّمْ) وقرأ الباقون (مُتُّمْ) وهما لغتان، ومثلها (متم) في الآية التالية.

(٢) قرأ حفص (يَجْمَعُون) بياء الغيب؛ لأنه راجع إلى الذين كفروا في قوله تعالى: (ولاتكونوا كالذين كفروا) وقرأ الباقون (تَجْمَعُون) بتاء الخطاب؛ لمناسبة قوله تعالى: (ولئن قتلتم في سبيل الله).

(٣) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٦) والبخاري (٦/ ١٥٤) برقم: (٣٦، ٢٧٨٧، ٥٥٣٣، ٧٢٢٦).

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيُقتَل عشر مرات لما يرى من الكرامة**» وفي رواية: «**لما يرى من فضل الشهادة**»(١). قال تعالى:

١٥٨- ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: وجميع الخلق راجعون إلى الله تعالى، محشورون إليه، سواء ماتوا على فرشهم أو قتلوا في ساحة الجهاد، فالجميع راجع إلى الله تعالى، وهو مجازيهم على أعمالهم.

لِينُ الْجَانِبِ وَالتَّشَاوُرِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا

١٥٩- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

ومن شأن قائد المعركة، أن يحاسب المقصرين عند حلول الهزيمة، ولكن النبي ﷺ بما منحه ربه من لين ورحمة ولُطف ورأفة، لم يسارع إلى تعنيف الرماة على ما كان منهم يوم أحد،بل كان من توفيق الله لنبيه، أن ألقى في قلبه الرحمة فترفّق بهم ولم يعاقبهم أو يوبخهم، ولو كان رسول الله ﷺ جافيًا قاسي القلب سيِّئ الخلُق، قليل الاحتمال، لنفروا منه، وتفرقوا عنه، ولم يبق منهم أحد حوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب رحمة فياضة منحك الله إياها يا محمد كنتَ ليِّنًا لهم ولم تعنِّفهم على ما وقع منهم، والشدة في غير موضعها تُفرّق ولا تجمع وتُضعف ولا تقوى، واللين هو سعة الخلُق مع أمة الدعوة والمسلمين، وإقالة العثرات، وقد فطر النبي ﷺ على الرحمة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

فالأخلاق الحسنة من المسؤول في أمور الدين، تجعل الناس تنجذب إلى دين الله، وترغّبهم فيه، والأخلاق السيئة تُنفّر الناس من الدين وتبغّضهم فيه.

قال عبد الله بن عمرو ﷺ: إنه رأى صفة النبي ﷺ في الكتب المتقدمة: ليس بفظ ولا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٧) والبخاري (٦/ ٢٥) برقم: (٢٨١٧) والنسائي (٦/ ٣٦) عن عبادة بن الصامت.

غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح[١].

وعفو النبي وصفحه ورحمته بالناس كان سببًا في دخول كثير في الإسلام.

كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومن شأن قواد الأمة أن يتخلقوا بأخلاق نبيهم في تربية الأفراد والجماعات من غير إفراط ولا تفريط.

وقد رتب الله سبحانه على رحمة القائد ولين جانبه ما يتعلق بتنظيم شؤون الأمة من أمور، وهي:

١ - ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾: تجاوز عن زلاتهم، ولا تؤاخذهم بما حدث منهم يوم أحد حين خالف الرماة أمرك، وتجاوز عن تقصيرهم في حقك.

٢ - ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: اسأل الله أن يغفر لهم ما كان منهم من تقصير في جانب الله تعالى حتى يشفِّعك فيهم، فإن هذا من تمام شفقتك بهم.

٣- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: شاورهم فيما يحتاج إلى مشورة ونظر وفكر من الأمور التي لم ينزل فيها وحي قاطع من الله تعالى، وذلك في أمور الدنيا ومصالح الحرب، تطييبًا لنفوسهم، وترويحًا لقلوبهم، وإعمالًا لعقولهم، ولتقتدي بك أمتك.

قالت عائشة ﵂: ما رأيت رجلًا أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ رواه البغوي بسنده.

وتجوز الاستشارة في أمور الدين التي لم ينزل فيها وحي، كما شاور النبي ﷺ أصحابه في شأن أسارى بدر، وهو أمر ديني.

وقد شاور النبي ﷺ أصحابه في مكان نزول الجيش يوم بدر.

وشاورهم في الخروج إليها، وإلى غزوة أحد، وشاورهم في مصالحة الأحزاب يوم الخندق.

وشاورهم أن يميل على ذراري المشركين يوم الحديبية، وشاورهم في شأن حادثة الإفك، فكان ﷺ يشاور في الحروب ونحوها.

وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**المستشار مؤتمن**»[٢].

(١) البخاري في فتح الباري (٨/ ٤٤٩) ورقمه (٢١٢٥، ٤٨٣٤).

(٢) ابن ماجه (٢/ ٢٣٣) برقم: (٣٧٤٥) وأبو داود (٥/ ٣٤٥) برقم: (٥١٢٨) و«تحفة الأحوذي» (٨/ ١٠٩) وفي «سنن الترمذي» برقم: (٢٣٧، ٢٣٦٩، ٢٨٢٢) وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٤١).

وأهل الشورى في مسائل الاجتهاد والتطبيق هم: الرجال الصالحون القائمون على حدود الله، المتقون: أولو الأحلام والنهى، أهل العلم الشرعي والتجريبي من المسلمين غير الملحدين ولا العِلْمانيين ولا المحاربين ولا الفجار الذين لا يتورعون عن ارتكاب المنكرات ولا يجاهرون بمعاصيه، ولا بالأمور المخالفة لمنهج الله.

قال البخاري في كتاب الاعتصام: (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم، وكان القراء أصحاب مشورة عمر، كهولًا كانوا أو شبانًا، وكان وقَّافًا عند كتاب الله).

وقد تشاور الصحابة في أمر الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، وجعل عمر الأمر بعده شورى في ستة عيَّنهم.

٤- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: والشورى من الأسباب التي يجب الأخذ بها، ولكن لا بد من الاعتماد على الله والتوكل عليه أوَّلًا وأخيرًا، فإذا شاورتهم في الأمر، وعزمت على التنفيذ، ففوض أمرك إلى الله، واستعن في كل أمورك بالله، وثق به، ولا تعتمد إلا عليه، فإن المشورة لا تنافي التوكل، فامض بعد الاستشارة معتمدًا على الله، فالله يحب المعتمدين عليه في جميع الأمور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، المعتمدين على حوله وقوته المتبرئين من حولهم وقوتهم.

هذا: ومن فوائد الاستشارة:

١- أنها من العبادات التي يُتقرب بها إلى الله تعالى.

٢-وفيها تطييب لخاطر المسلمين، وإزالة ما عسى أن يكون في قلوبهم على رئيسهم من إِحَن.

٣- وفيها تنوير للأفكار وتفتيق للأذهان.

٤- وفيها ما تُسفر عنه المشورة من الإصابة في الأمور والبعد عن الأخطاء.

الْمُؤَثِّرُ الْحَقِيقِيُّ فِي الْخُذْلَانِ أَوْ النَّصْرِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ

١٦٠- ﴿إِن يَنصُرْكُمُ[1] ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عن الدوري بإسكان الراء من (ينصركم) والوجه الثاني للدوري اختلاس حركة الضم، والباقون بالضم الخالص

ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم إن ما يصيب الناس من نصر أو خذلان مرده إلى الله، فإذا نصر الله قومًا في يوم، ثم خذلهم في آخر فإن ذلك يرجع إلى أسباب وحكم، فعليهم أن يأخذوا بأسباب النصر.

وهذه الآية تقرر أن الفاعل الحقيقي المؤثِّر في النصر أو الهزيمة، هو الله تعالى، وهو سبحانه يمنح النصر لمن أخذ بأسبابه، وسنة الله سبحانه تجري بترتيب النتائج على الأسباب، فلا أحد يمنعكم النصر إن أمدكم الله بعونه، ولا أحد يستطيع أن يغلبكم إن أمدكم الله بنصره، ولا بد أن تكونوا مؤهلين حتى يتحقق لكم وعد الله. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾ [محمد]

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٤٠]

وقال جل شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

وقد وصف الله المؤهلين للنصر بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١]

وهؤلاء هم الذين يمكن الله لهم في الأرض، ويبدل خوفهم أمنًا ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]

وإن كنتم أهلًا للنصر والتمكين ، فلا أحد يستطيع أن يخذلكم إن نصركم الله وأمدكم بعونه وتوفيقه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فلا قوة إلا به، ولا قدرة إلا له، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، والإيمان بالله تعالى يوجب التوكل عليه، وعدم التماس النصر من غيره.

في صحيح مسلم وغيره عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب**»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**»، فقام آخر، فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**سبقك بها عكاشة**»[1].

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢١٨) و«المسند» برقم (١٩٩٦٦، ١٩١٩١٣).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

الاسْتِخْفَافُ بِالْمَالِ العَامِّ مِنْ أَسْبَابِ الهَزَائِمِ

١٦١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ(٢) أَن يَغُلَّ(٣) وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

يخبر الله سبحانه أنه يستحيل ويمتنع على نبي من الأنبياء أن يكتم أو يأخذ شيئًا من الأموال العامة، أو يخون في أي مال يكون تحت يده، فإن هذا محرم إجماعًا، وهو من كبائر الذنوب، وقد صان الله أنبياءه من كل ما يقدح فيهم، وجعلهم أفضل الخلق، وأطهرهم نفْسًا، وأزكاهم خُلقًا، ونزَّههم عن كل نقص وعيب ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقد توعّد الله من يخون في المال العام أنه يأتي يوم القيامة حاملًا له على ظهره، فضيحة له في الموقف، وليعذَّب به يوم القيامة، وكل غال يُوفَّى وزره على مقدار كسبه، فلا يزاد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته.

أسباب النزول:

١- قال مقاتل والكلبي: نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئًا فهو له، وألا تُقسم الغنائم، كما لم تقسَّم يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم.

٢- وقال ابن عباس: ما كان لنبي أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة، ويجور في القسْم، ولكن يقسم بالعدل، ويأخذ فيه بأمر الله، ويحكم فيه بما أنزل الله إليه.

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم: (٢٤٦١) وفي «صحيح سنن الترمذي» (١٩١١) وصحيح ابن ماجه (٤١٦٤).

(٢) قرأ نافع بالهمز في (لنبيء)، والباقون بالياء المشددة

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (أن يَغُلَّ) مبنيًّا للفاعل، أي: لا ينبغي أن يقع من نبي غلول، أي: خيانة البتّة، وقرأ الباقون (أن يُغَلَّ) مبنيًّا للمفعول من (غَلَّ)، أي: لا ينبغي أن يُخَوِّنَ النبيَّ أحدٌ فهو نفي في معنى النهي، أو بمعنى: لا ينبغي لنبي أن يوجد غالًّا.

وقد كان من العوامل التي جعلت الرماة يتركون أماكنهم من الجبل: خوفهم ألا يقسم لهم من الغنائم، وكان بعض المنافقين قد تكلم في غنائم بدر.

٣- وعن ابن المبارك قال: حدثنا شريك، عن حصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ، قال: فُقدتْ قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال أناس: لعل النبي ﷺ أخذها! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[1].

٤- وعن مجاهد أن المنافقين اتهموا النبي ﷺ في شيء من الغنيمة، فأنزل الله الآية[2].

٥- وعن الضحاك قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع، فغنم النبي غنيمة وقسَّمها بين الناس، ولم يُقَسِّم للطلائع شيئًا، فلما قَدِمَت الطلائع قالوا: قَسَّم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت الآية[3].

٦- وقال ابن عباس في رواية الضحاك أن رسول الله ﷺ لمَّا وقع في يده غنائم هوازن يوم حنين غلَّه رجل بمخيط، فأنزل الله الآية.

٧- وقال محمد بن كعب القرظي ومحمد بن إسحاق بن يسار: هذا في شأن الوحي، يقول: وما كان لنبي أن يكتم شيئًا من الوحي رغبة، أو رهبة، أو مداهنة.

والغلول: هو الخيانة وأخذ الشيء خفية؛ كالسرقة من المال العام، وقد نفى الله تعالى الغلول عن الأنبياء بكل معانيه؛ لأن النبوة والخيانة لا يجتمعان، وفي ذلك جَمْع بين الضدين، ولم يخُن نبي أمته في الغنائم ولا في الوحي، فعلى جيوش المسلمين أن يحافظوا على المال العام؛ فإن الاستخفاف به يغضب الله تعالى ويكون سببًا في الهزيمة، ومن يخن يأت يوم القيامة حاملًا ما أخذه على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله على وجه الحقيقة، موبَّخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد، مشهَّرًا به؛ ليُفضح في الموقف المشهود، قيل: يُمثَّل به في النار، وقيل: يأتي بإثم ما غَلَّه، فيجازى به يوم القيامة ﴿ثُمَّ

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن برقم: (٣٠٠٩) وتفسير الطبري (٤/ ١٠٢) والواحدي (١٠٨) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٦٠) وابن حاتم (٤٤٢٩).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ١٠١).

(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ١٠٣) و«الدر المنثور» (٢/ ٩١) وهو في الطبراني الكبير (١١٧٤) والخطيب في تاريخه (١/ ٣٧٢).

﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تعطى جزاء ما كسبت من خير أو شر جزاءً وافيًا غير منقوص ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا.

وهذه جملة من الأحاديث في تحريم الغلول:

١- صحَّ في الحديث عن عدي بن عميرة الكندي أن رسول الله ﷺ قال: **«يا أيها الناس، من عمل منكم لنا عملًا فكتمنا مخيطًا فما فوقه فهو غَلٌّ يأتي به يوم القيامة»**[١].

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: **«كلَّا إني رأيته في النار في بردة غلَّها أو عباءة»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«يابن الخطاب، اذهب، فنادِ في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»**[٢].

٣- وفي الصَّحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن بعض الصحابة رأوا رجلًا يوم خيبر قد استشهد، فقالوا: هنيئًا له الشهادة، فقال ﷺ: **«والذي نفسي به، إن الشملة التي غلَّها يوم خيبر، لم تصبها المقاسم، لتلْتهب عليه نارًا»**، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال ﷺ: **«شراك من نار، أو شراكان من نار»**[٣].

٤- ولفظ ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: أهدى رفاعة إلى رسول الله ﷺ غلامًا، فخرج به معه إلى خيبر، فنزل بين العصر والمغرب، فأتى الغلام سهم عائر، فقتله، فقلنا: هنيئًا لك الجنة، فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، إن شَمْلَتَه لَتُحْرَق عليه الآن في النار، غلَّها من المسلمين»**، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أصبتُ يومئذ شراكين، فقال: **«يُقَد منك مثلهما من نار جهنم»**[٤].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (١٨٣٣) من حديث عدي بن عميرة الكندي، وفي «المسند» (٤/ ١٩٢) برقم (١٧٧٢٣، ١٧٧١٧) وهذا لفظ الأخير وأبوداود (٣٥٨١) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٩٤). وابن خزيمة (٢٣٣٨) وعبدالرزاق في المصنف (٦٩٥٥) والحميدي (٨٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (١١٤) و«المسند» برقم: (٢٠٣، ٣٢٨) بإسناد حسن ورجال ثقات و«سنن الترمذي» برقم: (١٥٧٤) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٦٥) وابن حبان (٤٨٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٦٧٠٧) و«صحيح مسلم» برقم: (١٨٣).

(٤) ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٩٥) وهو في البخاري (٤٢٣٤).

والشراك هو: سير النعل الذي يكون فوق أصابع القدم.

٥- وأخبر النبي ﷺ عن رجل كان يحفظ متاع النبي ﷺ يقال له: كركرة، أخبر أنه في النار، قالوا: ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه عباءة قد غلَّها[١].

٦- وعن زيد بن خالد الجهني ﷺ أن رجلًا تُوُفِّيَ يوم خيبر، فذكروه للنبي ﷺ فقال: **«صلوا على صاحبكم»**، فتغيرت وجوه الناس، فقال: **«إن صاحبكم قد غل في سبيل الله»**، قال: ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه خرزًا من خرز يهود، لا يساوي درهمين[٢].

٧- وعن سعيد بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من ظلم قيد شبر طُوِّقه من سبع أرضين»**[٣].

وقد تربَّى أصحاب النبي ﷺ على الأمانة والورع، بمقتضى هذه التعاليم، حتى إن أحدهم وجد مقبض سيف في فتح المدائن فدفعه إلى صاحب الأقباض.

ووصل تاج كسرى وإيوانه إلى عمر بعد معركة القادسية ضمن الغنائم، وهما لا يُقوَّمان بثمن، فنظر عمر إلى الجند في غبطة وقال: إن قومًا أدَّوا هذا لأميرهم لأمناء. ذكره ابن جرير في التاريخ.

مُقَابَلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ

١٦٢- ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ[٤] ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

وفي هذه الآية موازنة بين حقيقة القيم في ميدان الكسب والخسارة، ومقابلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الطاعة وأهل المعصية، فلا يستوي من قَصَد رضوان الله، ومن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مُسْخِطٌ لربه، فاستحق بذلك سكن جهنم والعياذ بالله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

وقوله ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٠٧٤) عن عبد الله بن عمرو، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٩١) عن ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم (١١٤) وأحمد (١/ ٣٠) برقم: (١٧٠٣١، ٢١٦٧٥) والترمذي (١٥٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٤٥٢) و«صحيح مسلم» (١٦١٠).

(٤) قرأ شعبة (رُضوان) بضم الراء، والباقون (رِضوان) بكسر الراء وهما لغتان.

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص].

وقوله أيضًا: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وفي هذا نفي للظلم عن رب العالمين؛ فإن من واظب على ما يرضي الله تعالى، والتزم طاعته، وترك ما نهى عنه، ومنه الخيانة واستحلال مال الدولة، لا يستوي هذا بمن باء بسخط من الله بسبب غلوله وخيانته، فالمحسن والمسيء لا يستويان، والأمين والخائن لا يستويان، ومن أسخط الله تعالى مرجعه ومصيره إلى النار يوم القيامة وبئس المستقر والمآل. قال تعالى:

١٦٣- ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

ثم إن المتبعين لرضوان الله، والراجعين بسخط الله متفاوتون في الثواب والعقاب على حسب أعمالهم؛ فأهل الإيمان يمنحهم الله على حسب قوة إيمانهم وحُسن أعمالهم، وأهل الكفر والعصيان يتفاوتون في العقاب على حسب ما اقترفوه، فمن أوغل منهم في الشرور يكون أشد عقابًا ممن هو أدنى منه في الشر.

إن أهل الخير وأهل الشر متفاوتون في الدرجات وفي منازلها ودركاتها ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢] والله تعالى سيوفِّي كلًّا منهم جزاءه، وفي هذا تربية لمن يخالف رسول الله، وثناء على من يلزم غرزه.

وفي يوم أحد وُجِد من تخلف عن المعركة من المنافقين، ومن خالف أمر الرسول ﷺ وترك مكانه من الرماة، وَوُجد من نهض مع رسول الله ﷺ إلى المعركة وثبت مكانه في الجبل.

فأصحاب الجنة المتبعون لرضوان الله متفاوتون في الدرجات، وأصحاب النار المتبعون لسخط الله متفاوتون في الدركات، لا يستوون، ولا يخفى على الله شيء من أعمالهم.

مِنَّةُ اللهِ عَلَى الْعَرَبِ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْعَالَمِ

١٦٤- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ(١) رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ(١) ءَايَٰتِهِۦ

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء في الكلمات الثلاث، وقرأ حمزة بالضم في الثانية فقط.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ(١) وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

ثم تمضي الآيات لتختم هذه الفقرة بالحقيقة الكبرى المتعلقة بصاحب الرسالة ﷺ لتذكِّر المؤمنين بنعمة الله عليهم، حيث يمتن سبحانه على العرب خاصة أن جعل فيهم مزية تلقِّي الدعوة قبل الناس كلهم ؛ لأن الله تعالى أراد ظهور هذا النور من بينهم، ثم يكونوا حملته إلى العالمين؛ لينشروه في العالم أجمع، وهكذا: يمنُّ الله ﷻ على عباده، بأن أنعم عليهم فبعث فيهم رسولًا عربيًا من جنسهم، من ولد إسماعيل، يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه وهومن بينهم، وليس بملك، أوجن، بل هو من أشرفهم، وأرسله الله بلسانهم؛ ليكون أدعى إلى تصديقه، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فيدعوهم إلى ما يوصلهم إلى نعيم الجنة ويخلِّصهم من عذاب النار، وكانوا يقفون على أخلاقه، ويعرفون جميع أحواله.

وهذا الرسول يبلغ أمته ما يوحى إليه من القرآن، ويدعوهم إلى ما يزكي أنفسهم، ويطهرهم من دنس الشرك والرذائل، ويعلمهم الكتاب المشتمل على الآيات الخارجية عن طريق البشر، المنطوى على الحكمة الإلهية والأسرار الربانية والأخبار الغيبية، وقُدمت التزكية على التعليم في هذه الآية وأخرت في دعوة إبراهيم لاختلاف المراد فيهما، فالكفر حجاب مانع، وتزكية النفس وتهذيبها أمر تالٍ وهذه المعاني ذكر أبو طالب بعضها قبل بعثة النبي ﷺ .

قال أبو طالب في خطبة تزويج الرسول ﷺ من خديجة ﵂: إن ابني هذا -محمد بن عبد الله- لا يوزن به فتى إلا رجح، وهو -والله بعد هذا- له نبأ عظيم، وخَطْب جليل. وقد أنقذ الله به قومه من الضلالة، وبصَّرهم به من الجهالة، وهداهم إلى صراط مستقيم.

وآيات الكتاب: هي القرآن الكريم، وكان الوحي لم يطرُق أسماعهم قبله.

والحكمة هي السُّنَّة التي سنَّها النبي ﷺ وشرح بها الكتاب، فطهرهم بهما من الدنس والرجس والخبث والنجس.

وكانوا قبل بعثة النبي ﷺ في جهالة وحيرة عن الهدى، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

صور من ضلال أهل الجاهلية:

١- ولتزكية العرب من جاهليتهم وأرجاسهم بمجيء محمد ﷺ صور عديدة، ذكر بعضها جعفر بن أبي طالب ﵁ أمام النجاشي في الحبشة، فقال: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولًا منا نعرف حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته وعفافه.

فدعانا إلى الله وحده؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

٢- ومن أرجاس الجاهلية: **نكاح الاستبضاع**، يقول الرجل لزوجته: إذا طهرت من الحيض، فأرسلي إلى فلان، فاستبضعي منه، أي: احملي منه.

٣- **ونكاح الرهط وهو**: أن يجتمع نحو عشرة من القوم على نكاح المرأة، فإذا وضعت نسبته إلى من شاءت منهم، فلا يستطيع أن يمتنع.

٤- **ونكاح البغايا**: وهي المرأة تضع على بابها راية لمن يريد أن يأتيها، ثم تُلحق الولد بمن شاءت.

٥- وكانت المرأة في الجاهلية تُورَّث كالمتاع، يُلْقي وارث الميت عليها ثوبه، ويقول: أنا أحق بها.

٦- وكان الأولاد يُقتلون خوف الفقر، والبنات تُوءَدُ خوف العار.

٧- وكان لكل بيت من أهل مكة صنمٌ يعبدونه، يختلف مستوى هذا الصنم في نوعية الحجر، على حسب المستوى الاجتماعي للأسرة.

٨- وكان في جوف الكعبة ثلاث مئة وستون صنمًا، كسَّرها النبي ﷺ بقضيب في يده يوم الفتح وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

٩- وكان الرجل منهم يأخذ معه أربعة أحجار إذا سافر، فينظُر أحسنها فيتخذه ربًّا، ويجعل الثلاثة أثافي تحت القدر، فإذا ارتحل تركه[١].

١٠- وبعضهم كان يعبد الجن، أو الملائكة، أو الكواكب.

١١- وقد هانت الدماء في الجاهلية فوقعت الحرب بين بكر وتغْلب ابنيْ وائل، واستمرت أربعين عامًا بسبب سهم رمى به أحدهم في ضرع ناقة البسوس بنت منقذ، فاختلط دمها بلبنها.

١٢- وكذا حرب داحس والغبراء وهما فرسا سباق، سبقت فيه داحس، وقُتِل فيها ألوف من البشر.

ونحن نعيش في جاهلية الصحافة، والأفلام، وعروض الأزياء ومسابقات الجمال، والمراقص والحانات، والفن، وكثير من القنوات الفضائية والأرضية والبث المباشر، وشبكة المعلومات، والبريد الالكتروني، والهاتف الجوال، والنظام الربوي، والعلمنة، وعصر حقوق المرأة، ومساواتها بالرجل فيما هو من خصائص الرجل شرعًا وفطرة وخَلْقًا.

والمجتمع العالمي بحاجة إلى استغلال هذه الوسائل في خدمة الدعوة ونشر محاسن الإسلام وتوصيل الدعوة إلى من لم تصله، ومقاومة هذه التيارات الجارفة!! وهذه مسئولية العلماء والحكام في منافسة هذه الوسائل بما يُنحِّي الرذيلة ويخدم الفضيلة، نحن بحاجة إلى كُتّاب إسلاميين للقصة والرواية والمسلسل الذي يربي الأجيال على الأخلاق والآداب.

تَحْلِيلُ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ

١٦٥- ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

في الآيات التالية تحليل أسباب الهزيمة وتفصيلها في يوم أحد، وفيها تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد من قتل وجراح ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾

(١) يُنظَر: كتاب الأصنام.

هذه المصيبة: حين قتل من المسلمين سبعون منهم حمزة ومصعب ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ حين هَزَمتم المشركون يوم أحد أول الأمر، ويوم بدر حين قتلتم من المشركين سبعين من صناديد الكفر والشرك، وأسرتم سبعين فهي مماثلة لكم في القدر والقيمة، فَلْيَهُنْ عليكم الأمر، مع أن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، ومع هذا فقد ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين هذا الذي أصابنا، كيف ونحن مسلمون، وقد وعدنا الله بالنصر؟ قال سبحانه مجيبًا على هذا الاستفهام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فأنفسكم هي التي تنازعت، وهي التي فشلت، وهي التي لم تتَّحد، ولم تستجب، ولم تستمع لأمر النبي ﷺ حين تطلَّعت إلى الدنيا، وسعت وراء الغنيمة، فلوموا أنفسكم، واحذروا أسباب العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا تُسيؤُوا الظن بالله، فإنه قادر على نصركم دون حرب ولا قتال ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]

عن علي ﷺ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيِّرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم**»، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للناس، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منَّا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون بعدد أسارى أهل بدر(١).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: فلما كان يوم أُحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون(٢).

وقد ذكر الله تعالى ذلك؛ لكي تهون عليهم مصائبهم يوم أحد، وأنهم أصابوا مثليهم،

---

(١) أخرجه البغوي مرسلا عن عبيدة السلماني، وأسنده ابن جرير الطبري (٦/ ٢١٩) ورواه الترمذي بإسناد صحيح كما في «تحفة الأحوذي»، كتاب السير (٥/ ١٨٥) وما بعدها، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٢٧٢) بنحوه وهو في السنن (١٦٣٠) وفي مشكاة المصابيح (٣٩٧٣) التحقيق الثاني، وفي الإرواء (٥/ ٤٨) وهو عند ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٦٨) ورواه أيضا النسائي (٨٦٢٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم وأحمد، من حديث طويل في المسند (٢٠٨) إسناده حسن ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه أبوداود (٢٦٩٠) وعبد بن حميد (٣١) ومسلم (١٧٦٣) والترمذي (٣٠٨١) والبزار (١٩٦).

وليعلِّمهم أن ما أصابهم كان بسبب عصيان أكثر الرماة لأمر النبي ﷺ وقد عفا الله عنهم وغفر لهم ما كان منهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

وهذه مصيبة واحدة مُنِيَ بها المسلمون بالهزيمة، فما بالكم بالمصائب العديدة التي تلحق بالمسلمين في عصرنا، وهذا يرجع إلى **خمسة أسباب**:

السبب الأول: مُخالفة القائد:

إن الجاهلية التي تحدَّث عنها جعفر بن أبي طالب والتي صورها للنجاشي، يوجد في زماننا ما يشبهها وما يزيد عليها، فلم يكن عندهم مسابقات الجمال بين النساء، ولم يكن عندهم المراقص وحانات الخمور بهذا الشكل، لم يكن عندهم هذا الشرك بالطواف حول القبور والأضرحة والنذر لها والذبح عندها، وطلب المدد منها، لم يكن عندهم هذا الربا المتفشي بين الناس، لم يكن عندهم ما يُسمَّى بالفن، والأفلام والعري في كثير من القنوات الفضائية التي تبدد الطاقات، وتهدم الأخلاق، وفيها ما فيها من الخلاعة والمجون، وسُنَّة الله في خلقه إذا استوينا مع العدو في المعصية تفوق علينا بقوة السلاح وهكذا، فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والمعنى: قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين قالوا ما قالوه في يوم أحد: إن ما أصابكم من جراح وقتل وألم هو بسبب مخالفتكم أمر نبيكم، وإقبالكم على جمع الغنائم، فأنتم الذين عصيتم الله بمخالفة أمر نبيكم، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله في ساعة الشدة، وبسبب معاصيكم كان هذا الدرس، وبيان ما أصابهم في أحد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أخرج الضياء المقدسي حديثًا طويلًا في قصة غزوة بدر قال فيه: . . . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عنه، فكسرت رباعيته، وهُشِّمت البيضة على رأسه، وسال الدم على

وجهه، وأنزل الله الآية ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾[(١)].

السبب الثاني: حكمة أرادها الله: قال تعالى:

١٦٦- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

أي: أن ما أصابكم يوم التقى الجمعان في أحد، أي: جمْع المشركين وجمْع المسلمين، وما حدث بينهما من القتل والهزيمة، فبإذن الله أولًا وأخيرًا فهو أمر مراد لله ﷻ، وهو بقضاء الله وقدَره لِيُربِّي الله هذه الأمة على امتثال أمره واجتناب نهيه، فإذا امتثلت الأمة أمر ربها نصرها الله على عدوها.

والمعنى: أن ما أصابكم من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمعُ أعدائكم في أحد، فهو بعلم الله وتقديره؛ إذ لا يقع شيء في هذا الملكوت إلا بإذن الله وإرادته، فعليكم أن تعودوا لأنفسكم وتهذبوها وتروِّضوها على تقوى الله تعالى.

السبب الثالث: تمييز المؤمنين من المنافقين:

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين صبروا وثبتوا ولم يتطلعوا إلى الدنيا فيظهر إيمانهم وقوتهم وثبوتهم للناس، رغم ما نالهم من ابتلاء.

السبب الرابع: إظهار نفاق المنافقين: قال تعالى:

١٦٧- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾

أي: ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما حدث منهم ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ فيتميز أحدهم من الآخر، والمنافق هو الذي أظهر الإيمان بلسانه وأضمر الكفر في قلبه، وهو مشتق من النفَق الذي هو السرب في الأرض النافذ إلى جهة أخرى، ومنه: نافقاء اليربوع، وهو حيوان له جحر في الأرض ذو بابين، إذا طُلب من أحدهما هرب من الآخر.

---

(١) صححه محقق المختارة (١/ ١٨٠) برقم: (١٧٠) وسنده حسن، ولبعضه شواهد في الصحيح كالحديث السابق، وحدَّث به ابن عباس عن عمر كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٠٩) والسيوطي (٦١) و«زاد المسير» (١/ ٤٩٥).

ثم أخذت الآيات تكشف عن مواقف المنافقين حيث قيل يوم أحد للذين تخلّوا ورجعوا من الطريق، وهم عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول رأس المنافقين، ومن انخذل معه، قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا﴾ أي: قاتلوا ذبًّا عن دين الله وحماية له، ابتغاء الثواب في الآخرة من الله سبحانه.

فإن لم تريدوا الثواب، ولم تريدوا القتال في سبيل الله، فادفعوا العدوان على الأقل عن أنفسكم ورابطوا واحْرُسوا أرضكم وأهليكم، وادفعوا عن دياركم وأوطانكم ونسائكم وذراريكم، أو كثّروا سَوَادنا، قالوا لو نعلم أنه سيحدث قتال ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ لنقاتل معكم، وهم كَذبة في هذا، فقد علموا وتيقّنوا أن المشركين قد مُلئوا حنقًا وغيظًا على المسلمين بما أصابوا منهم يوم بدر، وأنهم قد جمعوا جموعهم وبذلوا أموالهم، وجاؤوا في جيش عظيم، لقتال المسلمين في بلدهم، فكيف يُتصوّر عدم وقوع قتال بينهم وبين المسلمين؟

ولذا: قال سبحانه مكذبًا لهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم خروجهم مع المؤمنين، ثم عودتهم من بعض الطريق ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ وذلك حين قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ والذي نعلمه أنكم ستذهبون إلى أحد، ثم تعودون بغير قتال، وتعودون بثلث الجيش.

ومن صفاتهم الذميمة أنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا وصف خاص بالمنافقين، فهم يتكلمون بخلاف ما تنطوي عليه قلوبهم من كفر، وما تمتلئ به نفوسهم من بغضاء لكم، والله أعلم بما يضمرونه في نفوسهم، وسوف يجازيهم عليه، وفي هذا وعيد لهم بسوء المصير.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف الضررين وفعل أدنى المصلحتين فإن الدفاع عن الأرض، أدنى من درجة القتال في سبيل الله.

لما رأى عبد الله والد جابر بن عبد الله انخذالهم قال لهم: اتقوا الله، ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ثم بيَّن سبحانه أن ما يشاهد من أحوالهم أقرب إلى الكفر من الإيمان.

السبب الخامس: الكشف عن تثبيط المنافقين للمجاهدين: قال تعالى:

١٦٨- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ(١) قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

ثم يكشف القرآن عن مقولة أخرى قالوها لمن أصيب مع المسلمين يوم أحد، وهم المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في النسب والدين، وقعدوا وتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه للجهاد، وحين رجع الصحابة من الغزوة قالوا لهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ أي: لو أنكم سمعتم كلامنا ولم تخرجوا إلى المعركة، لما أصاب القتل بعضكم، وهؤلاء قد جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال سبحانه يبيِّن أن الشجاعة والجهاد والإقدام، لا ينقص من العمر شيئًا، وأن الجبن والقعود عن القتال، لا يزيد في عمر الإنسان شيئًا، قال سبحانه: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: امنعوا الموت عنكم وأنتم على فراشكم في بيوتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أن أصحاب غزوة أحد لو قعدوا عن الخروج لما أصابهم القتل، فالحذر لا يمنع القدر، والموت آتٍ ولو كنتم في بروج مشيدة، فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان، ولا يردُّه حرص ولا حذر، من لم يمت بالسيف مات بغيره.

وقد أُخِّرتْ مقولة عبد الله بن أبيٍّ إلى نهاية القصة، وفقًا لمنهج التربية القرآنية في تقرير نتائج المعركة، ولإظهار الاستهانة بقوله وفعله وعدم تصديرها لأحداث الغزوة، تهاونًا بها، وتنكيرًا للمنافق الكبير الذي أحدث رجَّة في الصف المسلم.

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب.

هذا هو حال المنافقين في غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عند لقاء العدو.

وقد كان المؤمنون الصادقون على خلاف ذلك، فأخبر الله أن ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ

(١) قرأ هشام بخلف عنه (مَاقُتِّلُوا) بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الباقون (قُتِلُوا) بالتخفيف على الأصل.

عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. لقد ثبتوا مع رسول الله ﷺ ودافعوا عنه، وقدَّموا أنفسهم فداء للإسلام، وقد كان لبعضهم أعذار تُسقط عنهم الخروج للجهاد، ولكنهم خرجوا لمجرد تكثير عدد المسلمين.

عن أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية - عبد الله بن أم مكتوم- وهو رجل أعمى، رأيته وعليه درع يجرُّ أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أُكثِّر عدد المسلمين بنفسي(١).

مَنْزِلَةُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ

١٦٩- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ(٢) ٱلَّذِينَ قُتِلُوا (٣)فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

وبعد الكشف عن موقف المنافقين يأتي الكشف عن مصير الشهداء؛ طمأنة وراحة لقلوب المؤمنين، وبيانًا لفضلهم، وكرامتهم، وما منّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ذلك تسلية للأحياء عن قتلاهم وتعزية لهم، وتنشيطًا على القتال في سبيل الله، وترغيبًا في طلب الشهادة، فإذا علموا أنهم أحياء عند ربهم يرزقون تمنوا الشهادة، ولا يتحسرون على فراق ذويهم.

والشهيد هو الذي يُقتل في معركة إسلامية مشروعة بين المسلمين وغيرهم، يراد بهذه المعركة وجه الله سبحانه، وإزالة العوائق التي تقف في وجه الدعوة، وأن تكون نية هذا الشهيد إعلاء كلمة الله ﷻ، لم يقاتل تحت شعار وطني، ولا عصبي، ولا قومي، ولا ابتغاء سُمعة أو رياء، أو منصب، أو لِيُذْكَر بين الناس، إنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ذلكم هو شهيد الإسلام.

وهذا الشهيد الذي يُقْتل في سبيل الله، يسمى شهيد الدنيا والآخرة، لا يأخذ حكم الموتى، فهو لم يمت، وإنما هو حي يرزق عند ربه، ولذلك فهو لا يغسَّل حتى تبقى عليه

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٦٦).

(٢) قرأ هشام بخلف عنه (ولايَحْسَبَنَّ) بياء الغيبة وفتح السين، وقرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة وأبو جعفر (ولاتَحْسَبَنَّ) بالتاء وفتح السين وهو الوجه الثاني لهشام وقرأ الباقون (ولاتَحْسِبَنَّ) بتاء الخطاب وكسر السين.

(٣) قرأ ابن عامر (قُتِّلوا في سبيل الله) بتشديد التاء للتكثير، وقرأ الباقون (قُتِلُوا) بالتخفيف على الأصل.

آثار الدماء؛ فيبعث يوم القيامة بها، اللون لون دم، والريح ريح مسك، ولا يكفَّن؛ ليبعث من قبره في ثياب المعركة، علامة وفخرًا له بين العالمين، يوم لقاء رب العالمين.

وهناك شهداء ينالون الثواب الأخروي، ولا يأخذون في الدنيا حكم شهيد المعركة، فيُغسَّلون ويكفَّنون ويصلَّى عليهم، وهم أدنى مرتبة من شهيد المعركة الإسلامية، هؤلاء الشهداء منهم من ذكرهم النبي ﷺ في قوله: **«من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد»**(١).

ومنهم حديث جامع في موطأ الإمام مالك، جمع فيه سبعة أنواع من الشهداء: منهم الذي يموت بمرض الطاعون، والطاعون كلمة قديمة لها في الطب الحديث مسميات أخرى، والذي يموت غريقًا، أو حريقًا أو يموت تحت الأنقاض أو الهدم، والمرأة التي تموت وهي تلد، أو تموت بسبب الحمل، والذي يموت بمرض البطن (الإسهال أو الاستقاء أو الانتفاخ) والذي يموت من القرحة ومن الحمى.

عن جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ قال **«الشهادة سبع، سوى القتل في سبيل الله، المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذا الْجَنْب شهيد، والمبطون شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بِجُمْعٍ شهيد، وصاحب الحريق شهيد»**(٢) والمطعون هو من مات بالطاعون، وذات الجنْب: التهاب الرئة، ونخس في الجنْب، والمبطون، مرض البطن، كالاستسقاء. والمرأة تموت بجُمْع، أي في النفاس وولدها في بطنها مخلّقًا.

هذه أنواع من الشهادة، صاحبها يؤجر عليها، وله عند الله منزلة أكبر من غيره.

والآية تشمل جميع الشهداء في يوم بدر، وأحد، **ويوم بئر معونة.**

موقعة بئر معونة:

وذلك أن عامر بن مالك - ملاعب الأسنة - سيد بني عامر، قَدِمَ على النبي ﷺ وأهدى إليه هدية، فأبى النبي ﷺ أن يقبلها، وقال: لا أقبل هدية مشرك، ثم عرض عليه الإسلام

(١) من حديث عبد الله بن عمرو في البخاري (٢٤٨٠) ومسلم (١٤١) و«المسند» (٦٥٢٢). في القطعة الأولى من الحديث.

(٢) موطأ مالك، من رواية أبي مصعب الزهري المدني، حديث رقم (٩٣٥).

فلم يُسْلِم ولم يبعد، وقال: إن الذي تدعو إليه حسن جميل، فلو أرسلت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: **«أخشى عليهم أهل نجد»**، قال: إني لهم جار، فابعثهم.

فبعث النبي ﷺ المنذر بن عمرو ومعه سبعين رجلًا من خيار المسلمين يُسمَّوْن بالقرَّاء، وكان ذلك في صفر سنة أربع من الهجرة بعد غزوة أُحد بأربعة أشهر، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي أرض بين بني عامر وحرة سُلَيْم، بين مكة وعسفان، بها بئر ماء، فلما نزلوها، قالوا: أيكم يُبلِّغ أهل هذا الماء رسالة النبي ﷺ فقال حرام بن ملحان: أنا، فخرج بكتاب الرسول إلى عامر بن الطفيل، الذي كان على الماء، فلم ينظر عامر في كتاب الرسول ﷺ وخرج إلى (حرام) رجل من البيت، بعد أن عرض عليهم الإسلام، فضربه برمح في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر، فزتُ ورب الكعبة.

واستنفر عامر قبائل: بني سُلَيْم، فأجابوه، وحملوا على المسلمين فقتلوهم، وكان في سَرْح القوم أحد الأنصار، وعمرو بن أمية الضمْري، فلم يعلما بِمُصاب أصحابهما إلا من الطير التي تحوم حول المعسكر، فقالا: إن لهذا الطير لشأنًا، فأقبلا فإذا القوم في دمائهم. وكان فيمن قُتِل: عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر ﷺ، قال عنه عامر بن الطفيل: مَن الرجل منهم؟ لَمَّا قتل رأيتُه رُفع بين السماء والأرض، حتى رأيت السماء من دونه[١].

ثم إن هناك أربعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ استشهدوا في غزوة بدر، وكان في غزوة أحد سبعون شهيدًا، منهم حمزة عم رسول الله ﷺ، ومصعب بن عمير أول داعية وأول سفير في الإسلام.

وفي هؤلاء جميعًا وفي أمثالهم إلى يوم القيامة نزل قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فالله ﷻ نفى عنهم الموت، لا تسمُّوهم أمواتًا، فهم ليسوا بأموات، إن الموت لا ينفصل عن هذه الحياة إنما هو حياة برزخية يعيش فيها المسلم المجاهد الشهيد بكيفية يعلمها الله كما بينها في كتابه ﷻ بأنهم أحياء، ولكن

(١) يُنظَر: سيرة ابن إسحاق وابن هشام، وينظر ابن الأثير في جامع الأصول، والقصة في البخاري برقم: (٢٨٠١) عن أنس وفي «صحيح مسلم» (٦٧٧) مختصرًا وفي تفسير الطبري (٧/ ٣٩٢).

لا تشعرون بهم، حياة لا تعرفونها، لا تدركها عقولكم المخلوقة، فكل مخلوق قاصر وناقص؛ لأن الكمال لله وحده الذي خلق الكون بما فيه ومن فيه.

والله سبحانه أثبت للشهداء **سبع خصائص**:

أولًا: أنهم أحياء بأرواحهم وأجسادهم، فلا يخطر ببالك أنهم قد ماتوا وذهبت عنهم لذة الحياة، ويشير إليه ظاهر الآية، أو أن أرواحهم في حواصل طير خضر كما صح في الحديث، وورد أنها تسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة.

وقيل: إن الشهيد لا يبلى في قبره ولا تأكله الأرض كغيره.

وقد رُوي أن معاوية لما أراد أن يجري الماء على قبور الشهداء أمر مناديه: من كان له قتيل فليخرجه وليحوِّله من هذا الموضع، قال جابر: فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فنبعت دمًا(١).

وذكر البغوي بغير سند عن عبيد بن عمير قال: مرّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير، فوقف عليه ودعا له، ثم قرأ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ ثم قال: **«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم وسلِّموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردَّ عليه»**.

ثانيًا: أنهم يرزقون كما يُرزق الأحياء، يأكلون ويشربون ويتنعَّمون، فهم يجري عليهم رزقهم في الجنة، من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم عليهم به.

قال تعالى يصف حياتهم في البرزخ بأنهم يفرحون ويستبشرون:

١٧٠- ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ(٢) عَلَيْهِمْ(٣) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثالثًا: أنهم يفرحون كما يفرح الأحياء، ويشعرون بما أعطوا من الثواب والكرامة، فقد

---

(١) «تفسير الخازن» (١/٣٠٣).

(٢) قرأ يعقوب بالنصب في (خوف) وعدم التنوين، والباقون بالرفع والتنوين.

(٣) ضم الهاء من (عليهُم) حمزة ويعقوب، والباقون بكسرها.

جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب بالفرح والسرور.

رابعًا: أنهم يتمنَّوْن لإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم أحياء في الدنيا أن ينالوا الشهادة؛ وأن يلحقوا بهم لينالوا من الخير والكرامة مثلهم، وذلك ترغيبًا لغيرهم في الجهاد والشهادة، فيبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالوا ما نالهم.

خامسًا: أن هؤلاء الشهداء لا يخافون من المستقبل في الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من نعيم الدنيا، وهم يشتبشرون بزوال كل مكروه، وإقبال كل محبوب. قال تعالى:

١٧١ - ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

سادسًا: أنهم يُسَرُّون بما رُزِقوا من النعيم والفضل، فهم في فرحة غامرة، يهنئ بعضهم بعضًا بنعمة ربهم وفضله وإحسانه عليهم.

والاستبشار الأول كان لغيرهم، والاستبشار الثاني لأنفسهم خاصة.

سابعًا: أن الله تعالى لا يضيع أجرهم، كما لا يضيع أجر المؤمنين جميعًا بل يزيده وينمِّيه ويضاعفه.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وبيان أن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وأن أرواح الشهداء تتلاقي، فيزور بعضهم بعضًا، ويبشر بعضهم بعضًا.

وقد ورد الكثير من الأحاديث في **فضل الشهداء** ومنزلتهم عند الله تعالى، **من ذلك**:

١- ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة**»[(١)].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يُغفَر للشهيد كل ذنب إلا الدين**»[(٢)].

٣- وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما يجد الشهيد من مسِّ**

(١) البخاري (٢٧٩٥، ٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧) و«المسند» (١٢٠٠٣، ١٢٧٧١) والترمذي (١٢٦١).
(٢) مسلم (١٨٨٦) والحاكم (٢/ ١١٩).

القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القَرصة»(١).

٤- وفي حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(٢) وهم المرابطون والشهداء.

٥- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، ولقاب قوس أحدكم خير من الدنيا بما عليها**»(٣).

٦- وعن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «**إن للشهيد عند الله خصالً: يُغفر له في أول دفقة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى عليه حلَّة الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه**»(٤).

٧- أخرج النسائي عن راشد بن مسعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفتَنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»(٥).

٨- وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من سأل الله القتل في سبيل الله صادقًا، ثم مات، أعطاه الله أجر شهيد**»(٦).

٩- وعن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (١٣٦٢) وهو حديث حسن صحيح كما قال الألباني، و«سنن الترمذي» (١٧٣٥) والنسائي (٣١٦١) وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان (٤٦٥٥) والمسند (٧٩٥٣) بإسناد قوي، كما قال محققوه.

(٢) البخاري (٣٢٥٠).

(٣) البخاري (٦٥٦٨) ومسلم (١٨٨٠).

(٤) الترمذي (١٦٦٣) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٥٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٥٧) والمسند (١٧١٨٢) برجال ثقات، وعبدالرزاق في المصنف (٩٥٥٩) وابن ماجه (٢٧٩٩).

(٥) «صحيح سنن النسائي» (١٩٤٠) وهو في «السنن» (٢٠٥٢) والتعليق الرغيب (٢/١٩٧).

(٦) أخرجه الحاكم (٢/٧٧) وهو في «صحيح الجامع» (٦١٥٣) وعن معاذ بن جبل في المسند (٢٢١١٦) من حديث طويل بإسناد صحيح (محققوه) وأخرجه الترمذي (١٦٥٤، ١٦٥٧) والبيهقي في الشعب (٤٢٤٩).

قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[١].

١٠- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من طلب الشهادة صادقًا أُعطيها ولو لم تصبْه**»[٢].

أسباب النزول:

١- عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحسن متقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولاينكُلوا عن الحرب، فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، وأنزل الله سبحانه** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾»[٣].

٢- وأخرج الترمذي وغيره بسند صحيح عن طلحة بن خراس قال: سمعت جابر بن عبد الله ﷺ يقول: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «**يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟**» قلت: يا رسول الله، استُشهد أبي، وترك عيالًا ودَيْنًا، قال: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟**» قال: قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**ما كلَّم الله أحدًا قَطُّ إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلَّمه كفاحًا، فقال: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أعطك، قال: يارب، تُحييني فأُقتل فيك ثانية، قال الرب ﷻ: إنه قد سبق القول مني** ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ **وأنزل هذه الآية**»[٤].

وفي لفظ قال النبي ﷺ لجابر ﷺ: «**أما علمت أن الله أحيا أباك، فقال له: تمنَّ عليَّ**

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠٩) وأبو داود (١٥٢٠) والترمذي (١٦٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣١٦٢) وابن ماجه (٢٧٩٧) والحاكم (٢/ ٧٧).

(٢) مسلم (١٩٠٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده في «المسند» (١/ ٢٦٥) (٢٣٨٨) حديث حسن وأبو داود في «السنن»، كتاب الجهاد برقم: (٢٥٢٠) (٣/ ١٥) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٩٩) بتحسين الألباني له والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وتفسير الطبري (٧/ ٣٨٥) وابن المنذر (١١٧٨) وغيرهم.

(٤) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٠٨) وهو في «السنن» برقم: (٣٠١٠) وفي ابن ماجه (١٩٠، ٢٨٠٠) وابن حبان في صحيحه، الإحسان برقم: (٧٠٢٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٣/ ٢٠٣) وابن خزيمة في التوحيد (٥٩٩) وابن أبي عاصم (٦٠٢).

فقال له: أُرَدُّ إلى الدنيا، فأُقتل مرة أخرى، فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»(١).

٣- وعن سعيد بن جبير قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، يوم أحد، ورأوا ما رُزقوا من الخير، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبة، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله الآية(٢).

٤- وأخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين غداة، على رِعْل، وذكوان، وعُصَيَّة، عصت الله ورسوله، قال أنس: أُنزِل في الذين قُتِلوا ببئر معونة قرآن، ثم نُسِخ بعد: (بلِّغوا قومنا أنَّا لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه)(٣).

٥- ولما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، أخذ ابنه (جابر) يبكي، ويكشف الثوب عن وجهه، والصحابة ينهونه، فقال النبي ﷺ: **«مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»**(٤).

٦- وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من نفس تموت، لها عند الله خير، يَسُرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة»**(٥).

غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الأَسَدِ

لما رجع النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة أحد، بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد همّوا بالرجوع إلى المدينة، فندب النبي أصحابه أن يخرجوا إليهم - على ما بهم من جراح -

(١) أحمد في «المسند» (٣/ ٣٦١) وإسناده حسن وهو برقم (١٤٨٨١) وأخرجه الحميدي (١٢٦٥) وعبد بن حميد (١٠٣٩) وأبو يعلى (٢٠٠٢) وابن ماجه (١٩٠) والترمذي (٣٠١٠).

(٢) النيسابوري (١١٠) والسيوطي (٦١) و«الدر المنثور» (٢/ ٩٥) و«المستدرك» (٢/ ٣٨٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٧٧).

(٤) متفق عليه، البخاري برقم: (١٢٤٤، ١٢٩٣) ومسلم، فضائل الصحابة (٧/ ١٥٢) برقم: (٢٤٧١) والنسائي، الجنائز (٤/ ١١) وأحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٨).

(٥) يُنظَر «صحيح مسلم» برقم: (١٨٧٧) كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة (٦/ ٥٣) وأحمد في «المسند» (٣/ ١٢٦) برقم: (١٢٢٧٣، ١٤٠٣٣).

فخرجوا حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، فجاءهم من يخوفهم ويقول لهم: إن الناس قد همّوا بقتالكم ليستأصلوكم، فلم يزدهم ذلك إلا توكّلاً واعتمادًا على الله، قال تعالى:

١٧٢ - ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ[١] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وهكذا: تمضي الآيات لتتحدث عن المؤمنين المجاهدين الذين لا يضيع الله أجرهم، فيبيِّن تعالى أنهم الذين استجابوا لنداء رسول الله، وخرجوا معه إلى حمراء الأسد، بعد هزيمتهم في غزوة أُحد لملاقاة المشركين، مع ما كان بهم من آلام وجراح، ولهذا فإن المؤرخين المُحْدَثين يَعُدُّون غزوة أحد نصرًا لا هزيمة؛ لأن الهزيمة تعني القضاء على الجيش وقتل معنوياته، والاستسلام للعدو، وهذا لم يحدث في أحد، فقد أراد النبي ﷺ أن يُثْبِت عكس ذلك، وأن يرفع من معنويات المسلمين؛ حتى لا يكون الشعور بالهزيمة هو نهاية المطاف بالنسبة لهم، ولا يكون الشعور بالنصر هو نهاية المطاف بالنسبة للمشركين، فأمَر ﷺ المسلمين بالاستعداد لمتابعة قريش؛ ليشعرها بأنها لم تنل من المسلمين شيئًا، ولم تضعف عزائمهم، وهم لم ينسوْا بَعْدُ هولَ المعركة، وجراحهم مُثْخنة، ويؤكد ذلك أنه ﷺ لم يأذن بالخروج معه إلا لمن كان معه في أحد؛ لأن الدرس يقتصر عليهم، فهم الذين ينبغي عليهم أن ينهضوا ويُثْبِتُوا لعدوهم خِلاف ما يزعم.

قال عكرمة: كان يوم أُحد، (السبت) للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم (الأحد) لستَّ عشرة ليلة مضتْ من شوال، أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس، بطلب العدوِّ، وأذَّن مؤذِّنه ألا يخرُجَنَّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلَّمه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلَّفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجُلَ فيهن، ولستُ بالذي أُوثِرُك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتَخلَّفْ على أخَواتك، قال: فتخلَّفتُ عليهم، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ ترهيبًا للعدوِّ؛ ليُبلِّغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم من عدوهم[٢].

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم القاف من (القرح)، وقرأ الباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٢) ابن جرير الطبري (٦/ ٢٤٠).

وكان ذلك لما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أُحد، وبلغ مكانًا يسمى (الروحاء) فندموا وتلاوموا، وقالوا لبعضهم: لا محمدًا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا فاستأصِلوهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر مناديه أن يندب أصحابه للخروج لإرهاب العدو، ويقول: لا يخرُجنَّ معنا أحد إلا من حضرنا بالأمس، فخرج ومعه سبعون من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد على بُعْدِ ثلاثة أميال من المدينة، فمرَّ بهم ركب من عبد القيس، فأخبروهم أن أبا سفيان ومن معه قد توجهوا إليهم ليستأصلوا شأفتهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» وأقام بأصحابه في حمراء ثلاثة أيام دون أن يلقى قتالًا، ثم رجع إلى المدينة، بعد أن قال المشركون: نرجع من قابِل، وكان معبد الخزاعي قد أخبرهم بعزم الرسول على غزوهم(١).

وكانت غزوة أحد يوم السبت للنصف من شهر شوال، وكان الخروج لحمراء الأسد في يوم الأحد التالي، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء.

قال الحسن البصري: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال ﷺ: «**إن أبا سفيان قد رجع، وقد قذف الله في قلبه الرعب، ممن ينْتدبُ في طلبه؟**»، فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وناس من أصحاب النبي ﷺ فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقي عيرًا من التجار، فقال: ردُّوا محمدًا، ولكم من الجُعْل كذا وكذا، وأخبروهم أني قد جمعت لهم جموعًا، وأنني راجع إليهم، فجاء التجار، فأخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» فأنزل الله الآية ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾(٢).

وكان الخبر قد جاء إلى المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل:

ومن الرعب الذي ألقاه الله في قلوب المشركين أن أحدهم كان يحمل صاحبه على عنقه ساعة، ثم إن المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى، وكان منهم من يتوكأ على صاحبه ساعة، ويتوكأ الآخر عليه ساعة.

---

(١) يُنظَر «سنن النسائي» (١١٠٨٣) والطبراني (١١٦٣٢) وابن أبي حاتم (٤٥١٠) عن ابن عباس عن عكرمة.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٩).

وقد بيَّن سبحانه أنه لا يضيع أجر المؤمنين الصادقين الذين أجابوا داعي الله، وأطاعوا رسول الله، فخرجوا للجهاد في سبيله على ما بهم من جراح وآلام دون ضعف ولا هوان ولا استكانة، وهؤلاء قد أحسنوا في استجابتهم وطاعتهم لله والرسول، واتقوا ربهم في جميع أحوالهم، فوعدهم الله أجرًا عظيمًا على حُسن صنيعهم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: يابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «**من يذهب في أثرهم**»، فانتُدِب منهم سبعون رجلًا، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[١].

غَزْوَةُ بَدْرِ الصُّغْرَى

١٧٣- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

ورد أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أُحد: يا محمد، موعدنا بدر، العام القابل، فقال ﷺ: «**ذلك بيننا وبينك إن شاء الله**»، فلما كان العام القادم، خرج أبو سفيان في أهل مكة، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قدِم معتمرًا، فقال: يا نعيم، إني واعدت محمدًا أن نلتقي بموسم بدر، وقد بدا لي أن أرجع، فالحق بالمدينة، فثبِّطهم، ولك عندي عشرة من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون، فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم، فوالله لا يفلت منكم أحد، فأصرَّ النبي ﷺ على الخروج إليهم، فخرج في سبعين راكبًا وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فلما وافى بدرًا، أقام بها ثماني ليالٍ، ثم رجعوا إلى المدينة سالمين، ولم يلق قتالًا، ورجع أبو سفيان إلى مكة، وسمَّى أهل مكة جيشه بجيش السويق؛ لأنهم قالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السويق[٢].

والمراد بالناس في الموضع الأول من الآية: (نعيم بن مسعود)، فهو جَمْع أريد به الواحد، أو أن المراد (ركْب عبد القيس)، أما الموضع الثاني فالمراد به: (أبو سفيان ومن معه).

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٤٠٧٧).

(٢) تفسير النسفي والخازن للآية.

عن ابن عباس ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[١].

وعن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لَمَّا أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال ﷺ: **«ردُّوا عليَّ الرجل»**، فقال: **«ما قلت؟»** قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: **«إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيِّس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»**[٢].

والعجز: هو ترك ما يجب فعله بالتسويف من أمور الدنيا والدين.

والكَيِّس: هو الذي يستعمل عقله وفطنته في الأمور مع الرفق فيها.

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ؟»** ثم أمر الصحابة أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا[٣].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾[٤] أي: من بعد ما نالهم من الجراح يوم أحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بطاعة الله، والاستجابة لرسول الله فأجابوه إلى الغزو ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ معصية الله والتخلف عن رسول الله، و﴿مِنْ﴾ للبيان، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور: ٥٥]. لأنهم كلهم

---

(١) «صحيح البخاري» (٨/ ١٧٢) برقم: (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) و«سنن النسائي الكبرى» برقم: (١١٠٨١) و«المستدرك» (٢/ ٢٩٨) وابن أبي حاتم (٤٥٢٣).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٤) بسند حسن برقم: (٢٣٩٨٣) وأبو داود (٣٦٢٧) والسنن الكبرى للنسائي (١٠٤٦٢) وفي ط سنة ٢٠٠١م برقم: (١٠٣٨٧).

(٣) قال ابن كثير والشوكاني: حديث جيد، أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٢٦) ورقمه: (٣٠٠٨) والنسائي في التفسير عن أبي هريرة (١٠٢) وابن حبان (٨٢٠).

(٤) روى البيهقي عن ابن عباس أن عيرًا مرَّت في موسم بدر فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح مالًا، فقسَّمه بين أصحابه، فذلك الفضل، ونقل الطبري عن السدي قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج في غزوة بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها في المواسم فأصابوا تجارة فربحوا فيها.

قد استجابوا لله والرسول، وكلهم له ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة، وقيل إنها للتبعيض وهم الذين قال لهم بعض المشركين: إن أبا سفيان ومن معه قد جمعوا أمرهم على الرجوع إليكم لاستئصالكم، فاحذروهم واتقوا لقاءهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم، فزادهم هذا التخويف يقينًا وتصديقًا بوعد الله لهم، ولم يُثْنِهم ذلك عن عزمهم فساروا إلى حيث شاء الله، معتمدين على الله، مفوضين أمرهم إليه.

وعن قتادة قال: ذاك يوم أحد بعد القتل والجراح، وبعدما انصرف المشركون أبو سفيان وأصحابه، فقال نبي الله ﷺ لأصحابه: **«ألا عصابة تشدد الأمر، فتطلب عدوها؛ فإنه أنكى للعدو وأبعد للسمع»** فانطلق عصابة على ما يعلم الله من الجهد، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، جعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾[(١)].

قال الفخر الرازي: نزلت هذه الآية في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة في أعقاب غزوة أحد، نادى: يا محمد، موعدنا موسم بدر الصغرى، فنقتتل بها إن شئت، فقال النبي ﷺ لعُمر: **«قل له: بيننا وبينك ذلك إن شاء الله»**، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمرِّ الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع وفرح المؤمنون، فقال تعالى يصف حالهم:[(٢)]

١٧٤ - ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

فرجعوا من حمراء الأسد إلى المدينة بثواب جزيل ومنزلة عالية، وقد ازدادوا يقينًا وإيمانًا، وأذلوا أعداء الله، وسلِموا من القتل والقتال، وأطاعوا الله والرسول، فأعطاهم الله ثواب الغزو، ورضي عنهم لمجرد خروجهم، وقد تفضَّل الله عليهم بالتوفيق فيما فعلوه، وبإلقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا وقد أخبر سبحانه أن المجاهدين الصادقين صحبهم في عودتهم من لقاء عدوهم أربعة أمور:

أولها: النعمة العظيمة. وثانيها: الفضل الجزيل.

---

(١) الواحدي (١١٢).

(٢) تفسير الفخر الرازي (٩/ ٩٩).

وثالثها: السلامة من العدو. ورابعها: اتباع رضوان الله.

سَبَبُ الخَوْفِ مِنَ العَدُوِّ هُوَ ضَعْفُ الإِيمَانِ

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

ثم يكشف الله سبحانه عن سبب الخوف من العدو، فيبيِّن أنه الشيطان، وأن الذي قال للمسلمين ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ إنما هو داع من دعاة الشيطان، يخوف أتباعه الذين عُدِم إيمانهم أو ضعُف، وأنه ينبغي على المؤمن أن يفطن لمكره؛ لأن الشيطان يخوف المستجيبين له المحجوبين بالمعاصي من أتباعه حتى ينتفش الباطل، ويضخِّم الشر تحت شعار الخوف والرهبة، وهذه مصلحته.

وفطانة المؤمن تتمثل في إدراكه أن الخوف لا يكون إلا ممن يملك النفع والضر، وأنه حين يخشى الله وحده لا تقف في وجهه قوة في الأرض، فالمُثَبِّط للهمم هو الشيطان، والمشركون ضعاف لا ناصر لهم، فلا تخافوا إلا الله، وأقبلوا عليه وأطيعوه، وقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا؛ فالشيطان هو المثبط لكم عن لقاء عدوكم، وهو الذي يوسوس في قلوبكم بالشر، ومن شأن المؤمنين الصادقين ألا يتأثروا به ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وسبب الخوف من العدو: حب الدنيا، وكراهية الموت، وأهم أسباب القوة: تقوى الله تعالى؛ فإنها تزيل الخوف، فأولياء الشيطان من الكفار والمنافقين هم الذين يخافونه ويطيعون أمره ووسوسته، فلا تخافوا من أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، وخافوا الذي ينصر أولياءه ويخذل أعداءه.

وأولياء الله، وهم المؤمنون، لا يخافون الشيطان إذا خوَّفهم، ولا يطيعونه إذا أمرهم ووسوس لهم.

أَرْبَعَةُ تَعْقِيبَاتٍ عَلَى أَحْدَاثِ غَزْوَةِ أُحُدٍ

التَّعْقِيبُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ التَّحَسُّرِ عَلَى الْمُتَخَاذِلِينَ

١٧٦- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ[1] ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

ثم يأتي التعقيب على أحداث الغزوة، موجهًا الخطاب فيه للنبي ﷺ ألا يدخل الحزن إلى قلبه بسبب مسارعة المنافقين إلى الكفر ونشاطهم فيه، ممن يُمعِن في الجحود والضلال، أو يرتد عن الإسلام إلى الكفر، أو يعاون الكفار ويواليهم ويناصرهم ويتخذهم أمناء ومستشارين على أسرار المسلمين، وكان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق، مجتهدًا في نصحهم، يحزن لعدم إيمانهم وعدم هدايتهم، وهم بهذا لن يضروا الله شيئًا، ولن يضروا أولياء الله، ولن ينقصوا شيئًا من دين الله، إنما يضرون أنفسهم بحرمانها من الإيمان، وحرمانها جزيل الثواب ونعيم الآخرة؛ فمسارعتهم في الكفر وموالاة أهله يُعاقَبون عليه بالعذاب الشديد يوم لقاء الله.

والمعنى: لا تحزن - يا محمد - لمسارعة هؤلاء الضالين، في الكفر؛ فإنهم لن يضروا أوليائي بشيء من الضرر، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله تعالى، إنما هو بإرادته سبحانه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

فلا تبال بهم، فإنهم يسعون في ضرر أنفسهم بترك الإيمان في الدنيا وحصول العذاب في الآخرة.

وقد أراد الله تعالى ألا يجعل لهم حظًا ولا نصيبًا من الخير في الآخرة؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى، وإلى جوار هذا الحرمان فلهم في الآخرة عذاب عظيم.

(١) قرأ نافع (ولايُحزِنْك) بضم الياء وكسر الزاي، مضارع أحزن الرباعي، وقرأ الباقون (ولايَحزُنك) بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن الثلاثي.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: الْمُتَخَاذِلُونَ عَنِ الْجِهَادِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا

١٧٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

لقد كان الحزن يساور قلب النبي ﷺ حسرة على المسارعين إلى النار، وهو لا يملك ردَّهم، ولا يسمعون له قولًا، ويشمِّرون إلى المبادرة في الكفر، فلما أسلمت قريش ودخلت في دين الله أفواجًا، أراح الله قلب نبيه، وطمأنه، وواساه، ومسح عنه الحزن بمثل هذه الآية الكريمة، وبيَّن له أن هؤلاء العباد أضعف من أن يضروا دعوة الله وحاملي لواءها، مهما أصابوهم من الأذى، ومهما سارعوا في الكفر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فاستبدلوه به، بأن أخذوا الكفر وتركوا الإيمان، ممن يرتدون عن الإسلام ونحوهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ باستبدالهم الكفر بالإيمان، بل ضررهم يعود عليهم، وقد خذلهم الله وسلبهم التوفيق، ولهم عذاب موجع يوم لقاء الله، وقد قيض الله لدينه من عباده الأبرار، وأصحاب البصائر والعقول، مَنْ هم خير منهم، ممن رغبوا فيما عند الله، فباعوا أنفسهم وأموالهم لله بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

التَّعْقِيبُ الثَّالِثُ: زِيَادَةُ النِّعَمِ لِلْكَافِرِ إِمْهَالٌ لَهُ

١٧٨- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

أي ولا يظن الذين كفروا بربهم وحاربوا رسوله، أن إمهالَنا لهم، وعدم تعذيبنا إياهم، خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، ليس الأمر كذلك، وإنما نمهلهم ليزداد طغيانهم، ثم نأخذهم بذنوبهم ونعاقبهم بما يستحقون.

وهكذا: يكشف القرآن الكريم عن الحكمة في إمهال الكفار بإطالة أعمارهم وطول آجالهم، وتمتيعهم بمتع الدنيا ونعيمها ووسائل العيش الرغيد فيها، وعدم تعجيلهم بالعقوبة في الدنيا، ومؤاخذتهم على كفرهم وذنوبهم، وأن ذلك ليس خيرًا لهم، بل هو فتنة واستدراج، وإنما يؤخِّر الله آجالهم؛ ليزدادوا إثمًا وظلمًا وطغيانًا، ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم مقابل ما كانوا فيه في الدنيا من نعيم ومتاع.

سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**»، قيل: فأيُّ الناس

شر؟ قال: **«من طال عمره وساء عمله»**(١).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: **«ما من نفس برَّة، ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة، إن كان برًّا، فقد قال الله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وإن كان فاجرًا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾**(٢).

وفي الحديث عن عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على المعاصي ما يحب، فإنما هو استدراج»**(٣).

وقال الزجاج: هؤلاء قوم أَعْلَمَ اللهُ نبيَّه أنهم لا يؤمنون أبدًا، وأن نفاقهم يزيدهم كفرًا كما قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤].

وعن ابن عباس أن الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ونبوته، وأراد بالبخل كتمان الذي آتاهم الله تعالى(٤).

التَّعْقِيبُ الرَّابِعُ: لَا بُدَّ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ

١٧٩- ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ(٥) **ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ**

---

(١) رواه البغوي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنهما وأخرجه الطيالسي (٨٦٤) والدارمي (٢٧٤٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٢٠٨) وهو في «المسند» عن أبي بكرة عن أبيه (٢٠٤١٥، ٢٠٤٤٣) حديث حسن، وعن عبد الله بن بسر (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٤٢) وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠٣) وابن جرير (٦/ ٢٦٢) وابن أبي حاتم (٤٥٥٥) وابن المنذر (١٢١١) والطبراني (٨٧٥٩) والحاكم وصحح إسناده في «المستدرك» (٢/ ٢٩٨).

(٣) من حديث عقبة بن عامر في «المسند» برقم: (١٧٣١١) حديث حسن، أخرجه الطبري في التفسير (٧/ ١٩٥) والطبراني في الأوسط (٩٢٦٨) والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٨٨) وفي الشعب (٤٥٤٠).

(٤) «زاد المسير» (١/ ٥١٢).

(٥) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (يُمَيِّز) بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء المشددة، مضارع (مَيَّز)، وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الميم وإسكان الياء مَدِّيَّة، مضارع (ماز) وهما لغتان.

﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

وفي نهاية التعقيب على غزوة أحد يبيِّن الله سبحانه أنه لن يترك الباطل ليسيطر على الحق، وأن علوَّ الباطل في بعض المعارك، أو بعض الأزمنة، ليس معناه بقاء الحق ضعيفًا يقتله الباطل ويرديه، وإنما هذه حكمة الله تعالى وتدبيره، يملي للباطل إلى نهاية الطريق، ويرتكب أبشع الأوزار؛ لينال أشد العذاب، وليميز الله الخبيث من الطيب، فيظهر إخلاص المخلصين، ونفاق المنافقين، وكفر الكافرين، وينكشف ما في الضمائر ودخائل النفوس، وما كان من شأن الله تعالى أن يطلعكم على ما استأثر به في علم الغيب عنده؛ لتطَّلعوا بأنفسكم وتعرفوا صادق الإيمان من المنافق، والخبيث من الطيب.

وقد أرسل الله الرسل وأمر بطاعتهم ووعد عباده على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فأنقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل إلى قسمين، مطيعين وعاصين، ومسلمين وكافرين ومنافقين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته في خلقه.

وسنة الله جارية بهذا فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق، إلا بالمحن والابتلاءات والمصائب؛ فهي تُميِّز المخلص بثباته على الإيمان، وتزلزل المنافق، وتظهر جحود الكافر وعناده، غير أن الله تعالى يصطفي ويختار رسلًا من عباده فيخصهم بالوحي ويخبرهم بشيء من الغيب ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

فليس أمامكم أيها الجاحدون إلا الإيمان بالله ورسوله، فإن صدقتم، وامتثلتم أمري، واجتنبتم نهيي، فلكم عند الله أجر عظيم، وثواب جزيل هو الجنة[١].

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى الْبُخْلِ بِالْمَالِ

١٨٠- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ[٢] بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» خمسة أقوال في نزول الآية ليس فيها شيء مسند.

(٢) (ولا يحسبن الذين كفروا) (ولا يحسبن الذين يبخلون) قرأ حمزة بتاء الخطاب فيهما، والمخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم وكل من يتأتى منه الخطاب، وقرأ الباقون بياء الغيبة فيهما، والفاعل فيهما لفظ (الذين)، وقرأ بفتح السين فيهما: ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر، والباقون بكسرها وهما لغتان.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ[1] خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

وبعد أن حثَّت الآيات على بذل النفس في الجهاد في سبيل الله، شرعت تحرِّض على بذل المال في سبيل الله، وتذكِّر بالوعيد الشديد لمن يبخل بماله، فلا يظن الذين يبخلون بما أنعم الله عليهم من المال والمتاع، والجاه والعلم أن هذا البخل خير لهم، بل هو شر لهم؛ لأن المال الذي جمعوه سيزول عنهم، ويبقى عليهم وبال بخلهم، فيُجعل لهم طوقًا من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة.

والآية تشمل مانع الزكاة، والبخيل بإنفاق المال في وجوه الخير.

والله سبحانه سيرث الأرض ومن عليها، فهو الباقي بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فيموتون وتبقى أموالهم فيرثها غيرهم، وهو سبحانه خبير بأعمال الخلق جميعًا، وسيجازيهم عليها. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من آتاه الله مالًا فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له شُجاعًا أقرعَ، له زبيبتان، يطوِّقُه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه، يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزك**»، **ثم تلا الآية**[2].

والشُّجاع: الحيَّة الذكر، والأقرع: كثير السم، واللهزمتين: الشِّدْقين.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جُعِل له شُجاع أقرع يتبعه، يفرُّ منه وهو يتبعه فيقول: أنا كنزك ثم قرأ عبد الله مصداقه في كتاب الله** ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ » [آل عمران: ١٨٠][3].

فكيف لا تنفقون، وجميع ما في الكون ملك لله يعود إليه بعد فناء خلقه، وهو سبحانه مطلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (يعملون) بياء الغيبة؛ لمناسبة (الذين يبخلون)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، على الالتفات.

(٢) البخاري برقم: (١٤٠٣، ٤٥٦٥) وفي فتح الباري (٨/ ٧٨) وابن حبان (٥/ ١٠٧) و«المسند» عن أبي هريرة برقم: (٨٦٦١) حديث صحيح وإسناده حسن (محققوه) وانظر (٧٧٥٦) والنسائي (٥/ ٣٨).

(٣) أخرجه أحمد عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ «المسند» (١/ ٣٧٧) (٣٥٧٧) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والنسائي (٥/ ١١) وابن ماجه (١٧٨٤) و«المستدرك» (٢/ ٢٩٨) وابن خزيمة (٢٢٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤١٠).

وهكذا فقد أخبر الله تعالى أن ما في يد العبد من مال، إنما هو مال الله، أودعه في يده، ولولا فضل الله تعالى وإحسانه لم يصل إليه منه شيء، فَمَنْ منَع البذل منه في وجوه الخير، فقد منع فضل الله وإحسانه.

كما أخبر أن مافي يد العبد سيرجع إلى الله وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء زائل ومنتقل إلى الآخرين.

وأخير فإن العبد سيُجزى أحسن الجزاء على ما أنفق منه في وجوه البر.

خَمْسٌ مِنْ قَبَائِحِ اليَهُودِ

١٨١- ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ[1] مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

ثم تتحدث تسع آيات من سورة آل عمران بعد المئة والثمانين آية قبلها، عن بعض قبائح اليهود وجرائمهم، فذكرت خمسًا من قبائحهم:

القبيحة الأولى: قولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾

فقد أخبر الله سبحانه عن مقالة اليهود الشنيعة، التي وصفوا فيها أنفسهم بالغنى، ووصفوا رب العزة بالفقر، وأخبر سبحانه أنه سمع مقالتهم، وأنه سيكتبها مع أفعالهم الشنيعة كقتلهم الأنبياء بغير حق، وسوف يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

وهذه المقولة هي أول القباح الخمس، فقد أشارت إليها الآية الأولى من هذه الآيات التسع، وكان سبب نزولها أن النبي ﷺ كتب إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يوفّوا ويلتزموا ببنود المعاهدة بينهم وبين المسلمين من دفع الالتزامات المالية تجاه تَمَتُّعِهِم بالأمن والاستقرار في بلاد المسلمين،

---

(١) قرأ حمزة (سيُكتب) بياء مضمومة وفتح التاء، مبنيًا للمفعول، و (ما) اسم موصول بمعنى: سيكتب الذي قالوه، أو مصدرية بمعنى: سيكتب قولهم، وهي نائب فاعل (وقتلهم) برفع اللام؛ عطفًا على (ما) (ويقول) بياء الغيبة؛ لمناسبة (لقد سمع الله)، وقرأ الباقون (سنكتب) بنون مفتوحة، وضم التاء، مبنيًّا للفاعل والفاعل ضمير يعود على (الله) و (ما) مفعول به (وقتلهم) بنصب اللام؛ عطفًا على (ما) و (نقول) بنون العظمة.

ومقابل انتفاعهم بالمرافق العامة ونحو ذلك، حيث أرسل النبي ﷺ إليهم أبا بكر ﷺ بهذا الكتاب، فذهب إليهم، ووجد معظمهم يجلسون في بيت معلِّمهم، الحبر الأكبر: فنحاص.

قال أبو بكر: اتق الله يا فنحاص وأسلم؛ فإنك لتعلم أن محمدًا ﷺ صادق، وإنك لتجد صدق قوله في كتابكم التوراة، فآمِنْ وصدِّق، وأقرِض الله قرضًا حسنًا، يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب.

فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقًّا، فوالله ما بنا من حاجة إلى الله، ونحن أغنياء عنه، وهو فقير إلينا، إن ربنا يقبل العطية والصدقة إنه الفقير ونحن الأغنياء، إنه ينهانا عن الربى ويُرابي، ويعطي على الحسنة عشرة أمثالها، ويقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فالله فقير ونحن أغنياء.

لم يملك أبو بكر زمام نفسه أن يستمع إلى هذه الوقاحة وإلى هذا الكفر، فما كان منه إلا أن صفعه على وجهه ضربة شديدة، وقال له: لولا العهد الذي بيننا وبينكم يا عدو الله لضربت عنقك.

ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ يشكو له ما حدث من أبي بكر، فسأله النبي ﷺ فذكر أبو بكر رضوان الله عليه مقالة فنحاص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وقال: فغضبت وضربتُ وجهه.

فجحد فنحاص مقولته وكذَّب أبا بكر، فأنزل الله تعالى تكذيبًا لفنحاص ولليهود إلى يوم القيامة وتصديقًا لأبي بكر ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾(١).

أي: يسجل ذلك عليهم، ويحصيه في صحف أعمالهم.

ويكتب أيضًا ما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء بغير حق؛ كزكريا ويحيى، ورضاهم بذلك، وشروعهم في قتل عيسى ظلمًا وعدوانًا، ويقال لهم يوم القيامة وهم في النار يعذبون: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الذي ينفذ من البدن إلى الأفئدة. قال تعالى:

---

(١) ذكرته بالمعنى، يُنظَر: ابن إسحاق عن عكرمة، والسدي ومقاتل، وقال الحسن: إن القائل هو: حيي بن أخطب ويُنظَر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٣٩) وتفسير الطبري (٧/ ٤٤٢) وابن أبي حاتم.

١٨٢- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

فهذه النار المحرقة وهذا العذاب الشديد بسبب ما قدمتموه في حياتكم الدنيا من المعاصي: القولية، والفعلية، والاعتيادية، والله تعالى عادل لا يظلم الخلق، بل يثيب المحسن ويعاقب المسيء، هذه قبيحة من قبائحهم.

الْقَبِيحَةُ الثَّانِيَةُ: تَكْذِيبُهُمْ لِرُسُلِ اللهِ

١٨٣- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ[1] قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

وفي هذه الآية، يخبر سبحانه وتعالى عن مقولة أخرى من مقولات اليهود، حيث يفترون على الله الكذب فيقولون: إن الله تعالى أوصى إلينا أن لا نؤمن لرسول من رسل الله، حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وهذا محض كذب وافتراء، فإن الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات والبراهين، وقد أمر الله رسوله أن يخبرهم بأنه قد أرسل رسلًا قبله، وأيدهم بالآيات الدالة على صدقهم، وأيدهم بما قلتم، فقد أتوكُم بقربان تأكله النار، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان برسول يأتي بقربان تأكله النار، وبهذا فقد تبين كذبكم وتناقضكم.

وكان سبب ذلك أن عددًا من اليهود وفدوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك رسول الله، وأن الله قد أنزل إليك كتابًا، وإن الله قد أوصانا وعهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول من رسل الله حتى يأتينا هذا الرسول بقربان نتقرب به إلى الله سبحانه، من صدقة أو ذبيحة ونحو ذلك، وتنزل نار من السماء فتأكل هذه الذبيحة مثلًا، وهي نار بيضاء ليس لها دخان، ويكون نزولها علامة على قبول القربان، وعلى صدق هذا الرسول، إذا التهمت القربان.

وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، فإذا قُبلت هذه القرابين نزلت نار من السماء تحرقها، وإذا لم تقبل بقيت كما هي ولم تنزل نار، وكانت النار تنزل بدعاء نبيهم

(١) وقف البزي ويعقوب بخلف عنهما بهاء السكت على (لم) عوضًا عن الألف المحذوفة، والباقون بدونها.

وتضرُّعه إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ وفيها الإجابة من الله سبحانه على اليهود:

قل لهم يا رسولنا: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ رسل كثيرة، أرسلهم الله تعالى وأيدهم بالمعجزات، وأيدهم بالذي قلتم وطلبتم من القربان، فَلِمَ لَمْ تؤمنوا بهم؟ وَلِمَ لَمْ تتبعوهم؟ وَلِمَ قتلتموهم كزكريا ويحيى وأشعياء وأرمياء إن كنتم صادقين في قولكم؟ فأنتم كاذبون في دعواكم.

وهذا القربان، كان قد حدث في زمن موسى عليه السلام، حين ذُبح أول قربان شرعه الله لبني إسرائيل، فخرجت نار من عند الرب فأحرقتْه، كما جاء في سفر اللاَّويين، إلا أن هذا غير مُطَّرد، فلا ينطبق على ما بعد موسى من الرسل[١].

ومعجزة كل رسول جاءت من نوع ما نبغ فيه قومه، والعرب أرباب فصاحة وبلاغة فكانت معجزة محمد ﷺ هي القرآن.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحْيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[٢]. قال تعالى:

١٨٤- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ[٣] وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾

والله سبحانه يسلِّي رسوله ويخفف عنه، ويقول له: لا تحزن، ولا تيأس فهذا شأنهم وهذه طبيعتهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وجميعهم ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات والأدلة الواضحة الدالة على صدق دعواهم، وجاؤوا بالزبر؛ وهي الصحف المنزلة من عند الله، المشتملة على المحاسن

---

(١) يُنظَر: تفسير التحرير والتنوير (٤/ ١٨٥).

(٢) الحديث في البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم (٢٣٩، ١٥٢) و«المسند» (٨٤٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٩٢٣، ١١٠٦٤).

(٣) قرأ ابن عامر بزيادة باء بعد الواو من (والزبر) موافقة لرسم المصحف الشامي، وقرأ هشام بخلف بزيادة باء بعد الواو من (والكتاب) وفق المصحف الشامي، والباقون بدونهما.

العقلية، والأخبار الصادقة، والأحكام التشريعية، وجاؤوا بالكتب؛ كالتوراة، والإنجيل، والزبور، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].
وقال سبحانه ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

فليس تكذيبهم للرسل بسبب قصور فيما جاءت بالرسل، أو عدم بيان لحجتهم، بل إنهم جاؤوا بالحجج العقلية، والبراهين النقلية، والكتب المنزلة من عند الله، التي لا يأتي بها غير الرسل.

النَّجَاحُ الحَقِيقِيُّ لِلْفَائِزِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ

١٨٥- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

لا تحزن يا محمد؛ فإن مرجعهم إلينا، وسوف نجازيهم ونعاقبهم، لا تحزن فكل مخلوق سيعود إلينا ويموت، الحاكم يموت والمحكوم يموت، الصالح يموت والطالح يموت، الصحيح يموت والمريض يموت، الجبان يموت والشجاع يموت، الكل يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾، وفي هذا تزهيد في الدنيا، بأنها فانية ومتاعها زائل، وزخرفها فانٍ، فهي تخدع بغرورها ومحاسنها، وليست بدار قرار، بل ينتقل منها الخلق إلى دار القرار، حيث تُوفى كل نفس ما عملت من خير أو شر، فمن زحزح عن النار، -مجرد زحزحة - وأدخل الجنة، فقد حصل له الفوز العظيم، ومن لم يزحزح عن النار فقد شقي وابتُلي بالعذاب السرمدي:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمول
ومـا المرء والأهـلـون إلا ودائـع ولا بُـدَّ يـومًـا وأن تـرد الـودائـع

قيل: لما خلق الله آدم، اشتكت الأرض إلى ربها مما أُخِذَ منها، فوعدها أن يردّ إليها ما أُخِذ منها، حيث يدفن فيها من يموت، وذلك كقوله تعالى:
﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه].

وفي الآية تعزية لجميع الناس، وأنه لن يبقى أحد حتى يموت، فالجن والإنس يموتون، وكذا الملائكة وحملة العرش، ويبقى الحي القيوم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨].

ولما نزل قول الله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. وقالوا: هذا خاص بالإنسان، فأين ذُكر الموت للجن والأنعام والوحوش والطير؟ أنزل الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إنسان وغير إنسان ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ في الدنيا، والمرجع والمصير إلينا ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالنجاة، وهذا هو النجاح الحقيقي، فمن أكرمه ربه فنجَّاه من النار وأدخله الجنة فقد نال غاية ما يطلب، وهذا هو الفوز الحقيقي ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ وما فيها من نعيم ورغد عيش ومتاع ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من اشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها.

١- في الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**»[(١)].

ودار الغرور: هي الدنيا، سميت كذلك لأنها فانية، يغتر الإنسان فيها بطول البقاء، ثم ينقطع هذا الأمل قريبًا.

والغرور: كل ما يغر الإنسان مما لا يدوم، فهو متاع متروك.

والمتاع: كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره.

٢- وفي الحديث عن المستوْرِد بن شداد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليمِّ، فلينظر بم ترجع إليه؟**»[(٢)].

٣- وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى**

---

(١) البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) والترمذي (٣٢٩٢) وابن ماجه (٤٣٢٨) و«المسند» (٨١٤٣، ٩٦٤٩، ١٠٠١٧) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٠١).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٣) برقم: (٢٨٥٨) و«سنن الترمذي» برقم: (٢٣٢٣) وابن ماجه برقم: (٤١٠٨) من حديث المستورد بن شداد.

الناس ما يحب أن يؤتى إليه»(١)، ومادامت الدنيا متعة زائلة فلا تغتروا بها.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧﴾ [الأعلى].

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موضع سوط أحدكم في الجنة لخير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم** ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»(٢).

الْقَبِيحَةُ الثَّالِثَةُ: إِيذَاءُ الْيَهُودِ الْمُسْتَمِرُّ لِلْمُسْلِمِينَ

١٨٦- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

والله ﷻ يسلّي ويسرّي عن رسوله ﷺ ويقول له: لا تحزن يا محمد؛ فإنك سوف تُبتلى والمسلمون كذلك يبتلون في النفس والمال، وسوف تسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب ومن الوثنيين المشركين ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: لتُخْتبرُنَّ - أيها المؤمنون- في أموالكم بإخراج النفقات الواجبة والمستحبة، وبالجوائح التي تصيبها، ولتبلون في أنفسكم بما يجب عليكم من الطاعات، ومنها الجهاد، وما يحلُّ بكم من جراح، أو قتْل وفقْدٍ للأحباب؛ وذلك حتى يتميز الصادق في إيمانه من غيره، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾

---

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو، «المسند» (٢/ ١٩١) (٦٧٩٣، ٦٨٠٧) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) ورواه مسلم وفيه عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة من رجال مسلم، وهو مستور الحال ورقمه (١٨٤٤) وأخرجه ابن ماجه (٣٩٥٦) وابن أبي شيبة (١٢/ ٢١٤) والبيهقي في السنن (٨/ ١٦٩)

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح السنن، ورقمه في «السنن» (٣٠١٣) و«المستدرك» (٢/ ٢٩٩) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو في صحيح البخاري عن سهل بن سعد بدون الآية رقم: (٣٢٥٠)، وصحيح مسلم (١٨٨١) بنحوه.

[البقرة: ١٥٥]. وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢].

ولتسمعُنَّ من اليهود والنصارى والمشركين ما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والطعن في دينكم، وكتابكم ورسولكم وإن تصبروا على ذلك، وتلزموا طاعة الله واجتناب معصيته، فإن ذلك من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها[١].

وخوطب المسلمون بهذا ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلْقونه من شدائد حتى يستعدُّوا للصبر عليها.

قال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله ﷺ في شِعْره وكان يسبُّ المسلمين، ويحرِّض المشركين على قتال المسلمين في شِعْره.

أو نزلت في فنحاص الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وما بلغه أبو بكر من الغضب حين سمع ذلك.

ومما لحق بالمسلمين من أذى: أن النبي ﷺ مر ذات يوم وهو على حمار يركبه بمجلس فيه خليط من المسلمين واليهود والمشركين، فأصاب المجلس بعض غبار من أقدام الدابة، وكان في المجلس رأس النفاق عبد الله بن أُبي بن سلول، فخمَّر وجهه وأنفه بردائه من عجاج الدابة، ثم نزل النبي ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وذكر لهم شيئًا من محاسنه، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله للنبي ﷺ: ما أحسن ما تقول لو كان حقًّا: وأفضل لك أن تجلس في بيتك، ومن جاء إليك فاقصص عليه، ولا تؤذنا ولا تغشانا في مجالسنا[٢].

وقد أنزل الله في عبد الله بن أُبيٍّ، وفي كعب بن الأشرف، وفي فنحاص، وغيرهم من المنافقين واليهود وسائر أعداء الإسلام وأهله إلى قيام الساعة هذه الآية
﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾.

والمسلم الذي يدعو إلى الله تعالى يوطِّن نفسه على تحمل الأذى في سبيل الله ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وكان النبي ﷺ مأمورًا بالعفو والصبر قبل الأمر بالقتال، وقد أسلم ابن أُبيٍّ نفاقًا بعد غزوة بدر، وقد أخبر الله عباده بذلك:

---

(١) التفسير الميسر بتصرف، نخبة من العلماء.

(٢) يُنظَر النص في البخاري (٨/ ١٧٣) برقم: (٤٥٦٦) ومسلم برقم: (١٧٩٨).

١- لبيان حكمته في خلقه، حتى يتميّز المؤمن الصادق من غيره.

٢- وليعلموا أن الله تعالى يُقدّر عليهم هذه الأمور، ليرفع درجاتهم، ويكفر عن سيئاتهم، ويزداد إيمانهم ويقينهم.

٣- وقد أخبرهم الله تعالى بذلك ليُوطّنوا أنفسهم على وقوع ذلك، فيستعدوا لوقوعه، ويلجؤوا إلى الصبر والتقوى، فقد ختم الله بهما الآية، لهذه الحكمة العظيمة، ولبيان أن الصبر و التقوى من عزائم الأمور ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الْقَبِيحَةُ الرَّابِعَةُ: نَقْضُهُمْ لِلْعُهُودِ

١٨٧- ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ(١) فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

والله ﷻ أخذ العهد والميثاق على كل ذي علم، أن يبلّغ علمه، وأن لا يكتم ما علّمه الله إياه، وأن لا يخبر الناس بغيره، ويتحتّم هذا عند السؤال، أو حدوث ما يستلزم ذلك، أما الموفقون فقاموا بهذا خير قيام، وعلّموا الناس مما علّمهم الله، ابتغاء مرضاة الله، وخوفًا من إثم الكتمان.

وقد أخذ الله سبحانه هذا العهد والميثاق على أهل الكتاب من اليهود في التوراة، والنصارى في الإنجيل، أن يبلغوا وأن لا يكتموا ما فيهما، فما كان منهم إلا أن كتموا أوصاف النبي ﷺ وحرّفوها وغيّروها وبدّلوها، مخالفين بذلك ما أُخِذ عليهم من وجوب الوفاء بالعهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وخافوا على أنفسهم، وعلى مناصبهم، وعلى مكانتهم ووجاهتهم، إنْ ظَهَر نبي من العرب، فإنه ستزول عنهم الرئاسة، وأخذوا الرشوة مقابل تغيير صفات النبي ﷺ وتركوا العهد ولم يعملوا به، وأخذوا ثمنًا قليلًا مقابل كتمان الحق ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي بئس الشراء شراؤهم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بياء الغيبة في (لتبيننه للناس ولاتكتمونه) في الكلمتين على إسناد الفعل إلى أهل الكتاب، وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيهما على الحكاية.

والآية تعم المسلم إذا كتم علمًا، ولم يبلِّغه، أو حرَّفه، أو غيَّره، أو بدَّله، ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»**[(١)]. قال أبوهريرة: لولا ما أخذه الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء.

وقال علي ﷺ: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يُعَلِّموا.

وفي الآية دليل على أنه يجب على العلماء أن يبيِّنوا الحق للناس ولا يكتموا منه شيئًا؛ لتطييب نفوس بعض الناس، أو لجرِّ منفعة، أو دفع ضرر، أو بُخْلٍ بعلم، أو خوفًا من أحد، أو تقرُّبًا لأحد.

قال قتادة: إياكم وكتمان العلم؛ فإن كتمان العلم هلَكة، ولا يتكلَّفنَّ رجل ما لا علم له به، ومَثَلُ علم لا يقال به، كمثل كنز لا يُنفق منه، ومَثَلُ حكمة لا تخرج، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واعٍ، هذا رجل علِم عَلمًا فعلَّمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيرًا فحفظه ووعاه فانتفع به.

الْقَبِيحَةُ الْخَامِسَةُ :إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

١٨٨- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ [(٢)] ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم [(٢)] بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

جاء في هذه الآية أن اليهود يفرحون بما يفعلون من القبائح، ويفرحون بما آتاهم الله،

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد عن أبي هريرة في «المسند» (٢/ ٢٩٦) برقم (٢٧٥٧١، ٧٩٤٣) وابن ماجه عن أنس بن مالك (٢٦٤) برقم: (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢١٢) وفي مشكاة المصابيح (٢٢٣) والتعليق الرغيب (١/ ٧٣) والروض (١١٥٠) وهو عن أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٦٦) وصحيح سنن ابن ماجه (٢١٣).

(٢) ، (٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما، وفتح الباء في الأولى وضمها في الثاني، أي: لا يحسبن الرسول الفرحين ناجين، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بتاء الخطاب وفتح الياء فيهما، والمعنى: لا تحسبن الفرحين ناجين، لا تحسبنهم كذلك، وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بياء الغيبة في الأول وتاء الخطاب في الثاني، وفتح الباء فيهما، على إسناد الفعل الأول إلى (الذين) والثاني إلى المخاطب، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

فَرَحَ أشر وبطر، ويحبون أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا من الأعمال الحسنة، وأن الله تعالى قد توعّدهم بالعذاب الأليم، فشأنهم شأن من يلبس ثوبي زور.

فلا تحسبن الذين يفرحون بما أتوْا من القبائح وباطل القول والفعل، ويحبون أن يُحمدوا على الخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين الفرح بفعل الشر وقوله، وبين محبة أن يُحمدوا على فعل الخير الذي لم يفعلوه، ومن ذلك اليهود الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يؤمنوا برسول الله، وزعموا أنهم محقون في ذلك، ويدخل في ذلك كل من ابتدع شيئًا في دين الله وفرح بها ودعا إليها، زعم أنه محق، فلا تظن أنهم بمنجاة من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد أشكل معنى هذه الآية على مروان بن الحكم فقال: لئن كان كل منا قد فرح بما أوتي، أي: بما أعطاه الله، ويحب أن يُحمد بما لم يفعل، إن كان هذا معذبًا، لنُعذبنَّ أجمعين، فكل منا يحب أن يُحمد بما لم يفعل.

وهذه ليست صفة المسلم، فالمسلم الحقيقي لا يلبس ثوب زورٍ، كالمسؤول الذي يُسند إليه أنه فعل كذا، أوأعطى كذا، وهو لم يفعل شيئًا، فالمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.

عن عائشة ﵂ أن امرأة قالت: يا رسول الله، أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال ﷺ: **«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»**[1].

وقد توعَّد الله سبحانه الذي يحب أن يحمده الناس ويشكروه على شيء لم يفعله ويفرح بذلك، بالعذاب الأليم.

ولا يدخل في الآية من لم يقصد بعمل الخير رياء وسمعة، فحمده الخلق، وأثنوْا عليه، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا.

أَسْبَابُ النُّزُولِ

١- أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في معنى الآية قال: أي: فرحوا بإعجاب

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب النكاح: (٧/ ٤٤) برقم: (٥٢١٩) ومسلم في كتاب اللباس (١٦٨) برقم: (٢١٢٩) ومسند أحمد عن عائشة (٦/ ١٦٧) برقم: (٢٥٣٤٠) وعن أسماء بنت أبي بكر (٢٦٩٢١، ٢٦٩٢٩، ٢٦٩٧٧) وغيرهم.

الناس بتبديلهم الكتاب وحَمْدِهم إياهم عليه، ولا تملك يهود ذلك.

وعن ابن عباس ﷺ: هم علماء ليسوا بأهل علم، لم يحملوا الناس على خير ولا هدى، ويحبون أن يقول الناس: قد فعلوا[(١)].

٢- وأرسل مروان إلى عبد الله بن عباس ﷺ يسأله عن معنى الآية فقال: ما لكم وهذه؟ إنما نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا الآية وقال: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروا بغيره، فخرجوا وقد رأوا أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوه بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه[(٢)].

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو، وتخلفوا عنه، فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قَدِم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[(٣)].

٤- قال الضحاك: كتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها إن محمدًا ليس نبي الله، فاثبتوا على دينكم، واجمعوا كلمتكم على الكفر بمحمد والقرآن، ففرحوا بذلك، وقالوا: الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نتفرق، ولم نترك ديننا، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة، ونحن أولياء الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما فعلوا ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ بما ذكروا من الصوم والصلاة والعبادة[(٤)].

وسواء نزلت الآية في أهل الكتاب أو في المنافقين، فإن الآية عامة في كل من ينطبق عليه الوصف، كسائر الآيات التي لها سبب أو أكثر من سبب نزول.

---

(١) الطبري (٦/ ٣٠٤) وابن المنذر (١٢٥٦) وابن أبي حاتم (٤٦٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٦/ ٥١) (٤٥٦٨) ومسلم: (٢٧٧٨) و«المستدرك» (٢/ ٢٩٩) وأخرجه أيضا أحمد (٢٧١٢) والترمذي (٣٠١٤) والنسائي وابن أبي حاتم (٤٦٤٧) وابن خزيمة وابن مردويه.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٧٥) (٤٥٦٧) برقم: (٤٥٦٧) ومسلم (٢٧٧٧) وابن جرير (٦/ ٣٠٠) وابن المنذر (١٢٥٧) وابن أبي حاتم (٤٦٤٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٧٨٢).

(٤) «زاد المسير» (١/ ٥٢٣) والطبري (٦/ ٣٠٢).

وسياق الآيات يتعلق باليهود، وأن النبي ﷺ سألهم عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد رأوا أنهم أخبروه بما سألهم، وأنهم قالوا له الحقيقة، وطلبوا من الرسول أن يشكرهم وأن يحمدهم على ذلك، أي يحمدهم على كتمان الحق فأنزل الله هذه الآية(١).

وقد فرح اليهود والنصارى بكتمان صفة محمد ﷺ وفرحوا بالفساد والشرك، وبأنهم غيَّروا وبدَّلوا شريعة الله، ويحبون أن ينسب الناس إليهم أعمال الخير والصلاح وليسوا بفاعليه وليسوا من أهله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ﴾ أي: ليسوا ناجين من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيدٌ من الله سبحانه لهم.

ومن مدحه الناس في الدنيا على عمله، من غير قصد منه، وهو مخلص في علمه، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا، ولا يذم عليه.

جاء عن الزهري عن محمد بن ثابت الأنصاري أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: «لِمَ؟» قال: نهى الله المرء أن يُحمد بما لم يفعل، وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخُيلاء، وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا امرؤ جهوريُّ الصوت. فقال رسول الله ﷺ: **«ألا ترضى أن تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟»** قال: بلى، يا رسول الله، فعاش حميدًا، وقتل شهيدًا يوم مُسيلمة الكذاب(٢).

والمعنى: لا تظن الذين يفرحون بما أتوا من أفعال قبيحة كاليهود والمنافقين وغيرهم، ويحبون أن يثني عليهم الناس بما لم يفعلوا، فلا تظنهم ناجين من عذاب الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع.

وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليثني الناس عليه ويحمدوه.

---

(١) يُنظَر النص في «المسند» (١/٢٩٨) برقم: (٢٧١٢)، عن ابن عباس وإسناده صحيح على شرط الشيخين وهو الحديث السابق عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم: (٤٢) والحاكم في «المستدرك» (١/٢٣٤) وابن حبان برقم: (٢٢٧٠) في الموارد والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/٦٧) وعبد الرزاق في المصنف برقم: (٢٠٤٢٥) وابن مردويه، وهي طرق متعددة، وإسناده حسن.

الرَّدُّ عَلَى قَبَائِحِ الْيَهُودِ

١٨٩- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

ولله وحده ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو المتصرف في الكون بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه أحد، ولا يعجزه شيء وهو سبحانه قادر على كل شيء، فكيف يكون مالكًا للعالم العلوي والسفلي ويكون فقيرًا؟ وهو الذي أرسل رسله وأيدهم بالآيات الباهرات، وهو الذي يرجع إليه العالم كله فيجازيهم على ما قدمت أيديهم، وهو الذي يبتلى عباده ويعافيهم. وبهذا يختم الرد على قبائح اليهود، إنه سبحانه صاحب السلطان القاهر، يخلق ما يشاء ويختار، يحيي ويميت، يعذب ويثيب، لا يعجزه أمر، ولا يدفع عقابه شيء، فعليكم أن تطيعوه، فاحذروا غضبه وانتقامه.

دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ فِي الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ

١٩٠- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

وبعد أن تعرضت السورة لأحوال المنافقين وأهل الكتاب، وكانت قد بدأت بأدلة التوحيد والنبوة، وقد ختمت أيضًا بدلائل الوحدانية والقدرة، متمثلة في التفكر في خلق الله، والتدبر في صفحة الكون المفتوح، واتصال هذا الفكر بذكر الخالق سبحانه، للتوصل إلى بعض أسرار الله تعالى في هذا الكون.

وهذه هي الشحنة الإيمانية التي يُعِدُّ الله بها الجماعة المسلمة لمواجهة الأحداث الجسام، واستقبال السَّرَّاء والضَّرَّاء، ومقاومة أهل الشرك والكفر والإلحاد في كل زمان ومكان.

وبيَّنت الآيات أن أول ثمرات هذا التفكير النفسي، هو ما ثبت لهم من أن هذه المخلوقات لم تُخلق باطلًا، وهذا يستدعي تنزيه الله والتسبيح بحمده. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبْحَٰنَكَ﴾.

وينتج عن هذا التفكير أن يرى الإنسان من بين المخلوقات المطيع والعاصي فيعلم أن وراء هذا العالم ثوابًا وعقابًا، فسألوا الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، واستعاذوا بالله ممن حقت عليه كلمة العذاب، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ثم توسلوا إلى الله تعالى بأنهم بذلوا غاية جهدهم في طلب النجاة؛ لأنهم استجابوا لمنادِي الإيمان وهو الرسول ﷺ فسألوا الله غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والموت على البر والتقوى ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾.

ولما نزلت هذه الآيات وشاعت بين الناس، اهتدى لهذا التفكير من لم يكن انتبه له من قبل، فنفعه الله به، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾.

وقد ورد في هذه الآيات أحاديث، منها ما جاء:

١- عن عبد الله بن عباس ﵄ قال: أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته، قال: فصلى رسول الله بالناس صلاة العشاء الآخرة، حتى إذا لم يبق بالمسجد أحد غيره، قام فمرَّ بي، فقال: «**من هذا؟ عبد الله؟**» فقلت: نعم، قال: «**فمه؟**» قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة، قال: «**فالحق**»، فلما أن دخل قال: «**افرش، عبد الله!**» فأتى بوسادة من مسوح، قال: فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سُمِع غطيطُه، ثم استوى على فراشه قاعدًا، قال: فرفع رأسه إلى السماء، فقال: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاث مرات، ثم تلا الآيات العشر من آخر آل عمران حتى ختمها[(١)].

٢- وعنه ﵁ أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضي ليل، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآيات ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حتى آخر السورة، ثم قال: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وأعظم لي نورًا يوم القيامة**»[(٢)].

٣- وعن عطاء قال: انطلقتُ أنا وابن عمر، وعبيد بن عمير، إلى عائشة ﵂، فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زُرْ غبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، فقال ابن عمر: رضى الله عنهما، أخبرينا عن أعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الصلاة: (٢/ ١٨٠) برقم: (٧٦٣) و«صحيح البخاري» (٧٦٣، ٦٣١٦) وأبو داود برقم: (١٣٥٣) والنسائي في «السنن» (٣/ ٢٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ١٨١) برقم: (٧٦٣) و«صحيح البخاري» برقم: (٤٥٦٩).

فبكت، وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي، ثم قال: «**ذريني أتعبد لربي**»، وفي هذا الوقت لا يوجد صلاة مفروضة، وإنما هي نافلة (صلاة التهجد).

- وكان هذا وقت عائشة وليلتها - وهو الوقت الذي يسكن فيه الإنسان إلى زوجه، ويرقد في فراشه، ويستتر، ويشعر بشهوة ولذة ومتعة، ولأن هذا من حق عائشة ﵂، فإن النبي ﷺ أراد أن يُطيِّب خاطرها، ويستأذنها في أن يترك فراشه، ويفارقها ليعبد ربه - (قالت) عائشة: في الرد على رسول الله ﷺ: (والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد ربك)؛ أحب أن أكون قريبة منك، وأحب ما تهوى، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، وهذا شأن المؤمن: عدم الإسراف في الماء، لا يفتح الماء على آخره وإنما بمقدار يسير، فهو نعمة أنعم الله بها على الإنسان، لا ينبغي له أن يسرف فيها، وقد منع الإسلام أن يتوضأ المسلم أكثر من ثلاث مرات، وإن كان يتوضأ من نهر جارٍ، توضأ النبي ﷺ ولم يكثر من صب الماء، قالت عائشة: ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى أتى بلالٌ يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** إلى آخر الآيات العشر من سورة آل عمران، ثم قال ﷺ: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر**»[1].

٤- وكان النبي ﷺ يكثر من قراءة هذه الآيات العشر في صلاة التهجد.

قال عبد الله بن عباس ﵄: بتّ عند خالتي أم المؤمنين ميمونة، قال: فتحدث النبي ﷺ إلى أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال:

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في «موارد الظمآن» (١٣٩) و«إحسان»رقم: (٦٢٠) قال الشيخ مقبل الوادعي في تحقيقه لتفسير ابن كثير؛ فالحديث صحيح، وقد ذكرتُه بالمعنى وألفاظه ما بين القوسين، وهو في «الترغيب والترهيب» برقم: (٦٦٦) وعند أبي الشيخ في «أخلاق النبي» ص (١٦٠) بإسناد رجاله ثقات، وأخرجه ابن مردويه، وعبد بن حميد، وابن المنذر (١٢٦١) وابن أبي الدنيا، من طرق متعددة، قال محقق ابن حبان (٦٢٠): إسناده قوي على شرط مسلم، وقد حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٨).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ثم قام فتوضأ واستاك(١) فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس(٢).

٥- وفي بعض روايات البخاري عن كريب عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته، قال: فاضطجعتُ في عَرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ معلقة، فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي، قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبتُ فقمت إلى جنبه، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني اليمنى يفْتُلها، فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح(٣).

هذا: وقد بكى عمر بن عبد العزيز ﷺ يومًا بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدِّرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إنَّ فيها مواعظ لمن ادَّكر.

فالمؤمن يستدل بآثار الله تعالى على وحدانيته سبحانه، ولا يكون كالصُّمِّ البكم الذين لا يعقلون، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

وآيات الله تعالى لا يمكن لمخلوق أن يحصرها أو يحيط بها، وهي تدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته، وما فيها من الإتقان وبديع الصنع، وانتظام السير والحركة، ومنافع الخلق، كل ذلك يدل على حكمة الله تعالى، ووضعه كل شيء في موضعه، ومقتضى ذلك أن يتعلق القلب بخالقه ومبدعه، ويبذل الجهد في مرضاته، ولا

---

(١) أي: استعمل السواك.

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ٥١) برقم: (٤٥٦٩، ٤٥٧٠، ٤٥٧٢) و«صحيح مسلم» برقم: (٧٦٣) وأبو داود (٥٨، ١٣٥٣، ١٣٥٥) والنسائي (١١٠٨٧) وابن ماجه (١٣٦٣).

(٣) البخاري (٤٥٧٠، ٤٥٧١) ومسلم (٧٦٣) وأبو داود (٣٦٧) والنسائي (٣/ ٢١٠) من طرق عن مالك، به.

يشرك به سواه.

قال عيسى ﷺ: يابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضعيفًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعلِّم عينيك البكاء، وجسدَك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد[١].

إن في إيجاد هذا الكون وخلْقه من العدم على غير مثال سابق، وفي تعاقُب الليل والنهار، واختلافهما طولًا وقصرًا، لَدلائل وبراهين عظيمة على وحدانية الله تعالى، لأصحاب العقول السليمة الذين يتأملون ما في العالم العلوي والسفلي من كواكب، وأفلاك وبحار وجبال وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة.

وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء؛ إذ كيف يكون رب العالمين فقيرًا وله ملك السموات والأرض، وهو سبحانه خالق هذا الكون بعالمه العلوي والسفلي، ولكن الذي ينتفع بهذا هم أصحاب العقول، وأولو البصائر النيِّرة، ولذا خصهم الله تعالى بالذكر.

ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّفْكِيرُ فِي خَلْقِهِ

١٩١- ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

أهل البصائر النيرة هم الذين وصفهم الله سبحانه في هذه الآية **بصفتين**:

الصفة الأولى: أنهم الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبهم، وفي جميع أحوالهم في الصلاة وخارج الصلاة، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقلب والقول، ويدخل في ذلك الصلاة، وذكْر الله سبحانه يكون بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ويكون بالاستغفار من الذنوب، ويكون بتلاوة القرآن، ويكون بالتفكر في خلق الله وغير ذلك.

ففي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[٢].

وهكذا فالذي يذكر الله مثله مثل الحي والذي لا يذكر الله مثله مثل الميت.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي موسى (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) بلفظ مختلف.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**سبق المفرِّدون يوم القيامة والمفردون هم الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»[١].

وذكر الله تعالى يصون العبد المحافظ على صلاته وعلى ذكر ربه من ارتكاب الفواحش والذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فهم الذين يذكرون الله سبحانه في جميع أوقاتهم، وفي جميع أحوالهم، بالليل والنهار، وهم قيام، وهم قعود، وهم مضطجعون، وهم مستلقون، وغير ذلك.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه جلَّ شأنه يَسَّرَ لمن لم يستطع أن يصلي قائمًا أن يصلي على أية كيفية استطاع، ما دام لم يفقد عقله.

كما جاء في الحديث عن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب - وفي راوية - فمستلقيًا**»[٢] أو يومئ إيماء إلى الصلاة، وذلك لرفع الحرج والتيسير على المسلمين.

وقد سأل عمران بن حصين رسول الله ﷺ عن الرجل يصلي وهو قاعد، قال: «**من صلى قائمًا فهو أفضل، ومن صلى قاعدًا فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائمًا فله نصف أجر القاعد**»[٣].

هؤلاء هم الذين يذكرون الله في جميع أوقاتهم وفي سرَّائهم وضرَّائهم، كما في حديث عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان يذكر الله في كل أحيانه[٤].

والصفة الثانية: أنهم يتفكرون ويتدبرون في خلق السموات والأرض، ليستدلوا بها على خالقها، فالتفكر من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا عرفوا أن الله تعالى لم يخلق

---

(١) ينظر: صحيح مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٧٦) وبنحوه في «المسند» (٨٢٩٠، ٩٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري عن عمران بن حصين، وكانت به بواسير، فسأل عن الصلاة، كتاب الصلاة (٢/ ٦٠) وهو برقم: (١١١٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (١١١٦).

(٤) «المسند» برقم: (٢٤٤١٠، ٢٥٢٠٠، ٢٦٣٧٦)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه مسلم (٣٧٣) وأبو داود (١٨) والترمذي (٣٣٨٤).

هذا الكون عبثًا، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ جل جلالك، وتنزهت صفاتك، فقد خلقت هذا الكون بالحق، لحكمة جليلة، كي يعرف الخلق ربهم فيعبدوه، ونسألك يا ألله أن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، كي ننجو من النيران ونفوز بالجنات.

والتفكر في هذا الكون من صميم العبادة، وقد أُمرنا أن نتفكر في مخلوقات الله، وفي صنع الله؛ لنتوصل عن طريق ذلك لمعرفة الله سبحانه، ونُهينا عن التفكير في ذات الله جل شأنه؛ لأن ذلك لا يوصِّل المؤمن إلى شيء.

وأصل الفكر: إعمال الخاطر وتردد القلب في الشيء طلبًا للخشية وإذهابًا للغفلة: **«تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا»**(١).

يقول الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

حُكي أن رجلًا من بني إسرائيل كان يعبد الله تعالى ثلاثين عامًا، فأظلَّته سحابة، أخذت تلازمه ثم فارقته، فتأمل في نفسه، لماذا فارقتْه هذه السحابة؟ وذكر ذلك لأمه، فقالت له: لعلك نظرت إلى السماء مرة ولم تعتبر، قال: لعل، أي: أن عدم التفكر ذنب.

وورد عن رسول الله ﷺ أن رجلًا كان مستلقيًا في فراشه، فنظر إلى النجوم، ونظر إلى السماء، وقال: أشهد أن لكِ ربًّا وخالقًا، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه وغفر له.

فالتفكر في خلق الله، وفي عجيب صُنع الله، من أعظم أنواع العبادة، وهو يوصل المرء إلى توحيد الله جل شأنه، وقد دعا القرآن إلى النظر والتأمل في ملكوت الله في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٦، ٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾

---

(١) حديث ضعيف كما قال السيوطي في الجامع الصغير (٣٣٤٨) وهو بألفاظ متقاربة عن ابن عمر عند الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وابن عدي في الكامل، وقد حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس].

وقوله جل شأنه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥- ٧].

وقوله ﷻ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقوله أيضًا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

خَمْسَةُ نِدَاءَاتٍ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ لِرَبِّهِم

ثم ذكرت الآيات خمسة نداءات يتوسل فيها العباد إلى ربهم بأعمالهم الصالحة أن يبعدهم عن النار، وألا يخزهم يوم القيامة، وأن يدخلهم الجنة مع عباد الله الأبرار:

النِّداءُ الأَوَّلُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

إن الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض فيهتدون إلى الفطرة وإلى التوحيد والعقيدة الصحيحة يقولون: ربنا ما خلقت هذا الكون بما فيه ومن فيه باطلًا ولا خلقته عبثًا، ما خلقته بغير هدف، ولا لغير غاية، إنما خلقته لحكمة وهدف وغاية، فأنت منزه عن العبث

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]

فقد خلقتَ خلقك للعبادة، ومن ثم للحساب والجزاء، فاصرف عنا عذاب النار.

النِّداءُ الثَّانِي:

١٩٢- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾﴾

فهذه الدنيا نعمل فيها ونسعى ونجد، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له؛ فأهل الخير وأهل الشر قد أبان لهم الله جميعًا الطريق، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم إنهم لا يُتركون هكذا بلا حساب، وإنما يحاسبون ويجازَوْن يوم القيامة على ما قدمته أيديهم، ولذلك فإن الذي أفلح ونجا هو الذي يزحزح عن النار يوم القيامة ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والزحزحة عن النار هي الدرجة الدنيا من

النجاة، وهي تساوي الذي نجح في الامتحان بأضعف الدرجات، أي: بخمسين في المئة، مجرد نجاح، مجرد زحزحة عن النار، فضلًا عن درجات القرب والتسابق والتفوُّق.

فيا ربِّ إن مَنْ تدخله النار قد أهنته وأذللته وفضحته بدخوله فيها وتعذيبه بها.

فالعاصي من المؤمنين يدخل النار؛ ليطهَّر من ذنوبه، وينطبق عليه الخزي وهو في النار؛ لأنه يدخلها بصفة مؤقتة، ويكون ممن أهين لحظة وجوده في النار، جزاءً وفاقًا لما اكتسب، ثم يخرج إلى الجنة.

وأما الكافر فإنه يخلد في النار، وخزيه دائم، وهذا هو الخزي الحقيقي المنفي عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ليس: لهم ما يمنعهم من عذاب الله، ولا ينقذهم منه، وليس لهم ولي ولا ناصر، ولا شفيع، يحول بينهم وبين عقاب الله تعالى لهم يوم القيامة، فهم قد استحقوه بظلمهم.

ومن ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] لأن دخول النار خزي ومذلة على رؤوس الأشهاد، وفيه قهر للمعذَّب وإهانة علنية.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ:

١٩٣- ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾

يدعو المسلمُ ربَّه أنه سمع داعيًا يدعو إلى الله، هو محمد ﷺ يرغب الناس في أصول هذا الدين وفروعه ومحاسنه، سمع ذلك مَنْ عاصَرُوا الرسول، وسمعنا نحن هذا الدعاء في هذا الكتاب الذي نزل على خير البشر ﷺ ينادي للتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، والعمل بشرعك، فأجبنا دعوتك وصدَّقناك، وأسرعنا إلى العمل بشرعك ونحن نتوسل إليك يا ربنا بإيماننا بك وامتثال أمرك واجتناب نهيك أن تغفر ذنوبنا، وتكفر سيئاتنا، وتستر عيوبنا، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

وكما أجاب الإنس ربهم في هذه الآية، فإن الجن أجابوا ربهم فأحسنوا الإجابة حين قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾

نسألك يا ألله بعد أن آمنا بنبيك واستجبنا للحق الذي جاء به أن تغفر لنا ذنوبنا وأن تكفر عنا سيئاتنا من الذنوب والكبائر، والسيئات هي الذنوب الصغائر كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. والتكفير: هو الستر والتغطية، وغفران الذنوب: محوها وسترها، فألحقنا واحشرنا يا ربنا ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ الصالحين من عباد الله، الذين بروا في دينهم، وبروا بربهم، وبروا بآبائهم، وبروا بأبنائهم، وقد سألوا ربهم ثلاثة مطالب هي: غفران الذنوب، وتكفير السيئات، والوفاة مع عباد الله الأخيار، وهذا يدل على صدقهم في إيمانهم.

النِّداءُ الخَامِسُ

١٩٤- ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

يسأل العبد ربه بما أتم عليه من نعمة الإيمان، ووفقه للدخول في ساحة الرحمة، أن يدخله الجنة، وأن يعطيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يَمُنَّ عليه بما وعده به على ألسنة رسله من دخول الجنة والنجاة من النار، والفوز برضوان الله.

وقد وعد الله المؤمنين على لسان رسله أن ينصرهم في الدنيا على عدوهم إن هم نصروا دين الله سبحانه، وأن يثبت أقدامهم، وأن يمكن لهم في الأرض، ووعدهم الجنة في الآخرة وألا يفضحهم على رؤوس الأشهاد كما سألوه في قولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ هذه خمس نداءات بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾.

قال جعفر الصادق ﷺ: من حَزَبَهُ أمرٌ فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، وقرأ الآية، أي: أن من وقع في ضيق وفي كربة، ثم دعا ربه بقوله: ربنا خمس مرات كما جاء في هذه الآيات؛ فإن الله سبحانه يفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه، ويعطيه ما طلب.

هذا: ويستفيد المسلم من هذه النداءات الخمس، كيف يدعو ربه، فيتوسل إليه أوّلًا

بعمله الصالح، كما جاء في الآيات ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ ثم يسأل ربه ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهكذا ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ يتوسل إلى الله بإيمانه، ثم يطلب ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الآية:

إِجَابَةُ اللهِ لِعِبَادِهِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا

١٩٥- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ[1] لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

وهكذا أجاب الله دعاء عباده، ووعدهم أنه لا يضيع أجر عامل منهم من ذكر أو أنثى، فالكل يلقي ثواب عمله كاملًا موفورًا، وكلهم على حد سواء في الثواب والعقاب، فكل من آمن وعمل صالحًا فإن الله تعالى يعطيه الثواب الجزيل على العمل القليل، وما عند الله تعالى يُطلب بطاعته والتقرب إليه:

قالت أم المؤمنين أم سلمة ﵂ لرسول الله ﷺ: لا أسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء[2].

أي: أنهن لسن مشاركات للرجال في الأجر، فأنزل الله سبحانه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وأنزل أيضًا في إجابة الأبرار وهم ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين دَعَوْا ربهم بما جاء في النداءات الخمس السابقة حيث بشّر الله هؤلاء الأخيار برضاه عنهم وإجابة دعائهم ذكورًا وإناثًا، سواء بسواء، كلكم لآدم، وآدم من تراب، الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، وكلكم وليٌّ وناصر للآخر، فأنتم إخوة في الدين، وإخوة في النسب لآدم، وكلكم سواء في قبول العمل الصالح والجزاء عليه، وسواء في التكاليف، والعبادة، لا فرق بين المرأة والرجل ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وقتلوا وقاتلوا) بتقديم القتل على القتال، وهذا نص فيمن يقتلون أنفسهم بين صفوف العدو، فهم يقتلون أنفسهم ويقاتلون عدوهم في سبيل الله، وباقي القراء عكس هذه القراءة (وقاتلوا وقتلوا) وشدد ابن كثير وابن عامر التاء من (وقتلوا) على التكثير وخففها الباقون.

(٢) الطبري (٧/ ١٩٥) والحاكم وصححه (٢/ ٣٠٠) ووافقه الذهبي وسعيد بن منصور برقم: (٥٥٢) و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ١٤٤).

وقد جعل الله للرجل القوامة على المرأة، وجعل له ضعف ما لها في الميراث؛ لأنه يعُول المرأة والأبناء، وجعل شهادته تعْدِل شهادة امرأتين؛ لأن المرأة يحدث لها تغيرات نفسية بسبب الحيض وعند سِنِّ اليأس، وتجهل غالبًا أكثر من الرجل، وعاطفتها أشد، وهي تؤثر فيها، وهي تنسى أكثر من الرجل.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ذكورًا وإناثًا، فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة الأحباب والأوطان والأموال، سواء أكانت الهجرة في وقت النبي ﷺ، أم في زماننا، أم غيره، فكل من انطبق عليه الوصف، ممن اضطُهد في بلده، ولم يتمكن من العبادة فيه؛ لعدم وجود مساجد مفتوحة مثلًا، أو لقي الأذى الشديد بسبب الطاعة، ففارقوا الأهل والأحباب ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ وأموالهم فتركوا أوطانهم وفرُّوا بدينهم ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ جاهدوا واستشهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ فأستُرُها عليهم في الآخرة، كما سترتُها عليهم في الدنيا، ولا أحاسبهم عليها ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها: أنهار اللَّبن، وأنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار الماء الذي لم يتغير، مكافأة وثوابًا من الله تعالى، فضلًا وكرمًا منه سبحانه، والله عنده حسن الثواب.

قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر أيكفِّرُ الله عنِّي خطاياي؟ قال: **«نعم»**، ثم قال: **«كيف قلت؟»** فأعاد عليه ما قال، فقال: **«إلا الدَّيْن، قاله لي جبريل آنفًا»**[1].

أي: يكفر الله عنك خطاياك إن قُتلت مجاهدًا صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر (إلا الدَّيْن) فإن حق العباد لا يغفر إلا بالوفاء به أو الاستحلال منه، هكذا قال جبريل للنبي ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ثُلَّة تدخل الجنة، لَفقراءُ المهاجرين الذين تُتقى بهم المكاره، إذا أُمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كان لرجل منهم حاجة إلى السلطان، لم تُقض حتى يموت وهي في**

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الإمارة (٦/٣٧) عن أبي قتادة برقم: (١٨٨٥) والترمذي (١٧١٢) و«المسند» (٢٢٥٤٢) وابن حبان (٤٦٥٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٣٥٠) وعن أبي هريرة في «المسند» (٨٠٧٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٣٤٨).

صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أيْ عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقُتِلوا، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة، فيسجدون، ويقولون: ربنا نحن نسبح الليل والنهار، ونقدس لك، مَن هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب جَلَّ ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل الملائكة عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾[١] [الرعد: ٣٤].

وفي الأثر عن شداد بن أوس قال: أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب، فليحمد الله، وإذا نزل به شيء مما يكره، فليصبر وليحتسب؛ فإن الله عنده حسن الثواب[٢].

الْمُؤْمِنُ لَا يَغْتَرُّ بِمَتَاعِ الْكَافِرِ

١٩٦، ١٩٧- ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ[٣] تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾

وبعد أن بيَّن القرآن، المنهج الرباني للمجتمع المسلم، المتمثل في التوجه إلى الله تعالى، والإكثار من ذكره سبحانه، والتدبر والتأمل في ملكوت الله، لقوة اليقين وثبات العقيدة، بعد ذلك عرَّج ﷻ على فتنة المال والمتاع المتاحة للكفار والعصاة؛ لئلا يُفتن بها المؤمن ويغتر؛ لأن ما أعده الله له في الآخرة خير وأبقى، فقد كان المشركون في رخاء ولين من العيش يتَّجرون ويتنعَّمون، فقال بعض المؤمنين: أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجوع والجهد، فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦﴾[٤] وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٦١﴾ [القصص].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٧١) وأحمد في «المسند» (١٠/ ١٠٣) وهو حديث صحيح برقم: (٦٥٧١) والبزار ورجالهم ثقات، والطبراني، قال الهيثمي في المجمع: (١٠/ ٢٥٩) ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عشانة وهو ثقة والبيهقي في الشعب (٤٢٥٩)

(٢) هو موقوف على شداد في الأصح، وقد أورده ابن أبي حاتم.

(٣) قرأ رويس (لا يغرنك) بسكون النون مخففة وهي نون توكيد خفيفة، وقرأ الباقون بفتح النون مشددة.

(٤) «زاد المسير» (١/ ٥٣١)

لقد كان المسلمون ولا يزال بعضهم في فقر وشدة وبلاء، والكفار ينعمون برغَد في العيش وسعة في الرزق.

والله سبحانه يسلِّي المسلمين ويواسيهم ويصبِّرهم ويبيِّن لهم الحكمة و العلة في ذلك، فلا تظن أن إغداق الله وتوسعته على الكفار هو بمقتضى رضى الله عنهم، وإنما الله سبحانه قد سخط عليهم فأعطاهم حظهم في الدنيا كاملًا، وللمؤمنين الجزاء الأوفى يوم القيامة.

فلا تغتر - أيها المسلم - بكثرة متاع الكافر، وبسعة رزقه وكثرة ماله، قال تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤]. وقال سبحانه: ﴿مَتَـٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس]

وقال أيضًا: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق].

لا تغترَّ بتجارتهم وبأرباحهم وسعة أرزاقهم، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فعمَّا قليل يزول هذا كله، ويُصْبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان] ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون قليلا ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ مستقرهم ومسكنهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ يعذبون فيها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفراش والمصير إلى النار.

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ رِضْوَانٍ

١٩٨- ﴿لَـٰكِنِ[١] ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

وإذا كان هذا هو شأن الكافرين، فما شأن المتقين؟ دخل عمر على رسول الله ﷺ وقد أثَّر الحصير في جنبه من النوم، ووسادة من ليف تحت رأسه، فبكى عمر ﷺ، قال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» قال: يا رسول الله، كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله، فقال ﷺ: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[٢].

---

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد نون (لكن) مع فتحها، وقرأ الباقون بنون ساكنة مخففة مع تحريكها وصلا بالكسر تخلصا من التقاء الساكنين.

(٢) يُنظَر الحديث في الصحيحين، البخاري (٨٩، ٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ استدراك لمن خاف ربه، وامتثل أمره واجتنب نهيه، فقد أعد الله جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ومنزلة دائمة عند الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حُسن منزلة ومكانة وإكرام مكافأة لهم على طاعتهم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ خير لأهل الطاعة مما يتقلب فيه الكافر في الدنيا من نعيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الإنفطار].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان].

ولو أن المؤمن كان - وهو في الدنيا - في بؤس وشقاء، وشدة وعناء، لكان هذا بالنسبة إلى نعيم الجنة وسرورها وبهجتها، شيء يسير، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وهم الذين برَّت قلوبهم وأقوالهم، وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم، من بره أجرا عظيما، وعطاء جسيمًا.

قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ

١٩٩- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

بين سبحانه أن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله ورسله وكتبه، يخشعون لجلاله ويخضعون لعظمته، لا يكتمون ما أنزل الله في كتبهم من صفات محمد ﷺ، ولا يرتشون، ولا يبيعون أخراهم بدنياهم، وهؤلاء يثيبهم الله على إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام ويثيبهم مرة أخرى على إيمانهم بمحمد ﷺ وما وعدهم الله به سوف ينالُوه في وقت قريب هو يوم الحساب، فلا يستبطئوه، فهو آت لا محالة.

هذا: ولما مات النجاشي نعاه جبريل إلى النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فطلب من أصحابه أن يُصَلُّوا عليه، فخرج إلى البقيع وصلى عليه، فكبر أربع تكبيرات، واستغفر له.

ولما صلى النبي ﷺ على النجاشي، قال بعض المنافقين: يصلِّي على عِلْج حبشي نصراني، مات في غير أرضه، وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب لما قرأ سورة مريم على النجاشي مَلِك الحبشة وعنده البطارقة والقساوسة بكى، وبكوا معه حتى

أخضلوا لحاهم(١).

وكان جبريل قد نعى النجاشي لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، وكشف له من المدينة إلى الحبشة فأبصر سرير النجاشي وهو يصلي عليه(٢).

وصلاة الغائب تكون في مثل هذه الحالة على الحاكم المسلم الذي لم يُصلَّ عليه في مكانه وتكون أيضًا على العالم العامل بعلمه، وعلى المسلم الذي مات بأرض الكفار ولم يُصلَّ عليه فيها، فإنه يصلَّى عليه في بلاد المسلمين، قياسًا على صلاة النبي ﷺ على النجاشي، وفي غير ذلك لا تُشرع صلاة الغائب عليه.

فأنزل الله سبحانه هذه الآية في النجاشي وفي عبد الله بن سلام، وغيرهما من كل من دخل في الإسلام من أهل الكتاب.

وهذا استثناء من الكفار الذين قال الله عنهم ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اليهود والنصارى ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والرسول ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنهم آمنوا بعيسى قبل محمد، أو بموسى قبل عيسى، أو آمنوا بمحمد وبعيسى قبله بالنسبة لليهود.

فإن آمنوا بالرسول الخاتم بعد إيمانهم بمن قبله من الرسل، فإن الله يعطيهم أجرهم مرتين ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]. لإيمانهم بالرسول الأول، ثم لما عاصروا الرسول الثاني وأدركوه آمنوا به أيضًا، فضاعف الله أجرهم لذلك.

سئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ وبالذي اتبعوا محمدًا ﷺ(٣).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٧) ويُنظَر قصة الصلاة عليه في الصحيحين وغيرهما، فتح الباري (٧/ ٢٣٠) ومسلم (٢/ ٦٥٧).

(٢) الواحدي (١١٨) والسيوطي (٦٥) والقرطبي (٤/ ٣٢٢) و«زاد المسير» (١/ ٥٣٢).

(٣) الطبري (٧/ ٤٩٩).

إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]. لأنهم ليسوا كغيرهم، فهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يكتمون صفة محمد ﷺ ولا يبيعون الآخرة بالدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقيل: إن الآية نزلت في أربعين رجلًا من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى، فآمنوا بمحمد ﷺ وصدقوه.

وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام.

والأصح أنها نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب[١].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة يؤتون أجرهم، مرتين»**، فذكر منهم: **«ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي»**[٢].

فالآية تخبر عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وهم لا يكتمون ما لديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ومبعثه، وصفة أمته.

وهذه الصفات توجد في اليهود قليلًا؛ كهؤلاء الذين أسلموا منهم، وهم لم يبلغوا العشرة في زمن النبي ﷺ وتوجد أكثر من ذلك فيمن أسلم من النصارى ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد وصف الله تعالى أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام **بخمس صفات** تدل على صفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم، إنصافًا لمن اهتدى منهم، وترك طريق الضلال.

---

(١) «تفسير الخازن» للآية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم: (٩٧، ٢٥٤٤، ٥٠٨٣) و«صحيح مسلم» برقم: (١٥٤) وفي «المسند» برقم: (١٠٦٠٢، ١٩٦٣٤).

وهذه الصفات هي أنهم:

أولًا: يؤمنون بالله تعالى إيمانًا حقًا ظاهرًا وباطنًا، لا يشوبه شك ولا شرك ولا رياء ولا نفاق.

ثانيًا: أنهم يؤمنون بما أنزل إليكم، وهو القرآن الذي نزل على نبيكم محمد ﷺ.

ثالثًا: أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، وأنهما قد نُسخا بالرسالة الخاتمة.

رابعًا: أنهم خاضعون لله، خائفون من عذابه، طالبون لرضاه.

خامسًا: أنهم لا يبيعون آيات الله، ولا حقيقة من حقائق الإسلام، نظير عَرَض من أعراض الدنيا، ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

وهكذا قال القرآن عنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف].

ومعنى الآية: وإن بعضًا من أهل الكتاب ليوقن بالله ربًّا واحدًا وإلهًا معبودًا، وبما أنزل إليكم من هذا القرآن، وبما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، متذللين لله، خاضعين له، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا، ولا يكتمون ما أنزل الله، ولا يحرفونه كغيرهم من أهل الكتاب، أولئك لهم ثواب عظيم عنده يوم يلقونه، فيوفيهم إياه غير منقوص إن الله سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها[1].

أَرْبَعُ وَصَايَا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي خِتَامِ السُّورَةِ

٢٠٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

في هذه الآية حضٌّ للمؤمنين على ما يوصلهم إلى سعادة الداريْن، وأن الطريق الموصل إلى هذه السعادة هو حبس النفس على ما تكره من ترك المعاصي، والصبر على المصائب، وعلى الأوامر والنواهي، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال، وحفظ الحدود والثغور من العدوّ، وتقوى الله تعالى في السر والعلن، ففي هذا الفوز والفلاح والسعادة الأبدية.

---

(١) التفسير الميسر نخبة من العلماء.

وختم الله سبحانه سورة آل عمران بهذه الآية الجامعة التي اشتملت على أربع وصايا للمؤمنين وهي: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله:

١- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ هذا أمر للمؤمنين أن يصبروا على فعل الطاعات وترك المعاصي وما ينزل بكم من ضر وبلاء، ويصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يتركوه لسراء ولا لضراء، ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين.

٢- ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ المصابرة وهي المغالبة بالصبر، بأن يكون المؤمن أشد صبرًا من عدوه ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أعداءكم في لقائهم والثبات في مواجهتهم.

٣- ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أي: لازموا الثغور، واحموا الحدود، وأقيموا على جهاد عدوِّي وعدوكم، فإن: **«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»**(١).

و**«موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»**.

و**«الغدوة أو الروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»**.

و**« عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»**(٢).

« وكل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»(٣) أي: أن أجر عمله يسري له بعد موته حتى يبعث يوم القيامة.

وعن سلمان الفارسي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جَرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجرِي عليه رزقه، وأَمِنَ مِنَ الفتَّان»**(٤).

وكانت المرابطة معروفة في الجاهلية لحراسة الجهات التي يستطيع العدو الوصول فيها.

وكان المسلمون يرابطون فيما بعد في ثغور بلاد فارس والشام والأندلس.

---

(١) من حديث سهل بن سعد في البخاري برقم: (٢٨٩٢) ومسلم (١٨٨١) والترمذي (١٦٦٤) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس (١٦٣٩).

(٣) أخرجه أحمد عن فضالة بن عبيد، «المسند» (٦/ ٢٠) (٢٣٧٢٧) ومسلم (١٩١٣) وأبو داود برقم: (٢٥٠٠) والترمذي برقم: (١٦٢١) وابن حبان في الإحسان برقم: (٦٩١٧) والنسائي (٣١٦٧) والطبراني (٦١٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم: (١٩١٣).

ولما اتسع سلطان الإسلام، امتد الرباط إلى ثغور البحار، فالرباط نوع من الجهاد في سبيل الله. أما المرابطة في الصلاة فهي على التشبيه بحراسة الحدود، كما قال ابن عطية.

ومن المرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة، وملازمة مكان الاعتكاف بالمسجد.

قال ﷺ: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»** قلنا: بلى يا رسول الله. قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»**[1] وهذا على التشبيه بالمرابطة لحماية البلاد من العدو.

٤- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ خافوا الله في جميع أحوالكم، رجاء أن تفوزوا برضاه في الدنيا والآخرة، واتقوا الله لعلكم تفلحون غدًا إذا لقيتم ربكم، وفي الحديث: **«اتق الله حيثما كنت...»**[2].

تم تفسير (سورة آل عمران) ولله الحمد والمنة.



(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (١/ ٢١٩) برقم: (٢٥١) والنسائي (١/ ٨٩) وفي «السنن الكبرى» برقم: (١٣٩) ومالك في الموطأ برقم: (٥٥) والترمذي (٥١، ٥٢) وعبد الرزاق (١٩٩٣) وأحمد (٧٢٠٩، ٩٦٤٤).

(٢) من حديث أبي ذر ومعاذ بن جبل في «سنن الترمذي» (١٩٨٧) بإسناد حسن صحيح، وفي المسند عن معاذ (٢٢٠٥٩) وعن أبي ذر (٢١٥٣٦) وقد سبق ذكره وتخريجه.

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة